أبو فهر
محمود محمد شاكر

أباطيل وأسمار

الجزءان، الأول والثاني

هل صح قول من الحاكي فنقبله.
أم كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب.
والعقل غرس له بالصدق إثمار
شيخ المعرة

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

محمود محمد شاكر

أباطيل وأسمار

الجزءان، الأول والثاني

هل صح قول من الحاكي فنقبله،
أم كل ذاك أباطيل وأسمار؟
أما العقول فآلت أنه كذب،
والعقل غرس له بالصدق إثمار

"شيخ المعرة"

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وصلى الله على عبده ورسوله محمد، وعلى أبويه إبرهيم وإسمعيل وعلى سائر أنبيائه ورسله، وسلم تسليمًا كثيرًا.



رسالة الكتاب

وَيَقُولُ دَارِى ، مَنْ يَقُولُ ، وَأَعْبُدِى ! مَهْ ، فَالعَبِيدُ لِرَبِّنَا والدَّارُ ! (*)
يَا إِنْسَ ، كَمْ يَرِدُ الحَيَاةَ مَعَاشِرٌ ، وَيَكُونُ مِنْ تَلَفٍ لَهُمْ إِصْدارُ !
أَتَرُومُ مِنْ زَمَنٍ وَفَاءَ مُرْضِيًا ؟ إِنَّ الزَّمَانَ ، كَأَهْلِهِ ، غَدَّارُ !
تَقِفُونَ ، وَالفَلَكُ المُسَخَّرُ دَائِرٌ ! وتُقَدِّرُونَ ، فَتَضْحَكُ الأَقْدَارُ !

« شيخ المعرة »

حين شرعتُ فى كتابة هذه الفُصول (سنة ١٣٨٤ هـ ، سنة ١٩٦٤ م) ، كنتُ قد قدَّرتُ لها مقادِيرَ ، ونَهَجْتُ لها نَهْجًا مُسْتَبِيًّا ، ظننتُ أَنِّى ، بعَوْن الله ، قادرٌ على أن أمشِىَ فيه وفى درُوبه أتهادَى ، لا يَذْعَرُنى شىءٌ حتى أبلُغَ نهايته . ولكن شاء الله غيرَ ما شئتُ ، وقدَّر غيرَ ما قدَّرتُ ، وخابت ظُنُونى ، واخْتُطِفْتُ عن السَّيْر فى أوائله ، فَدَعْ عنك بلوغَ نِهايته ....

ثمّ كان ما كان ....

ولهذه الفصولِ غرَضٌ واحدٌ ، وإن تشعَّبتِ إليه الطُّرُق . وهذا الغرضُ هو ما قلتُ للأخ الصديق الأستاذ « محمد عودة » [ص : ٣٩٨] : « هو الدفاعُ عن أمّةٍ برُمَّتها ، هى أمتى العربيّة الإسلامية . وجعلتُ طريقى أن أهْتِك الأستارَ المُسْدَلَةَ التى عَمِل من ورائها رجالٌ فيما خَلَا من الزَّمَان ، ورجالٌ آخَرون قد وَرِثوهُمْ فى زماننا . وهمُّهم جميعًا كان : أن يحقِّقوا للثقافة الغربيّة الوثنيّة كُلَّ الغَلَبَةِ على عقولنا ، وعلى مجتمعنا ، وعَلَى حياتنا ، وعلى ثقافتنا ، وبهذه الغَلَبة يتمُّ انهيارُ الكيان العظيم الذى بناهُ آباؤنا فى قرون متطاولةٍ ، وصحَّحوا به فسادَ الحياةِ البشرية فى نواحيها الإنسانية ، والأَدبيّة ، والأخلاقية ، والعمليَّة ، والعِلْميّة ، والفكريّة ، وردُّوهَا إلى طريق مُسْتقيمٍ . عَلم ذلك مَنْ عَلِمه ، وجَهِله مَنْ جَهِلَه » .

وكان ممَّا قدَّر اللهُ أن أفتح عينيَّ على ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، وعلى دارٍ تموج

(*) « مه » ، استنكار ، وزجر ، وأمر بالسكوت = و« يا إنس » ، ترخيم « يا إنسان » .

بالثُّوَّار ، فعقلت من الأمر يومئذٍ ما عقَلْتُ ، ورأيتُ بعينى رجالًا ، وسَمِعت بأذنىّ آراءً ، ورضيت بقلبى أو سخِطت ، وأعانتنى فِطْرتى بضَرْبٍ من التَّمييز ، كان يرُجُّ نفسى رجًّا شديدًا ، وأنا بعدُ فى غضَارة الصِّبا . ولم أكدْ حتى انطلقتُ أجوبُ مجتمعًا يفُورُ بالمتناقضات ، ويتشقَّقُ بالصراع المُرّ فى ميادين مختلفة : من الدين ، إلى العلم ، إلى الأدب ، إلى الفنّ ، إلى السياسة ، إلى السُّنن الموروثة = فخُضْتُ مِحْنَة زَمانى ، فى أوَّل نَشْأتى ، بنفسٍ غَضَّة مُجرَّحَةٍ بالتجاربِ . ومضت بى الأيَّامُ ، وأثْخنتنى التجاربُ ، وهلك رجالٌ ، ونشأتْ رجالٌ ، فرأيتُ وسمعت ، وَرضِيتُ وسَخِطتُ ، وعلمتُ من أسرار الصِّراع ما لم أكنْ أعلمُ .

فصارَ حَقًّا علىّ واجبًا أن لا أتلجلجَ ، أو أُحْجِمَ ، أو أُجَمْجِمَ ، أو أُدارِىَ ، ما دمتُ قد نَصَبتُ نفسى للدفاعِ عن أُمَّتى ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا = وصار حقًّا علىّ واجبًا أنْ أَستخلص تجاربَ خمسين سنة من عُمُرى ، قَضَّيتُها قلقًا حائرًا ، أصارعُ فى نفسى آثارَ عدوّ خَفِىٍّ شديد النكاية ، لم يَلْفِتْنى عن هَوْل صراعِه شىءٌ ، منذ استحكمت قُوَّتى ، واستنارت بَصيرتى ، ومنذ استطعتُ أن أهتِكَ السِّتْر عن هذا العدوّ الماكر الخبيث = ثم صار حقًّا علىّ واجبًا أن لا أعرِّجَ على بُنَيَّاتِ الطريق ، إلا بعد أن أجعل الطريقَ الأعظمَ الذى تشَعَّبتْ منه ، واضحًا لاَحِبًا مُستبينًا = ثم صار حقًّا علىّ واجبًا أن لا آلُوَ جُهْدًا فى الكشفِ عن حقيقة هذا العدوّ ، وعن حقيقة الصراع الذى عانيتُه وَحْدِى على وَجْهٍ من الوُجوه ، والذى عانيتهُ مَعَ أُمَّتى العربيّة والإسلامية على وُجوهٍ أُخَر .

* * *

وقد سِرتُ فى هذه الفصول المتشَعِّبة المعانى سِيرَةً واحدةً ، فضَمَّنتُ جميعَها بَابًا أو أبوابًا من النَّظر إلى حقيقة الصِّراعِ الذى دار ، ولم يزل يدورُ على أرضنا ، وفى عقولنا ، وفى ضمير أنفسِنا . وأشرتُ فى مواضع كثيرة إلى أنّ هذا الصراعَ صراعٌ بين حضارتين مختلفتين فى جُذُورهما أشدَّ اختلافٍ : حضارةٍ طالَ عليها الزَّمَنُ فَغَفَتْ غَفْوَةَ آمنٍ مستريحٍ لا يفزِّعُه شىء = وحضارةٍ واتاها الزَّمنُ فهَبّتْ يقظةً مُتلفّتةً جريئة ، لا تأمن أحدًا ولا تطمئن إليه ، فلمّا بَدَرتْ بوادرُ الصِّراعِ ، قامت « الغافية » تتمطّى ،

وتطرُد الفتورَ عَنْ أعضائها ومفاصِلها ، وتمسَحُ النُّعاسَ اللذيذ عن وجهها ، غافِلةً لا يفارقُها شعورها القديم بالأمْنِ والاطمئنان = أمّا « اليَقِظة » فهبّت حَذِرةً ، تراقبُ ، وتتحسَّس ، وتَطُوفُ ، وتتأهَّبُ للسطْو على هذه « الغافية » ، باغيةً لا يفارقها شعورُها الجديد اللذيذُ بالقوةِ والبَطْش والضَّرَاوة ، وبحبِّ الغلبة وبَسْط السُّلطان . وبدأ الصِّراعُ جَسًّا بأطراف الأسنّة ، وَدسًّا بأسباب التجارة ، وشيئًا فشيئًا ، جاءت « الجيوش » واستفحلت « التجارة » ، وجاء معهما أو سبقهما طوائف « المبشّرين » . لم يكونوا طائفة من الدُّعاة إلى الديانة فحسبُ ، بل كانوا طوائفَ لكلٍ منها صِفَةٌ ووسْمٌ تمشى به فى الناس ، تأخذُهم من غفلاتِهم قبل أن يفيقُوا . وأطبقتْ على رقعة العالم العربى والعالم الإسلامىّ ضبابَةٌ كثيفة ، ووَطِئ عليها تاريخٌ طويلٌ يسْحقُ القُوَى وينسِفُها نسْفًا .... وكانت قِصَّةٌ طويلةٌ متمادِيةٌ ، تقطر دَمًا وغَدْرًا وخيانة ، وترشَحُ مَكْرًا وخُبْثًا وخِسّةً وفَظَاظة .....

* * *

فهذه الفُصول التى كتبتُها ، ترفع اللِّثامَ عَنْ شىءٍ من هذه القِصَّةِ التى تجرى أحداثُها فى أخطر ميدانٍ من ميادين هذا الصِّراع ، وهو ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » جميعًا . ويزيدُه خطَرًا : أن الذين توَلّوا كِبْر هذا الصراع ، والذين وَرِثُوهم من خلفهم ، إنما هم رجالٌ منّا ، من بنى جلدتنا ، من أنفُسِنا ، ينطقون بلساننا ، وينظرون بأعيننا ، ويسيرُون بيننا آمنين ، بميثاق الأُخُوَةِ فى الأرضِ ، أو فى الدِّين ، أو فى اللغة ، أو فى الجنسِ .

ويزيدُ الأمرَ بَشَاعَةً : أن الذين هم هدفٌ للتدمير والتمزيق والنَّسْف ، لا يكادون يتوهَّمون أنَّ ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » هو أخطر ميادين هذه الحرب الخسيسة الدائرة على أرضنا من مَشْرِق الشمس إلى مَغْرِبها = ولا أنَّ معارك « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » متراحبَةٌ لا تُحدُّ بحدود = ولا أنّ أكثرها يأتى موقَّتًا توقيتًا دقيقًا : إمّا قُبَيل حركات النهضة والإحياء ، وإمّا معها ، وإمّا فى أعقابها = ولا أنَّ الأمر صار أخطر ممّا كان منذ سبعين سنة = ولا أنَّ هذه « المعارك » ليست فى حقيقتها « أدبية » أو « ثقافية » أو « فكرية » ، بل هى معارك « سياسيةٌ » ، تتخذ

« الثقافة » و « الأدبَ » و « الفكر » سلاحًا ناسفًا لقوى متجمِّعة ، أو لقُوًى هى فى طريقها إلى التجمُّع = ولا أنَّ أمضى سلاح فى يد عدوّنا هو « سلاح الكلمة » الذى يحملُه رجالٌ من أنفُسِنا ، ينبثُّون فى كُلّ ناحية ، ويعملون فى كلِّ ميدان ، وينفثون سُمُومهم بكُلّ سبيل = ولا أنَّ بعض هؤلاء الرجال يأتون ما يأتون عن عِلْمٍ ، وبعضهم قد أُخِذَ من غفلتِه ، فهو مَاضٍ فى طريقه على غير بيِّنة .

وقد اتَّفق اتّفاقًا أن يكون أكثر ما طُوِيتْ عليه هذه الفصول ، كشفًا عن حقيقة إنسان من أهل زماننا ، ممَّنْ يأتى ما يأتى عن علمٍ وعلى بيِّنةٍ ، وقد مَهَّدتْ له الطريقَ قُوًى من وراء ستارٍ ، ظَلَّتْ تحوطُه وترعاهُ ، حتى انتهى إلى أن تصدَّرَ فجأةً ، وأصبَحَ قادرًا على أداء مُهمّته فى هذه الحرب الدائرة ، آمنًا من كُلِّ رَيْبٍ ، مُعَانًا على تحقيق أهدافِ عدوِّنا فى أوسع صحفنا انتشارًا وأعظمها أثرًا ، وبين أعظم قُوَانا العاملة الواعدةِ ، وهى شبابُ هذه الأمة ، فخُدِعَ به من خُدِع . وقد اتَّخذَ « شيخَ المعرّةِ » ، فى بعض ما يكتب ، وسيلةً لبثّ أفكار كثيرةٍ تحت عَجَاج من التعالُم والتنفّخ بالمنهج وغير المنهج ، فأعاننى ما كتبَهُ على الكشف عن حقيقة الصراع الدائر بين حضارتنا وحضارة عدوّنا ، وأعاننى أيضًا على الكشف عن جَهْله بهذه العربية التى يكتب الآن بها ، وقد كان لها كارهًا ، وعلى حربها حريصًا فيما سلفَ من أيّامه . ثم أعاننى مرةً أخرى على الكشف عن كُلِّ ما يتنبّل به من معرفة بالإنجليزية واليونانية ، فأثبتُّ بالبرهان أنه فاقدٌ للحسّ الأدَبى ، فى ترجمة « الضفادع » لأرسطوفان ، [1] وأنه يدلّسُ على الناس ، على مذهب جماعة « المبشّرين » الذين حاطوه ورَعَوْهُ من وراء ستارٍ حتى بلغ ما بلغ ، مستعينين على ذلك بغَفْلتنا عن حقيقة الصراع فى ميادين « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » .

ونَعَمْ ، إنّ هذه الفصول ، قد تخلَّلها كشفٌ عن جماعةٍ آخرين ممن اتخذوا « الصحافة » أو « التأليف » فى زماننا ، ستارًا لبثّ ما يريدُه عدوّنا فى ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » ، ولكننى كنت قد عَقَدتُ النيّة على أن أُتابعَ السَّيْر ، بعد أن

(١) انظر الفصل رقم : ٢٥ من هذه الفصول ص : ٤٤٥ - ٤٦٦ .

أفرُغَ من هذا الدعيّ ، فأكشف الستارَ عن رجالٍ كان لهُمْ أثرٌ فى تحطيم قُوَى الأمة العربية الإسلامية ونَسْفِها ، ومنزلة كُلٍّ منهم فى إحدى الفئتين : فئة مَنْ يأتى مَا يأتى عن علم ، وفئة مَنْ أُخِذ من غَفلته ومضَى فى الطريق على غير بيِّنةٍ ، ولكن حَلَّ بى ما فَسَخَ هذه النيَّةَ ، وأنا غيرُ مريدٍ لفَسْخِها . ولكن هكذا كان ، ولله الأمر مِنْ قبلُ ومن بعدُ !

وعَسَى أن يأذَن الله فيما بقى من العُمُر ، أن أتابع كتابة تلك الفصول التى فَسَخَ القَهْرُ نِيَّتى فى كتابتها ، فإنَّ الأمر لن يستقيم لنا ، حتى نُعِيد دراسة الفئتين جميعًا ، والكشف عن حقيقة آرائهم : كيف كانت ؟ ولمَ جاءت ؟ ومتَى أذيعتْ ؟ وإلى أىّ مكانٍ تنتمِى ؟ ولن تُغْنِى هذه الدراسة فتيلًا ، إذا غرَّنا عن مواطئ أقدامنا ، ما يذكُرُون به فى الناس من تمجيد وثناء ، أو ما نالُوا فى حياتهم مِنْ توقير وتعظيم ، أو ما بلغوا فينا من منزلة القيادة الفكرية والثقافية ، فإنّ أكثرَ ذلك كُله تدليسٌ دَلَّستْهُ على جماهيرنا غَفْلتُها حينًا ، وجَهْلها حينًا آخر . ونسأل الله أن لا نَضِيع بين الغفلة والجَهْل ، وأن يسدّدَ خُطَانا وخُطَى أمتنا إلى غاية مرموقة ، يعينُ على بلوغها تُرَاثٌ من الثقافة والأدب والفكر ، لو كان لعدوِّنا مِثْله ، لَمَا لَجأ إلى أبشَع وَسَائِل التدمير والنَّسفِ ، حتى يتركَنَا أمَّةً عاجزةً جاهلةً تخرُّ على آثار قدميه خاضعة ، تصف نفسها بألفاظٍ كثيرةٍ تُدَار على أسماءِ صِغارنا وكِبارنا بالليل والنهار ، كالتخلُّف ، والتعصُّبِ ، والرجعيَّة .

اللَّهُم اهدِنا فيمن هَدَيت ، وتولَّنَا فيمن توليت ، وقِنَا شرَّ ما قضيت ، إنَّكَ تَقْضِى ولا يُقْضَى عليك ، لا يَذِلُّ من والَيْتَ ، ولا يَعزُّ مَنْ عاديْتَ ، سُبحانك لا شريكَ لك فى مُلْكك .

محمود محمد شاكر

مصر الجديدة

شارع الشيخ حسين المرصفى رقم ٣

١٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩١

٤ يناير سنة ١٩٧٢



أباطيلُ وأسمارُ



هَلْ صَحَّ قَوْلٌ مِنَ الحَاكِي فَنَقْبَلَهُ،

أَمْ كُلُّ ذَاكَ أَبَاطِيلٌ وَأَسْمَارُ؟

أَمَّا العُقُولُ فَآلَتْ أَنَّهُ كَذِبٌ،

وَالعَقْلُ غَرْسٌ لَهُ بِالصِّدْقِ إِثْمَارُ

"شَيْخُ المَعَرَّة"

عَرضُ الكِتابُ

السبت ١٢ صفر ١٣٨٥

وبعدُ ، فقد قَضَيتُ دهْرًا أحملُ القلم وأكتب ، ولكنى ظَلِلْتُ أكره أن أنشُر على الناسِ شيئًا قد قرأوه من قبلُ فى صحيفَةٍ أو مجلةٍ ، حتى إذا كان ما كتبتُه فى مجلة الرسالة منذ يوم الخميس ٢٢ رجب سنة ١٣٨٤ ، وجدت إلحاحًا شديدًا على جمع ما نُشِر وإخراجِه فى كتاب . وكانت حُجَّةُ أصحابنا قاهرةً لحُجّتى ، ومُزيلةً لما أصْررتُ عليه من إلْفِى . وعَسَى أن أكون أخطأتُ الطريق حين أَلِفْتُ ما أَلِفْتُ ، وخِفْتُ أن أكون كتمتُ علمًا يَسَّره الله لى عن طالبِ علمٍ . ففى كل يومٍ ينشأ فى الناسِ طالب علمٍ لم يُدْرِكْ زمانُه ما كتبتُ ، وعسيرٌ عليه أن يلتمسه مع تفرُّقه فى الصحف والمجلات . فمن أجل ذلك لم أجد بُدًّا من الاستجابة لأصحابنا ، راضيًا عنهم ، لائمًا لنفسى ، معتذِرًا عمّا فرطَ مِنّى ، مستعينًا بحول الله وقوّته على تحقيق ظنّهم فِىّ ، بارئًا إليه سبحانه من كُلِّ حولٍ وقوةٍ .

وقد بدأتُ أكتب هذه الكلمات بعدَ عُزْلَةٍ ارتضيتُها لنفسى منذ سنين ، لأَنّى خشيتُ أن لا أقوم بحقّ القلم علىّ ، وبحقّ الناسِ عليه ، فوجئتُ بأشياء كنتُ أُراها هيّنَةً لا خَطَر لها ، فاستبان لى بعد قليل من مذاكرةِ أصحابى أن الأمرَ أهولُ ممّا ظننتُ ، فمن أجل ذلك فارقتُ عُزْلتى ، وبدأتُ حريصًا على أنْ لا أخونَ حقَّ القَلَم علىّ ، ولا حقّ الناس عليه .

ونعم ، لم أكن غافلًا عمّا يجرى من حولى ، بل كنتُ مصروفًا عن متابعة بعض الحوادثِ والنوابت ، وعن تعليقها بأسبابها ، وعن إتباعها بنتائجها ، إذ كنتُ ٱمْرَءًا مَلُولًا ، وهو ممّا قضَى الله أن أكونه ، يُسْرِع إلىّ المَلَلُ فأطرحُ شيئًا كثيرًا أعلمُ عن أصحابه من السُّخفِ ما أعلمُ ، فلا أقرأه ولا ألقى إليه بالًا . فمن ذلك ما كان يكتبه « أجاكس عوض » ، الذى كان يُعْرَف ، فيما غَبَر ، باسم « لويس عوض » .

كان من سَوَالِف الأَقْضِيَة أنْ كتبَ الله علىَّ يومًا مَا : أن أقرأ له شيئًا سمّاه « بلوتولند ، وقصائد أخرى » ، وكتب تحته « من شعر الخاصة » ، وأهداه : إلى « كريستوفر سكيف » ، وذلك فى ١٩٤٧ من الميلاد . ولما كنت أعلمُ خَبْءَ « سكيف » هذا ، وأنّه كان أستاذًا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وأنه كان جاسوسًا محترِفًا فى وزارة الاستعمار البريطانية ، وأنه أيضًا مبشِّرًا ثقافيًّا شديدَ الصفاقة سَيِّئَ الأدب ، وأنّه كان ماكرًا خبيثًا خسيسَ الطِّباع ، وأنه كان يفرّق بين طلبة القسم الإنجليزى فى الجامعة : يمدُّ يدًا إلى هذا ، لأنّه تابعٌ له حاطبٌ فى هواه ، وينفضُ يده من ذاك ، لأنه يعتصم ببعض ما يعتصم به المخلصون لدينهم ووطنهم ، حَمِيَّةً وأَنَفَةً ، واستنكافًا أن يَضَع فى عُنُقه غُلا للسيادة البريطانية ، وللثقافة التبشيرية المسيحية . وكنتُ أعلمُ فوق ذلك ، أنه « شرلتانٌ » عَرِيض الدعْوَى ، لا يستحقُّ أن يكون أستاذًا فى جامعة ، ولكن سيادة بريطانيا كانت يومئذٍ هى الغالبةَ ، وكانت كلمتها هى النافذةَ ، فأصبح سِرّ « أجاكس عوض » مفضوحًا عندى ، بإهدائه « بلوتولند ، وقصائد أخرى » ، إلى هذا الجاسوس المحترف ، والمبشّر الثقافىّ الصفيق ، والشرلتان الذى صار أستاذًا فى الجامعة ، « كريستوفر سكيف » !

لم يمنعنى ذلك من الإقدام على قراءة الكتاب ، فإذا أوّله هذا العنوان : « حطِّموا عمودَ الشعر » ! وتحته مباشرة هذا الكلام : « لقد مات الشعر « العربى » ، مات عام ١٩٣٣ ، مات بموت أحمد شوقى ، ماتَ مِيتَة الأَبَدِ ، مات » ! فتوقَّفتُ دهشةً ، ولم يخامرنى شكٌّ فى أن كاتبَ هذا داخِلٌ فيما يسميه الأطباء : « مانيا هلُّو سيناتوريا » ، وهو الهذيان والوسوسة واختلاطُ العقل . وقلت : « حالة لُطْفٍ » ! ومضيت أقرأ هذه المقدّمة مشتاقًا ، لكىْ أُسَرِّى عن نَفْسِى ، وكانت أيّامنا يومئذٍ جالبةً للغمّ . وصدقَ ظنّى ، فضحكتُ ، ولم أبالِ بما وجدت فيه من بُغْضٍ شديدٍ للعرب ، ومن حِقْدٍ آكل على دينهم وكتابهم ، ومن غرورٍ فاجرٍ وسوء أَدبٍ . ولم أعبأ بالرائحة الخبيثة التى تفوحُ من تحت ألفاظِه ، فقد كنتُ أَلِفْتُ أن أجدَ ذَفَرَها حين أَلقَى جماعات المبشّرين فى ثيابهم المختلفة [١] ، حين يستخفون فيها وحين

---

(١) « الذفر » خبث الرائحة ونتنها .

يستعلنون . وقنِعتُ بما سَرَّى عنّى الهمومَ من هذيانه ووسوسته واختلاطه ، وأنزلتُ أقوالَه وأَحقاده حيث نزل ، إذ كان يومئذٍ شيئًا مغمورًا لا يُؤْبَهُ له .

فرغتُ من المقدّمة ، وأنا أعُدّها تحفةً من التُّحَف ، لاستخراجها الضَّحِك من قَبْضة التقطيب والعبُوس ، فلمّا أفضيتُ إلى ما سمّاه « من شعر الخاصة » !! وجدتُنى قد ظفرتُ بما فوقَ المُنَى ، بتِرْيَاقٍ للهمّ عجيب ! فمن يومئذٍ خفَّ « أجاكس عوض » على قلبى جدًّا ، ورأيتُه ذَخِيرَةً تُصَانُ ، وطُرْفةً عزيزةً لا تُمْتَهن ! كُنَّا إذا ما اجتمع شمْلُ الإخوانِ ، وأطبقت علينا سَحَابةٌ من الكَدَر ، أو ضُربت علينا أَسْدادٌ من الكَرْب والحَزَن ، استخرجنا الكتابَ مِنْ مَخْبئه ، فنقضى أوقاتًا فى قراءته ، وإذا المجلسُ قد انقلب مسرَحًا لا مكان فيه للهموم والأحزان ، لاشىء سوَى الضَّحِك ، ثم الضَّحِك ، ثم الضَّحِك ، ومَحَا الضحك كلَّ ما فى الكتاب من سوء ، وصار اسم صاحبه ، بمجرَّد ذكْرِه ، اسمًا جالبًا للفرفشة ، كما تقول العامة فى مصر !

هكذا كانَ بَدْءُ أمرِهِ ! ثم كان عجبًا لى أن أرى اسمَهُ فى بعض المجلات والصحف ، فربَّما هممت أن أقرأ له الشىءَ بعد الشىءَ لأسرِّى الهمَّ عن نفْسِى ، فأضحَكُ ، ولا أملك إلاّ الضَّحِك ، حين أراهُ يتقمَّص أحيانًا قميصًا من الرَّزانة والجدّ ، ويركبُ أحيانًا أخرى مَرْكَبًا من التِّيه والتعالُم . وانطوت السِّنون على ذلك ، حتى إذا كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ (١٦ سبتمبر ١٩٦٤) ، أخذتْ عَيْنى اسمه مقرونًا باسم « رسالة الغفران » فى الصحيفة الأدبية لجريدة الأهرام ، فأومضتْ عينى ، ودوّمَتْ حَدَقتُها فى مَحْجِرِها ، « كما دَوَّمَتْ فِى الأرض فَلْكةُ مِغْزَلِ » ! هكذا وجدتُ من فَرْط العجب ، وغلبنى الضحك ، لولا صَرَامة شيخ المعرّةِ ، فإنّها كفَّتْنِى ، ومضيتُ أقرأ ، فإذا هو قد جرَّنِى وطافَ بى فى أطلالٍ مُوحِشة خلَّفها الماضون من اليونان ، ولكنّه على غير العهد به ، كان ثقيلاً جدًّا ، وباردًا جدًّا ، وخَذَلنى ، وأنا يومئذ من أحوج الناس إلى الترفيه عن نفسى ببعض الضحك . وجاءت جمعةٌ أخرى ، فجاءَنى بالغثاثة والغثيان فى صورة تلخيص لهوميروس فى أودسَّاه ! فندمتُ ، حين خان العَهْد فى إضحاكى ، وعزمت على أن أسقطه من حسابى ، فما الذى يحملنى على هذا البلاء الكريه ؟ وقلت لنفسى : مفرِّجُ كروبٍ عاد مَجْلبةً للغمّ ، لا حاجة لنا فيه !

وأصبح الصباحُ وجاءَت صحيفة الأهرام فى يوم الجمعة الثانى من رجب سنة ١٣٨٤ ، فبَيْنَا أنا أقلِّبُها خدعتنى عينى ، وقرأت هذا العنوان : « على هامش الغفران ، شىء من التاريخ » ، وإلى جواره ما نصّه ، مكتوبًا بالخط النسخ ، محفورًا على الزنك ، مطبوعًا على الورق ! (وسأنقله مضبوطًا كما نُشِر ، بخطئه) :

صَلِيَتْ جَمْرَةَ الهَجِير نهارًا   ثُمَّ بَاتَتْ تَغُصُّ بالصُّلْبَانِ

« سقط الزند » ، فى وصف حلب

أَعُبَّادَ المَسِيحِ يَخَافُ صَحْبِى   وَنَحْنُ عَبِيدُ مَنْ خَلَقَ المَسِيحَا ؟

« سقط الزند » ، فى الحروب الصليبية

فمن فَوْرى أيقنتُ أن المسكين قد عاودتْه « المانيا هَلُّو سيناتوريَا » وأطبقتْ عليه ، وخفَّ على قلبى جدًّا مرةً أخرى بَعْد الثِّقَل ، وعاودتنى ذكرى « بلوتولند ، وقصائد أخرى » ، وانفجر صدرى بالضحك وأنا وحدى ، وأَلقيتُ الصحيفة ، وتركتُ نفسى على سَجِيّتِها غير محتشمٍ ، وإذا « أمُّ فِهْرٍ » على رأسِى ، تنظُر إلىّ مُتعجِّبةً ، وتدعُو لى بالسلامة ، وتُعَوِّذنى بربِّ الفَلَق ، من شرّ ما خلق ، وبربّ الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شرّ الوسواسِ الخناس ، فكَفْكَفْتُ ما استشرَى من ضحكى على عَجَل ، مخافَة أن تنظر إلىّ بغير العين التى أَلِفَتْ أن ترانى بها .

ولكنّى كنتُ امرءًا نَهِمًا يأخذُه للكلام المكتوبِ سُعَارٌ ، فتناولتُ الصحيفة ، وبدأتُ أقرأ سطرًا بعد سطرٍ ، وكانَ الضحِك يشُقُّ عن حَلْقى ، ويباعِدُ بين فكّىَّ ، حتَّى فوجئتُ بشىءٍ أمسكَ علىَّ ضحِكى ، وكظَمَهُ فى بُلْعُومى ، شىءٌ سمعتُ حِسَّ دبيبِه من تحت الألفاظ ، فجعلتُ أستسْمعه ، فإذا هُوَ :

كَشِيشُ أَفْعَى أَجْمَعَتْ لِعَضِّ
فَهْىَ تَحُكُّ بَعْضَها بِبَعْضِ

وإذا أسودُ سالخٌ ، (وهو أقتلُ ما يكون من الحيّات) ، يمشِى بين الألفاظ فيُسْمَع لجلدِه حفيفٌ ، ولأنيابه جَرْشٌ ، فما زلتُ أنحدرُ مع الأسطُر والصوتُ يعلو ، يخالطه فحيحٌ ، ثم ضُبَاح ، ثم صَفِيرٌ ، ثم نُبَاح ، (وكلها من أصوات الأفاعى) ،

فألقيتُ الصحيفة مَقْتًا لهذا الصوت البغيض ، الذى انبعث فبدّدَ لَذَّتى ، وغَتَّ بيد بَشاعته حُلْقُومَ ضَحِكى !! (غتَّ حَلْقَه ، خنقه وعَصَره عصرًا شديدًا) . وفرَّج الله عنى ما لقيتُ من الكربِ بصلاة الجمعة ، وغَرِق كُلُّ سُخْفٍ فى بَحْر النسيَان .

فلما جاءَ أصحابُنَا مع العشىّ ، ودرجَ بنا الحديثُ مَدْرَجَهُ فى فنونٍ من السَّمر ، عرضَ ذكر ما نشرته صحيفة الأهرام ، فذكرتُ ما كانَ منى فى صباح اليومِ . وفوجئتُ أشدَّ مفاجأةٍ ، وكاد يصعقُنى أنّى لم أجدْ أحدًا من إخواننا وقف على هذا العبث الشنيع الذى أحدثه هذا « الشرلتانُ المثقّف » فى شعر شيخ المعرّة ، ولكنى انطلقتُ أضْحَك ، وحاولتُ أن لا أُخْلى مجلس السَّمَر من « الفرفشة » ، وقمتُ أبحث عن « بلوتولند ، وقصائد أخرى » . فلمّا لم أجدْهُ ، ولم أجد عند أحدٍ حَلاًّ لهذا اللغز المضْحك الذى أدخلته « المانيا هلّو سيناتوريا » على شعر الشيخ ، ضاق صدرى ، وعدتُ أقرأ مقالَهُ فى الأهرام لمْحًا وخطْفًا ، وبدأتُ أكشف لهم عمّا جاء فيه من الهذيان والوسوسة وسوء الأدب . وعندئذ أقبلَ علىّ إخوانى يحُثُّوننى على الكتابة ، فقلتُ لهم يومئذ : « إنى لاَ أرى عاقِلًا يُؤخَذ من قوله ويُرَدُّ عليه ! إنه شرلتانٌ يضحكنِى ، لا مفكِّرٌ يحرّكنى » ، وكرهتُ أن أَسْرُدَ الصومَ عن الكتابة ثلاثة عشر عامًا ، ثم أجعل فَطُورى على بَصَلة خبيثةِ الرائحةِ !! وأصررتُ على موالاة الصِّيام ، وتطوّعَ الأخ الأستاذ عبده بدوى أن يتولّى هو كتابة بعض ما وقفنَا عليه من عُرَرِه (أى ، مساويه ومثالبه) ، ففعل مشكورًا موفّقًا .

وكادَ الأمرُ يقف عند هذا الحدّ ، ولكننى سمعتُ يومئذ أشياء حملتنى على تقصِّى أخبار هذا الذى كان عندى « مفرِّجًا للكروب ، ماسِحًا للهموم » ، فجاءنى ما أذهلنِى ! وعلمتُ أنه قد انتهى إلى أن يكون « مستشارًا ثقافيًا » لمؤسسة الأهرام ، وأنه قد صار له شأنٌ وسلطانٌ ، وأنه قد استوى على كرسىّ الأستاذية فى أوساط الصحافة ، وأن له أشياعًا استغرّهم من كتابٍ وشعراء ، كان بعضُهم قليلَ المعرفة ، وكان بعضُهم حائرَ الطريق ، وكان بعضُهم مستشعِرَ ذِلَّةٍ بانتسابه إلى « ثقافة قديمة » ، أو « رجعية متخلّفة » ! فدخلتْ عليهم « المانيا هلّو سيناتوريا » فى أُبَّهة لفظ « الدكتوراه » ، وفى خُيَلاء « الثقافة الحديثة » ، وقامتْ منتصبةَ القَوام ، ممطوطةَ

الجِيدِ ، سامقة الهامَة ، تُرمِّز حاجبيها من العُجْبِ ، (أى تحركهما) ، فتمضغُ ألفاظًا من قُمَامَة اليونان ثم تتلمَّظ ، وتلُوكُ كلماتٍ من كناسة الثقافة الحديثة ثم تتمطَّق ، (أى : تلصق اللسان بأعلى الفم وتحركه ، فيسمع له صوت ، وذلك عند استطابة طعام لذيذٍ !) . ففُتِن بصاحبها هؤلاء الأغْرارُ ، وتعلَّقوا ، وقد زاغت نفوسُهم ، بِذَلاذِل طَيْلَسانه الجامعىّ ، (والذَّلاذل : ما دنا من الأرض من أسافل القميص أو الطيلسان) ، فمضَى بهم يتبختَرُ وهو يجرُّهم فى أذياله ، حتى دخلَ بهم حَرَمَ الصحافة ، فأقامَ « سِرْكًا » للفنّ والشعر والأدبِ والكتابة ، ولكنَّ أكثرَ الشبابِ لَمَ يدْرِ أنَّه « سِرْكٌ » ، لِمَا ألفُوا من توقير الكلمة المكتوبة فى الصحيفة ، أو فى صحيفةٍ كالأهرام على الأقلّ !

ويومئذ أيقنتُ أن الأمر لم يأتِ اتِّفاقًا ولا مصادفة ، فالرائحة التى كنْت أشمُّها من هُدُومِ القسيس زويمر ، ومن أَسْمالِ التالف سلامة موسى ، هى هى الرائحةُ التى وجدتها فى « بلوتولند ، وقصائد أخرى » ثم فى « على هامش الغفران » ، وإنما ألهانى عَنْها حبُّ الضَّحِك ، وحاجتى إلى تسرية الهمّ عن قلبى فى سنوات من عُمُرى . وأعدتُ النظر ، فانكشف لى من وراء هذا الهذيان والاختلاط ، تدبيرٌ خيوطُهُ فى يد الجاسوس المحترف « كرستوفر سكيف » ، وفى يد أشباهٍ له يقيمون اليوم فى بعض المعاهد والأديرة ، وفى أيدٍ بعيدةٍ ممتدّةٍ من وراء « الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مدسمر ، حيث الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلاّل بكامبردج » . فعندئذٍ عادَ الأمر جدًّا لا هزلَ فيه ، وعزمتُ على أن أمِيطَ اللِّثام عن هذه الدُّمْية التى تَتَخَفَّى فى طَيْلَسان أستاذٍ جامعىٍّ كان ، وَتَتَقَبَّى قَبَاء « مستشار ثقافى » فى مؤسسة الأهرام ، (القَبَاء : كِساءٌ كالعباءة من نفيس الثياب . وتَقَبَّاهُ : دخل فيه ولبسه) ، فإذا ما فعلتُ ذلك فقد جَرَّدْتها ، ولم يبقَ سوى الدُّمْية ظاهرةً علانيةً ، وسِوى الخيوط الممتدَّةِ التى كانت تحرِّكها .

أمّا الدُّمْيَة ، وهى « أجاكس عوض » ، فليس لها فى ذاتها قيمةٌ تذكَر ، وَمَا دُمْيَةٌ يحرِّكها محرِّك ؟ والدُّمَى كأسمِها دُمًى ثم لا تزيد ! والشأن كلُّ الشأن لمن فى يده خيوطها التى تحرِّكها . ولم تَعْنِنى الأسماءُ ، أسماء المديرين ، وإنما عنانى الذى

يبقى حين تَزُولُ الشخوص ، وذلك هو « هيئات التبشير » و « دوائر الاستعمار » . من أجل ذلك كان أكبرُ هَمِّى أن أكشف عن هذه الجراثيم الخبيثة غطاء سراديبها التى فيها نشأت ، وأَفُضّ عنها غِشاءً تتبرَّجُ فيه حتى تستمكن من فرائسها .

وإذا كان الإغريقُ القدماءُ ، وعلى رأسهم « أخيل » صاحبُ حرب « طروادة » ، قد اتخذوا الهُولَةَ الإغريقى « أجاكس بن تلامون » ، (وكل كريه المنظر ممّا يهولك ويفزعكَ فهو « هُولَةٌ ») ، اتخذوه ثورًا يديرُ لهم رَحَى الحرب ، أو ساقية الوَغَى ، فإنَّ الجاسوسَ البريطانى المحترف « كرستوفر سكيف » ، و « أصحاب الخلوة المشهودة تحت أشجار الدردار عند الشلاّل بكامبردج » ، وطواغيتَ برنستون ، وما أدراك ما برنستون ، والحَيَّاتِ المُتَرَهِّبَةَ فى السراديب المظلمة وراء أديرة « التبشير » ، وذئابَ الخلاء التى تجوسُ بين مَخارم الجبالِ لتنقضَّ بفتْكها على ديار العرب والمسلمين = كلٌّ هؤلاء قد تطوَّعوا ، بغفلتهم وسوء اختيارهم ، فأَخْدَمُونى « أجاكس عوض » ، على تفاهته واختلاط سمادِيره ، لكى يُدِير لى رَحَى الأَحاديث ، فأستنبِطَ لأهلى وعشيرتى وأبناء أبى وأمّى ، أَباطِيلَ وأسمارًا فيها بيانٌ لما خَفِى عليهم من مَكْرِ عَدُوٍّ شديد المكر ، يكمن وهو يتربَّصُ بهم الدوائر ، حتى يُزيلَ عن الأرض سُلْطانهم المرتقبَ المخوفَ ، ويحرقَ عليهم « طروادة الحديثة » ويدمِّرها تدميرًا ، وينالَ بمخالبه قلب « الملك ميداس » ، الذى استنقذ كلمة « العروبة » من فم كُلّ « أجاكسٍ » صليبىٍّ أفّاقٍ ، شديد الضغنِ والحَفِيظَة على الإسلام وأهله .

فللأغبياء الذين لم يُحسِنوا اختيار الدُّمَى من الناس الشكرُ ، وللدُّمَى التى ذكرتُها فى كلماتى ، ولممثّلها فى هذه الكلمات « أجاكس عوض » ، فضْلٌ يذكَرُ ولا يُنْكر ، فإنْ ساءَها من « الأباطيل والأسمارِ » شىءٌ ، فإثْمُ ذلك معلّقٌ فى أعناق مَنِ اتَّخذوهم دُمًى تتحرَّكُ بلا عقْلٍ ولا إرادة . ولا يستحقُّ الرثَاء ، من تعرَّضَ للبلاءِ ، والسعيدُ من وُعِظَ بغيره . ورحمَ الله شيخَ المَعَرَّة كأنه كان يَرَى يومَنا هذا حيث يقول لبنى إسرائيل :

يَا آلَ يَعْقُوبَ ، مَا تَوْراتُكُمْ نَبَأٌ   مِنْ وَرْيِ زَندٍ ، ولكنْ وَرْىُ أَكْبَادِ

[ورى الأكباد : القيح الذى يفريها من الحقد والضغينة]

إنْ كَانَ لَمْ يَبْدُ للأغْمَارِ سِرُّكمُ فإنَّهُ لِىَ فى أكْنَانِهِ بَادِى
لَقَدْ أكَلْتُمْ بأمْرٍ كُلُّه كَذِبٌ عَلَى تَقَادُمِ أزْمَانٍ وآبَادِ
وَرَابَنِى أنَّ أحْبَارًا لكُمْ رَسَخُوا فى العِلْمِ ، ليسُوا عَلَى حالٍ بعُبَّادِ

وصدق الشيخ رحمه الله من كلّ وجهٍ . وقد قَصَصْتُ القصة ، فلا يحسبنَّ أحدٌ أنَّ تردادَ ذكْرِ « أجاكس عوض » صبيِّ المبشرين ، مقصودٌ لذاته ، إنما هو رمزٌ ، كرموز اليونان والروم وما توالدَ عنهما !! رمزٌ لهذه الدُّمَى التى اتخذها « التبشير » و « الاستعمار » قديمًا وحديثًا ، لتؤدِّىَ ما يُرَاد منها . وإذن ، فما إلى هذه الدُّمْية أقصِد ، فهى من الهوان علىَّ بالمنزلة التى علمتَ ، بل قَصْدِى إلى من يحرّكه هو وأشباهَهُ وأعوانَه وشيعتَه اليومَ ، ومن كان بالأمس يحرِّك طائفة أُخْرى من الدُّمَى هَلَكَتْ ، بعدَ أن أحدثت فى حياتنا آثارًا بعيدةَ الغَوْر .

ولكن لولا « أجاكس عوض » ، لكان الجدُّ المحضُ أغلبَ على ما أكتُب ، والجدُّ إذا طال فربَّما ثَقُل ، فكان من رحمة الله بنا وبالناس أنْ سخَّر لنا « أجاكس عوض » ، حتى يُحْدِث لنا وجودُ اسمه وتكرارُه طرَفًا من الانبساط و « الفرفشة » يتخلَّل ما نُعانى من جدِّ الحياة ، وما ينبغى أن نحمل من أثقالِهَا .

* * *

وهذا أوانُ كشف السّتار عن « سِرْك أجاكس عوض » ، إذا آدَكَ ما فيه من الجدِّ وأثقلك ساعاتٍ ، فأنت واجدٌ فيه ما يرفِّه عن نفسك ساعةً أو بعضَ ساعةٍ . ولا تكنْ « مثقّفًا » يَعيبُ علىَّ أنى لم أكنْ « موضوعيًّا » ! فهذا اعتراضٌ غَثٌّ ، اعتراضُ « مثقَّفٍ » من جنس « أجاكس عوض » ، الثقافةُ عنده ألفاظٌ يمضُغها ويلوكها فى ساحة « السِّرْك » فإنّى إنَّما خلطتُ هَزْلاً بجِدٍّ ، لأنى عَرَضْتُ لآدميٍّ هو هَزْلٌ كُلُّه ، ولكن المقادِيرَ وضعَتْهُ بحيث يُحْمَل ما يقوله محمل الجدّ ، فحدِّثْنى كيف أستطيع أنْ أتَّقِىَ مَا لا مَفَرَّ مِنه ، من الهزل الناشب فى حَلْق الجدِّ ؟

لَيسَ حَسَناً

الرسالة

الخميس ٢٢ رجب ١٣٨٤



١

ليسَ حسنًا أن يعزلَ كاتبٌ قلمه ! ولكن هكذا قدَّر الله عليَّ أن أفعل ، فنحَّيتُه عن أناملى ، لكى أفْرُغ للقراءة والتفكّر ، حتى تصرَّم على ذلك أكثر من ثلاث عشرة سنة ، فلمَّا عُدْتُ إليه أحملُه ، ثَقُل مَحْمله ، وقد صَدِئ سِنُّه ، ورَسف فى قيود الإهمال خَطْوُه ، وإذا هُوَّة سحيقة القَرار قد انخسفت بينى وبينه ، كهوَّةٍ بين حبيبين تمادَى بينهما جفَاءٌ مُسْتَحْدَثٌ من مَلالٍ . ولكنّى على ذلك كُلّه اليوم مُرْغَم : مُرْغَمٌ على حمله ، ومرغمٌ على استحياء ما كان بينى وبينه من حبٍّ متضرِّم ، ومرغمٌ على أن يكون اعتذارى إليه صادقًا ، مهما تكبَّدتُ فى سبيل ذلك من مشقَّة وعَنَتٍ . ويشاء الله الذى قدَّر وقضى أن يكون الرجلُ الذى جعلتُ كلامه حُجَّتى على منْ لاَمَنى ، يوم عزمتُ على تعطيل هذا القلم ، هو نفسُه الرجُل الذى أحمل القلم من أجله . وخبرُ ذلك أنى كنت أقول يومئذٍ لمن يلومنى :

إذا كان عِلْمُ الناس ليس بنافعٍ　　ولا دَافعٍ ، فالخُسْرُ للعلماءِ
قَضَى الله فينا بالذى هو كائنٌ　　فتَمَّ ، وضاعت حكمةُ الحكماءِ !

يقوله شيخُ المعرَّة ، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرِّىّ ، رحمة الله عليه .

* * *

فمنذُ أسابيع نشرت صحيفة الأهرامِ مقالة ضافية تبشّر بجديد فى رسالة شيخ المعرَّة ، المعروفة برسالة الغفران ، كاتبُ هذه المقالة هو الدكتور لويس عوض ، فإذا به يحملنى إلى ماضٍ سحيق البُعْد مكفوفٍ بالظلمات ، فهو يريدُ أن يجلُوَه لعينى مشرِقًا مُسْرِفًا فى الإشراقِ . ثم تتابع ذلك من فعله ، حتى انتهى منذ أسبوعين أو ثلاثة ، إلى الكلام فى صميم رسالة الغفران ، وإن كان هو قد آثر أن يسمّى فعله هذا : « على هامش الغفران : شىء من التاريخ » ، فقال بعد مقدمة قصيرة :

« ولعل أسلم منهج فى الانتقال إلى المعرِّى ، والحديث عن « رسالة الغفران » ، هو أن نبدأ بعرض الخلفيّة التاريخية لهذا العمل العظيم ، فنوضّح طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه المعرِّى ، فتتضح بذلك أهمّ مشاكله ، وأهمُّ معتقداته ، ومحاور الصراع الماديّ والفكريّ فيه ، عَسَى أن يلقى كُلّ ذلك ضوءًا على مرامى المعرِّى وغاياته من « رسالة الغفران » ، وعسى أن نجد بعض المفاتيح التى تساعدنا على معرفة موقف هذا الرجل العظيم ، كما تجلّت فى أدبه ، من أفكار عصره ، ومن أحداثه ، ومن رجالاته ، ومن أحواله بوجه عامٍ » .

وهذا كلامٌ حسنٌ جدًّا ، ليس فيه ما يُعابُ ، وليس بمستنكَرٍ صدورُه عن الدكتور لويس عوض ، لأنه كان أوَّلًا ، طالبًا قديمًا لآداب اللغة الإنجليزية ، درسها حتى نال ، فيما أظنّ ، إجازة الليسانس ، ثم الماجستير ، ثم الدكتوراه ، ومعنى ذلك أنَّه بلا شك يحسنُ أن يقيم الدراسة على المنهج . ولأنه ثانيًا ، ولابُدَّ ، كان ، فيما أظن أيضًا ، معيدًا بالجامعة ، ثم مدرّسًا ، ثم أستاذًا يتولّى مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه ، والإشراف على أصحابها قبل ذلك . ولأنه ثالثًا ، خرجَ على الناس كاتبًا ، فمارس الكتابة زمنًا ، فهو خليقٌ أن يعالج دراسة « رسالة الغفران » على منهجٍ محكم الأصول ، وبأسلوبٍ يرضى عنه أستاذ الجامعة ، ولا يجفُو على قارئ الصحيفة ، ممن لم يُقدَّر له أن يتحمّل دراسة الآداب على المنهج .

هكذا كان ظنّى ، وإن كان ما أعرفه من قراءة كتب الدكتور لويس عوض ومقالاته وغيرها ، قد يحملنى على الشكّ فى قدرته على تحقيق هذا الظنّ . فما كدت أفرُغ من مقاله الذى افتتحه بذكر منهجه هذا ، ثم مقاله الذى يتلوه بعنوان : « كلمة عن ابن القارح » (الأهرام : يوم الجمعة ٩ رجب سنة ١٣٨٤ / ١٣ نوفمبر سنة ١٩٦٤) حتى عجبتُ وتخوَّفتُ ، إذا كانت كلمة « المنهج » لم تزلْ محفوفةً بكلّ هذا القدر العجيب من الغموض والظلمة فى عينى الدكتور لويس عوض أستاذ الأدب الإنجليزى ، وهو من هو ، فهى بلا ريبٍ فى أعين سائر الناس أشدُّ غموضًا وإبهامًا !! وعندئذ عجبتُ . ثم إن الدكتور لويس عوض أستاذٌ قديمٌ يُقتدَى به فى دراسة الآداب ، فيما أرجّح ، فمن هنا تخوّفتُ على مصير دراسة الآداب ، مع كثرة

ما يَحُفّ بهذه الدراسة من المخاوف ، من جرَّاء ما استشرى أَمرُه من أبحاثٍ تنشر في الصحف والمجلات ، والكتب أيضًا .

وعادتْ بي الذكرى إلى ماضٍ بعيد ، إذ كنت طالبًا في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، منذ نحوٍ من تسع وثلاثين سنة ، يوم وَقَع الصراعُ بيني وبين أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين ، على مفهوم كلمة « المنهج » ، وعلى الأدوات التي يمارس بها هذا « المنهج » .

ثم ظلَّ هذا الصراعُ قائمًا على أَشُدِّهِ في نفسي منذ فارقتُ الجامعة حتى أخرجتُ كتابي عن « المتنبي » في يناير سنة ١٩٣٦ ، ثم أخرج أستاذنا بعد ذلك بعام أو أكثر ، كتابه « مع المتنبي » ، فكتبت يومئذٍ مقالاتٍ طوالًا ، مع الأسف ، في نقد كتاب الدكتور طه حسين ، زادتني معالجة نقده يقينًا على يقينٍ ، في أن الغموض إذا أحاط بلفظ «المنهج » ، أدَّى إلى خلطٍ كثير في فهم الآداب ، وفي تفسيرها وفي شرحها ، ثم في تصوير أحداث العصر وأفكاره ورجالاته وأحواله ، بوجه عام ، كما يقول الدكتور لويس عوض . واليوم ، وبعد هذا الدهر المتطاول ، أجدُ هذا اللفظ قد ازداد إبهامًا وغموضًا ، وازداد تطبيقُ ما يقتضيه تخليطًا على يد الدكتور لويس عوض .

فمن أجل ذلك ، أجدني مضطرًا لالتماس معذرة القارئ المتعجِّل ، لأني إنما أخاطب بهذه الكلمة أستاذًا جامعيًا ، أو هذا هو المفروض ، وإن كان ما كتبه لا يحمِلُ طابع الأستاذيَّة ، بل طابع المقالة الصحفية ، إذا كان من المفروض أيضًا أنَّ المقالة الصحفية لا تزال إلى اليوم قائمةً على الاستثارة المبهمة عند بعض الناس ، وكنت أتوهَّم أنَّ هذا أسلوبٌ قد انقضى عهده وباد أهلُهُ ، أو كان هذا هو المفروضَ عندي أنا على الأقل .

ولفظُ «المنهج » يحتاج منّي هنا إلى بعض الإبانة ، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلِّمون في مثل هذا الشأن ، بل أريد به « ما قبل المنهج » ، أي الأساس الذي لا يقومُ المنهج إلاَّ عليه . فهذا الذي سمَّيته هنا « منهجًا » ينقسم إلى شَطرين : شَطرٍ في تناول المادة ، وشَطرٍ في معالجة التطبيق . ويؤسفني أن أكتب هذا في مخاطبة أستاذٍ جامعيٍّ .

فشَطْرُ المادة يتطلَّب ، قبلَ كل شيءٍ ، جَمْعَها من مَظانّها على وجه الاستيعاب المتيسّر ، ثم تصنيفَ هذا المجموع ، ثم تمحيص مفرداته تمحيصًا دقيقًا ، وذلك بتحليل أجزائها بدقّة متناهية ، وبمهارة وحذرٍ ، حتى يتيسر للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ جليًّا واضحًا ، وما هو صحيحٌ مستبينًا ظاهرًا ، بلا غفلةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّعٍ . أمَّا شطر التطبيق فيقتضى إعادة تركيب المادة بعد نَفْى زَيْفها وتمحيص جيِّدها ، باستيعابٍ أيضًا لكل احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرّع ، ثمّ على الدارس أن يتحرّى لكلّ حقيقة من الحقائق موضعًا هو حَقُّ موضعها ، لأنَّ أخفَى إساءةٍ فى وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يشوّه عَمُودَ الصورة تشويهًا بالغ القُبْح والشناعة .

وهذا شىءٌ واضحٌ ، فيما أظنُّ ، ما كان أغنانى عن ترداده على مسمع أستاذٍ جامعىّ . ولكن يبقى شىءٌ هو مفروضٌ ابتداءً ، لا يصلح شىءٌ مما قلته إلاّ به ، بَيْدَ أنّ الناس قد يُخْدَعون عنه أو يتجاهلونه لهوًى غالبٍ على النفس ، أَلَا وهو الدارس الذى يعالج « المنهج » بشطريه . فالدارسُ ينبغى أن يكون قد ملك الأسباب التى تجعله أهلا لمعاناة « المنهج » . وهذا شىء يحسنُ ضربُ المثل عليه لتوضيحه .

فإذا اتخذنا شيخ المعرّة مثلا موضِّحًا ، فدارسُه ينبغى أن يكون مُطيقًا لقراءة نُصوصه جميعًا من نثرٍ وشعْرٍ ، لا من حيث هما لفظان مُبهان غامضان : « نثر » أو « شعر » ، بل من حيث تضمُّنهما ألفاظًا دالةً على المعانى ، وألفاظًا قد اختزنت على مرِّ الدهور فى استعمالها وتطوّرها قدرًا كبيرًا من نَبْض اللغة ونمائها الأدبى والفكرى والعقلى ، إلى كثير من الدِّلالات التى يعرفها الدارسون = ثم من حيث هى ألفاظٌ قد حملت سِمَاتٍ مميِّزةً من ضمير قائلها بالضرورة الملزمة ، لأنَّه إنسانٌ مُبين عن نَفْسِه فى هذه اللغة بما يسمَّى « شعرًا » أو بما يسمَّى « نثرًا » . وواضحٌ جدًّا بعد ذلك ، لمن يحسِنُ أن يتأمَّل بعض التأمُّل ، أنَّ هذا كُلّه يقتضى أن يكون الدارس قد رحل رحلةً طويلةً فى آدابِ اللغة السابقة لعهد شيخ المعرّة ، فدارَسَ فيها الماضين من شعراءِ هذه اللغة وكتابها مُدارسةً متقنة جادَّةً غير هازلة ، مشحوذةً بالذكاء والتنبُّه ، مصقولةً بحسنِ التمييز والتدبُّر ، ليكون فى مأمنٍ من اختلاط شىء منها بشىء

مخالفٍ له أو مناقضٍ . وذلك لأن تُراث كلّ لغة من اللغات ، وإن كان وحدةً لا تكاد تتجزّأ ، إلا أن اختلافَ الأزمنة والأمكنة يمنحُ كُلّ نصٍّ وَسْمًا بائنًا من سواه ، ويُفيضُ عليه لونًا مُتفرِّدًا من غيره ، فهذا أمرٌ كما ترى شديدُ المِراس لمن لم يملك ناصيتَه ، فلا يهجُمُ عليه بلا أداة ، وبلا رويَّةٍ ، وبلا استعداد ، وبلا فهمٍ ، إلاّ كلّ من ظنَّ فى نفسه الظنون ، إمّا جهلًا وإمّا رُعُونةً .

وليتَ الأمرَ فى دراسة الآداب يقف بنا عند هذا الحدّ ! فإنّه لأهولُ من ذلك فى كُلِّ زمانٍ ومكان ، وفى كُلّ لغة ذات بيانٍ ، إنه لأمرٌ مفروغٌ منه ، أمر ارتباط الآداب بتاريخ الأمة وعاداتِها وأخلاقها ودياناتها ، وما شئتَ من شيء تُعَدُّ به الأمة ذات كيان قائم متميّز . فدارس الآداب إذا لم يكن مطيقًا لذلك كلّه ، بصيرًا به ، حَسَن التصرُّف فى جليله ودقيقه ، جيِّدَ الفهم لغوامضه ومبهماته ، فهو حَرِىٌّ أن يشوّه الصورة عند تركيبها تشويهًا فيه من الشناعة ما يجعلُ دراسته مُثْلةً بمن يدرسُهُ ، كما يمثِّل المحاربُ المحترقُ بجثة عدوِّه ، وقد أطارت لبّه حدَّة العداوة والحقد ، وإتقان دراسة هذه المادة كلها ، تعدُّ دراسة أدبيةً محضة ، فلا يستطيع دارسٌ أن يقول للناس : إنها ليست من صميم اختصاصى ! فإذا قالها ، فذلك إيذانٌ منه بأنه فقد التمييزَ ، وجهل أساس كل منهج ، واستحقّ أن يطرح الناسُ ما يقوله ، إذا هو لم يجد عند نفسه القدرة على أن يستحِىَ فيستُرَ ما يكتب ، ويغيِّبه فى التُّرابِ عن أعين الناسِ .

وظنّى أنّ هذا الذى قلتُه عن « المنهج » كافٍ فى تمثُّل التَّبِعة التى يتحمَّلها دارس الآداب ، وفى إدراك التبعة التى يحملها القارئ ، حين يعرض عليه دارسٌ ما درس . فالأمر من أىّ نواحيه أخذته إذن جدٌّ لا هزلَ فيه ! وما دام الدكتور لويس عوض قد تخيّر لنا « أسلم منهج » فى دراسة رسالة الغفران ، فقد رأيتُه حسنًا أن أبدأ بالنظر فى منهجه ، لا من حيث أراد هو أن يبدأ ، بل من حيث انتهى به الحديث فى مقاله : « كلمة عن ابن القارح » لأنى وجدت الدكتور لويس عوض ، قد أخفى عنّا « مادة الدراسة » ، وهو شيخ المعرّة نفسه ، على امتداد خمس مقالاتٍ طوالٍ ، فلم يذكرها إلاّ فى ختام الخامسة منهن . و « شيخ المعرّة » هو مادة الدراسة ، لأنه

صاحب « رسالة الغفران » ولأنها أثرٌ من آثاره . ولا أستطيع أن أكتم إعجابى بقدرته على كَبْحه جِمَاحَ نفسه خمسةَ أسابيع من أسابيع الكتابة ، مخفيًا مادة دراسته ، فلا يكاد يعرضها لأعيننا إلاَّ فى ختام خامستهنّ ، ويلقيها إلينا بلمحة خاطفة ، توحى بأنَّ هذه المادةَ الملقاةَ قد فُرِغَ من تمحيصها على يده ، أو على يد غيره ، حتى صارت إحدى المسلّمات التى لا تملك البدَاهةُ إلا الإذعان لها ، كما يقول القائل : « رجُل ورجلٌ » « رجلان » ، بلا فرقٍ بينهما ! فانظُر إذنْ كيف ساقها ، ولم أسقطْ من كلامه شيئًا غير طرح التاريخ الميلادىّ المُعَوِّق :

« هذا هو الجوّ السياسى المعقد الذى عاش فيه المعرّى حتى اعتكف فى معرَّة النعمان حول (٤٠١ هـ) ومنذ أن اعتكف فيها حتى مات عام (٤٤٩ هـ) . فحلب ، وهى على بعد أميالٍ قليلة من المعرَّة ، يتبادلها أولًا الحمدانيون تظاهرهم عسكر الروم والفاطميون . ثم يتبادلها ثانيًا المِرْداسيون تُظاهِرُهُم عسكر الروم والفاطميون ، ولم تكن أنطاكية أحسن حالًا ، فقد ظلَّت مئة وعشرين سنة كاملة فى يد الروم ، من سنة ٣٥٣ إلى ٤٧٧ هـ ، وُلِد وهى لهُمْ ، ومات وهى لهم ، وتعلَّم بها وهو صِبىٌّ وهى لهم ، فقد كان يختلف إلى مكتبتها مع أسامة بن منقذ ، فيما روت كتب القدماء ، وكانت فيها يومئذ حضارة زاهرة ، حسب ما روى ياقوت الحموى » .

« وقد كان حكم اللاذقية حكم أنطاكية ، كانت فى يد الروم زمن المعرّى ، وقد تعلم المعرّى فى اللاذقية ، كما تعلّم فى أنطاكية . ففيما روى القفطى والذهبىُّ أنه نزل بديرٍ فيها ، « ولقى بهذا الدير راهبًا قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل » ، بلغة طه حسين ، أو باختصار : أخذ عنه اليونانيات ، فما علوم الأوائل هذه التى كانت تقرأ فى الأديرة تحت حكم الرُّوم ، إلا آدابُ اليونان وفلسفتهم فى لغتها الأصلية . والحق أنه لا يُعْرَف شىء عن تعليمه الرسمىّ حتى سن العشرين ، وهى سنّ التكوين ، إلاّ أنَّه تعلّم فى حلب ، ثم فى أنطاكية ، ثم فى اللاذقية ، ثم فى طرابلس . ومثل هذا الغموض الذى أحاط بتكوينه العقلى حتى سنّ العشرين ، يحيطُ أيضًا بحياته كُلّها فيما بين العشرين والخامسة والثلاثين ، حين نجده يقيم فى المعرّة خمس عشرة سنة بين (٣٨٣ هـ) و (٣٩٨ هـ) ، وبها عاش تحت الحمدانية والفاطمية والمرداسية والروم » .

نقلتُ كلّ هذا مضطرًّا ، على ما فيه من الركاكة والسقم ، ولكنهما لا يحولان دون إدراك حقيقة ظاهرة ، هى أنّ الأخبار المذكورة كُلَّها حقائق مفروغٌ من دراستها ! وظاهرٌ أن الدكتور لويس عوض لم يطَّلع على شىء قطُّ مما كُتِب عن المعرّى ، إلاّ على كتاب الدكتور طه حسين وحده ، لا فى العربية ولا فى غيرها من الألسنة التى يقول عن نفسه إنه درسها . وسأدع خلطًا كثيرًا معقَّدًا كتعقيد « الجو السياسى » الذى أعاش فيه شيخَ المعرّة ، لأكشف عن هذه الحقائق التى أراد أن يجعلها من البديهيّات المسلّمة . فهو يزعُم أن المعرّى تعلم بأنطاكية وهو صبىٌّ ، وأنه كان يختلفُ إلى مكتبتها مع أسامة بن منقذ . وهذه هى القصة كما ذكرها الدكتور طه فى كتابه « ذكرى أبى العلاء » ، فى شأن رحلته إلى أنطاكية ، قال :

« نعم إن التاريخ لا يوقِّت لنا هذه الرحلة ، ولكن رواية تُؤْثَر عن أسامة بن منقذ ، خبَّرتنا أنه لقى بأنطاكية صبيًا مجدورًا ذاهبَ البَصَر ، يتردَّدُ على مكتبتها ، فامتحنه ، فبهرهُ حفظه واستظهارهُ ، ثم سأل عنه فقيل : هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّى . ولا شكّ فى أن هذه الرواية ، إمّا أن تكون منتحلة ، وإمّا أن يكون اسم أسامة قد وقع فيها خطأ موقع اسم أحد آبائه من أبناء منقذ ، فإن أسامة ولد سنة ٤٨٨ ، أى بعد موت أبى العلاء بنحو أربعين سنة » .

وهذه بَليّةٌ من البلايا ! فأستاذٌ جامعىّ ينقل من كتابٍ يعترف هو بلسانه أن صاحبه كان هو مفتاحَه الأوّل ، ويا للعجب ، إلى أدب المعرّى فى حداثته ، وفى شبابه ، وفى كهولته (أى هو مشغولٌ بالمعرّى طول حياته !!) ، ثم لا يقرأ إلا أسطرًا ، ثم يقفز فلا يرى ما قاله صاحب الكتاب فى نقد هذا الخبر ! أىُّ بليّةٍ أكبر من هذه البليّة على صاحب المنهج ؟ وليته اقتصر على هذه البلية ، بل زادها بلية أخرى ، فنصُّ الخبر كما ذكره الدكتور طه يقول : إن أسامة بن منقذ لقى صبيًا مجدورًا يتردَّد على مكتبة أنطاكية ، فيأتى هو فيزعم أنه كان يختلف إلى مكتبتها مع أسامة بن منقذ ، حتى يُوهِمك أنهما قرينان أو صديقان ، ثم يتمِّم البلايا بادّعاء وتظاهُرٍ فيقول : « فيما روت كتب القدماء » ، كأنَّه عرف ما هذه الكتب ، وكأنه زاد على الدكتور طه ، فاطلع على ما لم يطلع عليه !

وهذا بالطبع تنفُّخ غثٌّ يؤذى كُلّ دارس ، لا سيما إذا عرفت أن ذكر « أسامة بن منقذ » ، لم يردْ إلاّ فى كتاب واحد هو كتاب « الصبح المنبى » ، وهو كتاب مطبوع للشيخ يوسف البديعى المتوفى سنة ١٠٧٣ من الهجرة ، والبديعىّ نفسه يذكر القصة فى كتاب له آخر ، وهو مطبوعٌ ، اسمه « أَوْج التحرِّى » فيقول : « نقل عن ابن منقذ » بإسقاط « أسامة » ، والبديعىّ متأخر جدًّا ، وهو ، وإن لم يصرّح ، قد نقل ذلك عن ابن العديم (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ) ، وهو من أعيان حلب ، فى كتابه « الإنصاف والتحرى ، فى دفع الظلم والتجرِّى ، عن أبى العلاء المعرّى » ، وهو كتاب مطبوع أيضًا ، وفيه الخبر مسندًا إلى صاحبه الأول : « ... حدثنى والدى رضى الله عنه وأرضاه ، يرفعه إلى ابن منقذ قال : كان بأنطاكية ... » وساق الخبر بطوله ، فلما فرغ منه قال : « وهذه الحكاية فيها من الوهم ما لا يخفى ، وذلك أنه قال : كان بأنطاكية خزانة كتب ، إلى آخر ما ذكره . وهذا شىءٌ لا يصحُّ ، فإن أنطاكية أخذها الرّوم من أيدى المسلمين فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة ، وولد أبو العلاء بعد ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر ، فى شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وستين وثلاثمئة ، وبقيت أنطاكية فى أيدى الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطلمش ، فى سنة سبع وسبعين وأربعمئة ، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك فى سنة تسع وأربعين وأربعمئة ، وأخلاها الرُّوم من المسلمين حين استولوا عليها ، فلا يتصوَّر أن يكون بها خزائن كتب ، وخازن ، وتُقْصد للاشتغال بالعلم . ويحتمل عندى أن يكون هذا بكَفْرِطاب ، فقد كانت كفرطاب مشحونة بأهل العلم ، وكان بها من يقرأ الأدب ويشتغل به قبل أن يهجُمَها الفرنج ، وهجمها الفرنج فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة ، وكانت لأبى المتوَّج مقلّد ابن نصر بن منقذ فى أيام أبى العلاء ، فلعلَّه تصحَّف كفرطاب بأنطاكية ، وتصحيفها غير مستبعد ، فإن كان كذلك ، فابن منقذ الحاكى لهذه الحكاية هو أبو المتوَّج مقلد بن نصر بن منقذ ، أو أبوه نصر . وكفرطاب قريبة من معرَّة النعمان » ، ثم ذكر احتمالا آخر : أن يَكون ذلك بحلب ، واستدلّ عليه .

وقد أطلتُ بنقل هذا ، لترى أىّ منهج كان يسيرُ عليه علماؤنا فى نقد الأخبار منذ أكثر من سبعة قرون ونصف ، على عهد ابن العديم = أقول : لو عرفت هذا ، فأنت بالخيار فى وصف عمل الدكتور لويس عوض وقوله : أن تصفَه بأنه تنفُّخ غثٌّ ، أو بأنّه علم مُسْتَحْدَثٌ !!

هذا ، وابن العديم يستنكر أن تقصد أنطاكية للاشتغال بالعلم ، والدكتور لويس عوض ، يريدُ الناسَ على أن يسلِّموا له أن أبا العلاء « تعلّم بها وهو صبىّ » ، وهذا لا يصحُّ بالطبع ، ولو ادّعى أنَّه ممن كُشِف عنه الحجاب ، فَعَلِم عِلْمَ الماضى والحاضر والمستقبل ، وصدر « دكريتو » بأنه من القِدِّيسين . لأن هذا شىءٌ لا يعرف إلا بالخبر المُسْنَد ، لا بالتكهُّن والتنبؤ . ولو اطلع الدكتور على ما كتبه بعض المحدثين فى نقد هذا الخبر وأشباهه فى شأن رحلة أبى العلاء ، لعرفَ ، إن كان بقى له شىءٌ من خُشن الحِفاظ على الأمانة ، أنَّ إلقاء هذا القول ، بهذه الصورة ، أمرٌ مستشنَع . ومع ذلك ، فإنى لم أتناول نقد هذا الكلام إلاَّ من وجهٍ واحد ، أما الوجوه الأخرى فسأدعها إلى حينها .

* * *

ثم تجىءُ بليَّة أخرى أكبر من أختها ، إذ يقول : « .... وقد تعلَّم المعرّى فى اللاذقية ، كما تعلم فى أنطاكية ، ففيما روى القفطى والذهبى أنه نزل بدير فيها ... » إلى آخر ما نقلته آنفًا ، وهو بلا شكّ أيضًا لم يعرف هذا إلاَّ فى كتابِ الدكتور طه حسين . وكتاب الدكتور طه أُلِّفَ منذ أكثر من خمسين سنة ، أى فى نحو سنة ١٩١٣ ، ونشرت بعد ذلك كتبٌ كثيرة من أصول المراجع لترجمة أبى العلاء ، لم يطَّلع عليها الدكتور يومئذٍ . هذا فَضْلًا عن أنه كتب كتابه وهو دون الخامسة والعشرين من عمره ، أطال الله بقاءه ، وعَسَى أن يكون الدكتورُ اليومَ لا يرضَى عن كثير مما كتب يومئذٍ ، ويرَى ، وهذا هو العهدُ به ، أنْ لو أطاقَ لأعاد كتابة ما مَضَى على الوجه الذى يرتضيه ، بعد أن استحكمت قوته ، واتسَع علمه . وسأقصُّ قصة ذلك بإيجاز :

* * *

فبين أيدينا اليوم من الكتب التى ترجمت لأبى العلاء ، أكثر من ثلاثين كتابًا ، من بينهم القفطى والذهبىّ اللذانِ ذكرهما الدكتور طه ، واتّكأ عليهما الدكتور لويس عوض ، وأىُّ دارس جامعىّ مبتدئ ، مفروضٌ فيه أن يضع هذه التراجم جميعًا بين يديه ، ويرتبها ترتيبًا تاريخيًّا ، ليعرف مصادر الأخبار التى جاءت فيها . وإليك بيانها مختصرًا :

١ - الثعالبى (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ)

٢ - الخطيب البغدادىُّ (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ)

٣ - الباخَرْزِىّ (... - ٤٦٧ هـ)

وهؤلاء الثلاثة معاصرون لأبى العلاء .

٤ - ثم السَّمعانى (٥٠٦ - ٥٦٢ هـ)

٥ - وابن الأنبارىّ (٥١٣ - ٥٧٧ هـ)

٦ - وابن الجوزىّ (٥١٠ - ٥٩٧ هـ)

٧ - والقِفْطىّ (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ)

٨ - وياقوت الحموىّ (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ)

٩ - وابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠هـ)

١٠ - وسِبْط ابن الجوزىّ (٥٨١ - ٦٥٤ هـ)

١١ - وابن العديم (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ)

١٢ - وابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ)

١٣ - وأبو الفداء (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ)

١٤ - والذهبىّ (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ)

١٥ - وابن الوردىّ (... - ٧٤٩ هـ)

١٦ - وابن فضل الله العمرىّ (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ)

١٧ - والصفدىّ (٦٩٦ - ٧٦٤ هـ)

١٨ - واليافعى (٧٠٠ - ٧٦٨ هـ)

١٩ - وابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

٢٠ - وابن الشحنة (٧٤٩ - ٨١٥ هـ)

٢١ - وابن حجر (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)

٢٢ - والعينى (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ)

٢٣ - وابن تغرى بردى (٨١٣ - ٨٧٤ هـ)

٢٤ - والسيوطى (٨٤٩ - ٩١١ هـ)

٢٥ - وعبد الرحيم العباسى (٨٦٧ - ٩٦٣ هـ)

٢٦ - وابن العماد الحنبلى (١٠٣٢ - ١٠٨٩ هـ)

٢٧ - ويوسف البديعى (... - ١٠٧٣ هـ)

٢٨ - والعباسىّ الموسوىّ (الثانى عشر الهجرى)

فأىُّ أستاذ جامعى ، حقيقٍ بأن يسمَّى أستاذًا ، يستطيع أن يُغفل الاطلاعَ على هذا كُلّه ، ويقتصر على نقلٍ من كتاب مُحْدَثٍ أُلِّف منذ أكثر من خمسين سنة ، ويتجاهلَ كل ما كتبه المحدثُون بعد هذا الكتاب ! إلاَّ أن يَكون فى دراسته ملفِّقًا متعجِّلًا طيَّاشًا لا يرعَى لشىء حُرْمةً . وأَنَا لا أستعمل هذه الكلمات إلاَّ لأنَّ الأمرَ خرج عن طَوْره ، وهدّد مستقبل الفكر الأدبى تهديدًا مفزعًا لا يعلم عواقبه إلاّ الله . وسأريك مكان هذه القصة التى ألقاها الدكتور لويس عوض مُلْقَى البديهيَّات التى فُرِغَ من التسليم بها :

فالثلاثة الأوّلُ الذين عاصروا شيخ المعرَّة ، ومنهم الخطيب البغدادى الحافظ المؤرخ = لم يذكروا هذه القصة ، مع أنهم أشاروا إلى مقالة بعض الناس فى إلحاده . ثم الثلاثة الذين يلونهم ، (٤ ، ٥ ، ٦) ، فقد أساءوا القالة فى دين أبى العلاء بتحامُلٍ شديد ، ومع ذلك لم يذكروا هذه القصة ، وآخرهم ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ ، وبين وفاته ووفاة المعرّى ١٤٨ سنة = ثم يجىء سابعهم ، وهو القفطى ، الذى ذكره الدكتور لويس نقلًا عن الدكتور طه بلا ريب ، وبين مولده ووفاة أبى العلاء مئة وعشرون سنة ، فهو أوّل من يعقد فى كتابه « إنباه الرواة » (١ : ٤٦ -

٨٣) ، فصلًا طويلًا فى ترجمة أبى العلاء ، وأكثر أخباره فيها مسندة إلى قائلٍ أو راوٍ ، إلا هذا الخبر الذى أسوقه بنصه :

« ولما كبر أبو العلاء ، ووصل إلى سن الطلب ، أخذ العربية عن قوم من بلده ، كبنى كَوْثر ، ومن يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته ، وقيّد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضًا ، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك ، فرحل إلى طرابلس الشأم ، وكانت بها خزائنُ كتبٍ قد وقفها ذوو اليَسَار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دَيْر الفَارُوس ، وكان به راهبٌ يشدُو شيئًا من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلامًا من أوائل أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوكٌ لم يكن عنده ما يدفعها به ، فَعَلِقَ بخاطره ما حصل به بعضُ الانحلال ، وضاق عَطَنُه عن كتمان ما تحمَّله من ذلك ، حتى فاه به فى أوَّل عُمره ، وأودعه أشعارًا له ، ثم ارعوَى ورجع ، واستغفر واعتذر ، ووجَّه الأقوال وجوهًا احتملها التأويل » .

فهذا خبر يحمل فى خِلاله تكذيبَه ، وسياقُه مضطرب مناقضٌ للواقع ، كما سأبيّن ذلك فيما بعد . وقد انفرد به القفطىّ ، وهو مصرىّ ، وبين مولده ووفاة أبى العلاء مئة وعشرون سنة ، ولم يذكره أحدٌ من معاصرى شيخ المعرّة مع تحاملهم عليه وذكرهم إلحاده ، ولا أحدٌ ممن جاء بعدهم إلى وفاة القفطى سنة ٦٤٦ هـ .

ويأتى مع القفطىّ المصرىّ ، ياقوت الحموىّ معاصرًا له (٥٧٤ – ٦٢٦ هـ) ، وهو مؤرخ متمكِّنٌ شديد التحرّى ، وهو شامىٌّ حموىٌّ قريبٌ من ديار شيخ المعرة [(١)] ، خبير بأخبار أهل الشام ، فيعقد فى كتابه إرشاد الأريب ترجمة لأبى العلاء مطوّلة جدًّا (١ : ١٦٢ – ٢١٦) ، فلا يذكر هذا الخبر ، مع درايته التامَّة بأحوال أهل الشأم ، ومع ما كتبه من أخبارٍ كثيرة فى إلحاد أبى العلاء . ويتمادَى الزمن بالمؤرِّخين لشيخ المعرة ، وهم من كبار المشتغلين بالتاريخ ، من ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، إلى سبط ابن الجوزى ، إلى ابن خلكان ، إلى أبى الفداء المتوفى ٧٣٢ هـ ، فيذكرونه بالسوء ، حتى رماه بعضهم بالكفر ، ثم لا يذكر أحدٌ منهم هذه الحكاية .

---

(١) انظر التعليق على وصف ياقوت بأنه « شامى » فى حاشية أثبتها فى آخر المقالة الثانية .

حتى إذا جاء الذهبى ، وهو من كبار مؤرخى الإسلام فيذكر ترجمة أبى العلاء فى كتابه تاريخ الإسلام ، ويسوقها بهذا اللفظ :

« أخذ العربيّة عن أهل بلده كبنى كوثر وأصحاب ابن خالويه ، ثم رحل إلى طرابلس ، وكانت بها خزائن كتب موقوفة ، فاجتاز باللاذقية ونزل ديرًا بها كان به راهبٌ له علمٌ بأقاويل الفلاسفة ، وسمع أبو العلاء كلامه ، فحصل له به شكوك ، ولم يكن عنده ما يدفع به ذلك ، فحصل له بعض انحلال ، وأودَع ذلك بعض شعره ، ومنهم من يقول : ارعوى وتاب واستغفر » .

وواضح جدًّا أن « الذهبىّ » إنما نقل عن « القفطى » الذى انفرد إلى سنة ٦٤٦هـ برواية هذا الخبر ، ولكنه اختصره وغيّر بعض ألفاظه ، ومُهِمٌّ للدارس الجامعى ، بل لكل ذى عقل لم تُتْلفه رُعونة أو إدمانٌ ، أن ينظر فيما فعله الذهبى . فإن « القفطى » يقول : « وكان به راهب يشدو شيئًا من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلامًا من أوائل أقوال الفلاسفة » ، وفى هذا بيان واضحٌ على أنه راهبٌ مبتدئٌ قليل البضاعة ، قد تخطَّف كلمات من أوائل (أى من مبادئ) أقوال الفلاسفة . فجاء « الذهبى » فقال فى صفة هذا الراهب : « كان به راهبٌ له علمٌ بأقاويل الفلاسفة » ، فرفع باختصاره شأنَ هذا الراهب المبتدئ الشادى ، بما يُوهم أنَّ له علمًا بأقاويل الفلاسفة . وهذا عملٌ غير مرضىٍّ ، وإساءة من الذهبىّ .

وخبر القفطى مُبين أشدَّ الإبانة عن أن أبا العلاء كان يومئذ فى سنّ الطلب ، وأنه « حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها ، فعلق بخاطره ما حصل له به بعض الانحلال ، وضاق عطنه عن كتمان ما تحمَّله من ذلك ، حتى فاه به فى أول عمره وأودعه أشعارًا له » ، فحذف الذهبى ذكر السنّ ، وأنه فاه به فى أول عمره ، فأوهم أن ذلك كان فى وقت متأخر ، وهذه إساءة أخرى من جرَّاء الاختصار ، سيظهر أثرها فيما بعد .

* * *

ثم يأتى ابن الوردىّ ، وهو مؤرخ معاصر للذهبى ، ومن معرة النعمان نفسها ، فلا

يذكر هذه القصة . وكذلك لم يذكرها ابن فضل الله العُمَرىّ ، وهو معاصر لهما . ولكن يأتى الصفدى ، وهو معاصر لهما ، فيذكرها باختصار أشدّ ، يقول فى كتابه « الوافى بالوفيات » ، وكتابه « نَكت الهِمْيان » (ص : ١٠٣) :

« وكان رحل أوّلًا إلى طرابلس ، وكانت بها خزائن كتب موقوفة ، فأخذ منها ما أخذ من العلم ، واجتاز باللاذقية ، ونزل ديرًا كان به راهبٌ له علم بأقوال الفلاسفة ، سمع كلامه ، فحصل له بذلك شكوك » ، فاختصر كلام الذهبىّ ، كما هو واضحٌ ، ونقل عنه بلا ريبٍ .

ويجىء اليافعى ، وهو معاصر لهم ، فلا يذكر شيئًا ، ويذكره معاصر لهم آخر ، هو ابن كثير ، فيسوق العبارة هكذا :

« ويقال إنه اجتمع براهب فى بعض الصوامع ، فى مجيئه من بعض السواحل ، أواهُ الليلَ عنده ، فشككه فى دين الإسلام » .

فجاء بلفظ آخر مخالف ، وأغفل ذكر علم الراهب بأقوال الفلاسفة ، وجعل نزوله بالراهب ليلةً واحدةً ، وذكر ذلك كله بلفظ التمريض والارتياب « ويقال » ؟

وينقضى الزمن منذ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ ، حتى يأتى ابن الشحنة وابن حجر ، فلا يذكران شيئًا ، إلا العينى وهو معاصرٌ لهما ، فينقل ما قاله ابن كثير بلفظه ، أى إلى سنة ٨٥٥ هـ . ثم يغفله ابن تغرى بردى ، ويذكره السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، نقلا عن الصفدى ، ثم عبد الرحيم العباسى (توفى ٩٦٣ هـ) ، فيردِّد كلام الصفدىّ ؛ ثم يغفله ابن العماد الحنبلىّ (١٠٨٩ هـ) ولا يذكره إلا العباسى الموسوى (المتوفى فى القرن الثانى عشر) .

* * *

وبيّنٌ جدًّا من هذا السياق المختصر لتسلسل القصة التاريخى ، أنه لم يذكرهُ ممن ترجم لأبى العلاء سوى تسعة ، من ثمانية وعشرين ، وأنه قد انقضى ما بين الثعالبى إلى ابن الجوزى ، أى إلى سنة ٥٩٧ هـ ، ما بين معاصرين لشيخ المعرة وغير معاصرين ، وإلى ما بعد وفاة أبى العلاء بأكثر من مئة وخمسين سنة ، والخبر غير معروفٍ ، مع إغراق بعض هؤلاء فى النَّيل من شيخ المعرة ودينه .

حتى إذا جاء القفطى (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) انفرد وحده برواية الخبر بلا إسنادٍ إلى أحدٍ ، وفيه عِلَلٌ قادحة فى صدقه ، سأبيِّنها فيما بعدَ هذه المقالة . ومن أشدّ ما يشكّك فيها بعد ذلك أن ابن العديم ، المعاصر للقفطىّ المصرىّ (٥٨٨ - ٦٦٠هـ) ، وهو مؤرخ شامىٌّ مستوعبٌ لأخبار الشأم وأهله ، يؤلِّف كتابًا فى « دفع الظلم والتجرِّى ، عن أبى العلاء المعرّىّ » ، ويحشُدُ فيه كُلّ قَدْحٍ قيل فى الرجُل أشدَّ من هذا الخبر ، فلا يكون له علمٌ به ولا معرفة .

فبأىّ وجهٍ بعد ذلك ، يأتى أستاذٌ جامعىٌّ ، يتبجَّح بذكر الأسماء ويحشدها من كُلّ أوْبٍ وصَوْبٍ ، لِيُوهم أنه قد قرأ ودرس واستوعَب ومحَّصَ واستخلَص ، فيعمد إلى خبرٍ انفرد بروايته القفطىُّ ، والثمانية الباقون نقلوا عنه نقلًا مع بعض التصرُّف ؟ وإذن فهو خبر غريبٌ لا يسلَّم ، فيأتى هو بالخبر مُلْقًى على ما يوجب التسليم به ، وهو مع كُلّ ذلك منقول من كتاب مُحْدَثٍ ألَّفه صاحبُه منذ أكثر من خمسين سنة ، وهو فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وقبل أن تطبع الكتب التى ذكرناها آنفًا ، فلم يطلع على شىء منها ؟ ومع كل ذلك أيضًا ، فهو ينقله باختصارٍ مُوهِمٍ مفسدٍ ، لأن صاحب « ذكرى أبى العلاء » يقول :

« قال القفطىُّ والذهبىُّ : فمرّ فى طريقه باللاذقيّة ، فنزل بدير فيها ، ولقى بهذا الدير راهبًا قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل ، فأخذ عنه ما شككه فى دينه وفى غيره من الديانات . قال : ونمّ عليه بذلك شعر الصِّبا ، ثم استغفر وتاب ، والتمس لكلامه وجوهًا من التأويل قُبِلت منه ، ولكنهما لم يرويا شيئًا من هذا الشعر » . هَذَا نصُّ كلامه ، وواضح أنه لا القفطىُّ ولا الذهبىُّ قال ذلك ، بل وصف القفطىُّ الراهبَ بما يشعر بأنّه شادٍ مبتدئ ، يتخطَّف نُبَذًا من علوم الأوائل ، أى من مبادئ أقوال الفلاسفة ، وأنه لا درس ولا فقه ولا علم ، كما قال الدكتور طه ، حين غيَّر لفظ القفطىِّ ولفظ الذهبىِّ إلى لفظه هو . وهذا أمرٌ غير حسنٍ ، لا أظنُّ الدكتور طه يرضى عنه اليوم ، لعلمى بما هو عليه من حبِّ الأَوْبة إلى مقالة الحقّ .

أما فعل الدكتور لويس عوض ، فليس فعلَ دارس جامعىّ ، لأنه نقل صدر كلام الدكتور طه فقال : « ولقى بهذا الدير راهبًا قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل » ،

واقتصر على هذا ، وأتبعه تفسيرًا جديدًا ، وكأنه أنكر لغة الدكتور طه لِقِدَمها وغموضها وطُولها فقال : « أو باختصار أخذ عنه اليونانيات ، فما علوم الأوائل هذه التى كانت تقرأ فى الأديرة تحت حكم الروم ، إلاّ آداب اليونان وفلسفتهم فى لغتها الأصلية » ، هكذا « خبطًا لزقًا » يا دكتور لويس !! ما أجرأك على تاريخ الروم واليونان وتاريخ الأديرة ! وإذا كنتَ على هذه جريئًا كُلّ هذه الجرأة ، فليس بمستغرب أن تكون على تاريخ أهل الإسلام أجرأ .

وإذنْ ، باختصار ، كما يقول الدكتور لويس ، فهو فى هذه الأسطر القلائل التى كتبها ، لم يفعل فِعْلَ أستاذ جامعىّ ، بل ذكر « المنهج » فى أوّل كلامه إيهامًا ، إن لم أقل ترديدًا لشىء سمعه قديمًا أيام كان يشدو آداب اللغة الإنجليزية ، ولكنه بقى إلى اليوم لا يدرى ما هو ، ولا كيف يكون ؟ [سأتابعُ القول فيما بعد ، لأن العرض مستمرّ] .

... بَلْ مَعِيباً

الرسالة

الخميس ٢٩ رجب ١٣٨٤

٢

ليس حسنًا ، بَلْ مَعِيبًا أن يتَّخذ كاتبٌ قلمه أداةً لخداع القارئ عن عقله والتغرير به ، ولكن هكذا كان ! فإن الدكتور لويس عوض انتحل لفظ « المنهج » وأجرى به قلمه ، ليخدعنا ، فيما يتوهّم هو ، عن عقولنا . فمنذ بدأ مقالته عن رسالة الغفران ، لم نزل نسمَعُ للمعاوِل فى الأحجار الصُّمّ صليلًا وزجَلًا (أى طنينًا وجَلَبة) ، وألحَّ على ذلك حتى أقام ستارًا كثيفًا من غُبار القرون الخوالى منذ عهد هوميروس ، يحجبُ شخصه عن عُيُوننا . وفعل ذلك ، كما عرفنا بعدُ ، لكى يتسنَّى له أن يخرج عن شيخ المعرَّة ، وعن رسالة الغفران ، وعن ابن القارح « فِلْمًا » مثيرًا متلاحق البَكَرَاتِ ، مثل أفلام « كوفاديس » و « المصارعون » ، و « الرداء » . ثم إذا بنا نراهُ يخرجُ من وراء الحُجُب ليعرض علينا أفلامه فى بَنِيَّةٍ مظلمة (أى بناء مظلم) ، بناها لأفلامه وسمَّاها « منهجًا » ، اصطفاه واختاره ليعيننا ، زَعَم ، « على معرفة موقف هذا الرجل العظيم من أفكار عصره ، ومن أحداثه ، ومن رجالاته ، ومن أحواله بوجهٍ عامٍّ » . والحقيقة هى أنه طلع علينا بسلامة طويَّته ، وبالمعروف من إخلاصه وتنزُّهه عن الهوى ، ففعل بنا ، وبشيخ المعرّة ، وبرسالة الغفران ، وبابن القارح ، ثم بعصرهم جميعًا ، وبرجالاته ، وبأفكاره ، وبأحداثه ، وبأحواله بوجهٍ عام !! أبْشَعَ ممَّا دلّ عليه ظاهرُ كلامه أنّه فاعلٌ . وذلك حين عرض علينَا شيئًا سماهُ « الخلفيّة التاريخية لهذا العمل العظيم » ونعوذُ بالله وحده من سوء تراكُب الألفاظِ ، ومن سوء اختيارها ، ولأمرٍ مَا قال القائل قديمًا :

قَـدْ عَـرَفْـنَـاكَ بِـاخْـتِـيَـارِكَ إذْ كَانَ دَلِيلًا عَلَى اللَّبِيبِ اخْتِيَارُهْ

وإذا بِى كأنى أرى شيخ المعرّة قد هبَّ من تحت أطباق رَمْسه ينفضُ عن أكفانه ترابَ القرون ، وكأنى أراه مائلًا مُضىء القَسِماتِ فى حنادس هذه البنيّة المظلمة ، وكأنى أسمعه يقول للناس ، مستنكفًا ساخرًا لاذعًا كعادته : ما هذا ؟ « هل هو إلا

كما قالت الكاهنة : أُفٍّ وتُفٍّ ، وجَوْرَبٍ وخُفٍّ . قيل : وما جوربٌ وخفٌّ ؟ قالت : واديان فى جهَنَّمَ » !! (رسالة الغفران : ٤٦٢) وحسبُك من شرٍّ سَماعُهْ !

* * *

وأنصرف الآن إلى تتمة الكلام فى الخبر الذى رواه القاضى الأكرم جمالُ الدين أبو الحسن على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيبانى ، المعروف بالقفطىّ ، وهو خبر لقاءِ شيخ المعرّة فى صباهُ راهبًا بدير الفاروس ، باللاذقية . وقد قلت قبلُ إنه خبر ينضمُّ على عِلَل قادحةٍ فى صدقه ، وأنه يحمل فى خِلاله البيِّنة على تكذيبه ، وأنّ سِياقَهُ مضطرب مناقضٌ للواقع [ص : ٢٨] وأستغفر الله مما قلتُ بل هو خبرٌ حَشْوُ ألفاظه كوائن ! (والكوائن ، هى المصائب ، والدواهى ، والبوائق) .

ومصدرُ هذه الكوائن ، أنه خبرٌ لم يعرفه أحدٌ فى خلالِ مئة وعشرين سنة على الأقل ، منذ وفاة شيخ المعرة فى سنة ٤٤٩ هـ ، إلى مولد القفطىّ سنة ٥٦٨ هـ . وليت الأمر يقف عند ذلك . فلو افترضنا أن أوَّل ترجمة كتبها معاصِر لشيخ المعرة ، كُتبت سنة ٤٢٠ هـ ، وأن القفطى كتب كتابه « إنباه الرواة » ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، أى سنة ٦٠٠ هـ ، (وهذا بعيد جدًّا ، لأنه كُتب بعد ذلك بلا شك) ، فهذه مئة وثمانون سنة على الأقلِّ ، تراكمت أيامُها ولياليها سُورًا فاصِلًا بين صاحب الخبر والمخبَرِ عنه . وقد أسلفتُ طرَفًا من ذلك فى كلمتى الماضية ، ولكنّى أحبُّ اليومَ أن أجعلَ عِلْم ذلك واضحًا جليًّا لعينَىْ أستاذٍ جامعىّ كان ، هو الدكتور لويس عوض ، فإن زَكاة العلم نشره وإذاعتُه والإبانة عنه ، وهى علينا فريضة مُحْكَمة كفريضة زكاة الأموال ، نؤدِّيها لوجه الله لا نريدُ منكُمْ جزاءً ولا شُكُورًا ، لأننا نعتقد بلا ارتياب ، أنّ من سُئِل علمًا فكتمه ، جاءَ يوم القيامة مُلجَمًا بلجامٍ من نارٍ ! وصدق رسول الله ﷺ .

فإذا أقررنا أن هذا الخبر المكتوبَ فى نحو سنة ٦٠٠ هـ ، انفرد به القفطى فى مئة وعشرين سنة ، وعُدْنا فنظرنا ، فعندئذ نجد أنَّه خبرٌ غير معروف لأحدٍ من المؤرّخين بعده ، إلى أن توفى المؤرخ الحموى الشامىُّ الكبير أبو الفداء فى سنة ٧٣٢ هـ ، فهذه مئة وثلاثون سنة أخرى تخلُو من ذكره ، فجميع ذلك عشر سنوات وثلاثمئة سنة . ولكن يعاصر أبا الفداء رجل آخر ، وهو مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى

(٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) ، اطلع على كتاب القفطى (كما ذكر ذلك فى ترجمة شيخ المعرة) ، فنراهُ يذكر هذا الخبر ، مختصرًا له ، ومغيرًا لبعض ألفاظه . وإذن فذكر الذهبىّ له لا يعضُدُ القفطىَّ ، لأنه نقل عنه . وهذا واضحٌ ، بالطبع ، لكُلّ مبتدئ جامعىّ ، ناهيك بأستاذ جامعىّ ! فنبْقَى إذن حيثُ كنا ، أنه خبر انفرد به القفطى على تطاول ثلاثة قرون وعشر سنواتٍ . وهذا واضح أيضًا لمن ذكرنا ! ولو كنت أخاطبُ غير أستاذٍ جامعىٍّ لقلت : حسبى ، وأبطلت الخبر من هذا الوجه وحدَهُ ، ولكن لابُدّ مما ليس منهُ بُدّ .

وإذن فلابُدّ من أن أعودَ القهقرَى (أى ، إلى خَلْف) ، وإن كنت لا أحبُّ ذلك ، فالقفطىّ المصرىّ (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) ، له معاصرٌ لا يقلُّ عنه قدرة وحرصًا ومعرفة ، هو ياقوت الحموىّ الشامىّ (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) ، وهو سَنِينُه (أى مقارب له فى السن) ، فممّا يُعلِّمه الأساتذة الجامعيون للمبتدئين الجامعيين ، فيما أعلمُ ، أن لا يغفلوا عن مقارنة أقوال المتعاصرين ، ومصادر أخبارهم ، لأنّه أساسٌ تهدى إليه بديهة العقل ، ولكن كثيرًا ما يغفل المرء عن البدائه ! فالقفطىّ مصرىٌّ لم يطلْ مُقامُه بالشأم ، وياقوت شامىٌّ مقيم بديار شيخ المعرّة . فهو إذنْ أعلمُ بأخبار الشأم ، وإن لم يكن هذا ضرورةً ملزمةً ، ولكنْ كُلّ الدلائل تدلُّ على ذلك من مدارسة كتب الرجلين . هذه واحدة .

ثم أخرى ، ففى ترجمة ياقوت لشيخ المعرة بعضُ أخبار تدلُّ على أنّ الرجلين كانا يتنازعان أطراف الحديث فى أخبار شيخ المعرّةِ . وفوق ذلك ، فإنّ ياقوتًا روى عن القفطىّ أخبارًا كثيرة فى كتبه وترجم له فى « معجم الأدباء » ترجمة ضافية ، والقفطى حىٌّ بعدُ ، وذكر فيها كتاب أخبار النحويين للقفطى (وهو إنباه الرواة) ، وأثنى على الرجل ثناء كبيرًا ، وبلغ به حبُّه أن ألَّف له كتابه « معجم البلدان » وقال فى مقدمته : « وأهديتُ هذه النسخة بخطى إلى خزانة مولانا الصاحب الكبير ، العالم الخطير .... القاضى جمال الدين الأكرم . أبى الحسن على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيبانى .... إذ كانَ أدام الله علوَّه عَلَم العِلْم فى زماننا ، وعين أعيانِ أهل عصرنا وأواننا ، وأعدتُ إليه ما استفدتُه منه ، وروى عنّى ما رويته عنه ، فأحسن الله جزاءه ، وأدام عزّه وعلاءه ، بمحمد وآله الكرام » . فصَرَّح بروايته عنه .

فيسأل السائلُ نفسه : ألم يَسْمع ياقوت هذا الخبر من القفطى ، مع مراجعته ومذاكرته له فى شأن شيخ المعرة ؟ ألم يقرأه فى كتاب « إنباه الرواة » ، وقد ذكره فى ترجمة القفطى ؟ فإذا كان قد سمعه أو قرأه ، فلم أغْفَله ولم يذكُره ؟ ألأنّه أراد أن يدفع عن شيخ المعرّة مَعَرَّة هذا الخبر (أى عاره وشَناره وقبحه) ؟ أم لأنّه سألَ القفطىّ عن مخرج الخبر ، فاستسقطه وعدّه قُمامةً تقمَّمها من سُقَّاط الناس (أى أراذلهم وحمقاهم . والقمامة ، الكناسة) فطرحه لخُبْث مخرجه ، ثم أنِفَ أن يذكره فى كتابه ويردّ عليه ، إجلالًا للقفطىّ ؟ هذه أسئلة يجب على الجامعىّ المبتدىء أنْ يُحْضِرها بين يديه ، ناهِيك بأستاذٍ جامعى ، زعموا .

ولكى يجد الجوابَ عنها ، ينبغى أن يعرف مَنْ ياقوت هذا الذى ترجم لشيخ المعرة ، فأغفل هذا الخبر ، ولا يشكُّ قارئ شادٍ عرف كتب الرجُل ، أنه كان جَمّاعًا للأخبار ، حريصًا عليها ، متتبّعًا لها بإلحاحٍ لا يملُّ ، من الكتب والصحف ، والأوراق وأفواه الرجال ، وكان مع ذلك نَقَّادًا بصيرًا . وسأضرب لك مثلًا على نقده وبصره من ترجمة شيخ المعرة نفسه ، فإنّه أخبرنا أنه قرأ خبرًا فى كتاب « فلك المعانى » لابن الهبّاريّة (..... - ٥٠٩ هـ) ، فيه بيتان نسبهما لشيخ المعرة ، ووصفه بعدهما بأنه متحذلق عريضُ الدعوى طويلُها ، وأنهما من كلام مجنون معتوه . ثم زعم ابن الهبارية أن الله سلَّط على شيخ المعرة أبا نصر هبة الله بن موسى ابن أبى عمران داعى الدعاة الفاطمىّ ، فجرت بين الرجلين مكاتبات ، ثم أمر داعى الدعاة بإحضار الشيخ إلى حلب : « فلما علم أبو العلاء أنَّه يُحْمَل للقتل أو الإسلام ، سمَّ نفسه ومات » ، قال ياقوت بعد ذلك : « فلما وقفت على هذه القصة ، اشتهيتُ أن أقف على صورة ما دار بينهما على وجهه ، حتى ظفرتُ بمجلد لطيف ، وفيه عدة رسائل من أبى نصر إلى المعرىّ ، انقطع الخطاب بينهما إلى المساكتة ، ولم يذكر فيها ما يدلُّ على ما ذهب إليه ابن الهبارية من سَمِّ المعرىِّ نفسه ، ونَقْلُها على الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض ، دون تفاصح المعرىّ وتشدُّقه » ، ثم ذكر قدرًا كبيرًا من هذه الرسائل ، وهى موجودة فى معجم الأدباء (وهو مطبوع بالطبع) .

ويستطيع أىُّ مبتدئ أن يقدّر حرصَ ياقوت على تتبُّع كُلِّ شىء ، ولا سيَّما ما خصَّ شيخ المعرّة ، ثم يقدّر مقدارَ ما عنده من « الشهوة » إلى المعرفة ، ثم يقدّر

أنه لا يتلَقّى الأخبار بالتسليم المجرّد بل ينقدُها ويمحِّصها ، ثم يقدِّر مع ذلك أىّ تحامُلٍ يُكنّه ويبديه على شيخ المعرة . ومَنْ عنَّى نفسه ، (أى أتعبها) فى قراءة ترجمة ياقوت لشيخ المعرة ، واجدٌ وُجْدَانًا ظاهرًا أن الرجل شديد الوطأة على الشيخ ، مُؤثِرٌ للوقيعة فيه وفى دينه ، يجمع الشوارد والأقاصى من أخبار الطعن فيه ، وهو فى ذلك شديد الضراوة فى عداوته ، لا يقف عند استثقال الرجل ، واستنكار تفاصحه وتشدُّقه ، بل يعلق على الأخبار والشعر بألفاظ مستشنعة حتى يقول فى بعض تعليقه : « كأنّ المعرّىَّ حمارٌ لا يفقَهُ شيئًا » ، ثم يزيدُ ما شئت .

فإذ قد عرفنا شَرَه ياقوت إلى مجرّد العلم ، ثم ضراوته بأخبار شيخ المعرَّة ، ثم قَرَمهُ إلى لحم الشيخ ينهشُه (والقرم ، شدة شهوة اللحم) فأنْ يسمع « ياقوت » من « القفطى » أو غيره خبرَ راهب دير الفاروس الذى ضلّله عن دينه ، ثم يغفلَهُ فلا يذكرهُ ، فذلك عجبٌ ! وأنْ يريد بإغفاله دفع المعرَّة عن شيخ المعرّة ، فذلك فوق العجب ! وأنْ يسمعه من القفطىّ ، فيسأله عن مخرجه ، فيجده قُمامة تقمَّمها من سُقَّاط الناس وأراذلهم ، فيطرحه لخبث مَخْرجه ، ثم يأنَفُ أن يعيد ذكره فى كتابه وينقده ، كما نقد ابن الهبارية ، إجلالًا لصاحبه القاضى الأكرم القفطىّ ، فذلك جائزٌ قريبٌ . ويكون معنى ذلك أن ياقوتًا فوجئ بخبرٍ لم يسمعْهُ من قبلُ مع طولِ مُقامه بالشأم فى ديار شيخ المعرة ، وهو نِقَابٌ متدسِّسٌ ، (والنِّقاب ، العالم بالأشياء ، الكثير البحث عنها والتنقيب عليها) ، فسمعه من رجل غريب لم يَطُلْ بالشأم مُقامه ، وسمعه الغريبُ من مغمورٍ تالفٍ فاستطرفه فحازهُ ، وظن أنّه وقف عَلَى شَاردةٍ من الشواردِ ، ثم حدّثَ به شاميًّا عريقًا هو أشدُّ منه جمعًا وتنقيبًا ، ليُغَايره بهذه العجيبة النفيسة النادرة كما تفعل الضرائر ، (« المغايرة » ، استثارة الضَّرة غيرةَ ضَرَّتها) ، وهذا أمرٌ مألوفٌ فى بعض أهل العلم ، وفى كل زمان ومكان ، فإكرامًا للقفطىّ أغفل ياقوت الخبر ولم يذكره ، واستنكف أن يذكره فينقده ، فيسوءَ صاحبه ويكشف عن عُواره ، وخرج بالصمت عن « لا » و « نعم » . هذا تفسيرُ ما غمض !

فلم يبق إذن من تساؤل المتسائِل ، إلاّ أن يكون ياقوت حين ذكر كتاب « إنباه الرواة » ، لم يطلع عليه ، بل سمع من القفطىّ أنه ألف كتابًا فى أخبار النحويين ،

فأثبت ذلك فى ترجمته ، وهذا ممكنٌ قريب ، وإلاّ أن ياقوتًا حين كان يذاكره فى شأن شيخ المعرّة ، لم يسمَعْ منه هذا الخبر ، على غرابته ونُدْرته ، وهذا جائز أيضًا وقريبٌ ، ولكن لعل الشيخ القفطىّ قد غلبه الحياءُ أن يحدِّث به شاميًّا خبيرًا بأخبار أهل الشأم ، لعلمه هو نفسه أنه خبرٌ تلقَّفَه ليتباهَى به فى كتبه طلبًا للإتيان بالغرائب ، على عادة بعض أهل العلم فى كل زمان ومكان ، والدكتور لويس عوض جدُّ عليم بذلك عن خبرةٍ وتجربة !! فتكون العلَّة فى تركِ القِفطىّ إسنادَ هذا الخبر النادر الغريب المنفرِد ، إلى كتابٍ وجده فيه ، أو إلى رجُلٍ من شيوخه أو علماء عصره الذين لقيهم بالشأم أو مصر ، وفعل ذلك على غير عادته فى تراجم من ترجم لهم = هى أن مصدر الخبر كان عنده منكرًا خبيثًا ، فترك التصريح به . والقفطىٌ عالم خبيرٌ ، كانت له خزانةُ كُتُب ، كما ذكر ياقوت آنفًا ، وهو لم يترجم لشيخ المعرّة إلاّ بعد اطلاع واسع على نوادر الكتب قبله ، وقد انقضت مئة وثمانون عامًا بينه وبين أبى العلاء ، أُلِّفت فيها كتب كثيرة ، وترجم للشيخ قبله عدَّة من العلماء ، فهو يعلمُ أن الخبرَ غير معروف عندهم ولا مشهُورٍ ، فكيف استجاز أن يُغْفل إسناده إلى كتاب أو قائل ؟ كانَ أوّل ما يَفْعل أن يتباهى بإسناده إلى كتاب سبقه لم يقف عليه غيره ، أو إلى شيخٍ حدَّثه به ، هو عند الناس عليمٌ حافظٌ كثير السماع من شيوخ قبله . وهذه أشياء تهدى إليها بديهة العَقْل ، آثرتُ الدكتور لويس عوض باستخراجها له ، ليجدَ فيها متاعَ الأستاذ الجامعىّ بطرائف نقد الأخبار والأقوال !

وقبيحٌ بالمبتدئ الجامعى عند هذا الموضع ، إذا كانت له شُفَافةٌ من فطنة ، (أى قليل لا يكاد يذكر) ، أن ينسَى همَّة ياقوتٍ فى البحث والتنقيب ، وطولَ مدارسته للكتب ، وكثرةَ حشده للأخبار من الكتب والأوراقِ وأفواه الرجال ، كما ذكرت قبلُ من صفته ، فلا يعجبُ أن يكون ياقوت لم يقف على الخبر فى كتب الماضين ، ويقدَّرَ للقفطى وحده أن يقفَ عليه . فهذا أعجبُ العجب عند أهل المعرفة بالرجلين ، وبما كتبا .

وإذن ، وأنت سيد العارفين ، فقد انفردَ القفطىّ بهذا الخبر الغريب المنكر ، والذى جاء به بغير إسنادٍ إلى كتابٍ أو شيخ ، مع العلل المتضافرة على وجوب

إسناده ، على امتداد ثلاثة قرونٍ وعشر سنواتٍ ! ولم ينفعه ذكره فى كتاب مؤرخ الإسلام الذهبىّ ، لأنه عن القفطىّ نَقَلَ . ثم يتتابع بعدَ الذهبىّ ثمانية كبارٌ من المؤرخين ، يذكرون الخبر أيضًا منقولا عن الذهبىّ ، مختصرًا بعد اختصار الذهبىّ له ، وقد غيّروا بعض ألفاظه طلبًا للاختصار ، حتى كان زمانُنا الذى كان فيه الدكتور لويس عوض ، وهو سنة ١٣٨٤ من الهجرة ، فلا يعضُد خبرَ القفطىّ شىءٌ من ذلك الغُثاء كلِّه ولا ينفعه ، لأنهم جميعًا لم يعرفوه إلا عن طريق القفطى وحده ، فترداده‍ُمْ للخبر ناقلين عنه ، لا يُجْدِى ولا ينفع . وهذا أمرٌ ، أظنُّه ، معلومٌ بالبديهة ! أليس كذلك ؟ وإذا كان كذلك ، فالقفطىّ يقف وحده منذ كُتِبت أول ترجمة لشيخ المعرة فيما افترضنا آنفًا ، سنة ٤٢٠ هـ ، إلى سنة ١٣٨٤ هـ ، فهى بحساب المعلم ، وبالأرثماطيقا أيضًا : تسعمئة سنة وخمس وستون ! وقف الناس خلالها ، قبل القفطىّ وبعد القفطىّ على الآلاف المؤلفة من الكتب ، فلم يتفضَّل علينا متفضِّل بذكر هذا الخبر عن أحدٍ رواه عن شيخ ، أو رآه فى كتاب ! أليس هذا عجيبًا ؟ أظنُّ ذلك ، ولكن هل يوافقنى الدكتور لويس عوض على هذا الظنِّ ؟ هذا والله أحبُّ شىء إلىّ أن أَعلمه .

وهذا حسبُنَا وحسبُه فى دراسة مصدر الكوائن (وهى المصائب ، والدواهى ، والبوائق) التى أحاطت بهذا الخبر المفرد من قبل روايته . وكان لنا حَسْبًا فى إبطال هذا الخبر واطِّراحه ، أن نبيّن خُبْث مخرجه من قِبَل انفراده ، ولكنى أخشى ألاّ يقنع الدكتور لويس عوض بذلك ، حتى أستخرج له بقية الكوائن التى انطوت عليها ألفاظه ، فالله المستعان ! وحسنٌ هنا أن نعيد ألفاظه ، كما ذكرها القفطى ، لا ألفاظه بعد التغيير الذى فعله الذهبىّ ، ولا ألفاظه بعد التعديل الجديد الذى أدخله الدكتور لويس عوض ! فالقفطىّ يذكر رحلة الفتى الذى صار شيخ المعرة ، وقد كبر وبلغ سنّ الطلب ، إلى طرابلُس الشأم ثم يقول :

« فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس ، وكان به راهبٌ يشدو شيئًا من علوم الأوائل (أى ، تعلم منها قليلًا ، ولم يعرفها معرفة جيّدة) فسمع منه أبو العلاء كلامًا من أوائل كلام الفلاسفة (أى مبادئ كلام الفلاسفة) ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلِق بخاطره ما حصلَ به بعضُ الانحلال ، وضاق عَطَنُه عن

كتمان ما تحمَّله من ذلك ، حتى فاه به فى أول عمره ، وأودعه أشعارًا له ، ثم ارعوى ورجع ، واستغفر واعتذر ، ووجّه الأقوال وجوهًا يحتملها التأويل » .

وسأعامل هذا الخبر معاملة الدكتور لويس عوض ، فأدعُ « الخلفية التاريخية » ، والعياذ بالله ، وهى صدرُ الخبر ، وآخذ القضية التى أفضى إليها . فصاحبُ هذا الخبر ، ولا ندرى أىُّ الطِّبْل هو ؟ (أى ، أىُّ الناس هو ؟) يقرر أن أبا العلاء ضاق صدره بشكوك لم يُطِقْ كتمانها ، فأودعها أشعارًا قالها فى أول عمره ، ثم ارعوى ووجَّهها وجوهًا يحتملها التأويل . فإن تكن الخلفية التاريخية ، وبالله نستجير ، محتاجةً إلى براهين على فسادها يختلف الناسُ عليها ، وهذا بعيد وغير صادقٍ ، فإن القضية ممكنٌ عرضُها على شيء حاضر بين أيدينا ، لا يمكن الاختلاف عليه .

قال كليلة لدمنة : كيف كان ذلك ؟ قال دمنة :

زعم القفطىُّ فى ترجمة شيخ المعرّة ، أن بعض البغداديين بالبلاد الشامية أحضر له أوراقًا تشتمل على ذِكْرِ تصانيف أبى العلاء وتقادير أكثرها . وزعم ياقوت الحريصُ على تتبُّع كُلّ شيء أنَّه وقف على فهرست كتب شيخ المعرة ، نقله من خط أحد مُسْتَمْلِى الشيخ (أى كُتّابه) ، أملاهُ أبو العلاء نفسه ، وأنه قرأ نسخة أخرى منها ، فلم يقنع بواحدة ! فمن طريق القفطى وياقوت وغيرهما ، تجد لشيخ المعرة خمسة كتب فى المنظوم [وهو الشعر] ، وهذه صفتها وتقاديرها ملخّصةً :

(١) « سقط الزند » ، يشتمل على شيء نُظِم قديمًا ، تزيد الأبيات المنظومة فيه على ثلاثة آلاف بيت (وهو مطبوع) .

(٢) « لزوم ما لا يلزم » ، أربعة أجزاء ، مئة وعشرون كراسة ، فيه أحد عشر ألف بيت (وهو مطبوع) .

(٣) « ملقى السبيل » ، وهو أربع كراريس ، (وهو مطبوع) .

(٤) « استغفر واستغفرى » يشتمل على نحو عشرة آلاف بيت (بلغنى أنه وُجِد ، ثم عرفت أن ذلك باطل) .

(٥) « جامع الأوزان والبحور » ستون كراسة ، تسعة آلاف بيت (لم يوجد بعد) .

ومعلومٌ عند أهل الشأن ، (ولا مؤاخذة ولا تثريب) ، أن الأربعة الأخيرة كتبها شيخ المعرةِ وهو رَهْنُ المحبسين ، أى بعد عزلته فى سنة ٤٠٠ ، وقد جاوز السابعة والثلاثين من عمره بكثير ، فهذه لا تدخل فى نص صاحب الخبر إذ قال : « فاه به فى أول عمره » ، فلم نحصل مما ذكرنا إلاّ على « سقط الزند » ، الذى نصّ شيخ المعرة فى فهرست كتبه على أنه « شىء نُظِم قديمًا » ونصّ الشيخ الإمام أبو زكريا التبريزى (٤٢١ - ٥٠٢ هـ) على مثل ذلك إذ قال : « قرأتُ عليه كتبًا كثيرة من كتب اللغة وشيئًا من تصانيفه ، فرأيتُه يكرهُ أن يقرأ عليه شعر صباه ، الملقب بسقط الزند ، وكان يغيّر الكلمة إذا قرئت عليه ، ويقول معتذرًا من تأبِّيه وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحتُ نفسى فيه ، فأنا أكره سماعه . وكان يحثنى على الاشتغال بغيره من كتبه ، كلزوم ما لا يلزم وجامع الأوزان ... » . ثم يجىء شيخ المعرة فى مقدمة « سقط الزند » ، فيذكر أن هذا كان منه إذ كان فى « رُبَّانِ الحداثة (أى أوائل الشباب) مَائلًا فى صَغْو القريض » (أى ناحية الشعر) ، ثم يذكر أنه كره شعر صباه : « لما فيه من غلوّ فى مدح الآدمىّ » ، بألفاظ ربما كان فيها صفات تحتملها صفات الله عز وجل ، فهو يبرأ منها ويجعلها مصروفةً إلى الله سبحانه ، ثم يستغفر مما فعل .

وشىءٌ قليل من الأناة يتجمّل به المبتدئ الجامعىّ ، يُريه عِيانًا ماثلًا أن شيخ المعرّة لم يعتذر ممّا زعمه التالف صاحب خبر القفطى ، بل اعتذر ، كما قال التبريزىّ ، من مَدْحِ نفسِه فى شعر الصِّبَا . وحسبُك برهانًا على ذلك ، ما كنَّا نتعلّمه من شعره ونحن أطفالٌ فى سقط الزند :

وَإِنِّى وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُه ، لآتٍ بمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ

واعتذر أيضًا من الغلوّ فى مدح الآدمىّ بصفاتٍ لا يستحقُّها ، وهذا كثيرٌ من أوّل شعر السقط إلى أواخره ، فإذا علمنا أن الشيخ إنّما اعتذر من هذا وأشباهه ، ولم نجدهُ اعتذر من شىء غيره كان فى « سقط الزند » ، فذلك وحدَه كافٍ فى الدلالة على جهل صاحب الخبر بشأن المعرىّ وبشعره . ونَعَمْ ، قد وجد الناسُ ، بعد أن ساءت القالة فى الشيخ ، كما سأبيّن ، فى « سقط الزند » شعرًا استخرجوه ليقدحوا به فى ديانته ، ولكن المبتدئ الجامعىّ الشادى يستطيع أن يعلم أنه محصورٌ فى ضرب

واحدٍ هو ما جاء فى بعض مراثيه من ذكر هَوْلِ الموت واستبشاعه ، وأن الموتَى يُفْضُون إلى غَيْبٍ مجهول ، لا يأتينا عن أحد منهم خبرٌ ، وأشباه ذلك . ولا أظنّ ، ولا أظن الدكتور لويس عوض يظنّ ، أن شيئًا من ذلك كان ممكنًا أن يجلبَ على الرجل الوقيعة فى دينه ، وإساءةِ الظنّ فى اعتقاده ، لأنه لم يَسِرْ فيها إلاّ على مَدارج الشعراء قبله وبعده ، ممن لم يَرْمِهِمْ أحدٌ بمثل هذه النقيصة . وإذن فباطلٌ أن يكون محتاجًا إلى الاعتذار منه ، وتوجيهه وجوهًا يحتملها التأويل ، كما قال الراوى .

وكُلّ شادٍ جامعىّ مبتدئ ، يستطيع إذا عرفَ لغة العرب ، أن يقرأ « سقط الزند » كُلَّه ، فيجده خِلْوًا (أى خاليًا خُلُوًّا تامًا) من شكوكٍ يمكن أن يقال إنها انقدحت فى صدر الفتى المعرىّ ، من جراء أقوال من أوائل أقوال الفلاسفة ، سمعها من راهب « يشدو شيئًا من علوم الأوائل » ، فإذا صَحَّ هذا ، وهو صحيح بلا شك ، فحسبُه به تكذيبًا لقضية هذا الخبر ، وناهِيك به دليلًا على جَهْل قائله جهلًا تامًّا مُحْكَمًا بشعر أبى العلاء فى صباه . ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أزيد هذا الشادى المبتدئ شيئًا من المعرفة ، أو أوفِّر عليه بعض الجُهْدِ أو أعطيه مفتاحًا صغيرًا لدراسة شىءٍ من تاريخ شيخ المعرة ، بأن أدلّه على شىءٍ حققته بنفسى متتبعًا شعر « سقط الزند » ، وهو أن جُلَّ ما استخرجَه الطاعنون فى الشيخ من شعر « سقط الزند » ، ممّا نسبوه إلى سوء اعتقاده بعد تأويله ، ليس البتة مما قاله فى أول عمره وصباه ، بل ممَّا قاله وهو فى الثلاثين وما بعدها بقليل . وهذه فائدة لطيفة !

وصاحبُ هذا الخبر ، بلا أدنى ريبٍ ، بعد الذى قدّمناه : ليس معاصرًا لأبى العلاء ، لأنّه لو كان له معاصِرًا ، لسارع القفطىّ المنفرد بالخبر إلى ذكر اسمه ، كما توجب بداهة العقل ، (ومع الأسف أنا فى شكٍّ من مسألة وجود بداهة العقل فى أيامنا هذه !) . فإذْ ليس معاصرًا ، (وهذا أمرٌ ستعرف معناهُ بعد قليل) ، فإنّما هو إنسانٌ قال ما قال بعد أن ساءت القالة فى عقيدة أبى العلاء بعد سنة ٤٠٠ ، أى بعد أن عادَ من بغداد ، ولزم بيته ، وترك أكل اللحم ، وكتب ما كتب من شعره ، مثل « لزوم ما لا يلزم » و « استغفر واستغفرى » ، وغيرهما ممّا كان سببًا فى التشنيع عليه والنقيصة من دينه .

قال كليلة لدمنة : وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة :

زعموا أنَّ أول من كتب لشيخ المعرّة ترجمةً من معاصريه هو الثعالبىّ ، فى « تتمة يتيمة الدهر » (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) ، وتوفّى قبل أبى العلاء بعشرين سنة ، وكتابه مطبوعٌ . فمن الخير ، بل من أجلِّ النعم التى يحتازها جامعىّ ، شاديًا كان أو أستاذًا كالدكتور لويس ، أن يعرف نصّ هذه الترجمة ، قال :

« كان حدثنى أبو الحسن الدُّلفىُّ المصِّيصىُّ الشاعر (والمصِّيصة التى ينسب إليها ببلاد الشأم) ، وهو ممن لقيتُه قديمًا وحديثًا فى مدة ثلاثين سنة ، قال : لقيتُ بالمعرّةِ عجبًا من العجب ! رأيتُ أعمى ، شاعرًا ، ظريفًا ، يكنى أبا العلاء ، يلعبُ بالشطرنج والنَّرْدِ ، ويدخُلُ فى كُلّ فنٍّ من الجدّ والهزل ، وسمعته يقول : أنا أحمدُ الله على العمى ، كما يحمدهُ غيرى على البَصَر ، فقد صنع لى وأحسن بى ، إذْ كفانى رؤية الثقلاء البُغَضاء . قال : وحضرتُه يومًا وهو يُمْلى فى جوابِ كتابٍ وردَ عليه من بعض الرؤساء » ، ثم ذكر ثلاثة أبياتٍ أملاها الشاعر الأعمى ، ولم يزد على ذلك شيئًا ، وهو خِلْوٌ (أى خالٍ خلوًا تامًا) من كل إشارة إلى اتهام الرجُل فى دينه .

وبقليل من فطنة الجامعىّ ، (وأخيرًا أعتذر لأساتذة جامعاتنا لأنى لا أعنيهم بهذه النسبة) ، يستطيع الشَّادى أن يعلم علمًا يقينًا أنّ فى قول أبى الحسن المصّيصىّ ، « لقيت بالمعرة عجبًا من العجب ، أعمى ، شاعرًا ، ظريفًا يكنى أبا العلاء » دليلًا ساطِعًا مستبينًا على أنه لقيه قبل آخر سنة ٣٩٨ هـ ، لأن شيخ المعرة فارق داره المعرَّة فى هذه السنة ، ورحل إلى بغدادَ ، وأقام بها إلى ستٍّ من شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، ثم فارقها إلى المعرة ، ولزم بيته ، وطبقت الآفاقَ من يومئذ شهرته ، وهو فى تلك السنة فى السابعة والثلاثين من عمره . ومحالٌ أن يكون كان ذلك بعد العُزْلة ، إذ لم يكن يجالس الناس يومئذٍ ، فَضْلًا عن « أن يلعب بالشطرنج وبالنرد ، ويدخل فى كل فن من الجدّ والهزل » ، كما قال أبو الحسن .

هذه واحدة ، وأخرى أن فى قول المصيصىّ فى آخر الخبر : « وحضرته يومًا وهو يملى فى جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء » ، دليلًا آخر على شىء مهمٍّ جدًّا ، ويزيلُ كثيرًا من الغموضِ الذى زعم الدكتور لويس عوض أنه يحيط بتاريخ أبى

العلاء إلى أن بلغ الخامسة والثلاثين من عمره . والدكتور بالطبع قد درس كُلّ شيء وأحاط بما لدينا علمًا !! وهذا شيء ينبغي الإقرارُ له به والصبرُ عليه (والله زمن ! كما تقول العجائز) . وأيًّا ما كان الدكتور لويس عوض ، فإنّ الرؤساء لا يكتبون إلى فتى فى أوّل عمره (كما يقول التالف صاحب الخبر) ، بل إلى رجُل قد استكمل رجولته وعرفه الناسُ وذكروه ، فراسله الرئيس بعد الرئيس وراسلهم . وبداهة المنطق ، (إن كان بقى للمنطق بداهةٌ ، بعد مقالات الدكتور لويس عوض عن شيخ المعرة ، والتى لا تزالُ تنشر إلى يوم الناس هذا : الجمعة ٢٣ رجب سنة ١٣٨٤ هـ) ، وبداهة المنطق ، والأمر لله ، توجبُ أن يكون أبو العلاء كان يومئذ فى حدود الخامسة والعشرين من عُمُره على الأقلّ ، أى فى نحو سنة ٣٨٨ من الهجرة ، على الأقل مرة أخرى .

وثالثة ورابعة ، وخامسةٌ ، وما شئت ، فنصُّ كلام أبى الحسن المصِّيصىّ ، دالٌّ أوضح الدلالة على أنه لقى أبا العلاء بالمعرة مرّاتٍ ، إذ لا يتفق أن يرى منه كُلّ هذه العجائب فى مجلسٍ واحدٍ ، إلاّ أن يكون الفتى المعرّى قد لقّنه راهب دير الفاروس أيضًا « فنَّ التمثيل » نقلًا عن يونان الدكتور لويس عوض ، فوقف على مسرح يعرض أعاجيبه دفعةً واحدةً ، ليستخرج بها العجبَ من عيون الناس ، والفلوسَ من جيوبهم ! = ودليلٌ آخر على تكرار هذا اللقاء ، أن أبا الحسن يقول : « وحضرتُه يومًا وهو يملى » ، فهذا يوم غير الأيام التى ذكرنا ، ويدل تنكيره « يومًا » على تكرّر ذلك فى أيامٍ متعددة ، (وهذا صعبٌ على الدكتور فهمُهُ ، فأعتذرُ) ، وإذا كان ذلك استنباطًا صحيحًا ، وهو صحيح بلا شكّ ، وكان هذا الأعمى الشاعر ، الظّريفُ الذى يلعب بالشطرنج وبالنرد ، ويدخُل فى كُلّ فنّ من الجدِّ والهَزل (آه !! كأنه يعنى بذلك التراجيديا والكوميديا ، وتلقاها أبو العلاء أيضًا عن الراهب بلا شك !) ، وكانَ أبو الحسن يلقاه خلال إقامته بمعرة النعمان مُعاوِدًا للقائه ، ويراه عجبًا من العجب ، ألم يكن من حقّ هذه الطريقة العجيبة على أبى الحسن أن يتقصَّى أخبارها ونشأتها ، وكيف بلغت هذا المبلغ ؟ وإذا فَعَل ، وكان هذا الأعمى متّهمًا فى دينه ، لِما استودعه شعرَ صباه من الشكوك (اليونانية) ، حتى احتاج إلى الاعتذار منها ، والتمس لها وجوهًا من التأويل ، ألم يَجد مُدَّة مُقَامه بمعرّة النعمان من يقول له : كان

وكانَ من خبر الفتى وانحلال دينه ؟ وإذا كان قد علم ذلك ، فلم أخفاه ، ولم لم يضمَّه إلى عجائب الفتى ليُطْرِفَ بها صاحبه الثعالبىّ ؟

وإجابة هذه الأسئلة بايجاز ، واستنادًا إلى ما سلف ، هو أن هذا شيء لم يكن قَطُّ ، وهذا بَيِّنٌ إن شاء الله تعالى ، ومع كُلّ ذلك ، فشيخ المعرة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، لم يكنْ مغمورًا ولا مجهولاً ، وقد تآزرت الأخبار على ذلك . ويحدِّثنا شيخ المعرة بالمعهود من صدقه ، على أنه كان يومئذ قد بلغ الغاية فى تحصيل العلم ، فهو يقول فى رسالته إلى خاله أبى القاسم على بن سبيكة ، والتى أرسلها إليه عند طلوعه من العراق سنة ٤٠٠ ، وهو يومئذ فى السابعة والثلاثين : « وقد فارقْتُ العشرين من العُمْر ، ما حدَّثتُ نَفْسى باجتداء علم (أى طَلَبِه) من عراقىّ أو شآمٍ ، من يَهْدِ الله فَهُو المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِل فلن تَجِد له وَلِيًّا مُرْشِدًا » .

وإذنْ ، فإلى أن كانت سنة ٣٩٨ من الهجرة على الأقلّ ، لم يكن دين أبى العلاء موضع تُهَمَةٍ ، ولا كانت مقالةُ السُّوء قد سارت عنه فى الناس ، وهو يومئذ فى الخامسة والعشرين شابًّا ملءَ شبابه ورُجولته ، وفى أوَّل الطريق الأعظم إلى الشهرة التى سوفَ تتردّد فى جنبات بلاد الإسلام . وتحليلُ خبر الثعالبىّ المعاصرِ الأوَّل له ، مسنَدًا إلى أبى الحسن الذى رآه بعينيه فى معرة النعمان مرارًا ، قد دلَّ دِلالةً قاطعة على أنّ هذه القالة لم تكن إلا بعد عودته من العراق ، واعتزاله ، وتأليفه ما كثرت عليه فيه المآخذ ، كلزوم ما لا يلزم ، واستغفر واستغفرى ، بعد سنة ٤٠٠ من الهجرة .

ولو كان ذلك معروفًا عنه فى صباهُ ، ثم اعتذر منه ، لما قال الخطيب البغدادىُّ المعاصر الثانى (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) ، بعد شهرة أبى العلاء ، ودخوله العراق ، والخطيب عند ذاك فى الثامنة من عمره ، لم يَعْقِل أمرَ أبى العلاء إلا بعد ذلك بدهرٍ : « وعارض سُورًا من القرآن ، (يعنى فى كتاب الفصول والغايات ، وهذا باطل بالطبع) ، وحُكِيَ عنه حكايات مختلفة فى اعتقاده ، حتى رماه بعض الناس بالإلحاد » ، فهذا لا يقوله مثل الخطيب لشىء كان فى الصبا الأوّل ، اعتذر منه صاحبه وتبرأ ووجَّهه وجوهًا يحتملها التأويل . وأيضًا لامتنع عقلًا (ولا مؤاخذة) ، أن يقول المعاصر الثالث ، وهو الباخَرْزىّ (.... - ٤٦٧ هـ) : « وقد طال فى ظلال

الإسلام آناؤه ، ولكن ربّما رَشَح بالإلحاد إناؤه » ، فهذا لا يقال في شيء قد انقضى في زمن الغضارة والجهل . على أن الباخرزيَّ يأتى بقاصمة الظهر ، فيقول بعد ذلك في شعر صباه : « ورأيت ديوان شعره الذى سماهُ سقط الزند ، وهتف فيه كالحمام على فَنَنٍ غضّ النبات من الزَّنْد » ، فلا ينكر من هذا الشعر شيئًا ، بل يثنى عليه .

* * *

فهؤلاء الثلاثة المتعاصرون ، يقطع حديثهم عن شيخ المعرّة ، بأن ما جاء فى « خبر الراهب » باطِلٌ ، لا يقولُه إلا جاهل بشعر أبى العلاء ، وبالزمن الذى ظهرت فيه تُهَمَتُه فى دينه ، ولا يقولهُ إلاّ ظنين (أى مُتّهم فى نفسه أو عقله) ، يحسبُ أن الناس كلهم مثله جُهّالٌ بلا عقول . ولا يقوله إلاّ مختلط العقل من سمادير الهوى والإدمان ، (والسَّمادير ، ما يتراءى للمخمور إذا دار رأسُه من سُكر الشراب) ، وكأنّى به سمع ما يقول الناس عن دين شيخ المعرة فقال ، يتباهى بطُرْفةٍ من الطرائف كأنها عِلْمٌ خَفِىَ على غيره ، وكأنه سمع قول أبى الأسود الدؤلى فى طلب العيش :

وَمَا طَلَبُ المَعِيشةِ بالتمنّى ... ولـكِنْ أَلْقِ دَلْوَكَ فى الدِّلاءِ
تجِئْكَ بِملْئِها يَوْمًا ، ويومًا ... تَجِئْكَ بِحَمْأةٍ وقَلِيلِ مَاءِ

(والحمأة ، الطين الأسود المنتن) . وليس هذا بمستغرب من مثله ، لأننا وجدنا فى زماننا آيةَ ذلك ومِصْداقَهُ !! فى كل فنّ من فنون القول ، شعرًا ، ونثرًا ، وروايةً ، وترجمةً للرجال ، وتحليلًا لروائع الفن ، وتاريخًا للعصور ، إلى آخِرِ هذه السلسلة المنظومة ! وكُلّ ما أسلفتُ دالٌّ أوضح الدِّلالة على أن قائل الخبر الذى رواه القفطيُّ ليس معاصرًا لأبى العلاء ، لأنه لو كان معاصرًا لقال كما قال معاصروه ، ولم تظهر فى قوله البَيِّنَةُ على كذبه . وإذْ لم يكن معاصرًا ، فلا يؤخذ منه شىءٌ إلا بالحجة ، وإن كنّا لا نقبلُ شيئًا إلاّ بالحجة التى يقبلها العقل السليم من الآفات ، من معاصرٍ وغير معاصرٍ .

وأما « الخلفية التاريخية » ، وبالله نستدفع البلايا ، وهى صدر خبر الراهب ، فله حديث هو أحقُّ به إن شاء الله ، (والعرض مستمر) .

* * *

حاشية : أرسل إلىّ أخى الأستاذ أحمد راتب النفاخ ، من دمشق رسالةً يذكّرنى بأنّى أكثرت من وصف « ياقوت الحموى » ، بأنه « شاميٌّ » ، مع أن ابن خلكان ، ذكر فى أول ترجمته له أنه « روميّ الجنس ، حَمَويُّ المولد ، بغداديّ الدار » ، لأنّ مولاه عسكر بن إبراهيم الحمويّ ، كان تاجرًا يسكن بغداد . وهذا حقٌّ ، ولكنه حقٌّ أيضًا أن ياقوتًا بعد أن تلقَّى من العلم ما شاء الله ببَغداد ، شغله مولاه فى متاجره ، قال ابن خلكان : « فكان يتردّد إلى كِيشٍ ، وعُمان ، وتلك النواحى ، ويعودُ إلى الشأم » ، وهذا واضحٌ دالٌّ على أن ياقوتًا كان كثير الأَوْبة إلى الشأم يقيم بها ، ليقوم بتجارة مولاه عسكر الحمويّ فى الشأم ، دون بغداد . فمن أجل هذا ، ومن أجل مولده فى حماة ، ومن أجل سعة علمه بأمر الشأم ، جعلته « شاميًّا » بهذا المعنى . وعَسَى أن أكونَ أصبتُ الاستدلال ، ولأخى أحمد فضْلٌ لا يُنْكَر ، وشكْرٌ منّى لا يَنْفَدُ .



... بَلْ قَبِيحًا

الرسالة

الخميس ٩ شعبان ١٣٨٤

٣

وأيضًا ، ليس حسنًا ، بل قبيحًا أن يتنفَّخَ كاتبٌ على قُرّاء صحيفته أو مجلته (تنفّخ ، على وزن تكلّم بكلام ، وتحزّم بحزام) ، فيشدَّ الزِّقَّ على خَصْره أو يلقِيه على مَنْكِبِه (والزِّق ، القِرْبة) ، ويضع مِزْمارةُ فى فمه ، ثم يمشى به مختالًا ، يمطُّ قامته ، ويصعِّر خدَّه ، ويَشْنِقُ عنقه (أى يرميها إلى الوَرَاء مرفوعةً) ، ويُخْرِجُ صَدْره ، ويخطُو على بساطٍ من الزَّهو والتعاظم نافخًا شِدْقَيه ، مُرْسِلًا هواء جوفه إلى جوف قربته ، ليسمعَ الناس ، شاءوا أو أبَوْا ، مُوسِيقى القِرَبِ (الأسكتلندية) العاليةَ الضجيج ، المتشابهةَ النَّغَم . ويظلُّ يفعل بهم ذلك أسبوعًا بعد أسبوع إلى ثمانية أسابيع ، لا بل منذ كتبَ . ولكن هكذا كان ، فإن الدكتور لويس عوض ، ظَلَّ ينزل بنا تلك الأنغام ، بلا رحمة وبلا تحننٍ على البائسين الضارعين قرّاء صحيفة الأهرام صبيحة كل جمعة . ويوم الجمعة عندنا نحنُ مباركُ الساعات : « فيه ساعةٌ لا يوافقها عبد مسلم قائِمٌ يُصَلِّى يسألُ الله خيرًا إلاّ أعطاهُ إياهُ » ، كما جاء فى الحديث الصحيح . بيد أنَّنا قضينا زمنًا طويلًا نصبح يوم الجمعة ، لنجد فيه ساعة معكوسة الحظّ منكوسة ، كالذى قال أبو عُبادة البحتريُّ فى إيوان كسرى :

عَكَسَتْ حَظَّه الليالى ، وبَاتَ المُشْتَرِى فيه وَهْوَ كَوْكَبُ نَحسِ

فَهْوَ يُبْدِى تَجَلُّدًا ، وعَليهِ كَلْكَلٌ من كَلاَكِلِ الدَّهرِ مُرْسِى

ونحنُ ، والله ، كذلك ، نُبدِى مع يوم الجمعَة هذا التجلُّد ! و (بالمرّة) ، ليس حسنًا أيضًا ، بل قبيحًا أن يتنفَّشَ بالتِّيه كاتبٌ يُواجه أعينَ الناس بما يكتبُ ، فَيخرج عليهم كأنه بطل باذخٌ عليه أُبَّهة الظافرِ الميمونِ الطائر ، ليراهُ الناسُ فى كلامه راكبًا حِصَانًا أشهبَ (فيه بياض) ، وعليه لأْمَةُ المحارب (أى سلاحهُ) ، على رأسِه الخَوْذةُ ، وعلى بدنه ، من فَرْقِ رأسه إلى نصف ساقيه ، سابغة زَغْفٌ (أى درعٌ

ضافية لينة) تتلألأ ، وفى قدميه زُرْبُول (وهو الحذاءُ باليونانية) ، وفى يُمنَاهُ قِنْطاريّة (وهى الرمح الثقيل ، باليونانية أيضًا) ، وبيسراهُ الدِّرَفْسُ الأعظم (وهو الدَّرَابُو ، أى العلم) ، ثم يتبختَرُ جَيْئةً وذهابًا بالعُجْب والصَّلَف ، ولا يقنَعُ حتى يرى نفسه قد تولّى إمارةَ اليونان ، والرُّوم ، ثم ما تولّد عنهما منذ القرون الوسطى إلى اليوم . ويزدادُ مع هذا الوهم شُموخًا ونَخْوةً ، حتى لا يكادُ يُرى فى الكون ، مُنْذ كان ، شيئًا غير هذه الثلاثة ، منها المبدأ وإليها المعادُ ! إنه لقبيحٌ قبيح !! ورحم الله عبد الصَّمد بن المعذَّل ، إذ قال لصديق له تولّى إمارة النفّاطات (وهى عيون النَّفْط ، أى البترول) ، فأظهر تيهًا بنفسه وعُجْبًا :

لَعَمْرِى ، لقدْ أظهَرْتَ تِيهًا ! كأنَّما ... تَوَلَّيْتَ للفَضْلِ بن مَرْوانَ عُكْبَرا
دَعِ الكِبْرَ ، وَاسْتَبْقِ التواضُعَ ، إنَّه ... قبيحٌ بِوَالِى النَّفْطِ أنْ يتكبَّرا
لحِفْظِ عُيُونِ النَّفْطِ أحْدَثْتَ نَخْوةً ! ... فكيفَ به لو كانَ مِسْكًا وعَنْبَرَا !!

وصدق والله ، « كيف به لو كان مسكًا وعنبرًا » ؟ ونسألُ الله أن يجنِّبَنَا شرَّ كل شَرْلَتَانٍ كانَ أو هو كائنٌ (والشرلتان ، بفَتْح الشين وسكون الراء ، معروف فى لغات العجم ، وله فى العربية سبعون اسمًا على الأقل ، أو كما قال شيخ المعرّة) ، وأن يصنَع لنا ويحفظَنَا من تيّاهٍ يونانىّ ، أو رُومىٍّ ، أو قُرُونىٍّ !! (نسبة إلى القرون الوسطى) ، وبالله وحده نستدفع البلاء .

* * *

وأعود الآن إلى ما كنت فيه من حديث راهب دير الفاروس باللّاذقيّة ، وما كان فى رواية الخبر من الكوائن ، والله المستعان .

وأظنُّنى ، والله أعلم ، قد فرغتُ ، إكرامًا للدكتور لويس عوض ، من إثبات انفرادِ القفطىّ بالخبر ، بلا إسنادٍ إلى أحدٍ ، وأنه خبرٌ مجهول لم يعلمْه أحدٌ ، ولم يسمع به سامع ، ولم يذكُرْه ذاكرٌ بلسَانٍ أو فى كتاب ، منذ كان شيخ المعرة ، إلى أن كتبه القفطىّ ، وذلك فى خلالِ مئة وثمانين سنة على الأقل ، وأنّه لم يقف عليه أحدٌ بعد ذلك ، إلى ساعة قراءة الدكتور هذه الكلمة ، فى شهر شعبان ١٣٨٤ من الهجرة ، فى كتابٍ كان قبل كتاب القفطىّ ، ولا فى كتاب جاء بعده نَقَلَ ذلك

الخبر عن أحدٍ غير القفطىّ . وإذن فهو خبرٌ مجهولُ المخرج دهورًا متطاولة ، حَسبناها بحساب المعلِّم ، وبالأرثماطيقا اليونانية ، فإذا هى تسعمئة سنة وخمسٌ وستون سنة !! هذه كائنة الكوائن ، وكانت حَسْبَنَا وزيادةً فى إسقاط الخبر واطِّراحه . ولكنّى أحببتُ ، إكرامًا للدكتور لويس ، أن أكشف له عن كائنة أخرى بل كوائن ، فإن الخبر مختومٌ بقضيَّةٍ قابلة للعرض على وثائق ثابتةٍ حاضرة عتيدة ، لا ينتطح فيها عَنْزَانِ ، كما فى المثل !! وقضية الخبر : أن شيخ المعرّة حدثت له شكوك وانحلال !! أتته من قبل راهب دير الفاروس !! ، فلم يطق كتمانها ، فأودعها أشعارًا قالها فى صباه ، ثم تاب وارعوى ، واعتذر منها ، ووجَّهها وجوهًا يحتملها التأويل ، فأثبتُّ بالبرهان المعتمد على الوثائق أوّلًا ، وعلى العقل ثانيًا (إن كان للعقل هنا فائدة) ، أن هذا شيءٌ لا حقيقة له ، ومناقض للواقع ، وباطلٌ يدلُّ على بطلانه ما عندنا من شعر الرجُل فى صباهُ ، ويدلُّ على بُطلانه أيضًا ما تضمنَته تراجم الثلاثة المعاصرين للشيخ = وتبيّنَ أيضًا أنّ الذى حدَّث القفطىّ بالخبر ليس معاصرًا لأبى العلاء بالبداهة ، وأنه لا يمكن أن يكون منقولًا عن مُعاصِر بالبداهة أيضًا ، واحدةٌ = وهو جاهل بشعر أبى العلاء ، وبالزمن الذى بدأت فيه تهمة الرجل فى دينه ، ثانيةٌ = وهو فوق ذلك ظنينٌ فى عقله ، يحسبُ أن الناس كُلَّهم جُهّالٌ مثله بلا عقول ، ثالثةٌ = ومختلطُ العقل من سمادير الهوى والإدمان ، رابعةٌ = وشرلتانٌ قديمٌ مُعْرِقٌ فى الرُّعونة والطيش ، خامسةٌ = وكذاب لا يحسن يكذب ، سادسةٌ = وإن شئت فزدْ ، ولا حَرَج . فهذا ما كانَ ، ونرجع إلى ما سيكون !

فإكرامًا للدكتور لويس عوض ، مرةً ثالثة ، نشرع فى مدارسة « الخلفية التاريخية لهذا الخبر العظيم !! » ، أكرمك الله وأجارك ، والتى هى عند أصحاب هذا اللسان تسمى « صدر الخبر » . وللتذكير وحسن المدارسة ، أثبت نصّ ذلك بلفظ القفطى ، بلا تعديل أدخله عليه مُدْخِلٌ ، وبلا تحريفٍ لألفاظه حرّفه ذو هوًى . يقول القفطى ، أو من حدَّثه : « ولما كبر أبو العلاء ووصل إلى سنِّ الطلب .... طمحت نفسُه إلى الاستكثار من ذلك ، فرحل إلى طرابلس الشأم .... فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس ، وكان به راهبٌ يشدو شيئًا من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلامًا من أوائل كلام الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال » .

فهذا نصٌّ مكتوب بالعربية (مع الاعتذار للدكتور) ، سندرسُه على منهجنا نحنُ فى المدارسة ، وهو البداهة والعقل ، لا على منهج الدكتور لويس عوض . فقد بانَ ، فيما كتبته ، ما فى منهجه هو من التسرُّع ومن الخَطْف ، ومن قلّة الاحتفال بدلالة الألفاظ فى اللغات ، ومن طَرْح المبالاة بتمحيص التاريخ ، ومن إغفال بعض الحقائق لحاجة فى النفس ، ومن الاستهانة بالوثائق التى يطيق الشادى المبتدئ أن ينالَها من قريب ، ومن عدم التمييز بين الزَّيْف والصحيح ، ثم من اعتماده بعد ذلك كُلّه على وسائل بعيدة من دراسة الآداب ، وهى وسائل إخراج الأفْلام ، حيث يعمد المخرج إلى الحقائق فيحرّفها ويعدِّلها ، ثم ينقلها من مكانها إلى مكان آخر ، ثم يحشُو ما بين ذلك بالأوهام والأخيلة والسمادير . وهذا منهج لم يزَلْ يرتكبه إلى آخر المقالة الثامنة ، لم يرْعَوِ عنه ، كما ارعوى شيخ المعرة فى صباه ! وسأكشف ما ينطوى عليه منهجُه هذا حين يحين وقته .

* * *

وقارئ مثل هذا الخبر ودارسُهُ ، لا يجوزُ له أن يغفُل عن أشياء ، بعضها يتعلَّقُ بأبى العلاء فى ذات نفسه ، ثم بأسرته ، ثم بتاريخ زمانه ، وبعضها يتعلَّقُ بمن ورد ذكره فى الخبر ، وبحاله وحال قومه ، وبأمور كثيرة ستظهر عن قريب إن شاء الله .

* * *

● فأوّل أمرٍ أُثْقِلُ به كاهلَ الدكتور لويس عوض ، أن أذكر له طرفًا من شأن أسرة أبى العلاء ، فهو أبو العلاء : « أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهّر » ، ينتهى نسبه إلى « تَنُوخَ » وهى قَبيلةٌ قديمة ذات شَرَف مُعرقٍ منذُ الجاهلية قبل الإسلام بدهورٍ طوالٍ . فلما جاءنا الله بالإسلام ، وفُتِحت الشأم ، وأسلم من أسلم من تَنُوخَ ، كان منهم أجدادُ أبى العلاء . فصار لهم أمرٌ ظاهرٌ فى الإسلام فى مَعَرّة النعمان ، حتى كان أكثر قضاة المعرّة وفقهائها وعلمائها وكتابها وشعرائها من هذا البيت ، بيت « بنى سليمان بن داود بن المطهَّر » ، جدِّهم الأعلى . وصار أمر قضاء المعرة إليهم ، فكان أوّلَ من ولى قضاءها جدُّ جدّ الشيخ أبى العلاء : « سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود » فى سنة

٢٩٠هـ ، ثم ولده « محمد بن سليمان بن أحمد » بعد موت أبيه فى حدود سنة ٣٠٠ هـ ، ثم ولده « سليمان بن محمد بن سليمان » سنة ٣٣١ هـ ، بعد موت أبيه ، ثم ولده « عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان » والدُ أبى العلاء المعرى فى سنة ٣٣٧ هـ ، إلى أن توفى بمعرَّة النعمان سنة ٣٩٥ هـ ، وأبو العلاء يومئذ فى الثانية والثلاثين من عمره .

● وأمرٌ ثانٍ ، أنّ شيخ المعرة قد حدّثنا عن نفسه حديث الصادق الذى لا يكذب ، وهى خليقة ثابتة له يعرفها كلُّ من هيّأ الله لَهُ أن يدارس ما كتب الشيخ ، بلا شك فى ذلك . فكان مما حدّثنا به فى رسالته إلى خاله أبى القاسم على بن سبيكة ، والتى مرّ ذكرها آنفًا أنه قال : « وقد فارقتُ العشرين من العمر ، ما حدَّثت نفسى باجتداء علمٍ (أى طلبه) من عراقيٍّ ولا شآمٍ » فهذا تحديدٌ بلا كذبٍ ، وبلا ادعاء ، وبلا توهُّم ، يقطَعُ بأنه لم يقرأ على أحدٍ من الشيوخ بعدَ هذه السنّ فى بلده ولا فى غير بلده . وقوله : « وقد فارقت العشرين من العمر » ، يدلُّ على أن ذلك كان إلى حدود الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من عمره ، أى فى نحو سنة ٣٨٥، ٣٨٦ تقريبًا .

● وأمرٌ ثالثٌ ، وهو ما حصّله أبو العلاء من العلوم فى هذه الفترة (أى إلى سنة ٣٨٦) منذ نشأته إلى أن فارق العشرين . فقد حدثنا الحافظ أبو طاهر السِّلَفِيُّ (٤٧٢ - ٥٧٦ هـ) ، وقد لقى كثيرًا ممن أخذ عن شيخ المعرّة ، فقال : « وقد قرأ القرآن بكثير من الروايات ، على شيوخ يُسَارُ إليهم فى القراءات » . هذه واحدة .

وأخرى ، أنه قرأ النحو ، واللغة بمعرَّة النعمان على والده القاضى أبى محمد عبد الله بن سليمان ، وهو من تلاميذ إمام اللغة ابن خالويهْ [... - ٣٧٠ هـ]

(١) وعلى أبى بكر محمد بن مسعود بن محمد النحوىّ .

(٢) وعلى رَاوية أبى الطيب المتنبىّ محمد بن عبد الله بن سَعْد النحوىّ .

(٣) وعلى القاضى أبى عمرو عثمان بن عبد الله الكَرَجىّ الطَّرَسوسىّ قاضى معرّة النعمان فى سنة ٣٨٥ هـ .

(٤) ثم أخذ الحديث عن أبيه ، وعن جده سليمان بن محمد [٣٠٥ - ٣٧٧هـ] .

(٥) وعن أخيه محمد بن عبد الله بن سليمان [٣٥٥ - ٤٣٠هـ] ، وهو أسنّ من أبى العلاء بثمان سنوات .

(٦) وعن جدّته أم سلمة بنت الحسن بن إسحاق بن بلبل .

(٧) وعن أبى زكريا يحيى بن مِسْعر .

(٨) وعن أبى الفتح محمد بن الحسن بن روح .

(٩) وعن أبى الفرج عبد الصَّمد بن أحمد بن عبد الرحمن .

(١٠) وعن أبى بكر محمد بن عبد الرحمن الرَّحَبِىّ .

(١١) وعن أبى عبد الله محمد بن يوسف بن كراكير الرّقىّ .

[تُحْفَةٌ] ، هذا ما أَوْقَفَنَا عليه ابن العديم وغيره من شيوخه وقراءاته بمعرّة النعمان بالنصّ عليه ، وهذا كلُّه بلا شك ، كان إلى أن فارق الشيخ العشرين من عمره = فأنا أحبُّ أن تحدِّثنى بأىِّ وجهٍ يستطيعُ عامىٌّ سُوقىٌّ فضْلًا عن شادٍ مبتدئ ، فضلًا عن أستاذ جامعى ، زعموا ، أن يقول ما قاله الدكتور لويس عوض فى مقاله الخامس : « والحقُّ أنه لا يعرف شيءٌ عن تعليمه الرسمىّ (يا سلام ، ما أفْصحك !! الرسمى مرة واحدة) حتى سنّ العشرين ، وهى سنُّ التكوين (خذ بالك من فضلك !) إلاّ أنه تعلم فى حلب ، ثم فى أنطاكية ، ثم فى اللاذقية (بالطبع ، بالطبع) ثم طرابلس . ومثل هذا الغموض الذى أحاط بتكوينه العقلى (يا أستاذ !) حتى سنّ العشرين ، يحيط أيضًا بحياته كلها فيما بين العشرين والخامسة والثلاثين » (مَهْلًا يا موسيقى القِرَب ، وحَنَانَيْكَ يا ريكاردوس قلب الأسد !!) [انتهت التحفة] .

* * *

ونعود إلى الجدّ مرة أخرى . فبعد قراءة القرآن على شيوخ القراءات ، وبعد اللغة ، والنحو ، والصرف ، تبقى علومٌ كثيرة لم ينصُّوا على شيوخه فيها ، وإن كانت بَداهة العقل (وبداهة العقل مسألة مشكلة عند بعضهم بالطبع !!) توجبُ أن يكون أخذها عن جماعة ممن ذكرنا من أهله ، ومن شيوخ بلدته ، ومَنْ عَسَى أن يكون نزل بها من العلماء فى طريق رحلته . على أن المعرّة نَفْسها كانت يومئذٍ معروفة بكثرة

العلماء والشعراء من أهلها . فمن هذه العلوم : علم تفسير القرآن ، وعلم الفقه ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التوحيد والكلام ، وعلم الفرق الإسلامية وغير الإسلامية ، وعلم التاريخ ، وعلم السِّيَر ، وعلم الفلك ، وعلوم الفلسفة ، ثم علوم الأدب ، كعلم البيان ، وعلم العروض والقوافى ، وعلم أخبار أهل الجاهلية والإسلام وأيامهم ، وفوق ذلك كُلِّه علم الشعر جاهليِّه وإسلاميِّه إلى سنة ٣٨٦ من الهجرة روايةً ودرايةً . وأنا لا أفترض ذكر هذه العلوم افتراضًا ، بل يوجب الإلمامَ بها إلمامًا تامًّا مجرّدُ دراسة شعر صِباهُ الذى ضمّنه الشيخ ديوان « سقط الزند » ، وما تبع هذا الديوان مباشرة من رسائله وكتبه ، ولا سيما لزوم ما لا يلزم ، الذى ابتدأه بعد عزلته فى سنة ٤٠٠ من الهجرة . ويوجبُ الإلمامَ بها على وجه اللزوم ، ما نعرفه نحن بالنشأة والمدارسةِ (ومعذورٌ مَنْ نشأ على غير ذلك إذا لم يعرفه) ، من أنّ ذلك كان شأنَ هذه الأمة فى دراستها منذ كان الإسلام فى كُلّ حاضرةٍ من حواضره ، فما ظنُّك بمن نشأ ببيتٍ كبيت شيخ المعرة ، يَحُفُّه العلم من نواحيه نساءً ورجالًا ؟ [وقد مضى خبر تلقِّيه الحديثَ عن جدته] .

* * *

● وأمرٌ رابعٌ ، أن أبا العلاء أصابَهُ الجُدَرِيُّ وهو فى الرابعة من عُمُره ، فعمِىَ . ومن قُدّرَ له أن يفيق من سكر الأوهام لحظةً ، يعرف عِرْفانًا لا يخالطه شكٌّ ، مقدارَ ما ينبعث فى قلب الأبِ من رحمة على ولده الذى عَمِىَ ، وما تنطوى عليه حينئذ جوانحه من الحَدَب عليه والإشفاق . فكذلك كان ما وجد عبدُ الله بنُ سليمان القاضى لولده أحمد الصغير الأعمَى ، حتى وجد الصبيُّ عنده القرارَ والسكونَ والاطمئنان ، فلما دُعِىَ أبوه فأجابَ ، وذلك فى سنة ٣٩٥ هـ ، قال أخُو الثانية والثلاثين من العُمْر ، أبو العلاء فى رثائه :

لقَدْ مَسَختْ قَلْبِى وَفَاتُك طائرًا   فَأَقْسَمَ أَنْ لاَ يَسْتقِرَّ عَلَى وَكْنِ
يُقَضِّى بَقَايَا عَيْشِهِ ، وَجَنَاحُهُ   حَثِيثُ الدَّواعِى فى الإقَامَةِ والظَّعْنِ

ومن عرف معانى الشعر = (لا أعنى شعر بلوتولند ، ولا شعر حوار ، فهذا شىء خارج عن طاقة ذوى العقول !) = أدرك أن هذا الضَّرير كان يعيش فى كنف أبيه

وإشفاقه وحَدَبه ساكن الطائر ، فلمَّا فارقهُ رِيعَ وقلِق واضطربَ ، وأراد فراقَ هذه المعرَّة ، حتى تمَّ له ذلك فى سنة ٣٩٨ هـ . فهذا بدءُ عزمه على الرحلة . وبالطبع ، هذا شىء مختلفٌ كُلَّ الاختلاف عن الأسباب التى أرادَ الدكتور لويس عوض ، أن يلتمسها لرحلته إلى بغداد ، من النَّتْش والخَبْطِ فى « فتنة لؤلؤ على أبى الفضائل سعيد الدولة الحمدانى لحساب الفاطميين » ، وبقية الأخيلة التى نشأت له فى آخر مقاله الخامس ، كما سنبيّن إن شاء الله . وحسبنا الآن تُحْفة واحدة ، بلا إكثار ولا لجاجة .

* * *

وأشدُّ مما وجدَ أبوه لعماه ، وجدت أمُّه على ضريرِها الصغير الضَّعيف العاجز القادرِ بغيره لا بنفسه ، القصير النحيلِ الرقيقِ العظام (وهذه صفة الشيخ إلى آخر عمره) ، فكانت عليه أَشدَّ حَدَبًا من أبيه وتَولَّتْ أمره بنفسها ، تقوم بشأن هذا العاجز الشديد الحياء ، المفزَّع الحِسّ ، الذى يُصِرُّ على أن يأكلَ وحده حتى لا يرى مُؤاكله منه ما يكرهه أو يسوءه أو يضحكه . وقد دلّ شعره فى رثائها بعد موتها فى سنة ٤٠٠ هـ ، وهو فى السابعة والثلاثين من عمره على كل ذلك إذ يقول :

دعَا اللهُ أُمًّا ، لَيتَ أنّى أَمَامَها ... دُعِيتُ ، ولَوْ أنَّ الهَواجِر آصالُ

مَضَتْ ، وكأنِّى مُرْضَعٌ ، وقَدِ ارْتَقَتْ ... بِىَ السنُّ حتى شَكْلُ فَوْدِىَ أشكالُ

ويكرر هذا المعنى فى رثائها مرة أخرى فيقول :

مَضَتْ ، وقد اكْتَهَلْتُ فَخِلْتُ أنّى ... رَضِيعٌ ما بَلَغْتُ مَدَى الفِطَامِ

ويقول فيها أيضًا :

كَفَانى رِيُّها مِنْ كُلِّ رِىٍّ ... إلى أَنْ كِدْتُ أُحْسَبُ فى النَّعامِ

فهو يتمنَّى أولًا أن يكون أجله كان سابقًا أجلَها ، وإن كان فى أهنأ عيش وأرغده ، ويرى أنه على ما بلغ من السنّ قد صارَ رضيعًا عاجزًا هلكت عنه حاضنتُه التى تكفلُه وترعاه ، فهو فى الضياع وإلى الضياع . وكذلك يقول فى الميمية ، ويزيد أنه كان فى حياتها غنيًّا عن كُلِّ أحدٍ ، فهى التى تُطعمه وتَسْقيه فى خلوةٍ بعيدًا

عن أعين أقرب الناس إليه ، فلا يراه أحدٌ شاربًا أو آكلًا ، كما لم يَرَ أحدٌ نعامًا يَرِدُ ماءً ، لأن النَّعَام يجتزئ بالرُّطْب عن الماء طُول حياته [« والرُّطْب » ، بضم الراء وسكون الطاء ، العشب الأخضر] .

فلما راعه ما راعه من موت أبيه ، ونفَّرهُ بعد قرارٍ مطمئنٍّ قد أَلِفَه ، أَنْسَتْهُ نُفْرَةُ القلق أمَّه وحَدَبَها عليه ، ورأى نفسه قد استوى رجُلًا فى الخامسة والثلاثين من عمره (أى سنة ٣٩٨ هـ) فأخذه ما أخذه حتى عزم على الرِّحلة إلى بغداد ، فركب رأسَه ورحل مفارقًا أمّة ، وأقام فى بغداد حتى سنة ٤٠٠ هـ ، فعادَ راجعًا إلى معرَّة النعمان ، وإلى أمّه ، فإذا هى قد دُعِيت فأجابت ، فيكتب إلى خاله أخى أمّه أبى القاسم على ابن سبيكة رسالةً يَنْضَحُ صدرها فجيعة ، حتى يقول : « لو لم تكن الآجال زَبْرًا [أى مكتوبةً] ، لوجب أن أُقْتَلَ صَبْرًا ، [الصبر ، حبس الرجل على القتل حتى يقتل] . على أنّى والله قد أعلمتُها أنّى مرتحلٌ ، وأنّ عزمِى على ذلك جادٌّ مُزْمِعٌ ، فأذِنتْ فِيه ، وأحسبُها ظَنَّتهُ مَذْقَةَ الشارب [المذقة ، الكذبة . والشارب ، الكاذب] ، ووَمِيضَ الخالِبِ [برق السحاب بلا مطر] ،. ولكلّ أجلٍ كتابٌ ، وحُزْنى لفقدها كنَعيم أهل الجنَّة ، كُلّما نَفِد جُدِّد » .

فأىُّ فجيعةٍ يُحسُّها العربىُّ (وأين العربىُّ !) وهو يقرأ هذه الأحرف الممزوجة بالدمعِ المتحدّر على وجنتى الشيخ ، بلا نشيج أو صَخَبٍ !! [وأستغفر الله ، كيف أفسّر هذا لأستاذٍ جامعى قُدْموس] ، (أى قديم !!) . وندع هذا لما نحنُ فيه ، وذلك أن أبا العلاء وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، لمّا عزم على الرحلة إلى بغداد ، أعلم أمَّه أنّه مرتحلٌ عنها ، وأنه قد جمع عزمَه على ذلك جادًّا غير هازلٍ ، واستأذنها فأذنت لَهُ ، ولكنّه لم يكنْ منها إذنًا على الحقيقة ، بل كانَ صَرْفًا لَهُ عن إيذائها بسماعِ ما يقولُ من ذلك ويزعُم ، وإسكاتًا لهذا المُعاودِ لطلب الإذن بإلحاح متتابعٍ . وظنَّت أُمُّه ، حين صرفته عنها بالإذن له فى الرحلة ، أنَّه لن يفْعَل ما يقولُ ، لعلمها بعجزه عن أن يحفظ أمر نفسه ، فى مطعمه ومشربه لأوّل مرّة بين الغرباء ، وهو الذى بقى فى حضانتها إلى أن بلغَ الكهولة وارتقت به السّنّ ، هى تطعمه وتسقيه فى خَلْوةٍ ، وتقوم بكلّ شأن من شؤونه ، وتصرفُ عنه أعينَ الناس وما عَسَى

أن تقع عليه مما يسوءهم أو يضحكهم منه ، فحسبت إلحاحه فى الطلب وإصراره « مذقة شارب ، ووميض خالب » ، وبقيَّةً مما تركه حُزْنُهُ على أبيه فى نفسه من القلق والنفور .

* * *

فهذه أمور أربعة ، أحببتُ أن أوفِّيها بعض حقّها من البيان مختصرًا غير مُطيل ، وإن كنت قد أثقلتُ على الدكتور لويس عوض وأطلت عليه الشُّقة ، (والشقة ، بضم الشين ، السفر الطويل) .

* * *

ونعود من هذا السفر البعيد إلى خبر راهب دير الفاروس ! وقبل أن أتناول ألفاظ الخبر من الوجه الذى أريدُ ، أحبُّ أن أذكر كِذْبة لطيفة جاءت فى هذا الخبر ، دالةً على أن محدِّث القفطِيّ به وضَّاع كذابٌ ملفِّق ، فإنّه يقول : « فرحل ، يعنى أبا العلاء ، إلى طرابُلْس الشأم ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ... » ، وليس الأمر كذلك ، فإنّ هذا الوضَّاع الملفِّق (والناس متشابهون فى كُلّ زمان !!) قد سمع أو قرأ خبرًا آخر لا يقولُ صاحبه : « وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها » بل يقول ، كما حدثنا ابن العديم (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ) ، وهو معاصر للقفطى (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) ، ولم يطلع على كتاب القفطى بلا أدنى ريب فى ذلك ، وعلى الأقل ، لأنه لم يذكرْهُ البتَّة فى كتابه ، يقول : « وقد ذكر بعضُ المصنفين أنّ أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر فى كتبها » . فقال : « دار العلم » ، ولم يقل « خزائن كتب » .

فانظر ماذا قال ابن العديم فى نقضِ لفظ هذا الخبر ، فأمسك بتلابيبِ « دار العلم » ، كما نفعل نحن الآن بألفاظ أخيه الآخر ، قال ابن العديم :

« اشتبه عليه ذلك بدار العلم فى بغداد ، ولم يكن بطرابلس « دار علم » فى أيام أبى العلاء ، وإنما جدَّد « دار العلم » بها ، القاضى جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن عمار ، فى سنة اثنتين وسبعين وأربعمئة (٤٧٢ هـ) ، وكان

أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك فى سنة تسع وأربعين وأربعمئة (٤٤٩ هـ) ، وقف ابن عمارٍ بها من تصانيف أبى العلاء : « الصاهل والشاحج » ، « والسجع السلطانى » ، و« الفصول والغايات » و « السادن » ، و « إقليد الغايات » ، و « رسالة الإغريض » . وهذه الدار هى التى ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٠٣ هـ أن الصليبيين ، على رأسهم قُمُّصٌ ، حين أخذوا طرابلس ، «نهبوا ما فيها ، وأسروا الرجال وسَبَوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتُب دور العلم الموقوفة ، ما لا يحدُّ ولا يُحصى » . ويقال إنه كان فى « دار العلم » بطرابلس يومئذ ، ثلاثة آلاف ألف كتاب ، أى ثلاثة ملايين ، فانظر ما فعل مناحيس الروم وأغْتَام الصليبيين يومئذ !! فهذه كذبة على الهامش ، ملفقة ، أثبت بُطْلانها ابن العديم . وبذلك بطلت رحلة أبى العلاء إلى طرابلس من أساسها . ولإبطال هذه الرحلة وجوه أخرى غير التى قالها ابن العديم . ولكنَّا لا نعالج الأمر من هذا الوجه :

بل نسأل أولًا : ماذا يريدُ صاحب الخبر بقوله : « لمّا كبر أبو العلاء وبلغ سنّ الطلب » ؟ عشرة أعوام ، أحد عشر عامًا ، اثنى عشر عامًا ، ونحنُ نقول إنّه لم يكن قبل الثانية عشرة ، لقول أبى زكريا التبريزىّ تلميذه ، فيما وجد بخطه على آخر سقط الزند : « وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتى عشرة سنة » . ولا يمكن أيضًا أن يكون بعد العشرين ، لقول أبى العلاء الصادق عن نفسه كما أسلفت : « وقد فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسى باجتداء علم من عِراقىّ أو شآم » ، فذلك إذن بين سنة ٣٧٥ ، وسنة ٣٨٥ هـ . وإذا كان قد بلغ بإنسان أن يقول ما قال أبو العلاء من أنه فى الثانية والعشرين من عمره لم يحتج إلى أن يتعلم من أحد من معاصريه ، وفيهم الأئمة فى كل فن وعلم ، ففى كم تظنُّه حصَّل ذلك ؟ فى سنة ؟ فى سنتين ؟ فى ثلاثة ؟ أظنُّ لا ، ولا يليق بعاقلٍ أن يفترض أنّ ذلك كان فى أقل من عشر سنواتٍ ، أو تسع سنوات ، أو ثمان سنوات ، ونرضى بالأدنى والأقلّ ، فهى ثمان سنوات إذن ، أى فى سنة ٣٧٧ هـ ، وإذن فهو فى الرابعة عشرة من عُمْره ، حين رحل إلى طرابلس ، ودير الفاروس ، فَرْضًا ويكون عندئذ قد قال الشعر منذ سنتين ، فيصبحُ إذن لخبر الراهب معنى غير متناقض ، إذ قال فيه إنه قال شعرًا ضمنه شكوكه فى صباه .

أليس كذلك ؟ ونعود مرةً أخرى فنسأل : هذا الذى يبلُغُ قمة العلم فى ثمان سنوات حتى لا يحتاح إلى عراقيٍّ أو شآم من علماء أُمَّته ، يكون بدءُ طلبه العلمَ فى أوّل هذه السنوات الثمان ؟ ولا أظنّ أحدًا يقول نعم ، وهو يعقل معنى ما يقول وما يُقال له . إذن ، فلابُدَّ من أن يكون قَضَى فى حفظ القرآن بقراءاته ، وفى حفظ أصول اللغة ، وأصول النحو والصرف ، وفى تعلم مبادئ الفقه ، وأصول الفقه ، ومبادئ علم التوحيد والكلام ، والسِّير ، وعلوم الأدب ، من بيان وعَرُوضٍ ، وألمَّ بأخبار أهل الجاهلية والإسلام وأيامهم ، ثم الشعر جاهليّه وإسلاميّه = لابدَّ من أن يكون قضى فى ذلك كُلّه حفظًا ودراسة وتعلُّمًا وفهمًا خمس سنوات أو ست سنوات على الأقل ، فيكون جميع دراسته منذ عقل : ثمانى سنوات وخمس سنوات ، فتلك ثلاث عشرة سنة ، فطرح هذا من سنة ٣٨٥ هـ ، فيكون ذلك سنة ٣٧٢ هـ ، وهو فى التاسعة من عمره ، لأنه ولد سنة ٣٦٣ هـ ، فإذا شئنا أن نُحدِث فى هذا التاريخ فجوةً تَصْلُح لتصحيح تصوُّر خبر الراهب ، افترضنا أنه بدأ حفظ القرآن ومبادئ العلوم ، وهو فى السادسة من عمره ، فنضيف إليها خمس سنوات ، فهو إذن فى الحادية عشرة من عُمُره سنة ٣٧٤ هـ .

فمن هذين السؤالين ، نخرجُ بأنه لابُدَّ أن يكون رحل إلى طرابلس ما بين سنة ٣٧٥ و ٣٧٧ . ولا يمكن أن يكون غير ذلك كان ، ليتَّفق أيضًا مع خبر حَضْرة الراهب فى أنه « سمع منه كلامًا من أوائل كلام الفلاسفة ، حصل به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال » . أليس كذلك ؟ بلى ، لأنه لا يمكن هذا الراهبَ الشادى أن يضلّل رجُلًا قد فارق الصِّبَا صِبَا العِلْم ، وأخذ فى مُحْكَمه الذى يبلغ به بعد ثمان سنوات أن لا يحتاج إلى عراقيٍّ أو شآم .

فإذا أقررنَا لصاحب هذا الخبر بهذا كله بلا مناقشةٍ فى حقيقة ما يسمى عندنَا «علمًا » ما هو ؟ وما هى مبادئه ؟ فلا مناصَ من أن نسأله سؤالا آخر : أخَرج هذا الفتى إلى طرابلس ، واجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس ، وهو أعمى ضرير قادرٌ بغيره عاجز بنفسه ، خرجَ يطوى الأرض المَخُوفة التى يهدّدها « بَطْش الروم » ، كما يقول الدكتور لويس عوض ، وهو حجة فى مثل هذه الأمور !! منفردًا بلا قائد ولا دليلٍ ولا رفيقٍ ؟

فإذا قال : « بلا رفيق » . فذلك خَبَلٌ خابلٌ (أى جنون مطبق) = وإذا قال : « برفيق ودليل وقائد » فنسأل : أهذا الرفيق من أهلِه أم من غير أهله ؟ فإذا قال : من أهله . قلنا : أهو طفْلٌ مثله يرعاهُ ويحوطه ضَرارته وعجزه ، أم عاقلٌ مدرك ؟ فإن قال : طفلٌ مثله . فذلك ضرب آخر من الجنون . وإن قال . عاقلٌ مدرك . قلنا : أهو مسلم أم نصرانيٌّ ؟ فإن قال : نصرانيٌّ . فهو معتوهٌ لا يُخاطَب . وإن قال : مسلم . قلنا : أفيعقل عاقلٌ أن رجلًا من أهل بيت بنى سليمان علماء المعرّة وفقهائها وقضاتها ، وهو مع ذلك عاقل مدرك مسلمٌ ، ينزلُ ديرًا فيه راهبٌ شادٍ ، فيدع لهُ غلامًا يُلْقى عليه أقوالًا من أوائل كلام الفلاسفة ، ليس عند الفتى الصغير ما يدفعها بِهِ ، وهو جالسٌ إلى جواره يَدْعَمُ ذَقَنه براحته ، ينظر ويبتسم كأنَّه لا يبالى ؟ وأنا أشترط أن يجيبنى على هذا السؤال عاقلٌ ، لأنى قد سئمتُ إجابة من لا يعقِلُ ، منذ عانيت ما عانيتُ من عشرة بعض الناس ، وسماع أقوالهم ، وقراءة ما يكتبون وما ينشرون .

ومع ذلك فأنا أستهل الأمر على من يريدُ أن يجيب ، فإنى لم أقضِ هذه الساعات فى كتابة « الأمور الأربعة » ، لينسَاها من أسألُهُ ، فأضع له ملخصا مفيدًا لما فات يجعلهُ على ذُكْرٍ :

ففى الأمر الأوّل ، ذكرتُ وبيَّنت مَنْ هم آباء أبى العلاء ومنزلتهم من العلم والفقه والديانة .

وفى الأمر الثانى ، بيَّنت أن شيخ المعرة قد فارق العشرين ، فلم يحدّث نفسه باجتداء علمٍ من عراقى أو شآمٍ ، من أمة علماؤها هم مَنْ هم (ومعذور الدكتور لويس عوض ، إذا لم يعرف عنهم شيئًا) . وهذا لا يناله أحدٌ فى مثل هذه المدّة القصيرة ، وهو مُلْتاثُ العقل فى الثالثة عشرة من عمره ، يستطيع راهبٌ شادٍ أن يضلّله عن دينه وكتابه .

وفى الأمر الثالث ، بينتُ أعداد شيوخه شيخًا شيخًا بأسمائهم ، وكلهم عالمٌ فقيه ، أو لغويٌّ نحويٌّ ، وأنه نشأ فى بيت يحفُّه فيه العلم من رجال ونساء .

وفى الأمر الرابع ، بينتُ أن أبا العلاء عمى فى طفولته ، وأن ذلك ابتعث حَدَب

أبيه الذى بقى يرعاه إلى سنة ٣٩٥ هـ ، كما بيّن هو فى شعره ، بأشد حياطة وإشفاق ، وكانت أمُّهُ أشدَّ حَدَبًا على ضرير عاجزٍ بنفسه قادرٍ بغيره ، فظلَّت تقوم على خاصّ شأنه حتى لا تراهُ عينٌ من صميم أهله ، فتنكر من مطعمه أو مشربه شيئًا ، فتستخِفّ به أو تهزأ ، وأنه ظَلَّ فى كفالتها كأنه رضيعٌ ، حتى ركب رأسه بعد وفاة أبيه ، فجعل يلحُّ عليها مستأذنًا فى الرحيل إلى بغداد ، ويُبْدى لها أنه عازمٌ ، وهى تحسَبُه كاذبًا فيما يقول ، لعلمها بضعفه وحيائه وحبّه أن يستُر خاصَّ أمره عن كل عين قريبة ، فما ظنك بالعين الغريبة ؟

فأنا أسألُ مرة أخرى سؤالًا جامعًا : هل يمكنُ أن يكون أبو العلاء قد رَحَل منفردًا إلى راهب دير الفاروس ، أو مع رفيق ، فى حياة أبيه القاضى ، وفى حياة أمّه ، فى نحو سنة ٣٧٥ - ٣٧٧ هـ ، وهذا كُلُّه حاضرٌ فى ذهن من يريد أن يجيبُ بنعم أولا ؟ وأتولَّى أنا الإجابة ، فأقول : لاَ ، هذا أمرٌ فوق المقطوع باستحالته عند من يعقل ، فأبو العلاء إذن ، لم يرحلْ قطُّ إلى طرابلس ، لا فى صباه ، ولا فى شبابه ، ولا فى كهولته ، ولم يجتز بدير الفاروس ، ولم ينزل به البتَّة ، ولم يلق « راهبًا يشدو شيئًا من علوم الأوائل ، فيسمع منه أبو العلاء كلامًا من أوائل كلام الفلاسفة » . وقد أسلفتُ فى الكلمة الماضية ، أنه لم يقل شعرًا فى صِباهُ يتضمن شكوكًا توجب عليه الاعتذار منها والبراءة .

* * *

وتبقى طريفة من الطرائف فى هذا الخبر ، لا أكلّف الدكتور لويس عوض عبءَ استنباطها ، فأستنبطها أنا له ، والأمر لله . فأنا أقرأ كلام القفطى وغير القفطى ، وأنا أزعُمُ أنى أعرف هذه العربية التى ارتضعناها من أثداء أمَّهاتنا منذ عهد أبينا إسماعيل عليه السلام ، فبقى فى دمائنا منها نَبْضٌ لا يكادُ يخطئُ بعد الدُّرْبة والممارسة . ففى هذا الخبر جملةٌ تدلُّ على واضع الخبر من أىِّ الطَّبْلِ هو ؟ (أى ، أىِّ الناس هو ، مرة أخرى) ، فنحن نقرأ كتاب القفطىّ جميعه ، ولا نكاد نجد لها مَثِيلًا فى الركاكة والسُّقم فى كتابه كُلّه . وإذا كان القفطى لم يسند الخبر إلى كتاب ، ولا نسبه إلى رجل معروفٍ من أهل العلم والرواية ، فإنى أراه نكَّرَهُ ، كما أسلفت ، لخبث مخرجه

عنده ، وأزعم أن ياقوتًا سمعه منه فأنكر أيضًا لفظه وخبثَ مخرجه . فليت شعرى من يكون محدّث القفطىّ بهذا الخبر ؟ ولا سيما بعد ما أثبتُّ أنّه كان سمع ما وجده ابن العديم فى كتابٍ لأحد المصنفين ، زعم فيه أن أبا العلاء « رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر فى كتبها » ، فأخذ هذا الخبيث الوضّاع ، الخفيف الظل ، الذى أتعبنا معه ! ، هذه الكلمة ، فبنى عليها قصّةً من سمادير المُدْمِنين (والسمادير ، ما يتراءى للمخمور) ، ركّبها بجَهْله وخطفه كما يشتهى ، وأحدث لها شخصًا لا وجودَ له البتّة فى هذا الزمن بعينه ، وغيّر « دار العلم بطرابلس » ، إلى « خزائن كتب .... » ، ثم حدّث القِفْطِىّ به بعد أن سَمِع وقيعته فى دين شيخ المعرة ، فأراد أن يُطْرِفه بذلك أو يسلّيه . فجاء القفطىّ فأثبته فى كتابه ضغينةً على الشيخ وطُرْفةً ، ولم يظنَّ أنّ الأمر سينتهى بها إلى ما نحنُ فيه .

قال محدث القفطى فى حديثه عن الذى كان من أمر أبى العلاء بعد لقاء الراهب وسماعه كلامَهُ الذى زعم : « وحصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال » ، فقوله : « وحصل له به شكوك » ثم « وحَصَل به بعضُ الانحلال » ، كلامٌ لا عربيّةَ له ، إنما هو من لَهْجة عُلوج الشأم ، وزَواقِيل الجزيرة ، ولا شىء غير ذلك ، (والعلوج ، بقايا عجم الشأم ، والزواقيل ، بقايا عجم الجزيرة) ، لا يكتبه القفطىّ ولا من كان فى مثل علمه وفقهه ومنزلته . وإذن فلم يبقَ إلا علاجُ هذا الخبر من ناحية أخرى ، يوجب علينا استخدام الدكتور لويس عوض إياهُ ، أن نعالجه من هذه الناحية ، (والعرض مستمر) .



... بل شَنيعًا

الرسالة

الخميس : ١٣ شعبان ١٣٨٤



٤

وإذنْ ، فليس حسنًا ، بل شنيعًا أن ينتصب امرؤٌ له بقيةُ عقلٍ ، فيقوم قائمًا ليخون جَهْرةً وعلانيةً أمانة البيان وأمانة القلم ، لأنه عندئذ إنما يَخِيس بأوثق عهدٍ عهده الله إلى بنى آدم ، حيث علّمهم البيان وعلّمهم بالقلم . وكُلّ ناطقٍ بلسان أو كاتبٍ بقلم ، فإنّما هو معلّمٌ لمن يتلقّى عنه . فإذا احتالَ ، وغشّ ، وخادع ، وكذب ، واجترأ على ما لا يُحْسِن ، وادَّعَى ما لم يكن ، وحرّفَ الكلم عن مواضعه ، وبدّلَ لفظًا بلفظٍ ليزوّر باطلًا ، فزوّق وحسّنَ ، وأخفى معالم القُبْح فيه بالتدليس ، وستر عُواره ودَمامته بالمخرقة والتمويه ، [والمخرقة ، احتيال الدجاجلة بالحيل الخفية] ، فقد خرج بفعلِ ذلك عن أن يكون مُبينًا وكاتبًا ، إلى أن يكونَ دجّالًا يجعل الصِّدق طِلاءً لما تعافُ النفوسُ من كذبه . وخرجَ من أن يكون معلِّمًا لمن يتلَقّى عنه ، إلى أن يكون نهّازًا لغفلات السامعين والقارئين ، يريدُ الغدرَ بهم وبعقولهم ليفسدها بآفةٍ من آفاته . وإنما هو مخاتِلٌ يتخذ ثقة المتعلم بمن يظنّ أنه يعلمه ، شبكةً وحِبالةً للإيقاع به . هذا كُلّه شنيع ، فإذا جاء وقد ناط إلى اسمه لقبًا يتدلَّى كأنه وِسامٌ شاهدٌ مصدِّقٌ لظنّ المتعلم فيه ، فذلك من فعله أشنع ، فإذا ألبسَ مكره بالقارئ قناعًا يقال له « المنهج » ، يبتغى بذلك أنْ يأتيه من مَأْمَنِه ، فلا تخامره الهواجس والشكوك فيما يقال له ، فذلك أوغَلُ فى الشناعة ، فإذا صالَ على المتعلم صولة الشرلتان المدرَّب ، (والشرلتان ، معروف معناه فى كلام الأعاجم) فَتذاءبَ عليه (أى فعل فِعْل الذئب فى المهاجمة) ، فأتاه من عن يمين وشمالٍ ، فاستكثر بذكر أسماء العلماء والكتب ، ليتاح له أن يلقى إليه أقوالًا مؤكدة إلقاء الحقائق المسلَّمة المفروغ من صدقها وصحتها ، فذلك أخبث الشناعة ، وهو بالقارئ المخدوع أَضرُّ من الوباء المتفشّى ، ومن الطاعون المُسْتَعِر ، فإذا كان ، على ذلك كُلِّه ، ممن ائْتُمِن على كرسىّ أستاذيةٍ ، أو على صحيفة سيّارة فى الناس عالِمِهم ومتعلمِهم وشادِيهم ، فارتكب هذا

الطريق علانية وجهرةً وبلا حَياءٍ يَحْجِزه ، أو يردعُه ، أو يَكُفّ من غَرْب تحرُّقِه على نشر ما يطوى من الخديعة (وغرب كُلّ شيء ، حِدّته ومضاؤه) ، فقد جمع الخمسة المهلكة ، ليتجرَّعها آلافٌ آمنون غافلون ؛ نَفَثْ ثقتُهم به ريبةَ قُلوبهم بما يكتب . لا ، بل زادَ ، فأتى بسادسة الأثافيّ = ولم تكن الأثافيُّ قبله سوى ثلاث = وذلك بإلقائه على من ائتمنه على الكرسيّ أو الصحيفة جريرةَ يده ، لأنه مكَّنَ له أن يفعل ما فعل ، وأصحاب العقل يقولون :

إِنَّ العفيفَ إذا استعانَ بخائنٍ كانَ العفيفُ شريكَهُ فى المَأْثَمِ

ويقولون فى أمثالهم : « مَنِ استرعَى الذئبَ ظَلَم » .

* * *

فمن أجل هذا حملتُ القلم بعد طول التَّمادى فى هجرانه ثلاثة عشر عامًا ، لأهتك أقنعةَ المَخْرَقة على عقول الناس بالباطل المموَّه ، ولأكشف غاشية الوباء المنتشر بلا رقيبٍ يدفَعُ أو طبيب يعالج ، ولأزيل الغطاءَ ، إن شاء الله ، عن مسارب الهلاك الخفيّ الذى بدأ يتدسّس إلى أبناء أمّتى ، وهم فى غفلاتهم آمنون . ثم حملتهُ بعدُ لأذُودَ عن شيخ المعرَّة ، رحمه الله ! وارحمتاه للشيخ ! ما حاقَ به من البلاء منذ كان نابتًا طريًّا فى الرابعة مِن عُمره ، فاغتاله الجُدَرىّ فعاثَ فى وَجْهه وحفَّره ، وذهب بيُسْرى عينيه فغارَت وانطفأت ، وضغط على اليمنى فنَتَأَتْ ، (أى برزت) ، لابسةً غشاوةً بيضاء ، فصار مَرْآه للناس شُنْعَةً ، حتى يقول رائيه فى صفته : « وهو صبىٌّ دميم الخلقة ، مجدورُ الوجه » . ولم يكد يسيرُ ذكره فى الناسِ ، حتى أخذته مَقَاذِعُ الألسنة (وهى الكلام القبيح والفحش) ، فرمى بالإلحاد وسوء الاعتقاد حسدًا ونكاية ، إلى أن توفى سنة ٤٤٩ هـ . اثنتان وثمانون سنة ، لقى فيها الضُّرَّ المفزع ، والبلاء المُسْتَبين . وكأنّ الشيخ لم يكفِه ما لقى من هذا كُلّه وهو حىٌّ يحسُّ ويتألّم ، حتى يخرج عليه ، بعد دهور من مماته ، « تركبولى » محترق ، (والتركبولى ، هو رأس رماة الإفرنج باليونانية) ، لِيَعيثَ هو أيضًا فى رِمّة الشيخ ، وفى أدبه ، وفى علمه ، لا يردعُه شىءٌ عن الضرب المُثْخِن بقنطاريّته (وهو الرمح الثقيل باليونانية ، وكل الألفاظ اليونانية التى استعملها كانت معروفة للمسلمين زمن الصليبية) ،

ليشطِّب صورته ويزيدها تشويهًا ، (يشطِّبه ، يقطعه ويمزقه ، وهو الذى يقال بعامية مصر : يشضبه) . ثم لا يقنع بهذا حتى يتناول العصرَ كلَّه برجالاته ، وأفكاره ، وأحداثه ، وأحواله بوجه عام ، كما يقول الدكتور ، فيشطِّبه تشطيبًا ، ضربًا وطعْنًا ، يمينًا وشمالًا ، بيدٍ قاسية ، كأن فيها ضغينةَ ثلاثة عشر قرنًا ، ظلَّت دفينة مستكنّةً ، ثم هاجت فجأة هِيَاجَ المِرّةِ السوداء ، (و « المِرّة السوداء » ، بكسر الميم ، مزاجٌ من أمزجة البدن ، يسأل عنه الأطباء) .

ومع علمى بكُلّ ذلك وصِفَتِه ، لم أحاول بعدُ أن آخذ الدكتور لويس عوض من هذا الجانب ، بل أخذتُه من الجانب الذى يريدُ هو أن يعرضه لأعين الناس ، من جانب العلم والأدب والكتابة والأستاذية الجامعية ، وسائر هذه المراقع التى يتكَمْكَمُ فيها ، ليوهم أنها طيلسانُ أستاذٍ جامعىّ ، (« يتكمكم » ، يتلفف فيها ويختفى . و« الطيلسان » ، الروب الجامعىّ) ، وتحت هذه المراقع البلاءُ الماحق لعقول الشباب المتطلعين إلى العلم والمعرفة ، لأنها تستَلُّ من قلوبهم الشكّ والريبة فى حديث الرجل المتدثّر بشارة العلم والثقافة . فكانَ من حيلته أن عرَّض للناس بذكر « المنهج » ، ليزدادَ الغافل اطمئنانًا لأستاذيته . فمن أجل ذلك بيَّنتُ معنى « المنهج » فى الكلمة الأولى ، وأنه شطران ، والشطر الأول يتناول مادة الدراسة ، وذلك بجمعها وتصنيفها وتمحيص مفرداتها وتحليل أجزائها بدقة وحذر ، ليتبين زَيْفها من صحيحها . فليت شعرى ماذا فعل هذا الأستاذ الجامعى ، زعم ؟ وما مادة دراسته لشيخ المعرة ورسالة الغفران ؟

أثار الغبارَ القاتِلَ منذ عهد هوميروس إلى أن انتهى إلى زمن الصليبية فى المقالة الرابعة من مقالاته التسع ، وهو فى خلال ذلك يعلو ويهبط ، ويجرى يَمْنَةً ثم يركُضُ يَسْرةً ، وينشر ثوبًا أزرقَ ، ثم يطويه ، فينشر آخر أبيض وأحمر وأخضَر ، ويوقد نورًا ثم يطفئه ثم ينيرهُ ، كأنه ساحرٌ عبقرىٌّ ، حتى إذا انتهى إلى آخر المقالة الرابعة ، تلاعبَ وصَرخَ وبَعْثر ، وأخفَت ضوءًا وأشعل آخر ، ليوهمك أنّه عَمَد إلى تاريخ شيخ المعرة ، صاحب رسالة الغفران فنفضه نفضًا ، فلم يجد فى هذا التاريخ كلّه خبرًا يهدى إلى حقيقة « هذا الرجل العظيم » سوى خبرٍ واحدٍ ، هو حديث راهب دير

الفاروس ! (أىَّ دَجَل هذا ؟) ، ثم ماذا ؟ ثم لم يكن هذا الخبر سوى خبرٍ وقع إليه عَرَضًا فى كتاب واحدٍ ، ألفه الدكتور طه حسين منذ أكثر من خمسين سنة ، ثم ماذا ؟ ثم تجد الدليلَ القاطعَ على أنه لم يقرأ كتابَ الدكتور كلّه ، وإذا كان قرأه فإنّه لم يفهمه . ثم ماذا ؟ ثم تنفَّش حين نقل الخبر بذكر رجلين ، أقطعُ أنا بأنه لا يعرف من هُما ، ولا أين كانا ، ولا أىَّ شىء كتبا ، وهما القِفْطىّ والذهبىّ ، فأسند إليهما الخبر كأنه منقولٌ عن كتابيهما ، وهذا غشٌّ فاضح .

ثم ماذا ؟ ثم لم يقتصر على هذا التنفُّخ الغثّ حتى خان الأمانة ، فقرأ أربعة أسطرٍ من كتاب الدكتور طه ، وأغفَل ما جاء بعدها مباشرةً من نقد لهذا الخبر . وهذا أشدُّ شىء غَثَاثةً . ثم كان ماذا ؟ ثم استخرجَ من هذه الأسطر الأربعة نتيجةً ألقاها كأنها حقيقة واقعة ، إذ جمع بين أبى العلاء الذى توفى سنة ٤٤٩ هـ ، وأسامة بن منقذ الذى ولدَ سنة ٤٨٨ هـ ، فجعلهما صبيَّين يتعلمان معًا بأنطاكية ، ويختلفان إلى مكتبتها ، فى عَهْد غلبة نصارى الروم على هذه المدينة !! ثم ماذا ؟ ثم زعَم أن بأنطاكية يومئذ « حضارةً زاهرةً ، حسب ما روى ياقوت الحموى » ، أو كما قال ! فقوَّل ياقوتًا ما لم يَقل ، فدلَّس تدليسًا قبيحًا ظاهرًا ، لم أتناوله فيما مضى ، وسيأتى بعدُ فى مكانه .

ثم لم يكن أمينًا ولا صادقًا ، فحرَّفَ الكلم عن مواضعه ، لأن الدكتور طه يقول : « ولقى بهذا الدير راهبًا درسَ الفلسفة وعلوم الأوائل ، فأخذ عنه ما شككه فى دينه وفى غيره من الديانات » . فمسخ كلام الدكتور طَه وحذفَ منه ما فيه ذكر دين أبى العلاء وغيره من الديانات !! ، ليسوق الخبر فى غبارٍ من رَكاكة التعبير والتصوُّر فيقول : « وقد تعلم المعرّى فى اللاذقية ، كما تعلّم فى أنطاكية ، ففيما روى القفطىّ والذهبى أنه نزل بدير فيها : «ولقى بهذا الدَّيْر راهبًا قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل » بلغة طه حسين ، أو باختصار أخذ عنه اليونانيات ، فما علوم الأوائل هذه التى كانت تقرأ فى الأديرة تحت حكم الروم ، إلاَّ آداب اليونان وفلسفتهم فى لغتها الأصلية » ، فوضع جزءًا من كلام الدكتور طه بين ضَبَابتين من الغثاثة ، وزاد فجعل « لقاء الراهب والأخذ عنه » : « تعلُّمًا فى اللاذقية » بلا حياءٍ ولا حرج ، ثم ماذا ؟ ثم غش القارئ

وخدعه وزوّر عليه ، حين ساق هذا الغُثاء كُله مَساقَ الحقائق المسلمة التى فرغ هو من دراستها وتمحيصها على « أسلم منهج » كما قال ! فصارت بديهية لا تحتمل المناقشة ، ليس إلاّ التسليم . ثم ماذا ؟ ثم ختم هذه البلايا بمرسوم حاسم أصدره البسكند (الفيكونت) الدكتور لويس عوض هذا نصُّه : « والحقُّ أنه لا يُعرف شىءٌ عن تعليمه الرسمى !! (يعنى تعليم أبى العلاء الرسمىّ !! وهذا أجدّ شىء وأطرفه وأظرفه) حتى سن العشرين ، وهى سنّ التكوين ، إلاّ أنه تعلّم فى حلب ، ثم أنطاكية ، ثم فى اللاذقية ، ثم فى طرابلس (بهذا الترتيب المدروس ، البديع ، المدهش !!) . ومثل هذا الغموض الذى أحاط بتكوينه العقلى حتى سن العشرين ، يحيط أيضًا بحياته كُلِّها ، فيما بين العشرين والخامسة والثلاثين » . [التوقيع : البسكند ، الدكتور لويس عوض ، المستشار الثقافى لمؤسسة الأهرام ، وعضو جمعية الأدباء] . فأىُّ جرأة على صبّ الغثاثة على الورق !! (فائدة : البسكند ، هكذا عرّبة المسلمون أيّام التحامهم بالصّليبيين) .

فهذا أستاذ جامعى يتبجَّح بذكر « أسلم منهج » ، ثم لا يكون من فعله إلاّ أن يأخذ خبرًا لقيطًا وقع عليه عرضًا ، بلا قراءة ، وبادّعاء غثٍّ للقراءة ، فى كتاب ألفه صاحبه صغيرًا منذ أكثر من خمسين سنة ، ثم لم يسلك فى مدارسته مسلك مبتدئ جامعىّ ، فَضْلًا عن أستاذٍ جامعىّ ، ثم لم يسأل نفسه سؤالًا واحدًا يدلُّ على أدنَى ذكاءٍ ، فضلًا عن أستاذية . ثم لم يبال ، إبراءً للذمة ، أن يراجع المصدرين اللذين انتفخ بذكرهما إيهامًا وتصاوُلًا بالاطلاع ، وتدليسًا على القراء .

وهذا أستاذٌ جامعىٌّ صاحب « منهج » ، لم يخطُر بباله قطُّ أن على المبتدئ فى دراسة الآداب أن يتتبع أىّ خبر وجده ، لينظر من أين جاء ؟ ومتى جاء ؟ ومَنْ قائله ؟ وفى أى زمان كان ؟ وعَسَى أن يجد فائدة ، وإلاّ إبراءً للذمة !! ، وإلاّ حياءً أن يصبح فيجدَ الخبر عند الناس موجودًا فى عشرة كتب مطبوعة ، وبعشر صِيَغٍ مختلفاتٍ ! ليس منها الصيغة التى ذكرها الدكتور طه فى كتابه ، ونسبها إلى القفطىّ والذهبىّ ! وقليلٌ من الحياء يُصْلح العقل !

وهذا أستاذٌ جامعىّ ، بعد ذلك كُلّه ، يعمد إلى كلام الدكتور طه فيحرِّفه

ويبدِّله ، ويستخرج منه ما لا يعقلُه إنسان عاقلٌ ، فضلًا عن أستاذٍ جامعيّ . ثم يزيدُ فيترجمه إلى لغة ركيكة سقيمة ، بلا حذرٍ ولا حَيْطةٍ ولا تدبُّرٍ . آه ، هذا أستاذٌ جامعيّ مجترىء ، لم يتوهم قطُّ أن الآداب والفلسفات إنما تقوم بالألفاظِ ودراستها وتحليلها . وهذا فعله فى ألفاظ خبر ، فما ظنك به فى الشعر مثلًا !!

وهذا أستاذ جامعىّ يأتى منتفخًا مُنْتَفِشًا ، ليكتب عن أثر أدبىّ لرجل لا مغمور ولا مجهول ، له ترجمة فى أكثر من ثلاثين كتابًا ، وكتب الناس عنه شرقًا وغربًا ، قديمًا وحديثًا ، والكتب بين عينيه مطروحة على الأرصفة وفى الطرقاتِ ، ثم لا يعنِّى نفسه عناءً فى البحث ليعرفَ مَنْ شيوخُ أبى العلاء الذين تلقَّى عنهم حتى سِنِّ العشرين ، ولا ما كان من أمره وخبره حتى بلغ الخامسة والثلاثين ، ليكذب على الناس ويدّعى ويزوّر ، فيقولَ إنه لا يُعْلَم شىءٌ عن تعليمه الرسمىّ (!!) حتى بلغ هذا العُمر .

وهذا أستاذ جامعى ينتهى ، بعد هذا الغثاء كُلّه ، إلى أنه لا يصحُّ شىءٌ فى العقول ولا فى الكتب ، سوى أن أبا العلاء تعلَّم فى أنطاكية التى كذب على القدماء فزعم أنهم قالوا : إنه كانت بها حضارة زاهرة !! وذلك حين دخلت فى حوزة الروم ، فأَجْلَوا منها المسلمين من سنة ٣٥٣ قبل مولد أبى العلاء ، إلى سنة ٤٧٧ بعد وفاته ، ثم فى اللاذقية التى لم تكن أحسن حالًا من أنطاكية ، حيث تَعلَّم من راهب دير الفاروس ، يقول ذلك غير عابئ بعقلٍ ولا فكر ولا نظر .

وهذا أستاذ جامعى يدخُل فى الشطر الثانى من « أسلم منهج » ، فيحيط خبرَ الراهب ، قبل أن يُطْلع القراءَ على هذه النفيسة العجيبة ، بصورة ضخمة لغلبة أهل الصليب على أهل الإسلام ، لم نناقشها بعد ، ولكنها كاذبةٌ ، ومن سمادير المدمنين ، ولا أصل لها إلا فيما يتراءى له من الأخيلة ، ويسميها « الخلفية التاريخية لهذا الرجل العظيم !! » ، ثم يأتى بالفتى الضرير فيقحمه فى ألوانها وظلالها ، وراهبُ دير الفاروس يقودُه بيده ، أو بزمامٍ مطروحٍ فى عنقه !!

وهذا أستاذ جامعى ، لا أدرى من أى شىء سُوِّىَ أديمُ وجهه ، يقول علانيةً أنه جاء يعلم الناس « الإنسانيات » ، يعنى الآداب ، ثم يعزلُ صاحبَ آثار أدبيّة فريدةٍ فى تاريخ البشر ، عن أهله ، وعن منزلتهم فى الناس ، وعن أهله وعَواطفهم نحوه ، وعن

أهل دينه وعاداتهم وأخلاقهم وآرائهم ومعتقداتهم ، ثم عن أبيه وأمِّه اللذين كانا يحوطان ضَرَارته وعجزَه ، فيرعيانه ويكفُلانه ، ويقومان بكُلّ أمره ، حَدَبًا عليه وإشفاقًا ، لما أصاب صغيرهما من الضُّرِّ والعمى والبلاء ، فينتزعه من هذا كُلّه بلا عَقْل ، وبلا تدبُّر ، وبلا إنسانية ، وبلا شعور ، ليعامَله فى مقاله معاملة المقاطيع واللقطاء من عميان السيد البدوى وسانت تريزا ، فيُخرجه من بين هؤلاء جميعًا فتى صغيرًا أعمى عاجزًا وهو فى نحو الثانية عشرة من عمره ، ليدور به ويتسكّع بين حلب ، وأنطاكية ، واللاذقية ، وطرابلس ، وحيدًا منفردًا بلا راعٍ ولا رفيق ولا قائد ، ثم يطرحه فى أيدى الرهبان يثقِّفونه باليونانيات من أدبٍ وفلسفة !! ولا قيمة عند هذا الرجل لما يقالُ فى كتب القدماء !! من أن هذا الأعمى الصغير ولد لأبوين مسلمين ، وفى قرية مسلمةٍ ، وأنّ مَآبه بعد التسكُّع بين الرهبان والأديرة ، مآبٌ إلى ديار أهل الإسلام !! كُلُّ هذا لا قيمة له ولا خطر عند أستاذ جامعى ، تبجَّح بأنه جاء يعلم الناس « الإنسانيات » !!.

وهذا أستاذٌ جامعيٌّ ، بعد ذلك كُلِّه ، يأتى بلا حياءٍ فيكتب تسع مقالاتٍ متتابعاتٍ عن شيخ المعرة ورسالة الغفران ، وهو لم يقرأ حرفًا واحدًا من شعر أبى العلاء ، وإن كان قرأ منه شيئًا ، أو قُرِئَ عليه ، فإنه لم يفهم منه حرفًا على الوجه الذى يفهم به الشعر . وهو لم يقرأ « رسالة الغفران » التى يكتب عنها ، لا قراءةً صحيحة ولا قراءة غير صحيحة ، بلا ريب عندى فى ذلك ، كما سيتبين ذلك لكل ذى سمع وبَصرٍ ، أديبًا كان أو غير أديب .

* * *

فأنا أريد أن أسأل بعد هذا كُلِّه سؤالًا واحدً : أهذا سلوك أستاذٍ جامعيٍّ يحمل لقبًا يدلِّس به على صغار الناس وكبارِهم ، ويغتالُ غَفَلاتهم عن عُواره ، ثقةً منهم بكرامة هذا اللقب وكرامة من يحمله ؟ وجوابُ كل ذى عقلٍ أو حَصَاة من عقل : لا ، ولا كرامة . فإذْ لم يكن هذا السلوكُ سلوكَ أستاذٍ جامعيّ ، ولا مبتدئ جامعى ، ولا طالب ثانوىّ ، ولا أحد من عُرْض الناس يشدو دراسة الآدابِ أيًّا كانت ، وفى أى لغةٍ شئت ، فكيف أستحلُّ بعد ذلك لنفسى ألزِق باسمه لفظ « الدكتور » ؟

لا ولا كرامة ، لن أستحل ذلك ، تنزيهًا لهذا اللقب عن الابتذال ، وحماية للنشء من التغرير ، واستنكافًا أن أغمس مدادَ قَلَمى فى كذب مفضوحٍ يعين على تغفُّل القراء . وكنتُ أظنُّه واجبًا قديمًا على جامعاتنا أن تعيد النَّظَر فى هذه الإجازات التى تمنحها بعض جامعات الدول الكبرى اليوم ، لبعض من يُثْبت الاختبارُ أنَّهم دُخَلاءُ : ما هى هذه الإجازات ؟ وكيف منحت ؟ ولمن تمنح ؟ وعلى أىِّ أساس ؟ (١)

وأنا لا أسأل الجامعات هذه الأسئلة ، ولا ألزمُها بهذا الواجب ، مقتصرًا على ما كتبه لويس عوض ، عن رسالة الغفران وشيخ المعرة ، ولا عن ابن خلدون من قبله ، ولا عن المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى ، ولا على ما فى بلوتولند من شعر ونثر ، ولا على سائر ما كتب فى الصحف والمجلات فى شأن العربية وشعرها وآدابها ، وسيأتى بيان ذلك كله فى حينه . لا ، بل أزيد أيضًا ما يدلِّس بكتابته عن آداب الروم واليونان والإنجليز ، فإنَّ فعلَه فى ذلك لا يقلُّ مَجَانَةً عما يكتب فى أدب العرب ، وهو تهويل كله بأسلوب فجٍّ غليظ ، أقطع بأنَّه لو ترجم إلى أى لغة من اللغات ، لاستلقى القارئون على أقفيتهم من الدهشة والضحك . وليس من همِّى أن أكشف هذا التدليس المغرِّر بالناس ، لأنى منذ رفضتُ أن أضع على وجهى مِيسَمَ العُبودية لليونان والروم وما تولّد عنهما من الأجيال إلى هذا اليوم ، لا فى أدبٍ ولا فى غير أدبٍ ، فإنى رفضتُ أيضًا أن أغمس قَلمى فى مداد العبوديّة لهم . ودارسو آداب الأمم ، وهم كُثْر متقنون ، عليهم أن يكشفوا بأقلامهم تزييف هذا الرجل فيما يكتب من الآداب الأوربية واليونانية . وهذا واجبٌ يُلْزمهم إياه الحِفاظُ على صحة عقول النشء منذ غضارة الصبا ، أن يصيبها من هذا الوباء المتفشّى داءٌ يعجزها عن الاستقلال بحريتها ، فى هذا الزمن السريع المختلط المتضارب الأهواء والنوازع والمكايد الخفية . وتخلِّى مَنْ يطيق ذلك عن هذا الواجب ، لأىِّ سببٍ من الأسباب ، عَوْنٌ على نشر المَفْسَدة ، فضْلًا عن مناقضته للأمانة التى يحملها كل أستاذٍ جامعىّ دارس .

* * *

(١) الدكتوراة الممنوحة للويس عوض ، من جامعة برنستون ، وهى مركز من مراكز المبشرين الكبار ، فالأمر لا يحتاج إلى تأمّل !

والآن وقد فرغتُ من طرح عِبْءٍ ثقيل جدًّا كنت أحمله وأنا أكتب قبل اسم لويس عوض لفظ « دكتور » ، ويزيده ثِقْلًا ما كنت أجدهُ من الغضاضة فى ذلك ، لأنى كنت أجدنى كأنى أخون الأمانة أيضًا بالمشاركة فى ترويج أوهام ضارّةٍ بالنشء ، وتثبيتها بكثرة الاستعمال ، مع صحة علمى بأن الشباب الغضّ سريعٌ إلى الوقوع فى شرك الألفاظ التى تحمل تُراثًا من المهابة والتبجيل ، ونبضًا حيًّا من الأمانة والدقة والصدق ، والبعد عن الهوى ، وإخلاص النية فى حمل العلم ونشره بين الناس . الآنَ ، وقد طرحت عنّى هذا الثقل ، أعود إلى لويس عوض مجرّدًا عاريًا من طيلسان الأستاذية المتَّخَذِ أداةً للخداع .

« مَثَانوس » (بالرومية) ، أى معاذ الله ! معاذ الله أن أظلم أحدًا من الناسِ كائنًا من كان ، من أجل ذلك عاملتُ لويس عوض فى المقالات الثلاث السالفة برفقٍ وتؤدةٍ وأناةٍ ، فلم أقل له مثلًا : « إنك جاهل معتَّق الجهل » ، مخافة أن يحمله على معنى الجهل الذى هو نقيض العلم ، قبل أن أقدّم البرهان على ذلك . وكنت فى الحقيقة مُريدًا لها حريصًا عليها ، لا بهذا المعنى القريب المألوف ، بل بالمعنى الآخر الذى يقال فيه : « صبىٌّ جاهلٌ » ، أى غريرٌ طيّاش العقل ، سريعٌ إلى المتالف ، يجلبُ الشرور على نفسه من حيث يدرى ولا يدرى . وكنت مريدًا لها حريصًا عليها ، لأنها تؤدّى ما أريدُ من صفته ، لأنه استمرأ اللعب بآداب العرب وكلامهم منذ «بلوتولند » ، ولم يزل يزيدُ لعبًا حتى أوقع نفسه فى المهالك المُتْلِفة ، وكانَ غنيًّا عنها بيونانه ورُومه وقرونه الوسطى والمتطرِّفة ، يتلعَّب بهم كما يحلو له وكما يشاء ، ولا حرج .

أما الآن ، وقد استجاب الله سبحانه دعاء الضارعين إليه فى يوم الجمعة المبارك الساعات ، فنشر لويس عوض مقاله التاسع ، وكتب فى ذيله « انتهى البحث » ، ثم يسّر لى سبحانه أن أجمع الأسباب الداعية إلى إلقاء العبء الثقيل عن كاهلى ، فقد جعلتُ مكافأة لويس عوض على مسارعته إلى إعفاء الناس من غَثاثة ما يقول وما ينشر ، أن أدعَ له حديث راهب دير الفاروس جانبًا ، ومؤقتًا ، وإن كانت له بقية تعدُّ تحفة من التحف ، وآخذ فى طريق آخر ، هو أخفُّ مؤونة على القراء ، وأعون لهم على فهم حقيقة هذا الكاتب الذى كان يقالُ فى مثله قديمًا :

فَعَدِّ عَنِ الكِتَابَةِ ، لَسْتَ مِنْهَا وَلَوْ لَطَّخْتَ ثَوْبَك بالمِدَادِ

فأنا أعقِلُ ، على صورةٍ ما ، أن يكتب لويس عوض عن آداب اليونان والروم والقرون الوسطى وشعراء الإنجليز وأشباه ذلك ، مدَّعيًا أنه قد تولَّى الإمارة عليهم وعلى لغاتهم ، فهذا ممكن هَهْ ! ومعقولٌ هَهْ ! ولكنه شيء لا يعنينى ولا أحاسبه عليه . ولكن الشيء الذى لا أكادُ أعقله ، ولا يكادُ يعقلُه عاقل صحيح العقل من الآفات ، هو أن يمدّ لويس عوض سلطان إمارته على لغة العرب ، فيشرح ألفاظها ويفسّرها ويستنبط منها . ولماذا ؟ ستعرف إن شاء الله . فقد كتب لويس عوض ترجمة لحياة لويس عوض !! وجعلها مقدمة لشيء ، أستغفر الله ، لشعر سمَّاه : « بلوتولند ، وقصائد أخرى » . وفى (التجربة رقم : ٦) من تجاربه الخالدة ، وهى تجربة « كسر رقبة البلاغة !! » قال ، [لازال سلطانه على اليونانية مبسوطًا ، وعلى الرومية محطوطًا] ، يصف نفسه العزيزة : « فإذا أضفنا إلى ذلك أن إحساسه باللغة (أى ، إحساس لويس عوض) ضعيف بالفطرة (غريبة !! هذا صحيح !) علمنا كيف تأتَّى له أنْ كسرَ رقبة البلاغة (وهل فى ذلك شك ، يزول) . وقد اعترف لى (يعنى أن لويس عوض ، اعترف للويس عوض !!) بأنه لم يقرأ حرفًا واحدًا بالعربية بين سنّ العشرين والثانية والثلاثين (أى اثنتا عشرة سنة !!) ، إلاّ عناوين الأخبار فى الصحف السيارة ، وبعض المقالات الشاردة ، ألزمته الضرورة السياسية بقراءتها ، فإحساسه باللغة أجنبى جدًّا ، على كُلّ حالٍ » . وبالطبع ، هذا كلام إنسانٍ عاقلٍ جدًّا ، ومتمالك لجميع قواه العقلية ، فمن أجل ذلك نخاطبه ، وإلا كانت مخاطبته ضربًا من العبث والجنون !!

فإذا كانت هذه صفتك لنفسك وأنت فى الثانية والثلاثين من عمرك ، يا لويس عوض ، فبأيِّ عقلٍ بعد ذلك تأتى فتلعَبُ فى آثار شيخ المعرّة ، وفى كوميديا دانتى أيضًا ، ولا مؤاخذة ؟ ثم لا تقتصر على هذا اللعب فيهما ، بل تلعبُ أيضًا فيما تسميه « أحاديث المعراج » (وهذه لها ذيول طويلة لم يحن حينها بعدُ) ؟ ولا تقتصر على هذا ، فتمدّ سلطان بلاغتك المكسورة الرقبة على لغة الطليان والعرب فى آنٍ واحدٍ ، وفى قَرَنٍ واحدٍ ، أى حَبْل واحد ؟ وكيف كان ذلك ؟ نراك تقول أن دانتى يقول ،

والله أعلم بترجمتك المكسورة رقبة بلاغتها : « قالت بياتريس : لم تدلَّهت فى عشق وجهى ، حتى ألهاك العشق عن النظر إلى الحقيقة الفاتنة التى أينعت تحت ضياء المسيح ؟ ها هى ذى الوردة التى فيها أصبحت الكلمة الإلهية جسدًا » ثم قلت : « وكانت الوردة هى مريم العذراء : روزا مستيكا ، كما يسمونها » . ودلّ كلامك بعد ذلك على أن « الوردة » ، هى الزهرة التى تشمّ بالأنف ، (أى بالنوز ، بالإنجليزية ، ليكون أوضح لك !) . أليس هذا صحيحًا يا لويس عوض ؟ بالطبع نعم .

فالآن ننظر ماذا كانت عاقبة لعبك و (لَغْوَصَتك) فى كلام العرب . يقول بعد الذكاء المفرط ، والشروح النفيسة ، والمقارنات الأدبية الخارقة للعادة ، والفيلولوجيا المدهشة (أى فقه اللغة) ، ما نصّه أيها السادة واستعينوا بالله ، واحملوا معى رقبة بلاغته المكسورة ، وأمرى وأمركم إلى الله ! يقول :

« غير أن بعضَ التفاصيل الواردة فى فردوس دانتى ، توحى بأنه اقتبسَ أيضًا من القرآن الكريم ، ومن رسالة الغفران ، وربّما من غير ذلك من المصادر الإسلامية ، فتصويره للوردة السماوية (وهى مريم العذراء ، روزا مستيكا) ، يُوحى بأن له صلةً بما جاء فى سورة الرحمن ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ . وقد اتخذ دانتى من وردة الفردوس رمزًا لمريم العذراء ، ووصف الوردة بأن أوراقها من الملائكة . وقد كان للوردة أدب غزيرٌ فى العصور الوسطى الأدبية ، مثل « قصة الوردة » الشهيرة ، وهو كُلّه قصص ظاهريٌّ دنيويّ ، وباطنه بحث بالخيال فى الإلهيات على طريقه دانتى ، ومنه ما هو سابق لدانتى ، وليس له فى التراث الكلاسيكى الأوربى أصول معروفة .

فليس يبعد أن تكون أوربا المسيحية فى العصور الوسطى قد أخذته من العالم الإسلامى عن طريق أسبانيا وصقلية ، وترجمت رموزه بما يتمشّى مع ديانتها . والمعرّى نفسه ، ينسجُ على صورة الوردة فى سقط الزند ، ويجعلها فى الأرض لا فى السماء :

فإذا الأرضُ ، وَهْىَ غَبْرَاءُ ، صَارَتْ مِنْ دَمِ الطَّعْنِ وَرْدَةً كَالدِّهَان

ولكن الوردة السماوية فى القرآن الكريم وتفاسيرها ، هى المقابل الأصلىّ الذى خرجت منه كُلّ هذه الاجتهادات فى أدب الوردة » بُمْ ، بُمْ ، انتهت الفرقعة .

وبالطبع هذا كلام إنسانٍ عاقلٍ جدًّا ، عاقل من صنفٍ مدهش جدًّا ، وسأتولّى ترجمة كلامه لطولِ خبرتى بالترجمة : « دانتى ، اقتبس من القرآن ، من رسالة الغفران ، ربما من غير ذلك من المصادر الإسلامية ، أنا لويس عوض أستاذ محنك جدًّا . أنا مفرط الذكاء ! « الوردة السماوية » ، مريم العذراء ، فى سورة الرحمن ، « وردة كالدهان » ، إنها روزا مستيكا هنا ، علمى أنا واسع ، أنا لويس عوض ، أدب غزير فى « الوردة » ، قصص ، اطلعت أنا لويس عوض عليها ، العصور الوسطى ، قصص له ظاهر وباطن ، بحث فى الإلهيات ، التراث الكلاسيكى ليس فيه وردة . أوربا أخذته من العالم الإسلامى ، أنا ذكى ، نعم أنا لويس عوض ، ترجمات عن إسبانيا وصقلية ، لم لا ؟ رموز ! المعرّى عنده وردة أيضًا ، فى سقط الزند ! أنا قرأت شعر المعرّى ، لكن وردة أرضية لا سماوية ، الوردة السماوية فى القرآن ، وجدتها أنا وحدى ، أنا لويس عوض . لا ، أنا اطلعت على تفاسير القرآن ، أنا لويس عوض ، اجتهادات أدب الوردة عرفها كلها ، أنا لويس عوض » .

وحسبى حسبى فقد مللت هذا الشّرلتان الدعىّ المجترئ ، أىُّ خبل داخل جثمان هذا الرَّجُل حتى استولى على جميع أعضائه ؟ ما الوردة السماوية (مريم العذراء ، روزا مستيكا) ، وما « وردة كالدهان » ؟ أىُّ مجنونٍ يطيقُ أن يتكلّم بهذا فى كتاب يقرؤه الملايين من البشر ، فيأتِى هذا التالفُ فيلعبُ بألفاظ لغته ، كما يشتهى علانية ، بلا حياء ولا خجلٍ ، ويدّعى أنه قرأ تفاسير « وردة كالدهان » . أىّ خيالٍ من سمادير الإدمان تخيل له أن السماء إذا انشقت وانتثرت نجومها يوم القيامة صارت كالوردة التى تشم بالأنف فى شكلها ؟ أهذا إنسانٌ مفيق ؟ أهذا خَلْقٌ يتكلّم فى الآداب ، وفى الشعر ؟ أهذا تصوُّرٌ يليقُ بمن يحمل رأسًا فيه ذرةٌ من عقلٍ ؟ هذا معتوهٌ لا يخاطب .

ولكنى أخاطب الآن من صَبّ عليهم هذا الوَباءَ المحرق ، من شبابٍ وصغارٍ وعامة ، يخدعُهم اللقب الذى يلصق باسمه ، ويخدعهم نشر خبائثه فى أعظم

صحيفة فى بلاد العرب والإسلام ، فتحملهم المهابة لألقاب العلماء ، والثقة بصحيفة الأهرام ، عَلَى سُرعة التسليم بأن لهذا الصَّديد المنبثق من كلماته معنًى يفهم . ومعنى ذلك بلا إطالة ، هو أن الله سبحانه وتعالى ينذر عباده ويخوفهم بما سيكون يوم القيامة من الهول والفزع الأكبر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فتنكدر النجوم ، وتنتثر الكواكب ، وتنشقّ السماء وتتفطّر ، يتبدَّل لونُها حمرةً صافية مشرقة من شدة اللهب يومئذٍ ، فذلك قول الله سبحانه فى صفة يوم القيامة : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

فمعنى « وردة » ، أى حمراء ، وهى صفة . أما « الوردة » التى تشم ، فهى اسم لا صفة . يقال للمذكّر : « أسدٌ وَرْدٌ » ، و « فَرَسٌ وَرْدٌ » ، أى أحمر اللون = وللأنثى : « فَرَسٌ وَرْدة » ، أى حمراء . فلفظ « وردة » لفظ مشترك بين الاسم والصفة . فما لهذا المأفون المتعالم يظنُّ أنه كشف كشفًا بذكر « الوردة » التى هى عند دانتى (روزا مستيكا) ، فيسارعُ إلى إقحامها فى آيات عذاب يوم القيامة لمجرد اشتراك فى اللفظ بين الاسم والصفة ؟ وبتعالم غثٍّ يذكر « تفاسير الآية » ، كأنّه بحقّ قرأها وراجعها وعرف معناها !! ومرة أخرى : من أىّ أديمٍ شُقّ وَجْه هذا الرجل ؟

وتبلُغ به ثخَانةُ وجهه ، أن يعودَ مرة أخرى إلى قصيدة سقط الزند ، التى أخذ منها بيتًا من خلال أبيات يذكر فيها شيخ المعرّة الإبلَ ، ويصف ما لاقته نهارًا فى البيداء من هجير وظمأ ، وما رَعَتْ ليلًا من صِلِّيَانٍ (وهو نبت له جذور ضخمة فى الأرض ، تجتثها الإبل بأفواها فتأكُلُها من شدة حبّها لها ، فإذا كانت رطبة ، أساغتها ، وإذا كانت يابسة غصّت بها ، أى شرقت) ، فلم ير هذا الذى خُبِل بما خبل به إلاّ « الصُّلْبان » جمع « صليب » « تغص بها حلب » فكتب البيت هكذا :

صَلِيَتْ جَمْرَةَ الهَجِيرِ نَهَارًا ثُمَّ بَاتَتْ تَغَصُّ بالصُّلْبَانِ

وكتب تحته : « سقط الزند ، فى وصف حلب » ، فلمّا نبهه بعض الناس ، لم يزد إلا ثخانة وجهٍ فيما كتب من تصحيح ، فقال : « إن صحته الصليان بالياء ، وهو

نوع من الشوك ترعاه الإبل ، وأن البيت السابق له هو المتصل بحلب .. وأنه قد روجع على الأصل ، فلزمه التنويه » !!! ونسى أنه كتب بيتًا آخر وقال : « سقط الزند ، فى الحروب الصليبية » ، وأنّ المقالة تحت البيتين كُلُّها فى بيان غلبة نصارى الروم على أهل الإسلام ! فهذا الآدمىّ أثخن شىءٍ وجهًا ، حين عادَ إلى هذه القصيدة نفسها ، ليأخذ منها بيتًا آخر هو هذا البيت :

فَإِذَا الأَرْضُ ، وَهْىَ غَبْرَاءُ ، صَارَتْ   مِنْ دَمِ الطَّعْنِ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ

وأبو العلاء يقول : إن الطعن والقتل استحرّ ، فسالت الدماء حتى غشّت الأرض ، فصارت أرض الميدان بالدماء حمراء كالأديم الأحمر المشرق = فيأتى المكسورة رقبةُ بلاغته ، فَيجعل الصفة هنا اسمًا ، وهو الوردة المشمومة ، ويزيد فيقول كلامًا لا يفهم : « والمعرى نفسه ينسج على صورة الوردة فى سقط الزند ، ويجعلها فى الأرض لا فى السماء » ، يعنى كما فى « سورة الرحمن » ، وكما فى دانتى الذى أخذ عنهما « الوردة السماوية » (روزا مستيكا) !! يا مُغِيث ! يا مُغِيث ! لقد فاضت الغثاثة ، و « بلغ السَّيْل الزُّبَى ، وجاوز الحزامُ الطِبْيَيْنِ » ، ومن يصدق أنّ هذا الإنسان الحىَّ يمكن أن يقرأ شعرًا أو يَفهمه ، ولو كان بالعامية !!

* * *

بقيت مسألةٌ بعد هذا البَرْدِ البارِدِ كلّه ، هى أن لويس عوض فى ذاته ، لا يهمنى البتَّة مهما فَعَل ومهما قال ، فأنا أعرفُه وأعرف ما كتبه ، ومن يكون ، منذ كان ونطق وصبَّ على الناس ثَلْجه وغثاثته ، وسأكشفه للناس من الوجوه التى لا يملكُ معها حيلة أبدًا . وقد مارستُ أشباهه من المستغربين والمستشرقين جميعًا ، بما تنطوى عليه قلوبهم من السخيمة الآكلة ، وعقولهم من الغباوة والجهل .

لكن الذى يهمّنى هو صحيفة الأهرام ، أتراها لا تعرفُ منزلتها فى كُلّ بلد من بلاد العرب ، وهم مئة وعشرون مليونًا ، ثم فى روافد بلاد العرب ، وهى بلادُ الإسلام ، وهم ستمئة مليون أو يزيدون ، وكلُّهم عربيُّهم وعجميُّهم يرى القرآن كتابَهُ ، ويرى أدب العرب أدبه ، ويرى صحيفة الأهرام صحيفته ، فكيف يقولون إذا

رأوا أكبر منبر فيها قد أُسْلِمَ إلى رجُل لا يحسنُ يقرأ شيئًا من العربيّة ، ولا يحسنُ يفهم شيئًا فى أدبها ، ولا يحسنُ مدارسة شيء على منهج ، ولا يحسن يتكلّم كلامًا يربطُ بين جُمله عَقْلٌ ؟ ومع كُلّ ذلك تطالعهم صحيفة الأدب فيها صبيحة كل جمعة ، بأعمدة سودٍ قد حشاها خلطًا وخبطًا وعبثًا ، ولعبًا بالتاريخ ، وجرأة على الآداب ، وتخليطًا فى الجُمَل ، وبلاءً لا يحصى ، وآفاتٍ لا تعدّ . وبعد ذلك كله يتاحُ له أن يلعب بأحاديث المعراج . ثم لا يكفُّ ، فيندلع غرورهُ الملتهب فيلعبُ بأصابع عقله (!!) فى لغة العرب . ثم لا يكفُّ ، فيأتى وقد أطبقَ جنونُهُ إلى آية من القرآن فَيفسِّرها . ثم لا يكفُّ ، فينسبُ هذا إلى تفاسير القرآن ... كل ذلك أتاحته له صحيفة الأهرام أن يفعله ، بما أوتى من صفاقة وغِشّ وكذب وادعاء وتحريف ، وبلا رادع من عقل أو حياء . كيف يكون هذا ؟ أليست صحيفة الأهرام مسئولةً عن كرامتها ، عن منزلتها عند الناس ، عن أدب الكلمة العربية ، عن عقول الناشئة وما عَسَى يَحِيقُ بها من هذا الوباء ، مما ينشره هذا الكاتب وشيعتُه فى صحيفة الأدب ؟ وإذا لم تكن مسئولة ، فمن المسئول إذنْ عن عربدة هذا الطليق الذى يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويتعرّى كما يشاء ؟ أنبلّغ عنه شرطة النجدة ، حتى لا تصبح هذه الأمة فضيحة فى الأمم ، حيث أسلمت منبرها العالى إلى طَلِيق من القيود ، مُفْلِتٍ من الأسوار ! ولله الأمر من قبل ومن بعدُ .



... لا تَنْقَضِي

الرسالة

الخميس ٢٠ رجب ١٣٨٤



٥

الآن نطرحه جانبًا ، أعنى لويس عوض ، فإنّه لا خير فيه . لا ، لا ، فأنا أكرهُ الظلم ، ولا أحبُّ أن أظلم الرجل ، فإنّ له فضيلةً وفضلًا . أما فضيلتُه ، فإنّه مُريحٌ جدًّا لمن يُحسِنُ أن يستخدمه . أرأيت إلى الدُّمية التى تُدير مفتاحَها لتملأها ، فإذا هى تحرِّك يديها وتمشى برجليها ، وتترنّح أحيانًا وتعتدل ، وتختالُ أحيانًا وتستقيم ! وتبتسم حينًا ، وتوشك تبكى حينًا آخر ، وتفتح عينيها تارة ، وتغمض جَفْنيها تارةً أخرى ، ولولا قضاءُ الله على الجماد لنطقت ، ولولا قضاؤه لظلّت تأتى من ذلك ما تأتى إلى غير انقطاع ؟ ومحركها فى خلال ذلك ، ساكنٌ قارٌّ لا يبالى ، ولا عليه أن لا يتدخَّل فى أعمالها ، لأنها قلمّا تخطئُ فى عملٍ ؟

إن تكن هذه عجيبة ، فلويس عوض أعجبُ منْها ! فقد ملأه مالئُه منذ دهرٍ ثم تركه ، وضبطه إلى أهدافٍ بعينها ثم أطلقَه ، فانطلق يجوس خلال الآداب عامة ، ثم الآداب العربية خاصة ، وهو لا يكادُ يرى إلاّ مَا رُكِّب لأجله : لا يكادُ يَرَى إلاّ اليونان ، والروم ، والقرون الوسطى ، والمثقفين والحضارة الحديثة ، وَالحروب الصليبية ، والصُّلْبان ، والخلاص ، والفداء ، والخطيئة ، وكسر رقبة البلاغة ، وكسر عمود الشعر العربى ، واللغة العامية ، والفتح الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ ، وما شئت من أمثال ذلك مما ضمّنه كتبه ومقالاته قديمًا وحديثًا . فهذا التركيب الموجَّهُ (!!) لا يكادُ يرَى ابن خلدون إلا مقرونًا بأورسيوس = ولا المعرّى إلاّ مقرونًا براهب دير الفاروس وبالحروب الصليبية وبالصلبان التى غصَّت بها حلب (!!) = ولا « وردة كالدهان » ، وهى من آيات العذاب يوم القيامة ، إلا مقرونة بروزا مستيكا (مريم العذراء) ، ومعاذ الله ، وبرَّأها ممَّا فى عقله من السمادير = ولا يكاد يرى عمر مكرم ، وعرابى ، وجمال عبد الناصر إلا مقرونين بالمعلم يعقوب رئيس الخونة المظاهرين للفرنسيس الغزاة أيام نابليون = ولا توفيق الحكيم ونجيب محفوظ

وصلاح عبد الصبور ، إلا مقرونين بعقائد الخلاص والفداء والخطيئة . ثم تأتى الطامة الكبرى ، فلا يكادُ يرى القرآن العظيم إلاّ مقرونًا بترجمته إلى اللغة العامية ، كما ترجم الإنجيل إلى اللغات الحديثة ، وهى عامية اللاتينية ، وإلا مقرونًا بكسر رقبة البلاغة ، وكسر عمود الشعر العربى . وهنا وهناك ، تراهُ طائشًا ، زائغ العينين ، خفيف العقل ، سليط اللسان ، قد استرخت مفاصل عقله ، وانحلّت تلافيفه . هذا ، والذى أطلقَه واقف من بعيد ينظُر ، وفى عينيه الدهشة ، ويحكُّ ذقنه بيده ، ويفترّ ثغرهُ عن ابتسام ، إعجابًا باختراعه المدهش الذى ركّبه وأطلقه ، ولم يكنْ يظنُّ ظنًّا أنه قادرٌ على أن يتحرَّك فى عمود واحدٍ من إحدى الصحف السريَّة !! فإذا به (يبرطع) فى ثمانية أعمدة ، فى أكبر صحيفة فى العالم العربىّ والإسلامىّ ، هى الأهرام ، وعلى أشرف مِنصَّة فى معهد الدراسات العليا التابع للجامعة العربية ، ويأتى فى خِلَال برطعته (وهى البَلْتَعة بالفصحى) بالعجائب التى لا تنقضى ، وقد ارتدى طيلسان أستاذ جامعىّ ، بلا حسيب ولا رقيب .

وهذا نجاحٌ مدهش ولا شك ، وحُقَّ لمالئه أن يَمِيد به الغرور وتستخفّه الخيلاء باختراعه هذا العجيب ! فهذه هى الفضيلة التى لا تنكر للاختراع المسجّل (لويس عوض) !

وأما فضْلُ هذا الاختراع المذهل (لويس عوض) ، فإنه جمع فى كُلّ ما كتب عامّة ، وفى مقالاته التسع عن شيخ المعرَّة ورسالة الغفران خاصةً ، ضروبًا من الخطَل ، والتُّرهات ، والسمادير ، والألاعيب ، والنزق ، واللَّكاعة ، والهَوَج ، والخُباط (بضم الخاء ، وهو التخبط بلا عقل) ، ما يعجزك أن تجمعه من كلام المستشرقين والمستغربين برُمَّتهم ، من أقصى الشمالِ إلى أقصى الجنوب ، ففاق فى ذلك أمثال لامنس (المعروف بالأب لامنس) ، ولويس شيخو (المعروف بالأب لويس شيخو) ، وإن كانا فى الحقيقة أخف منه ظِلاً على كُلّ حالٍ ، وأعقل (ولا أدرى هل يجوز هنا أن يأتى أفعل التفضيل من « العقل » ، ولكن هكذا كتبتهُ ولا حرج) . فبهذا الحشد الهائل مما ذكرت آنفًا ، أتاح لى لويس عوض أن أجعله محور المقالات التى أردتُ أن أكشف بها الغطاء عن ضروب من الهَوَس والمَخْرقة ،

لم تزل منتشرة فى كلام من سبقه ولحقه من قديم الآباد . فهذا أيضًا فضل له لاَأجْحدهُ ، وإلاَّ ظلمتُه ظُلْمًا مبينًا ، وأنا أكرهُ الظلم ، ولا أرضاهُ ، ولا أعينُ عليه .

أما وقد برئت من ظُلْم المطروح جانبًا ، لويس عوض ، فإنى أعود إلى ما قطعنى عنه انتهاؤه ممّا سمّاه (بحثًا) !! وهذه إحدى الأعاجيب : لا أدرى كيف تطيق اللغات أحيانًا أن تخادع عقول الناس ؟ فاللعبُ ربّما سُمّى « اختراعًا » ، والجنون ربما سُمِّى « ذكاء » ، والفجورُ ربما سُمّى « جرأةً » ، والعبث ربما سمّى « بحثًا » ؟ بعضُ ما يحيِّرنى فى أمر اللغات اليوم . نعم ، قد كان قديمًا شيءٌ يقال له « العقل » ، يحول بين الناس وإساءة استعمال اللغة ، أمَّا وقد ذهب « العقل » ، فمن لنا باختراع جديد يحمى لغات البشر من إساءة استعمالها ؟ هذا ما يحيِّرنى ! (ولزم التنويه ، كما قال لويس عوض) .

* * *

وبعدُ ، فأهلًا وسهلًا براهب دير الفاروس ، فحديثه كُلُّه تفاريح . ولكنى أحبُّ أن لا أغادر هذا الحديث حتى أستصفِيَ مادَّتَه ، وأجعله مثلًا لمن يريد أنْ يدارس الآداب على وجه صحيح ، لا تسُوقه إليه حماقة أو تسرُّع . فعلى أنّ خبر القفطىّ عن راهب دير الفاروس ليس سوى خبر لقيط سَقَط فى كتابه لغير رِشْدَةٍ (أى ، كالولد الذى ليس له أبٌ ينتمى إليه) ، مع تناقض أجزائه ، واضطراب سياقه ، ومباينته للمعلوم بالضرورة من حياة شيخ المعرة ، ومن شعره أيضًا ، ومع تبيّن بطلانه من وجوه كثيرة ذكرتها آنفًا ، فهو أيضًا خبر عليه توقيعٌ ظاهرٌ لمخمورٍ تالفٍ من علوج الشأم ، وزواقيل الجزيرة (وهم بقايا أغتام الروم بالشأم بعد الإسلام) ، وذلك التوقيع هو ما فى بعض عبارته من رطانة وطُمْطُمانيّةٍ غير عربية . ومع كُلّ ذلك ، فنصُّ الخبر يحملُ الدليل القاطع ، على أن هذا المخمور التالف أذكى عقْلًا ، وأشدّ فطنة ، وأحسن خلقًا مِمَّنْ جعل هذا الخبر برهانًا على تعلُّم شيخ المعرّة من راهب دير الفاروس .

فهذا التالفُ يذكر أن أبا العلاء لما كبر وخرجَ من معرّة النعمان قصد طرابلس « فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس » . فهذه ألفاظٌ قليلة واضحةٌ ، من أخذها بغير حقّها غمضت عليه ، وأوقعته فى الدهاريس (وهى الدواهى) !!

فأنت تقول : « جُزْت الطريقَ » ، إذا سرت فى جَوْزِه ، أى وسطه ، وسلكته نافذًا إلى غايتك . ثم تقول : « أجزت الموضع » ، إذا سرت فى جَوْزه ، وقطعته وخلَّفته وراءك . فزيادة الألف زادت فى معناه شيئًا . فإذا زدت فى بناء الكلمة فقلت : « خرجت من دارى فاجتزت بدار فلان » ، فمعنى ذلك أنك مررت بها وخلّفتها وراءك غير متوقّف . ولا يكون معناها أبدًا أنك نزلت داره وأقمت فيها ، لأنه مناقض لاشتقاق اللغة ، فإذا جئت إلى مسافرٍ طويلِ الرحلة فقلت : « اجتاز بالبلدة » ، فأنت بالخيار فى استعمالها ، أن تريد : مرَّ بها وتخطَّاها غير متوقف ، أو تريد : مرّ بها ثم توقف ساعة أو ساعتين أو ليلة أو ليلتين ، فتقول : « اجتاز بالبلدة فنزل دار فلان » ، ولكن لابُدَّ من هذه الإضافة : « فنزل بدار فلان » . ولكن هذه الزيادة فى معنى « اجتاز » ، لا تأتى من أصل الاشتقاق ، ولكن من شىء خارج ، وهى أن المسافر الطويل الرحلة ، لابُدَّ له من وَقْعَةٍ ونَزُولٍ عن راحلته ، ليستجمَّ هو ، وليريح راحلته ، ويصلح رَحْله وإداوتَهُ ، ويتزوّد لسفره بطعام وماء ، ثم ينطلق . فهذه فترة استجمام ، لا فترة إقامةٍ ، وهى قليلة معدودة الساعات أو الليالى ، لا تزيد عن ليلتين أو ثلاثٍ . وهذا صريح استعمالها ، كالذى يجىء فى العهود بيننا وبين أهل الذمّة ، ففى كتاب حبيب بن مَسْلَمة الفِهْرىّ فى فتح أرْمِينية ، على عهد عثمان رضى الله عنه يقول : (الأموال : ٢٠٩ ، فتوح البلدان : ٢٠٩) :

« ولنا نصيحتكم وضَلْعكم (أى الميل والمعونة) على عدوّ الله ورسوله والذين آمنوا فيما استطعتم ، وقِرَى المسلم المجتازِ ليلةً بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم »

فالمجتازُ ، فى هذا الخبر ، هو المسافر الذى يقطع طريقًا طويلًا إلى غايته ، فيجتاز بمكانٍ ، فيحتاجُ إلى الراحة والزاد ، فينزل ساعة أو ساعات ، أو ليلة إلى ثلاث ليالٍ ، ثم يرحل عنه مخلِّفًا وراءه ذلك المكان . فقول صاحب خبر الراهب حين قال : « فاجتاز باللاذقية » ، لم يعن سوى أنّه مَرَّ بها وخلَّفها وراءه غير متوقف . وسنرى أنه لا يمكن أن يكون دخل اللاذقية أو أقام بها . هذه واحدةٌ .

أما قوله : « ونزل بدير الفاروس » ، فمعنى « نزل بالمكان » ، هو أنه أقام به قليلًا

ثم رَحَل ، فإنَّ أصل « النزول » ، فى لغة العرب ، هو الهبوط والانحدارُ من عُلوٍ إلى سُفْل ، تقول : « نزل الراكب عن دابته » ، و « نزل المطر » ، و « نزل فى بئر » ، وأمثال ذلك . ولما كان المسافر البعيد الشُقَّة أكثر ما يكون راكبًا ، قالوا له إذا مرَّ بمكانٍ ، فأراد أن يريح دابته ويتزوَّدَ لرحيله ، فحطَّ به ساعة أو ليلة أو ثلاث ليال على الأكثر : « نزل بالمكان » ، أى نزل عن دابته ليريحها ، ثم يقيم للراحة قليلًا ، ثم يرتحل ، وذلك الموضع الذى نزل به هو « المنزل » . ومن أجل ذلك سَمَّوا الضَّيف الذى يمرّ بك ثم يرحل عنك غير مقيم : « النَّزِيلُ » ، وسموا ما تهيئه له من القِرَى : « النُّزُل » (بضم النون ، وضم الزاى أو سكونها) ، لأنه يقدَّم لمن ينزل بهم . وأما الذى نسميه اليوم « المَنزِل » ، حيث نقيم نحنُ ، فإنما هو فى العربية : « البيت » و « الدار » . هذه ثانيةٌ .

فهذان اللفظان : « اجتاز » و « نزل » ، مجتمعين فى جملة بالعطف ، أو منفردين ، لا يدلاّن البتة على إقامة طويلة بمكان ، إلا كحُسْوَة الطائر فى مسافة السفر ، فهى إقامة ساعة أو ساعات ، أو ليلة إلى ثلاث ليال على الأكثر . هذا كل ما تستطيع أن تطيقه اللغة ، وما يؤدِّيه أصل الاشتقاق . فمن فهم منهما غير ذلك فقد أساء وأهدَر معانى الألفاظ ، وجهل حدودَ الكلام ، وخَلَط خصائص المفردات ، وجعلها مترادفات لا خير فيها ، ولا حدّ لها .

فمن قرأ كلام القفطى والذهبى وقوله : « فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس » ، فقال كما قال الدكتور طه حسين : « فمرّ فى طريقه باللاذقية ، فنزل بدير فيها ، ولقى بهذا الدير راهبًا قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل ، فأخذ عنهُ ما شككه فى دينه وفى غيره من الديانات » ، ثم قوله بعد ذلك : « فلا شك أنه درس هاتين الديانتين (يعنى اليهودية والنصرانية) فى أسفاره الأولى ، فإمّا أن يكون ذلك فى أنطاكية ، وإما أن يكون فى اللاذقية » = مَنْ قال ذلك ، فقد جاوز الحد وأساء غاية الإساءة ، لأن صدر الكلام عن الرحلة يدلُّ على اجتياز مسافرٍ باللاذقية ونزوله بديرٍ ، ولا يزيد ذلك عن ساعات أو أيامٍ ثلاثة . وأيامٌ ثلاثة ليست تُعين على معرفة نبذ يسيرة ، فضلًا عن دراسة .

ومن قرأ ذلك فقال كما قال لويس عوض : « وقد تعلم المعرى فى اللاذقية »

فقد بالغ فى الإساءة ، وخرج أيضًا عن حدّ المعقول . وكلا الرجلين ، طه ولويس . أهدر معنى « اجتاز » ، و « نزل » . وأصحُّ منهما إدراكًا لحقائق الألفاظ وما توجبه من المعانى ، اختصارُ ابن كثير لخبر الراهب ، فإنه تصرف فى لفظ القفطىّ كل التصرف ، ولكنه أصاب حقيقة المعنى فقال : « ويقال إنه اجتمع براهب فى بعض الصوامع ، فى مجيئه من بعض السواحل ، أواه الليلَ عنده ، فشككه فى دين الإسلام » ، فاستخرج من لفظ القفطىّ أنه نزل عند الراهب ليلة واحدة ! فهذا اختصار فاهم ومُبين أيضًا ، مع دقة فى الاستنباط . وفى حديث القفطىّ نفسه ما يدلّ دِلالة قاطعة على أن الأمر لم يكن « دراسة » ولا « تعلمًا » ، لأنه قال : « فسمع منه أبو العلاء (أى من الراهب) من أوائل كلام الفلاسفة » ، و « السَّماع » لا يكون دراسة ولا تعلُّمًا ، بل هى كلمات قلائل سمعها لا غير . وإذن ، فالاجتياز باللاذقية ، ثم النزول بالدير ، ثم سماع كلمات قلائل مشككة ، كلامٌ متسق متناسب ، ومطابق لمفهوم اللغة . ولا يعقل عاقل أن يجعل هذا المعنى الواضح : إقامةً باللاّذقية والدير ، ودرسًا أو تعلمًا !! إلا إذا فهمنا اللغة على أسلوب « وردة كالدهان » ، أنها هى « روزا مستيكا » !! وسائر العجائب التى لا تنقضى !!

* * *

وفى هذه الجملة لفظ آخر هو « دير الفاروس » ، فلفظ « الدير » فى العربية يدلّ على بيت النصارى الذى يتعبّد فيه رهبانهم ، قال ياقوت : « والدير لا يكاد يكون فى المِصْر (أى المدينة) ، إنما هو فى الصحارى ورؤوس الجبال ، فإن كان فى المصر ، كانت كنيسة أو بِيعَة ، وربما فُرِّق بينهما ، فجعلوا الكنيسةَ لليهود ، والبِيعَةَ للنصارى » (والبِيعَةُ ، بكسر الباء) ، وإذن فدير الفاروس ، كما تدل عليه اللغة وكما هو معروف إلى اليوم ، ليس فى مدينة اللاذقية نفسها ، بل هو بعيد عنها فى ظاهرها ، (ظاهر المدينة ، خارجها) . وهذا يطابق صفة هذا الدير ، فإن ابن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٩ هـ) ، مرّ به فى رحلته فوصفه فقال : « وبخارج اللاذقية ، الدير المعروف بدير الفاروس ، وهو أعظم دير بالشأم ومصر ، يسكُنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين ، فالنصارى يُضِيفونه » . ومثل ذلك قال ابن

فضل الله العمرى (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ) : « دير الفاروس ، على جانب اللاذقية من شمالها ، فى أرض مستوية وبناؤه مربّع ، وهو حسن البقعة » .

فإذْ كان « دير الفاروس » بيقين خارج مدينة اللاذقية ، فمعنى قول صاحب الخبر : « فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس » ، أى مرَّ باللاذقية وخلَّفها وراءه ولم يدخلها ، حتى بلغ دير الفاروس خارج اللاذقية ، فنزل به ضيفًا ، على ما جرى عليه أمرُ أهل الذمّة مع أهل الإسلام ، فأضافه رهبان الدّير ، كما قال ابن بطوطة ، فمن زعم أن أبا العلاء « درس اليهودية والنصرانية باللاذقية » ، ومن زعم أنه تعلم باللاذقية ، استخراجًا من هذا الخبر ، فهو مُبْطل أشد البطلان ، لأن الدرس والتعلم كلاهما يقتضى طول الإقامة باللاذقية . والخبر بجميعه يدلّ ، كما أسلفت ، على أنه مرّ باللاذقية وخلَّفها وراءَهُ ولم يدخلها . وهذا ظاهر فيما أظن ! لأنه مطابق لمعنى اللغة ومقتضى اشتقاقها . أليس كذلك ؟ وعلى أى وجه قلَّبت كلماته ، فإنه لا ينتهى إلا إلى ما قلت .

وهذا الذى كان يجرى بيننا وبين أهل ذمَّتنا من النصارى ، مبيَّنٌ فى الأحاديث والأخبار . ففى حديث أبى الحويرث ، « أن النبى ﷺ ضرب على نصارى أَيْلَة ثلثمئة دينار كل سنة ، وأن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثًا ، وأن لا يَغُشُّوا مسلمًا » (سنن البيهقى ٩ : ١٥٩) .

وفى كتاب عمر رضى الله عنه إلى أمراء أهل الجزية : « أن لا يَضَعُوا الجزية إلا على مَنْ جَرَتْ عليه المواسى (أى من بلغ الحُلُم) ، ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام » . (سنن البيهقى ٩ : ١٩٥) .

وكتب عمر أيضًا إلى أمراء الأجناد : « أيُّما رُفْقةٍ من المهاجرين آواهم الليلُ إلى قرية من قرى المعاهدين من مسافرين ، فلم يأتوهم بالقِرَى ، فقد برئت منهم الذمة » . (سنن البيهقى ٩ : ١٩٨) .

فالذى ذكره ابن بطوطة من إضافة نصارى دير الفاروس للمسلمين ، إنما هو حقٌّ واجبٌ بالعهد الذى بيننا وبينهم ، ظلوا يعملون به منذ جاء الإسلام . فالمسلمون فى

أسفارهم يمرون بالأديرة فينزلون بها ، ويريحون أنفسهم ودوابَّهم ، ويقدِّم النصارى إليهم القِرَى ليلة أو ليلتين أو ثلاث ليال ، وليس عليهم بعد ذلك شيء ، ثم يرحلون عنهم . وفى الأخبار السالفة لفظ « مرَّ بهم » ، و « نزل بهم » ، وهى بالمعنى الذى أسلفت شرحه . فأبو العلاء ، إن كان قد نزل بدير الفاروس ، فإنما نزل به على العادة الجارية بلا زيادة ، فى طريقه إلى طرابلس ، كما زعم صاحب هذا الخبر ، وليس فيه ما يدلّ على إقامةٍ . وإذْ لا إقامة فلا دَرْسَ ولا تعلُّم !! أليس ذلك واضحًا أيضًا .

* * *

هكذا كان شأن الأديرة فيما سلف فى أول الإسلام ، ولكن يبقى شيء لابد من ذكره ، فبعد العهد الأول صار لهذه الأديرة شأنٌ آخر ، فهى بطبيعة بنائها كانت خارج المدن ، فى بقاع حسنة وأماكن نَزِهة . وكان النصارى فى سلطان الإسلام متروكين على عادتهم وأحوالهم ، لا يعترضهم أحد ، لهم خَمَّاراتهم على مقربة من أديرتهم ، ويقصدها النساء والرجال على جارى عاداتهم ، لأنهم خارج مدُن الإسلام ، فصارت لها شهرة أخرى ، ومن قرأ كتب الديارات (أى الأديرة) ، رأى عجبًا . ولن أثقل على أحدٍ بنقل الأخبار عن دَيرٍ دَيْرٍ منها ، ولكنك إذا أخذت كتاب الديارات للشابشتى (.. – ٣٨٨ هـ) ، وهو قريب العهد برحلة أبى العلاء التى زعمها صاحب الخبر ، رأيتَ منذ أول صفحة فيه :

« دير درمالس ، عيده أحسن عيد ، يجتمع نصارى بغداد إليه ، ولا يبقى أحد ممن يحبّ اللهو والخلاعة إلا تبعهم » ، ثم يذكر أشعارًا وأخبارًا فى هذا الدير وسكانه من الرهبان ، وقُصَّاده من أهل اللهو والخلاعة .

ثم يليه : « دير سَمَالو ، فيه منظر عجب ، لأنه لا يبقى نصرانى حضره وتقرّب فيه (أى تناول القربان) ، ولا أحد من أهل التطرُّب واللهو من المسلمين إلا قصده للتنزه فيه » ، ثم ذكر الأشعار فيه كذلك .

ثم يليه : « دير الثعالب ، أعمر موضع وأنزهه ، لما فيه من البساتين والشجر والنخل والرياحين ، ولتوسطه البلد وقربه من كل أحد ، فليس يخلو من أهل

البَطَالات ، ولا يخل به أهل التطرّب واللذاذات .... » ، ثم ذكر الأشعار فيه وفى رهبانه وقصاده .

وتظل تقرأ مثل هذه الأخبار ، حتى تنتهى من الكتاب ، وفيه أخبار شنيعة أُعْرِضُ عن ذكرها . وكذلك ما جاء فى كتاب مسالك الأبصار فى ذكر الديارات والحانات ، لا يكاد ينقضى عجبك من كثرة ما قيل فيها وفى رُهْبانها وقُسُوسها من الشعر ، أكره أن أذكره لقُبْح ما فيه ، ولكنه يدلّ دارسَ العصر على أن أمْرَ هذه الأديرة كان قد خرج عن الحدّ المستحسن ، لما شاع فيها من التبطُّل باللهو والخمور . أما « دير الفاروس » الذى يعنينا هنا ، فحسبك أن تقرأ ما قاله أبو على الحسن بن على الغزى فيه وفى بعض رهبانه :

لم أَنْسَ فى الفَاروس يَوْمًا أبيضًا ... مِثْلَ الجَبِين يَزِينُه فَرْعُ الدُّجَى

ثم يقول :

وَلَدَىَّ من رُهْبَانِهِ مُتَنَمِّسٌ ... أَضْحَى لفَرْطِ جَمَالِهِ مُتَبرِّجَا
أَحْوَى أَغَنٌّ إذا تردَّدَ صَوْتُه ... فى مِسْمَعٍ رَدَّ احتجاجَ ذَوِى الحِجَى
لا شيءَ أَلطَفُ من شمائله إذا ... حَثَّ الشَّمُولَ ، ولفْظُه قَدْ لَجْلَجَا
فَلهُ ، ولليومِ الّذِى قَضَّيتُهُ ... مَعَهُ ، بُكائى ، لا لِرَبْعٍ قد شَجَا

فهذه حالةٌ سيئة جدًّا ، من ناحية الأخلاقِ على الأقلّ ، كانت عليها الأديرة فى القرن الرابع الهجرىّ وما بعده ، لانها كانت مأوى أهل البطالة والعبث والمجون والخمر ، وكان لرهبانها أخبارٌ لا يُسْتَحبُّ ذكرها ، وعجائب من اللهو لا تنقضى .

* * *

وأما « اللاذقية » نفسُها ، وكانت تحت سلطان الروم ، فكان أمرها أشنع ، فإن أحد معاصرى أبى العلاء ، وهو أبو الحسن ابن بُطْلان الطبيبُ النَّصْرانى المشهور ، (واسمه : المُخْتار بن الحسن بن عَبْدُون بن سَعْدُون بن بُطْلان) ، كان خرج فى رحلته ، فكتب فى رسالة رحلته ما نصُّه :

« وخرجت من أنطاكية ، إلى اللاذقية ، وهى مدينة يونانية ، لها ميناء وملعب للخيل مدوَّر ، وبها بيت كان للأصنام ، وهو اليوم كنيسة . وكان فى أول الإسلام

مسجدًا . وهى راكبة البحر ، وفيها قاضٍ للمسلمين ، وجامع يصلُّون فيه ، وأذان فى أوقات الصلوات الخمس . وعادة الروم إذا سمعوا الأذان أن يضربُوا الناقوس . وقاضى المسلمين الذى بها من قِبَلِ الروم . ومن عجائب هذا البلد : المحتسبُ ، يجمع القِحاب والغُرَباءَ والمؤثرين للفساد من الروم فى حَلقَةٍ وينادى على كل واحدة منهن ، وتتزايد الفَسَقة فيها لليلتها تلك ، وُيؤْخَذن إلى الفَنَادق التى هى سكن الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتمًا ، هو خاتم المَطْرَان ، حُجَّةً بيدها من تعقُّب الوالى لها ، فإنه متى وَجَد خاطئًا مع خاطئة بغير خاتم المطران ، ألزمه جباية » ، (أى غرامة) ، (تاريخ الحكماء للقفطى : ٢٩٦ ، وغيره) وهذا بالطبع قبيح جدًّا ، والعجب منه لا ينقضى ، ولا أحبّ أن أكثر من أمثال هذه الأخبار ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق !!

فإذا كانت هذه هى حال الأديرة وحالُ رُهْبانِها على عهد أبى العلاء ، وإن كنت قد استحييتُ أن أعطيك صورتها واضحة = وكانت هذه هى حال اللاذقية على وجه الخصوص ، ولم يكن أبو العلاء من أهل ذلك الشأن ، لا هو ولا أحد من أهله ، قضاةِ المعرة وشيوخها = فهل تظنُّه كان معقولًا أن يتركه أهله يخرج وحيدًا ، أو مع رفيق لا يعقل ولا يحسن الرعاية ، فيمرَّ به على اللاذقية ويقيم بها ، وبدير الفاروس ويقيم به ! لكى يتعلم فى هذه أو ذاك ! وعلى هؤلاء الرُّهبان أيضًا !

هذا عجبٌ ، أنْ يبلغ أهل الفتى الأعمى ذلك المبلغ من الجهل بأحوال ثُغُورهم ، فيتركوا فتاهم فى أيدى هؤلاء يعلمونه ويثقفونه ؟ هذا سوء تصوُّر للماضى أسوأ التصور . وأسوأ منه أن تظن أن هؤلاء كان لديهم من الفراغ ما يتدارسون فيه آداب اليونان وفلسفتهم فى لغتها الأصلية ، كما يقول لويس عوض ، فى عجائبه التى لا تنقضى .

* * *

ثم نعود فننظر نظرةً خاطفة فى أمرٍ سأشرحه مفصَّلًا يومًا ما . أصحيحٌ أن إضلالَ أبى العلاء ، الفتى الضرير ، عن دينه كان يحتاجُ إلى « راهب يشدو شيئًا من علوم الأوائل ، فيسمع منه كلامًا من أوائل كلام الفلاسفة ، فتحصل له شكوك ليس عنده

ما يدفعها به ، ويحصل له بعض الانحلال » ؟ أصحيح هذا ؟ وإذن فأين ما كان من ترجمة كتب الفلسفة من قبل عهد المأمون ، إلى أن كان أبو العلاء ؟ وهى مئات الكتب يكفى أيسر النظر فى مثل فهرس ابن النديم ، حتى تعرف كثرتَها ، لا بل أين ما كتبه مثل الكندى ، فيلسوف العرب وابنُ ملوكها (١٨٥ - ٢٥٢ هـ) قبل أن يولد أبو العلاء بأكثر من قرن كامل ؟ وأين ما كتبه الفارابىّ « المعلم الثانى » ، ضريع أرسطو (٢٥٧ - ٣٣٩ هـ) ، وهو قريب العهد والدار من أبى العلاء ، وكان آخرَ أمره مقيمًا بحلب مع سيف الدولة وصاحبه المتنبىّ ؟ وأين ما كتبه إخوان الصَّفا ، الذين اشْتُهِرَ أمر رسائلهم قبل أن يولد أبو العلاء بزمان ؟ لا بل أين ما كتبه مَنْ هو أضلُّ ضلالًا من كُلّ هؤلاء ، كابن الراوندىّ وأشباهه منذ قديم ؟ وأين الزنادقة القدماء من شعراء وكتاب ؟ أتُرى مَعرَّةَ النعمان لم يدخلها كتابٌ واحدٌ من هذه الكتب ، ولا قرأه قارئ ، ولا ضلَّ به ضالٌّ ، إلى أن وُلِدَ أبو العلاء ، ثم « كبر ووصل إلى سنّ الطلب ، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك » ؟ كما فى خبر الراهب ؟ أتُرَاه إلى أن بلغ سنّ الطلب ، لم يسمع بخبر ولا شعر ، ولا قُرِئَ له كتابٌ ، فيه زندقة أو ضلالة ليس عنده ما يدفعها به ، حتى يحتاج إلى رحلةٍ فى صباهُ ، إلى اللاذقية ودير الفاروس ، فيجد هناك راهبًا شاديًا لشىء من علوم الأوائل فيضلِّله ؟ أهذا كلام يُعْقَل ؟

ولو شئت أن أسوق ما يُذْهل من دواعى الضلالات من فلسفة وغير فلسفة ، وما كان مُتفشِّيًا من المذاهب والنِّحَل والأهواء فى الشأم وغير الشأم ، قبل أن يولَد أبو العلاء بأزمنة طوال ، لبلغ منك العجبُ مبلغًا . ولكنى اكتفيتُ بهذا التساؤل ، لأنّ أدنَى معرفةٍ أو بصيرةٍ ، توجب على المرء أن يقطع ببطلان خبر هذا الراهب ، من هذا الوجه وحده ، دون سواه من الوجوه التى دارستُها فيما سلف .

فمن أعجب العجب بعد ذلك ، أن يأتى إنسانٌ يظنّ فى نفسه أن له عقلًا يفكّر به ، فيصدّق مثل هذا الخبر اللقيط المتداعِى من نواحيه جميعًا ! وأعجب من تصديقه أن يستخرج من سِياقه أنّ لقاء مثل هذا الراهب المذكور فى الخبر وسماع كلماتٍ منه ، كان تعلُّمًا ! وأعجبُ من هذا الاستخراج ، أن يستولدَ منه أن « علوم الأوائل » التى كانت تقرأ فى الأديرة تحت حكم الروم ، هى « آداب اليونان وفلسفتهم فى

لغتها الأصلية » ! وأعجب من هذا التوليد فى مقاله الخامس أن ينتهى لويس عوض هذا ، فى مقاله السابع ، إلى تساؤل ذكىٍّ جدًّا ، بعد غُثَاء كثير جدًّا ، فيقول : « أليس من حقنا بعد هذا كله أن نفترض أن المعرِّىَّ كان مثقفًا فى تراث اليونان القديمة ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أدباء عصره (أىُّ وجهٍ هذا ؟) وأنه قرأ هوميروس ، وأرسطوفانيس ، ولوسيان على أقل تقدير ، (بالطبع ، ما دمت أنت تريدُ ذلك) ، سواء فى ترجمات عربية ضاعت أو فى نصوصها الأصلية ؟ بل أليس من حقنا أن نشتبه فى أن المعرى كان عارفًا بلغة اليونان ، يقرأ فيها أدب اليونان ، بعد كُل ما رأيناه من وصف البيئة المحيطة به ، ومن وصف نشأته وتعليمه الرسمى ؟ » ، كيف لا يكون من حق لويس عوض أن يقول ما شاء ، فمن الذى يحاسبه !!

أنا أحبُّ أن أرى رجُلًا واحدًا فى الناس جميعًا ، يستطيع أن يشهد لهذا الإنسان بأنَّه يحمل على كتفيه رأسًا كرؤوس الناس ! ظلّ يلجُّ فى كلامٍ لا يربط بينه رابطٌ ، حتى انتهى إلى أن شيخ المعرة قد أقام فى اللاذقية ودير الفاروس حتى تعلَّم اليونانية القديمة (وذلك فى سنة ٣٨٠ تقريبًا ، يا للعجب !) ، وقرأ فيها هوميروس ، وأرسطوفانيس ، ولوسيان على أقل تقدير (ما أشدَّ تواضعك !) فى ترجمات عربية ضاعت !! (ما هذه النبوءات !) أو فى نصوصها الأصلية . ثم يختم هذا بالمرسوم الموقع عليه باسمه الكريم : أنّ هذا الذى كان فى اللاذقية هو « تعليمه الرسمى » !! أما تعليمه فى معرة النعمان فغير الرسمى !! وأنا أدَع للقارئ أن يفكر هو لنفسه فى صفة جديدة يصف بها هذا الإنسان ، فقد أعوزتنى اللغة مُقِرًّا بعجزى عن ملاحقته ، بصفات توصف بها كتابته ، أو يوصف بها تفكيره !

وإذا أحبَّ القارئ أن أعينه ، فأنا أعينهُ بفقرة منقولة بنصها من الكتاب النفيس : « بلوتولند وقصائد أخرى » فى التجربة الأولى من تجاربه . يقول لويس عوض فى ترجمته للويس عوض : « وعقلية لويس عوض زمنية حقًّا !! فهو يفهم أن هذا الانقلاب اللغوى الأدبى ، لم يقوِّض أركان الدين فى أوربا ، وإنما قوّض أركان الكنيسة التى خشيتْ أن يقرأ الشعب الساذج كلام السماء بلغة يفهمها ، فتسقط عن بصره الغشاوة ، ويدرك أن رجال الدين إنما يزيِّفونَ عليه من عندهم دينًا ، ليسلس

قياده ، ويبقى راكعًا أمام الأشراف . وهو يفهم (أى لويس عوض يفهم) أن أبسط بنت تبيع الكرافتات فى شيكوريل ، تعرف عن المسيحية أكثر مما كان يعرف البابا الذى شن الحروب الصليبية (أى فى زمن أبى العلاء تقريبًا ، وفى زمن راهب دير الفاروس) ، أو البابا الذى أعدم الأحرار على الخازوق ، أو البابا الذى كان يضاجع أخته .... » . (روجع على الأصل ، فلزم التنويه ، كما قال لويس عوض) ، وأدع للقارئ أن يجمع بين الكلامين بلا تدخّل من قِبَلى ، وسينتهى أيضًا إلى عجائب لا تنقضى .

* * *

أما الآن ، فأحبّ أن أختم القول فى حديث راهب دير الفاروس ، ببيان لابدّ منه لكل عاقل يدارس الآداب ، فى العربية وغير العربية . فمثل هذا الخبر إذا جاء ، وعُرِف بُطلانه من وجوهه الصحيحة التى تقوم بها مناهج الدراسة ، وجبَ على الدارس أن يلتمس العلّة التى من أجلها وضعَ الخبرَ واضعُه . وقد كنت استنبطت من بعض ألفاظ الخبر أنه خبر زيفه علج من علوج الشأم ، أو زاقولٌ من زواقيل الجزيرة ، ثم ألقى به إلى القفطىّ (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) بعد وفاة أبى العلاء بقرنين تقريبًا ، ليُطْرِفه به (على سبيل الفكاهة) ، لِمَا رأى من حَيْف القفطى على شيخ المعرة ، وحرصِه على مذمته ، فلفّق لَهُ هذا الخبر ، مريدًا لتحقير أبى العلاء ، ووصفِه بالضَّلالة وسخف العقل ، إذ تمكَّن من إضلاله ، وهو طالب علم صغيرٍ ، راهبٌ يشدو شيئًا من علوم الأوائل ، وكأنه أرادَ أن ينقُض به ما كان يقالُ ويذكر من ذكاء هذا الفتى الأعمى فى صغره ، ممَّا رواه القفطىّ نفسه فى ترجمته لشيخ المعرة .

وليس هذا بعجيب ، فالمتنبىّ ، وهو أيضًا ممن كان يوصف بالذكاء صغيرًا وقدح الناس فى عقيدته كما قدحوا فى عقيدة شيخ المعرّة ، ابتُلِى أيضًا مثل ابتلائه فإن أبا القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانىّ ، ألَّف لبهاء الدولة البويهىّ كتابًا فى المتنبى ، ليرضيه به ويشفى غليله فى أبى الطيب ، فكتب فيه ما يلى ، ويعنى المتنبىّ : « وهو فى الجملة خبيث الاعتقاد ، وكان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضْل بالكوفة من المتفلسفة ، فهوّسه ، وأضلّه كما ضلَّ » . فهذا شبيه بما قيل

فى أبى العلاء حذوك النَّعل بالنَّعل ! وليس لهذا حقيقة ، كما بينت ذلك فى كتابى عن المتنبى ، وإنما هو إرادة الاستخفاف لا غير .

أما مسألة « الراهب » ، فلها عندنا شبيه قديمٌ ، ففى كتاب مذكور عندنا ، رآه البيرونى ونقل عنه ، وهى رسالة « عبد الله بن إسماعيل الهاشمى ، إلى عبد المسيح ابن إسحق الكندىّ ، وردّه عليها » ، وهى مطبوعة بمصر طبعات ، وطبعت أيضًا مرات (فى لندن المحروسة !! سنة ١٨٨٥ مسيحية) ، ذكر عبد المسيح أوَّليَّةَ أمر رسول الله ﷺ ، فيما زعم : « أنه كان رجل من رهبان النصارى ، يعرف بسرجيوس ، أحدث حدثًا أنكره عليه أصحابُه ، فحرموه وأخرجوه ، وقطعوه عن الدخول إلى الكنيسة ، وامتنعوا من كلامه ومخاطبته على ما جرت به العادة منهم فى مثل هذا الضرب . فندم على ما كان منه ، فأراد أن يفْعَل فِعْلًا يكون له به تمحيصٌ عن ذنبه ، وحجة عند أصحابه النصارى ، فصار إلى بلد تِهَامَةَ ، فجالها حتى أفضى إلى تُرْبةِ مكَّة ، فنظر البلدَ غالبًا فيه صنفان من الديانة ، فكان الأكثر دين اليهود ، والآخر عبادة الأصنام . فلم يزل يتلطَّف ويحتالُ بصاحبك (أى رسول الله بأبى هو وأمى) حتى استمالَه وتَسمَّى عنده نسطوريوس ، وذلك أنه أراد بتغيير اسمه إثبات رأى نسطوريوس الذى كان يعتقده ويتدين به . فلم يزل يخلو به ويكثر مجالسته ومحادثته ، ويلقى إليه الشيء بعد الشيء ، إلى أن أزاله عن عبادة الأصنام ، ثم صيّره داعيًا وتلميذًا له ، يدعو إلى دين نسطوريوس ... » ، إلى آخر هذه الشَّنشنة التى يطول الشِّنشة نقلها ، (والشِّنْشِنةُ ، الطبيعة والعادة) ، والمَخْرَقة السخيفة التى لا تنقضى عجائبها !!

ومن قبل هذا ما قالت قريش بمكة ، وكان فيها نصرانىٌّ أعجمىُّ اللسان ، ربما دخل عليه رسول الله ﷺ وكلَّمه وجالسه ، فكان المشركون يقولون : إنما يعلِّمه هذا النصرانىُّ ! فأنزل الله فى كتابه فى سورة النحل : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

فهذه الشنشنة التى نعرفها من كفار قريش ، ومن عبد المسيح الكندى ، ومن

الأصفهانى ، باتخاذ راهب من الرهبان أو متفلسف ضالٍّ محورًا تُحَاك حوله قصة ، هى الشنشنة التى وَرِثها عِلْجُ الشأم أو زاقول الجزيرة ، حين أراد النَّيل من شيخ المعرة وثَلْبه ، فابتلىَ راهبَ دير الفاروس بما لا أظنُّه كان يحسن منه شيئًا ، فضلًا عن أن يشدُوَ منه طَرَفًا !! ثم لا أظنّ أن حاله مع أمثال أبى على الحسن الغزىّ الشاعر العابث ، أو مع مَطْران اللاذقية صاحب الخاتم المبذول للبغايا ، كان يتيحُ له وقتًا يتفرَّغ فيه لتلاوة هوميروس ، وأرسطوفانيس ولوسيان ، فضلًا عن تعليم فتًى عربىّ مسلمٍ أعْمى لغة اليونان القديمة ، وتعلُّمها يحتاجُ إلى دهرٍ طويل لا يقل عن عشرة أعوامٍ بأيامها ولياليها !!

وكُلٌّ خسيس العقل مستطيع أن يكذب على الناس ويلفّق عنهم الأخبار ، وقادرٌ أيضًا أن يقول ما شاء ، كما يشاء ، متى شاء ، بلا حسيب ولا رقيب ! ومع ذلك فإنى أجدُ هذا العِلْجَ ، أو ذاك الزاقول ، أخفَّ الجميع دمًا وعقلًا ، وإن كانَ كذبه قد كلّفنى المشقّة فى تتبُّع أخبار شيخ المعرة مع تزاحم العمل وكثرة الشواغل .

والآنَ ، وقد فرغتُ من مدارسة حديث راهب دير الفاروس ، أطرحُه هو أيضًا جانبًا ، لأنه حديثٌ لا خير فيه ، ولأنه خبيث المخرج ، خبيث المعنى ، خبيث الموارد والمصادر ، ورحم الله شيخ المعرة ، كأنه كان يعنى هذا الذى نحن فيه إذ يقول :

يَا كَاذِبًا لاَ يَجُوزُ زَائِفُه ، وَمَا عليهِ مِنْ فِضَّةٍ وَضَحُ
كَشَفْتُ عَمَّا تقولُ مُجْتهِدًا ، لَعَلَّ حَقًّا لِطَالبٍ يَضِحُ
فكلَّما هذَّبتْكَ تَجْرِبَةٌ ، أنشأتَ للباحِثين تفتضحُ

وكفى بالفضيحة عارًا لمن يعقل ! (والعرض مستمر) .



هذه هي القضية

الرسالة

الخميس ٢٧ شعبان ١٣٨٤



٦

كنت أتوقّع أن تبادر صحيفة الأهرام إلى البراءة مما نُشِر فى صفحاتها الأدبية ، تسعة أسابيع متواليات ، بتوقيع لويس عوض ، وهو الشىء الذى سمّاه « بحثًا » يتناول رسالة الغفران لشيخ المعرّة . وأحبُّ أن أجعل الأمر واضحًا من جميع نواحيه .

وقبل كُلّ شىء ، فمنزلة صحيفة الأهرام فى حياة الأمة العربية ثم الأمة الإسلامية ، وهم جميعًا ثمانمئة مليون ، منزلةٌ عظيمة جدًّا ، وعظيمة الأثر فى حياتنا منذ الطفولة ، إلى أن نصير رجالًا قادرين على النظر والإدراك وسياسة الأمم . وهذا الأثر يزدادُ اليومَ اتساعًا ، وسيزداد على مرّ السنين ، يوم تنهارُ الحواجزُ التى فرضتْ علينَا فى القرون الأخيرة ، ففصلت بين شعوب العَرب وشعوب الإسلامِ ، وحصرت لغة العرب فى دائرة ضيقة ، فى داخل الشعوب العربية بالجهل وضعف التعليم ، وفى داخلِ الشعوب الإسلامية بالجهلِ وضعف التعليم أيضًا ، وبالنكبة الكُبْرى فى محاربة لسان العربِ وإحلالهِ فى المحلّ الثانى أو الثالث أو الرابع ، وكانَ هو اللسان الأوَّلَ فيها ، مع احتفاظ كُلّ أمة من هذه الأمم بِلُغَتها الأمّ فى بعض الأحيان . ولا شكَّ أن ذلك كائنٌ إن شاء الله كما كان . وعلى العرب اليوم أن يحملوا العبء كُلّه لإعادة ما كان كما كان ، وإلاّ لم يكن هناك معنًى لدعوتنا إلى توحيد العربِ أمةً واحدةً ، وليس لها لغةٌ تسودُ أرضها ، وتسودُ الأرض التى تشاركُها منذ قرون طوال فى العقيدةِ ، وكانت أيضًا تشاركها اللسان ، وتعدُّه لسانَها الأوَّل بلا ضغينة وبلا تململ وبلا إنكارٍ . لا ، بلْ تعدُّ تاريخ العربِ تاريخَها قبل كل تاريخ لها ماضٍ أو حاضر ، وتنافحُ عنه كل المنافحة إلى هذا اليوم الذى نحنُ فيه ، مع ما لحقَ هذه الشعوبَ من فساد التكوين السياسىّ ، بفعل العدوّ الماكر المستولى على ثروات الأمم وعقولها وأهوائها ، بخداعه وغشّه وسيطرته الباغية ، ثم بإحلال لسانِهِ محلّ اللسان العربىّ ، وجعله هو اللسان الأوَّل فيها ، بوسائل خبيثة جدًّا ، ليس هذا مكانَ بيانها .

وصحيفة الأهرام ، وغير صحيفة الأهرام ، تحمِلُ هذا العبء ، لأنها هى الناطقة بلسان العرب اليوم ، والداعية إلى توحيد أمة العرب أمة واحدةً . وهذه تَبعةٌ يحتاجُ حامِلُها إلى ترك التساهل فى الصغائر ، فما ظنُّك بالكبائر ؟ وإلى الدِّقة والحذر فى كُلّ حرفٍ ينشر فى الصحيفة ، لأن أثره بليغٌ نافذٌ فى نفوس الآلاف المؤلفة ، فى هذه الرقعة من الأرض المتراحبة الأرجاء ، وهم بين صغيرٍ يتلقَّفُ ما يلقَى إليه بتسليم المتعلّم لأستاذه ، وكبير ينظُر فيحسنُ النظر أحيانًا ، ويسىء النظر أحيانًا أخرى ، فيرضى وينكِرُ ، فيكون لرضاهُ أثرٌ حسنٌ ينقلُه إلى من يتلقَّى عنه ، ولسخطه أثر سيئ يوحى به إلى من يأخذ عنه . والآثار المترتبة على الرضى والسخط لا تقف عند حدٍّ ، لأنها تنتهى دائمًا إلى تكوين رأى يتناوَلُ أدنى العلائق الإنسانية فى حياتنا اليومية ، إلى أعلى الروابط فى حياتنا السياسية . وهذا شىء مخوف العواقب مفزِعٌ ، لأنَّا لا ندرى أين يقع الرضى وأين يقع السخط ، فى رقعةٍ ممتدّةٍ من شمال بعيد إلى جنوبٍ قصىٍّ ، ومن شرقٍ نازحٍ إلى غربٍ متباعد . ولا ندرى أيضًا من الذى يحملُ قلبه الرضى ، وما منزلته فى الناس وأثره فيهم ، ومن الذى يطوى جوانحه على سخطٍ ، وما مكانُه فى الناس وتأثيره فيهم ؟ ولا ندرى أيضًا متى يكون الرضى سببًا من أسبابِ توثيق علائق هذه الملايين بعضها ببعضٍ ؟ ومتى يكون السخط عاملًا فى فَصْمِ هذه العُرَى وتمزيق علائقها شيئًا بعد شىء ؟ . فكلّ ما يؤدّى إلى هذه البلبلة المخوفة على هذا المستوى ، ينبغى أن يتوقّاه كُلّ حاملِ تَبِعةٍ ، وكلنا اليوم حاملُ تَبِعةٍ ، فى وقتٍ تحتاجُ فيه هذه الأمة إلى إعادة تكوين وحدةٍ شاملةٍ كانت ، ثم مزقتها سياسة عدوّ شديد العداوة بالمكر والبطش فى القرنين الأخيرين .

هذه هى التبعة حيال كبيرٍ يحسن النظر أو يسئ . أمّا الصغير الناشىء ، فالأمرُ فيه أخطَر ، وهو عليه أشدُّ وَبالًا ، لأنّه يتعلّق بتكوين نفسه وعقله وإرادته ، وبالمرجوّ فيه إذا كَبِر واشتدّ وصار أهلًا للنظر ، وقادرًا على التأثير . والصحيفة والمعلّم ، كلاهُما عِوَضٌ عن ثَدْيِ أمّه ، فإنّه يرتضِعُ منهما مادّة بنائه العقلى والنفسى ، فإذا تلقّى سوء النظر ، وفسادَ التفكير ، وخَطَل الرأى ، فإنما يتلقّى سمومًا لا يكاد يبرأ من عَقَابيلها ما عاش ، فإذا فوجئ فى خلال ذلك التكوين ، وهذا شىء لا مفرّ منه ، بما يصادم ما تلقَّاه ، اندلعتْ فى كيانه بلبلةٌ أشدُّ من زلازل الأرض ، فلا يكادُ ينجو من آثار

التدمير الفظيع الذى يورثه إياه الزلزال الأكبر . هذا ، مع فقدان القدرة على بناء ما تهدّم فى نفسه . ثم ينطلق على ذلك فيكبر ويصلب عوده ، ولكنه يبقى بناءً متهدمًا فى داخله ، لا يستقيم له رأىٌ ولا نظرٌ ولا إدراك ، فإذا تولّى أمرًا ، فإنمّا يتولاه لُيتْلِفه ويدمّره من حيث يدرى ولا يدرى . وتدور الدائرة !

وتسألنى : أكلّ هذا تقولُه من جرّاء تسع مقالات كتبها كاتب عن رسالة الغفران وشيخ المعرة ؟ فأقول : نعم ، بلا لجلجة ولا ارتياب . وأحبّ أن أجعل الأمر واضحًا مرّة أخرى ، وإن كان يؤسفنى أن يكون الأمرُ الواقع قد ألجأنى إلى بيان هذه المبادئ التى تعدُّ من أوائل ما ينبغى أن يعرفه عامة الناس فضلًا عن خاصتهم .

فالأهرام وغير الأهرام ، إذا ألحق بابًا للأدب أو الفن أو الطبّ أو ما شئت ، فإنّ بديهة العقل تقضى بأن يكون مُرَادها من ذلك أن تيسّر لأكبر جمهرة من الناس المشاركة فى بعض ذلك ، فيقرؤها الدارس ليجد فيما يقرأ رأيًا حسنًا ، أو مَتاعًا صالحًا ، أو دراسة ربّما نفعته ، أو ذكّرته ، أو زادته قدرةً على تبيّن وجوه اختلاف الرأى كيف تكون ، ومن أين تنشأ ؟ ثم يقرؤها سائر الناس ليزدادوا معرفة وفهمًا وحسن إدراكٍ ، ولتزداد نفوسهم وقلوبهم وعقولهم صَقْلًا وقدرةً عَلى التذوُّق . لأن كل حضارةٍ بالغةً تفقِدُ دقة التذوّق ، تفقد معها أسبابَ بقائها ، والتذوُّق ليس قِوامًا للآداب والفنون وحدها ، بل هو أيضًا قِوامٌ لكل عِلْم وصناعةٍ ، على اختلاف بابات ذلك كُلّه وتباين أنواعه وضروبه . وكُلّ حضارة نَامية تريدُ أن تفرضَ وجودها ، وتبلغ تمامَ تكوينها ، إذا لم تستقلّ بتذوُّقٍ حساسٍ حادٍّ نافذٍ ، تختص به وتنفرد ، لم يكن لإرادتها فى فرض وجودها معنًى يُعقل ، بل تكادُ هذه الإرادة أن تكون ضربًا من التوهُّم والأحلام لا خير فيه . فحسنُ التذوّق ، يعنى سلامة العقل ، والنفس والقلب من الآفاتِ ، فهو لُبُّ الحضارة وقِوامُها ، لأنه أيضًا قِوام الإنسان العاقل المدرك الذى تقوم به الحضارة . وهذا شىء لا يكاد يختلف عليه اثنان فيما أظنُّ . فإذا اختَلّ هذا الميزان فى باب من أبواب الصحيفة ، بطلت الحجة التى من أجلها أنشىء ، وكان إلغاؤه خيرًا من بقائه وأنفع .

ولكى أزيد الأمرَ وضوحًا وبيانًا ، وهذا أمر مؤسف أيضًا ، أفترضُ أن الصحيفة

الملحقة بالأهرام مثلًا ، صحيفةٌ فى طبّ الأبدانِ ، فمنزلة الأهرام وثقة الناس بها ، توجب أن تسند أمرها إلى طبيب تتوهّم أنه قادرٌ على تحرير هذا الباب ، وهذا واضح بلا ريب ، وهذا الطبيبُ يكتسب من منزلة الأهرام وثقة الناس بها ، منزلةً عند الناس وثقة ، فهم يتلقّون ما ينشر عندئذ بالتسليم ، فإذا جاء هذا الرجل فخلّط فى الطب تخليطًا ينكره أصحابُ العلم به ، وجاء الناسَ بمعلومات غير مستقيمة ولا صحيحة ، تضرُّ بهم فى حِيَاطة البدن وعلاجه ، فقد أعانت الأهرام عندئذٍ على تدمير سلامة أبدان الناس ، فإذا جاء من يبيِّن بوجهٍ ما ، فسادَ ما يأتى به هذا الرجُل ، وسوء مَغَبَّته على سلامة جماهير الناس ، فواجب الصحيفة عندئذ أن تكفّ عن إيذاء الناس بما تنشره ، وأن تبرأ مما نشر فيها ، وأن تعلن للناس أن الذى قرأوه لا يُعتمد عليه ولا يوثق به ، بلا غضاضة وبلا تحرُّج . فإذا فعلت عَلَتْ منزلتها ، وزادت ثقة الناس بها . وإذا لم تفعل ، فقد أهدرت الثقة بما تنشر ، وأهدرت منزلتها فى الصحف ، وأهدرت أيضًا حقّ القراء الذين وثقوا بها وبما فيها ، ولم تجعل لعقولهم وأبدانهم عندها حُرْمةً . أليس ذلك كذلك ؟ هذه أمور كان من غير اللائق عندى أن أسوقها هذا السياق ، لولا الاضطرار !!

* * *

وأدعُ ضربَ الأمثلة ، لأنه عندى غير لائق هنا لولا الضرورة ، وانصرف إلى قضية لويس عوض وما كتبه عن رسالة الغفران وشيخ المعرَّة ، تاركًا ذكرَ مقالاته الثلاث الأُوَل من المقالات التسع ، فإنّما هى لَجَاجة مضنيةٌ من حيث هى دراسة أدبية ، يعرف ذلك من يعرفه ، ويجهله من يجهله ! ولقد بيّنت فى سياق المقالات الخمس السالفة فى مجلة الرسالة ، أن هذا الرجل أراد أن يوهم الناس بأنه أستاذ جامعىٌ يدرس أثرًا أدبيًا = فباللقب الذى يحمله ، ولا أدرى كيف جاءه ، وبالثقة التى منحتها إياه صحيفة الأهرام ، وبالثقة التى يحملها القارئ لهذه الصحيفة ، استطاعَ أن يدخُل هذه الدراسة وعليه طَيْلَسان أستاذٍ جامعىّ ، وإن كان هذا الطيلسان عندى فى الحقيقة ، كلباس الفرزدق حين جاء للقاء جرير ، فى الديباج والخزّ ، وجاءه جريرٌ فى لباس المحارِب متقلّدًا سيفَه وفى كفّه الرُّمح ، فوصف ذلك جرير فقال :

لَبستُ سِلاَحى ، والفَرَزْدَقُ لُعْبةٌ   عليه وِشَاحَا كُرَّجٍ وجَلاَجِلُهْ

(« والكُرَّج » ، بضم الكاف وفتح الراء المشددة ، دُمْية يلهو بها الصبيان ، تُزَيَّن بالوشى ، وتعلَّق عليها الجلاجل والأجراس) . ومع ذلك فقد رضيتُ كارهًا أن أعامله معاملة أستاذ جامعىّ ، لا لشىء إلا لأثبت أنّه غير مستحقّ لهذه الصفة بوجه من الوجوه . فلم أتعلّق فى بحثى بصغير أو كبير ليس له مدخَلٌ فى منهج الدراسة الأدبية ، معرضًا عن أمورٍ كثيرة حبستُ القلم عن إثارتها فى هذا الموضع . فمن أجل ذلك سلكت طريق البيان ، فبينتُ للناس ولصحيفة الأهرام ، أنّ هذا الرجل الذى طلع علينا فى طَيْلَسان وجَلاجل ، قد ادَّعى منهجًا كمناهج الأساتدة الجامعيين ، سلكه فى دراسة رسالة الغفران وتاريخ شيخ المعرّة ، فحاكمتُه إلى أوائل ما يعرف الطلاّب الصغار عن المنهج ، فاتضح أنه يجهل منهج الدراسات الأدبية جهلا تامًّا . وكان هذا حسبى وحسب صحيفة الأهرام .

ولكنّى لم أقنع بذلك حتى أبرئ ذمّتى ، فكشفت عن أكبر خطيئة لا تغتفر لطالب صغير مبتدئ ، وهى العجلة فى قراءة النصوص ، فأثبتُّ أنه نقل نصًّا من كتابٍ واحدٍ هو كتاب الدكتور طه حسين ، ولم يقرأه قطُّ فى غير هذا الكتابِ . ومع ذلك فهو إنما قرأ أسطُرًا كالملهوف وترك ما بعدها من الأسطر وهى التى فيها نقد الدكتور طه لهذا النصّ نفسه . وكان من الغَثَاثة والادعاء أنّه استخرج من هذا النص الفاسد المستحيل المعنى ، أحكامًا ألقاها للناس كأنّها حقيقة مفروغ منها . وهذا غشٌّ فاضح وعبث . وكان هذا حسبى وحسب صحيفة الأهرام ؟.

ولكنى لم أقنع بذلك ، فأبرأتُ ذمّتى أيضًا ببرهان قاطع على أن هذا الرجل ، قد ادَّعَى فى كلامه أنّه قرأ كتبًا بأعيانها ، وهو فى الحقيقة خطّافٌ جرىء ، يتكئ على كتاب الدكتور طه وحده بلا بصر ولا فهم . فمن أجل ذلك أخذتُه بادِّعائه ومَخْرَقته ، حتى أكشف للناس أنه لم يقرأ شيئًا قطُّ مما ذكر من الكتب ، ولا رآها ، ولا عرف ما هى ، ولا مَنْ أصحابُها . وصدَّقْتُه فى ادعائه الكاذب ، ليكون ذلك أشنع له ، لأنه يكون عندئذ قد قرأ نصًّا لم يعرفْ معناهُ ، ولم يعرفْ كيف يدرسُه دراسة طالب جامعى مبتدئ ضعيفٍ . وكان هذا أيضًا حسبى وحسب صحيفة الأهرام .

ولكنى لم أقنع بذلك ، فأبرأت ذمّتى مرة ثالثة ، بالدلالة الحاسمة على أن هذا الذى كتب ما كتب عن شيخ المعرة ، لم يقرأ شيئًا قطُّ من آثار شيخ المعرة ، وبخاصة شعر سقط الزند ، وهو الشعر الذى يتعلّق بالخبر الذى ادّعى متنفّخًا أنه قرأه ووقف على نصه فى غير كتاب الدكتور طه .. وإذا سلمنا أنّه قرأه ، فهو لم يفهم إذن منه حرفًا واحدًا على وجه يليق بمبتدئ جامعى . وكان هذا حسبى وحسب صحيفة الأهرام .

ولكنى لم أقنع بذلك حتى أبرأتُ ذمّتى مرة رابعةً ، وذلك حيث زعم بمَخْرَقته أنه جاء يعرّف الناس بحقيقة شيخ المعرة وحقيقة تاريخه ، فذكر أكاذيبَ وأوهامًا لا أصلَ لها إلا فى خيالاته وسماديره ، فكشفْتُ بلا رِيبةٍ عن أن هذا الدعىّ لم يقرأ قط كتابًا واحدًا فى ترجمة شيخ المعرة ، ومع ذلك فهو يأتى بلا خجل ولا حياء فيذكر كذبًا صُرَاحًا مناقضًا للمعقول من حياة الشيخ ، ومن حياة أسرته ، ومن حياة أمّته التى عاش فيها . وكان هذا حسبى وحسب صحيفة الأهرام .

ولكنى لم أقنع حتى أبرأت ذمّتى مرةً خامسةً ، بدلائل قاطعة على أن هذا الرجُل الذى يدارس نصًّا عربيًّا من أعظم النصوص ، لا يملك أىّ إحساس أدبىّ ، بأىّ نصٍّ يقرؤه ، ولو ظلَّ يكتب فى الأدب عشرات المجلدات . وكان هذا حسبى وحسبَ صحيفة الأهرام .

ولكنى لم أقنع بذلك ، حتى أبرأت ذمَّتى مرة سادسةً ، فبينت جهلَ هذا الرجل وادّعاءه ببرهان فاصلٍ من نصّ كلامه هو فى صفة نفسه ، إذ قال : « إنَّ إحساس لويس عوض باللغة ضعيفٌ جدًّا ، وأجنبىّ جدًّا » ، ومع ذلك فهو يعمدُ إلى النصوص الأدبية فى لغة العرب فيدرسها بمَخْرَقةٍ شنيعة ، وبلا حياء . ولا يقنَعُ بهذا ، بل ينتهى به ما أطبق عليه من الهَوَس والجرأة ، فيعمد إلى آية من القرآن العظيم ، فيُفَسّرها بغباوة وجهل راسخ ، ثم لا يستحى فيدعى نسبة ذلك إلى كتب المفسرين المسلمين ، مُوهِمًا أنه قد قرأها وأثبتها معرفةً ، بلا ظِلّ من حياء يردع ، أو عقلٍ يكفّ . ولا يقنع بهذا فيأتى بكلام لا يُفهم ، ويزعُم أن الرجل الذى يدرسُه قد جاءَ فى شعره بألفاظ هذه الآية ، بالمعنى الذى فسّره هو !!

ولتعلم صحيفة الأهرام أن هذا البلاء كُلَّه ، استخرجته من أقل من عمود واحدٍ من اثنين وسبعين عمودًا نَشَرها فى تسعة أعداد من صحيفتها الأدبية ، وأنى التزمت فيه غاية الحذر حتى لا أخرج عن حدِّ الدراسة الأدبية ، أفليس هذا كافيًا فى أن يحمل صحيفة الأهرام على البراءة من هذا العبث بالأدب ، ومن هذه المخرقة باسم الدراسة الأدبية ، ومن هذه (اللَّغوصة) فى اللغة والبيان ، وهما أشرف ما أوتى الإنسان ؟ وإذا لم تفعل ذلك احترامًا لمنزلتها عند الناسِ ، ألم يكن حقًّا عليها أن تفعله من أجل قرائها ، الذين خدعهم هذا الرجُل بالقلب الذى يحملُه ، وبمعونة صحيفة الأهرام حين اختارته مستشارًا ثقافيًا لمؤسساتها ، ورفعته من مغمورٍ مجهولٍ لا يبالى به أحدٌ ، إلى شهرة تَسْرى حيث سارت صحيفة الأهرام ؟ أليس من حقّ القراء عليها أن تحميهم من هذا التضليل المؤذى ؟

* * *

وليت أمرَ الرجل قد اقتصر على هذا الفساد فى الدراسة الأدبية المجرّدة ، بل أَبَنْتُ أيضًا فى خلال كلامِى أن الرجُل مضطرب الذهن جدًّا ، إمّا خِلْقَةً وإمَّا داءً حادثًا ، وإمَّا هما معًا ، يدلّ على ذلك صريح كلامه الذى اختلط وتداخل وترنّح ، بلا رِباطٍ من منطقٍ سويٍّ ، فهل كان من حق صحيفة الأهرام على الناس أن تنشر عليهم هذا السيلَ الضارَّ من الوباء بلا رحمةٍ بالصغير الناشىء الذى يخدعه اللقَب ، وتسرعُ فى إصابته بالعدوى ثقته باسم صحيفة الأهرام ومنزلتها فى كلِّ بيتٍ حيث تدخلُ عليه مع الإفطار ، كأنّها جزءٌ من غذاء الناسِ ؟! أكُلُّ من حَمَل قلمًا بقرش صاغٍ ، وأوتى لسانًا طويلًا بلا عَقْل ، قادرٌ أن يجعل صحيفة الأدب موضعًا لإذاعة آرائه بلا حسيبٍ ولا رقيبٍ ، ويصبح بذلك كاتبا مرموقًا ، مادام موظفًا بشكل ما ، فى صحيفة الأهرام ؟

وإذا كانت سلامة عقول الناس لا قيمة لها ، أفتاريخ الأمة ، وتاريخ رجالها لا قيمة له أيضًا ، حتى يتمكّن هذا الرجل من الدخول إلى تاريخ الأمة العربية المسلمة فى القرنِ الرابع الهجرى ، فيلعب فيه لعبَ الأطفال العابثين غير المسئولين ، لكى يجعَل للصليبيّة الغلبة على ديار أهل الإسلام ، ويجعلَ لعقائدها السيادة على

عقائد أمة كاملة ، ويستعمل في خلال ذلك ألفاظًا تنمُّ عن الغطرسة وسوء الخلقِ ، ويحكم علينا منذ القرن الرابع بأننا نعيش تحت بطش بيزنطة العسكرى ، وتحت الخوف منها والرعب ، ويأتى فى خلال ذلك بأكاذيب مستشنعة لا مصدر لها إلا الحقد الكامن على حضارة العرب ، مما سأتولّى بيانه فيما بعد ، وإن كان ظاهرًا لا شك فيه لكلّ قارئ مبتدئ فضلًا عن عاقل بالغٍ ؟

أهو شيءٌ هين ، أن يأتى هذا الدعىّ فيزعم أن الإسلام ، هكذا بغير حرج ولا حياء ، قد ارتعدت فرائصه من « مانيفستو » الباسيل فوكاس الرومىّ !! فخرست الألسنة فى العالم الإسلامى ، إلا لسان فقيهٍ بطَشْقَنْدَ يقالُ له « القَفَّال » ؟ أفى الدنيا إنسانٌ يعقل هو أصلبُ من هذا الجرىء الجاهل وَجْهًا ؟ أبهذا التحقير الكامل لتاريخ أمّةٍ . وبهذا التنكير البشع لأئمة الإسلام الأفذاذ كما فعل بالقفّال ، وبالإشادة بمجهول مغمور لا يعرف عنه شيء كأبى الفرج الزهرجى ، إذ يجعله من قادة المثقفين وأعيانهم ، يتثقف الفتى العربى المسلم الناشىء ، وغير العربى وغير المسلم ، عن طريق صحيفة الأدب فى الأهرام ؟ (وقد بين ذلك بعض الأدباء فى مجلة الرسالة ، وسنستوفيه فيما بعد) .

وأحبُّ أن أعلم صحيفة الأهرام أن لويس عوض لا قيمة له عندى من حيث هو كاتبٌ ، والقيمة كُلُّها لها هى ، وإذن فبأىّ حقّ تنشر صحيفة الأهرام عَبَثَ عابثٍ لا يحسنُ شيئًا ، يتناول بعبثه لغة العرب ، وكتابَ الله ، وهو لا يفهم منهما حرفًا واحدًا ، ثم يعمدُ إلى آية من آيات الله لنبيه ﷺ ، وهى الإسراء والمعراج ، فينطلقُ يخبطُ خبطًا شنيعًا بسخف لا يدرى أحدٌ من أين جاء به ، وهو فى خلال ذلك يرسل جُمَلًا مضطربة كأنها عربدة مخمور ، بلا رعاية لحق ثمانمئة مليون من البشر ، وبلا حذر من أن يهيج أحدًا إلى ما لا تحمد عقباه ؟

بأىّ حق تفعلُ ذلك صحيفة الأهرام ؟ بحق أنّ لويس عوض ، قد عُيّن فيها مستشارًا ثقافيًا !! إن للويس عوض أن يلعب كما يشاء ، وأن يقول ما يشاء ، وأن يكتب ما يشاء ، وأن يعتقد ما يشاء ، فنحن لا نبالى به ، ولكن ليس لَه أن ينشر ذلك فى صحيفة الأهرام ، لأن الأمرَ يخرجُ عندئذ من حدّ حريته الخاصة ، إلى العدوان

المخوف العواقب على عقائد الناس وآدابهم ولغتهم ودينهم وتاريخهم ، وليس من حقّ صحيفة الأهرام أنْ تَضْمَنَ له هذا العدوان ، بحقّ اكتسبه عن طريق وظيفته فيها . وليس من حقّها أن تشوِّه معارف الناس وعلومهم وتاريخهم ، بفعل إنسان مشوَّهِ القَلم والعقل ، وأن تطرح هذا الخبث على الناس باسم حرية الرأى ، لأن حرية الرأى مكفولة لذوى العقول السليمة ، لا لكل من كسر القيد وأفلت من وراء الأسوار .

* * *

ولكى أزيد الأمر كُلَّه وضوحًا ، وسأزيده من كل وجه وضوحًا فى المقالات التالية ، أتتبع لها تاريخ لويس عوض ، لا من الأخبار التى أعرفُها عنه ، بل من لسانه هو ، وأكشف لها أنه اتخذ صحيفة الأهرام بهذا المنصب الذى أسند إليه ، وسيلةً يبلُغُ بها مآربه بطرق غير قويمة ، وأستغفر الله بل ليبلغ بها مآرب قوم آخرين قد استخدموه لغايات على جانب عظيم جدًّا من الخطر على مستقبل هذه الأمم . ولكن ينبغى أن تعلم قبل كل شىء أن لويس عوض ظلَّ مغمورًا غير معروفٍ إلى أن دخل صحيفة الأهرام ، وتولّى الإشرافَ على الثقافة فيها ، وتولى تحرير صحيفة الأدب والفنّ ، فمن الأهرام وحدها جاءته الشهرة . وذلك أنه منذ نال إجازة الليسانس من جامعة القاهرة سنة ١٩٣٧ ، متخصصًا فى اللغة الإنجليزية ، ثم أوفده أساتذته الإنجليز يومئذٍ إلى جامعة كمبردج وعاد بالماجستير سنة ١٩٤٠ ، بقى مدرسًا بالجامعة إلى سنة ١٩٥٤ ، لا يعرفُه أحدٌ سوى تلامذته الذين يروون عنه شيئًا كثيرًا لا أريد أن أذكره .

وفى خلال هذه الفترة ، نكبت مصر بمجلة صدرت بأموال يهودية خُدِع فيها كثيرٌ من الناس ، كان مرادها أن تستولى على مصدر الثقافة فى بلاد العرب ، وتكون أداةَ توجيهٍ لأغراض بعينها قبل غزو فلسطين فى سنة ١٩٤٨ ، وهذه المجلة هى التى يسمّيها لويس عوض بعد موتها بسنين (سنة ١٩٥٤) ، « المجلة الزهراء ، الكاتب المصرى » وذلك بعد أن انكشف أمرها للناس . ففى سنة ١٩٤٦ و ١٩٤٧ جرَّه إلى هذه المجلة أستاذه الروحى كما يسمّيه ، سلامة موسى ، فكتب خمس مقالات أو نحوها عن أدباء الإنجليز كأسكار وايلد ، وإليوت ، وشو ، وهى على ضعفها

وعلى سُقْم الترجمة فيها ، وعلى ما فيها من الخطف الجرىء من الكتب ، كانت لا تعدُّ شيئًا يذْكر .

ولكن يظهر أن سلامة موسى ، ظلَّ ينفخ فى تلميذه حتى انفجر فى سنة ١٩٤٧ عن كتاب طبعه سمّاه « بلوتولند ، وقصائد أخرى ، من شعر الخاصّة » !! مع أنه يقول فى ترجمته التى كتبها لنفسه بقلمه : « فمن أجل هؤلاء ، قال لويس عوض الشعر ، وهو ليس بشاعر ، وهو يعد بأن لا يكرّر هذه الغلطة ، ولو نفى إلى بلاد الخيال » . ويقول أيضًا : « وما من شك فى أن شعر لويس عوض شعر ركيك » ومع ذلك ، فَقد سماه « من شعر الخاصة » ! وبالطبع هذا كلام إنسانٍ عاقل ، غاية فى العقل لا تُلْحق !! أليس كذلك . وما علينا ! فالمهمُّ أنه فى هذه الترجمة قد حدَّد اتجاهه تحديدًا ، واضحًا فمنذ الصفحة الأولى بدأ فقال : « حطِّموا عمود الشعر ، لقد مات الشعر العربىّ ، مات عام ١٩٣٣ ، مات بموت أحمد شوقى ، مات ميتة الأبد . مات » ، صرخاتٌ مفلت من الأسوار بلا شكّ ، وفى قلبه حقد دفين أهوج ، ويظلّ يذم الشعر العربىّ ، ويهزأ بلغة العرب ، ويعرض بالقرآن كلّ بضعة أسطر ، فيسمى اللغة العربية ، « اللغة القرشية » ، ويفضل على كل ما قاله الشعراء العرب المصريون (الذين سماهم « المستعربين ») : « منذ الفتح العربى عام ٦٤٠ إلى الفتح الإنجليزى عام ١٨٨٢ » قول من قال : « ورمش عين الحبيب ، يفرش على فدان » (هل فى الدنيا أسخف من هذا العاقل ! لا أظنّ) . ثم يظلُّ يضربُ يمينًا وشمالًا بلا وَعْيٍ ، وبسوء خلُق ، بألفاظ مهتاجة غير مترابطةٍ ، كأنه محمومٌ لم يُفِقْ من بِرْسام الحُمَّى حتى يفضى إلى شيء سماه تجارب لويس عوض ، وسأنقل هنا التجربة الأولى بنصها ، مع اختصار قليل غير مخلّ إن شاء الله ، وإن كان الكلام كُلُّه خَلَلٌ !! وهى تجربته فى مسألة اللغة العامية :

« كان لويس عوض عام ١٩٣٧ يتعلم مبادئ اللغة الإيطالية (وقد وقف عند المبادئ) بين الحشائش السحرية التى تملأ الفلاة بين كامبريدج وجرانشستر ، واسترعى انتباهه أنّ البعد بين اللغة اللاتينية المقدسة ، ولهجتها المنحطة الإيطالية أقلّ من البعد بين اللغة العربية المقدسة ، ولهجتها المنحطة المصرية ، من حيث المورفولوجيا والفونوطيقا والنحو والصرف !! فعجب لإصرار المصريين على اللغة

المقدسة !! وكان يحدّث أصدقاءه بخلاصة تفكيره ، فوجد منهم إعراضًا رقيقًا مؤدبًا فعجب . فلما عاد إلى مصر عام ١٩٤٠ ، جاهر برأيه ، فلم يصادفْ إعراضًا ، وإنما صادف غلظة ، فازداد عجبه ، ولكن سرعان ما أفهمه بعض أصدقائه أن المسألة حساسة ، لأنها تتصل بالدين رأسًا (يعنى أن لويس ظل ثلاث سنوات لم يخطر له هذا الأمر ببال !! ما أكذبك أيها الغلامُ !) ، لأن استخدام اللغة المصرية أداةً للكتابة قد ينتهى بعد قرن أو قرنين بترجمة القرآن إلى اللغة المصرية ، (بهذه البساطة !) كما حدث للإنجيل أن ترجم من اللغة اللاتينية إلى اللغات الأوربية الحديثة ، فزال عجبه . (شىء عجيب !!) » .

وبمهارة أمثالِهِ من الأذكياء ، كسلامة موسى مثلًا ، ولويس عوض نسخة منقحة منه (كما سترى) ، انتقل فجأةً دون أن يفتينا فتوى صريحة فى جواز ترجمة القرآن إلى العامية المصرية !! فقال بعد ذلك مباشرة :

« وعقلية لويس عوض عقلية زمنية حقًّا ، فهو يفهم أن هذا الانقلاب اللغوى لم يقوض أركان الدين فى أوربا ، وإنما قوّض أركان الكنيسة ، التى خشيت أن يقرأ الشعب الساذج كلام السماء بلغة يفهمها ، فتسقط عن بصره الغشاوة ، (وبالطبع نحن نقرأ القرآن بلغة لا نفهمها !!) ، ويدرك أن رجال الدين إنما يزيفون عليه من عندهم دينًا (وكذلك أهل الإسلام بالطبع !!) ، ليسلس قياده ويبقى راكعًا أمام الأشراف . وهو يفهم (أى لويس عوض يفهم !!) أن أبسط بنت تبيع الكرافتات فى شيكوريل ، تعرف عن المسيحية أكثر مما كان يعرف البابا الذى شنَّ الحروب الصليبية ، أو البابا الذى أعدم الأحرار على الخازوق ، أو البابا الذى كان يضاجع أخته ، أو البابا الذى أحرق جيودانو برونو ، حيًّا ، لأنه قال : إن الأرض فى ركن مهمل من الكون ، أو البابا الذى كان يبيع المؤمنين مربّعات وقصورًا فى الجنة ، أو البابا الذى أهدر دم مارتن لوثر لأنه طالب بإلغاء القسيس ، وإزالة كُلّ حاجز أو وسيط بين الله والناس » .

وظاهرٌ إلى هُنا أنَّه يريدُ أن يفتى فتوى على استحياء ، فضرب هذه الأمثلة كُلَّها ، لأن أهل الإسلام كانوا كمثل مَنْ ذكر ، إلى أن جاء لويس عوض ، فبإخلاص وَعَظَنَا

أن نسلك هذا المسلَك ، فنترجم القرآن إلى العامية ، لننجو بديننا من غشّ رجال الدين منذ عهد الأئمة إلى اليوم !

وبمهارة الأذكياء ذوى العقول الراجحة ، يقول بعد ذلك مباشرةً : « وهو يفهم كذلك (أى لويس عوض !!) ، أن الاعتراف باللغة المصرية ، لا يتبعه بالضرورة موت اللغة العربية ، إذا احتاط الناس لذلك (وأكبر احتياط هو وجود لويس عوض بالطبع !) ، فليس هناك ما يمنع من قيام الأدبين جنبًا إلى جنب ، اللهم إلاّ إذا شككنا فى جدارة اللغة العربية والأدب العربى وقدرتهما على الحياة (يا سلام ، ما أعقلك !!) ولكن لويس عوض رغم كُلّ ذلك (ما هو « كل ذلك » !!) قد سكت مؤثرًا أن يتولَّى الدفاعَ عن رأيه مُسلم لا مجال للطعن فى نزاهته » . يعنى أن لويس عوض سيظلّ هو الداعية ، ويدع المسلمين يتكلمون بلسانه ، أليس كذلك ؟

ثم يختم هذه التجربة بتصريح غريب جدًّا ، أرجو أن يقرأه القارئ بدقة ، لأن وراءه معانىَ لا تخفى على من يعرف تاريخ الدعوة إلى العامية ، فيقول بعد ذلك مباشرة : « وإنّى لأعلم أنه قد عاهد الثّلوجَ الغزيرة المنشورة على حديقة مدسمر ، فى خلوةٍ مشهودةٍ بين أشجار الدردار عند الشلاّل بكامبريدج ، ألاّ يخط كلمة واحدةً إلاّ باللغة المصرية (يعنى العامية) ، وقد برّ بعهده فى العام الأوّل بعد عودته ، فكتب شيئًا بالمصرية سماه « مذكرات طالب بعثة » ، ولكنه استسلم بعد ذلك وخانَ العهد . فلتغفر له الثلوج الطاهرة التى لم تدنّسها حتى أقدام البشر » !! (انتهت التجربة » .

وتسألُ نفسك : ما هذه « الخلوة المشهودة » التى عاد إلى ذكرها ، بعد أن ذكر أنه عاد إلى مِصْر ؟ وما الداعى كان يومئذ إلى هذه الحرارة فى العَهْد ؟ أهى حرارة تعاهد بها ثلوج باردة ، أم شىء آخر كان فى « الخلوة المشهودة » ؟ وما هذا الاستغفار الضارعُ من ذنب مُوبِق ؟؟ أكتابته بالعربية الركيكة التى وصفها هو نفسه ، تستدعى كُلَّ هذه الضراعة فى التوبة !!

* * *

من هو لويس عوض هذا ؟ ومن شهد خلوته تلك ؟ وأيُّ متتبع لتاريخ الحركة الداعية إلى استقلال كُلّ بلد عربى بلغته العاميّة ، فى الوقت الذى كانت تحارب فيه اللغة العربية فى كلّ بلد مسلم غير عَربيّ ، يعرف أن هذا الكاذب المخادع الذى ادَّعى أن تعلُّمه الإيطالية ، (ولم يكن عرف منها غير المبادئ) ، قد استرعى انتباهه إلى أن البُعْد بين اللاتينيّة المقدسة ، ولهجتها الإيطالية المنحطة ، أقلُّ من البُعْد بين العربية المقدسة (!!) ولهجتها المصرية المنحطة = إنما يقصُّ قصة مختلقة ، لأنه قبل أن يولد هو على هذه الأرض البائسة ، كان الاهتمامُ بهذا الرأى ونشره قائمًا على قدمٍ وساقٍ فى جميع الأمم الأوربية التى غزت بلاد العرب والمسلمين فى كُلّ مكان ، وأقرب ذلك عهدًا تقرير لندبرج الإسوجى فى مجمع اللغويين فى ليدن سنة ١٨٨٣ ، وتقرير دوفرين اللورد الإنجليزى المحترق ، الذى رفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية فى شأن اللهجة العامية المصرية ، وأمين دار الكتب الألمانى بمصر ، وولمور القاضى الإنجليزى بالمحكمة المختلطة ، ومترجم الإنجيل إلى العامية لأقباط مصر ، وليم ولككس ، المهندس المبشّر الذى كان مقيمًا بمصر ، والذى وصفه التالف القديم سلامة موسى ، فى كتابه الذى ملأه بذاءةً على العرب والمسلمين ، وسماه « اليوم والغد » قال : « والهم الكبير الذى يشغل بال السير ولككس بل يقلقه ، هو هذه اللغة التى نكتبها ولا نتكلمها ، فهو يرغبُ فى أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية ، فنؤلف فيها ، وندوّن بها آدابنا وعلومنا » . فهذه الدعوة كانت قائمة فى إنجلترا فى الجامعات التى تدرس المشرقيات ، وفى مراكز التبشير ، قبل أن يولد هذا الداعية الجديد ، وهو بلا شكّ لم يفكر ، ولم ينتبه إلا بمنبِّهٍ شديد فى جامعة كمبردج أو أحد مراكز التبشير هناك ، وأخذ العهد والميثاق على نَفْسه أن يكون داعية ، فى هذه الحربِ الخالصة لوجه السيادة الأوربية على بلاد العرب والإسلام .

وكأنهم اختاروه ليكون بديلًا من ذلك المتسرّع الجرىء الوَقِح السليط اللسان سلامة موسى ، أيامَ كان شابًّا مندفعًا يقول منذ ثمان وثلاثين سنة فى كتابه « اليوم والغد » . « ينبغى أن لا يغرس فى أذهان المصرى (كذا) أنه شرقىٌّ ، فإنه لا يلبث أن ينشأ على احترام الشرق وكراهة الغرب ، وينمو فى كبرياء شرقى ، ويحس بكرامة لا يطيق أن يجرحها أحد الغربيين بكلمة » . ثم يقول بلا عقل ! : « الرابطة الشرقية

سخافة ، الرابطة الدينية وقاحة ، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوربّا » . وقائل هذا هو الأستاذ الروحى للويس عوض ، كما قال هو بلسانه ! وأنا أدع للقارئ تأمُّل حقيقة هذا الأستاذ الروحى للويس عوض ، وأىّ داعية هو إلى الذل والمهانة والخضوع ، لأوربّا المستعمرة المتعصّبة الخالية من كُلّ أَدبٍ فى معاملة أهل الشرق عامة ، والعرب والمسلمين منهم خاصة ، إلى هذا اليوم الذى نحن فيه .

فإذا عرفت هذا ، بلا إطالة ، وعرفت لويس عوض الذى قال بنفسه فى تقديم نفسه ١٩٥٤ أنه « عرف بدعوته للأدب العامى فى صدر حياته الأدبية » ، ورأيته منذ دخل صحيفة الأهرام يجمع حول نفسه ، وتجمع له بعض المراكز الثقافية القائمة فى مِصْر والتابعة مباشرة لمراكز التبشير العالمىّ ، من يَصْلُح أن يكون معبرًا عن رأى لويس عوض ، ويكون مُتسمًا بالنزاهة ولا مطعن فى نزاهته من المصريين المسلمين الذين خدعوا بشكل مَّا ، بما يسمَّى كسر عمود الشعر العربىّ ، وباستعمال اللغة العامية والدعوة إلى إحلالها محلَّ الفصحى ، ثم من يجتمع حولَه ممن يحقّر شأن العرب وتاريخهم وثقافتهم ودينهم ، ويزدرى كُلّ ذلك ازدراءً ظاهرًا ، ويعدُّ الثقافات الأوربية كلّها هى المصدر الذى ينبغى أن نَستقى منه مادَّة تكويننا الحديث بلا تردّد أو تمحيص = إذا عرفت هذا عرفت لماذا لبس هذا الممخرق طيلسان أستاذ جامعى ، تاركًا الأدب الإنجليزى وراءه ، وعامدًا إلى التاريخ العربى والأدب العربى ، ليقرن ابن خلدون بأورسيوس ويجعله منه أخذ ، والمعرّى براهب دير الفاروس ويجعله على يديه تعلّم ، وإلى القرآن ليجعله استمد ما فيه من صفة الجنة والنار من خَطْرَفة اليونان ، وإلى زعماء الكفاح فى سبيل الحرية منذ غزو نابليون إلى أن جاء جمال عبد الناصر ، ليجعلهم مقتدين بالمعلم يعقوب ، الذى ظاهر الفرنسيس على إذلال الشعب العربى فى مِصْر ، وادعى لويس عوض أنه معبر عن إرادتنا فى تحقيق استقلال البلاد ، وسائر المَخْرَقات التى يكتبها عن تفسير آثار الأدباء المصريين وغيرهم ، كتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، وصلاح عبد الصبور .

وإذا عرفت هذا ، عرفت لم امتلأت صحيفة الأهرام ، منذ عُيِّن هذا الرجل مستشارًا ثقافيًا فى مؤسستها بالهجوم اللاذع فى أبواب كثيرة تخضع للمستشار

الثقافى ، على اللغة العربية الفصحى التى كسر هو رقبتها ، وعلى الشعر العربىّ الذى كسر هو عموده ، وعلى كُلّ تراثنا الذى نحن به عربٌ لنا ماضٍ عشناه ، ولا نزالُ نعيشه ، وسوف نعيشه ، برغم هذا المحترق الذى استخدم كُلّ أداةٍ فى هذه الحرب ، من كلمة مكتوبة ، إلى صورة مرسومة ، وبنفس الأسلوب الخفىّ الذى يعمل به أشباهه وأمثاله فى سائر الميادين .

وإذا عرفت هذا ، عرفتَ لم جاءتْ هذه الحملاتُ المختلفة الأشكال والأنواع ، ولم اتخذتْ صورًا متباينة فى أكبر صحيفة فى العالم العربى والإسلامىّ ، بعد أن اتضح لهم أنّ جمال عبد الناصر قد استطاع أن ينقذ كرامة العرب بدعوته إلى وحدة العرب ، ووقوفِه فى وجه كلّ إرهاب أوربى متغطرسٍ بالغزو أحيانًا ، وبالحصار الاقتصادىّ أحيانًا أخرى ، وبغير هذه الوسائل الظاهرة البادية للعيان ، فلم يبق أمامَ هؤلاء إلاّ ميدان واحدٌ ، هو بلبلة العقل العربى وتشكيكُهُ فى نفسه ، وإلا تحطيم الرابطة الأولى والأخيرة فى حياة العرب ، وهى اللغة ، بتمزيقها إلى لغات ، وإلى تدمير الجسر الذى عاش أربعة عشر قرنًا يَجْمع قلوب الأمم الممتدّة من الشمال البعيد إلى الجنوب القصىّ ، ومن الشرق النازح إلى الغرب المتباعد ، على كلمة واحدة ، وعاطفة واحدة ، ورأى عام واحدٍ ، مع شدَّة بطش العدو الماكر الخبيث المدرّب ، وعمله المتواصل فى فصم هذه الرابطة على امتداد ثلاثة قرون أو أكثر . وهذا هو التوقيت الذى أُعِدَّ له لويس عوض ، بأسلوب لا ندرى كيف كان على وجه التحديد ، ليدخل أكبر مؤسسة انتزعت من أيديهم ، لتكون فى أيدٍ عربية مخلصة صادقة .

هذه هى القضية ، كتبتها بكُلّ ما استطعتُ من الوضوح ، لتعرف صحيفة الأهرام أن براءتها مما كتب لويس عوض ، عن رسالة الغفران وشيخ المعرّة ، ليس فيه غضاضةٌ ، بل هو أمرٌ توجب الأمانة ، ويوجب الإخلاص لأبناء البلاد العربية والإسلامية ، أن تفعله بلا تردّد (١) ، لأن المراد منه هو إحداثُ تدمير شاملٍ فى وحدة

(١) لم تفعل جريدة الأهرام شيئًا إلى هذه الساعة سنة ١٩٧١ ، بل لعلها فعلت عكسه ، وكيف نرجو شيئًا إذا كانت أمور الأمة العربية متروكة للأهواء ! .

الأمة العربية شيئًا بعد شيء ، حتى يأتى يوم نقول : « أيها العرب » ، فلا نجد سميعًا ولا مصيخًا ، يستجيب للدعاء .

أمّا دراسة ما كتبه هذا الرجل عن رسالة الغفران وشيخ المعرّة ، وإظهار ما يخفى من خبائث التضليل والعبث ، فالعرض له مستمرٌّ إن شاء الله .

... وهٰذا هُوَ تَارِيخُها

الرسالة

الخميس ٥ رمضان ١٣٨٤



٧

عندما شرعت أعدّ هذه الكلمة ، قضيت أيّامًا أطوف بذاكرتى فيما قرأتُ ، وأراجع بعض ما قيّدتُ ، فأفنيتُ وقتًا طويلًا فى حشد مادَّة الكتابة ، ثم وَقع إلىّ كتابٌ لم أكن سمعتُ به . فلما بدأتُ أقرؤُه ، وجدتُنى قد أضعت أيّامى هباءً ، لأنه لو كان فى يدى قبل ذلك ، لأغنانى عن بحثٍ طويلٍ وتنقيب مُضْنٍ . فلم أستحلَّ لنفسى أن أعود إلى قضية الأكاذيب الملفَّقة ، حتّى أنصف صاحبته ما استطعتُ . جاء هذا الكتاب كأنه تقريعٌ لى ، ولكُلّ من نصبَ نفسه لعلاج المسائل العامة فى حياة الشعب العربى والإسلامى ، لأننا عشنا دهرًا فى موجٍ متلاطمٍ ، ثم لم يكن لنا من الحكمة والعقل ، ما يدفعنا إلى تقييد ما يجرى فى زماننا على ترتيب تاريخىّ مُتَّصل ، فيكون ذلك مِعْوَانًا لنا على جلاء الصُّورة التى عشناها أو التى نعيشُها ، فى ضوءٍ مبين عن حقيقتها ، وتلافيفها ، وتعاريجها ، وخفاياها . وهذه هى النكبة التى نكبنا بها . وأنا أشهدُ على نفسى ، على الأقلّ ، أنى قصَّرتُ فى ذلك تقصيرًا معيبًا إذ شغلتنى نفسى عن تتبُّع كثيرٍ من الحقائق وتقييدها ، فلما جئت أطلبها ، وقعتُ فى المآزق ، حتى جاء كتاب « تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية وآثارها فى مصر » ، فأنقذنى ممّا تورطت فيه . وهذا الكتاب النفيس ، من تأليف الدكتورة نفوسة زكريا سعيد ، المدرسة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية . (الطبعة الأولى ١٣٨٤ هجرية / ١٩٦٤ م) . والجهْد المبذول فى جمع مادة هذا الكتاب ، جُهْد يدلُّ على التجرّد الصحيح السليم فى طلب المعرفة ، وعلى الصدق فى السعى إلى الحقيقة ، وعلى النفاذ فى إدراك الحقائق ، وعلى الصبر فى معاناة التنقيب بلا كلال ولا ملل . ولا أظننى قرأتُ منذ سنوات طوال كتابًا يتناول المسائل العامة فى حياتنا الحديثة ، بذل فيه صاحبه من الوقت والجهد والأناة ، ما بذلت الدكتورة نفوسة فى كتابها هذا . ولا أظننى قرأتُ أيضًا فى هذا الدَّهْر كتابًا ، ينبغى لكل عربىّ وكل مسلمٍ أن

يقرأهُ من ألفهِ إلى يائه ، يضارع هذا الكتاب . وحسبها أنها استطاعتْ أن تجلو للناس صورة صحيحة صادقة مؤيدة بالأسانيد ، بلا تزيّد ولا كذب ولا ادّعاء ، عن أكبر معركة تدور فى العالم العربى والإسلامى ، وهى معركة البناء أو الهدم ، معركة الحياة أو الموت ، معركة الحرية أو الاستعباد ، معركة وحدة العرب والمسلمين بلغة عربية واحدةٍ هى الفصحى ، أو تفرُّق العرب والمسلمين أشتاتًا بلغاتٍ متنابذة هى العامية .
ولو كان لى من الأمر شيء ، لأمرتُ أن يطبع هذا الكتاب ليكون فى يد كلِّ شابٍّ وشابّة ، وكل رجُل وامرأة ، ويكون له مختصر ميسّر لكُلّ من مكّنه الله من القراءة .
ولستُ أريد الإغراق فى الثناءِ ، وإخلاءَ الكتاب من كُلّ عيب ، ولكنى أراه كتابًا صالحًا لكلِّ مثقّفٍ ، يجد فيه مادّةً صحيحة لتاريخ معركة قاسية خبيثة ، إذا وقانا الله شرَّها باليقظة فقد نجوْنَا من المحنة الساحقة ؛ وإذا أسأنا فابتلينا بتمام الغفلة ، فذلك ذُلُّ الأبَد ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله وحده .

* * *

وهذا أوان العودة إلى قضية هذا الداعية الجديد وأكاذيبه الملفقة . وقد كشفت النقابَ عن وجه لويس عوض ، فى مقالتى السالفة ، فعرضتهُ كما هو فى حقيقته ، لا أديبًا ، ولا متأدِّبًا ، ولا مفكرًا ولا دكتورًا ذا طيلسان وجلاجل ، بل حاقدًا على العربية وكتَّابها وأهلها ، يستخدمه قومٌ لأغراضٍ بعيدة الأثر فى حياة الأمة التى تتخذ العربية لغتها والقرآن كتابها ، بلا مواربة ولا استخفاء . ويريدُ الله أن يرسل إلىّ دليلا جديدًا على أنه لم يزل كما كان فى صدر حياته ، داعية للعامية ، ولا شيء غير ذلك ، ولا همّ له إلا ذلك . ففى العدد الأخير من مجلة الإذاعة (٢٩ شعبان سنة ١٣٨٤) بعنوان : « هل صحيح .... الرواية والقصة القصيرة فى محنة » ، والذى أثار الموضوع هو قول توفيق الحكيم : [« لقد انصرف الكتاب عن الرواية والقصة القصيرة إلى المسرح والتليفزيون والسينما » فهل يعنى هذا أن الرواية والقصة القصيرة تمرَّان بمحنة ؟] فأجاب نجيب محفوظ جواب عارف خبير ، وأجاب يوسف الشارونى جواب متتبع ، وكلاهما لم يتعرض لما تعرض له لويس عوض ، لأن المسرح والتليفزيون والسينما ، أكثر ما فيه الآن بالعامية المحضة . وهذا بلاء مخوف العواقب ، فالمنصرف عن الرواية والقصة القصيرة إليها ، إنما ينصرف إلى محض

العامية . أمَّا لويس عوض ، فبالذى يعتمل فى صدره من الحقد على العربية أجاب ولم يفهم السؤال الذى وُجِّه إليه ، بل تسرّع وحاول أن يتفلسف بغير فلسفة ، كما تأدَّب فى هامش الغفران بلا أدب ، فزعم أن محنة الرواية التى تجمدت ، والقصة القصيرة التى ذبلت ، يعود إلى جملة أسباب !! « أهمها ذلك القرار الذى اتخذه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب منذ سنوات بضرورة استعمال اللغة العربية فى حوار القصة ، وقصر الجوائز على القصص الخالية من الحوار العامى » ، ثم جاء بكلامٍ كثير مُلَفَّفٍ فى الغموضِ والتحكُّم ، نابعٍ من عقيدته التى بُنِيَ عليها كيانه كُلّه ، وهى الدعوة إلى العامية ، وبُغْض اللغة العربية .

ولا يعنينى هنا أن أنقدَه ، ولكن يعنينى أن أكشف اللثام عن وجهٍ غريبٍ فى تاريخ الحياة الأدبية المعاصرة ، وأنه حين عرف بنفسه فى سنة ١٩٥٤ فقال عن نفسه ، « عرف بدعوته للأدب العامى فى صدر حياته الأدبية ، وللأدب فى سبيل الحياة فى طوره الحالى » ، لم يعن بهاتين المقولتين سوى شىء واحدٍ ، هو أنه لم يزل « داعيةً للعامية ، لا غير ، وأنه لا يعنيه الأدب ولا غير الأدب ، لأنه ليس بأديب ولا شبه أديب ، وإنما يعنيه أن تسود العامية على العربية لأنه داعية ، كما بيّنت فى المقالة السالفة . وبذلك يتبين أن المخرقة التى اتخذها بإساءة الكتابة فى آداب العربية حين وظَّفته صحيفة الأهرام مستشارًا ثقافيًا بها ، إنما كانت ستارًا يحجب به نَفْسه ، ليدعَ آخرين يعبِّرون عما يريد ، ومن المسلمين خاصة ، كما قال فى كلامه الذى نقلتُه عن « بلوتولند » . فمن أجل ذلك رأينا صحيفة الأهرام تكادُ تنفردُ من الصحف كلها بالإغراق فى السخرية من العربية بالكلمة ، وبالصورة [1] ، وبكل ما فيه تحقير للتراث العربى ، بلا رعاية أحيانًا لبعض ما ينبغى أن يراعيه ذو عقل سليم ، أو ذوقٍ صحيح .

وسأثبت بالبرهان القاطع ، أنّ موضع هذا الداعية الجديد فى الحياة الأدبية

(١) مضت بضع سنوات ولا يزال هذا حادثًا إلى اليوم (أغسطس ١٩٧١) ، وأقرب ذلك ما نشره من يسمى « عبد الحميد عبد الغنى : مدير إدارة القضاء بالأمم المتحدة » !! فى أهرام الجمعة ١٣ أغسطس ١٩٧١ ، بعنوان « قوانين التعليم .. وعودة المغتربين » ، فأتى فيه بكلام لا يعقله عاقل عن تعلم اللغة العربية . ثم انظر ص : ١٣٣ ، التعليق رقم : ١ .

المعاصرة ، موضعٌ مريب جدًّا ، لا بما أعلمه خبرًا ، بل بالاستدلال التاريخىّ على ألفاظه التى أودعها ما سمَّاهُ « التجربة رقم : ١ » ، وهى تجربته فى اللغة العامية ، ولن أعيد ألفاظها هنا ، لأنى أثبتها فى المقالة السالفة . وقد زعم أنه فى سنة ١٩٣٧ :

(١) كان يتعلم مبادئ اللغة الإيطالية ، ووقف عند المبادئ ، فاسترعى انتباهه أن البعد بين اللغة اللاتينية المقدسة ، ولهجتها المنحطّة الإيطالية أقل من البعد بين اللغة العربية المقدسة ، ولهجتها المنحطة المصرية .

(٢) وأنه ظل إلى سنة ١٩٤٠ يدعو إلى ذلك ، ثم أفهمه بعض من يفهم أن المسألة حساسة ، لأنها تتصل بالدين رأسًا !! لأن الأمر قد ينتهى بعد قرن أو قرنين إلى ترجمة القرآن إلى اللغة المصرية كما حدث للإنجيل من اللاتينية إلى اللغات الأوربية الحديثة .

(٣) ثم زعم أنه يفهم أن الاعتراف باللغة المصرية (أى العامية) ، لا يتبعه بالضرورة موت اللغة العربية ، إذا احتاط الناس لذلك !! وأنه ليس عنده ما يمنع من قيام الأدبين جنبًا إلى جنب ، اللهم إلاّ إذا شككنا فى جدارة اللغة العربية والأدب العربى وقدرتهما على الحياة (انتهت التجربة مختصرة) .

وسأريك أن هذا ، كما قلت ، كذبٌ كلُّه ، فهو لم يفكّر فى شىء ، وإنما لُقِّن أشياء ، كما يلقَّن سائر الدعاة الصغار الذين يردّدون ما يلقى إليهم ترديد الببغاوات . هذه هى القضية .

وهذا هو تاريخُها ، ولكنه تاريخ طويل جدًّا ، ومتقادمٌ جدًّا ويُؤْسفنى أن أكون مضطرًّا للإيجاز . فمنذ استيقظ العالم الأوربىّ لنهضته الحديثة ، وهو يرى عجبًا من حوله . أُمَمٌ مختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، من قلب روسيا ، إلى الصين ، إلى الهند ، إلى جزائر الهند ، إلى فارس ، إلى تركيا ، إلى بلاد العرب إلى شمال إفريقية ، إلى قلب القارة الإفريقية وسواحلها ، إلى قلب أوربا نفسها ، تتلو كتابًا واحدًا يجمعها ، يقرؤه مَنْ لسانه العربية ، ومَنْ لسانُه غير العربيَّة ، وتحفظه جمهرة كبيرةٌ منهم عن ظهر قلب ، عرفت لغة العرب أم لم تعرفها ، ومن لم يحفظ جميعه حفظ

بعضه ، ليقيم به صلاته . وتداخلت لغته فى اللغات ، وتحولت خطوط الأمم إلى الخط الذى يكتب به هذا الكتاب ، كالهند ، وجزائر الهند ، وفارس وسائر من دان بالإسلام . فكان عجبًا أن لا يكون فى الأرض كتابٌ كانت له هذا القوة الخارقة فى تحويل البشر إلى اتجاهٍ واحد متّسِق على اختلاف الأجناس والألوان والألسنة . فمنذ ذلك العهد ظهر « الاستشراق » ، لدراسة أحوال هذا العالم الفسيح الذى سوف تتصدّى له أوربا المسيحية بعد يقظتها ، وعلى حين غفوةٍ رانَت على هذا العالم الإسلاميّ . فكان من أوّل هَمّ « الاستشراق » أن يبحث لأوربا الناهضة عن سلاح غير أسلحة القتال ، لتخوض المعركة مع هذا الكتاب الذى سيطر على الأمم المختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، وجعلها أمةً واحدةً ، تعدُّ العربية لسانَها ، وتعدُّ تاريخ العرب تاريخهَا . وبدأ الغزو المسلّح ، وسار الاستشراق تحت رايته ، وزادت الخبرة بهذه الأمم . فمن كان منها له لسان غير اللسان العربىّ ، أعدَّت له سياسة جديدة لإغراقِه فى لسان الغازى الأوربىّ حتى يسيطر عليه ، ومَنْ كان لسانُه عربيًّا ، أعدت له سياسة أُخْرَى لإغراقه فى تخلّفٍ مميتٍ ، لخصنها وليم جيفورد بلجراف فى كلمته المشهورة :

« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب ، يمكننا أن نرى العربىَّ يتدرّج فى سبيل الحضارة (يعنى الحضارة المسيحية) التى لم يبعدْه عنها إلا محمد وكتابه » . فكان بينًا أنه لا يمكن أن يتوارى القرآن حتى تتوارى لغته .

وتبيّن لهم أن لا وسيلة إلى إقصاء القرآن فى الأرض إلاّ بالسيطرة على وسائل التعليم شيئًا فشيئًا ، حتى لا تتمكّن الأمّةُ من السيطرة عليه ، فتقيمه على طريقٍ سوىّ يفضى إلى نهضة صحيحةٍ . وكان من قَدَر الله أنّ منارة العالم الإسلامىّ كُلِّه كانت فى مصر ، وهى الأزهر ، فصار من الحتم المقطوع به أن تكون سياسة الغزو الأوربىّ موجَّهَة إلى مِصْر قبل كلّ مكان فى هذا العالم الإسلامى . فمن أجل ذلك كانت حملة نابليون سنة ١٢١٣ من الهجرة (١٧٩٨م) ولكنه لم يلبث بها إلاّ قليلًا ثم رحل . وبعد قليل أيضًا صار أمر مصر إلى محمد على سنة ١٢٢٠ من الهجرة (١٨٠٥م) ، فمن خلال حكمه سيطرت القناصل الأوربية على مرافق البلاد ، ومنها

التعليم . فحال جهلُ محمد على وحبّه للعظمة ، بينه وبين إدراك مقاصد هؤلاء الغزاة المتربّصين فى توجيه التعليم إلى جهةٍ غير صحيحة ولا نافعة ، فلم يكن للغة البلاد نصيبٌ ممّا ظنَّه محمد على ارتقاءً بالبلاد وبتعليمها . وكذلك حدثت أول فجوة بين التعليم ، ولغة التعليم .

ثم أرسلت البعثات إلى فرنسا سنة ١٢٤٢ هجرية (١٨٢٦م) فكان ممن رافق هذه البعثات العلمية ، شابٌّ فى الخامسة والعشرين من عمره ، كان ممن تلقى علومه فى الأزهر ، ليكون لهم إمامًا . فبجدّه واجتهاده تعلم الفرنسية ، وقرأ بها ما شاء الله من الكتب . وكان الرجل ، كما يظهر من كتبه ، ذكيًا سليم الطويَّة ، وفيه غفلةٌ يسيرةٌ أو شديدة ، جعلته أحيانًا يقف كالحائر فاغرًا فاهُ من عظمة ما رأى فى بلاد الفرنسيس !! فلما عاد إلى مصر ألف وترجم ، فكان ممّا ألّف ، كتابٌ سماهُ « أنوار توفيق الجليل ، فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل » (سنة ١٢٨٥ هجرية / ١٨٦٨م) فعقد فَصْلًا ذكر ، فيه فضل العربية ووجوب إحيائها ، ولكنه ضمنه دعوة إلى استعمال العامية فقال : « نعم إنّ اللغة المتداولة فى بلدة من البلاد ، المسماة باللغة الدارجة ، التى يقع بها التفاهم فى المعاملات السائرة ، لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصول على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم ، وتصنف فيها كتب المنافع العمومية ، والمصالح البلدية » .

ولكنى لا أكاد أشكُّ أن هذا الرأى الذى وقع فيه رفاعة الطهطاوى ، لم يكن رأيًا استحدثه هو ، بل جاءه أيامَ كان مقيمًا مع البعثة بفرنسا ، غرَّهُ به داهيةٌ من دهاة القومِ ، عرف ما يكنّ رفاعة لبلاده من حُبّ التقدّم ، فلم يزل به حتى أراه الباطِلَ حقًّا . وإلا كيف غابَ عن رفاعة أنه كان أولى به أن يدعو إلى تعميم التعليم فى كُلِّ بلدةٍ من البلاد ، كما كان ذلك فى البلاد الغربية التى أعجبته حضارتُها واستخرجت دهشته !! فهل رأى هو فى فرنسا أن أهل كُلِّ إقليم أو قريةٍ يعلّمون أبناءهم اللغة الدارجة ويكتبون بها « كتب المنافع العمومية والمصالح البلدية » !! هذا عجبٌ . بيد أن هذه الدعوة من رجل عربى مسلم ، لم تلق سميعًا ولا مجيبًا ، وذهبت أدراجَ الرياح .

ولكن لم يمض غير قليل حتى أنشئت المدارس الابتدائية ، التى كانت قد ألغيت فى عهد محمد على فصارت نحو ثلاثين مدرسة (فيما بين سنة ١٨٦٣ - ١٨٧٩) ، فاحتاجت إلى عددٍ وافر من أساتذة اللغة والأدب ، هذا فضلًا عن المدارس الثانوية على قلتها يومئذٍ ، ولكنها مقبلة على الزيادة ، فأنشت مدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢ ، أى قبل وفاة رفاعة الطهطاوى بعام واحدٍ ، فتولى التدريس فيها رجُلٌ من عظماء رجال الإحياء ، هو الشيخ حسين المرصفى ، فكان له أثر عظيمٌ فى إحياء اللغة وآدابها ، وألف كتابه « الوسيلة الأدبية » ، فكان له فضلٌ عظيم جدًّا على كل من تخرجَ فى دار العلوم . واقترنَ وجود المرصفى ، بظهور شاعرٍ فذٍّ نَقَل اللغة يومئذ من حالٍ إلى حالٍ ، فأسقَط عن الهمم تلك الأغلالَ التى كانت تمسكها إلى الأرضِ ، وتُقعِدها بالعجز عن توهُّم إدراك الأوائل فى نصاعة العبارة وتجويد الشعر ، وهو الإمام الأوّل محمود سامى البارودىّ المولود سنة (١٨٤٠) ، وظهر اسمه وشعره فى نحو هذا الوقت ، أى (١٨٧٠) ، وبدأت العربية من يومئذٍ تستعيد شبابها وقوّتها ، وانطلقت الألسنة من عِقال العجز ، بفضل هذين الرجلين .

ولكن أنَّى للعين الساهرة أن تغفل عن عواقب ما ترى من حركة الإحياءِ ؟ كان كثير من أهل الحلّ والعقد منذ عهد محمد على ، ممن درسَ بغير اللسان العربىّ ، ولَهُ أصل غير عربىٍّ ، ونموٌّ فى بيئة غير عربية ، يزدرى العربية أو لا يلقى لها بالًا . ولأنهم أصحاب سلطانٍ ، كان كثير من صغار الموظفين وأشباههم يحاكيهم ويتشبه بهم ، ويتراطن كتراطنهم . فرأى أحدُ رجالِ الحرب الثقافية الخفية ، أنّ الوقت قَد حان ، وأن لابُدَّ من الإسراع فى بثّ الدعوة التى تعوق حركة الإحياء ، أو تشتت بعض الجهود ، وعَسَى ولعل أن يكون لها أثر . هذا مع ظهور بوادر الثورة على حكم أسرة محمد على ، وتجمُّع القوى تحت قيادة أحمد عرابى ، لنفض هذا الكابوس المطبق على صدر مصر وأهلها . فإذا زال حكم هذه الأسرة وأتباعها ، وأفضى الأمرُ إلى أهل البلاد ، فربما اشتعلت حركة الإحياء فى كُلّ قرية وبلدٍ ومدينة . وعندئذ يذهبُ أيضًا كُلّ ما يدبّرُ أدراجَ الرياح .

كان يقبع بين جدران دار الكتب المصرية ماكرٌ خبيث يقال له « ولهلم سبيتا » ،

نزل مصر ، وعاش فى الأحياء المصرية ، ودرس اللغة العامية ، ووجد أنها تختلف من بلد إلى بلد ، ومن حىّ إلى حىّ ، فلما رأى هو ومَنْ يهدف إلى تحطيم حركة الإحياء من أهل الاستعمار الأوربى ، أن الأمر يوشك أن يخرج إلى ما لا يحمدون عُقْباه ، من سيادة اللغة العربية ونهضتها مرة أخرى ، سارع إلى تأليف كتابٍ سماه « قواعد اللغة العامية فى مصر » ، ولكنه لم يقتصر فيه على الدراسة ، بل كشف فى مقدمته عن الغرض الذى يرمى إليه ، فقال :

« وأخيرًا سـأجازف بالتصريح عن الأمل الذى راودنى على الدوام طول مدة جمع هذا الكتاب ، وهو أملٌ يتعلّق بمصر نفسها (ما أشد حبَّك لمصر !!) ويمسُّ أمرًا هو بالنسبة لها وإلى شعبها يكادُ يكون مسألة حياة أو موت (بلا شك يا ولهلم !!) ، فكلٌّ من عاش فترة طويلة فى بلادٍ تتكلَّم العربية ، يعرف إلى أى حدٍّ كبير تتأثر كل نواحى النشاط فيها ، بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ، ولغة الكتابة » .

وبيِّن جدًّا أن ولهلم هذا مخادعٌ عظيمٌ ، لأن نشر التعليم الصحيح كافٍ فى إزالة هذه الصعوبة بلا أدْنى ريبٍ ، كما حدث فى جميع لغات الدنيا ، ولا يزال يحدث إلى اليوم .

ثم يقول : « ففى مثل تلك الظروف ، لا يمكن مطلقًا التفكير فى ثقافة شعبية ، إذ كيف يمكن فى فترة التعليم الابتدائى القصير ، أن يحصل المرء حتى على نصف معرفة بلغة صعبة جدًّا كاللغة العربية الفصحى ؟ » .

ولا شك أن « ولهلم » هذا أقدر الناسِ على معرفة صعوبة الفُصْحى !! لأنَّه أدرى الناس بها . ثم يتجه إلى ناحية أخرى فيقول :

« وطريقة الكتابة العقيمة ، أى بحروف الهجاء المعقدة ، يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم فى كل هذا . ومع ذلك فلم يكن الأمر سهلًا لو أتيح للطالب أن يكتب بلغة ، إن لم تكن هى لغة الحديث الشائعة ، فهى على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة ، بدلًا من أن يُجبَر على الكتابة بلغة هى من الغرابة بالنسبة إلى

الجيل الحالى من المصريين ، مثل غرابة اللاتينية بالنسبة إلى الإيطاليين ، وبالتزام الكتابة العربية الكلاسيكية القديمة ، لا يمكن أن ينمو أدب حقيقىٌّ ويتطوّر » . [١]

وظاهر أن جميع التالفين قديمهم وحديثهم ، كسلامة ولويس عوض ، إنما يكررون هذه المقالة بلا تغيير ولا تبديل ، [١] وتشبيههم هو نفس التشبيه . ثم انظر ما يقول « ولهلم سبيتا » فى شأن القرآن ، وقارن بينه وبين ما يقوله لويس عوض : « فلماذا لا يمكن تغيير هذه الحالة المؤسفة إلى ما هو أحسن ؟ ببساطة ، لأن هناك خوفًا من التعدى على حرمة الدين ، إذا تركنا لغة القرآن كلية . ولكن لغة القرآن لا يكتب بها الآن فى أىّ قطر . (انظر ماذا يقولون !!) فأينما وجدت لغة عربية مكتوبة ، فهى اللغة العربية الوسطى ، أى لغة الدواوين . وحتى ما يُدْعَى بالوحدة بين الشعوب الإسلامية (انظر ما تتضمنه هذه الكلمات !!) ، لا يمكن أن يقلقها تبنّى لغة الحديث العامية ، إذ أنّ لغة الصلاة والطقوس الدينية الأخرى ، ستظل كما هى فى كُلّ مكان » . وهذا مُفْتٍ آخر جاء يفتى المسلمين فى دينهم ، كما أفتى لويس عوض بجواز ترجمة القرآن إلى العامية !!

* * *

ولم يلبث الأمر غير قليل ، حتى قام المقتطف ، وكان ممالئًا للإنجليز ، فاقترح (سنة ١٨٨١) كتابة العلوم بلغة الحديث ، بلا إشارة لما قاله سبيتا ، (سنة ١٨٨٠) واستدل على ضرورة ذلك بما استدل به « سبيتا » ، وجاء أيضًا بالتشبيه نفسه ، أى « البعد بين اللاتينية والإيطالية » ، وأدلته وحججه ، فيها نفس الطابع المتسم بالغباوة الاستشراقية التبشيرية ، التى تتظاهر بالجدّ والعلم ، وهى فى الحقيقة تكشف عن طبيعة عدم الحياء من استغفال السامعين أو القارئين . وعمل المقتطف سيئ جدًّا ، لأنه استغفل الناس مرتين مرة بالحجج السخيفة المختلسة ، ومرة بالتظاهر بأن هذا الاقتراح آتٍ من قِبَل قوم عرب اللسان والمولد ، هم أصحاب المقتطف ، مع أنّ انكشافَ أمرهم قريبٌ كان وميسورٌ . وهذا هو نفس الخداع الذى لجأ إليه لويس عوض ، كما ترى .

---

(١) وهذا أيضًا هو نفس ما ردده « مدير إدارة القضاء بالأمم المتحدة !! « عبد الحميد عبد الغنى » فى مقالته التى أشرت إليها آنفًا ص : ١٢٧ تعليق : ١ .

وبإلقاء المقتطف هذه القنبلة ، (سنة ١٨٨١) ، بدأت كلمات « سبيتا ! » تأخذ طريقها إلى بعض الناس . وقام الشيخ خليل اليازجي ، وهو لبناني نصرانيّ ، فدفع ما قاله أصحاب المقتطف دفعًا قويًّا شديدًا .

وهو كلام عاقل لا هَوَى له . ولكن أيَّد رأىَ المقتطف بعضُ الناس ، بيد أنَّ الأمر كله لم يخرج عن هذا النطاق الضيق ، وشغل الناس بالنكبة الكبرى ، بهزيمة عرابى ، ودخول الإنجليز ، واستيلائهم على التعليم كله ، وجعلوه ملحقًا بوزارة الأشغال العمومية !!!

* * *

ولكن هل هدأ الأمر وانتهى ؟ كلاَّ ، فقد كان أيضًا فى مصر « كارل فولرس الألمانى » خادم الإنجليز ، « وويلككس » المهندس المبشر الإنجليزى ، وبدأ كُلٌّ منهما حركة منفصلة ، ولكنّها متصلة المعانى ، فألف فولرس كتابًا فى « اللهجة العامية الحديثة فى مصر » (سنة ١٨٩٠) ، ثم تولى ترجمته فى سنة ١٨٩٥ إلى الإنجليزية « بوركيت » . وألح على ما ألح عليه « سبيتا » ، من صفة العربية الفصحى بالجمود والصعوبة ، وشبهها باللاتينية ، وشبه العامية بالإيطالية .

أما « ويلككس » ، فألقى محاضرة ونشرها فى مجلة الأزهر ، التى آلت إليه سنة ١٨٩٣ ، وزعم فيها : أن الذى عاق المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفُصحى ودعا إلى التأليف بالعامية ، وقال للناس :

« وما أوقفنى هذا الموقف إلا حبِّى لخدمة الإنسانية ، ورغبتى فى انتشار المعارف ، وما أجده فى نفسى من الميل إليكم ، الدالّ على ميلكم إلىّ » .

وهذا كلام ثقيل الدم جدًّا كوعظ المبشرين ، وهو منهم . وهذا الغبىُّ أيضًا جاء بتشبيهات جديدة فى مقالته ، فشبَّه الفصحى باللاتينية ، والعامية بالإنجليزية !! وهذه براعة خارقة ، وزعم أن اللغة الفصحى ماتت ، لأنها صعبة وجامدة ، ودعا إلى اتخاذ العامية لغة أدبية اقتداء بالإنجليز . ولا أستطيع أن أكتم اشمئزازى ، لأنى منذ كنت صغيرًا إلى هذا اليوم ، لا أكاد أقرأ كلام هذا الرجل إلا لحقنى الغثيان من ثقله الذى

لا مثيل له فى شىء من الأشياء مهما استقذرتها النفس . ومن أشدّ غثاثته وثقله فى هذا الأمر ، أنه نشر فى مجلة (الأزهر) ، حيث نشر محاضرته ، إعلانًا يغرى فيه باتخاذ العامية فى الكتابة هذا نصه :

« من قدَّم لنا هذه الخطبة باللغة الدارجة المصرية ، وكانت موافقة جدًّا ، يكافأ بإعطائه أربعة جنيهات إفرنكية ، وإن كثر المتقدمون ، فيعطى هذا المبلغ لمن يحوز الأوليّة » . وأنا أستحلف القارئ ، ألم يشعر بالغثيان من هذا المبشر الصفيق الوجه !

* * *

وكانت هذه الدعوة إلى العامية مؤقتة أيضًا فإنّ هذا الوقت قد صادفَ نهضة حسنة فى طبع كتب التراث العربىّ فى مصر وفى غير مصر ، وأقبل كثير من المتعلمين عليها ، وصادف أيضًا استيلاء « دنلوب » على التعليم فى مِصر ، ووَضْعه النّظام الذى أراد به أن يُغَلِّب اللغة الإنجليزية فى التعليم ، ويضعف تدريس العربية ما استطاع ، ويجعلها مبغّضةً إلى الطلبة محتقرة بقدر الإمكان ، (ومع الأسف هذا هو النظام السائد إلى اليوم فى مدارسنا ، مع أنه هو نظام دنلوب ، ولا نظام لدنلوب سواه) [(١)] . ففرض « دنلوب » تعليم العلوم كُلِّها بالإنجليزية ، واختصر دراسة العربية وما يتصل بها اختصارًا سوف يؤدّى بعد قليل ، إلى وجوب استمرار ضعف تعليم العربية جيلًا بعد جيل . وصادف مرة أخرى بدء ظهور الشعور الوطنى فى الشبان الذين صدمهم الاحتلال الإنجليزى ، والذين يمثلهم مصطفى كامل ، وبدأت حركات إصلاح مضادة لما يفعله الإنجليز ، فآثر هذا المبشّر أن يلقى بدعوته ، ليكون ذلك أوقعَ لها ، وأشدَّ إثارة لبلبلة ضعافِ النفوسِ ، وطالبى التقرُّب ، وذوى الميل الطبيعى إلى « ويلككس » وأشباهه . [انظر « دنلوب » ص ١٤٠] .

وكانت الحركة الأدبية فى ذلك الوقت آخذةً فى النموّ ، برغم جميع العوائق التى تعترض سبيلها ، وكانت المدارس التى يملك « دنلوب » زمامها ، ترغم أسلوبه على

---

(١) انظر ما سيأتى فى خلال المقالة الحادية عشر ، ثم آخر مقالة فى هذا الكتاب : « ضفادع فى ظلماء ليل ... » ، وما معنى « نظام دنلوب » وما هدفه ؟

التقهقر أحيانًا ، وزاد عدد العائدين إلى الفصحى من الكتاب والشعراء والخطباء والمدرسين ، وذلك ضرب من مقاومة العدوّ الباغى الذى يفرض سلطانه على البلاد . والظاهر أن الجهات التى تسيطر على سياسة المنطقة ، أرادت أن تبعث وجهًا جديدًا ليتولى الدعوة إلى العامية ، وتحقير الفصحى ، فأخرجت من أحد قضاة المحاكم رجلًا يقال له « سلدن ولمور » فألف هو الآخر كتابًا سماه : « العربية المحلية فى مصر » (سنة ١٩٠١) دعا فيه إلى اتخاذ العامية لغة أدبية ، ويهددنا أننا إذا لم نفعل ذلك : « فإن لغة الحديث ولغة الأدب ستنقرضان ، وستحلُّ محلهما لغة أجنبية ، نتيجة لزيادة الاتصال بالأمم الأوربية » . [1] وهذا الإنجليزى كما ترى محبٌّ لمصر ، مشفق على ضياع العامية والفصحى جميعًا !! وقال : « ومن الحكمة أن ندع جانبًا كُلّ حكم خاطئ وجّه إلى العامية ، وأن نقبلها على أنها اللغة الوحيدة للبلاد ، على الأقل فى الأغراض المدنية ، التى ليست لها صبغة دينية » . ولا سيَّما بعد ما ظنّ « ولمور » أنّه قد أثبت أن العامية تختلف عن الفصحى تمام الاختلاف ، وأنها أكبر شبهًا بفروع اللغات السامية منها بلغة القرآن ولغة الأدب العربىّ القديم . ثم ختم كلامه بأنّ « خير الوسائل لتدعيم اللغة القومية (أى العاميّة) هى أن تتخذ الصُّحف الخطوة الأولى فى هذا السبيل ، ولكنها ستكون فى حاجة إلى عون قوىٍّ من أصحاب النفوذ ، فإذا نجحت هذه الحركة ، فإن وقتًا قصيرًا فى التعليم الإجبارى ، وليكن سنتين ، سيكون كافيًا لنشر القراءة والكتابة فى البلاد » .

وبالطبع هذا سُخْف لست بصدد مناقشته ، ولكن هذا المخادع اتخذ حيلة لطيفة لإقناع حكومة مصطفى فهمى الممالئة لقومه الإنجليز ، فإنه فرغ من مقدمة كتابه التى حشاها هذا الخلط ، ثم زعم أنه علم بظهور مقالة لعالم أمريكى فى فقه اللغة « يهتم اهتمامًا كبيرًا بخير الشعب المصرى » !! وأنه وافقه هو وسبيتا وويلككس !! على وجوب اتخاذ العامية لغة أدبية ، وكتابتها بحروف لاتينية ! وأن

---

(١) وهذه هى نفس دعوة مفكر آخر ، دعا إليها بعد زمان طويل ، وهو المفكر !! وهو القاضى أيضًا !! عبد العزيز فهمى أحد الكبار الذين ينبغى أن تدرس حياتهم ونفوسهم ونشأتهم دراسة صحيحة ، فلكل شيء خبايا خفية مستورة !!

هذا العالم الأمريكى (يا للكذب !!!) يناشد الحكومة المصرية لتعترف بالعامية وتقرّها ويناشد الإنجليز لتدعيم هذه العامية ، ليساعدوا على تقدم الشعب الروحى !! (ما هذا ؟) كما ساعدوا من قبل على تقدمه فى الحياة المادية » . ويعنى بذلك عهد كرومر ، كما هو معروف . وهذا العالم الأمريكى الذى ادعى ولمور أنه نقل عنه ، ليس سوى مبشر مثله ، ولذلك أخفى اسمه ولم يذكره . ومما يدلُّ على شخصية ولمور هذا ، أنه جعل يشكر رؤساء المصالح الحكومية ، لاكتتابهم فى عدد من نسخ الكتاب ، مما مكّنه من طبعه . هذا ليس قاضيًا ، إنما هو شحّاذٌ ، وإلا فكيف عجز عن طبع كتابه فى بلاده ؟

* * *

فلما ظهر كتاب ولمور سنة (١٩٠١) استجاب المقتطف مرة أخرى لدعوة العامية ، فهبَّ يقرّظ الكتاب ، كأنه جاءَ تأييدًا لرأيه هو واقتراحه ، لا لرأى سبيتا واقتراحه . ولكن محصَّلُ كل ذلك لا يخفى ، لأن الذى كان يبيّته هؤلاء ، كان يجرى على ألسنتهم وأقلامهم ، فيقول المقتطف فى تقريظه : « وكثيرًا ما قلنا للأوربيين والأمريكيين الذين ذاكرونا فى هذا الموضوع ، إنه لو اهتمّ محمد على باشا جد العائلة الخديوية ، بكتابة اللغة المحلية فى مصر والشأم ، وجعل الكتابة بها وحدها ، لما وجد فى ذلك كبير مشقة » . ثم فى آخر الكلام تحريض شديد : « ...إلاّ إذا تسلطت على البلاد قوّة قاهرة ، عضدت الساعين فى ضبط اللغة المحلية وكتابتها » . وينبغى لكل عاقل أن يقف قليلًا عند ذكر محرر المقتطف : « وكثيرا ما قلنا للأوربيين والأمريكيين » ، قبل أن يتظاهر المقتطف فى سنة ١٨٨١ أنّ له اقتراحًا فى شأن العامية والفصحى ، ويقول فيها نفس ما قاله سبيتا قبله سنة ١٨٨٠ ، مغفلًا ذكره ، وكأنه لم يكتب شيئًا ، وكأن سبيتا بعيد الدار لا يستطيع محرر المقتطف أن يلقاه بدار الكتب .

أرجو أن يحدثنى من يريد ، عن هذه الدعوة التى تحاط بكل هذا المكر والرياء والخداع والغش ، ما هى ؟ أهى صادرة من قلوب خالصة طالبة للحق مطالبة به ؟ ثم ما اهتمام الأوربيين والأمريكيين ، وليس لسانهم بلساننا ، فى شأن اتخاذ العامية

للكتابة الأدبية أو ترك الكتابة بها إلى الفصحى ؟ ثم لماذا يقول هذا للأوربيين والأمريكيين ، وكان هو قادرًا تحت سلطانهم يومئذ أن يفعل ذلك فى مجلته ؟ إنها أمورٌ غير مفهومة ، بل مفهومة ، تجعل كل عاقل يرتابُ فى كل داعية للعامية من هذه الناحية الخبيثة وحدها ، فما ظنُّك بالنواحى الأخَر ؟

وكانت مقالة المقتطف يومئذ أعظم أثرًا من رأيها الأوَّل أو اقتراحها ، لأنها جاءت مؤقتة مع الحركة الوطنية [1] ، ومع البعث الثقافى ، فنشطت الألسنة ، وكثر اللجاج فى شأن العامية والفصحى ، وكان له عوامل خارجة عما نحن فيه الآن ، تزيدهُ لجاجًا . ولكن الشىء الغريب ، وهو ليس بغريب فى الحقيقة ، هو أن مجلة الهلال التى تميل بهواها إلى ناحية الفرنسيس ، لم تشهد الجولة الأولى ، لا مؤيدة ولا منكرة ، لأنها لم تكن أنشئت بعد ، ولكنها شهدت هذه الجولة ، فانحازت إلى معارضة رأى الدعاة إلى العامية . ولكن ظنى أن هذا موقفٌ وحسب ، لا يتضمن أى دِلالة على الرأى ، لأسباب كثيرة لا محل لذكرها هنا . وحسبك أن تعلم أنها أفسحت صدرها لكثير من دعاة العامية ، بأحقادهم وضغائنهم ، فى تلك السنة ، وظلت تفعل ذلك حتى استكتبت « سلامة موسى » ، فيما بعد ، فكتب لها شرًّا ممّا كتبوا جميعًا .

فبعد سنة ١٩٠١ ، ظل الأمر مضطربًا ، ولكن ظهر بوضوح للدعاة أن أمرهم قد استوى على وجه يرضونه ، وينبغى أن يغيروا الموقف ، ويبدِّلُوا الأماكن ، ويخلعوا الملابس ، ويتولَّوا تَطْرِيةَ وجوه الممثلين الجُدُد بالمساحيق الصالحة . ومع ذلك فأنا لم أكشف اللثام عمّن وراء هؤلاء الدعاة ، لأن التلويح فيما قلت يدلُّ عليهم ، وعَسَى أن يأتى ما يدعُو إلى بيان أوضح ، وهو آت على كل حال . والشىء الذى لا أظنُّ الدارس يخطئه ، هو ارتباط هذه الدعوة فترة بعد فترة بأحداثٍ سياسية واجتماعية ظاهرة أو خفية ، تأتى قبل شىء يكون نكبة وقارعة ، كما كان « سبيتا » قبل هزيمة عرابى والانتقام منه ، أو تأتى بعد النكبة بشكل آخر ، كما جاء « ولمور » هذا الذى

---

(١) ينبغى أن نتنبه دائمًا إلى أن « الدعوة للعامية » و« الطعن فى العربية » مقترن دائمًا بظهور حركة للنهضة أو للإصلاح يخشى أن تؤتى ثمرة طيبة ، كما سيمر بك كثيرًا .

ختمنا به هذا الفصْل من البيان عن دعوة العامية . وسأدع الآن هؤلاء الأجانب والعملاء الذين حملوا كِبْر الدعوة إلى اللغة العامية ، ومن لفّ لفَّهم من محرر المقتطف إلى الأسماء المتخفِّية بلا شخوص ، إلى الأسماء التى ظهرت مرّة واختفت فلا يعرف عنها شىء . وهذا موضع وقوف لابدَّ منه ، لأن الأمر سوف يختلف اختلافًا شديدًا فيما بعدُ .

* * *

وقد تبين خلالَ هذا العرض السَّريع ، أن التجربة التى مرَّ بها لويس عوض فى مسألة الدعوة إلى العامية ، تجربة هو مسبوق إليها ، وغير معقولٍ أن لا يكون عرف عنها شيئًا . ولا أحب أن أقول لماذا هو غير معقول ، لا استنباطًا ، ولكن بنصوص كلامٍ أيضًا . وتبين أيضًا أن الأفكار الثلاثة التى دارت فى تجربة كلها منقولة نقل مَسْطَرةٍ من كتب كان يتوهَّم هو أنها غير موجودة إلّا فى بعض الخزائن العميقة المظلمة التى لا تصل إليها الأيدى بسهولة ووضوح . وما دام مسبوقًا إليها حرفًا حرفًا ، وخطوة خطوة ، وتشبيهًا تشبيهًا ، فهو بلا شك مدّعٍ كاذبٌ فى تجربته بل هو يعيش فى أحلام وسمادير لا حقيقة لها ، فربما قرأ الخبر عن غازٍ من الغزاة ، فتراه فى اليوم الثانى يمشى فى الأرض كأنه لساعته نزل من صَهْوَةِ حصانه ، شاهرًا سَيفه ، يريد أن يطعن ، ولكن يحبسُه الخوف والذعر . وهذه صورة تلقاها كثيرًا فيما كتب عن « الخلفية التاريخية لرسالة الغفران » ، كما سماها والعياذ بالله ، وسأتابع عرض هذه الدعوة ، والكشف عن خفاياها وروابطها ، لكى أضع هذا الداعية الجديد فى الموضع الصحيح الذى سوف يتبين أنه خطرٌ أىُّ خطر ، برغم ما تلبَّس به من أردية الجامعات ، وما علّق على اسمه من الألقاب ، وما أسند إليه من استشارة . وهذا أغرب شىء ، لأنه كان يقال فى المثل : « المستشار مؤتمن » ، فجاء هذا فنقض علينا أمثالنا ، كما نقض علينا ألفاظ لغتنا ، ومع ذلك ، فالعرض مستمرّ .

● « **دنلوب** » نشرت صحيفة الأهرام فى عددها يوم ١٧ مارس ١٨٩٧ ما نصه :

« قُضِى الأمر ، وصدر الأمر العالى بتعيين المستر دنلوب سكرتيرًا عامًا لنظارة المعارف . وقد شرع المستر دنلوب ، بعد الاتفاق مع جناب اللورد كرومر ، فى هدم الدراسة الثانوية التى هى أعظم أركان المعارف » .

... وَهٰذِهِ هِيَ آثَارُهَا

الرسالة

الخميس ١٢ رمضان ١٣٨٤



٨

أحبُّ أن أجعل قارئ هذه المقالات على بيّنةٍ من سياقها ، لا شكًّا فى قدرته على متابعة ما أكتب ، بل معاونة له ولنفسى على الإحاطة بتاريخ قضية من أعقد القضايا التى ابتُلِىَ بها العالم العربىّ خاصة ، والعالم الإسلامىّ عامة ، ولا تزالُ حيّة إلى اليوم ، بل بلغت عنفوانها فى هذه السنين الأخيرة ، وليس لها شبيهٌ فى العالم كُلّه ، حتى فى البلاد التى تعدُّ لُغَتها وكتابة لغتها من أصعب اللغات وأشدّها تشعُّبًا ، كاللغة الصينية مثلًا . والكشف عن حقيقة هذه القضية ، وهى قضية العامية والفصحى ، كشفٌ عن أعظم مؤامرة خبيثةٍ ، بدأتْ خافتةً ، ثم علا صوتُها واشتدَّ ضجيجها منذ سنة ١٩٥٦ ، بعد العدوان الثلاثى على مصر ، وبعد ارتداد قُوَى الشر على أعقابها . والمشتركون فى القضية ، بين غافلٍ لا يدرى ماذا يقول ، ولا ماذا يُرادُ به ، وبين ماكِرٍ خبيثٍ يُضْرِم النارَ فى الحَطَبِ ، لتأكلَ الأخضر واليابس بعد قليل .

فقبل أن أبدأ أوّل مقالةٍ فى الكشف عن أمر لويس عوض حين اتخذ شيخ المعرّةِ ورسالة الغفران أداةً لنَفْثِ سمومه فى صحيفة الأهرام ، كنت على تمامِ اليقين من أمر هذا المتدسّس إلى أكبر الصحفِ العربيةِ ، واتخاذه إياهَا مسرحًا لعرض فصْلٍ مفزعٍ شديد الخطر ، على الغافلين عَنْه وعن الذين يحرّكونه كما حركوا من قبله دُمًى كثيرةً ، كانَ لها أثرٌ بالغُ الخَطَر فى حياتنا السياسية والأدبية [١] . كانَ لويس عوض متكشّفًا لى غاية التكشف ، كنت أراهُ عاريًا من كلِّ سِتْرٍ يُخْفيه ، وأرى الخيوط التى تحرِّكه وتديرهُ . ولكن صحيفة الأهرام التى جعلته مستشارًا ثقافيًا لمؤسساتها كانت قد لَبَّست على الناس أمرَه ، إذْ أخرجتْه من خمول الذكر إلى صيتٍ يسيرُ به حيث

---

(١) لا يدرى المرء هل يأسف أم ييأس ، لأن هذا المتدسس إلى جريدة الأهرام ، لا يزال يدير المسرح الذى ينفث الخطر من جميع نواحيه ، على يده وعلى يد شيعته بعد مضى ست سنوات على كتابه هذا النذير . (سنة ١٩٧١) .

سارتْ . وأنا لا أدرى على وجه التحقيق كيف وقع هذا ؟ ولا من الذى هيَّأ لمثله هذه الفرصة ؟ ولكنى كنت أعلمُ أنه هو أو غيره ، كان لابُدَّ أن يتدسّس إلى مثل هذا المكان ، فى غمرة الحوادث العظيمة التى مرَّت بنا فى السنوات الأخيرة . وما ذلك إلا لأنى كنتُ أتابع زحفَ هذه القوى الشريرة منذ قديم ، بلا غفلة عنه . وكيف أَغْفُلُ عنه ، وقد كدت يومًا ما أكاد أكونُ أحد صَرْعَى هذا الزَّحف ، ورأيتُ إخوانًا لى قد صُرِعوا وأنا أراهُمْ بعينى ، منهم من نجّاه الله كما نجّانى ، ومنهم من هلك فيمن هلك ؟

كيف أغفلُ عن هذا الزحف ، وأنا لم أزل أشهدُ منذ عشرات السنين طلائعَ التخطيط المدبَّر ، تنقضُّ على أمّتى وبلادى من كلِّ ناحية ، ويتم لها كلّ ما تريد ، أو بعض ما تريد يومًا بعد يوم ، وعامًا بعد عام ؟ ومن أجل ذلك لم أحمل القلم منذ حملتُه ، إلاّ وأنا مؤمن أوثق إيمانٍ بأنى أحملُ أمانةً ، إمّا أن أؤدِّيها على وجهها ، وإمَّا أن أحطِمَ هذا القلم تحت قدمى بلا جزعٍ عليه ولا على نفسى . وأبيتُ منذ عقلتُ أمرى أن أجعلَه وسيلة إلى طلب الصيت فى الناس ، أو ابتغاء الشهرة عندهم ، عرف ذلك من عرفه من خلطائى فى هذه العزلة الطويلة الأمد التى ضربتُها على نفسى ، وجهِل ذلك من جهله . وعلى شدة ما لقيت طول هذه السنين من مَلامةٍ تَلْحَانى على هذه العزلة التى رضيتُها لنفسى ، لم أرضَ أن أخوضَ فيما يخوضُ فيه الناسُ ، إلاّ كمثل تَحِلَّةِ القَسَمِ ، أى بمقدارٍ مُفْرِطِ القلَّة ، غير مبالغ فى ذلك ولا مُوغِل . ولذلك صارَ رأيى مقصورًا على قلة من إخوانى كنت أبُثُّهم ما أجدُ وبِما أعلم ، ثم أحبسُ لسانى عن كثير ممن ألقى من الناس ، حتى صرت كالعيِيّ الذى لا يحْسنُ الإبانة عن ذات نفسه ، لأن طول الكتمانِ وترك تحريك اللسان بالرأى ، مضرٌّ بالمرء كضرر الثرثرة بلا عقل .

فلما جاءَ ما لا يُسْكَتُ عليه لشدة خطره ، ظللت أؤامر نفسى طويلًا أيَّ السبيلين أسلُك ؟ فلما تبين لى الرشدُ ، حملتُ القَلَم وأنا على بينةٍ من طريقى ، طريقٍ لن يخدعنى عنه أحدٌ بثناءٍ أو ذمٍ ، فكلاهما لا يغرُّنى ولا يرهبنى . وقلت لنفسى : هذا إنسانٌ تعرفينه على وجهٍ ، ويعرفه الناس على وجه آخر ، تعرفينه بطول إلفك لأمثاله

مخادعًا شديد الخداع ، ويعرفه الناسُ مخدوعين أشد الانخداع . فكان بيّنًا لى أن أجعل همّى كشف الزيْفِ المُفْضِى إلى الخديعة ، لأكشف الأخطاء التى أخشى أن يصدّقها الناسُ . وكان بيّنًا لى أيضًا أن انخداع الناس بهذا الإنسان مأتاهُ من طريقين : طريق صحيفة الأهرام التى وثق الناس بها ، لظنهم أنها منذ انتُزعت من أيدى أعدائهم ، صارت إلى أيدٍ أمينة لا تخونُ الأمانة = وطريق اللقب الذى يحملهُ هذا الإنسان ، وصاحبهُ عند الناس أمينٌ أيضًا لا يخونُ الأمانة . فعندئذ لم أجدْ طريقًا أهدى لى وللناسِ من أن أبدأ بتحليل شيء من كلام هذا الإنسان على وجه الدراسة الأدبيّة ، ليكون بيانُ زَيْفِه إثباتًا قاطعًا على أن حامل هذا اللقب لا يستحقُّه بوجه من الوجوه ، حين يتبيّنَ لكُلّ أحدٍ أنه دعيٌّ ثرثارٌ ، لا يحسنُ شيئًا من مناهج دراسة الآداب على وجه يليق بحامل هذا اللقب . وأظنُّنى قد بلغتُ فى ذلك ما أريد ، وأظنُّنى لم أظلمْه قُلامة ظُفْرٍ فى شيء مما كتبتُ عن مناهج الدراسة الأدبية . ولم أجعل همّى الكشف عن ادعاء هذا الدعيّ وحسبُ ، بل جعلتُ همّى أيضًا أنْ أزيل الخَبَثَ من طريق الدراسات الأدبية ، لعلمى أن هذه الدراسة هى أخطَرُ الدراسات فى أمم الأرضِ جميعًا ، ولأن الغِشّ فيها خفىّ ينسابُ ، وهو لخفائه شديد التأثير فى عقول الناس وفى تفكيرهم ، وبالغُ الضرر فى حياة الإنسان عامة ، ومنذرٌ بخطَرٍ يغتال الفكر الإنسانىّ ، ويؤدى إلى تدمير الثقافة والحضارة جميعًا ، لأنّه يعتمد على الكلمة المُنسَابة التى تركب الألسنة ، وتنفذُ فى العقول ، فتهدّد سلامتها وبراءتها من الآفات . ومعلوم بالبديهة أن الغش والتزييف فى العلم لا يؤذيان كأذاهما فى الدراسات الأدبية ، لأن كشفهما فى العلوم سهلٌ وميسورٌ ، ولكنه فى الآداب عسيرٌ شديدُ العُسْر .

فكان بيّنًا عندى ، وينبغى أن يكون كان بيّنًا عند القارئ ، أنّى لم أكتب ما كتبت لأناقش عالمًا أو أديبًا أو مثقفًا ، بل العكس هو الصحيح ، إذْ كان هذا الإنسان عندى ليس بعالم ولا أديب ولا مثقف ، بل هو كان عندى دعيًّا قد اتخذ هذه الصفات بشكل ما ، وسيلة لنشر خبائث يكتم حقيقتها عن الناس ، ويدسُّها فى تضاعيف كلامه كما يفعلُ كل داعية يبتغى الفتنة ، ولا يبغى شيئًا غير الفتنة ، ليصل إلى غايته فيما يدعو إليه . فمن أجل ذلك لم أكدْ أفرُغ من إقامة الدراسة الأدبية على

نهجها ، حتى عمدتُ بلا التواءٍ إلى تجريده من هذه المراقع التى كان يتخفَّى فيها ، تزييفًا على الناس ، ودبيبًا إلى غفلاتهم بالخديعة والمكر ، فلم أتردَّد فى خلالِ ذلك لحظة واحدة فى وصف هذا الإنسان بالصفات التى تنطق بها كتابته وأعمالُه ، مجرَّدة من كل مداهنة فى الحقِّ ، لأن ذلك ليس من شيمتى ، ولأن التردّد دونه عجزٌ وتخوُّف وخيانة للأمانة .

نعم ، كنت خليقًا أن أدع التصريح إلى التلويح ، لو كنتُ أعُدُّهُ داعيةً مفتونًا بدعوة ينفردُ بها ، ويريد التنفيس عن نفسه بالثرثرة ، ولكننى كنت أعلم علمًا لا يخالطه ارتياب أنه شىءٌ تحرِّكه قُوًى شِرِّيرةٌ أعرفُها ، خبرتها بنفسى ، ووجدت آثارها يومًا ما فى عقلى ووجدانى ، وعَلِمتُها قُوًى متضافرةً شديدة الخطر ، تتربَّص بأهلى وعشيرتى وبلادىَ الدوائر ، فلم أستحلَّ أن أعامله معاملة الداعية المنفرد بدعوته ، المنفّس عن نفسه حرَّ الاحتراقِ بما يجد من النار الآكلة . وكيف أداهنُ أو ألوّح ، والنُّذُر من حولى تصرُخ وتَعْوِى ، وكلّ نذير يهدّد بسوء عاقبة الغفلة عنه وعن أمثاله ؟

وأنا امرؤٌ لا أحبُّ الهمس والدندنة فى الآذان سرًّا ، ولا أحبُّ التناجى الخفىّ بالإثم والعدْوان تحتَ ستار من الظلمة ، وأكره من يدور باللائمة من مجلس إلى مجلس ، غير مُعالن ولا مُصَرِّح . فمن أجل ذلك كتبت هذا ، لأهتك هذا السِّتر البغيض إلى النفوس الصحيحة ، ولأبيّن لمن لا يعرفنى ، نهجىَ الذى أسير فيه معلنًا بلا جمجمة ولا استخفاءٍ . فمن شاء أن يلوم بعد ذلك فَلْيَلُمْ ما أحَبَّ اللَّوم ، فإنّى مؤدِّيها على النهج الذى لا تزلُّ بى فيه مُداهنة أو تلويح ، ولا تحبسُ خُطواتى فيه مخافة أو تهديد أو مناجاةٌ بالإثم والعدوان .

أما صحيفة الأهرام التى مكَّنت لهذا الدعىِّ ، وهيَّأتْ لهذا الداعية الجديد أن يتصرَّف فى بعض صفحاتها بنفسه وببعض شيعته تصرُّف المالك ، فإنى لا أزال أحملُ فِعْلها على أحسنِ محملٍ أطيقُه ، وألتمس لها العذر بعد العذر ، لظنِّى أنها وقعت فى شَرَكٍ لم تَدْرِ كيف تخلُص منه ، وعَسَى أن تجد هى الطريق إلى الخلاص باليقظة والتنبه ، وبحُسْن الرعاية لمصلحة الأمم التى تعدّها أوّل صحيفة تعبّر عن أهدافها ، وتعمل مخلصة جاهدة فى سبيل الخير . وعَسَى أن تجد لنفسها مخرجًا

ينجيها من التُّهَمَة ، وينقذ قراءها الذين استقرّتْ فى قلوبهم الثقة بأمانتها وصدقها ، من أن تكون مرْتعًا قريبًا سهلًا ، وَمِنْبرًا عالى الصوت شديد الدوىّ ، لهذا الداعية وأشياعه ، حيث يتخذها وسيلةً لبلوغ أهدافه وأهداف من يحرّكه من حيث لا تدرى . ومع كلِّ ذلك ، سوف يأتى فى غضون هذه المقالات بيانٌ شافٍ عن كلّ الأخطار التى تهدّد كيان هذه الأمم ، فعسى أن تجد فيها صحيفة الأهرام مَقْنَعًا ترضى عنه ، إن لم تكن قد وجدت فيما سلف ما يوجب عليها أن تبرأ مما تجب البراءةُ منه .

أمّا الآن ، وقد قضيتُ نَحْبِى من البيان عن نفسى ومنهجى ، فإنىّ عائدٌ إلى ما كنتُ فيه من تاريخ قضية الدعوة إلى العامية واستبدالها بالفصحى ، وإلى موضع هذا الدعىّ من تاريخها ، وإلى ما يحيط اليوم بهذه القضية ، وإلى الآثار الشنيعة المترتبة عليها . وأحبُّ مرةً أخرى ، وما أكثر ما أحبُّ !! ، أن يكون القارئ متنبّهًا ، غاية التنبُّه ، لأنى لا أكتب هذا التاريخ المتشعب المتداخل ، للتسلّى بالألفاظ أمضُغُها ، (كما يتسلى الفارغون على المقاهى بالحديث وقزقزة اللبّ) ، بل أكتبه باذلًا أقصى الجُهْد ليفتح كل امرئ عينيه على أكبر الجرائم التى ارتُكبت ، والتى لا تزال ترتكب ، بأخبث الوسائل وأخفاها وأفتكها ، فى غمرة الحديث عن النهضة والتطور ، وعن الأدب والفن ، وفى فترةٍ من أشد الفترات خطرًا على مستقبل الحياة فى الأمم العربية ، من حيث هى أمة واحدة ، ثم على مستقبل سائر الأمم الإسلامية ، من حيث هى الصديق الطبيعىّ للعالم العربىّ ، ومن حيث هى الدرعُ التى تلقت ضربات المعاول الأُولى بيد الاستعمار الغربى ، ولا تزال تتلقّاها ، ومن حيث هى الذَّخيرة الباقيةُ صداقتُها وعونُها لنا غدًا ، برغم كُلّ ما أدَّت إليه دسائس الاستعمار وصنائعه وعملائه فى بلادنا وبلادهم .

وإذا كنتُ قد عرضت فى مقالتى السالفة أوّلِيَّةَ قضيّة اللغة العامية والدعوة إلى استبدالها بالفصحى ، منذ عهد « سبيتا » الألمانى سنة ١٨٨٠م ، إلى القاضى « ولمور » الإنجليزى ، ومحرّر المقتطف فى سنة ١٩٠١ ، فإنى فى الحقيقة قد انتزعتُ هذا الجزء انتزاعًا من حركة متكاملة قديمة العهد ، متشعّبة العوامل ، متداخلة الآثار . فعلتُ ذلك لأنى رأيتُنِى لو بدأت عرض الصورة من جميع نواحيها وأبعادها

فى مقالة أو مقالتين ، فكأنى أُريغُ اختصار قصّة كاملة تستغرق آلاف الصفحات ، فى بضع عشرة صفحة من مجلة الرسالة . وهذا أمرٌ لا يكادُ يتمّ لأحد إلاّ بإخلالٍ شديدٍ فى سياق القصة ، ولكن كان لابدّ مما ليس منه بُدٌّ . وسأحاول الآن محاولة أخرى مَخُوفَةً ، يتهددها الإيجاز بالغموضِ ، ولكننى سأحاول مرغمًا ، حتى يتسنَّى لى أن أربط هذه القضية بأصولها القديمة ، باذلًا فى البيان غايّة الجهد ، إبراءً لذمّتى فى إتمام الصورة ، وتنبيهًا لكُلّ غافلٍ عن الخطر المقبل ، وهو خَطر ساحق يسحق تاريخه ومصيره ، فإذا قصَّرت ، فذلك المعهود من العجز ، وإذا شارفت حدّ الإبانة ، فبتوفيق الله وحده وتسديده . وإن كنت لا أدرى على التحقيق من أين أبدأ ؟ أمِنَ التاريخ البعيد ، أم من التاريخ القريب ؟

* * *

وفى هذه الحيرة ، أُراه حسنًا من الحَسَن أن أطوى التاريخ الطويل فى كلماتٍ موجزة دالّة على مَسَارِبه ، وأسوقَ بعضَ الإيضاح فى خلال ذلك ، حتى تتصل الأجزاء وتلتقى عند عهد محمد على فى سنة ١٨٢٦م وما بعدها . وأسألُ القارئَ أن لا يملّ ، فإن الملل من كواذب الأخلاق ، كما قال عمرو بن العاص رضى الله عنه .

ففى عصْر النهضة الأوربية الأخيرة ، كان هناك عالمان كبيران : العالم الأوربىّ المسيحىّ ، والعالم العربىّ الإسلامى . كان الأوّل قد ساور أوّل الشبابِ ، حين انطوى دهرًا على نفسه ، يدرسُ ما حمل إليه الحاملون من تراث العرب والمسلمين فى العلم والأدب ، وذلك بعد ارتداده إلى دياره منذ آخر حربٍ صليبية ، وبعد ظهور الدولة العثمانية المسلمة التى غزت أرضه ودياره وتوغّلتْ فيها ، حتى تركت أصداء التكبير والتهليل تَصْدَعُ الجبال فى قلب القارة الأوربية . وكان الآخر قد أغفَى إغفاءةً فى أعقاب دورةٍ هائلة من دورات الحضارة ، بعد أن سارت كتائبه قرونًا طوالًا تطوفُ بحضارة الإسلام من الشمال البعيد إلى الجنوب القصِىّ ، ومن الشرق النازح إلى الغرب الشاسع .

وفى هذه الفترة كان الأوّل متحفّزًا لا يهدأ ، وكان الآخر مستهينًا مستنيمًا لا يبالى . كان الأول طموحًا نزاعًا إلى الآفاق البعيدة ، وكان الآخر قانعًا آمنًا فى ظِلّ

بنيان مرصوص ظنَّه لا ينفذ فيه شيء . كانت قناعة ثانيهما بقوته وماضيه وتجاربه ، وأمْنِهِ فى قلاعه وحُصونه ، وغفلتِه عمّا جَرَى من وراء أسواره ، إغْراءً للأوّل بالإقدام على مباغتته وافتراسه . ولكن كانت تجاربُ الحروب الصليبية القديمة ، وحروب آل عثمان من الترك ، قد دلّت دلالة قاطعة على أن مواجهة العالم الإسلاميّ بالانقضاض المسلّح ، لا تُجدِى إلا انبعاث قوة متماسكة شديدة البأس والخطر ، خَليقةً أن تستردّ شبابَها ، مهما كان فى كيانها من العيوب ، وسرعان ما تَلُمُّ شَعَثَها إلى معركة فاصلة كسائر المعارك الأولى التى ردّت غزاة الصليبية على أعقابهم . فكان من الحكمة إذنْ ، تجنُّب المواجهة . وكان من حُسن التدبير واتقاء العواقب ، أن تدورَ هذه القوة الجديدة الأوربية من حول العالم الإسلامى ، تتنقّصه من أطرافه البعيدة بمهارة وحَذرٍ ، حتى لا يرتاع قلبُ هذا العالم الغافل ، فينفضَ الترابَ عن ثيابه ، ويمسحَ النَّوم عن وجهه . ودبَّت أوربَّة دبيبًا حول هذا العالم ، وجعلت تطوّق شواطئ القارة الإفريقية من الغرب إلى أن بلغت شواطئ الهند . طوَّقته يومئذ بطوق من الثغور تحتلُّها ، ثم تنفذ من كل ثغر إلى بَدَن العالم الإسلامى ، شيئًا فشيئًا ، على حذر شديد ، وبلا ضجيج يزعج . نعم كان هذا غزوًا ، ولكنه غزوٌ خفيُّ الوَطْء ، بعيد المرْمَى ، طويلُ الأجَل . لم يكن غزوًا بالمعنى الذى كان الناس يعهدونه يومئذ ، أو الذى نعهده إلى اليوم ، لم يكن جيوشًا وجحافلَ لها صليلٌ يُقَعقع وَنَقْعٌ يثور ، فتدكّ فى زحفها الحصون حصنًا حصنًا ، حتى تفرُغ من الأرض كلها فى شهر أو شهرين ، أو عام أو عامين . كان غزوًا أقلُّ ما فيه نكايةً هو « الجيوش » ، وأبلغه افتراسًا هو « التجارة » ، وأفتكه بالإنسان هو « التبشير » . وهذه الصورة ، لا يكاد يخطئها من كان له أدنى إلمام بتاريخ الغزو الأوربى المسيحىّ للعالم الإسلامى .

وليس يعنينا هنا أن نتتبع تاريخ نكاية « الجيوش » وافتراس « التجارة » ، بل الذى يعنينا هو « **التبشير** » . وفهم طبيعة « **التبشير** » وعمله ، أمرٌ لابد منه لكل إنسان رأى بلاده نَهْبًا ممزَّقًا ، وأشلاءً مقطعة ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ومن أبعد الغرب إلى أبعد الشرق ، لأنه أحدُّ كتائب الغزو الجديد وأفتكها بالناس . ولست هنا بصدد سرد تاريخ « التبشير » منذ قام « البارون دى ويتز » فى سنة ١٦٦٤ ، يدعو إلى تأسيس مدرسة جامعة ، تكون قاعدةً لتعليم التبشير المسيحى ، وتُعَلَّم فيها لغات

الشرق لمن يُناط بهم أمر التبشير ، فهذا يحتاج إلى دراسة مطولة . وحسب المرء أن يرجع إلى ما ألفه المبشرون أنفسهم من كتب تاريخ التبشير ، ليعلم المناهج التى سار فيها حتى هذا اليوم . ولكن ليس يَحِلُّ لأحدٍ ممن يتعاطى النَّظر فى أمور الناس فى البلاد التى وقعت نهبًا للغزو الأوربى ، أن يغفل أمر « **التبشير** » ، ولا أن يتجاهل آثاره ، ولا أن يُغْضِيَ الطَّرْف عن وسائله ، لأنه هو فى الحقيقة أقوى العوامل التى مكنت للاستعمار فى بلادنا وجعلتنا فى الحال التى نحن عليها من الضعف والتفكك ، والجهل بالأسباب الصحيحة التى تهيئ لنا مستقبلا كريمًا شريفًا فى هذا العالم . وسأحاول أن أوضح الأمر ما استطعت فى هذه العجالة التى لا تشفى غليلًا .

فمن تمام الجهل أن يظن المرءُ أن معنى « **التبشير** » ، هو اقتصار فئة من الرهبان أو القسوس بالدعوة إلى دينهم ، من حيث هو عقيدة يسمعها المرء فيرضاها أو ينكرها . فهذا أمرٌ باطلٌ أشدَّ البُطْلان ، لا من حيث الواقع فحسب ، بل من حيث شرح « المبشرون » أنفسهم معنى « **التبشير** » عندهم ، وهم الممارسون له ، وهم لذلك أدرى به . وأشدُّ بطلانًا أن يتصور امرؤٌ أن « التبشير » بمَعْزِلٍ عن الغزو الحربى ، والغزو الاقتصادى ، والغزو الفكرى والسياسى ، وعن محاولة الجنس الأوربىّ المسيحىّ أن يُخْضِع الأمم لسيطرةٍ تدوم ما دامت له حضارة . وأشدُّ بطلانًا منهما جميعًا أن يخطر ببال أحدٍ أن « **التبشير** » قد غابَ عن كثير من الدعواتِ التى قامَ أصحابُها ينادون بضروب من الإصلاح (!!) فى بلاد العرب وفى بلاد الإسلام وفى غيرهما من البلاد ، وأنَّه لم يضع فيهما إصبعه ليحوّل معنى « الإصلاح » إلى معنًى من التدمير والهَدْم والتحطيم .

ومَنْ صَدَقَ النيّة ، واطلع على كتب المبشرين أنفسهم ، عرف أن أكثر الحَركات السياسية والاجتماعية قد لُوِّثت بمكره الخفىّ ، وأنه لم يغب عن شىء من الحركات الوطنيّة أو القومية أو الثقافية أو الأدبية أو ما شئت ، بل كانَ من ورائها عاملًا يقِظًا شديد الخفاء بليغَ الأثر ، يتزيىَّ بكلِّ زىٍّ ، على اختلاف الأمور ، لابسًا لكلِّ حالة لَبُوسها ، ومرسلًا فيها أعوانه الذين قامَ على أمرهم دهرًا طويلًا ، حتى لا ينكشف أمرهُمْ للغافلين عن دسائسه المدروسة المخطَّطة الطويلة الأَجل .

وكان أَخفى طريق عرفه المبشرون ، وأقرّته سياسة الدول الأوربية الغازية جميعًا ، هو « **طريق التعليم** » لأن حاجة الناسِ إلى العلم لا تنقطع ، وبخاصَّةٍ فى زمن اليقظة بعد الغفوة . هذه واحدةٌ . والأخرى أن التعليم يضمن تنشئة أجيال قد صُبغوا على أيدى معلميهم بالصبغةِ التى يريدها الدهاةُ من أساتذتهم ، وهو أخطَرُ عاملٍ فى توجيه أفكار الصغار إلى الجهة التى يريدها المعلّم ، فينشأ الطفل ويكبر حتى يصيرَ رجلًا ، فلا يحسُّ فى نفسه أنَّه قد طبع طبعًا جديدًا ، يرادُ به استبقاءُ سيطرة الغازى عليه وعلى بلاده ، وتدمير أُمَّته بمسخه هُوَ وأقرانه إلى عبيد يذلّلون الطريق لأقدامِ السادةِ الطغاةِ من حيث لا يدرى أنَّه عبد مسخَّر .

وإليك فقراتٍ دالةً من كلام رجلٍ من رؤوس المبشرين ، تُغنى عن الإكثار ، هو المسيو شاتليه ، يقول فى سنة ١٩١١ :

« إنّ إرساليات التبشير الدينية ، التى لديها أموال وفيرة ، وتُدار أعمالُها بتدبير وحكمة ، تأتى بالنفع الكثير فى البلاد الإسلامية ، من حيث إنها تثبت الأفكار الأوربية » . ثم يقول : « ولا شك فى أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية ، تعجزُ عن أن تزحزحَ العقيدة الإسلامية من نفوس معتقديها ، ولا يتم لها ذلك إلاّ ببثّ الأفكار التى تتسرّبُ مع اللغات الأوربية ، فبنشرها اللغات الإنكليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، يتحكك الإسلام بصحف أوربا ، وتتمهّد السُّبل لتقدم إسلامى مادىّ (تأمّل هذا جيدًا) ، وتقضى إرساليات التبشير لُبَانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية ، التى لم تحفظ كيانها إلا بعزلتها وانفرادها » . تأمَّلْ !!

هذا كلام دارس خبير ، ينبغى أن تقرأه لفظًا لفظًا ، لأنه تخطيط شامل ، فى ألفاظ قليلة . ثم قال أيضًا ما يعين على كشف الأهداف والأغراض ببيان شافٍ ، إذ يقول :

« إنه مهما اختلفت الآراء فى نتائج أعمال المبشرين من حيث خطتهم فى « الهدم » ، فإن نزعَ الاعتقادات الإسلامية ملازم للجهود التى تبذل فى سبيل التربية النصرانية . والتقسيم السياسىّ الذى طرأ على الإسلام (تأمّل !) ، سيمهّد السبل لأعمال المدنية الأوربية ، إذْ من المحقق أن الإسلام يضمحلُّ من الوجهة السياسية ،

ولن يمضى غير زمن قصير ، حتى يكون الإسلام فى حكم مدينةٍ محاطة بالأسلاك الأوربية » .

* * *

وتستطيع أن تجد فائدة عظيمة فى تتبع تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، فى رسالة كتبها الأستاذ جرجس سلامة ، وإن كان قد نظر إلى هذا الموضوع من غير الوجه الذى ننظر إليه منه ، ولكنه أقرَّ فى مقدمته أن هذا التعليم قد بدأ فى مصر لأغراض دينية بحتة ، وأنه اتجه نحو الاستقلال والعزلة : « حتى أصبح التعليم الأجنبىُّ دولة داخل الدولة ، يوجه النشء الوجهة التى يراها ، ويصبغهُم بالصبغة التى يرغبها ، دون إشرافٍ فعلىّ من الدولة عليه » . ويقول أيضًا : « بل بلغ الأمرُ إلى حدّ أن اشتملت بعض الكتب المستعملة على معلومات خاطئة مضللة عن مصر ذاتها ، وكان كُلّ ذلك يدرس لأبنائنا ، مع انعدام وجود أى توجيه قومىّ يوجه شبابنا الوجهة الوطنية الصحيحة » . وقال أيضًا : « وزاد من خطورة كل ذلك أن جميع المدارس الأجنبية دون استثناء ، قد أسهمت بنصيب كبير فى إضعاف اللغة العربية .... فهى تلقى فى خِضَمِّ الحياة المصرية كلّ عامٍ ، من ينظرون إلى غيرهم من طبقات المتعلمين فى المدارس الحكومية الوطنية نظرةً متعالية ، وينظرون إلى اللغة العربية نفس النظرة ... » .

وقد آثرتُ أن أنقل هذا كُلَّه هنا ، لأنها نظرةُ مسيحى دارسٍ إلى هذا التعليم الأجنبى ، وهو غير مكلّفٍ أن ينظُر إليه من حيث ننظر نحنُ ، ولكن سياق دراسته مفضٍ إلى مثل الذى يفضى إليه المسلم ، من حيث استخدام هذا التعليم أداةً لصبغ أبناء الناس بالصبغة التى يريدُها هؤلاء الدعاة ، ويوجههم إلى وجهة غير صحيحة فى الوطنية أو فى غيرها من شؤون الدين والدنيا . وهذا كافٍ بحمد الله ، فى إثباتِ ما نريدُ من استغلال التعليم لبثّ أفكارٍ مدمّرَةٍ فى المتعلمين على أيدى هؤلاء المبشرين .

* * *

فهذا ، وما بينتُه فى مقالتى السالفة ، يدلُّ على شدة عداوة المبشرين ومدارسهم وتعليمهم للغة العرب ، وهذا أمر ظاهرٌ مفهوم ، وقد ذكرت فى الكلمة السالفة مقالةَ « وليم جيفورد بلجراف » : [١] « متى توارى القرآن ، ومدينة مكة ، من بلاد العرب ، يمكننا حينئذ أن نرى العربىّ يتدرّج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » = ومفهوم أيضًا أن « الحضارة » التى يعنيها حضرة الفاضل ، هى المسيحية ذاتها = ومفهوم أيضًا أن القرآن لا يتوارى حتى تتوارى لغته . وزاد القسيس « زويمر » هذا الأمر وضوحًا ، وبيّن أن اللغة العربية هى الرباط الوثيق الذى يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، وذلك حيث يقول فى سنة ١٩٠٦ أو قبلها : « إنه لم يسبق وجود عقيدة مبنيّةٍ على التوحيد ، أعظم من عقيدة الدين الإسلامى ، الذى اقتحم قارتى آسيا وإفريقية الواسعتين ، وبثّ فى مئتى مليون من البشر ، (وهذا تعدادُ أقل من الحقيقة يومئذ بكثير كما تعلم) ، عقائدَه وشرائعَه وتقاليدَه ، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية » .

* * *

فليس مفهومًا بعد الذى بينتُه من طبيعة التبشير بغاية الإيجاز ، وما دللتُ عليه من أعماله فى التعليم ومن غاياته ، أن يكون بمعزلٍ عن قضية هدم اللغة العربية الفُصحى ، التى هى لغة القرآن ، وعن جعل اللغات الأوربية مقدمةً عند المثقفين على لغة الأباء والأجداد . ولكن إلى أن غزا نابليون مصر فى سنة ١٧٩٨م ، لم يكن للمبشرين أثر يذكر فى التأثير على أبناء البلاد العربيّة ، فلما تولّى محمد على أمر مصر ، وزيَّنت له نفسُه أن يستقلَّ بها ، وأغراه طموحُه أن يجعلَها تُناصى دار الخلافة فى تركيا ، انثال عليه قناصِلُ الدُّول ليشدُّوا أزرَهُ ، وليحطموا بمعاول جيشه صرح الخلافة العثمانية ، فعاونوه على إنشاء المدارس ، واستقدم لها المعلمين ، وأرسَلَ البَعثات إلى أوربًا منذ سنة ١٨٢٦ .

وكان أوّل الرأيِ لمن شَهِد هذه النهضة المفاجئة الجديدة ، أن تترجم كُتُب

---

(١) انظر ص ١٢٩ .

العلم الأوربى إلى العربية ، وأن يؤلَّف بالعربية فى هذه العلوم ، حتى يُسْتَغْنَى بعد قليل عن استجلاب الأساتذة الأوربيين للمدارس الثانوية والعالية .. وهذا ما كاد يحدث ، فإن كثيرًا من الكتب قد ترجم يومئذ إلى العربية فى أنواع العلوم ، كالطب والهندسة والرياضيات والعلوم الحربية ، وطبع أيضًا بمصر طباعة جيدة ، ولكن يظهر أنّ القناصل خوَّفوا هذا الطاغية الجرىء ، عُقْبَى تيسير العلوم لطلابها من أبناء مصر ، ينشرها بلسانهم ، وزيَّنوا له أن يقتصر على البعثات التى تدرسُ فى الخارج . فانتهى الأمرُ بأن حُبِست هذه الكتب فى مخازن القلعةِ ، وحيلَ بين اللسان العربىّ ومتابعة العلم فى ذلك العهد البعيد . فكانت أوّل فجوة حدثت بين التعليم ولغة التعليم ، وصار المتخرج فى البعثات يحسنُ لغة البلاد التى تعلم بها ، ويحسن التعبير بها فى العلم الذى درسه ، ثم لا يحسن مثله فى لغته التى ينتمى نسبه إليها ، وبعد قليل بدأت طلائع إرساليات التبشير تفد إلى مصر ، وتنشىء المدارس ، وتحدث فى بيوت المسلمين وغير المسلمين صَدْعًا كان يصعبُ اتقاؤه يومئذ ، لقلّة المتنبهين إليه .

وظل الأمر يستشرى ويزدادُ سوءًا فى أواخر عَهْد محمد على ، إلى أن هبَّت رياحٌ أوشكت أن توقظ الناس إلى نهضةٍ صحيحةٍ تبدأ من حيث ينبغى البدءُ . وذلك عندما حدث ما دعا إلى إعادة فتح المدارس فيما بين سنة ١٨٦٣ ، وسنة ١٨٧٩ ، وما دعا إلى حركة إحياء بين أفراد أفذاذٍ من علماء الأزهر ، وما دعا إلى إنشاء مدرسة دار العلوم . وابتدأت طلائع النهضة الصحيحة بما أشرت إليه من ظهور نابغة البيان فى ذلك الزمان محمود سامى البارودى ، الذى ردَّ الشِّعر العربى إلى شبابٍ فقده فى عصور متتابعةٍ ، قعدت بالهمم فضربتها بالعجز والتسليم بأنها لا تطيق أن تبلغ حيث بلغ الأوائل ، فجاء هذا الرجل آيةً على إمكان ذلك ، وكان ذلك فى حوالى سنة ١٨٧٠ . وبدأ موكب النهضة يسيرُ ، ويتكاثر فى مسيره . وكاد الأمرُ يفلت ، وإذا أفلت الأمر من أيدى الغزاة يومئذ ، ونجت مصر فى سنة ١٨٨٢ من طغيان أسرة محمد على وفسادها ، ومن احتلال الإنجليز بهزيمة عرابى ، لتغيَّر تاريخ هذه المنطقة ، ولاحتفل السيلُ فجرفَ هذه المكايد الصغار التى كانت تُكَادُ يومئذ ، ولطمست الفجوة التى كانت قد انشقت بين التعليم ولغة التعليم .

* * *

وفى هذه الفترة ، ما بين ١٨٦٣ ، إلى ١٨٨٢ ، ظهرت بوادرُ تأسيس الجمعيات الكبرى للتبشير فى مصر وسورية وغيرها من البلدان الإسلامية . وكان ظاهرًا أن هذه الفورة متعلقة بالتكوين السياسىّ الذى يرادُ بقلب العالم الإسلامى ، ولذلك نشط التبشير ، فى أماكن متفرقة من العالم الإسلامىّ ، وكان الهدف الأكبر هو مصر والشأم = وزاد عددُ الرجال المبشرين ، وأكثرهم ليسوا من القسوس ، كما يعلم ذلك كلّ متتبِّع لحركات التبشير . والظاهرُ أن هذه الحملة الصليبية الجديدة ، كانت قد هُيِّئتْ لها خطط جديدة ، أوجبها طول الاحتكاك داخل هذه البلاد بأهلها وسكانها وطوائفها ، وتجديد الفهم لحقيقتها وما هو كائن فيها . فلسْتُ أجده عجيبًا إذن أن يتفق فى عام واحد تقريبًا (سنة ١٨٨٠ ، وسنة ١٨٨١) ، ظهور كتاب « سبيتا » الداعى إلى استبدال العامية بالفصحى ، وظهور مقالة « المقتطف » ، الداعية إلى مثل ذلك ، وأن تكون حججهما واحدة فى صعوبة الفصحى ، وفى بُعْد لغة الحديث عنها كبعد الإيطالية من اللاتينية ، وأن يتشابه المكر فى الموضعين بقياس فاسدٍ متخالف الأجزاء .

لست أجدُ هذا اتفاقًا عجيبًا من ألمانى أعجمىِّ اللسان ، مقيم فى دار الكتب المصرية ، وعربىّ اللسان مقيم فى بيروت حيث أكبر مؤسسة تبشيرية أنشئت سنة ١٨٦٥ بأموال الإنجليز والأمريكيين ، وتخرج هو على أساطين التبشير فيها ، وهى « **الكلية السورية الإنجيلية** » المعروفة اليوم باسم « **الجامعة الأمريكية** » . وهذا دليل ظاهرٌ من حال الرجلين ، وفى كلام كلٍّ منهما دليل ظاهر وباطِنٌ أنه حقٌّ ويقين ، أنهما إنّما تلقَّيا إشارة البدء فى الشأم ومصر من جماعات التبشير أو مؤتمراتهم الأخيرة ، وأن هذا الذى كتبا من الرأى المتواطئ فى معانيه ودلالاته وتشبيهاته ، يدلّ على أنَّ الأمرَ بتفاصيله كانَ مبيَّتًا مدروسًا ، قد طال الإعدادُ له ، وكثر تساؤُل المتشاعرين به متى يحينُ حينُه ، كما دلَّ على ذلك أيضًا كلام محرر المقتطف سنة ١٨٨١ ، وهو مقيم فى بيروت ، وسنة ١٩٠١ ، وهو مقيمٌ فى مصر . ودلَّ ما كان من أمرهما على أنه لم يكن يُرَاد إثارة هذه الفتنة بمرَّةٍ واحدةٍ علانيةً فى كل مكان ، خوفًا من أن تنشأ قوة تقضى على الأمر كُله فى مهده ، بل كان يُرَادُ أن تكون فى أضيق الحدود .

وخبر ذلك أن « ولهلم سبيتا » ، كتب كتابه بالألمانية فى مصر ، ومن يعرفُها من المصـــريين قليلٌ من الدارسين فى البعثات ، وبعض أصحاب الثروة والسلطان . وإذنْ فالغاية المرجوّة منه محدودة بأضيق الحدود ، وفى نطاق عدد قليل ، كأنه هو وحده المخاطب عند صدور الكتاب بما فى الكتاب . وهذا أفعلُ ، لأن الذى يقرؤه ، يعدُّ نفسه فى الناس كأنه وقع على خَبِيءٍ مكنوزٍ ، فهو لا يهدأ حتى يبوحَ به تلميحًا وتعريضًا إذا خافَ التصريح . وعن هذا الطريق يستطيع « سبيتا » أن يعرف أثر مقالته التى ساقها فى مقدمته مجازفًا كما قال ، وراحمًا للشباب مما يعانون من تعلم الفصحى !! ومتحرِّقًا على أن الأدب الحقيقى لا ينمو بالتزام الكتابة بالعربية الكلاسيكية القديمة !! وما شئت بعدُ من عواطف الحبّ التى يعالجها هذا المبشر الألمانى للشعب المصرى !!

وأما « المقتطف » فقد وقفتُ فيه على عجيبة مذهلة !! ، لم أر لها مثيلًا فيما عرفت من المجلاّت ! وذلك أنى فوجئت بأن المجلّد السادس منه ، وهو مجلد السنة السادسة من حزيران سنة ١٨٨١ طبع من كلٍّ عددٍ منه طبعتان ، إحداهما خالية من هذه المقالات التى بدأها فى تشرين الثانى ١٨٨١ ، بعنوان « اللغة والنجاح » وردّ خليل اليازجى عليه فى كانون الأول ١٨٨١ ، وتعقيب المتنكر تحت اسم « الممكن » على محرر المقتطف وعلى ردّ اليازجى ، وتأييده اتخاذ العامية لغة للكتابة ، فى كانون الثانى ١٨٨٢ ، وما نشر فى عدد شباط ١٨٨٢ باسم الجمعية الأدبية الدمشقية ، وما كتبه أسعد داغر ، ثم رد « الممكن » عليهم فى آذار ١٨٨٢ ثم متابعات أخرى للموضوع فى نيسان ١٨٨٢ ، وما بعده ، فهذا كُلُّه وأمثالُه لا وجود له فى المجلد المختصر ، وعدد أوراقه ٣٢٨ صفحة ، وموجود فى المجلد المطوّل ، وعدد أوراقه ٧٦٠ صفحة .

فهل لهذا الأمر الغريب علاقةٌ بتوزيع المطوّل فى مكانٍ دون مكان ، وقصر توزيع المختصر على مكان بعينه ؟ هذا والله أمر يحيِّرنى ؟ وقد تابعتُ ما كتب فيه ، فلم أجد أحدًا من أهل مصر شارك فى معالجة هذه القضية إذ ذاك ، فكأن هذه المجلّة كانت مجهولةً هُنَا ، معروفة فى بيروت ونواحيها ، أو كان المختصر هو الذى يرسل إليها دون المطوّل .

فمجيء هذه الدعوة فى مصر وفى الشأم على هاتين الصورتين المتباينتين فى الظاهر ، لم يكن يرادُ به إلاّ إحداث صَدْعٍ فى النهضة ، وبثُّ بلبلة ، واستحياء فتنةٍ ، إلاّ تكن جهرًا فى كلّ مكان ، فهمسًا فى مكان دون مكان ، لا لليوم الحاضر ، بل لغدٍ سوف يأتى فلا يكون همسٌ ، وعَسَى أن يوجد فى مصر من أنفس المسلمين ، من توافق هذه المقالة هواه ، فيتولَّى هو إذاعتها بين الناس ، ويكون ذلك أحسن تحقيق لوصية القس « زويمر » ، لمن خرَّجهم من المبشرين ، إذ قال لهم : « تبشير المسلمين يجبُ أن يكون بلسان رسولٍ من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعَها أحدُ أبنائها » . (وبيّن أن ما ذكره لويس عوض فى تجربته فى شأن العامية أيضًا ، والتى نقلتها آنفًا من بلوتولند ، إذ قال : إنه سكت مؤثرًا أن يتولى الدفاع عن رأيه مسلم لا مجال للطعن فى نزاهته = إنما هو قول متوارث لقَّنه إيَّاه بعض من تولّى تدريبه فى « الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج » ، أو كما قال .) .

وعلى الحالين جميعًا ، فظاهر من السياق ارتباطُ أوّل داعيتين إلى استبدال العامية بالفصحى ، ارتباطًا وثيقًا بوسائل التبشير وتوجيهاته وأغراضه وأعماله ومراميه . وليس من جاء بعد هذين ، وهم « فولرس » الألمانى (١٨٩٠) والإنجليزيان « ويلككس » (١٨٩٣) ، « وولمور » (١٩٠١) ، بأوهن منهما رباطًا بالتبشير ، بل لعلّ العكس هو الصحيح ، لأنَّهم فضْلًا عن تظاهر الأدلة على وثيق ارتباطهم به ، فإنهم إنما جاءوا أيضًا فى زمن الاحتلال الإنجليزى الذى كان التبشير مقدمةً له أولًا ، ثم محققًا بعدُ لسياسته ، وناشرًا لمكائده ، وساعيًا فى تثبيت قواعده ، وذلك بأعظم وسيلة يملكها التبشير ، وهى التعليمُ ، كما أسلفنا من صفته .

* * *

وإذا شئت أن تعلم مقدار تكافُل التبشير والسياسة وتعاونهما على إذلال الأمم والرجال وتحقيرهم وإيذائهم بأصفق ما يتسنّى لإنسانٍ من الوَقاحة وغِلَظ الوجه ، وجَلافة التركيب الأخلاقىّ ، وبذاءة النفس الملوثة فى داخلها بالحقد والاحتراق ، فانظر كيف جاء « التبشير » تحت راية الاحتلال الإنجليزىّ ليعقد مؤتمرًا فى القاهرة ،

فيأبى على « زويمر » القس المبشر حُسْنُ خُلُقه ، وتمام ديانته ووَرَعُ نفسه ، إلاّ أن يكون انعقاد المؤتمر فى بيت زعيم الثورة وقائد النهضة ، « أحمد عرابى » المسلم العربى ، فيفتتح « زويمر » برئاسته هذا المؤتمر فى ٤ إبريل سنة ١٩٠٦ فى القاهرة فى بيت عرابى ، فى باب اللوق ، والرجل يومئذٍ عادَ من منفاه ، وحُرِم ماله ودارَه ، فهو مقيم ببيت أولاده بشارع خيرت . وحسبك أن تعلم أن أحد هؤلاء المؤتمرين قد وقف تحت سقف هذا البيت ، يعرض اقتراحًا : بإنشاء مدرسة جامعة نصرانية تتولى كلّ الكنائس المسيحية الإنفاق عليها ، لتتمكّن من مزاحمة الأزهر بسهولة [١] ، ثم ختم كلامه بهذه العبارة :

« ربّما كانت العزة الإلهية قد دَعتنا إلى اختيار مِصر مركز عملٍ لنا ، لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الإسلامية » .

لم يكن مؤتمرًا للتبشير ، بل كان مؤتمرًا لانتقامٍ خسيسٍ لا يصدر عن قلب سليم أبدًا . وكذلك كان فعلهم فى عشراتٍ من الحوادث ، وتلك كانت آدابهم ، فكيف يلام تلميذٌ لهم إذا نشر فى مناسبة الإسراء والمعراج ، بما يتوارث من هذه الأخلاق ، كلامًا لا يليقُ أن يقالَ ، وبأسلوب صاحبنا الذى ظنَّ العزة الإلهية قد دعته إلى مصر ؟ يا سبحان الله ! وإلى قريب حتى نفرُغ من أخطار هذه القضية .

---

(١) هذه الدعوة تمخضت عن « الجامعة الأمريكية » بالقاهرة .

... وَهٰـذِهِ هِىَ أَخْبَارُهَا

الرسالة

الخميس ١٩ رمضان سنة ١٣٨٤

٩

مرَّةً أخرى ، ثم مرةً أخرى ، ثم مرةً أخرى ، أحبُّ أن يعلم من لم يكن يعلمُ ، أنى أمرؤ لا تُرْهبُه بوارق الوعيد ، ولا تثنيه لوائح التهديد ، ولا تَهُوله ألفاظٌ محفوظةٌ تلوكها الأقلام الذاهلة ، وتمضغُها الأفواهُ المتلمِّظة . وأنّى مذ خفتُ الله وحده ، لم أطوِ قلبًا على مخافة أحد من عباده ، وأنى مذ فرغتُ من أن أشرك بالله أحدًا ، لم تَرُعْنى كلمة أُوصَفُ بها سوى « الشرك بالله » . وكلُّ صفةٍ بعد هذه ، فمصيرُها عندى ما قال زيادٌ فى خطبته البتراء : « أن أجعلَها دَبْر أذنى وتحت قَدمِى » ، إلاَّ أن أكون مُبْطِلًا فى قولٍ أو فِعْلٍ ، فعندئذٍ أؤوب إلى الحقّ صاغرًا خاضع العنق ، لا تأخذنى دون ذلك عزة بالإثم ، ولا يمنعنى منه حياءٌ أو كبرٌ أن أُقِرَّ علانية بخطأ كان منّى ، أو زَلَلٍ تردَّيتُ فيه . وأستغفر الله وأتوب إليه ، إذ ألجأنى من ألجأنى إلى أن أصفَ للناس نفسى ، بما لا ينبغى للمرء أن يعتادَه من التمدُّح ، فإنّه يوشك أن يكون بابًا من الأبواب الخفية إلى النفاقِ .

وخبر ذلك أنى ظللتُ أكتب للرسالة ثمانية أسابيع ، كتبت فيها ثمانى مقالاتٍ ، وألزمتُ نفسى مقالةَ الحق بلا جمجمةٍ أو دِهانٍ فيما أقولُ ، ولزمت طريق الإبانة عن حقائق ما أكتبُ عنه ، بلا رغبة فى ثناءٍ من أحدٍ ، ولا رهبةٍ من مَذَمّةٍ تجىء من خَلْقٍ ، ولا خشية إفْكٍ أُرْمى به أنا منه برىء . ثم فوجئت بشىء غريب جدًّا ، لم يكن مثله يخطُرُ لى ببالٍ . ولولا ما أجدُ من تبعةِ هذا القلَم ، ومن شعور بحقٍّ قارئ الرسالة علىَّ ، لما شغلتُه به . وكان من حق القارئ علىَّ أن لا أخليه من متابعة ما يقال عمَّا أكتب فى الرسالة ، إذا كان قائله قد استودعه مكانًا غير مجلة الرسالة . وذلك أنى رأيتُ الزميل محمد مندور ، قد أنشأ كلماتٍ حول شىء سماهُ « معاركنا الأدبية » ألقى بعضها فى الإذاعة ، ثم نشرها فى مجلة « روز اليوسف » . فكتبت إلى مجلة « روز اليوسف » كلمة مختصرة أردّ عليه مقالته حيث نشر كلامه ، ولكن عَسَى أن

لا يكون قارئ الرسالة قد اطلّع على ما قال الدكتور مندور ، فمن أجل ذلك أحببتُ أن ألخص له فَحْوَى ما قال .

زعم الزميل القديم أن هناك « معركتين تدوران فى الصحف والمجلات ، إحداهما حول الشعر ، والثانية حول أبى العلاء المعرىّ وتراثنا القومىّ كله » !! وبعد أن أفاضَ فيما قال عن معركة الشعر ، التفت إلىّ كى يقول : « ولسوء الحظّ عاصرتْ هذه المعركة الضالة ، معركة أخرى أثيرتْ حول ما كتبه أحدُ كبار مثقفينَا عن أدب الرحلة فى العالم الآخر » ، ويعنى بذلك لويس عوض وأنا بلا ريب ، لا أنكر على الدكتور مندور حقَّه فى أن يصف لويس عوض بما يشاء ، فهو مسئول عما يقول ، ولكن أنكر عليه أن يسمّى هذا الذى أكتب « معركة » فهذه مبالغة لا أحمَدُها لَهُ ، فإن الذى أكتبه ليس « معركة » بل هو كما بيّنتُ مرارًا : كشفٌ عن تزييف إنسانٍ يحملُ لقبًا ، لا أدرى كيف حمله ، غرَّ بعضَ الناس حتى زعموه « مثقفًا » ، وليس به ، بل هو ممخرقٌ عظيم المَخْرَقة على الناس . وهذا أحدُ الأسباب التى جعلتنى أوقن أن الدكتور مندور ، لم يقرأ حرفًا مما كتبتُ فى الرسالة . ولا علىَّ من ذلك ، ولكن الذى علىَّ أن أعاتب الزميل القديم ، إذْ دلَّ ما كتبه على أنّه لم يقرأ أيضًا حرفًا مما كتب لويس عوض ، لأنه لو كان قرأه لما أنشأ هذه الكلمات التى أذاعها ، ثم نشرها فى « روز اليوسف » .

وحسبُك أن تعلم أن لويس عوض قال إن أبا العلاء تعلم باللاذقية ، وأخذ آداب اليونان وفلسفتهم فى لغتها الأصلية ، من راهب دير اللاذقية ، وهو دير الفاروس . فيأتى الدكتور مندور فيقول : إن لويس عوض اجتهد فى البحث (!!!) عن تأثر أبى العلاء باليونانيات ، « ويدعى أن هذا التأثر تَمَّ بواسطة راهب يونانى اتصل به أبو العلاء فى حلب وأفاد منه » ، فهذا الخلطُ كُلُّه لا يأتى من قارئ قرأ ما قاله لويس عوض ، ثم قرأ ما كتبتُه وردّدته عشرات المرات فى المقالات التى ينقدها ، ويُنصِّب نفسه حَكَمًا عليها .

ولا علىَّ أيضًا من ذلك إن شئت ، ولكن الذى علىَّ أن أجعل كُلّ قارئ للرسالة حَكَمًا فيما كتبتُ : هل وجد أحدٌ أنى لجأت إلى « التجريح الشخصى ، وإلى الأسلحة غير الشريفة ، وإلى إثارة فتنة قومية ودينية » ، كما يقول الدكتور مندور ؟

أصحيح هذا ؟ إذا كان الدكتور مندور مستهينًا بالألفاظ التى تجرى على لسانه ، أفيظنُّ أن الناسَ يستهينون بعقولهم التى بها يفكّرون ؟ ثم من يكون لويس عوض هذا ، حتى أرتكب له هذه الخَساسات التى ينسبُها إلىّ زميلٌ قديمٌ ؟ وإذا كان هذا الإنسان معدودًا عند الدكتور « أحد كبار مثقفيه هو » ، فهل يظنُّ أن أحدًا يوافق على أنّ هذا الخَلْقَ الذى لا يمثّل شيئًا ، يمكن أن يمثل « طائفة قومية » ، و« فرقة دينية » ، حتى يكون ما يكتب عن كشف زَيْفِه ، وإماطة اللِّثام عن نَكارة جهله ، واضطراب تفكيره ، واختلاط عقله ، سببًا فى إثارة فتنة قومية ودينيّة ؟ هذا عجبٌ فوق كُلّ عجبٍ !!

ومع ذلك فهذه الألفاظ الجريئة التى لا يستحلّ رجلٌ غير مستهين بالناس ، أن يصفَ بها أحدًا من الناس بلا بيّنة ، إنما هى ألفاظ ممجوجة قد ملّتها الأسماعُ منذ قديمٍ ، يوم كانت تتخذ أداةً للإرهاب وإسكات الألسنة والأقلام ، والدكتور خبير بما أعنيَ ، فيما أظن . وللدكتور مندور ما شاء من الحق بعد اليوم ، أن يستخدم هذه الألفاظ ما حَلاَ له استخدامُها وطاب مذاقُها فى فمه ، ولكن ليعلم أنها ألفاظٌ باليةُ المعانى ، لا تُخِيفنى ولا ترهبنى ، ولا تمنعنى من وضع هذا الإنسان فى حَاقِّ موضعه من حركات التدمير التى تُراد بأهلى وعشيرتى وبلادى ، رفض ذلك الدكتور مندور أم لم يرفضه . وهى أيضًا لن تمسك قلمى عن تمزيق هذه الظُّلُمات التى يتخفّى فيها هو وأمثاله ، رحّب بذلك الدكتور مندور أم لم يرحّب ، فإنه يقول فى كلمته التى أنشأها فى روز اليوسف ، « إنى أرحّب بكلّ معركة أدبيّة أو فنية نظيفة (هكذا قال !!) ، ولكنّى أرفضُ كلّ الرفض التجريح الشخصى ، والتهم الخطيرة الباطلة (وهكذا يقول أيضًا !!) التى يجبُ منعها (وهكذا يقول أيضًا !!) ، حتى لا تثير فتنًا قومية ودينية ما أغنانا عنها ، وما أحوجنا إلى عكسها » !! أو كما قال ! ورحم الله شيخ المعرّة إذ يقول :

وكيفَ يُؤَمِّل الإنسانُ رُشْدًا ... وَمَا يَنْفَكُّ مُتَّبِعًا هَوَاهُ ؟

يَظُنُّ بِنفْسِهِ شَرَفًا وقَدْرًا ... كأنّ الله لمْ يَخلُقْ سِوَاهُ !

ما أحوج كُلّ امرئ منا إلى عِظَة هذا الشيخ الجليل ، رحمه الله ، وغفر له ، وجعَل كُلّ لسانِ سُوءٍ محمَدةً له عند ربّه ، يوم يقوم الناسُ لرب العالمين .

هذا ، وإذا كان الدكتور مندور ، يَعُدُّ نفسه ناقدًا ، ويعدُّه الناسُ كذلك ، فأوَّل شرطٍ يجب أن يشتمل عليه الناقد ، هو الإحاطة بما يتكلَّم فيه ، حتى تصبح الإحاطة قبل الحكْم خليقة وسجيةً لا يبذل فى صقلها جهْدًا ، ولا يلقَى فى استخدامها عَنَتًا . وهذا أمرٌ مفروغ منه فيما أظن ، إلاّ أن يكون « النقد » قد تغيّر وتغيّرت شرائطُه فى زمان لويس عوض (معذرة ، إذا قلت ذلك ؟) ، الذى يعدُّه الدكتور مندور « طائفة قومية ، وفرقة دينية » !! إذا كانت هذه خليقة الناقد ، فبأىِّ خليقة استباحَ الدكتور الناقد أن يقول : « من الثابت أن أبا العلاء المعرّى لم يكن ثابتًا على دينه الإسلامىّ متمسّكًا به ، بل لقد اتُّهِم اتهامًا أكيدًا بالإلحاد والزندقة » . من الذى أخبر الدكتور مندور أن هذا ثابت وأكيد ؟ وهل أحاط علمًا بما يدّعى ثبوته وأكَادته ؟ (وهذه لفظة جديدة ، استعملتها للدكتور خاصة !) . إذا كانت الأحكامُ الأدبية تلقى على الناس بهذا القدر من الاستهانة ، بلا تورُّع ، وبلا إحاطة ، فأىُّ قيمة للآداب تبقى عند الناشئة ممن يجلّ الدكتور مندور ويتثقف على يديه ؟

وأنا بحق زمالتى القديمة ، وبحق معرفتى بالدكتور ، كنت أربأ به عن هذه الاستهانة ، وكنت أتمنّى له أن لا يدعَ لشىء ، مهما عظُم ، سلطانًا على أحكامه الأدبية ، لأنّه إذا خَلَط هذه الأحكامَ مرَّةً بالتسرّع والحَيْف وقلة الإحاطة ، سقطت الثقة بأحكامه فى مئاتٍ من المرّات . وكُلُّ مبتدئ من تلامذته ، يستطيع أن يرجِع إلى عشرات من الكتب ، قد نظرت فى دين شيخ المعرة ، ونقدت الأخبار والأشعار التى ساقَها من ساقها للدلالة على فساد دين الشيخ ، فيرى فيها برهانًا أقوم على سَلاَمة دينه ، وعلى التزامه شرائع ربّه ، فكيف يقول إذنْ ، إذا سَمِع الدكتور يثبت ويؤكد فساد دين الشيخ بلا برهان انتزعه من كتبه ودواوينه ، وبلا بيّنة أو حجة ؟ أهكذا يتصدّر الناسُ للقضاء فى مثل ذلك الأمرِ العظيم ؟ وأىُّ فرقٍ يبقى بين الدكتور مندور ، وهو من هو ، وبين لويس عوض ، هذا الدعىّ الذى لا يحسنُ شيئًا إلا الثرثرة الفارغة ؟ ولم يفعل الدكتور ذلك ، ويرتكب هذا الحكم الجائر بلا تردّدٍ ؟ ألأن شيخ المعرَّة قد ماتَ وبليت عظامُه منذ أكثر من ألفِ سنة ، فلم يبق على ظهر الأرض حىٌّ يدفَعُ عنه ، أو يتكلَّم عنه ، كما يجد لويس عوض من يدفع عنه أو يتكلّم عنه ؟ ورحم الله الشيخ ، كأنه كان ينظر بعين الغيب إلى ما سيلقاهُ بعد موته إذ قال :

متَى عَدَّدَ الأقوامُ لُبًّا وفِطْنَةً   فَلاَ تَسْأَلِينِى عَنْهُما وسَلِى بِى
أُفارِقُهُمْ ، مَا العِرْضُ مِنِّىَ عِنْدَهُمْ   ثَلِيبًا ، ولا عِرْضٌ لهُمْ بِثَلِيبِ
وهانَ عَلَى سَمْعِى إذَا القَبْرُ ضَمَّنِى   هَرِيرُ ضِبَاعٍ حَوْلَهُ وَكَلِيبِ

ولو أطاق الدكتور مندور أن يقرأ ما كتبتُ فى مجلّة الرسالة ، لعلم أن أمر اتهام الشيخ بفساد الديانة ، دُونه أشواكٌ مبعثرةٌ من الشكوك ، لا يليقُ بدارسٍ بعد اليوم أن يتجاهلها أو يغفلَها . وذلك لأن الدراسة الأدبية لآثار الرجال من كُتّاب وشعراء ، لا تقوم على التسليم بالأخبار الملفقة التى يلقيها مستهزئٌ ، أو مبغضٌ ، أو حاقدٌ ، أو غافِلٌ ، أو عِلْجٌ من علوج الروم ، أو زاقولٌ من زواقيلِ الجزيرة ، بل تقوم على نقد الأخبار ومصادرها ومواردها بتمحيصٍ مسئولٍ عما يقولُ . وعازٌ على أستاذ دارس أن يتقمَّم الكلمات من أفواهِ الناس بلا شكٍ ، وبلا عَرْضٍ لهذه الكلمات على الآثار نفسِها ، بأمانة وصدقٍ وجدّ ، وبلا استهانة كاستهانة جُلاّس المقاهى وأحلاس الأرصفة !! ممن لا همَّ لهُمْ إلا التشدُّق بالألفاظ المستظرفة على ثِقَلها ، والنظرات المتهكّمة على غثاثتها وبَرْدِها . وليعلمْ من يحبُّ أن يعلم ، أن الدراسة الأدبية جدٌّ لا مزاح فيه ، وأنّ أمّةً تسلك طريقَ الهزلِ والتماجُن ولَوْكِ الألفاظ المتشنعة تظرُّفًا فى دراسة آدابها ، أمةٌ قد قضى الله عليها أَنْ تكون هَلاَكًا مجسّدًا ، وبلاءً مصبوبًا ، على ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

* * *

وما دام الدكتور مندور ، قد صرفنى عن متابعة ما كنت فيه من شأن هذا الدعىّ المتخابث ، الطوَّاف على المجالس مناجيًا بإثمه وحِيَله ومكايده وعَبَثه ، ملقيًا فى الآذان أنّى أريد « فتنة قومية ودينية » (أعنى لويس عوض قائل ذلك !) ، مُنْذُ بدأتُ أوّل مقالةٍ كتبتُها للرسالة ، ولم يزل يرددها حتى صدّقها رجُل مثل الدكتور مندور ، فردّدها فيما يقول عنّى – ما دام الدكتور مندور قد صرفنى إلى مثل هذا الهَذَر ، فإنى لمنصرفٌ إلى ما كتبه فى مجلة « روز اليوسف » فيما سماه « معركة الشعر » ، وإن كنت غير راغبٍ أن أتعجَّل هذا الأمرَ قبل أوانه من مقالاتى هذه . ولكن هكذا أراد الدكتور مندور ، وهكذا عَجِلَ القَلَمُ . ولكنى لن أدخُل الأمرَ من مدخله الذى كنت

أتوقَّع الوُلُوج منه ، بل من حيث أراد الدكتور مندور نَفسُه أن أدخل ، بأن جعل المعركتين ، فيما زعم ، فى قرن واحد ، ووصفهما بصفة واحدة ، إذ قال بعد كلامه الذى نقلته فى صدر الحديث : « حيث أخذت تتسلّل إلى هاتين المعركتين (!!) عناصر تجريح شخصى غير كريم ، واتهامات قومية وسياسية غير شريفة (العياذ بالله من الألفاظ !) » . والذى يحملنى على الانصراف إلى هذه المقالة فى الشعر ، أنّ الأمرَ فى نقد « المعركتين » مبنىٌّ كله فيهما على الاستهانة بخطر الألفاظ والأحكام ، وقائمٌ على عدم الدِّقة والضبط فى تحديد المعانى ، وعلى إذابة الجدّ فى ماء عَكِرٍ من الهَزْل ، بلا توقُّف ولا أناةٍ .

* * *

يقول الدكتور مندور : « وأكثر خطَرًا وضَراوةً وضررًا من تهمة الخروج على القومية العربية ، ممثَّلةً فى الإطار التقليدى للقصيدة ، تهمة الخروج على الإسلام ، بدعوى أن هذا الشعر الجديد يستخدم أحيانًا ألفاظًا كثيرة التردّد فى دين كريم يعترف به الدين الإسلامىّ نفسه ، كالدين المسيحى ، مثل لفظة « الخطيئة » ولفظة « الخلاص » ولفظة « الصلب » ، فهذه تهمة غبيّة . ونحن المسلمين نعتبر جميع الديانات السماوية جزءًا من تراثنا الروحىّ ، بل جزءًا من التراث الروحى للبشرية جمعاء . ونحن حتى لو افترضنا العكس ، لما جاز هذا التخبط فى الاتهام ، مراعاةً لمشاعر إخواننا فى الوطن الذين شاركونا دائمًا أفراحنا وأحزاننا ومعاركنا الوطنية الكبرى ضدّ الاستعمار والرجعية والإقطاع والرأسمالية الجشعة ، وهم إخواننا وأشقاؤنا الأعزاء الأقباط » . انتهى كلام الدكتور مندور !

وقبل أن أبدأ فى بيان ما أريدُ من خطر هذه الكلمات المختلطة التي تُلقى بلا حساب ، أحبُّ أن أسألَ سؤالًا ، لا أوجهه إلى الدكتور مندور ، بل لكُلّ من لا يدينُ بالإسلام من المواطنين : ما الذى يجرح مشاعرَ أحدٍ منهم ، إذا قلنا إن لفظ « الخطيئة » ، و « الخلاص » ، و « الفداء » ، و « الصلب » ، وهى ألفاظٌ ذات دلالات واضحة فى العقيدة المسيحية ، ليست لها هذه الدلالات عندنا نحن المسلمين ، وليس لها تاريخ أو أثر فى حياتنا ، كتاريخها وأثرها فى حياتهم ، وأن المسلم إذا استعملها ، فإنه يستعمل ألفاظًا لا تؤدّى معنى واضحًا فى نفسه ؟ وبلا

ريب ، لا يستطيع مجيبٌ أن يقول : إنّ هذه المقالة تجرحُنى وتؤذى مشاعرى ! فإنه عندئذ يكون متجنّيًا أكبر التجنّى ، فى إلزام من لا يدينُ بدينه ، أن يدين بمدلولات ألفاظ لا أصل لها فى عقيدته . أليس كذلك ؟ فاستخدام الدكتور مندور ، « أسلوب الحكيم » فى عرض هذه المسألة ، ضربٌ من المغالطة ، وتحويل للأمر كُلّه عن مستَقِرّه ، وإدخالٌ للسفسطة فى مقام لا يحسنُ فيه إلاّ صريح العقل والمنطق . وإذا جاز للدكتور مندور أن يقول هذا للمسلمين ، حتى ينتهوا عن إنكار ذلك على مَنْ يستعمله ، لجاز أيضًا لمن يعكس الأمور من المسلمين أن يقول لأهل المسيحية : أرجوكم أن لا تستعملوا لفظ « الخطيئة » ، و « الخلاص » ، و « الفداء » ، و « الصلب » ، لأن ذلك يجرح مشاعر المسلمين ؟ أمن العدل أن يطالبَ أحدٌ نصرانيًا بمثل هذه الحجة المتهافتة ؟ هذا خَلْفٌ من القول ردىء .

وأمرُ الدين أمرٌ جلل ، لا يقضى فيه الدكتور مندور ، أو لويس عوض ، أو غيرهما ، بما يشتهى هو ويحبُّ ، بألفاظٍ يراهَا هو دالَّة على معنًى مفهوم ، وهى لا دلالة لها إلاّ على سوء تصوُّر الأمور المشكلة التى تُفضى إلى أكبر الأخطار . فقول الدكتور مندور « إننا نحن المسلمين نعتبر جميع الديانات السماوية جزءًا من تراثنا الروحىّ للبشرية جمعاء » ، قولٌ لا يقوم على ساقٍ صحيحة ولا ساق عرجاء ، وليس يصحُّ له أن يُذيعَ مثل هذا على الناس ، بلا احتفالٍ ولا تقديرٍ لدلالاته . وأقلُّ ما فيه من الخطأ أنّ قائله لا يحسن أن يفرق بين معنى « الديانة » كما يعرفها كُلّ ذى دينٍ ، وبين معنى « الكتاب » الذى أنزله الله على نبىّ من أنبيائه . فالمسيحى مثلًا ، لا يعدُّ الديانة اليهودية ولا الديانة الإسلامية جزءًا من تراثه الروحىّ ، وإلاّ انتقض عليه دينه = واليهودى أيضًا ، لا يعد الديانة المسيحية ، ولا الديانة الإسلامية جزءًا من تراثه الروحىّ ، وإلا انتقض عليه دينه = وكذلك المسلم ، لا يعدّ الديانة اليهودية ولا الديانة المسيحية جزءًا من تراثه الروحىّ ، وإلا انتقض عليه دينه ، لأن كل ديانة من هذه الثلاثة عقيدة شاملةٌ منتزعة من كتابها كما هو عندنا ، وكما تفسّره ، وكل عقيدة مِنْها تنقُض كثيرًا من عقائد الديانتين الأُخريين ، فغير معقول بوجهٍ من الوجوه أن تعدّ شيئًا مما تنقضه جُزءًا من تراثها الروحى ، إلا إذا كان معنى « التراث الروحى » متّسعا للتناقض الذى لا يقبله عقل عاقل !!

فنحن المسلمين إنما أُمِرْنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأن الله تعالى أنزل التوراةَ على موسى عليه السلام ، وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم عليه السلام ، وأنزلَ القرآن على محمد ﷺ بالحق مصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمِنًا عليه ، أى شاهدًا عليها أنها حقٌّ من عند الله ، أمينًا عليها ، حافظًا لها ، فما وافقَ القرآن فهو الحق ، وما خالفه ، فالله حاكم بيننا وبينهم فيه يوم القيامة . وهذا بلا ريبٍ صريح المعقول . أمّا أن يكون ما وافق القرآن وما خالفه جميعًا جزءًا من التراث الروحىّ للمسلمين وغير المسلمين ، فهذا إبطالٌ لقضية الدين كُلِّها ، ويكون معناهُ عندئذٍ أن تنمحى جميع الفروق بين الديانات وخيرٌ للناسِ يومئذ أن يعترفوا جميعًا ببطلان دياناتهم ، ويلتمسوا لأنفسهم دينًا آخر يجتمعون عليه . وهذا شىء لا يقول به أحدٌ من أهل الأديان .

* * *

وندعُ هذا الخلط فى كلام الدكتور مندور ، إلى دلالة الألفاظ التى سبق أن ذكرت فى مقالتى الخامسة أن لويس عوض ، منذ ملأه مالئه فى « الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج » ثم أطلقه خلال الأدب عامّة ، والآداب العربية خاصة ، لا يكاد يرى فى سماديره إلا « **الصلب** » و « **الخلاص** » و « **الفداء** » و « **الخطيئة** » . ولا يكاد يرى ما يكتبه الكتاب والشعراء ، كتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، وصلاح عبد الصبور ، وغيرهم ، إلا مقرونًا بهذه العقائد . وهذه الألفاظ هى نفس الألفاظ التى جاءت فى مقال الدكتور مندور ، وأفتى فيها بما أفتى !!.

* * *

وهذه الألفاظ الأربعة ينبغى أن تدرس بلا غموض ولا إبهام ، كما يحاول ذلك من يحاوله من صِبْيان المبشرين ، وبلا استهانة بدلالاتها كما يحلو ذلك للدكتور مندور وغيرِهِ ممن يعدُّها رموزًا لتُراثٍ روحىٍّ ، لا بأس على المسلم فى استعمالها . كلاّ ! إن على المسلم كل البأس ، لأنه طريقٌ محفوفٌ بالمخاطر ، لمن صدق نَفْسه ، وعرفَ حُرْمة الكلمة كيف تقال ، وكيف تفسَّر ، وكيف توضع فى موضعها .

وترتيب هذه الكلمات الأربعة فى دلالتها عند القوم يأتى هكذا « الخطيئة » ثم « الفداء » ، ثم « الصلب » ، ثم « الخلاص » .

وتلخيص معنى هذه الألفاظ الأربعة فى العقيدة المسيحية : أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم من تراب وقال له : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، فأزَلَّهما الشيطان عنها . فبهذه المعصية كما نقول نحن ، وهى « **الخطيئة** » عند النصارى ، أصبحا هما وذريتهما تحت سلطان هذه الخطيئة ، لا ينفكّون منها ، واستحق البشر جميعًا ، بخطيئة والديهم ، عقاب الآخرة وهلاك الأبد ، وهذا هو ناموس العدل الذى لا يتغيَّر ، يستحقه من عصى الله سبحانه عندهم ، ومن ورث خطيئة آدم وزوجه ، فإن عاقب الله آدم وذريته على خطيئتهم بهلاك الأبد ، فذلك ما يوجبه نَامُوس عدله فى حكمه ، ولكن ناموس رحمته يستوجب العفو عنهم ، فناقض ناموس العدل ، ناموسَ الرحمة ، فتطلَّب الأمر شيئًا يجمع بين الرحمة والعدل ، فكانت الفِدْيَة التى يتم بها ناموس العدل ، ويتحقق بها ناموس الرحمة . ولكن ينبغى أن تكون الفِدْية طاهرةً غير مدنّسَة . وليس فى الكون ما هو طاهرٌ بلا دنس إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن تعالى الله عن أن يكون فِدْيَةً ، فأوجبت المشيئة أن يتخذ جسدًا يتَّحد فيه اللاهوت والناسوت ، فاتَّحدا فى بطن امرأة من ذُرِّية آدم هى مريم ، فيكون ولدها إنسانًا كاملًا من حيث هو ولدها ، وكان الله = تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا = ، فى الجسد إلهًا كاملًا ، فكان المسيح الذى أتى ليكون فدْية لخلقه ، وهذا هو « **الفداء** » . ثم احتمل هذا الإنسان الكامل والإله الكامل ، أن يقدِّم ذبيحة ، ليكون ذبحه تمزيقًا لصَكِّ الدَّيْنُونَةِ المُصْلَت على رأس بنى آدم ، فمات المسيح على الصَّليب . فاستوفى ناموس العدل بذلك حقَّه ، واستوفى ناموس الرحمة بذلك حقه ، وهذا هو « **الصلب** » . وكان احتمال ذلك كُلِّه كفارةً لخطايا العالمين ، تخلّصهم من ناموس هلاك الأبد ، وهذا هو « **الخلاص** » . ولما كان البشر كلهم خُطَاةً بخطيئة أبيهم آدم وأمهم ، فهم هالكون هلاك الأبد ، ولا ينجيهم من عقاب الشريعة الإلهية العادل المخيف ، سوى إيمانهم بالمسيح الفَادِى ، وبحضوره فى كل وقت فى قلوب المؤمنين ، فى الفرح والحزن ، والشقاء والسعادة ، فهو الذى يؤازرهم بما

يحتاجون إليه من العون والحكمة ويخلصهم من ثقل الخطيئة ، وينجيهم من العقوبة المستحقة عليهم منذ كانت الخطيئة الأولى .

* * *

وهذه « **الألفاظ الأربعة** » لا تعامل معاملة أشباهها ، من جهة دلالتها على عقيدة متكاملة . فالخطيئة ، فى لغة العرب الجاهلين ، ثم لغة المسلمين ، لا تحمل شيئًا من معانيها ولوازمها فى لغة النصارى ، وإن كان اللفظ واحدًا . ومعصية آدم عندنا معصية كسائر المعاصى ، تمحوها التوبة ، وخطيئة كسائر خطايا الناس ، تغسلها المغفرة ممن يملك المغفرة ، وهو الله سبحانه . وقد بين الله ذلك فى قوله : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ . فكانت توبة آدم ماحية لمعصيته فى الدنيا والآخرة ، لا تستتبع عقوبة باقية ، وأن الله سبحانه كتب فى صحف إبراهيم وموسى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ . فلا يرث مولودٌ خطيئةَ والدٍ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ . فهذا ينقض على المسلم استعماله لفظ « **الخطيئة** » ، بمدلولها فى الديانة المسيحية لأن هذا الضرب من الخطيئة لا أصل له فى عقيدته ، بل هو منهيٌّ أن يعتقد توارُثَ الخطيئة ، لأنه إذا اعتقد ذلك كذّب خبر الله فى كتابه ، بأن لا تزر وازرة وِزْرَ أخرى ، وتكذيب خبر الله واعتقاد خلافه كُفْرٌ مجرَّدٌ . لا يختلف فى ذلك أحدٌ من المسلمين ، ولا العقلاء عامة ، مسلمين أو غير مسلمين .

وإذا بطل أن يكون للفظ « الخطيئة » عند المسلمين معنى يحمله ، كالذى هو عند النصارى ، بل أن تحتاج معصية آدم إلى فدية تتطلّبها ضرورة الجمع بين الرحمة والعدل . و « الفداء » بالمعنى الذى تدلُّ عليه عقيدة النصارى ، غير مفهوم عند أحدٍ من المسلمين ، ولا يَرَى ما يستوجبه ، إذ لم تكن الخطيئة عندهم متوارثة فى الذريّة . وأمّا ما استوجب معنى الفداء من ألوهية المسيح وبنوّته لله ، تعالى الله عن ذلك علوًّا

كبيرًا ، فإن الطفل الصغير يقرأ فى أوّل ما يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ . ثم يتعالى حتى يقرأ بعد ذلك : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ ﴾ ، إلى آيات كثيرة بهذا المعنى ، فاستحال أن يكون ذلك من عقيدة أحد من المسلمين ، وإذا استحال هذا ، استحال ما يوجب معنى « الفداء » ، ولا يبقى لهذا اللفظ سوى المعنى اللغوى العربىّ المشهور .

وإذا بطل هذان المعنيان لهذين اللفظين : « **الخطيئة** » ، و « **الفداء** » ، على الوجه الذى هو من عقيدة النصارى وديانتهم ، واستحالَ أن يقولهما المسلم وهو يعتقد فيهما ما يعتقده النصارى ، لم يكن للفظ « **الصلب** » بعد ذلك أى معنى ، سوى المعنى اللغوى المشهور ، سواء كان المسيح قد صلب كما يعتقد النصارى ، أو لم يصلب ، كما يعتقد المسلمون ، بما أنبأهم الله سبحانه وتعالى ، إذ يقول فى كتابه الكريم ، حين ذكر اليهود وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقّ : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

وإذا استحال أن يكون لهذه الألفاظ الثلاثة معنى عند مسلم يعتقد صِدْقَ ما أنْزَلَ على رسول الله ﷺ ربُّهُ من القرآن ، استحال أن يكون للفظ « **الخلاص** » معنى مفهوم عنده ، على الوجه الذى يعتقده مَنْ يدين بالنصرانية وعقائدها .

وإذا استحالَ أن يَكون لهذه الألفاظ الأربعة : « **الخطيئة** » ثم « **الفداء** » ثم « **الصلب** » ثم « **الخلاص** » ، معنى عند المسلم على الوجه الذى تدلّ عليه عند أصحابها ، فكيف تكون جزءًا من تراثه الروحىّ ؟ أهذا كلام يُعْقَل ، كلاَّ بلا ريب ، لا يعقِله مسلم ولا نصرانىّ ولا مجوسىّ ، ولا ما شئت من أصحاب العقائد والديانات ، ولا يخرج عن أن يكون سُخْفًا لا يُستغفل بمثله النصارى إرادةَ أن نستلبَ مودَّتهم . ولن يؤذيَهم ويجرح مشاعرهم أن نكون صُرَحاء فى التعبير عن

وجوه الخلاف بيننا وبينهم فى العقيدة ، ولكن ربما آذاهم أن نتخذ ألفاظَ عقيدتهم لهوًا ، بإدخالها فى باب المُدَاهنة السخيفة التى لا تدلّ على عاطفة صحيحة ، بل على آفةٍ شديدة فى هذه العاطفة . وكيف لا يؤذيهم ، وهم يعرفون أننا نقول لهم شيئًا فيما يمسُّ عقائدهم ، ونحنُ نبطن شيئًا غيره بل نبطن فى الحقيقة إنكارَهُ وتكفير القائل به ، إن هذا الفعل أقرب إلى السخرية بهم والاستهزاء بعقولهم . وهذا بيان كاف فى هذا الأمر إن شاء الله .

* * *

أما مسألة استخدام الشعر الجديد لهذه الألفاظ الأربعة ، فلابُدَّ من تحديد وجهة النظر إلى هذا الموضوع . فالشعر تراثٌ عامٌ فى كُلِّ لغة من اللغات ، وسواءٌ كان المتكلم بهذه اللغة مُشْرِكًا ، أم يهوديًّا ، أم نصرانيًّا ، أم مجوسيًّا ، أم مسلمًا ، أم جاحدًا لذلك كُلِّه كافرًا به ، فمن حقّه أن يستخدم شعر اللغة للبيان عما فى نفسه ، لا يملكُ أحدٌ أن يدفعه عن ذلك ، وليس يجعل شعرَهُ حسنًا أن يكون اعتقادُ الشاعر حسَنًا عند قارئه ، ولا يجعله سيئًا أن يكون اعتقاد الشاعر سيئًا عند قارئه . فالشعر ، هو كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « الشعر كلامٌ ، فحسَنُه حسنٌ ، ورديئه ردىءٌ ، فخذ الحسن واترك الردىء » .

وإذا كان الأمر كذلك ، فليس يعيب شعرًا يقوله نصرانىٌّ أن يأتى فيه بألفاظ أهل ملّته ، مادام صادقًا فى التعبير عن نفسه بكلام جيد يدخل فى باب الشعر . وتأتى على النفوس أزمانٌ وأحوالٌ ، تكون بعض ألفاظ العقيدةِ كأنها جوٌّ شاملٌ محيط بالنفس الإنسانية ، عميقُ الوخْز فيها ، شديد التفجير لها من نواحيها ، فتجرى الألفاظُ عندئذٍ فى مَدِّ النَّفس ، تلوحُ معبّرة عن معانٍ مختزنة من تجارب القرون التى عاشت بهذه العقيدة ، ومن التجربة الحديثة التى نبعتْ وانبثقت فى نفس هذا الشاعر أو ذاك . فالنصرانىُّ المعتقد فى « خطيئة » أبيه آدم أنَّها خطيئة لا تمحوها توبة ، وأنّه ورث هذه الخطيئة فى دمه ، وأن نَكال الهلاك الخالد جاثِمٌ على روحه ، إذا استدفعه الإحساس الطاغى الصادق إلى الإبانة عن كُلّ ما فى نَفْسه من تراث دينه وعقيدته وثقافته ، فذكر بعد ذلك « الفداءَ » ، و « الصلب » ، و « الخلاص » ، فى حَقِّ موضعهِ من

الشعرِ ، فقد أحسنَ غاية الإحسان فى الإبانة عن نَفْسه ، وعَسَى أن يقرأه المسلم وغير المسلم ، ممن شَمّ طَرَفًا من معرفة عقائد النصرانية ، فيهتزَّ لهذا الشّعر اهتزازه لأىّ شعر آخر ، ضُمِّن بيانًا مشرقًا عن إحساس صحيح نابضٍ . وأظنُّ أن الذين يتكلمون فى « معركة الشعر » ، لم يريدوا قطُّ أن يحجروا على النصارى أن يقولوا من جيِّد شعرهم ما جادت قرائحهم بالجيد من الشعر ، ولم يستنكروا على ذى عقيدة أن تجرى ألفاظ عقيدته فى شعره .

ولكن الشىء العجيب المحيِّر ، هو أن كثيرًا من رُوَّاد الشعر الحديث فى السنوات الأخيرة ، قد أوغلوا فى استخدام هذه الألفاظ الأربعة ، وقليل من أشباهها ، فى شعرهم ، وهم جميعًا مسلمون !! فالأمر عندئذٍ يوجب إعادة النظر . أهؤلاء جميعًا تواطأوا على استعمال هذه الألفاظ الأربعة بدلالتها اللغوية المجرّدة ، أم بدلالتها التى تتطلبها العقيدة المسيحية مترابطةً متواصلةً لا ينقطع حبلُ معانيها المتداعية من « الخطيئة » إلى « الفداء » ، إلى « الصلب » ، إلى « الخلاص » كما أسلفت بيانه ؟

فإذا كانوا قد تواطأوا على استعمالها بدلالتها اللغوية المجرّدة فما الذى ألزمهم هذه الألفاظ الأربعة ، ولم يضعوا مكان الخطيئة مثلًا « الإثم » ، أو « الذنب » أو « الحُوب » أو « المعصية » ، أو « الزلَّة » أو ما شئت ؟ وكيف تواطأوا على تباعد الديار والأوطان ، على هذه الكلمة ، وأىُّ سحرٍ فيها ؟ ولم قالوا « الفداء » وأكثروا ، ولم يقولوا قطُّ « الكفّارة » ؟ ولم قالوا « الصلب » و « الصليب » ، ولم يقولوا « الشنق » و « المشنقة » وهى أشهر وأعرف وأكثر استعمالًا إلى اليوم ؟ ولم قالوا : « الخلاص » ، ولم يقولوا « النَّجَاة » ؟ والجواب بلا شك أنهم لم يستعملوها بدلالتها اللغوية ، ولا فكّروا فى ذلك ، لأسباب كثيرة جدًّا ، أقلُّها أن التواطؤ على هذه الصورة فى ألفاظ أربعة من اللغة ، يدخُل فى باب المُحال عقلًا حُدُوثُه ، إذا زعم الزاعم أن ذلك واقع اتفاقًا ومصادفةً ، فطابق الألفاظ الأربعة التى تقوم عليها العقيدة المسيحية .

* * *

ومن المغالطة الفاضحة ما قرأته فى صحيفة لويس عوض ، (المعروفة الآن

بصحيفة الأهرام !!) ، حيث زعم الكاتب أن أكبر ما أضافته الحركة الشعرية الجديدة هو الاستعانة بالرَّمْز ، فالصلبُ عند كثير من الشعراء ، رمزٌ لتضحية الإنسان فى سبيل القِيمة التى يُؤمنُ بها . والإسلام يعرف كلمة « الخطيئة » كما قال القرآن الكريم : ﴿ واغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ . وهذا نصُّ كلامه . ولست أدرى كيف يتكلّم الناسُ هذه الأيام ، أبألسنتهم دون عقولهم ، أم بهواجسهم دون تأمُّلاتهم ، أم بخطراتهم دون أفكارهم ؟ لماذا كان « الصلب » رمزًا للتضحية ، ولم يكن القتل ، ولا الشنق ، ولا المُثْلَة ، ولا « الخازوق » ، مادام الأمر يتعلّقُ باللفظ دون دلالته المرتبطة بمصلوب بعينه أو مقتول أو مشنوق أو ممثَّل به أو مُخَوْزَقٍ !! وأما « الخطيئة » فلم يقل لنا ما هو الرمز الذى اتُّخِذَتْ له . والإسلام كما يعرف « الخطيئة » ، وهى التى يحتقبها أبناء آدم ، يعرف « المعصية » و « الذنب » ، وقال فى ذكر أبينا آدم : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ ، ولم يُسَمِّ معصية آدم « خطيئة » قَطُّ . فهذه مغالطات معيبة . (وبالمرة يحسن أن يقال لهذا الكاتب ألاَّ يتَّبع سبيل المستهينين بحقوق الألفاظ والنقول ، فليس فى القرآن آية كالتى ذكرها ، بل الذى قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ . فلزم التنويه) ! ياللعجب لصحيفة الأهرام !! ما أشدَّ عنايتها وحَفاوتها بما ينشر فيها !

وقد ذكرتُ هذه المغالطة ، لأنها هى الطريقة المستعملة حديثًا (!!) فى التفكير ، ولأنها هى الستارُ الذى يُلْقَى على الحقيقة المفزعة ، مضافًا إليه تَوابِلُ من ذكر « التطوُّر » وسائر الألفاظ التى تباعُ الآن فى الصُّحُف منظومة فى الأعمدة ، كما تباع عقود الفُلّ والياسمين على الأرصفة !!. ولكن من البيّن أن هذه المغالطة قريبة مكشوفة ، كما سلف . والحقيقة أن الأمر كُلّه يتلخَّصُ فى كلمات قلائل :

فهذه الكلمات الأربع ، وهى أسُّ العقيدة المسيحية ، لا يمكن أن تقع اتفاقًا ، فيتواطأ عليها بعض الشعراء ، لا عن عقيدة ، بل عن رَمْزٍ لشيءٍ يجدونه فى حياتهم ، فلا يجدون إلا هذه الأربعة بأعيانها . هذا باطِلٌ بالطبع . ولكن الواقع أن فى بعض البلاد وبعض الطوائف من جعل دَيْدَنه فى شعره ، ذكر هذه الأربعة ، ولا يُعاب أن يذكرها لأنه مسيحىٌّ يعيشها عقيدة واقتناعًا ، بجميع ما تلزمه العقيدة من امتداد معانى هذه الألفاظ وروابط بعضها ببعض .

ولكن هذا الضربَ من الشعر ، قد تولّى منذ قديم بعضُ صبيان المبشّرين الترويجَ لَهُ ، والإكثار من التلويح بأنه الجديدُ الذى لا جديدَ غيرُه ، وأكثروا فى ذلك الصخب واللجاجة فى الصحف والمجلات ، وقارنَ ذلك تَفشّى شعر « إليوت » ، ومذهبه فى تحديد الثقافة ، وأن ثقافة الشعب ، ودين الشعب ، مظهران مختلفان لشىء واحد ، لأن «الثقافة » فى جوهرها تجسيد لدين الشعب ، وأن السير إلى الإيمان الدينى عن طريق الاجتذاب الثقافى ، ظاهرة طبيعية مقبولة . هكذا يرى « إليوت » .

وبمكر وخبثٍ شديد ، مُزِج بين « إليوت » ومذاهبه ، وبين هذا الشعر الذى يحمل هذه الألفاظ الأربعة فى فئة غريبة الأطوار من دراويش جبل لبنان . وجلجلَ الدُّعاةُ بالمقالات الطنّانة ، واتخذتْ فى كل بلد عربىّ ركائزَ لهذه الأبواق ، تذيعُ ما يلقى إليها أو تُلقَّنه ، وظهر فى مصر فى أوائل هذا الوقت صبىٌّ « الخلوة المشهودة تحت أشجار الدردار » ، وأطافت به طائفة على شاكلته ، وكان يومئذ فى الجامعة مدرسًا للغة الإنجليزية ، وكتب شعر بلوتولند الذى دللتُ عليه = وكان الصبىُّ القديم « سلامة موسى » قَدْ هَرِمَ وصار كهفًا لأُغَيْلِمَةِ المبشرين فى مصر = وبدأ لويس عوض نفث السموم ، فصادف ذلك شبابًا قَلَّ محصولهم من الجدّ فى القراءة ، وسَئِمُوا الشىء الذى يلقى إليهم فلا يفهمونه ولا يحترمونه ، لأن نظام دنلوب كان قد انتهى إلى غايته فى قتل اللغة العربية فى عُقْرِ دارها ، فى مصر ، ولا يزال يَفْعَلُ ، إلاّ أن تتداركها العزائم المخلصة .

فمن هنا بدأت هذه الألفاظ الأربعة تأخذ طريقها إلى ألسنة هذه الطائفة من الشعراء المحدثين ، مقرونةً بالحملة المبدِّدة لموازين الشعر القديم . فكان المسلمون من هؤلاء الشعراء ، إنما يستعملون هذه الألفاظ لظنهم أنها جزء متمِّم لجدَّة الشعر ، والإحساس بواقع الحياة التى يعيشونها ، بما فيها من آلام الحَيْرة والضياع والاستبداد والمخاوف ، فكان لهذه الألفاظ الجديدة سِحْرٌ فى نفوسهم ، فاتخذوها تقليدًا ، بلا فَهْمٍ لما تنطوى عليه من الدلالات . وكلما نشأ ناشىءٌ منهم ، قام له مَنْ يُثنى عليه ويمتدحُه ويذيع شعره ، حتى يجتذب إلى تقليده آخرين . وتفشّت الكلماتُ ، وطال عليها بعضُ الأمد . فلما جاء الاعتراضُ عليها ، التمسوا تفسيرًا لهذه الألفاظ المقلّدة

التى لا صَدَى لها فى نفوسهم ، فقالوا هى « رمزٌ » فإذا سألتهم : رمزٌ لماذا ؟ ولم كانت هذه الأربعة دون غيرها هى الرموز ؟ = لم يُحيروا جوابًا ، إلاّ كالجواب الذى أسلفنا ذكره ، بما فيه من المغالطة . فالأمر كُلُّه مبنىٌّ على تقليد مجرَّدٍ ، لا قيمة له ، فالمقلِّد لا يفلح أبدًا ، وإنّما يُفْلِح من جاء الإحساسُ بالشىء من قَرارة نفسه ، وقليلٌ ما هُمْ فى كُلّ من يتكلم .

وفى هذا الأوان نفسه ، يقوم لويس عوض وصِبْيانه بتفسير آثار توفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، وصلاح عبد الصبور ، على أساسٍ من مفهوم هذه الألفاظ الأربع ، وأنهم وإن كانوا مسلمين ، فإن آثارهم التى لا تحمل هذه الكلمات الأربعة بنصّها تحملها جميعًا بمعناها ومبناها ؟ وهذه إحدى الأعاجيب ، ولكن ليس بعجيب أن يكون المبشِّر الداعية إلى تحطيم المجتمع العربىّ فى خلال هذه الفترة الشديدة الخطر ، قد لُقِّن كما لُقِّن غيره من الأبْوَاق فى أماكن مختلفة ، بين كتّاب وشعراء ، أن يبدأوا بثَّ هذه الأفكار التى تُوهِنُ الشعور باليقظة ، وتشكّك فى الماضى ، وتُعلِّم النَّشْء التقليدَ ، أى الكذبَ على النفس وعلى الناس .

ولقد قطعنى الزميلُ القديمُ « مندور » عما كنت فيه من أمر العامية وتاريخها وآثارها ، وكنت أوشك أكتب : « وهذه هِى أخطارها » ، ولكنى انصرفتُ عن ذلك أثناء الكتابة ، وإن كنت أظنّ الأمر قريبًا من قريب ، وإلى الأسبوع القادم إن شاء الله .

... وَهَـٰذِهِ هِيَ أَخْطَارُهَا

الرسالة

الخميس ٢٦ رمضان ١٣٨٤



١٠

لقد أحسن الدكتور محمد مندور من حيث لم يَدْرِ ، ومن حيث لم يُرِدْ ، إلىَّ وإلى الناس ، حين كتب ما كتب فى مجلة « روز اليوسف » ، فصرفنى عن قضية العامية واستبدالها بالفصحى ، إلى قضية أخطر منها وأشدَّ تأثيرًا فى أيامنا هذه ، لا بل هى أوغل فى التدمير الذى يرادُ بنا ، وأفتَكُ بالعقول والنفوسِ ، وأبشعُ أثرًا فى حياةِ كل فتًى وفتاةٍ من أهل الإسلام ومن أبناء العرب . وقد عالجتها من الوجه الذى لا يجوزُ لعاقل يعقل ما يقولُ أن يعالجها من وجهٍ غيره ، وهو البيانُ الصريحُ عن معانى الألفاظِ ، وما تحمله فى طيَّاتها من تاريخ متَّصل ، وما تنطوى عليه من عقيدةٍ متكاملة مترابطة ، تفقِدُ كلَّ معنى ، إذا أرادَ مريدٌ ، أو تخيَّلَ متخيِّلٌ ، أنه قادرٌ على أن ينفُضَ عن هذه الألفاظ دلالتها فى صلب العقيدة المسيحية ، وهى الألفاظ الأربعة التى تدور فى ألسنة بعض الشعراء من أبناء الإسلام اليوم ، وهى « الخطيئة » ، و « الفداء » و « الصلب ، و « الخلاص » .

وليس يجدى شيئًا ولا يُغْنى ، أن يحتالَ محتالٌ فيزعمَ أن هذه الألفاظ رموزٌ لمعانٍ إنسانية مجرّدة ، كالتضحية فى سبيل القيمة أو المبدأ الذى يؤمن به إنسان ما من الناس ، لأنّ مئات من الألفاظ فى لغة العرب ، وفى غير لغة العرب قادرةٌ على أن تكون رموزًا لهذا الشيء نفسه ، بمجرَّد الدعوى عندئذٍ . فهذه « الألفاظ الأربعة » إذا خَلتْ من دلالتها فى عقيدة أصحابها ومستعمليها ومعتقديها ، صارت كسائر ألفاظ اللغة ، لا تحمل شيئًا إلا معناها اللغوىَّ المجرّد . فمِنْ أبطلِ الباطل أن يجعلها امرؤٌ صالحةً لأن تكون « رمزًا » بدلالتها اللغوية المجرّدة . فإن كلَّ لفظ فى اللغة صالح عندئذ أن يكون « رمزًا » بلا فرق فى ذلك بين الألفاظ اللغوية . والنتيجة المنطقية لهذه الدعوى ، أنّ كلّ امرىءٍ مباحٌ لَهُ أن يجعل فى كل لفظٍ فى اللغة ، رمزًا لشىء يتوهَّمُهُ هو ، وإنْ كان غيرهُ من الناس لا يرى له معنًى مفهومًا عنده ، إلا

المعنى المتداول المعروف . وكذلك يصبحُ الناس يومًا ، إذا سارت الشعراء والكتاب هذه السيرة ، وإذا اللغة ضربٌ من الخَبَل ، ككلام الموسوسين والمَمْرُورين ، لا يفهم أحدٌ عن أحدٍ شيئًا إلا بمعجم خاصٍّ بكل شاعر وكُلّ كاتب ! وخيرٌ للناس يومئذ أن يعيشوا بين أسوارٍ مسوَّرة ، كالأسوار التى انطلق من ورائها إنسان مثل لويس عوض ، وفلانٍ وفلان ، ممن يقرأ لهم المرء فيقع فى دُوارٍ كدُوار البحر الهائج .

ومع ذلك فبيّنٌ عندى ، وسيكون بيِّنًا إن شاء الله عند كل قارئ ، أن قضية العامية واستبدالها بالفصحى ، وقضية استعمال هذه الألفاظ وأشباهها ، هما فى الحقيقة قضيةٌ واحدة ، لا من حيث مآلها وعواقبها ، بل من حيث مَصْدرها ومنابعها أيضًا . ولذلك أظنُّنى لم أفارق الموضوعَ الذى بدأتُه ، إذ كنت قد أُلْزِمتُ إلزامًا أن أجعل إحدى القضيتين تتخلَّل الأخرى وتَعِيثُ فى سياقِها . وكان السياقُ أن أفرغ من قضية العامية واستبدالها بالفُصْحى ، ثم أتبعُها بالقضايا النابعة من حيث نبعت هذه القضية . وإن شئتُ أن أقول إنّ لى أسوةً حسنةً بأسلافِى من أهل هذه العربية ، يوم كانوا يعدُّون الاستطرادَ بابًا من أبواب التخفيف والاستجمام ، حتى لا تُسْتَكْرَهَ النفوسُ على احتمالِ بابٍ واحدٍ من العلم ، فيتخلَّلونه بأشباهه ونقائضه وما يمتّ إليه بسبب من الاتصال أو المفارقة ، ليكون ذلك أروحَ للنفس ، وأدعَى إلى احتمالها مَؤُونةَ التَّعَب فى التزام بابٍ واحدٍ من الفكر ، وأنْفَى للملل الذى يأخذُ بأكظامِها حتى تضيقَ بما تقرأ أو تسمع ، وكان رأسَ هؤلاء أبو عثمان الجاحظ وأبو العباس المبرّد ، وغيرهما من الكتَّابِ والأدباء والعلماء والشعراء أيضًا .

* * *

فالآنَ أعود إلى حيث قطعنى الدكتور مندور مشكورًا على ما فعل . وقبل أن أعودَ إلى وَصْل ما انقطع ، أجده حقًّا علىّ أن أدلَّ القارئَ على شىء وقع لى منذ أيام قلائل اتفاقًا . فإنى كتبت فى المقالة الثامنة شيئًا عن تاريخ المعركة بين العالم الأوربى المسيحى ، والعالم الإسلامى العربى ، ورسمتُ صورةً سريعة لما كان ، وقلت :

« إنها صورة لا يكاد يخطئها من له أدنى إلمام بتاريخ الغزو الأوربى المسيحى للعالم الإسلامى »[١] ، وذلك إذْ بيَّنتُ أن تجارب الحروب الصليبية ، وحروب آل عثمان من الترك ، قد دلت العالم الأوربى المسيحى دلالة قاطعة على أن مواجهة العالم الإسلامى بالانقضاض المسلَّح ، لا تجدى إلاّ انبعاثَ قوة متماسكة شديدةِ البأس والخَطَر ، خليقةٍ أن تستردَّ شبابها ، مهما كان فى كيانها من العيوب . فكان من الحكمة أن يتجنَّب العالم الأوربى المسيحى مواجهة العالم الإسلامى . وكان من حسن التدبير واتقاء العواقب ، أن تدورَ هذه القوة الأوربية المسيحية الجديدة ، من حول العالم الإسلامى ، تنتقص من أطرافه البعيدة بمهارة وحذر ، فدبَّت أوربا دبيبًا حول هذا العالم ، وجعلت تطوِّق شواطئ الإسلام فى إفريقية وآسيا بطوقٍ من الثغور تحتلها ، ثم تنفذ من كلّ ثغر إلى بَدَنِ العالم الإسلامى شيئًا فشيئًا ، بحذر ، وبلا ضجيج يزعجُ . وانتهيتُ من كلمتى إلى أن أَقَلَّ هذا الغزو نكايةً بالعالم الإسلامى هو « الجيوش » ، وأبلغه افتراسًا هو « التجارة » ، وأفتكهُ بالإنسانِ الذى يسكن العالم الإسلامى ، هو « التبشير » . وذهبت إلى أن « التبشير » ليس معناهُ اقتصارَ فئة من الرهبان والقسوس على الدعوة إلى دينهم ، من حيث هو عقيدة يسمعها المرء فيرضاها أو ينكرها ، فهذا باطِلٌ ، بل معناهُ أنه أفتك أسلحة الغزو الأوربىّ المسيحىّ ، ويرادُ به إخضاع العالم الإسلامىّ لسيطرة العالم الأوربى المسيحى ، بوسائل خبيثة من التدسُّس والتدمير والهدم ، فى كُلّ ناحية من حياتنا الاجتماعية والسياسية والأدبية ، وإخضاع عقل المسلم للعقل الأوربى وطرائق تفكيره ، لينشأ فى هذا العالم من أبنائه ضربٌ من المسوخ ، يكون عبيدًا تذلِّلُ الطريق لأقدام السادة الطغاةِ ، من حيث لا يدرى أحدهم أنه عبد مسخَّرٌ ، يعمَلُ فى سيادة هذه الحضارة الجديدة على حضارته ، بل يعمَلُ على هدمها واستئصالها من نفسه ومن نفوس أمته .

فكان من الاتفاقِ أن وقع فى يدى منذ أيام قلائل كتاب مترجم بعنوان « العالم والغرب » ، لكبير المؤرخين الإنجليز فى العصر الحاضر ، وهو « أرنولد توينبى » ، فإنه نظر إلى هذه المسألة نظرةً مجرّدة ، وإنَ كان لا يخلو ، بلا تثريب عليه ، من أثرِ

---

(١) انظر : ص ١٤٩ .

الفكر الذى يَعُدُّ نفسَه سيّدًا فى هذه الأرض ، لا ينازعه فيها منازعٌ ، وهو الفكر الأوربى المسيحى المتغطرس . وسأنقل كلامه ، لا لأنى ممن يشغل نفسه بالتماس تأييدٍ لما يقول من أوربى ، فإن هذا لا يكاد يخطر لى ببالٍ لأنى منذ رفضتُ أن أكون عبدًا لهذه الحضارة الأوربية ، كما أرادَ نظام تعليم « دنلوب » فى مدارسنا وجامعاتنا أن يجعلنى ، رفضتُ أيضًا أن أجعل لعقول هؤلاء الناس سيادةً على عقلى = بل أنقلُه ليعلم كثير من المفتونين من الشباب البرىء الظامئ إلى المعرفة ، الطالب للحق ، المضلَّل عن الحق ، الساعِى إلى إحياءِ أُمَّته ، بعد الذى رأى من آثار العبودية والذلِّ على جباهها وأبدانها ، أنّه قادرٌ بالتأمُّل واليقظة وحسن الإدراك ، أن يعرف الحقّ بجهده وإخلاصِه ، إذا أدرك حقيقةً واحدة : هى أن هذا العالم الأوربى الباغِى ، عدوٌّ له شديد العداوة ، وأنه ماكرٌ شديد المكر ، وأنه خبير حسن الخبرة بتهديم الأمم وردّها القهقرى متردّيةً فى الغموض والحيرة ، وأنه لذلك خليقٌ أن لا يأمن أحدًا ، مهما كان شأنُهُ على دعْوةٍ يدَّعيها ، أو بدْعَة يدعو إليها ، وأنّ عليه أن يحذرَ الألسنة ، فإن اللسان أكذبُ شىء إذا خانَ ، وأصدقُ شىء إذا حَمَل الأمانة وأدَّاها على وجهها . وسأزيد هذا بيانًا فيما أكتب إن شاء الله .

عقد « توينبى » فصلًا فى كتابه سماه « الإسلام والغرب » ، لا أستطيع أن أنقله هنا بحذافيره ، ولكنى سأنقل منه ما يدلُّك على هذه الصورة التى رسمتُها ، وعلى أن اللغة الفصحى التى يراد هدمها وإزالتها ، ليست من الهوان بالمنزلة التى تغفل عنها حكومات العرب والمسلمين ، لا من حيث نقول نحن ، بل حيث يقول هذا الإنجليزى المؤرخ قال :

« وبعد فشل الأتراك أمام أبواب فينا عام ١٦٨٣ ، كان يجب أن يتم الهجوم المعاكس الغربى على العالم الإسلامى ، فى يوم أو آخر ، ولكنه تأخر فى الظهور بسبب الصورة التى كانت فى مخيِّلة الغربيين عن شجاعة الأتراك والمسلمين وبسالتهم العسكرية . وقد أجاب العالم الغربىّ على استيلاء الأتراك على المسيحية والأرثوذكسية الشرقية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، بتأمين سيادته على البحار ، لتطويق البلاد الإسلامية ، عوضًا عن مقابلتها وجْهًا لوجه ، كما فعل خلال

الحروب الصليبية التى كانت نتائجها وخيمة عليه [١] وفى طوافهم حول إفريقية ، وصل البحارة البرتغاليون إلى الشواطئ الغربية للهند ، سابقين ببضع سنواتٍ إلى هناك المغولَ ، آخر موجة من موجات الإسلام التوسعيّة ، هؤلاء الذين قدموا من آسيا الوسطى بطريق البر . وعندما حقق الإسبانيون ربط المحيط الأطلسى والهادئ مرورًا بمكسيكو ، قامت فى الفلبين حواجز جديدة أسيوية هذه المرة ، بين المسيحية الغربية والإسلام ، اللذين لم يتجاورا حتى ذلك التاريخ ، إلا فى الطرف الثانى من العالم ، فى وادى الدانوب ، وغربى المتوسط . وهكذا فى نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار ، استطاع الغربُ أن يطوِّق البلاد الإسلامية ، ولكنه لم يخاطر فى شد الحبل إلا فى القرن التاسع عشر ، فيما بعد . وحتى ذلك التاريخ ، كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية ، تفرض الحذر على الغربيين ، وتشدد عزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم . وهذه الثقة المتينة ، قُضى عليها شيئًا فشيئًا على أثر الفشل المتتالى الذى منيت به الإمبراطورية العثمانية ، وباقى الدول الإسلامية ، وقد كبّدهم إياهُ خصم مجهَّزٌ بأسلحة غربية ، يملك التكنيك والعلم اللذين تقوم عليهما الحرب الحديثة » .

ويؤسفنى أن الأصل الإنجليزى لم يقع فى يدى حتى أترجمه ، ولكن هذه الترجمة على ما فيها ، مفهومة المعنى ، وهى نصّ ما قلتُ فى كلمتى الثامنة . ومن البين أن مؤرخًا مثل « توينبى » ، لا يلقى القول جُزافًا فى أمر هو من صُلْب مادَّته ، وفى جزء لا يتجزَّأ من تاريخ حضارته . ولكنه فى هذا الفصل ، حين حَلّل ما جرى فى تركيا إلى أن جاءت نكبة مصطفى كمال ، كان ينظر كعادته من خلال عقيدته فى الحضارة الغربية المسيحية ، كما يفعل معذورًا أو غير معذور كل مفكر أوربىّ ، وهى أن السيادة التى بلغتها الحضارة الأوربية فى كُلّ شىء ، خاضعة « لطريقة العيش الغربية » ، وأنّ النهضة والإحياء لا تتم إلا باعتناق مبادئ الحضارة الغربية ، ومهما بلغ عقل « توينبى » وذكاؤه ، فإن هذا لا يمنع من أن يكون رأيُه فاسدًا فى مثل هذه

---

(١) يحسن بالقارىء العربى أن يتأمل هذا القول فى أناة ، ليعرف حقيقة ما يدلسه عليه بعض الكتاب من العرب فى شأن الحرب الصليبية !!

الأمور ، لأن العقل الذى لا يتصوّر أن الحياة البشرية قادرةٌ على صُنْع الحضارات ، بلا استناد إلى « طريقة العيش الغربية » و « اعتناق مبادئ الحضارة الغربية » ، عقلٌ قد أسقط من حسابِه أن الحضارات ، قامت وبادتْ ، من قبل أن تكون الحضارة الغربية وأصولها جميعًا على ظهر الأرض ، وأن هذه الحضارة إذا بادتْ واستُؤْصِلت ، فالإنسانُ أيًّا كان بعد ذلك ، قادر على أن يبنى حضارة جديدة تناقض هذه الحضارة الغربية فى « طريقة العيش » ، وفى « المبادئ » التى يدّعيها .

ولكن آفة العقل الأوربىّ ، أنّه لا يَرى فى الدنيا إلا نفسه ، ولا ينظر إلى الحضارات إلاّ من خلالِ ماضيه وحاضره ، وصدق الله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

وهذا العقل الأوربىّ فَرِحٌ بما عنده من العلم ، مستهزئٌ بكُل ما لا يطابقُ ما يراهُ من حضارات الماضين ، وحضارات الآتين ، بعد أن تكفَّ الحضارة الأوربية المسيحية عن أن تكون حضارةً لها شانٌ يذكر ، وإن ذلك لكائنٌ إن شاء الله .

* * *

وليس من هَمِّى أنّ أنقض على ، « توينبى » فكرَه ونظرَهُ وتحكمه ، بل من همّى أن أكشف عن أشياء تنبَّه لها ، لها صلة وثيقة بما نحن فيه ، وهى مَحْمَدةٌ له نعترفُ بها ، وينبغى أن يكون واضحًا أننا لا نسلب الناس فضائلهم من أىِّ أهل لسان كانوا ، ومن أىّ أهل ملَّة نعرفُها ، فهو بعد أن حَلَّل موقف تركيا من الحضارة الغربية قال :

« وهناك بدون شك أفكارٌ ومؤسسات غربية أخرى هى أبعد بكثير من أن تكون حسنات ، سنكتفى بذكر واحدة منها فقط ، هى الفكرة القومية . والأتراك كسائر الشعوب الإسلامية ، انتقلت إليهم عدوى القومية مع غيرها من المفاهيم الغربية الصالحة منها والطالحة . ونستطيع أن نتساءل عن نتيجة تسَرُّب هذا المبدأ إلى العالم الإسلامىّ ، حيث تعلم التقاليد الموروثة أبًا عن جدٍّ = (إنه ليس تقليدًا ، بل هو دينٌ نحن مسئولون عنه يوم القيامة بين يدى رب العالمين) = أن المسلمين كلهم إخوة

بفضل دينهم المشترك ، على الرغم من الاختلاف فى العنصر ، واللغة ، والوطن . فى هذا الوقت ، لنا ملءُ الحقَ أن نتساءل عما إذا كانت الأخوة الإسلامية التقليدية ، ستحمل حلاً للمشكلة الاجتماعية ، أفضَلَ من الحلِّ الذى يقدِّمه التقليد الغربى القائم على الاعتراف باستقلال وسيادة كُلّ أمة . إن المجموعة الغربية بوضعها الحالىّ ، منذ الحرب العالمية الثانية ، قد قسمت وفككت إلى أربعين دولة سيدة مستقلة ، أى أن البيت قد « انقسم على نفسه » . ومع ذلك ما زال للغرب مقدارٌ كافٍ من النفوذِ فى العالم كى تحتفظ جرثومة القومية بفعاليتها . وإنا لنأمُل ألاّ نرى هذه الجرثومة تنتشر فى العالم الإسلامىّ على الأقل ، لأنّ الوحدة السياسية والاجتماعية على مستوى ونطاق عالميين ، هما ضرورتان لسلامة الإنسانية اليوم ، فى الحقبة الذرية النووية ، أكثر من أى وقتٍ مضى ... وقد قدّم الشعب التركىّ بقيادة أتاتورك ، خدمة كبرى للعالم الإسلامى ، بمحاولة حل مسألة « الاستغراب » (أى الخضوع لطريقة العيش الغربية ، واعتناق مبادئ الحضارة الغربية) ، المعروضة على جميع الشعوب ، بتبنِّيه دون تحفظ ، الأفكارَ الغربية الحديثة ، ومن بينها القومية وغيرها . غير أن باقى البلدان الإسلامية ، ليست فى حاجةٍ لأن تتبع تمامًا الطريق الذى خطَّه الروّاد الأتراك » .

ثم يقول « توينبى » فى إثر ذلك :

« إن هناك بلادًا إسلامية ، عربية اللغة ، وإذا كانت لغة التخاطب تختلف حسب المناطق (ويعنى اللغات العامية) ، فإنّ اللغة الفصحى واحدة من شواطئ الخليج العربى ، ومن حلب والموصل شمالاً ، حتى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار جنوبًا . جميع الكتب والصحف الصادرة فى القاهرة ودمشق وبيروت ، تُقرأ فى هذه المنطقة الشاسعة كلها ، وحتى خارجها ، لأن اللغة العربية ، هى اللغة الدينية لجميع البلدان الإسلامية ، حتى تلك التى لا تستخدمها فى التخاطب . فهل من الضرورى أن يُجَزَّأ هذا العالم العربىُّ إلى عشرين دولة مستقلة ، تعيش بعزلة تامة عن بعضها البعض ؟ وهل من الضرورىّ حقيقة أن نرى العالم العربىّ يتفكك ويتجزأ ، كما حصل مع الأسف للإمبراطورية الإسبانية الأمريكية ؟ إن هذه التجزئة تعتبر من أخطر نقائص حضارتنا الغربية ، وسيكون مؤسفًا حقًّا أن نرى الشعوب العربية تنسج على منوالنا فى هذه الناحية » .

و « توينبى » أحدُ أذكياء المؤرخين ، وعَلَمٌ من أعلامهم ، وبذكائه وعلمه ، انتبه إلى ما يغفُل عنه من يعدّون أنفسهم ، أو كان الناس يعدُّونهم ولا يزالون ، أهلَ حكمةٍ ورأيٍ ، من أهل جلدتنا . ولكنه حين دَرَس المسألة التركية وحللها ، كان خاضعًا خضوعًا تامًّا لوراثة قومه عداوةَ الترك ، لأنهم كانوا كتيبة من كتائب الإسلام فى مَدّ ثلاثة عشر قرنًا ، صدمت جدارَ الحصنِ المنيع الذى اعتصمت به أوروبا المسيحيةُ ، منذ عادت أدراجَها هزيمةً عن آخر معركة صليبية ، ثم نفذت فيه ، وتركت كلمة الله تعلو فوق شواهق جباله . ومع كُلّ ذلك ، فقد كان الرجل صادقًا فى نظره ، وإن أساء تصوير المسألة التركية . ولذلك لم تحجبه هذه العلّة القادحةُ فى بعض نظره ، من أن يفضى إلى نتيجة صحيحة ، حين نظر إلى العالم العربىّ ، وأنكر سَعْى قومه ، منذ كان لهم علينا سلطان ، إلى أن تفتيتَ وحدتنا إلى دويلات لا تقوم واحدة منهنّ فى هذا العالم بنفسها ، مهما بلغت من القوة ، ولا سيما فى هذا العصر الذى تتنازع السيادة فيه القوى العلمية ، فى الكتل البشرية الوفيرة العدد . فإذا قلَّ العددُ ، فالقوى العلمية لا تجدِى نفعًا يذكر فى هذا الصراع الضخم .

ولم يَنْجُ « توينبى » فى نظره إلى المسألة الإسلامية ، من داء الحضارة الغربية المتوارث ، وهو التفرقة بين الأجناس ، وإن اتحدت العقائد . فلذلك عدَّ التركَ ، لأنهم تركٌ ، جزءًا منفصلاً عن « القومية العربية » كما فعل ذلك بفارس ، وباكستان ، والهند وسائر بلاد إفريقية وغيرها ، لأنهم جنس غير عربىّ الأصل ، هذا مع تنبهه إلى أن الإسلام يوجب على المسلمين أن يكونوا إخوةً ، لا يفرق بينهم اختلافٌ فى جنس ، أو لغة ، أو وطن .

ولكن لو كان « توينبى » أعادَ النظر وهو برىءٌ من داءِ قومه فى التفرقة العنصرية ، لعلم أن الأمر كان على غير ما يتصوّر ، وعلى غير ما يراه اليوم فى ظاهر أمر هذا العالم الإسلامى ، بعد البلاء الذى نزل به من مكايد أهل جلدته ومِلّته . فكُلُّ أمةٍ دانتْ بالإسلام من غير أهل جزيرة العرب الذين خَرجُوا على عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ومعاوية ، وسائر خلفاء الإسلام من بعدهم ، كانت بين أحد أمرين : إمّا أن تَدين بالإسلام ، ثم لا تلبثُ أن تطرح ماضيَها كُلّه من لُغَةٍ ودينٍ ، ثم تتخذ العربية لغتَها ، والإسلام دينَها ، وتخالط العربَ مخالطة تامَّةً ، حتى يذهب الجنس كُلُّه

أو أكثرهُ إلا بقايًا قليلة ، ويدخل فى العروبة ، كما حدث ذلك فى العراق والشأم ومصر وبلاد المغرب كلها إلى أرض الأندلس = وإمَّا أن تدين بالإسلام ، وتعدُّ العربية لغتها الأولى ، وتحتفظ بشىء من لغتها ، كما كان الأمر فى فارس والسند ، وبعض قبائل الترك والأكراد وغيرهم ، فى كُلِّ مكان تعالى فيه الأذانُ ، وتُلِى فيه القرآن . ولكن هذه اللغات الممتنعة ، لم يعصِمْها امتناعُها من أن تفقد شخصيتها التى كانت لها فى جاهليّتها قبل إسلامها ، فانقلبت اللغة الفارسية القديمة ، إلى الفارسية الحديثة ، ونصف معجمها وأساليبها ، وأوزانها آتٍ من العربية ، حتى صارت لسانًا آخر غير اللسان الفارسىّ الجاهلىّ . وكذلك الأمر فى لغة الترك والأكراد ، وسائر اللغات فى آسيا وفى إفريقية . وتستطيع أن تسمِّى هذا « تعرُّبًا » ، لأن هذه اللغات قد صارت ذات نسب قريب بالعربية ، من حيث فقدت كل لغة من هذه اللغات أكثر خصائصها الجاهلية ، وألزمت نَفْسَها الدخول فى عربية « القرآن » . وهذا أمرٌ ينبغى التنبُّهُ له .

ولم يكن الذى منع هذه اللغات أن تزول وتحلَّ محلَّها العربية ، كما تمَّ ذلك فى بلاد العرب التى نعرفها اليوم ، كالعراق ومصر وشمال إفريقية ، أى المغرب كُلِّهِ ، والسودان ، أنّ أهل هذه اللغات حين أسلموا استمسكوا بجنسيَّاتهم ، ولم يريدوا عنها حِوَلاً . كلاَّ ، ولكنهم فقدوا الأسباب التى أتيحت للبلاد التى صارت عربية خالصة . فمن هذه الأسباب قِلة هجرة القبائل العربية إلى هذه الديار ، ونزولها فى قراها المنتشرة ومدنها وعواصمها ، كما نزلت فى مصر والعراق والشأم وسائر بلاد إفريقية ، ولا سيما فى أوَّل الفتوح ، وتتابع نزولها بها جيلاً بعد جيلٍ . ومن الأسباب أيضًا أن شبابها لم يكد يفارق لغة قومه إلى عربية القرآن ، حتى جذبته الحواضر الإسلامية الكبرى ، كبغداد ، ودمشق ، والفسطاط ، وبلاد المغرب إلى الأندلس ، ففارق أرض قومه فى طلب العِلْم ، وفى طلب الجاه ، وفى طلب الثروة والسلطان ، فلم تتأصَّل هناكَ طائفة تكون لها الغلبة فى تحويل اللسان من فارسى مثلاً إلى عربىّ محض . ومع ذلك ، فإن يكن آلاف من أبناء الفرس قد هاجروا واندمجوا فى العرب حين هاجروا ، فإنّ سيادة العربيةِ ، عربيةِ القرآن ، قد هاجرت بآلافٍ من الألفاظِ ، فعرّبت اللغة الفارسية القديمة حتى أحالتها عن الوجه الذى كانت عليه فى جاهليتها .

ومع ذلك ، فهذه البلاد جميعُها ، من حدود الصين إلى آخر المغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، قد أخرجت آلافًا مؤلفة ، فى فترة قصيرة جدًّا ، من أفذاذ علماء العربية ، وفقهاء الديانة ، وبلغاء الكُتّاب ، ونوابغ الشعر ، وأعلام الفاتحين ، وأخرجت كُلَّ متفرّد فى بابٍ من أبواب المعرفة الإنسانية ، وكُلَّ مذكور مشهورٍ فى ناحية من نواحى الحضارة ، بلا تمييز مبنيٍّ على الجنس فى شىء من ذلك كُلِّه ، بل جميعهم ينتمى إلى عقيدة واحدة هى الإسلام ، وإلى لغة واحدة ، هى لغة الإسلام ، وهى العربية . والجنسُ العربىُّ نفسهُ ، لا يجد ما ينتمى إليه غير هذين : هذه العقيدة الواحدة ، وهى الإسلام ، وهذه اللغة الواحدة ، وهى لغة الإسلام ، بلا فرقٍ فى ذلك .

* * *

ومصطفى كمال أتاتورك ، الذى زعم « توينبى » أنه قدم بالشعب التركى خدمة كبرى للعالم الإسلامى ، بمحاولته حل مسألة « الاستغراب » باتخاذه الأفكار الغربية دون تحفظ ، ومن بينها « القومية » ، قد أساءَ إلى الشعب التركى غاية الإساءة ، لأنه عاقَ سير التاريخ ودمَّر بنيان الماضى ، وجعله رُكامًا على الطريق يسدُّه ، وأنزل بالعالم الإسلامى نكبة كُبْرى ، بفقدانه عُضوًا من أعضائه الذين حملوا العبْءَ قرونًا متطاولة ، بلا تملمُل ، بل بصبْرٍ وقوةٍ ودماءٍ تسيلُ . ولو كان مصطفى كمال عاقلاً مدركًا لما ينبغى أن يُفْعَل ، لما حاول ما حاول من تدمير اللغة التركية ، وتدمير العقيدة التى ينتمى إليها الترك ، وإنشاء شىء يقال له « القومية التركية » . كان سير التاريخ يقتضيه أن يحوّل الشعب التركىّ مرةً واحدة إلى إتمام العمل الذى تمَّ نصْفُه ، وهو جعل اللغة التركية « المتعرِّبة » لغة عربيةً خالصةً ، وجزءا لا يتجزَّأ من « القومية العربية » التى لا قوامَ لها إلاّ بالإسلام ، والذى ينتمى إليه التركى بنفس القدر الذى به إليه ينتمى العربىُّ .

وأيضًا ، فالذى فعله مصطفى كمال ، لم تكسب به تركيا شيئًا ، بل فقدت ماضيها ، وشلّت حاضرها ؛ وهدَّدتْ مستقبلها ، وصارت كأنها تائهٌ متحيِّرٌ فى بادية يُطوِّقها سرابٌ من آمال لا يمكن أن تتحقق . و « توينبى » نفسهُ يعرف هذا ، وكلامه

دالٌّ عليه ، وإن كان مما يكبُرُ عليه أن يقوله صراحةً . وكلُّ بلد إسلامى ، انحلَّت عراهُ التى تربطه بالعرب ، مهدَّدٌ أن يصيرَ إلى نفس التِّيه الذى وقعت فيه تركيا ، إذا ابتلى بمن يقودها إلى هذه المتاهة ، كما ابتُليت تركيا . والخطر أشدُّ استحكامًا وتهديدًا لبعض الأجناس التى كانت مندمجة فى بلاد عربية ، إذا هى حاولت أن تقتدى بتركيا ، فتنزع نفسها من تاريخها العريق فى الإسلام والعربية . ونحن ، أهلَ القومية العربية ، ملزمون بأن لا ندَعَ شيئًا يُغْرِى بعد اليوم أحدًا على أن يُهْلِك نفسه فى هذا التِّيه ، لأنّ هلاكه أيضًا هلاكٌ لنا غدًا ، عرفنا ذلك اليوم أم لم نعرفه . ولا سبيل إلى نجاتنا ونجاتهم إلا بأوْبَتِنا جميعًا إلى « القومية العربية » ، أى إلى الإسلام الجامع لكُلّ جنسٍ منّا فى أخوّةٍ واحدةٍ ، وعقيدة واحدة ، وإلى اللغة العربية ، لغة الإسلام ، بإصرارٍ كاملٍ على تحطيم جميع العوائق التى تحول بيننا وبين هذه الغاية . وسأبيّن هذا بعد قليل .

وإذا كان « توينبى » قد فَزِع ، بعد حديثه عن المسألة التركية ، من أن يرى العالم العربى مفكَّكًا مقسّمًا إلى عشرين دولة مستقلة ، ويرى هذه التجزئة أمرًا يدعوه إلى الأسف ، كما يأسف على تفرُّق ما سمَّاه الإمبراطورية الإسبانية الأمريكية !! = إذا كان « توينبى » قد فزع ، فينبغى أن نكون نحن أشدَّ فزعًا ، لا من تجزئة العالم العربىّ وحدَه ، بل من تجزئة العالم الإسلامىّ ، الذى هو الصديقُ الحاضر العتيد بتُرَاثِ ثلاثة عشر قرنًا من الأخوّة ، ولم تكد تؤثر فى شعوبه وجماهيره كلُّ المكايد التى دُبّرت ، ولا النكبات التى نزلتْ ، وعلى رأسها نكبة انفصال الدولة التركية عن الشعوب العربية ، أو على الأصح ، محاولة الدولة التركية أن تفصل الشعب التركى عن إخوانه من الشعوب العربية .

* * *

وقد تنبه « توينبى » إلى اللغة الفُصْحى ، وأنها هى الرباط الوثيق الذى يمنع البلاد العربية من التَّفكُّك ، من شواطئ الأطلسى فى المغرب ، إلى حدود فارس الغربية شرقًا عند شواطئ الخليج العربى ، ومن حلب والموصل شمالاً ، حتى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار جنوبًا ، ولم يُلق بالاً إلى الذى سماه « لغة التخاطب » ، وهى

اللغة العامية ، لأنه يعرف أنّ أيسر الجُهْد والصدق والفهم ، قادرٌ على أن يجعَلَ الفُصْحى هى « لغة التخاطب » العامة أيضًا ، وإن بقى للعامية آثار قليلةٌ متفرقة فى طبقات الناس بعد ذلك . وكلامه دالٌّ أيضًا على معرفته تمامَ المعرفة أن أيّة محاولة لاتخاذ « لغة التخاطب » فى كل منطقة من هذه المناطق واستبدالها بالفصحى ، مؤدٍّ بلا ريبٍ إلى أن يتفكّك العالم العربى ويتجزأ إلى عشرين دولة مستقلة ، يعيش بعضها فى عزلة تامةٍ عن بعضٍ .

« وتوينبى » معذورٌ ، حين يَعُدُّ اللغة الفصحى ، هى « اللغة الدينية » لجميع البلدان الإسلامية حتى تلك التى لا تستخدمها فى التخاطب ، ومن العبث أحيانًا إفهامُ العقل الأوربى بعض الحقائق التى لا تطابق ما يتصوّر ، كما أسلفت ، فاللغة العربية ، أو اللغة الفصحى ، ليست « لغة دينية لجميع البلدان الإسلامية » حتى تلك التى لا تستخدمها فى التخاطب ، كما يقول ، بل هى لغة القرآن ، ولغة الحديث ، أى لغة رسول الله ﷺ من حيث هو مبلِّغٌ للقرآن ، ومُبِينٌ عَنْهُ والفرق بين الكلامين شديدُ الخطر .

وذلك أن لفظ القرآن وهو « كلام الله » ، المنزل على رسول الله ﷺ ، كما هو ، وكما انحدرَ إلينا بالتواتُر والتوارُث الذى منع عن أىّ لفظٍ فيه أن يدخلهُ تغيير أو تبديل ، مرتبط أشدَّ ارتباط ، لا بعقائد المسلم وعباداته فحسب ، بل بتشريعه ، واقتصاده ، وعلمه ، وفلسفته ، وحروبه ، وجهاده ، بل بتفاصيل حياته اليومية ، وخطرات نفسه ، ولمحات تفكيره ، وآداب معاشرته ، لصديقه ، وزوجه ، وولده ، وأهله ، وعشيرته ، فلا يكاد يوجَد شىء فى حياة الإنسان المسلم إلاّ وَلَهُ فى القرآن هَدْىٌ هو نصٌّ ، أو هَدْىٌ هو استنباطٌ ، لا فى خاصّ أمره ، ولا فى عامّ أمر المسلمين بالأفراد من غير أهل مِلَّتهم ، أو الأمم التى لا تدين بدينهم ، بل فيما هو أقلُّ من ذلك شأنًا ، وما هو أعْلَى وأشرفُ . وفى كُلّ ذلك يُلْتَمَسُ النصُّ ، ويُسْتَنْبَطُ من النص أحكامٌ للوقائع الحادثة التى تجدُّ فى حياة الناس .

وللاستنباط أصول ضابطةٌ ، بها يتبيّنُ الناس حين يختلفون ، أىُّ شىء من أحكامهم المستنبطة هو الذى يُقْبَل فيه الاختلاف ، وأيُّها الذى لا يُقْبَل فيه

الاختلاف ، لأن لفظ القرآن العربى يأبَاهُ . وكذلك الشأن فى حديث رسول الله ﷺ ، إذا صحّ عندنا من الوجوه التى يصحُّ بها الحديث . وعلم تصحيح الحديث ومعرفته ، من العلوم التى انفرد بها المسلمون ، وجاءوا فيها بما لم تأت بمثله أمة من الأمم إلى يوم الناس هذا . والذى صحَّ من حديث رسول الله ﷺ ، هو بمنزلة القرآنِ ، فى الهَدْى ، بل هو أوسع ، لأن حديثه ﷺ هو البيان عن القرآنِ ، فيه تفصيلُ ما أجْملَ القرآنُ ، وإيضاحُ ما أبهمَ ، واستثناء ما استثناهُ الله ، وزيادة ما زاده الله بالوحى إلى رسول الله ﷺ . وهو فى كُلّ ذلك يتعلّقُ بكلّ صغيرة وكبيرة فى حياة الفرد المسلم ، وفى حياة الجماعة ، وفى روابط هذه الجماعة ، وروابطها بغيرها من الجماعات .

وقد أحببتُ أن أختصر هذه الصفةَ ، لأعطى القارئ طرفًا من المعرفة بصفة ما تفَرّق فى كتب الفقه ، وعلم الكلام ، وكتب الآداب ، وكتب الأحكام ، وكتب الفلاسفة المسلمين ، وسائر ما كتب المسلمون فيه من فن وعلم ، كُلُّ ما فيها مُنْتَزعٌ من لفظ القرآن ولفظ الحديث ، باستنباط قائم على أصولٍ ضابطة لا مَثيل لها فى منطقٍ أو غيره .

ومثل هذه الصورة فى لغة القرآن والحديث ، لا تكادُ تَتَّضح لرجل مثل « توينبى » ، لأنّ عهدهُ بالتوراة والإنجيل ، أنهما كتابان معزولان عن هذه الحياة من حيث هُمَا نصٌّ شاملٌ لتفاصيل المعانى التى يحتاج إليها البشر فى جميع معاملاتهم اليومية ، وفى خاصِّ شؤونهم البادية والمستورة ، إلى آخر ما ذكرنا قبل . فهو لا يرى « القرآن والحديث » إلاّ من خلال معرفته بكتابَيِ الدين المسيحى ، فيرى القرآن كالإنجيل مثلاً ، أخبارًا وعظاتٍ ، وشيئًا يُتْلى فى بعض الصلوات . والتقيُّدُ بلفظه غير مفهوم عنده ، على الوجه الذى نعرفه نحن من التقيُّد بلفظ القرآن ولفظ الحديث فى استنباط الأحكام .

فالأمم المسلمة ، سواء أكانت عربية اللسان والأصل ، أم كانت غير عربية اللسان والأصل ، لا ترى القرآن إلا على الوجه الذى حاولت بيانَه فيما سلف ، وأستغفر الله من التقصير . وهى لا تعدُّ اللغة الفصحى ، أو اللغة العربية ، « لغةً

دينيَّة » ، أى لغةً للعبادات والرُّسوم ، كالذى عند طوائفِ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بل هى عند جميعهم لغة المسلمين التى لا يستغنى أحدٌ من الناسِ كائنًا ما كان عن إتقانها ، والتوسع فى معرفتها ، والضبط لعلمها ومادتها وفقهها ، ما دام منتسبًا إلى شأن من شؤون الحضارة التى يعيشها ، فهو محتاج إليها إذا كان فيلسوفًا منطقيًّا ، من الوجه الذى كان الفقيه ، والأصوليّ محتاجًا إليها ، وسواء بعد ذلك أكتب فى الفقه أو الفلسفة باللسان العربىّ ، أم بلسانه هو غير العربى . وهذه هى السيرة التى كان عليها علماء الترك والفرس والهند . وسائر الأمم الإسلامية التى لم تتخذ العربيةَ لسانَهَا الذى لم يبق لها لسان غيره .

وأمَّا شُبْهَةُ « اللغة الدينية » ، فإنّ الداعى إليها ، إن صحّ ما أقول ، هو أن الدعاة والمبشرين والمستعمرين ، لمّا دخلوا بلاد الإسلام فى إفريقية والهند وغيرهما ، ورأوا الطفلَ الصغيرَ والجاريةَ والغلامَ ، كُلَّهم يحفظ القرآن عن ظَهْرِ قَلبٍ ، ويتلوهُ فى صلاته خاشعًا باكيًا ، ورأوا أن بعضَهم لا يعرف من العربية إلا ما يحفظ من القرآن ، ولا يحسنُ يقرأ شيئًا بالعربية إلا القرآنَ ، ظنُّوا أن ذلك كذلك ، لأنَّ اللغة العربية « لغة دينية » ! وهذا ظنٌّ سخيف جدًّا عندنا بالطبع .

وذلك ، لأن كُلَّ مسلم ، عربيًّا كان أو غير عربىّ ، يعلمُ علمًا يقينًا أن القرآن كلامُ الله ، وأن مجرَّدَ تلاوته عبادةٌ يُثابُ المرءُ عليها ، وحفظَه عبادة أخرى ، وفَهمَهُ عبادة ثالثة ، والتفَقُّه فى معانيه عبادةٌ رابعةٌ ، والنظرَ فى كتابته عبادةٌ خامسة . ولكل شىء من هذه العبادات ثوابٌ ، فضْلاً عن أنه كلامُ الله الذى يفارق كلامَ البشر من كل وجهٍ ، وهو من الله وإليه ، يتعبّد المُسْلمِ بأن يستودعه صدرَه ، لأنه كلام ربّه . وعلى هذا المسلم بعد ذلك أن يتعلَّم إن استطاع لغة القرآن ، ليفهمه ويتفقَّه فيه ، وذلك خير ما يفعلُ ، وإلا اقتصر إذا لم يستطع ، على معرفة دينه بلسانه هو ، ودينه هو ما يتضمنه القرآن والحديث ، مما يشمل كل صغيرة وكبيرة فى حَيَاته الخاصة أحيانًا ، وفى حياته العامة أحيانًا أخرى ، على الوجه الذى أسلفنا بيانه . وهذا كافٍ فى الدلالة على أن اللغة الفصحى ، أو اللغة العربية ، ليست « لغة دينية » ، بالمعنى الذى تُعَدُّ به « اللاتينية » مثلاً « لغة دينية » .

* * *

وينبغى لنا أن ننعم النظر فى شأن « القرآن » ثم فى شأن « الحديث » ، لأنهما كانا أوَّل فَاتِحَيْنِ فَتَحَا كُلَّ أرض من بلاد العالم الإسلامى كله ، ما بين أقاصى الصين إلى أقاصى المغرب ، وما بين قلب أوربة إلى أواسط إفريقية وجزائر الهند ، فى آسية ، فصار للقرآن دَوِىٌّ بين أرجاء هذا العالم قرونًا متطاولة ، يعرفُه من شهد بقاياهُ فى مساجد مصر نفسها منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، والذى لم يخطئه رحّالةٌ أوربىٌّ كتب رحلته فى أرجاء العالم الإسلامىّ منذ مئة سنة أو ما قبلها ، فهذا الرِّكَاز الباقى بعضُه قائمًا فى العالم الإسلامى ، خليقٌ أن يدفَع العرب إلى حمل أمانة القرآن بحقّها مرةً أخرى ، وحمل أمانةِ لغة القرآن بحقها مرة أخرى ، والإقدام بلا تردُّدٍ على إنجاز أكبر فَتْحٍ ، بردِّ جميع البلاد الإسلامية غير العربية إلى القرآنِ كلامِ الله ، وإتمامِ ما بدأه الآباء من تعريب نصف اللغة ، كما فى التركية والفارسية والأُرْدِيّة وغيرها ، بردِّ هذه الألسنة إلى لسانٍ واحدٍ هو اللسان العربىّ ، بعد أن أزاله عن مكانه مكرُ العدوّ وطغيانُ الغازى .

وكأنك ترى هذا توسُّعًا فى الأمل الممدود مع الخيال ، وأقول : لا ، بل هو حقيقةٌ كادت تكونُ واقعةً ، ثم حالت بينها الحوائل ، ولماذا ينكرها المرء إلا من حبّ العجز واطِّراح الهمَّة ؟ وأسألك : هل كان إنجليزى واحدٌ فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، يخطر بباله أن لغته سوف تكون لغةً عالميةً تطبّق ما بين مشارق الأرض ومغاربها ؟ كلا بلا ريب ، فما الذى جعل هذا ممكنًا للإنجليزىّ بلا تُرَاثٍ إلا طُغْيان الغلبة والسيطرة ، وجعله غير ممكن لى ، وأنا أملك ما هو أفعل من الغلبة والسيطرة ، وهو دين الله الذى يتساوَى فى حَمْل كتابه والقيام بلغته العربىُّ وغيرُ العربىّ ؟

وليتأمَّلْ امرؤٌ ينكر هذا ، بعضَ ما حدث للغته ، فإنّ لغة العرب كانت لها السيادة فى إفريقية وآسية ، فزاحمتها لغات الغزاة حتى زحزحَتْها عن مكانها ، أو أزالتها من الألسنة ، ووضعت فى ألسنة الإفريقيين والأسيويين ألسنة إنجليزية أو هولندية ، أو برتغالية . وقد شَهِدنا بالأمس القريب اجتماعَ الإفريقيين وغيرهم فى مصر ، فكان خطيب كلّ أمّةٍ يخطُبُ بالإنجليزية أو الفرنسية ، وآباءُ هذا الخطيب نفسه كانوا إلى

عهد قريبٍ يكتبون بالعربية ، ويؤلفون بها ، ويقولون فيها شعرًا ، هذا على قلّة التواصُل كان بينهم وبين بلاد العرب ، لبعد المسافات ، وغلبة الاستعمار . والذى حدث هو أن الاستعمار قد جعل حَربَ اللغة العربية أحدَ أسلحتِه ، كما جعل التبشيرَ سلاحًا لمحْوِ الإسلام من إفريقية ، وهو يصرِّح بهذا اليوم غير مُوَارِبٍ فيما يكتب عن إفريقية .

فإذا صحّ ذلك ، وهو صحيح ، فاللغة الفصحى التى ذكرها « توينبى » ، وبيَّنَ أنها هى الرِّباط الوثيق الذى يمنع العالم العربىَّ من التفكك ، إذا أرادَ مُرِيدٌ أن يدخلها فى معركة مع اللغة العامية التى تؤدى إلى التفكّك ، كما تنبّه إليه « توينبى » أيضًا ، فإنَّ هذه المعركة لا يمكن أن تُعَدَّ معركة أدبيَّة مجردة من العوامل السياسية والدينية ، الخفيّة والظاهرة . وكل من يريدُ أن يدسّ هذه الحقيقة فى ضَبَاب من الغموضِ ، ومن الألفاظ المبهمة ، ومن المغالطات ، فإنه امرؤ مُرِيبٌ يكتم أمرًا يرمى إليه ، لآفةٍ ينطوى عليها . أمَّا الدُّعاة إلى ذلك ، كصبيان المبشرين أمثال التالف الغبىّ سلامة موسى ، ولويس عوض ، ومن سأذكرهم فيما بعد ، فهؤلاء قد تجرَّدوا لهذه الحرب السياسية التى اتخذت الدعوة إلى العامية سلاحًا يُرادُ به تفتيتُ قوةٍ متجمّعة كانت ، أو تفتيتُ قوة هى فى طريقها إلى التجمع . وكل الذين يغفلون عن هذه المعارك ، ويعدُّونها معارك أدبية (!!) أى معارك ألفاظٍ ، كالدكتور مندور وأشباهه ، إنما يخاطرون بمستقبل أمم قد ائتمنوا عليها .

وإلى اللقاء فى الأسبوع القادم .

... وَأيْضاً

الرسالة

الخميس ٣ شوال ١٣٨٤



١١

لا أدرى ما الذى أصابَ صحافتنا فى هذه الفترة من تاريخنا ؟ نعم كنت كما قلت فى المقالة الثامنة ، أتابع زحفَ القوى الشريرة منذ عَهد قديم ، بلا غفلةٍ عن بوائق هذا الزحف . ونعم ، كان هذا الزّحف يتشعَّبُ ويمدُّ خَطاطيفَهُ إلى جميع وسائل النشر والإعلام ، من كتب وصحافة وإذاعة وتلفزيون ، ولكنَّه كان فيما أظنُّ ، يعتمد على التدسُّس الخفيِّ الذى لا يكادُ يعلنُ عن نفسِه إلاّ فى الخَطْرةِ بعد الخَطْرة ، وكان حَذِرًا لا يُعالِنُ بكشف اللِّثام عن مَعارِف وجهه ، بل كانَ إذا انكشف اللثام مرَّةً ، دلَّس على الناسِ بشىء من الألفاظ والأعمال ، كحُرِّيّة الرأى ، وحرِّيّة النشر ، وإتاحة الفرصة للمخالفين أن يعبّروا عن آرائهم . بيد أنّى رأيتُه فى هذه الفترة ، يرتكبُ خلافَ ما اعتادهُ بالأمس .

وأدعُ التلويحَ إلى التصريح . وذلك أنى أنبأت قرّاء الرسالة فى المقالة التاسعة أن الدكتور محمد مندور ، نشر كلمةً فى مجلة « روز اليوسف » تناولنى فيها بما لم أكن أظنُّ أنه يليق بمثله أن يفعله ، وأنِّى كتبت إلى مجلة « روز اليوسف » كلمة مختصرة ، أردُّ عليه قالةَ السُّوء التى قالها عنّى ، لتنشر حيث نشر كلامه . وكنت على يقينٍ أنّ مجلة « روز اليوسف » ، سوف تنشر هذه الكلمة حيث نشر الدكتور مندور كلمته . وذلك لأن هذا النشرَ حقٌّ طبيعى وحقٌّ قانونىٌّ ، درَجتْ عليه كلُّ الصحافة منذ كانت ، بلا اعتبار لأىِّ شىء سوى هذا الحقّ . والكلمة التى كتبتها لهذه المجلة لا تخرجُ عن حدّ التوضيح لما أساء الدكتور فيه القالةَ عنّى ، ولم أتجاوز فيها القدرَ الذى يخصُّنى مما جاءَ فى كلمته ، فلم أناقشه رأيًا ، ولا تحاملتُ عليه فى عتابٍ أو لومٍ . ففوجئت بإغفال هذه المجلة فى الأسبوعين الماضيين لما هو حقٌّ معترفٌ به عند الناس جميعًا ، ولا أقول فى آداب الصحافة ولا فى إلزام القانون . وأنا لم أكتب هذه الكلمة لمجلّة « روز اليوسف » إلاَّ لأنى وجدتُه من الأَدب وحسن الخُلُق ، أن

لا أُغْفِل شأنَ هذه المجلة ، ولا شأنَ الكاتب فيها ، فآثرتُ أن أكتب لها أوّلاً ، قبل أن أنقل لقراء الرسالة خبرَ ما قاله الدكتور عما أكتبه فيها .

وأظنُّنى ، بفعلى ذلك ، قد وضعتُ الأمرَ فى نِصَابِه ، فليتَ شعرى ، ما الذى حَدَا بهذه المجلة أن لا تضع هى أيضًا أمرى وأمرها فى نصابه ؟ أيبلُغُ التحيُّز إلى فئة من الفئات ، أن يخالف ما درجَ عليه أدبُ الصحافة ، وما كفَله القانون من حقّ الدفاعِ عن النفس = وأن يُهْدِر المرء حقًّا معترفًا به ، لا لشىء إلا لأن المشرفَ على الصحيفة أو المجلة يَحْطِبُ فى هَوَى عصابةٍ من الناسِ ، ليست كلمتُهم التى يقولونها ، أولى من كلمةِ مخالفيهم بالاحترام والتقدير ؟ وإذا كان هذا المشرف على الصحيفة أو المجلة ، قد أباح لنفسه أن ينشر فى صحيفته أو مجلته كلمةً تمسُّ رجُلاً من الناسِ ، أيًّا كان هذا الرجل ، فإنَّه لا يستطيعُ أن يبيحَ لنفسه التحكُّمَ فى نَشْر كلمة يدفع بها هذا الرجل عن نَفْسه مقالةَ سُوءٍ ، يراها قبيحةً أن تقالَ بلا برهانٍ أو حجةٍ .

وأنا لا أقول هذا لأنه كان مما يسرُّنى أن تُنشر كلمتى فى مجلّة « روز اليوسف » ، بل أقولُه دفاعًا عن حُرِّية الناس ، وعن كرامتهم ، لأنّ الذى يُفعل معى ، خليقٌ أن يفعل مع كُلِّ أحدٍ تتناوله الألسنة ، ثم لا يجدُ وسيلةً يعبِّر بها عن رأيه ، حيث تناوله ويبقى حقُّه مضيَّعًا لا يدرى كيف يناله ، ما دام المشرف على الصحيفة أو المجلّة ، يعدُّ نَفْسه صاحبَ الحقِّ المطلق فى النَّيْل من أقدار الناس أو آرائهم أو أعراضهم ، ثم صاحب الحق المطلق فى أن يمنع هؤلاء من الدفاع عن أنفسهم ، أو كَشْف التزييف الذى تتولّى صحيفته أو مجلته نشره وإذاعته على جماهير الناس . وإذا كنت أنا قد وجدت مجلة الرسالة ، لأقول فيها ما أزيِّف به مقالةً تُقال عنِّى ، فعسى أن لا يجدْ مئاتٌ من الناس مكانًا يتيح لهم الدفاع عن أنفسهم .

وأحبُّ أن أسأل : من الذى أعطى المشرفين على الصحف أو المجلاتِ هذا الحقَّ المُطْلَق ؟ وبلا ريب ، لم يعطهم أحدٌ هذا الحقّ ، بل لعلّهم لم يُنَصَّبوا مشرفين على الصحف والمجلاّت ، إلاّ لكى يتيحُوا لكلّ ذى رأيٍ أن يعبِّر عن رأيه ، ولكُلّ صاحب حقٍّ أن يدافع عن حقِّه ، بلا تفريق ، وبلا تحيُّزٍ . فإن كان عند هؤلاء المتحيِّزين إلى عصابات من الناس سلطانٌ قد فُوِّضوا به أن يُهْدِروا ما شاءوا من

الحقوق ، وأن يمتهنوا ما شاءوا من آداب الصحافة وواجباتها ، فليعلنوا ذلك ، حتى يكفّ كل امرئ عن الاهتمام بما ينشر فى صحفهم أو مجلاتهم ، ويكون ذلك منهم عدْلاً وإنصافًا ، يقبله الناسُ راضين أو كارهين .

لم أكتب هذا غضبًا لنفسى ، بل غضبتُ لكرامة أمةٍ أنا أحد أبنائها ، ولصحافة لم أزلْ أعرفها مذ عقلتُ ، ترعَى حُرْمة الرأى والدفاعَ عنه ، مع أنها كانت يومئذٍ ترتكسُ فى حمأة الاستبداد والظُّلْم والخيانة ، ولكنها على ذلك كلّه ، لم تكن تجترئ على حقوق أبناء الأمّة وآرائهم وأعراضهم ، بالتحكُّم الغليظ الذى لا خير فيه .

فليت شعرى ما الذى أصاب صحافتنا فى هذه الفترة من تاريخنا ؟ إنّ هذا لعجيب ! ولكنَّ زمانًا أتاحَ لأحد صِبْيان المبشرين أن يصبَّ فى أكبر صحيفة فى العالم العربىّ والإسلامى كلَّ ما فى قلبه من الحقودِ والجَهالات ، وسمادير المخمورين ، ووَساوس الممرورين ، ويدُوس بأقدامه تاريخ العرب والمسلمين بلا رادع وبلا حياء = لا يُستنكر فيه أن يضيع حقُّ امرئ يناله قَلَم بمسٍّ رفيقٍ جارح ، كالمسّ الذى أصابنى من قلم زميلى القديم الدكتور مندور ، وكان أجدرَ بى أن أقولَ له ما قال كُثَيِّر لصاحبته عزّة ، حين حملها زوجُها على سَبِّه :

يُكلِّفها الخِنزيرُ شَتْمِى ومَا بها ... هَوَانى ، ولكنْ لِلْمَلِيكِ استذَلّتِ
هَنِيئًا مَرِيئًا ، غيرَ داءٍ مُخَامِرٍ ، ... لعزَّةَ مِنْ أعراضِنَا ما اسْتَحَلَّتِ

وما كان أحكم طَرَفة بن العَبْدِ ، إذ يقول ، فى المثل المعروف :

يا لكِ مِنْ قُنْبَرَةٍ بمَعْمَرِ ... خَلاَ لكِ الجوُّ فَبِيضِى وَٱصْفِرِى
وَنَقِّرِى ما شِئْتِ أن تُنَقِّرى ... قَدْ رَحَلَ الصَّيَّادُ عَنْك فَٱبْشِرِى
ورُفِعَ الفَخُّ فَمَاذَا تَحذَرِى ... لاَبُدَّ مِنْ صَيْدِك يَوْمًا فَٱصبِرِى

وأعاهد نفسى منذ اليوم ، أن لا أرتكب مثل هذه الحماقة مرةً أخرَى ، مهما قيل عنى ، ومهما نُشِر ، فإن ذلك أهدَى سبيلاً من السبيل التى غرَّتنى بها نفسى ، وثقتى بالناسِ . وفى مجلة الرسالة مَقْنَعٌ وسَعَةٌ لما أريدُ أن أقول ، وهى حسبى ، إن شاء الله .

* * *

وإذا كان القارئ قد أنساهُ طول الاستطراد فى قضايا تخلّلَتْ قضيةَ العامية وإرادة استبدالها بالفُصْحى ، فإنى لم أنسَ ما بدأتُه . وعندى أنّ هذه القضيّة لم تكن قطُّ قضيةً مفردةً برأسِها ، بل كانت قضيّةً متشعّبة الجذور ، كلّ جِذْرٍ يمدُّهَا بضربٍ من الغذاء . ويصبغُها بلون من الصِّبْغة . ولا أزعُمُ أنّى قادِرٌ على أنْ أستوعب القولَ فيها استيعابًا مغنيًا شافيًا كافيًا فى هذه المقالات ، فإن ذلك ضدُّ طبيعة المقالة ، لاعتماد المقالة على الفكرة الواحدةِ المترابطة ، ولكن حاجة القرّاء إلى المقالة أشدُّ أحيانًا من حاجتهم إلى الكتاب ، وهو وحده الخليق باستيعاب القول الشافى .

ومع ذلك ، فما الذى يضيرُ القارئ أن يسير معى فى الدُّرُوب المتشابكة ، فيرضى أن أسلك معه دَرْبًا ، ثم أستوقفه ليَسلُك معى دربًا آخر ، ثم نعود إلى الدرب الأوّل ، ثم نعرجُ معًا إلى دربٍ ثالث ، يُفْضى بنا مرّة أخرى إلى الدرب الثانى أو الدَّربِ الأوَّل ؟ لا يضيرهُ شىءٌ ، فيما أظنُّ . وهَبْهَا رحلةَ استكشافٍ لمَتاهةٍ من الأرضِ مجهولة ، وهَبْها رحلةَ استمتاعٍ بتاريخٍ متطاولٍ ! أليس ذلك وحده مَتاعًا ؟ فما ظنُّك إذا كان فوق المتاع ؟ ما ظنُّكَ إذا كان أمرًا لابُدَّ مِنْه لمعرفة المكر الخبيث الذى أحاط بأمّةٍ يرادُ لها الهلاكُ المصبوبُ عليها من حيث تتلفّتُ ؟ ما ظَنُّك إذا كان أمرًا يتعلَّقُ بإتلاف ماضيها كله وسَحْقه ، وسَلْخِها من هذا الماضى بآلاف من الوسائل التى تُرَى هيّنَةً عند أوّل النَّظر ، فإذا رددّت النظر إليها ، هالَك ما يهولُك من وخيم العواقب ؟ .

ما ظَنُّك إذا كانَ شىءٌ مثلُ لويس عوض ، وأشباهٌ له كُثْرٌ ، قد اسْتُخْدِموا لينبثُّوا فى كلِّ ناحية من حياتنا الأدبية والثقافية والاجتماعية ، وكلٌّ منهم فى لباسٍ يتنكَّرُ فيه ، ليؤدّى مُهمّةً هو مكَلَّفٌ بها ، طبقًا لدراسةٍ مخططةٍ ، تأتى فى مواقيت بعينها ، مندسَّةً فى الانتفاضات الكبرى ، لتقضىَ أرَبَها من القضاء على كلِّ انتفاضة ، أو تحويلها عن صحيح أهدافها ، أو تعويقها عن السير فى الطريق الذى كان ينبغى أن تسير فيه إلى غايتها ؟ أمِنَ العبث عندئذٍ أن أقفَ متمهِّلاً ، أدُلُّك على مواطئ أقدامِ الفُتّاك والخُبَثاء ، وعلى مَسارِبَ كالتى وصفها المتنخِّل الهذلىُّ إذ يقول :

كأنّ مَزَاحِفَ الحيَّاتِ فيه ... قُبَيْلَ الصُّبْح آثارُ السِّيَاطِ

وإنها لحيَّاتُ لَيْلٍ مُظْلِمٍ ، لا يُشْفَى لها لديغٌ . ولا ينبئك مثل خبيرٍ ، فإنى كنتُ

أحد من ابتُلى بلدغها ، ثم أعان الله سبحانه فبرئتُ قبل أن يفتِكَ بى سَمُّها الناقع ، ثم وقفت أرصُدُها وأَرصُدُ مزاحِفَها ، وأطأ منها ما أطأ بقدم ثابتةٍ ، بصيرة بما يجنّبُها المتالف والمهالك ، وكان ذلك حسبى فى وقاية نفسى شرَّ فتكها . أما الآن ، فإنىّ وجدتُه فريضةً محكمةً أن أبصِّر أهلى وعشيرتى وأوقظهم إلى ما يكمنُ لهم فى الطريقِ من هلاكٍ مُوبقٍ ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عَمِىَ فعليها ، والله سبحانه وتعالى يقول لنبيّه ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ، فعلى كلّ ذى علم أن ينصح الناس بما علم ، والله يهدى من يشاء .

* * *

وقد أسلفتُ البيان عن حقيقة عمل « التبشير » ما هو ، وأنّ توهُّم « التبشير » دعوةً للدين المسيحى ، أمرٌ باطلٌ ، بل هو أحدُ أدوات الاستعمار الغربىّ فى آسية وإفريقية ، ولا يهمُّه من الدّين إلا الغلبة بأىِّ أسلوب كان ، حتى يكفل سيادة الحضارة الغربية على حضارات الأمم ، ولا سيما أكبر حضارة فى عالمنا نحنُ ، وهى الحضارة الإسلامية ، التى سادت آسية وإفريقية إلى أن خرجت أوربة لغزو بلاد الإسلام ، وبيّنتُ أيضًا أن المبشرين أنفُسَهم قد علموا علمًا يقينًا أن الدعوة إلى المسيحية من حيث هى عقيدةٌ ، لا تلقى فى المسلمين أذنًا سميعةً ولا أذنًا صمّاءَ ، فكانَ المخرجُ من هذا المأزِق ، أن يكون عملُ التبشير فى ميدانٍ غير ميدان الدعوة الصريحة إلى المسيحية ، فكان إجماعًا مِنْهُمْ : أن إرساليات التبشير تعجزُ عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس معتقديها ، كما قال « شاتليه » ، ولكنها تستطيع أن تقضى لُبَانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية ، ببثِّ الأفكار التى تتسَرَّب مع اللغات الأوربية ، وتمهيد السبيل لتقدم إسلامىّ مادىّ ، وهو الذى عبّر عنه « توينبى » بأنه « طريقة العيش الغربية » ، و « اعتناق مبادئ الحضارة الغربية » ، كما أسلفت فى المقالة العاشرة . وطريقة العيش الغربية ، ومبادئ الحضارة الغربية ، هى بلا شك ، نتاجٌ طبيعىّ للعقيدة المسيحية التى تسودُ العالم الغربىّ ، لا يرتاب فى ذلك عاقل .

فكانت الوسيلة الأولى لبلوغ ذلك هى « التعليم » ، و « الصحافة » . وبالاستيلاء على هذين الحصنين ، يتمّ للمبشرين ما يريدون من هزيمة العالم الإسلامى ، فى

معركة الثقافة بلا ضجيج يُزْعج . وقد أبانت المبشرة « أنا مليجان » عن ذلك أحسن الإبانة إذ قالت :

« إن المدارس أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى ، وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يومًا ما قادة أوطانهم » !!

وتقول أيضًا عن كلية البنات فى القاهرة :

« فى صفوف كلية البنات فى القاهرة ، بنات آباؤهن باشاوات وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى . وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافةً من هذه المدرسة » .

وقد بيّن « دانبى » المبشر ذلك حين ذكر التعليم فقال : « وهكذا ينشأ الطالبُ معه فلسفة مسيحية للحياة » .

وكشف ذلك القس « زويمر » كشفًا صريحًا حين قال فى وصاياه للمبشرين : « ينبغى للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء » . وهذه أقوالٌ قديمة ، ينبغى أن يتأملها العربىّ والمسلمُ فى هذا العصر الحديث !!

ويضيف المبشر « تكلى » إضافة صريحة تكشف عن وجوه الخطر الكامنة فى التعليم الغربى ، فإنه يقول : « يجب أن نشجع إنشاء المدارس ، وأن نشجع على الأخصّ التعليم الغربىّ . إن كثيرين من المسلمين قد زُعْزِع اعتقادُهُمْ حينما تعلّموا اللغة الإنجليزية ، إن الكتب المدرسية الغربية ، تجعل الاعتقاد بكتاب شرقىّ مقدس ، أمرًا صعبًا جدًّا » . وهذا واضحٌ كلَّ الوضوح ، فى أنّ أمر « التعليم » ، على الصورة التى أرادوها ، والتى أرادها « دنلوب » وأمثاله ، هى نزعُ اعتقاد الشباب المسلم ، فى كتاب الله الذى أنزلَهُ على نبيه ﷺ ، والذى عبَّر عنه « وليم جيفورد بلجراف » فيما ذكرته آنفًا : « متى توارى القرآن ، ومدينة مكة من بلاد العرب ، يمكننا حينئذٍ أن نرى العربىّ يتدرّجُ فى سبيل الحضارة ، التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » ، وخَسِئ المبشّر التالف !

ولهذا الهدف نفسه ، سعى المبشر « لويس ماسنيون » الذى يعدُّ مستشرقًا ، حيث قال فى مجلّته التى يخدُم بها وزارة المستعمرات الفرنسية : « إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا ، يجب أن يلوَّنُوا بالمدنية المسيحية » = وهذا ليس قوله وحده ، بل هو ما تَعملُ له أكثر الجامعات فى أوربة وأمريكة ، وسائر ما يتفرع عنها من الجامعات التى تقام تحت إشرافها فى بلاد العرب كالجامعة الأمريكية فى بيروت ، وفى مصر ، كما بينتُ ذلك فى مقالة سالفة . هذا أمر الاستيلاء على التعليم والمتعلمين ، لم أزد فيه على أن نقلتُ نصوص أقوالهم دون تعليق يذكر ، فإنّ أىَّ عاقلٍ يستطيع أن يرى الطريق واضحةً بأيسر التأمُّل .

* * *

أما « الصحافة » والاستيلاء عليها ، وتَتبُّعُها بلا ريبٍ ، سائرُ وسائل الإعلام والتوجيه التى انتشرت فى هذا العصر الأخير ، فحسبُك أن تقرأ ما قاله المبشر « ولسن كاش » :

« إن الصحافة لا توجِّه الرأى العام فقط ، أو تهيِّئه لقبول ما ينشر عليه ، بل هى تخلقُ الرأى العام (تأمل هذه العبارة تأمُّلاً جيدًا) . وقد استغلّ **المبشرون الصحافة المصرية على الأخص** ، للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا فى أىّ بلد إسلامى آخر (تأمَّل هذا أيضًا) . لقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من **الصُّحف المصرية** ، إما مأجورة فى أكثر الأحيان ، أو بلا أجرة فى أحوال نادرة » .

وهذا كلام قيل فيما قبل سنة ١٩٢٣ ، فهو قول قديم ينبغى أن تتأمَّله ، وأنت تدرسُ تاريخ هذه الفترة من حياتنا . أما بعد ذلك ، فإن الأمر قد اختلف ، بعد أن صَارَ صِبْيان المبشرين مبثوثين فى كلّ مكانٍ ، وفى كل صحيفة ، يتكلَّمون بلا حرج ، وألفاظهم تنضحُ بالدلالة على حقائقهم ، منذ كان الغبىّ سلامة موسى ، إلى أن كان لويس عوض وشيعته من صبيان المبشرين = ثم ما تراكم من الخطر الأعظم بوقوع جماعةٍ لم يحاولوا قطُّ أن يرتابوا فيما يُلْقَى إليهم ، فأصابَ ذلك من نفوسهم موقعًا ، فردّدوا كلامًا فُتنوا به ، وهم لا يدركون ما وراءه من مَرَامى هذه القوى المجتمعة الشديدة المكر والبطش ، والتى تعمل دائبة بلا غفلة ولا فُتور ، على هَدْم نفوسهم ، وهَدْم بلادهم ، لكى تقع فى شَرَكٍ لا مخرجَ لها منه ، أرادت ذلك ، بعد تمام النكبة ، أم لم ترِدْهُ .

فمن الغفلة التى تطمس القلبَ والعين والعقل ، أنْ يعرف ذلك إنسان له بقيةٌ من نَخوةٍ أو كرامةٍ أو عَقْل ، ثم لا يعيد النَّظَر فى كلّ أمرٍ من أمور الأمّة العربية والإسلامية ، ليَرَى أثر إصبع التبشير العاملَ على تحطيم النفس العربية المسلمة ، فى كل ناحية من نواحى الحياةِ الأدبية والسياسية والاجتماعية ، وليُبْصِر عِيانًا صُدُوعَ التحطيم والهدْمِ ظاهرةً فى حياتنا ، وليدركَ أنَّ العدوّ الذى يريدُنا أن نعتنق مبادئ الحضارة الغربية ، وأن نعيش طريقة العيش الغربية ، إنما يريد أن يقوِّض بناءً كاملاً تَمَّ كمالُه فى قرون متطاولة ، وبَقِى يقارعُ الخطوبَ والأحداثَ والنكباتِ دهورًا ، محتفظًا بقوته وكيانه ، ولم يجترىء عليه العالمُ الأوربىّ المسيحىّ ، إلاّ بعد طول تردُّدٍ فى القرن التاسع عشر ، كما قال « توينبى » .

* * *

ولأنَّ أحكم عُرْوة كانت تربط العالمَ الإسلامى ، على اختلاف ألسنته وأجْناسه فى قارتى آسية وإفريقية ، هى لغة العرب التى بها نزل القرآن ، كما قال القس المبشر « زويمر » ، وكما أشار إلى بعض ذلك المؤرخ الانجليزى « توينبى » ، فإنّ « التعليم » الذى فرضه الاستعمار الغازى على العالم الإسلامىّ ، والذى تولاَّه التبشير بفتح مدارسه فى كل بلد من بلاد هذا العالم ، اعتمد أوَّلَ ما اعتمد على محاربة اللغة العربية حيث كانت ، كما شهد بذلك الأستاذ الفاضل جرجس سلامة فى كتابه عن التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين (١) ، وكما يدلُّ عليه أيضًا ما انتهت إليه مدارسنا من الاستهانة بشأن اللغة العربية ، وظهور ذلك ظهورًا بيِّنًا فى جميع نواحى حياتنا التى نحياها اليوم . وسببُ هذا البلاء الذى نعانيه ، إنما هو الهدفُ الذى أرادَه « دنلوب » بنظامه الذى سيَّر عليه المدارس المصرية حينًا طويلاً ، بأن يجعل اللغة الإنجليزية هى السائدة فى التعليم كلِّه ، ويجعل لغة البلاد كأنها لغةٌ أجنبيةٌ تُدْرسُ فى غُرْبة شديدة على نفوس الناشئة ، فلا يكاد يطول زمنٌ ، حتى ينحلّ الاهتمام بها شيئًا فشيئًا ، حتى تكاد تصبح لغة غريبة على أبنائها وأهلها ، وهكذا

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٥٢ .

كان ! = (ولكن من المحزن ، ومن المخزى ، أن يكون هذا هو الهدف الحقيقى الذى سعى إليه نظام « دنلوب » أكبرَ السعى وأصدقَهُ ، ثم لا نزال إلى الساعة نسمع من يقول للناس إن نظام دنلوب ، كان يرمى إلى إخراج طبقة من الموظفين ، لا غير . وهذا باطل معرقٌ وقصْدٌ سخيفٌ ، لا يصدّقُه إلاّ من أعوزته ملكة نقد الأقوال والأخبار والشائعات المروَّجة لستر الحقيقة ، فهو لذلك لا يبالى أن يحاول عرضَها على صريحٍ من العقل ، أو على شهيدٍ من الواقع) [1] .

وإذا كان الغربُ قد توقَّى طوال هذه الفترة أن يواجه العالم الإسلامى فى ميادين القتال ، مخافة أن تكون عاقبة التلاقى وجهًا لوجهٍ وخيمةً ، كما قال « توينبى » ، فإنه قد جاء ما لم يكن قادرًا على توقّعه يومئذ ، فضلاً عن توقِّيه . فقد كانت نتيجة التصادم بين قوى الأمة العربية والإسلامية ، وقوى الاستعمار والتبشير فى ميدان الحرب اللغوية ، والحرب الثقافية ، أن انبعثت فى جميع أرجاء العالم الإسلامى حركة إحياء شديدة العجلة ، كالذى حدث فى الهند وغيرها ، وانطلقت أيضًا حركةٌ عربيّةٌ تفورُ بالآمال وبتحقيق الآمال معًا ، كان يحمِلُ لواءها يومئذ ، البارودى ، وذلك فى نحو سنة ١٨٧٠ ، كما أسلفت ، فإذا بنا نُفاجأ بعد قليلٍ بدعوة سخيفة جدًّا عند من يحسنُ النظر ، ومَنْ له أدنى قَدْرٍ صحيح من سلامة الطبع ، ومَنْ عنده أدنى قَدْرٍ من حبّ بلادِه ولغة أمته ، ومَن له أدنى حسٍّ بطبائع الألسنة البشرية وتاريخها ومَدارجها على العصور المتطاولة . ولاَ عجبَ ، فإنها كانت دعوةً خبيثة المخرج ، اهتبلتها مؤسسات التبشير ودُعاته على حين فترةٍ من غلبة الجهل بالقراءة والكتابة فى جماهير الناس ، وعلى حين الوقوع فى قبضة الاستعمار الذى كان يشلُّ حركة المصلحين ، فيمنعهم بوسائل مختلفة من إدراك ما يبتغون من إصلاح حال أمَّتهم ، إلا بعد جُهْدٍ جاهدٍ .

وهذه « الدعوة » ، هى دعوة استخدام العامية واستبدالها بالفصحى فى التعليم والكتابة ، التى لم يكن لها مَخْرَجٌ فى مصر منذ سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٩٠٢ ، إلاّ من

---

(١) انظر ما سيأتى فى آخر مقالة : « ضفادع فى ظلماء ليل ... » .

ثلاثة من المبشرين ، فى أى ثيابٍ مدنيَّةٍ كانوا ، هم « سبيتا » الألمانى ، و « ويلككس » و « ولمور » الإنجليزيان ، ومخرجٌ فى بيروت ، هو مجلة المقتطف ، التى كانت ترتضع أسباب بقائها يومئذ من أكبر مؤسسة تبشيرية دخلت إلى ثغر من ثغور بلاد العرب فاستقرت فيه سنة ١٨٦٥ ، وهى « الكلية السورية الإنجيلية » ، التى تعرف اليوم باسم « الجامعة الأمريكية » ، والتى لم ينْقُضْ تغيير الاسم شيئًا من حقيقتها التى عليها أنشئت ، ولها ولتحقيق أهدافها لا تزال تعمل ، بلا مواربة ، إلا بعضَ المخافتة .

* * *

وخُبْثُ مخرج هذه الدعوة فى أوَّل عمرها ، طمس عليها وعلى أصحابِهَا وعلى مؤلفاتهم أو كتابتهم فيها بعض الطمس ، ولكن هل كان قضاءً عليها ، وإزالةً لهَا ومحوًا ؟ كلاَّ ، فإن هذه الدعوة المكتوبة ، كانت تُرْفِدُها أسبابٌ أخرى من خارج ، أمثالَ اليهوديّ « يعقوب صَنُّوع » ، وتصنُّعه الوطنيةَ والدفاعَ عن الحق ، وممارسته ذلك بالكتابة العامية ، ثم بدء نشأة المسرح العاميّ ، وهو اللَّهو الذى تسرع إليه النفوس . وتُرْفِدها أيضًا ضروبٌ من الإعداد كانت تتمّ فى المدارس الأجنبية التى وصفناها آنفًا ، وفى المدارس الثانوية والعالية أيضًا ، التى كان بعضها خاضعًا خضوعًا مباشرًا للإنجليز ، وعلى رأسهم « دنلوب » ، ومن يحيط به من المبشرين فى صورة أساتذة ، أو خضوعًا مباشِرًا للفرنسيين فى عهد الإنجليز ، كمدرسة الحقوق ، التى كان طلبتها يمارسون ممارسة علميةً إهدارَ الفقه الإسلاميّ والشريعةِ كلِّها بأصولها ، وإحْلالِ القانون الفرنسى الوضعيِّ مكانهما . ويقترن بهذه الدراسة التى تغلبُ عليها الفرنسية ، والإعجاب بها وبآدابها وفكرها ، ضربٌ من الإعراض عن العربية أحيانًا ، أو ضرب من الشك والاستهانة ، أو ضربٌ من عقلة الاحتفال وإسقاط أمرها كلّه من الحساب .

ولكن منذ سكتَ صوت ويلككس وولمور فى سنة ١٩٠١ ، لم يكد يسمع صوتٌ صارخٌ يتولى الدعوة إلى العامية واستبدالها بالفصحى ، ولكن كان التعليم كُلَّه فى المدارس العالية والثانوية والابتدائية أيضًا ، لا يزال منحرفًا عن لغة البلاد العربية إلى تغليب اللغة الأجنبية فى تدريس جميع العلوم ، ثم زاد الإلحاح فى ذلك زيادةً

شديدةً ، فكان ذلك تعطيلاً تامًّا للقوّة التى تنشأ من أبناء البلاد ومثقفيها ، وجعلها فاقدة للقدرة على التعبير بلسان قومِها ، فى العلم الذى أفنت الليالى والأيّام فى تعلّمه على عِلاّته ، لمنفعة أمتها . وفى هذه الأحوال ، لا يأمنُ المرء أن يجد استعدادًا شديدًا للانحراف فى التفكير ، ولا سيما إذا خالط الفكرَ شيءٌ يَقسِرهُ على الخضوع لسيادةٍ ارتضاهَا حُبًّا وإعجابًا ، أو هَوانًا ومَذَلّةً ، أو خيانةً وسوء نيَّة .

وفى هذه الفترة أيضًا احتدمَ ما أحياهُ الباروديّ ، فظهر من الكُتّاب والشعراء مَنْ مَهّدتْ لهم قواهم أن يتصدّروا قيادة الطريق إلى إحياء العربية ، فى الجماهير الباقية المحبة للغة بلادها ، دون معونة تحدثها المدارس ، من تخريج جمهورٍ محبّ للغة بلاده ، يتكاثر به عددُ هذه الجماهير . وكان فى مقدمة ورثة البارودى ، فى باب الشعر خاصة ، جماعة تكاثروا ، تقدَّم منهم شوقى ، وحافظ ، ومَطْران ، وعشرات من نوابغ الشعر من بعدهم . ولكن كان أمر الإحياء كما ترى ، كجناحى طائرٍ ، أحدهما ناهضٌ يَخْفقُ ، والآخر مهشوم مكسور مَهِيضٌ ، فكلما تكاثر عدد المتخرجين من هذا التعليم بتكاثر المدارس ، زاد هذا فى جانب العامّة ، ولم ينفع خاصَّةَ الإحياء العربىّ بشىء يذكر .

* * *

ومضت الحياة السياسية تضطرب منذ احتلال الإنجليز لمصر ، واستيلائهم على كُلّ ما فيها سنة ١٨٨٢ ، بعد هزيمة زعيم البلاد ، أحمد عرابى . فنشأ بعده مصطفى كامل ، وبدأت به حركة جديدة للإحياء من وجوه أخرى كثيرة ، وبدأت تتكوَّن نواةُ مقاومةٍ يغذيها الإنجليز والفرنسيون وجميع أعوانهم ممن لهم سلطة أو جالية فى هذه البلاد ، ليحولوا بين دعوة مصطفى كامل ، التى تقوم فى أساسها على الاعتراف بالخِلافة التركية ، وعلى الأمل فى أن تخرج تركيا من محنتها التى أوقعها العالم فيها الأوربى المسيحى ، الذى طوّقها ، وجعل يطعنُها من جميع نواحيها ، ثم سمّاها « مريض أوربة » ، بعد أن سلط عليها كُلَّ جراثيمه الفتّاكة ، بالدسِّ والمكر والخداع .

فبعد فترة بدأت دعوة « مصر للمصريين » ، معارضةً لمبدأ مصطفى كامل ،

وأحيطت هذه الدعوة ، بكُلِّ الوسائل المثيرة ، التى يكون ظاهرُها إنقاذَ الوطنِ من براثن الاستعمار الأجنبىّ ، بما فيها تركيا ، هكذا يقولون ! ، وباطنُها تثبيت القواعد الفكرية التى تحمل الشابّ المصرىّ على أن لا يرى شيئًا يربطه بشىء من البلاد التى تحيطُ به ، سِوَى ظِلٍّ باهتٍ من الروابط الدينية واللغوية التى فُرِضت عليه فرضًا ، كما قال ذلك بعضهم فيما بعد . ثم يَرَى أن مردَّهُ كُلَّه إلى مصر وحدها ، وإلى تاريخها القديم العريق فى الآباد البعيدة ، وهو تاريخ الفراعنة ، الحافل بالآثار القائمة ، والتى يأتى السائحون من كُلّ أَوْبٍ لرؤيتها أو دراستها .

تولّى كِبرَ هذه « الدعوة » بلا إطالة فى الردّ عليها أو تفسيرها ، رجلٌ ولد فى سنة ١٨٧٢ ، وأتم تعليمه الابتدائى فى عهد الاحتلال سنة ١٨٨٥ ، وتعليمه الثانوى سنة ١٨٨٩ ، ونال شهادة الحقوق فى سنة ١٨٩٤ ، ثم تولى تحرير الجريدة (التى كانت شركة مكونة من محمد محمود ، وعمر سلطان ، وأحمد حجازى ، ومحمود عبد الغفار ، وهى أسماءٌ لها أثرٌ فى بعض تاريخنا السياسى) ، وهذا الرجل هو : « **أحمد لطفى السيد** » .

وهذا الرجل عندى شديد التناقُضِ ، ينبغى أن يُعاد دَرْسُهُ ودرس تاريخ نشأته ونشأة أسرته ، وتفاصيل حياته بدقة متناهية وبحذَرٍ بالغ . فحيثما سرتُ فى قراءة تاريخه أو آثاره ، أجد له أقوالاً متناقضة ، وأعمالاً تناقضُ أقوالَهُ ، وأحسُّ وأنا أقرؤه بجبَلٍ من التكلُّفِ جاثم على قلبى ، وألْمَسُ وراء ألفاظه ادِّعاءَ رَكانةٍ ليست فى الطبع ، بل هى مستحدثة بإرادة وعزيمة صادقة ، وكلماتُه توحى لى دائمًا بصوتٍ له همهمة غامضةٌ ، تخفى أكثر مما تُعلِنُ ، حتى لقد وجدت أثَرَ ذلك فى ترجمته لكتب لأرسطو . وهذا أمرٌ غريبٌ جدًّا ، لا يكادُ يتفق فى الترجمة على وجه التخصيص ، فظهوره فيها يلفت النظر إلى استحكامه استحكامًا راسخًا فى العظامِ ، لا فى النفس وحدها ! وليس من همّى هنا أن أحلله تحليلاً أدبيًّا ، ولكن يهمُّنى أن تعلَمَ أن هذا الرجل هو الذى خلف هذه الدعوة الخبيثة المخرج ، التى سكن ريحها منذ سنة ١٩٠٢ ، فأعادها هو فى إبريل ومايو من سنة ١٩١٣ ، فى صورة جديدة غريبة ، تتَّسمُ بكل هذه الصفات وغيرها ، ممّا يعين مثلَه على أن يكتب مثل ما كتب

فى شأن اللغة العربية . وفى هذه المقالات السَّبْع ضروب من السخف فى الاحتجاج لا يملك المرءُ إلاّ أن يعجب من اتفاقها ، لرجل ذاعت القالة فى الناس بأنه فيلسوف منطقىّ ، حتى كاد يسمى بالمعلم الثالث !! وهذا أعجبُ العجب !! ولكن هكذا زمانُنا ! رَواجُ الأحدوثة بالمدح أو بالذمّ ، يُتلقَّى بالتسليم المغمض العينين ، ويسيطرُ بالوهْم على منابع الفكر ومَساربه .

دَخل هذا الرجل إلى دعوته مدخلاً غريبًا فى وصف غِنَى العربية فيما يتناول المعانىَ والمسمَّيات القديمة ، وفقرِها فى المعانى الجديدة والمصطلحات العلمية . وظلَّ يدخلُ من بابٍ ويخرج من بابٍ ، ويلقى رِيبةً ثم يرحَلُ ، ويأتى بحجة واهية ثم ينقضُّ ، فيطالب الكتاب بأن يتسامحوا فى قبول المسميات الأجنبية ويدخلوها فى كتابتهم ، كما أدخلها الجمهور فى المخاطبة . وهذا كلام مَنْ لا يدرى ما عقابيل ما يقول ، فلا هو رياضىّ ، ولا هو منطقىّ ، يحسنُ تصوُّر القضايا على وجه الإحاطة والشمول . وكتب معترفًا أن هذا الرأى خليق أن ينشر الفوضى فى اللغة ، ولكنه زَعَم أن الفوضى نافعةٌ وواقعةٌ فى زمن الانتقال ، وأنْ لا خطر على اللغة منها ما دامت ستخرجها من جمودها إلى التطوّر الراقى ، الذى يوافق أطماع الأمة !! (١) ثم زاد فطالب بأشياء أغرب مما قال « سبيتا » وأمثاله من الخبثاء الماضين ، لا أدرى كيف قالها ، كمطالبته : « أن يحتضن الكُتَّاب المفردات الغربية الموجودة فى اللغة العامية ، فيردّوا ما تشوّه منها إلى أصله العربى ويستعملوه صحيحًا ، وما لم يشوّه يستعمل على حاله ، ويستثنى من ذلك ما ابتذل من الألفاظ .... هذا ، وإن استعمال مفردات العامة وتراكيب العامة ، فيه من وجهة أخرى إحياء للغة الكلام ، وإلباسها لباس الفصاحة » !! هذه أفكارٌ عَجَبٌ ، أمجرَّد استعمال لفظ عامىّ وكتابته ، يلبسه لِباسَ الفصاحة !! ما أنْذَل الحكمة !!

ثم أفاض فيما ينفع من العلم والفهم ، حتّى انتهى إلى أعجب كلامٍ ، قال : « وأقرب الطرق إلى هذا الصلح (يعنى بين العامية والفصحى !) ، أن نتذرع إلى

---

(١) لا تزال هذه الحجة دائرة على ألسنة بعض من يكتب إلى يومنا هذا .

إحياء العربية باستعمال العامية ، ومتى استعملناها فى الكتابة ، اضطررنا إلى تخليصها من الضعف ، وجعلنا العامة يتابعون الكتاب فى كتاباتهم ، والخطباء فى خطاباتهم ، والممثلين فى رواياتهم » . وهذه النتيجة المذهلة التى انتهى إليها حضرة الفاضل المِنْطيق ، تتّفق تمام الاتفاق مع آرائه التى أذاعَها مرارًا ، مثل اعتباره أمر صلة مصر بالبلاد العربية أمرًا خرافيًا غيرَ مقبول حدوثه ولا متوقَّع لا ذلك اليوم ، ولا بعد ذلك اليوم . وهو كان غير قادر على أن يرى أن العرب أمّةٌ واحدة ، ذات لسان واحدٍ ، وعقيدة واحدة ، وكان يفرُّ منها فيما يكتب ، كما كان يفرُّ من الحديث فيها ، إذا لقيه من يحسنُ أن يدفَع عن رأيه . (وهذا الذى أقوله لك مقالة مجرّب !)

* * *

ولكن إذا شئت أن أريك تناقضَ هذا الرجل فى هذا الأمر نفسِه ، فإنى أحيل القارئ على كلمة كتبها هذا الرجل نفسُه قبل ذلك بأربع سنوات ، فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٩ ، من صحيفته « الجريدة » ، بعنوان : « فى إنكلترا أيضًا » ، فهو يذكر ما رأى من تمجيد القوم هُنَاك لشاعرهم العبقرى شكسبير ، وأنهم يُحِلُّونه فى قلوبهم منزلة أعلى من منزلة كُلّ ملوكهم الأوَّلين ، قال :

« على ذكر شكسبير ، يَرِدُ على خاطرى أنى سمعت أنه استعمل من اللغة الإنجليزية عشرين ألف كلمة ، وأن فى بعض أساليبه خفاءً على كثير من العامة ، ولكنى لا أصدق أن أحدًا سمع أنه رُمى بالتَّقَعُّر ، بحجة أنه لم يقتصر فى كتاباته على مئات الكلمات التى تكفى للتعبير عن المقاصد فى اللغة الإنجليزية » . ثم يضرب المثل بما استعمله أبو العلاء المعرِّىّ من غريب اللغة ، ثم يقول : « وإنه على ذلك يستحيل على رجُلٍ يذوق طعم الكلام أن يرمى أبا العلاء بالتقعُّر » . ثم يقول :

« فما بالنا فى بلد نجد كُلّ يوم لهذه الكلمة رنينًا خبيثًا فى الآذان ، بل نراها على سوء استعمالها ، وقبح مدلولها ، تسيل بسهولة على كثير من الألسن ، كلما صادف بعضهم فى الكتب ، أو على الجرائد ، كلمة يظنُّها غريبة ، وما هى بالغريبة إلاّ عنده » ... ثم يقول : « إذا شكسبير ، كما سمعت ، قد استعمل عشرين ألف كلمة ، مع أن راسين على غناهُ ، لم يستعمل إلا أقلَّ من أربعة آلاف ، فأولى بالعربىِّ

أن لا يَحُدّ لغته الفسيحة ، بحدود ما يستعمل منها فى ميدان باب الخلق ، أو فى سوق الخضار ، إن لم يكن التوسع فى الألفاظ للمعانى ، ولا لمنفعة الأدب ، ولا لخدمة اللغة ، فليكن على الأقل لخدمة القرآن ، الذى بات الكافة لا يفهمون معنى ألفاظه ، ومن واجبهم أن يفهموهُ ، فإنه إنما يُتْلَى ليُفْهَم .... لا يعلم إلاّ الله متى نرى شوقى وحافظ بالعين التى يرى بها الإنكليز شعراءهم ؟ بل متى نحبُّ وطننا ، ولغتنا ، وآدابنا ؟ ومتى يكون للحق سلطان على نفوسنا ، حتى لا نتخذ الجدّ لعبًا ، ولنتعلّم حسن الظنّ وصدق الانتقاد ؟ » .

لم تمض على هذه المقالة أربع سنواتٍ ، حتى شرع هذا الرجل يضع مشروعًا لإبادة العربية ، وطَمْرِها فى رُكام من الكلمات الأجنبيّة وتحطيم بنائها بالعامية تحطيمًا كاملاً ، بلا رعاية لما ذكر من « التوسع فى الألفاظ والمعانى » ، ومن « منفعة الأدب » ، ومن « خدمة اللغة » ، ومن « خدمة القرآن » ! أين ذهب كُلّ هذا الذى قال ؟ ومن الذى لَوَى لسانَه ؟ ومن أىِّ مصدرٍ جاءتْهُ هذه الأفكارُ المضيئة ؟

إنّ هذا الرجل كان أوّل عربىّ اجترأ على أن يردّد المقالة الخبيثة التى قالها الأربعة الخبثاء المخارج من قبله ، ولكن فى ثيابٍ أُخرَى ألبسها إيّاها من ثياب بنات أفكاره !! (وكان الله بالسرّ عليمًا) . وبظهور مقالاته التى لا أجد ما أصفها به سوى الخلوّ التام من المنطق ، والتلبس التامّ بالتذاكى الماكر ، انضم تيّارُ الدعوة إلى استبدال العامية بالفُصْحى جدالاً ومناقشة ، ثم استعمالاً فى المسارح وأشباهها .

ومن العجيب الذى لا ينقضى منه العجَبُ ، أن يجىء توقيت هذه الدعوة التى قام بها هذا الرجل ، على أبواب القلق العالمى الذى أفضَى إلى الحرب العالمية الأولى ، وفى الوقت الذى كانت تتجمّع فيه قُوَى الأمة كُلِّها لتنفجر فى وجه الاحتلال البريطانى ، والذى عاق انفجارَه نشوبُ الحرب العالمية ، وإقدام الإنجليز على حشد مليون مصرى ونصْف مليون باسم « السلطة » ، ليكونوا وقودًا لنار هذه الحرب ، فتأخر ميقاتها إلى سنة ١٩١٩ فكان لأمر العامية فيها شأنٌ آخر ، سنتحدث عنه إن شاء الله فيما يلى ، ولكن ينبغى أن تحرصَ على التعجُّب ، من اقتران الدعوة إلى العاميّة ، بالأحداث السياسية التى توشك أن تفجّر يقظة الأمة العربية ، تدفعها إلى محاربة الاستعمار ، فإنه اتفاق عجيبٌ ! وإلى الأسبوع القادم .

وَمَا أدْرَاكَ مَاهِيَةُ؟

الرسالة

الخميس ١٠ شوال ١٣٨٤

١٢

ما على القارئ بأسٌ إن شاء الله ، إذا هو أضنَى نفسه مَعِى فى التَّجْوال والتَّنقُّل . فقد كانَ من حقّ هذه الكلمة أنْ تتابع القولَ فى قضية العامية واستبدالها بالفُصْحى ، يومَ تولّى كِبْرَها « أحمد لطفى السيد » ، معلّم الجِيل ، كما أرادوا له أن يكونَ ! ولكنْ ربمّا جدَّ من الأمر ما يَلْفِتُنى عن المتابعة ، فأنا عندئذٍ أجترئ على الانفتالِ بوجهى إلى حيثُ ينبغى أن أنْفَتِل ، ثقةً بحسن إدراك القارئ للصلة الوثيقة بين هذه القضية ، وسائر القضايا التى تعترضُ طريقى وطريقه . وذلك لأن المنبعَ الذى تدفّق مِنْه هذه القضايا على عالمنا العربى والإسلامى ، منبعٌ واحدٌ ، إن شئت أن تسمّيه « **الاستعمار** » أصبت ، وإن شئت أن تُسمّيه « **التبشير** » أصبت ، وإن شئت أن تسميه « **الاستشراق** » أصبت ، لأن هذه الثلاثة أسماءٌ متباينة لحقيقة واحدة ، كما بينتُ ذلك فيما سلفَ .

وأظنُّ القارئ ، لم ينس قطُّ أنى بدأت مقالاتى هذه بالكلام عما كتبه لويس عوض عن شيخ المعرَّة ورسالة الغفران ، ولكنّى انتهيت إلى قضية العامية ومكايد المبشرين ، وذلك لأنّ بناءَ ما كتبه صبىُّ المبشرين عن شيخ المعرّةِ ، قائِمٌ على أُسُس تبشيريّة تتخفّى تحت ثياب منكرة من الدراسة الأدبية . وقد بينتُ آنفًا أن هذا الصبىّ الدعِىّ « الشرلتان » ، إنّما مكّن لَهُ أن يعبثَ هذا العبث وينشرَه على الناس ، أن صحيفة الأهرام اتخذته مستشارًا ثقافيًّا يشرف بسلطانه على مادّة الثقافة فى مؤسسات الأهرام ، وأنه كانَ قبل ذلك إنسانًا مغمورًا مغموزًا فى تكوينه الثقافىّ والأدبىّ . ولا نرى كيف أتيحتْ له هذه الفرصة ؟ وكيف اختير ليقومَ فى أكبر صحيفة فى العالم الإسلامىّ ، متعرِّيًا متجرّدًا من كُلّ حياءٍ ، لكى يتحدَّى ملايين العرب والمسلمين بكُلّ سَوْأَةٍ من سَوْءاتِه معالنًا غير متستِّرٍ ؟

أمّا الآنَ ، وقد رُفع الستارُ عن خبائثه التى يرتكبُها ، فإنه قد لجأ إلى الحيلة

القديمة التى كان قد أذاعها فى « بلوتولند » ، حيث دعا إلى العامية المصرية ، وإلى ترجمة القرآنِ إلى هذه العامية ، ثم قال إنه وجدَ الناسَ قد استنكروا دعوته ، فلذلك سكت : « مؤثرًا أن يتولّى الدفاع عن رأيه مسلمٌ لا مجال للطعن فى نزاهته » !! ، أو كما قال . قال ذلك سنة ١٩٤٧ ، أيامَ كان مغمورًا مغموزًا لا يعرفُه أحدٌ . ولكن العجيبُ أنه قد حقَّق هذا القولَ ، واجتمعت له عصابةٌ تعبّر عن رأيه الذى قالَهُ فى « بلوتولند » ، و « بمستشاريته » ، استطاعَ أن يجعَل صحيفة الأهرام أيضًا أداة للتعبير عن هذا الرأى فى صور مختلفة ماكرة .

بَيْدَ أنّه لم يقنع بذلك . بل أرادَ أن يتحدَّى الناسَ بصورة أُخرى ، متذرِّعًا بنفس الحيلة . فقد ذكرت فى المقالة السالفة أن المبشر « ولسن كاش » قال : « إن الصحافة لا توجّه الرأى العام فقط ، أو تهيئه لقبول ما ينشر عليه ، بل هى تخلق الرأى العام . وقد استغلّ المبشرون الصحافة المصرية على الأخصّ للتعبير عن الآراء المسيحية ، أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامىّ آخر . لقد ظهرتْ كثيرة فى عدد من الصحف المصرية ، إما مأجورة فى أكثر الأحيان ، أو بلا أجرةٍ فى أحوالٍ نادرة » .

وهذا قولٌ قديمٌ ، قد جاءَ بعده ما عَفَّى على آثاره ، فإن الصحافة المصريّة اليوم ، قد تفشتْ فيها خطاطيف التبشير تحت ثيابٍ مزركشة من ادعاء القوميّة الوطنية والإصلاح ، ونعقت بما شاءت بلا حسيبٍ أو رقيب . وحسبك مثلاً هذا « الكاهن » الذى كشفتُ عَنْهُ وعن مُضْمَرِ دعوته ، وأساليب تغريره ، والذى استطاع أن يمدّ سلطانه على أكبر صحف العالم العربى الإسلامىّ ، ليطبع مادة الثقافة فيها بطابع دعوته الخبيثة ، التى تؤول آخرَ ما تؤول إلى استلحاق الفكر العربى الإسلامى استلحاقَ العبودية والخضوع والخشوع لسلطان الثقافة الأوربية التى نبعت ، بلا ريبٍ فى ذلك ، من الفكر المسيحى الأوربى ، كما يقول « إليوت » و « توينبى » وغيرهمَا ، ممن يعبرون عن الحقيقة ، دون حاجز يحجزُهم عن التعبير ، أو يدعوهم إلى تزوير الحقائق ابتغاء التغرير .

* * *

والحيلة التى لجأ إليها صبىُّ المبشرين فى هذه المرَّة ، وفى مرات كثيرة سبقت ،

هى أن يختار مسلمًا يرتضيه هو ، ليكتب له بعضَ ما لا يحبُّ أن يوقِّع عليه باسمه المحترم ، خدمة لهدف من أهداف التبشير القديمة المألوفة إلى اليوم ، وهو بثُّ المعلوماتِ التاريخية أو الأدبية ، متضمِّنةً عقيدةَ العالم المسيحىّ ، وكأنها تاريخٌ مسلَّمٌ به ، أو معترفٌ به عند جميع الناس ، ثم نشر ذلك على أبناء العرب والمسلمين ، المتطلعين إلى الاستفادة والمعرفة ، بلا إشارة إلى موضعِ اختلاف أو تباين ، ليكون ذلك أسرعَ إلى القلوبِ ، إن لم يأخذْها أخذةً رابيةً ، ترك فيها نَكْتَةً سوداء تدعُو يومًا ما إلى التشكّك والحيرة . فهذا « المستشار الثقافى » !! لأكبر مؤسسة صحفية فى بلاد العرب والمسلمين ، قد أرادَ ، ولا مَرَدَّ لإرادته ، أن يتخذ صحيفة الأهرام وسيلة لتحقيق مآربه ومآرب من صنعوه ودرّبوه واستخدموه ، من أهل « الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج » ، كما قال بلسانه . ويفعل ذلك ، بعد الكشف عن حقيقته ومكانه من حركة « التبشير » التى شرحتُها فيما سلف ، ليقول لمن اصطنعوه : انظروا ، كيف أتحدَّى ؟ ويهزُّ رأسه متلفِّتًا يَمْنَةً ويَسْرَةً ، إعجابًا بنفسه ، وعلى ثغره المحترم أيضًا ابتسامةٌ عاقِلة فى غِلالة من حياءٍ وخَفَرٍ !! مسكينٌ هذا المُفْلِت من القيودِ والأسوار .

وهذه الحيلة التى يظنُّها جديدةً ، معروفةٌ مألوفةٌ فى حارات القاهرة ، فإنّ جماعات التبشير ، لم تَزل منذ زمانٍ تعمِدُ إلى حارات القاهرة وأزقّتها ، حيث تتجمَّع الآلاف الكثيرة من أبناء العرب والمسلمين فى بيوت مكتظّةٍ بسكانها ، فَتَسْتَوْدِعُ أكُفَّ الأطفال وغير الأطفال ، كتبًا صغيرةً أو منشوراتٍ ، فيها شىء كثيرٌ من عقائد المسيحية ، مَسُوقةً فى خلال قصص الأنبياء الماضين ، ليقرأها الصغار وأشباهُ الصغار ، وتتناقلها الألسنُ ، ويبقى أثرها فى بعض النفوسِ ، فيكون ذلك نجاحًا ، فيما يظنون ، فى بثّ عقائدهم خِلال عقائد هؤلاء الصغار بالحيلة والتدسُّس . وهذا شىء يجرِى ، ونحنُ فى غفلةٍ عَنْه ، وبلا رقابة ممن تجب عليهم رقابةُ هذا الضربِ من المكر التبشيرىّ بالناس . ولكن مما يضعف أثر هذا المكر ، أن الذين يتلقَّوْنه ، إنما يتلقّونه مرتابين ، لأنه يوزَّع عليهم فى الخفاء ، وهذا الخفاء يستثير الحذر ، ويضيعُ أثر هذه المنشوراتِ الخبيثة فى أكثر الأحيان . ومع ذلك ، فإن ترك مراقبته فيه إثم كبيرٌ .

غير أن لويس عوض ، صبىَّ المبشرين ، أرادَ أن يستدخِلَ هذه الوسيلةَ فيما يقع عليه سلطان « المستشار الثقافى لمؤسسات الأهرام الصحفية » ، فعمد إلى الباب الذى سماهُ « دائرة المعارف » ، ليسلُك إلى النفوس نفس المسلك ، ويكون عندئذ خطرًا محققًا ، لأن ثقة الناس ، والشباب خاصة ، بصحيفة الأهرام ، وعَدَّهم إياها مصدرًا من مصادر معرفتهم وثقافتهم ، يمهِّد للكلمة أن تستقرَّ وتثبتَ فى النفس والعقل ، بلا ارتيابٍ وبلا حذر . فمن أجل ذلك ، وجدته حقًّا علىّ ، لا أدرى كيف أتَفَصَّى منه ، أن أتَخَلَّلَ حديث قضية العامية ، وهى قضية أثارها التبشير وسقاها ونمّاها ، بقضيّة هذا المكر المتحدّى السافر فى باب « دائرة المعارف » من صحيفة الأهرام ، وهى صحيفة تبشير أخرى ، بينهما من الصلة ما بين الأخوين لأبٍ وأمٍّ .

وأنا ، وإن كنت لا أرتاحُ إلى هذا اللفظ « دائرة المعارف » ، لأنه ترجمةٌ وأُوثر عليه اللفظ الذى شاعَ عند أسلافنا وجهلناهُ اليوم ، وهو لفظ « **الجمهرة** » ، فى مثل هذا المعنى نفسه ، فإنى أقدّم بين كلامى مُوجَزَ معنى « دائرة المعارف » ، ولأىِّ شىء وضعت ، فالجمهرة ، أو « دائرة المعارف » ، إنما هى مؤَلَّفٌ يتضمَّن معرفة صحيحة سليمة وافية عن كُلّ موضوع يحتاجُ الناس إلى معرفته ، ويستوعبُ فى كل مادّة من موادّه **خلاصة** ما ينبغى أن تعرفه عن هذا الموضوع أو ذاك . أما المرادُ من تصنيف « **الجمهرة** » أو « دائرة المعارف » ، فهو أن تُيَسّر لكلّ طالبِ معرفةٍ من الأمة التى وضعت « الجمهرة » بلسانها ، مادّةً تطابق الحقّ ، وتطابقُ ثقافة الأُمة ، وتطابق عقائد هذه الأمة وتاريخها وحضارتها كلها على امتداد عصورها فى التاريخ المتقادم . فليس من المعقول إذن ، أن يكتب كاتب فى « جمهرةٍ » تُصَنَّف فى أمة مسيحية العقيدة ، فى مادة « المسيح » مثلاً ، كلامًا يتضمّن معرفةً تخالفُ فى أصولها معارف النصارى عن المسيح ، وتطابق معارف أهل الإسلام عنه ، مع تمام الاختلاف والتبائُن بين المعرفتين . هذا خَطَلٌ . فإذا أراد مصنِّف « الجمهرة » أن يجعلها ملمة بأطراف معارف الناس عامة عن « المسيح » ، كان صوابُ الرأى أن يُقَدِّم ذكرَ معارف أهلِ مِلَّته التى صُنِّفت « الجمهرة » من أجلهم ، ثم يعقِّب عليه بما شاء من معارف أهل الملل الأخرى . هذا صريح المعقول ، أليس كذلك ؟

ولكن « المستشار الثقافى لمؤسسة الأهرام » ، تأبَى عليه طبيعة عقله أن يكونَ

العقلُ شيئًا مذكورًا ! لأنه ليس عاقلاً بالمعنى المتعارف ، بل هو عاقل بعقل صبيان المبشّرين ، أى بعقل يتحكم فيه هَوًى وهدفٌ . وهو يرتكبُ فى سبيل ذلك ضروبًا من العبث المبتذل ، والكَيْد السُّوقيّ ، اللذين يميزان طبائع المبشرين وأخلاقَهم ، فى دور العلم ، وفى المستشفيات ، وفى الملاجئ ، وفى محافل المعاظرة . فمن هذا المكان الذى فرض له سلطانًا على ميادين الثقافة فى صحيفة الأهرام ، يريدُ هو أن يفرضَ على مئة وعشرين مليونًا من العرب ، وأضعافِ أضعافهم من المسلمين ، وهم قراء الأهرام ،والذين يَعُدُّونَ هذه الصحيفة ضربًا من الكتب ، يلتمسون فيها المعرفة والثقافة ، ويظنونها مرآةً لماضيهم وحاضرهم = يريدُ هذا العابثُ المكايد بالسُّوقية المبتذلة ، أن يفرضَ على طالبى المعرفة أن يتلقَّوْا عنه ما يضمرُ من التوجيه الخبيث ، سواءٌ أكتب ذلك بقلمه ، أم استكتب له من الناس « مسلمًا » يرضى أن يكون حاطبًا فى حبله ، ومدافعًا عن رأيه ، ولسانًا ينطق بما لا يجرؤ هو أن يقوله علانيةً ، كما وعد بذلك فى « بلوتولند » .

وهذا عبثٌ ينبغى أن ينتهى ، لأنّ الأمر قد خرجَ الآنَ عن أن يكون زَلَّةً يزلُّها سخيفٌ متهوّر ، إلى أن تكون خُطَّةً متلاحقة الأهداف فى هذه الصحيفة وغيرها ، لا يكادُ المرءُ يخطئُها حيث توجَّه به النَّظَر فى الصحافة وسائر وسائل الإعلام . وليس من العقل أن يلجأ هذا الرجُل وأشباهُه من الخطاطيف المبعثرة هُنَا وهناك فى وسائل الإعلام ، إلى هذه الذرائع الماكرة المنكرة ، لأنَّ هذه الأمور لعبٌ بالنار ينبغى للعاقل أن يحذره . وأنا لا أخاطب بهذا لويس عوض وأشباهه ، بل أخاطب الذين يقفون من وراء الستار ، يحرِّكون هذه الدُّمَى المريضة التى يدفعها التهوُّر إلى ما لا تعرف هى عواقبه . ولا حاجة بى إلى الدلالة على مَنْ أخاطب ، فَكُلُّ عاقل يستطيع أن يقف على الأسماء الثلاثة لمسمًّى واحدٍ ، وهى «الاستعمار» و«التبشير» و«الاستشراق» ، ثم يستطيع أن يرى أنَّ لها هدفًا واحدًا فى صميم حياتنا يرادُ أن يصيبه السهم القاتل ، فى أوان من الانتفاضة يتطلَّبُ تحقيقَ ما أخطأناه فى ماضينا ، بالإهمال تارةً ، وبالخيانة تارةً أخرى ، وبتحويل حركة الإحياء عن الوجه الصحيح ، إلى وجهٍ فيه هلاكُ الأمة ، وذُلُّ الدهر ، و عارُ الأَبد ، و قد كان لنا فيما سلف عظةٌ .

* * *

في عدد الأهرام الصادر بتاريخ ٣٠ رمضان سنة ١٣٨٤ (أول فبراير سنة ١٩٦٥) ، أراد هذا الصبىّ أن يتحدَّى بتبشيره الذى كشفتُ عنه مرارًا فيما سلف ، فذهب يستكتب كاتبًا من المسلمين [(١)] ، ليكتب له مادة « يعقوب النبىّ » . ولكن هذا الكاتب المسلم لم يَزِدْ على أن استنسخ ، أو ترجم ، أو اقتبس ، أو اختصر ، معارف أهل الكتاب عن « يعقوب » عليه السلام ، بما يطابق عقيدةَ أهل الكتاب فى الأنبياء ، وبألفاظٍ من ألفاظهم ، دون أن يلقى بالاً ، أو دون أن يحفلَ بأن هذه « المعرفة » المستجْلَبة ، سوف يقرؤها الملايين من العرب والمسلمين ، ومن شبابهم وطالبى المعرفة منهم خاصةً ، وأن عقيدة هذه الملايين مباينةٌ كل المباينة لعقائد سائر الملل من كتابية وغير كتابية فى معنى « النبوّة » و « الأنبياء » .

وليس من العقل فى شىء أن يفرضَ هذا الكاتب ، أوْ مُسْتكتِبُه ، على طالب المعرفة من القراء ، أن يتلقى عنه ما يبلبل عقيدته ، أو يَرْتَكِسَ به فى حيرة لا يملك معها أداةً للفصل بين ما يقدَّم له ، وما تستلزمه عقيدته من تنزيه الأنبياء وعِصْمتهم عن الإخلالِ بحق النبوةِ . هذا مع ما نعيده ونكرره ، من أن ثقة القارئ بصحيفة الأهرام ، مَدْعاةٌ إلى الأمن ، وإلى الاطمئنان إلى ما ينشر فيها ، لأنه لا يشكُّ فى أن محررى هذه الصحيفة ، إنما يرجون بما يكتبون نفعَهُ وتثقيفَهُ ، فهو لا يكاد يرتابُ فى شىء ممّا ينشرون . فهذا الفعل إقدامٌ وجرأةٌ على غش الناس ، والشباب منهم خاصة ، بأسلوب لا يختلف فى شىء عن أسلوب توزيع المنشورات فى أزقة القاهرة وحاراتها ، وفى كثير من القرى والريف ، حيث يحاول المبشرون أن يلحقوا بعقيدة الملايين المسلمة ما يشتهون من الفساد والبلبلة والاضطراب ، طلبًا لإضعاف تكوين الأمة الثقافىّ ، الذى يُفْضِى إلى تدمير كيانها السياسىّ . وهذا أسلوب معروف قد أشرتُ إليه فى المقالات السالفة .

فمما جاءَ فى باب « دائرة المعارف » من صحيفة الأهرام ، فى ذكر يعقوب عليه السلام ، أنه كان بين الأخوين التوأمين : العيص ، « عيسو » ، ويعقوب ، « تنافسٌ

---

(١) هذا الكاتب هو الدكتور محمد أحمد خلف الله .

قويٌّ حول من يكون كاهن الأسرة ، ومستودع أسرار السماء » ، وأن العيص : « نزل من بطن أمه أوّلاً ، واعتُبر لذلك الابن الأكبر ، واستحقَّ لذلك حقوق الابن البكر ، وكان من أهمها حسب التقاليد : أن يكون المسئولَ الأوَّل عن الأسرة بعد وفاة الوالد ، وأن يرث بركة السماء التى ورثها إسحق عن إبراهيم ، والتى تجعل منه كاهن الأسرة ، ومستودع أسرار السماء ، ومبلِّغ هذه الأسرار للبشرية ، ولكن يعقوب كان يطمح إلى هذا المركز الدينى ، واستطاع بذكائه العمليّ الخارق أن ينتصر على أخيه ، بحيلتين : الأولى ، حين اشترى منه حقوق البكورية ، وأفقده بذلك سنده الشرعى التقليديّ . والثانية : حين احتال على أبيه بتدبير من أمّه ، وحصل على البركة التى كان من المفروض أن يتلقاها عيسو (وهو العيص) » . ثم يقول : « وفى الطريق إلى الحدود السورية العراقية ، حيث كان يقيم خاله لابان ، رأى يعقوب رؤياه التى عدّها وَحْى السماء ، والتى وعد فيها يعقوب بأن يكون ذلك المكانُ الذى رأى فيه تلك الرؤيا له ولأبنائه من بعده » . ثم يقول : « أقامَ يعقوب بعد العودة إلى أرض شكيم . نابلس ، وعاوده الوحى فى شكل الرؤى والأحلام ، وأخذ يحاربُ الوثنية ، ويدعو إلى نبذ الأوثان والأصنام ، وعبادة الواحد الديان ، فلم تستجب له القبائل الكنعانية ، وناصبته العداوة ، ورحل إلى الجنوب وأقام فى منطقة بئر سبع ، وظلَّ هناك إلى أن كانت رحلته إلى مصر ، مع أبنائه وأحفاده » . انتهى .... !! .

* * *

وهذا الكلام على سقم عبارته ، وركاكة ألفاظه ، ومشابهته للغة منشورات المبشرين التى يدُسُّونها فى أيدى أطفال الأزقة والحارات خَلْسةً وخِيفَةً وترقُّبًا كلامٌ يتبرَّأ بعضه من بعضٍ . ولست أدرى كيف يطيق امرؤ مسلم قرأ القرآن العظيم ، أو سمع آيات الله تتلى عليه ، مما فيه ذكر أنبيائه ورُسُله ، أن يقرأ هذا الضَّرب الغثَّ من الكلام عن نبىّ من أنبياء الله صلوات الله عليهم ، فضْلاً عن أن يَخُطَّهُ بيمينه ويستودعه الورق ، بل أن يرضى نسبته إلى نفسه ، بل أن يذيعه على القراء الذين يعلم أنهم مثله مسلمون ، مذيَّلاً بتوقيعه ؟ لستُ أدرى كيف كان ؟ ولكنه شىءٌ كان ، لأن أحد صبيان المبشرين ، قد خُوِّل سلطانًا يقبض ويبسُط !! فهو به قادرٌ على أن يستكتب من شاءَ ما شاء ، بلا حرج عليه .

وهذا الكاتب قد استخدمَ فى مَعْرِض الحديث عن ثلاثة من أنبياء الله صلوات الله عليهم : « كاهن الأسرة » و « مستودع أسرار السماء » ، و « مبلغ هذه الأسرار للبشرية » ، و « المركز الدينى » ، و « الوحى » مفسّرًا بأنّهُ الرُّؤَى والأحلام !! وهؤلاء الأنبياء الثلاثة من رُسُل الله وأنبيائه الذين لا يتمُّ لنا إيمانٌ إلاّ بالإيمان بهم وتَوَلِّيهم ، والبراءة ممن يتبرَّأ منهم ، أو ممن يَنسُبُ إليهم من الأفعال والأعمال والصفات ما يُخِلّ بعصمة الأنبياء وحقوق النبوّة .

ومع ذلك ، فإن كاتب هذه الكلمات ، لم يذكُرْ فى كلماته قطُّ أنّ يعقوب كان نبيًّا من أنبياء الله ، بل أقام مقام لفظ « النبي » الذي لا نعرف نحن ليعقوب صفةً غيره ، لفظَ « كاهن الأسرة » ، و« مستودع أسرار السماء » ، و « مبلغ هذه الأسرار للبشرية » ، وأن هذه الثلاثة هى « المركز الدينى » ، الذى كان يطمح إليه نبىُّ الله يعقوب عليه السلام . ولا ندرى لماذا فعل الكاتب ذلك ، مع مخالفته تمام المخالفة لما نعرفُ نحنُ من معنى « النبوة » ، ومع مخالفته أيضًا لما يصف به أهل الكتابين يعقوبَ عليه السلام من أنه « أحد الآباء الثلاثة الكبار للعبرانيين » ، يعنون إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وليس من صفته عندهم أنه « كاهن الأسرار » ، أو « مستودع أسرار السماء ، ومبلغها إلى البشرية » !!

ولفظ « الكاهن » عند القوم ، هو الذى يَنْحَرُ الذبائح المفروضة فى اليوم أو الأسبوع أو الشهر ، ويتولَّى فوق ذلك ضروبًا من الخدمة فى محافل العبادة ، كالعناية بالآنية المقدسة والنار المقدسة ، وحمل تابوت العهد ، وسائر ما هم مكلفون به من فرائض . ولكن هذا النظام لم يكن له أصلٌ قديمٌ على عهد إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام ، بل هو مما افترضَه عليهم ، فيما يقولون ، موسى عليه السلام ، كما جاء فى الإصحاح التاسع والعشرين من سفر الخروج مفصَّلاً مشروحًا ، فهذا شيءٌ كان بعد أنبياء الله الثلاثة ، بقرون متطاولة . وليس لهذه الوظيفة التى افْتُرِضت على سلالة هرون عليه السلام ، مدخَلٌ فى شأن النبوّة والأنبياء . والذى له شبهةٌ تمسُّ هذا المعنى ، هو اللفظ العربى : « **الكاهن** » وهو عند العرب ، الذى يتعاطى الخبرَ عن الكائنات فى مستقبل الزمان ، ويدَّعى معرفة الأسرار ، كشِقٍّ وسَطِيح وغيرهما ، وهو شبيه بالعرَّاف والمنجِّم ، ولكن ليس للكاهن عند العرب

صفة دينية ينسبُ إليها . فهذا خَلْط سقيم جدًّا بين معنيين متباينين ، لا يقوله إلا جاهل بحقيقة ما عليه ألفاظ القوم من أهل الكتابين ، وغافلٌ عن حقيقة ألفاظ العرب التى تدور فى كلامهم . بيد أنّه جمع فى هذه العبارة بينَ ما يراهُ أهل الكتاب فى معنى « النبىّ » ، وهو معنى مخالفٌ لما عندنَا ، وبين ما يقوله العرب عن العرّافين والمنجمين والكهنة من الأكاذيب والأباطيل التى يتعاطونها إنباءً عن المستقبل ، وعن معرفة الأسرار المغيَّبة . فاخترع لنبىّ من أنبياء الله عليهم السلام صورة مُخْتَلَسةً مزوَّرة من ألفاظٍ مبهمة المعانى عنده ، فقال عن يعقوب : « إنه نافس أخاه حول من يكون كاهن الأسرة ، ومستودع أسرار السماء » . وهذا خلطٌ ، أعجبُ كيف فاتَ على صبىِّ المبشرين الذى تولَّى نشر هذا فيما وقع عليه سلطانه من صحيفة الأهرام !! وإن كنت على يقينٍ من أنه لا يصْلُح أن يكون فقيهًا فى الكتاب الذى يدّعى الانتساب إليه .

وعَسَى أَن يتمحَّل متمحِّلٌ فيزعُمَ أن هذا الكاتب المخلِّطَ بين معنى « النبىّ » عند أهل الكتاب ، و « الكاهن » عند العرب ، لم يرد بالكاهن النبىَّ . ولكن هذا باطلٌ لا يخفى ، لأنه قالَ : إنّ الابن البكر من حقوقه حسب التقاليد : أن يكون المسئولَ الأوّل عن الأسرة بعد وفاة الوالد ، وأن يرث بركة السماء (وهذه أعجب العجب !! هل سمع بمثلها مسلم قط ؟) ، التى ورثها إسحق عن إبراهيم ، والتى تجعل منه كاهن الأسرة ، ومستودع أسرار السماء ، ومبلغ هذه الأسرار للبشرية ، ولكن يعقوب كان يطمح إلى هذا « المركز الدينى» = فأىُّ وِراثة ورثها ، فيما يزعم الكاتب ، إسحقُ نبىُّ الله عن إبراهيم خليل الله ؛ سوى « النبوة » التى سمَّاها الكاتب « بركة السماء » ؟ ثم جعل « بركة السماء » هذه ، هى « التى تجعل منه كاهن الأسرة ، ومستودع أسرار السماء ، ومبلغ هذه الأسرار للبشرية ؟ وأىُّ « تقاليد » هذه التى كانت على عَهْد إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ؟ أهى « تقاليد البكورية » ؟

إنّ هذه الألفاظ التى اختطفها من ألفاظ القوم فى كتابهم ، موضوعةٌ فى غير مكانها ، لأن أمر « البكورية » وقواعدها ، إنما جاءت فيما زعم أهل الكتاب ، فى شريعة موسى ، كما أشارَ إليه كتابهم فى سفر الخروج ، فى الإصحاح الثانى والعشرين ، أن الله قال : « وأبكار بنيك تعطينى » ، أى أن يهب بكره لعبادة الله ،

وأن يكون البكر خلفًا لأبيه إذا خرجَ عن داره ، وأن يُعْطَى سهمًا زائدًا على سِهَام إخوته من مال أبيه ، أن يرث مُلْك أبيه إذا كان ملكًا على بنى إسرائيل . وهذه شرائع موضوعةٌ متأخرة جدًّا على زمان إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام .

ونحن المسلمين ، لا نقرُّ شيئًا من هذا كله فى شأن إبراهيم وبنيه ، لأن الله تعالى يقول فى سورة البقرة : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ويقول فى سورة آل عمران : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

فهذا نصٌّ من الله سبحانه على موضع النزاع بيننا وبين أهل الكتاب وغيرهم ، فى نسبة بعض ما دان به اليهود بعد مئات السنين ، إلى أنبياء الله المسلمين الذين لم يكونوا قط يهودًا ولا نصارى ، بل كانوا مسلمين لله سبحانه ، كما قال الله سبحانه فى سورة الحج : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ .

فبأىِّ حقّ بعد ذلك ، يأتى كاتبٌ فينشر على الناس فى صحيفة الأهرام التى يتولَّاها صبىٌّ مبشرٍ ، كلَّ هذا الخلط المعيب فى دين الله الإسلام ، مع خلطه أيضًا فى المفهوم المعروف من ديانات أهل الكتاب ، مستخدمًا فى ذلك ألفاظًا مخالفة لألفاظ أهل الإسلام = ومشابهةً ، على خطئها ووضعها فى غير موضعها ، لألفاظ أهل الكتاب ؟ ألهذه المشابهة وحدها ينشرها صبىّ المبشرين ، حتى تَذيع بين المسلمين الغافلين عن هذا الضرب السخيف عن المكر ؟ (وراجع أيضًا ما كتبته فى

المقالة التاسعة ، عن الرغبة فى ذيوع ألفاظ « الخطيئة » ، و «الفداء » و « الصلب » و « الخلاص » ، فالأسلوب واحدٌ لا يختلف ، والهدف المقصود فيهما جميعًا ، هدفٌ مُسْتَشْنَعٌ لا خير فيه) .

* * *

وأدعُ هذا الآن إلى ما جاء فيما نقلتهُ آنفًا فى شأن يعقوب عليه السلام وسيرته . وذلك ما ذكره الكاتب باختصار غريبٍ عن سفر التكوين فى الإصحاح الخامس والعشرين والسابع والعشرين ، من ارتكابه شرَّ الحيل فى شراء « البكورية » من أخيه العيص « عيسو » ، وما تواطأ عليه هو وأمُّهُ من غِشٍّ أبيه إسحق عليه السلام وخديعته ، حتى سرق منه « البركة » التى كان حقُّها لأخيه العيص ، ومثل هذه الأخبار شائعة عن الأنبياء فى كتاب القوم ، بلا حرج منهم فى ذكرها وإثباتها ، ويلتمسون المخرج منها بضروبٍ من الاحتجاج معروفةٍ لمن يطلبُها . ونحن المسلمين ننزّه أنبياء الله عن ارتكاب الكبائر الموبقَةِ ، قبل النبوةِ وبعد النبوة ، لأنّ الله هو الذى يصطفى من رسله من يشاء ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وما كان الله ليصطفيهم من شِرار الخلق ، بل من خِيَارهم وأكرمهم عليه وعلى الناس . ولا نرى أنّ نبيًّا يختاره الله للنبوة ، كان يكون فى ماضيه محتالاً ، ينالُ مَطْمَحَهُ بالغش والخديعة والتخابُث على أبيه حتى ينالَ بركته . فإن فَعَل ، فإنّ الله ليس له مُكْرِهٌ حتى ينزِّل بركته على هذا الخبيث المحتال ، دون أخيه الذى خُدِع عن حقه . فهذا كُلّه قَدْحٌ فى النبيِّ فى ديننا ، وإكراهٌ لله سبحانه على ما ليس لأحدٍ من خلقه أن يُكرهه عليه بدعاءٍ أو غيره .

ويعقوب عليه السلام خاصةً ، قد نزلت فيه آية صريحة فاصلةٌ ، أنّه كان عند الله قبل أن يُولَد ، هو النبيّ المبشَّرَ به جدُّه إبراهيم عليه السلام ، وذلك إذ يقول الله سبحانه فى سورة هود ، حين ذكر خبر الملائكة الذين جاءوا إبراهيم بالبُشْرَى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ ، ويقول فى سورة مريم ، لمّا ذكر إبراهيم عليه السلام ، لمَّا اعتزل قومه وما يدعون من دون الله : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ ، إلى آيات أُخَر . فهذا الخبرُ الصادق عن الله سبحانه فى شأن يعقوب عليه السلام ، أنه

كسائر الأنبياء ، كان عند الله نبيًا مسمًّى فى سابق علمه الذى لا يتبدَّل ولا يُنْسخ ، وأنّ جَدّهُ وجدَّته قد بُشِّرا به مُسَمًّى باسمه قبل أن يُولد أبوه إسحق عليه السلام . فهذا المفهوم من صريح القرآن . وهو الذى أنزله الله سبحانه على نبيه ﷺ ، وقال فى صفته فى سورة المائدة : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ ، إلى آيات أُخَرَ مرّ بعضُها ، توجبُ علينا أن نكون شهداء بالحق ، بما أُنْزِلَ إلينا من كتاب ربّنا ، بلا مواربة فى ذلك ولا خداع ولا مداهنة .

هذا ، فضلاً عن البيان الصادق ممن لا يسعنا خلافُه ، ففى الحديث الصحيح الذى رواه أحمد فى مسنده ، من طريق مجالد ، عن الشعبى ، عن جابر بن عبد الله : أن عمر بن الخطاب أتَى بكتاب أصابَه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبىّ ﷺ . قال : فغضب وقال : « أَمُتَهَوِّكونَ فيها يا ابن الخطاب ! (التهوّك ، التحيُّر حتى يسقط فى هُوّة) والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بها بيضاء نقيَّةً . لا تسألوهم عن شىء ، فيخبروكم بحقٍّ فتكذِّبونه ، أو بباطِلٍ فتصدِّقونه . والذى نفسى بيده ، لو أنّ موسى كان حَيًّا ما وَسِعَهُ إلا أن يَتَّبعنى » ، وفى حديث عبد الله بن ثابت أنه قال : « والذى نفس محمد بيده ، لو أصبح فيكُمْ موسى ثم اتَّبعتموه وتركتمونى لضَللتُم ، إنكم حَظِّى من الأُمَمِ ، وأنا حَظُّكم من النبيِّينَ » .

وقد بيَّنَ ذلك عبد الله بن عباس ، فيما رواه أبو عبد الله البخارى فى صحيحه ، فى باب الشهادات إذ قال : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتابِ ، وكتابكم الذى أُنْزِل على نبيّه ﷺ أحدثُ الأخبارِ بالله ، تقرأونه لم يُشَبْ ، (أى لم يخلط بشىء مستحدث) ، وقد حدّثكم الله أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب الله ، وغيّروا بأيديهم الكتابَ ، فقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً ؟ أفلا ينهاكم ما جاءكُمْ من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم رجُلاً قطُّ يسألكم عن الذى أُنْزِلَ إليكم » . وصدق ابن عباس فيما قال فى زمانه ، ولا يزال صادقًا فى زماننا !!

ونعم ، قد جاء الإذنُ ممن لا تَسَعُنا مخالفته بالتحديث عن أهل الكتاب ، فقال

ﷺ ، من حديث عبد الله بن عمرو : أن النبى ﷺ قال : « بلِّغوا عنّى ولو آية ، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج ، ومن كذب علىّ متعمِّدًا فليتبَوَّأ مَقْعَده من النار » ، رواه أبو عبد الله البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الأنبياء ، فرفع الله عنا بذلك الحرج فى معرفة ما يقوله أهل الكتاب فى قصص الأنبياء وغير قصص الأنبياء .

ولكن هذا أمرٌ له ميزان وضوابط ، من ذلك ما قال الشافعى رضى الله عنه : « من المعلوم أن النبىَّ ﷺ لا يُجيزُ التحدُّث بالكذب ، فالمعنى : حدِّثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه . وأمّا ما تجوِّزونه ، فلا حرج عليكم فى التحدُّث به عنهم » . وضابط ذلك أن نعرضَ ما جاء فى كتبهم على كتابنا ، فما وافق كتابنا ، فهو حقٌّ ، وما خالفه نص أو خالفت معانيه ومراميه ما نعلمه من ديننا ، فنحن نكل إليهم أمره ، وليس لنا أن نصدِّقه ، وإن جاز من بعض الوجوه أن نذكُره فى كتبنا أو نَرْوِيه . ولكن لابُدَّ من بيانِ ذلك للناس ، حتى لا نَتَهوَّك فى الحيرة والتناقض والبلبلة ، فإنّ الأمر كله عندنا دينٌ نحن مسئولون عنه يوم القيامة بين يدى ربّ العالمين . وكيف لا نُسْأل عن مثل هذا ، والله وصف هذه الأمة بصفةٍ ملزمةٍ ، توجب عليها اليقظة فى النظر ، و التحرِّىَ فى العِلْم ، ومتابعةَ كُلّ شىء من أمر الدين والدُّنيا بحذرٍ وبَصَرٍ وأمانة ، فقال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، وكفى بشهادة الحق أمانةً يحملها العَدْلُ المتحرّى للصدقِ .

* * *

وإذنْ ، فمن مخالفة نصّ القرآن ونصِّ الحديث أن نعرضَ لأحاديث أهل الكتاب عن أخبار الأنبياء أو غيرهم ، ثم نُمْضِيَها على الوجه الذى يروونه ، بلا تعقيبٍ على وجه المخالفة بيننا وبينهم . ولكن أكبر الإثم فى حق شباب المسلمين وعامَّتهم ، ومن لا يحسنُ أن يبصر وجهَ الحقّ لجهله ولغَرَارته وقلّة معرفته ، أن تُساق إليه هذه الأخبارُ كأنها قَصَصٌ وتاريخٌ ، بلا أدنى حذرٍ ممن التهوُّك فى تصديق ما يخالف عقيدتنا فى أنبياء الله ورسله . فما ظنُّك إذن ، إذا عمد إنسانٌ إلى نزع صفة « النبوة » ، كما نعرفها ، عن نبىٍّ من أنبياء الله وعن آبائه ، وإدخالهم فى غِمَار الكَهَانة

والعِرَافة والتنجيم والتحدث بأسرار السماء ممَّا هو عندنا باطِلٌ مطروحٌ لا يُقْبَلُ ؟ والذى يتحدّثُ به الأنبياء من النِّذارة والبِشارة وأنباء الغيب ، ليس هو « أسرار السماء » ، بل هو تبليغ حقٍّ يريدُ الله أن يهدىَ إليه خَلْقَهُ ، ليطيعوه ويعبدوه ، ويلتمسوا به الهداية إلى صراط مستقيم . وما ظنُّك بعدُ إذا كان امرؤ ، يجعل نبوة النبىّ رُؤَى راءٍ وأحلامَ حالمٍ ، بلا تدبُّر فى معنى ما يقول ؟ إنّ هذا الأمرُ جَلَلٌ مخوف العواقب . وما ظنُّك إذا التمس هذا الكاتب كُلّ حيلة فى التعبير ، ليخرج من ذكر « النبوة » ، وما تقتضيه من تنزيه النبىّ عن أخلاقٍ لا تليق بالأنبياء ، ويُلْقى ذلك على أُمَّة تعلم علم اليقين أن يعقوب عليه السلام ، نبىٌّ مرسلٌ إلى قومه ، ثم ينسب إليه أفعالاً وأوصافًا تقدحُ فى نبوَّته عند أهل الإسلام ؟ أليسَ ذلك خليقًا أن يضلّل النشءَ ويَلْفِتهم بغرابة القَصَص ، عن حقيقة معنى « النبوة » ، وما تقتضيه من أخلاقٍ ؟ وما ظنُّك إذا استخدم لهذا كلّه ألفاظًا تدور عند أهل الكتاب ، أو ألفاظًا شبيهة بألفاظهم دون ألفاظ أهل الإسلام ، وهو فى جميعها مخطئٌ ، فى فهم ألفاظ أهل الكتاب وغير ألفاظهم ؟

* * *

هذا عبثٌ غثٌّ ، ولكن هكذا يريدُ صبىُّ المبشرين أن يفرض على باب « دائرة المعارف » فى صحيفة الأهرام ، ما توجبه عليه المهنة التى يزاولُها منذ عاهدَ من عاهده « فى الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج » . وماذا يفعل الناسُ سوى أن يسمعوا لمن يحذّرهم ، ما دام هذا الطّليق من القيود ، المُفْلِتُ من الأسوار ، لا يجد من ينهاهُ هو وأمثالهُ عن العبث السوقىّ المبتذل ؟ ورحم الله شيخ المعرّة ، إذ يقول :

عِشْ مُجْبَرًا أَوْ غَيْرَ مُجْبَرْ ، فَالخَلْقُ مَرْبُوبٌ مُدَبَّرْ
وَالْخَيرُ يُهْمَسُ بَيْنَهُمْ ، ويُقَامُ لِلسَّوْءَاتِ مِنْبَرْ

وأيَّةُ سوأةٍ أقبح من صبىٍّ مبشرٍ عابثٍ ، يتَّخذ أكبر صحف العالم العربى والإسلامى منبرًا ، يطرح منه على الناس ما يشاء كما يشاءُ ، بلا مبالاة ، وبمكر وخُبْثٍ ومَجَانةٍ . ويقال فى المثل : « إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ » .

... نارٌ حامِيَةٌ

الرسالة

الخميس ١٧ شوال سنة ١٣٨٤



١٣

حين شرعتُ أكتب المقالة السالفة ، كنت بين أمرين : إما أن أكتبَ عن العبث الذى يتولَّى الإشرافَ على نشره فى صحيفة الأهرام ، مستشارُها الثقافى لويس عوض ، وإمّا أن أكتب عن كتاب وقَعَ لى ، رأيتهُ يسلُك نفس المسلك الذى اتخذه لويس عوض فيما كتبه عن شيخ المعرّة ورسالة الغفران . فآثرت الأوّل ، لأنّه متصل كل الاتصال بوسائل « التبشير » وأهدافه ، ومتّصل أيضًا بالذى نحنُ فيه من أمرِ هذه الفئة التى تتحرّك تحت ظلال المستشار الثقافىّ وبمشورته واختياره . وكانَ الموضوع الذى سلف عن نبىّ الله يعقوب عليه السلام ، وكيف سوَّلت لكاتب مسلم نفسُه أنْ يجعل هذا النبى الكريم بن الكريم بن الكريم ، يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، كاهنًا من الكهنة ، وحالمًا من الحالمين ، يرى رُؤْيا كما يرى الناسُ الرُّؤَى ، ولكنه « يعدها وحيًا من السماء » ، كما قال هذا الكاتب ، ثم لا يزيدُ فيما كتب على أن خَلَّط فى سيرة يعقوب عليه السلام ، وأتى فيها بما يناقض نصَّ القرآن مناقضة ظاهرةً ، فضلاً عن سَلْبِهِ صفةَ النبوّة ، كما نعرفها نحن ، عن نبىّ من الرسل صلوات الله عليهم .

فالآنَ أقضى أَرَبى من الكتاب الذى وقع لى ، لأن الأمر فيه يتعلق بنبىّ آخر من أنبياء الله ، وهو محمد رسول الله ﷺ . نعم ، ليس للويس عوض ذنبٌ فى هذا الكتاب ، فأنا لا أحب الافتيات على الناسِ ، ولكن الذى أدهشنى أن الأسلوبين ، أسلوبَ كاتبه ، وأسلوبَ لويس عوض ، واحدٌ فى أصوله وفى تصاريفه ، ولولا أن هذا الكاتب يتحلَّى بالرزانة ، ويحاول أن يراهُ الرائى متَّئدًا خفِىَّ الخطو ، بلا عَجلةٍ ولا تهوُّر ، لظننت أنّ هناك عجيبة وقعت ، فغيّرت اسم « الدكتور لويس عوض » ، إلى اسم « الدكتور زاهر رياض » !!

وإنى لمحدّثك بالخبر ، دون مقدّمات ، فإن كان فى الكلام فضْلٌ ، أثبتُّ ما كان حقُّه أن يكون مقدمةً فى آخر الكلام ، وإن كان الاستغناء عن المقدمات والمؤخِّرات فى هذا الأمر أولى وأجمل . وعنوان هذا الكتاب : « الإسلام فى إثيوبيا ، فى العصور الوسطى ، مع الاهتمام بوجه خاص بعلاقة المسلمين والمسيحيين » وهو عنوان حسنٌ ، فى موضوع حسن ، ويبدأ الباب الأول بَدْءًا كريمًا ، فيقول ، ما نصه :

« جهر رسول الله ﷺ بالدعوة ، فوجد فيها العربُ هَدْمًا لما ألفوه من معتقداتٍ ، وخروجًا عمّا اعتادوا أن يعبدوه . ولكن هذا لا يقاسُ بما وجده أغنياء قريش من تقويض لسلطانهم ، ومنصرف عن لذاتهم التى اعتادوها ، فناصبوه العداء ، وأجمعوا على محاربته والقضاء على دعوته » .

وأدع ما فى الكلام من تظاهر المرء بما لا يعتقده دِينًا حقًّا ويقينًا ، وهو أمرٌ غيرُ محمودٍ ، وإن كنتُ أرجُو أن لا يكون عليه بأسٌ من ذلك إن شاء الله ، وعَسَى ولعلَّ . ولكن بقية الكلام ، كلام فيه تظاهُرٌ من نوع آخر ، وهو التفلسف فى عِلَل التاريخ ، وذلك أنه زعم أن رسول الله ﷺ لما جهر بالدعوة ، أنكرت العربُ ذلك لخلافِه لما اعتقدوه وما عَبدوه ، ثم استثنى منهم أغنياء قريش ، وعَلّل عداوتهم بأنّهم خافوا أن يقوِّض سلطانهم ، ويحول بينهم وبين لذاتهم التى اعتادوها ؟

وهذا عجبٌ . لأنّ الأمر إمّا أن يكون مأخوذًا من السِّيَر الموثوق بروايتها أو يكونَ منزوعًا من التوهم والتخرُّص . والسِّيَرُ بإجماعها لا تقول شيئًا من هذا ، ولا تدلُّ عليه . لأن رسول الله ﷺ لما بُعث فى مكّة ، ظلَّ يدعو أهلَ مكة ، وهم قُريش ، مستخفيًا ثلاث سنين أو أربع ، إلى أن أمره الله بإظهار الدعوة بقوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ « وعشيرته الأقربون » ، هم قريشٌ أيضًا ، فأسلم فى فترة إخفاء الدعوة عددٌ قليل جدًّا ، جُلّهم من قريشٍ . فلما أعلن الدعوة ودعا قريشًا ، وهم عشيرته الأقربون ، تردّدَت قريش فى أمرها ، وراعَهم ما يدعوهم إليه ، ولكنهم لم ينكروا عليه شيئًا من ذلك ، حتى عابَ آلهتهم ، وسفّه أحلامهم ، وذمَّ ما كان عليه آباؤهم ، وأخبرهم أن آباءهم فى النار . فعند ذلك أبغضته قريش غضبًا ومَحْمِيةً ،

فعادَوْه ، وأخذوا مَنْ آمن به بالأذى والعقوبة والنَّكال . وظَلَّ الأمرُ على ذلك ، ورسول الله ﷺ يدعو قومه قريشًا إلى الإيمان بالله ، وينذرهم بالنار إن كذبوه ، ويبشرهم بالجنة إن أطاعوه واتَّبعوه .

فهذا ظاهر ما فى السير جميعًا ، وهو الذى يدلُّ عليه تنزيل القرآنِ منجَّمًا على أحْيانِهِ التى نزل فيها ، فإن جُلّه فى دعاء قُريشٍ إلى توحيد الله سبحانه ، ونَبْذِ الأوثان ، وخَلع الأنداد التى اتخذوها لله شركاء ، والاحتجاج عليهم فى ذلك كُلّه بالحجج البينات ، وما يتخلّل ذلك من الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، من بذل المال ، وإكرام اليتيم ، واتقاء الفواحش ، وحفظ الفروج ، وسائر المكارم التى دعَا الله إليها عبادَه ، والتى كانت العرب تتخلَّقُ ، أو تحبُّ أن تتخلَّق بها فى جاهليتها ، من إرث أبيها إسماعيل ، وهى الحَنِيفيَّةُ دين إبراهيم عليهما السلام .

أمّا ما كان يحول بين قريش ولذّاتها ، كالخمر ، والميسر ، وأشباهها ، فإن تحريمها لم ينزل إلا بالمدينة ، بعد الهجرة . وما فيه تكليفٌ يشقُّ من الزكاة والصدقاتِ وسائر الأحكام ، فكُلُّ ذلك أيضًا كان مما نزل بالمدينة . إذَنْ ، فهذا التعليل الذى ذكره الأستاذ لما كان عن عداوة قريشٍ رسولَ الله ﷺ ، باطِلٌ ، وهو فيه متابع لكثير من سخفاء المستشرقين وأشباههم ، بما فى ذلكَ « تقويض السلطان » ، لأن الأمر لم يكن بهذا الوضوح يومئذ ، وإنما يقول ذلك من أخطأ النظر ، وسَحَبَ ما صار إليه أمر الإسلام من الظُّهور والغلبة بعد زمان طويل جدًّا ، على ما كان فى نَأْنَأَةِ الإسلام ، [أى فى أوله ، قبل أن يقوى ، ويكثر أهله وناصروه ، والداخلون فيه ، فهو عند الناس يومئذ ضعيفٌ] . وأنَّى لقريش أن تعرفَ ، على كثرتها وغلبتها وخُيَلائها ، أن نَفَرًا لا يُعَدُّون أربعين رجلاً ، أن تكون لهم الغلبة فى الأرضِ ، فيقوِّضوا سلطانهم؟ هذا عجيب ولا ريب .

وظلَّ أمر الدعوة محصورًا ، أو يكاد يكونُ محصورًا فى قريش ، إلى أن كانت سنة سبع من النبوّة ، فائتمرت قريش وكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه أن لا يُناكحوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، رَهْطَ رسول الله ﷺ ، ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم حتى يُسْلِموا إليهم محمَّدًا ﷺ ، وكتبوا الصحيفة ، وعلّقوها فى الكعبة ، وانحازت بنو هاشم ، مؤمنهم وكافرُهم سنة سبع فى شِعْب أبى طالبٍ ،

وبَقُوا فى الشِّعْب محصورين لا يخرجون إلا من مَوْسِم إلى مَوْسِم ثلاث سنين ، أى إلى سنة عشرٍ من النبوّة ، حتى نُقِضَت الصحيفة ، وخرج رسول الله ﷺ من الشِّعْب ، فكان أوّل خروجه بعد ذلك فى الدعوة إلى دين الله ، إلى الطائف فى شوال سنة عشرٍ . ثم كان بعد ذلك بمدة ، أن ذهب رسول الله ﷺ يعرِضُ نفسه على قَبائِل العرب أيام الموسِم ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ويخرُجُ وراءه أبو لَهَبٍ تَبَّتْ يَدُه ، وهو عم رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ يقول لقبيلة قبيلة فى الموسم : « مَنْ رجلٌ يحملنى إلى قومه فيمنعنى حتى أبلّغ رسالة ربّى ، فإن قريشًا منعونى أن أبلغ رسالة ربى » ، فيقول أبو لَهبٍ تبَّتْ يدُه : « لا تسمعوا منه فإنّه كذابٌ » ! فكانت أحياء العرب تتحاماه لما تسمع من قول أبى لهب تَبَّت يدُه ، ولما كانوا يسمعونه من قريش من قولهم فيه : كاذبٌ ، وساحر ، وكاهن ، وشاعر .

* * *

وإذن ، فتقديم الأستاذ ذكر « **العربِ** » فى إنكار دعوة رسول الله ﷺ على ذكر « **قريش** » ، لا يطابق شيئًا من السِّير ثمَّ خَصَّه « قريشًا » فى إنكار الدعوة بما خصَّها به ، وتأخير ذكر « العرب » ، وهو اللفظ الجامع الذى تدخل فيه قريش وغير قريش ، لا يطابق أيضًا شيئًا من السِّير . وإذن ، فهو كما قلت ، لا ينتهى إلاّ إلى التوهُّم والتخرُّص وإظهار التفلسف فى التاريخ بلا أصل من منطق قويم .

وإلقاءُ هذا الكلامِ إلقاءً مجرَّدًا كأنه شىء مسلّمٌ مقطوعٌ به ، هو داءُ لويس عوض ، الذى ظهرت أعراضه فيما كتبه عن شيخ المعرّة ، كما أسلفت بيان ذلك ، ومهما يكن من شىء ، فإن الأمر لو قد بلغ هذه الغاية ووقف عندها ، لما كان على الأستاذ الفاضل بأسٌ ، بل يقال له ما كان يقال فى المثل : « ليس بعُشِّكِ فادْرُجى » ، (أى ليس هذا من الأمر الذى لك به علم ، فدعه) . وأيضًا ، عَسَى أن يكون معذورًا ، فإنّ هذا الخلط متفشٍ عند جمهرة من أدعياء الكُتَّاب فى زماننا ، نقْلاً عن المرض المتفشّى فى كتُب الذين طمس الله على عيونهم وعقولهم إذا ذكروا رسول الله ﷺ من المستشرقين أو المبشرين !! والمستشرقون والمبشرون هم فى الحقيقة

جماعة لم يصلحوا لشىء فى بلادهم ، أو لم يطيقوا أن يكونوا شيئًا مذكورًا ، فيسَّرهم الله لما يسرهم له من الاستشراق أو التبشير . ولو أن أحدهم كتب كتابًا فى تاريخ أمته ، بمثل العقل والمنطق اللذين يكتب بهما فى تاريخ الإسلام ، لكان مَصِيرُ ما يطبع منه أن يظلَّ مطروحًا عند ناشره ، حتى يفتح الله عليه فيبيعه بالجملة لمن يستعمله لشىء يُتقَزَّزُ منْهُ غير القراءة !

* * *

هذا ما قاله فى ص : ١٥ من كتابه ، فلا نكاد نصل إلى ص : ٣٠ وما بعدها ، حتى نكون قد قطعنا شوطًا بعيدًا جدًّا فى ضروبٍ من العلم تقول فيها : نعم ، يا سيدى ! ولا ، يا سيدى ! ثم تنتهى إلى قوله : « وتقول المصادر العربية إن ملك إثيوبيا ، [يعنى ملك الحبشة ، كما سأذكر ذلك فيما سيأتى] ، كان يسمى الأصْحَم ، أو أَصْحَمَة ، وهو اسم لا نجدُه فى « **كبرانجست** » الذى يحوى أسماء ملوكهم ، مما يدعونا إلى الاعتقاد أن الذى استقبل المسلمين وأكرمهم ومنحهم حمايته ، لم يكن غير البحر نجش ، أى حاكم الولاية الإثيوبية البحرية » .

ولا أدرى ، على التحقيق ، ما هى هذه « المصادر العربية » التى يشير إليها الأستاذ ، لا أدرى لماذا أبهمها كُلَّ هذا الإبهام ؟ بل أنا أدرى ، ولكن لعلَّ القراء لا يدرُون . فاسم « أصحمة » الذى لم يجده الأستاذ فى « كبرانجست » نجدُهُ نحن فيما هو أصدقُ صِدْقًا من « كبرانجست » [١] ، ففى الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله صاحب رسول الله ﷺ قال : « قال النبى ﷺ حين مات النجاشىُّ : مات اليوم رجُلٌ صالحٌ ، فقوموا فصلُّوا على أخيكم أصحمة » ، هذا لفظ أبى عبد الله البخارىّ فى صحيحه ، فى كتاب مناقب الأنصار ، باب موت النجاشى = ورواه مسلم فى صحيحه عن جابر : « قال رسول الله ﷺ : مات اليوم عبدٌ لله صالح ، أصْحَمة . فقام فأمَّنا وصلَّى عليه » .

وحسبك بهذين مما فيه ذكر « أصحمة » .من الحديث الصحيح ، أما ما فيه

---

(١) سيأتى التصريح فى الخبر بأن « أصحمة » هو ملك الحبشة » فيما يلى ص : ٢٣٨ ، س ١٠ .

ذكر « النجاشى » ، دون تعيين الاسم ، فكثيرٌ ، وكلُّها دالٌّ على أن رسول الله ﷺ سماه « أخًا » للمسلمين ، وصلّى عليه صلاة الغائب . والذى لا ريب فيه ، أن رسول الله ﷺ ، لم يصلّ قطُّ على غير مؤمن بالله ورسوله ، لا يهوديٍّ ولا نصرانيٍّ ولا منافق ، فهذا النجاشى الذى نزل عنده المسلمين ، كان قد أسلم ولا شكَّ ، ومات فى رجب سنة تسع ، كما قال الطبرى وغيره ، أو قبل الفتح كما قال بعضهم . وليس معقولاً أن يكون رسول الله ﷺ قد سمّاه « أصْحمة » من عند نفسه ، وهو غنىٌّ عن أن يذكره إذا لم يكن هذا اسمه الذى عرفه به الناسُ ، ولا سيما المهاجرون إلى الحبشة ، وقد عادوا إلى المدينة سنة سبع بعد الهجرة ، بعد أن أرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشىّ أصْحمة كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام ، مع عمرو بن أمية الضَّمرىّ ، فأسلم ، وكتب إليه أيضًا أن يزوّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت فيمن هاجر إلى الحبشة فزوّجه إيَّاها .

فهل هناك طريق إلى معرفة اسم النجاشىّ ، هو أوثق من هذا الطريق ، الذى تدلُّ عليه كل هذه الرَّوابط والصِّلات ؟ لا أظن ، وإن رَغِم أَنْفُ « **كبرانجست** » . وإذا كان « كبرانجست » قد أغفل اسم هذا النجاشى ، فأولى أن يقال إن إغفاله إنما جاء من قِبَل أن الرجُل أسلم ، قبل وفاته بنحو سنة أو سنتين ، فحذف اسمه من جريدة ملوكهم ، وهم الملوك الذين يدينون بالنصرانية . أليس كذلك ؟ أو على الأقل . أليس هذا رأيًا أشبهَ بالصواب ؟

* * *

ولكن الأستاذ الذى عُنِى كل العناية فى هذا الموضع (ص : ٣٠) بإبهام « المصادر العربية » ، عُنِى فى ص : ٤٦ ، بالإشارة إلى تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ستٍّ من الهجرة ، وفَصَل بين الموضوع الأوّل ، وهو ذكر « أصحمة » باسمه ، وبين موضوع إسلامه الذى دللنا عليه آنفًا فقال :

« وفى سنة ست أرسل النبى عليه الصلاة والسلام (هذه الصلاة من المؤلف نفسه !) إلى النجاشى كتابًا يدعوه إلى الإسلام ، فاستقبله النجاشى استقبالاً حسنًا ، ووضعه على رأسه وأسلم ، على ما تقول المصادر الإسلامية ، وإن كنا لا نجد لهذا

سندًا مطلقًا فى المصادر الإثيوبية (يعنى الحبشية) ، ولكن ما عُرِف عن الإثيوبيين (يعنى أهل الحبشة) من تمسُّكٍ بدينهم ، يلقى **ظِلا من الشك على هذه الرواية** ، كما أن الرواية توحى بالتكذيب أكثر مما توحى بالتصديق ، فقد ذكرت أنه أرسل ردّه مع ابنه (أريحا) ، ومعه ستون رجُلاً ركبوا البحر ، وسارت بهم السفينة ، حتى إذا توسَّطت البحر ، هاجت عليها ريحٌ فأغرقتها ومن فيها ، ويظهر أن المؤرخين المسلمين عُنُوا بإنقاذ الكتاب ، فأتوا لنا بنصّه ، أكثر مما عُنوا بإنقاذ أصحابه » ، انتهى الأستاذ الفاضل من سخريته بالمؤرخين المسلمين !!

وهذا بلا شك شىء غير لائق ، أن يوهم القارئ أنه رجع إلى تاريخ الطبرى ، وقرأه بعينيه اللتين يُبْصِر بهما ، ثم يقول ما قال عن « المؤرخين المسلمين » ، بهذا التعميم المستشنع . ولو حَدَث ما قاله ، وكان هذا أو مثله عند « المؤرخين المسلمين » ، لنفضنا نحنُ أيدينا منهم منذ زمانٍ ، من قبل أن يستطيع مثل الأستاذ زاهر رياضٍ أن يَخُطَّ حرفًا على ورَق !! وهذا الأسلوب ، هو نفس أسلوب المسمَّى لويس عوض ، أو كأنهما ينبعان معًا من منبع واحد !!

ولو تركنا كُلَّ كتابٍ ، ولم نَعُدْ إلاّ إلى كتب التاريخ ، لرأينا ابن سعد فى طبقاته الكبرى (١/٢/١٥ ، ١٦) ، حين ذكر بِعْثَةَ رسول الله ، بأبى هُو وأمِّى ، بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام يقول : « فكان أوّلَ رسولٍ بعثه رسول الله ﷺ عمرُو بن أُميَّة الضَّمْرِىّ إلى النّجاشىّ ، وكتب إليه كتابين ، يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ، ويتلو عليه القرآن ، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه ، ونزل من سريره على الأرض تواضعًا ، ثم أسلم ، وشهد شهادة الحق ، وقال : لو كنت أستطيع أن آتيَهُ لأتيته . وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه ، وإسلامه ، على يَدَىْ جعفر بن أبى طالب ، لله ربّ العالمين = وفى الكتاب الآخر يأمره أن يزوِّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة ، مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدى ، فتنصَّر هناك ومات . وأمره رسول الله ﷺ فى الكتاب أن يبعث إليه بمن قِبَله من أصحابه ويحملهم . ففعل ، فزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، أصْدَق عنه النجاشىُّ أربعمئة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم ، وحملهم

فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرىّ ، ودعا بِحُقٍّ من عاجٍ ، فجعل فيه كتابَىْ رسول الله ﷺ وقال : لن تزالَ الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها » . فهذا قول محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ من الهجرة ، (وانظر أيضًا ابن سعد ١/ ١٣٩/١ ، مثله) . [انظر ما يأتى ص : ٢٥١] .

ثم يأتى أبو جعفر الطبرى ، المؤرخ الثانى ، المتوفى سنة ٣١٠ من الهجرة ، فيذكر فى حوادث سنة ست من الهجرة ، ناقلاً بإسناده عن محمد بن إسحق صاحب السيرة (المتوفى سنة ١٥١ من الهجرة) قال : « بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرىّ إلى النِّجاشىّ ، فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، وكتب معه كتابًا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأَصْحم ، **ملك الحبشة** : سَلْمٌ أنت ، فإنى أحمد الله إليك الملكَ القُدُّوسَ السلامَ المؤمنَ المهيمنَ ، وأشهد أن عيسى ابن مريم رُوحُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ البَتُولِ الطيبة الحَصِينة ، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونَفْخِه ، كما خلق آدم بيده ونَفْخِه ، وإنى أدعوك إلى الله وحدَهُ لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله . وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فاقْرِهِم (أى أحسن إليهم) ودع التجبُّر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلَّغتُ ونصحتُ ، فاقبلُوا نُصْحِى ، والسلام على من اتبع الهُدَى » .

فكتب النجاشى إلى رسول الله ﷺ : « من النجاشى الأَصْحم بن أبجر ، سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته ، من الله الذى لا إله إلا هو ، الذى هدانى إلى الإسلام ، أما بعد ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله ، فيما ذكرت من أمر عيسى ، فَوَربِّ السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُفْرُوقًا ، إنه كما قلت . (والثفروق : هو العَلاقَةُ التى تتعلق بها نواة التمرة إلى قِمَعها) . وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قَرَيْنَا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مُصَدَّقًا ، وقد بايعت وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . بعثت إليك بابنى أرها بن الأَصحم بن أبجر ، فإنى لا أملك إلا نفسى . وإن شئتَ أن آتيك فعلتُ

يا رسول الله ، فإنّى أشهد أن ما تقول حقٌّ ، والسلام عليك يا رسول الله » . ثم يقول ابن إسحق فى إثر ذلك : « وذُكر لى أن النجاشى بعث ابنه فى **ستّين من الحبشة** فى سفينة ، فإذا كانوا من وسط البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا » .

* * *

وهذا كلامٌ واضح لمن يُحْسِنُ أن يقرأ بالعربية ، من لا تعبث بعقله أو نفسه عوابث التهيُّج الدفين ، فَبِعْثَةُ النجاشى ولدَه « فى سِتّين من الحبشة » ، الذى ذكره ابن إسحق بصيغة التمريض والتضعيف وهى « وذُكر لى » ، لا علاقة لها بالخبر المذكور قبلها البتّة . هذا ، على أنه ليس بمعقول أن يرسلَ نبىّ أو مَلِكٌ أو سلطانٌ ، إلى ملك أو سلطان ، رسولاً معه كتابٌ ، فيجعل الردّ مع غير الرسول الذى حمل إليه الرسالة ، هكذا المعهود فى آداب السفارة والرسالة والبعثة ، هذه واحدةٌ . وأما الأخرى ، فإن « مؤرخى المسلمين » الذين يتلعَّب الأستاذ بهم ويسخَرُ ، ويحاول أن يضحكنا منهم بخفّة دَمِه ، يعلَمون أن عمرو بن أميَّة الضَّمرىّ رسولَ رسولِ الله إلى أصحمة ، عادَ إلى المدينة ومعه جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، كما قال الطبرى وسائر المؤرخين ، وأنه بقى حيًّا إلى أن مات فى زمان معاوية رضى الله عنه سنة ستين من الهجرة ، فهو الخليق بأن يعرف نص ما أُرْسل به إلى النجاشىّ ، وما أرسله النجاشىّ معه ، ومن طريقه رَوَى الرُّواة الكتابين المذكورين ، فإنقاذ كتاب النجاشى (!!) جاء عن هذا الطريق ، لا عن طريق ما خلّط فيه الأستاذ الجامعى (أيضًا !!) ، وهو يقرأ هذه النصوص . وخبر بعثة النجاشىّ ولَدَه مع ستين رجلاً من الحبشة ، جائز جدًّا ، وغرق السفينة بهم ، جائزٌ جدًّا ، ولكن العبث بالنصوص ، ثم السخرية بمؤرخى المسلمين بعد نسبة هذا العبث إليهم ، ليس بجائز أبدًا .

* * *

وأغربُ ما فى تمام هذا الكلام ، أنه بعد أن أثبت بطلان إسلام النجاشى فى ص : ٤٦ ، قال فى ص : ٤٧ : « ومات النجاشىُّ سنة تسع من الهجرة ، فسرعان ما علم النبى بالخبر ، فدعا أصحابه وصفَّهم خلفه ، وصلَّى بهم عليه ، وهذا هو الأصل فى صلاة الجنازة على الغائب » . فبالذمّة (وإن لم يكن هذا القَسَمُ من أيماننا التى

نقسم بها) ، هل يعقل إنسانٌ أن نبيًّا جاءَ بدينٍ يخالف الدين الذى عليه جماعة من الناس ، يمكن أن يقيم صلاة الجنازة على رجُلٍ منهم هو عنده فى دينه ضالٌّ عن الحقّ الذى بُعِث ليدعوه إلى اتِّباعه ، ومجانبة ما كان مقيمًا عليه من الدين الأوَّل ، ليكون هذا أصلاً فى شرع صلاة الجنازة على الغائب ؟ ألم يجد ميتًا سِوَى هذا الميّت يشرع به الصلاة على الغائب ! من الذى علم الأستاذ هذا الفقه فى دين المسلمين ؟ ليكن من يكون ، فإنه ليس أمرًا ذا بالٍ ، بعد هذا اللفّ الطويل فى السراديب ، حتى يبلُغَ مَأْرَبَهُ فى تكذيب الأخبار التى رويت بالأسانيد الصحاح عن رسول الله ﷺ ، وعن عمله الذى هو جزءٌ من ديننا ! ونعودُ مرة أخرى إلى حيث ابتدأنا ، بلا محاولة فى تشقيق الأمر بأكثر من هذه الدلالة على خبث المقصد .

* * *

فهذا الأستاذ روى فى ص ١٩ ما كان من أمر الهجرة إلى الحبشة ، فقال : « فلما رأى الرسول عليه السلام (هذه الصلاةُ من عند الأستاذ !) ذلك ، رقَّ قلبه لأنصاره ، وخاف عليهم أن يفتنوا ، (يعنى تعذيب المشركين للمسلمين) ، فأشار عليهم أن يفرُّوا بإيمانهم ويهاجروا إلى بلاد (**الحبشة**) ، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد » ، ثم عاد فى ص : ٣٠ ، التى كنا قد نقلنا منها النص السالف فقال : « يقول النبى ﷺ : لو خرجتم إلى أرض (**الحبشة**) فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد » ، وهو يصرُّ على وضع (**الحبشة**) بين قوسين ، لأنه كان يريد أن تكون (إثيوبيا) ، فعفا عنها فى هذه المواضع ، ثم يقول فى ص : ٣١ : « أما أن ملك (**الحبشة**) ، لا يظلم عنده أحدٌ ، فهذا حقٌّ » ، ويظلُّ يأتى بالأدلّة على صدق هذه المقالة ، إلى أن يقول فى ص : ٣٣ « فالمتتبع إذن لتاريخ إثيوبيا منذ أقدم العصور ، حتى القرن الرابع عشر الميلادى (بهذا التحديد البديع ، لسبب يتبيّن من قراءة كتابه ، ليس من شأنى هنا أن أفصله) ، لا يجد مكانًا للعداوة الدينية وما يتبعها من جدل دينىّ وحروب دينية ، تقوم على أساس فرض ديانة بعينها ، أو إرغام فريق من الناس على اعتناق أو ترك أى مذهب من المذاهب ، وهذا ما عناه النبى عليه السلام بقوله : إن ملك (**الحبشة**) ملك لا يظلم عنده أحد » .

وهذا كلامٌ حسنٌ ، أو نصف حسنٍ ، أو رُبْعُ حسنٍ ، أو دُون ذلك فصَبًّا

(نقيض قولك : فصاعدًا !!) . وهو كلامٌ كان يحسن السكوت عليه ، بيد أن الأستاذ لم يرد أن يسكت . فقال بعد ذلك مباشرة : « ولكن من أين عرف النبيُّ ذلك ؟ » سؤال مهم جدًّا ، لا يستغنى عنه كتابه الفريد فى نوعه !

وفى الجواب عنه يسلُك نفس السلوك الذى سلكه لويس عوض فى أمر شيخ المعرة ، والقارئ يذكر أنه كانَ يسوق الكلام عن شيخ المعرة كأنّه بديهية من المسلّمات قد فرغ العلمُ كُلّه من تمحيصها كما ذكرته فى أول المقالة الأولى حيث قال : « وقد تعلم المعرى فى اللاذقية ، كما تعلم فى أنطاكية ... » ، إلى آخر هذه القصة المملولة = فيقول الأستاذ رياض ، فى جواب سؤال نفسه !! :

« أرى أنّ هذه المعرفة ترجع إلى مصادر ثلاثة وهى : أولاً : من كان بمكة من إثيوبيين (أى أحباش !) ، فجميع المصادر تجمع على أن العلاقات بين إثيوبيا (ويعنى الحبشة أيضًا) والحجاز فى ذلك الوقت ، كانت وثيقة مستمرة ، وعاش بمكة كثير من التجار الإثيوبيين (أظن القارئ عرف من هم !) الذين استطاعوا أن يؤسسوا تجارة ناجحة . وكان النبى عليه السلام (السلام عليه من المؤلف) فى شبابه عازفًا عن معاشرة لِداته من العرب ، ومشاركتهم فيما هم فيه من لهو ومتعة ، بل كان يعاشر أهل الكتاب ، ويسمع منهم ويتعلَّم (« يتعلم » ! هكذا بصريح العبارة ، كما يقولون !) ، فهل نستبعد (حاشى لله يا عزيزى !) أن يكون النبى عليه السلام قد اختلط بمن اختلط بهم من الكتابيين إثيوبيين عرف منهم أمر إثيوبيا وحالها ؟ هذا إلى أن استمرار العلاقة بين إثيوبيا والحجاز وسرعتها ، حملت إلى تلك البلاد أنباء الدعوة الجديدة ، فأتى منهم كثيرون يبحثون عن هذا النبى الجديد ليسمعوا منه ويؤمنوا به » .

وكان الأمر واضحًا لو اقتصر هذا الكاتبُ على أن يذكر ما زعم من وجود تجار الحبشة بمكة ، وأنْ عَسَى أن تكون أخبار أصحمة الملك النجاشى فى عَدْله وحكمته قد كانت معروفة فى مكة . ولا يرتابُ أحدٌ ، أن ذلك ممكن عندئذ أن يكونَ كما قال الكاتب ، سواء أكان الدليل موجودًا على وجه القطع ، أم مُسْتَظْهَرًا من بعض القرائن . ولكن ليس شرطًا أن يكون تجار الحبشة « **من الكتابيين** » ، لأنّ التاريخ ،

الذى يشهد هُوَ على صدقه فى كتابه ، يدل على أن أهل الحبشة كانوا على ديانات مختلفة ، منها اليهودية ، ومنها النصرانية ، ومنها سائر الوثنيات المختلطة . ولا يستطيع هو ، ولا أحد غيره ، أن يقطع بأن اليهودية والنصرانية كانت يومئذ هى الغالبة على الحبشة ، فربما كان الأرجح أن يكون الأمر يومئذ كان على خلاف ذلك ، أعنى أن اليهودية والنصرانية كانت قلة فى تعداد سكان أرض الحبشة . ومع ذلك ، فهذا أمرٌ لا يعنينى الآن فى شيء ، ولكن الذى يعنينى ويعنى كل مسلمٍ ، ثم كُلَّ امرئ لا يخالط ضميره الهوى من غير المسلمين ، هو هذه العبارة التى أقحمها الكاتب ، بلا مسوّغ معقول ، وهى قوله : « كان النبى عليه السلام فى شبابه عازفًا عن معاشرة لداته من العرب ، ومشاركتهم فيما هم فيه من لهو ومتعة » ، هذه **الأولى ، والثانية** : « بل كان يعاشر أهل الكتاب ويسمع منهم ويتعلّم » . ما هذه المسلمات البديهية !! من أين يأتى بها هذا الظريف الجديد ؟

مَنْ قال له إن النبى ﷺ فى شبابه ، « كان عازفًا عن معاشرة لداته من العرب » ؟ أنا أعلم بلا شك من أين أتى بهذا الكلام . هذا شيء قديم كنَّا نسمعه ونحن أطفالٌ من القسيس « زويمر » وأشباهه من المبشرين المتسكّعين فى طرقات الأرض . وهو كلام كانوا يخايلون به الأطفال والعوامّ ، لمَّا أتاح لهم سلطانُ الاستعمار أن يتجوّلوا فى بلادنا كما شاءوا بلا أحدٍ يدفع عن الناس هذا السخف الساخف (هكذا جرت الكلمة ، والأمر لله) . أو تدرى من أين كان يستخرجه هذا القسيس المريض ؟ من حديث محمد بن إسحق ، عن محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة ، عن الحسن ابن محمد بن على بن أبى طالب ، عن أبيه ، عن جدّه على بن طالب قال : [موارد الظمآن رقم : ٢١٠٠ ، ٢١٥٠ ، عيون الأثر ١ : ٤٤ ، ٤٥]

« سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به إلاَّ ليلتين ، كلتاهما عَصَمنى الله فيها . قلت ليلةً لبعض فتيان مكة ، ونحن فى رِعاء غنمِ أهلها : أبْصِرْ غنمى حتى أدخل مكة أسمرُ فيها كما يسمُر الفتيان . فقال : بلى . قال : فدخلت حتى جئت أول دارٍ من دُور مكة ، سمعتُ عَزْفًا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : تزوّج فلان فلانة . فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مَسُّ الشمس » . وذكر المرة الأخرى مثلها .

وإسناد الحديث فيه نظر ، وهو عند المحدثين غريبٌ . ومع كُلّ ذلك ، فليس

فيه شيء يدلُّ على أنه كان عازفًا عن « معاشرة لداته من العرب » ! وأيُّ امرىءٍ يعقل هذا أن يكونَ ! ألم يكن للداته عَملٌ إلاّ اللهو والمتعة بالليل والنهار حتى يعزف عن معاشرتهم ! بأيّةِ عقولٍ يفكر هؤلاء الناس ؟ ولكن هكذا يريدون ! فإذا كان كلّ لِدَاته من أهل مكة لا عمل لهم إلا اللهو والمتعة = والحديث دالٌّ على أنه لم يهمّ بشيء من ذلك إلا مرّتين = فهو إذا لم يكن يعاشر لداته ، وإذا كان لم يعاشر لداته ، فمن يعاشر؟ يعاشر أهل الكتاب . لماذا ؟ لأن أهل الكتاب من الأحباش وغير الأحباش ، ممن كان بمكة ، لا يمكن أن يكون من أهل اللهو والمتعة . ولماذا ؟ لأنهم أهل الكتاب !! وبهذا المنطق السليم الذى لا عيب فيه إلا أنه منطق مبشّرين ، ومن كان على شاكلتهم قديمًا أو حديثًا ، فى اضطراب موازين الإدراك الإنسانىّ ، يستطيعون أن يصلوا إلى النتيجة التى يطلبونها ، وهى أن النبى ﷺ : « كان يعاشر أهل الكتاب ويسمع منهم ويتعلم » !!

هذه ، بلا ريب ، بديهيات ينبغى أن يقرأها شباب المسلمين وشيوخهم ويستفيدوها من القسيس « زويمر » ، ومن الأستاذ زاهر رياض ، بلا اعتراض ولا ارتياب ، فهى مسلّمات لا يستطيع العقل أن ينقضها !! وإلاّ فمن أين تعلّم هذا العربىّ الإسماعيلىّ الذى لم ينحدر من رحم سَارَة امرأة إبراهيم عليه السلام ، بل من رحم الجارية هَاجَرَ المصرية التى وهبتها له سَارَة ، فلما حملت بإسماعيل صَغُرت مولاتها فى عينها ، فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فردّها إليها وقال لها : افعلى بها ما شئت ، فأذلّتها سارة حتى هربت هَاجَرُ من وجهها ؟ كما يقولون فى تَوْراتهم !!

* * *

ولكن الأستاذ لا يقتصر على هذا القدر ، فإنه قَدْرٌ لا يشفى غليلاً ، كما لم يشف غليلاً للويس عوض أن يتعلّم شيخ المعرّة فى اللاذقية وأنطاكية ، فأضاف إليهما راهب دير الفاروس ! وذلك أن القارئ قد يظنُّ أن أهل الكتاب هم الذين ذكرهم وحسبُ ، أى « التجار الإثيوبيين » ، فهؤلاء قد يكونون جهلةً ، لا يكادون يعرفون من أمور الدين والدنيا شيئًا يمكن أن يتعلّمه أحد وهم جَهَلَةٌ ، بلا ريب عندى أنا على الأقل . فماذا يفعل ؟ يمضى من ص : ٣٤ ، فى خلطٍ كثير لا أحبُّ أن أقف عنده ، حتى يصل إلى ص : ٣٨ فيقول : « فإذا نزل بالنبى عليه السلام وأصحابه ما كانت تمطرهم به قريش من اضطهاد وتعذيبٍ ، تذكر ما كانت ترويه له أُمُّ أيمن من أخبار

وَطَنها ، (وهذا اكتشاف ذكى انفرد الأستاذ ببيانه فى ص : ٣٧) ، وأضافه إلى ما عرفه من الموالى الإثيوبيين ، وزاد عليه ما عرفه من تجارهم وقساوسهم الذين اختلَط بهم بمكة فيما سبق من حياته » ..... انتهى .

هذه مهارةٌ وحسنُ تصرُّف ، فإنّه لم يرد أن يضع « **القساوسة** » فى المادة الأولى من مواد الاتهام الثلاث ، فأجَّلهم حتى انتهى ، ثم جاء بذكرهم عرضًا كأنه لا يعنى شيئًا ، وكأن هذا الأمرَ مسلَّمٌ لا غبار عليه ، تنطق به كتب « المؤرخين المسلمين » ، بلا حاجة إلى دِلالة على موضعه ، كما فعل فى أمر إسلام أصحمة النجاشى الذى آذاهُ كُلَّ الأذى أن يكون قول « المؤرخين المسلمين » فيه قد بلغ هذه الدرجة المنكرة من السوء ، ونسبة هذه الشناعة إليه !! وهى إسلام أصحمة !!

وأنا بلا ريب ، لا أبالى بما يقوله هذا الأستاذ الجامعى الآخر ، فى مثل هذا الشأن ، وأظن أني لم أبالِ بمثل ذلك قليلاً ولا كثيرًا ، حين نقلت فى المقالة الخامسة ، عن عبد المسيح بن إسحق الكندى ما جاء فى كتابه الذى طبعه المبشرون طبعات كثيرة ووزَّعوه فى كُلّ مكان ، وعسى أن تكون عند الأستاذ منه نسخة ، وإلا فإنى أتبرع بإهدائه نسخة نفيسة منه .

زَعَم عبد المسيح الكندىّ بأصرح من هذا الكلام الملفّف فى الألفاظ ، المغلَّفِ بكثرة الصلاة والسلام على نبيّنا ﷺ ، أن رسول الله ﷺ ، إنما هو تلميذ لسرجيوس الراهب ، الذى أنكرته الكنيسة وطردته ، فانتهى إلى مكة وتلطف برسول الله ، بأبى هو وأمّى ، حتى استماله ، وتسمى عنده نسطوريوس ، وأزاله عن عبادة الأوثان ، ثم صيره داعيًا وتلميذًا له يدعو إلى دين نسطوريوس .

وأنا لا أقول إنى لم أبالِ بهذا ولم أحفل به ، لانه أمرٌ هَيِّنٌ كلاًّ ، بل لأن الذى يقرأ القرآن ويسمع ما قاله المشركون وغير المشركين ، لنبى الله ﷺ ، ويتلو ذلك مرَّةً إلى آلاف المرات ، يجد أن هذا السخف الذى جرى على لسان عبد المسيح وورثته من بعده ، لا يُعَدُّ سوء أدب ، بل هو سوء عقل . ومن كلَّف نفسه تتبع سوءات العقول التى تشبه عقل عبد المسيح ، أضنى نفسه فى غير طائل . والله تعالى يقول فى سورة النحل : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ

﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَـرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ، فلم يتردد أحدٌ من المسلمين فى أن يذكر الأقوال المختلفة فى هذا المشار إليه فى الآية ، قيل اسمه : « بَلْعام » ، وقيل « يَعِيش » ، وقيل « جَبْر ، غلام نصرانىّ » ، ويقال بل « جبر » وآخر اسمه « يَسَار » كانا يقرآن التوراة ، وقيل « سَلْمانُ الفارسىّ » . وظاهرٌ بلا ريب ، عند المسلمين ، أن القرآن لا يمكن أن يكون كلامَ بشر أعجمىٍّ أو غير أعجمىّ ، وظاهر أيضًا بدليل العقل والبَصَر ، أن ما فى القرآن من القصص الذى يَدَّعى بعضُ الناس فيه ما يدّعون ، مخالف كل المخالفة لما فى التوراة والإنجيل ، لا فى سياقه فحسبُ ، بل فى العقائد المتصلة به ، التى ترفض ما لا يقبله العقل ، كما أسلفت فى المقالة الماضية .

وقد يظنُّ الأستاذُ الظنون فيلتمس المخارجَ ، لأنه يتوهم أنّه بهذه الأسلوب المُتداخل الموحِى بِلاَ تصريح ، يستطيع أن يقول مبتسمًا : ولكنى لم أرد أن أذهبَ هذا المذهبَ فى تعلُّم رسول الله ﷺ الدينَ من تجار الأحباش وقساوسة الأحباش ، بل أردتُ هذه الأخبارَ العامة عن أحوال الناس والدنيا = فيقال له : فما الذى حملك إذن على أن تكتب : « كان يعاشر أهل الكتاب ويسمَعُ منهم ويتعلم » ، ثم حملك على أن تزيد الأمر وضوحًا بالتكرار الملفَّف فتقول فى إثرها : « فهل نستبعد أن يكون عليه السلام قد اختلط بمن اختلط بهم من الكتابيين إثيوبيين » ؟ فهذا كلامٌ واضح جدًّا فى أن أصناف الكتابيين الذين كان قد اختلط بهم كانوا أحباشًا وغير أحباشٍ ، وهم الأكثر .

وإذا كان الأمرُ أمرَ أخبار عن ملك عادل فى الحبشة ، كتابيًّا كان أو غير كتابىّ ، فما الضّرر فى أن يكون حامل الخبر أيضًا كتابيًّا أو غير كتابىّ ؟ ما معنى هذا النصّ والتكرارِ والتشدُّق بلفظ « الكتابىّ » والتلمّظ بذكره ؟ وإذا كان هذا الرجل الذى تصلّى أنت عليه وتسلّم ، نبيًّا يأتيه الخبر من السماء بأخبار الماضين على فصِّها ، ناعيًا على أهل الكتاب تبديلهم لكتابهم ، وتحريفهم له ، فما الذى يمنع أن يأتيه الخبر من السماء أيضًا بأمر الملك العادل أصحمة النجاشى رضى الله عنه ؟ وأنا لا ألزمك بهذه الحجة ، ولكنى كرهتُ التهويل الذى هوّلته فى جواب سؤالٍ ،

لا معنى له فى الحقيقة عندنا نحن ، ولا عندك إن كنت صادقًا فى أنك تريد الأخبار لا الدين . وكان من بديهة العقل السليم أن تقول عندئذٍ : إنك تظن أنه سمع هذا ممن كان من الأحباش بمكة ومن كان يتردّد عليها منهم وممن دخل بلاد الحبشة ، وكفى الله المؤمنين القتال ! وخرجتَ بذلك من كُلّ ما دخلت فيه من المعرّة والعيب والتواء القصد .

* * *

ومع ذلك ، فأنت إن قلت ذلك غيرُ صادقٍ فيما تقول ، لأنى أستطيع أن أستخرج لك الدليل بعد الدليل على اتجاه الكتاب كُله ، لا فى هذا الموضع فحسب ، وسأزيد الأمر بياناً باكتشافك العجيب الذى ادعيت أن المؤرخين لم يُعْنَوْا به ، وهو مسألة « أم أيمن » ، رضى الله عنها ، لا أحبُّ أن أصف فعلتك التى فعلتَ ، ولكنى سأدع الأمور تسير بك وبالقارئ إلى غاياتها .

زعم كتابُك (أنت !) أن أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ كان لها تأثير عليه ، لبعض كلمات حبشية كان يقولها ﷺ ، ولذلك فأم أيمن عندك : « لم تكن صغيرة السنّ يوم جاءت إلى جزيرة العرب . وإلاّ كانت قد نَسِيَتْ لغتها » .

وهذا كلُّه تخرُّص عجيب ، فإنك قطعت بأن هذه الكلمات الحبشية إنما جاءته من « أم أيمن » بلا دليل ، ثم جعلت الشىء المجهول عن « أم أيمن » دليلاً على صِدْق ما تذهب إليه . وإلا فحدثنى : من الذى حدثك أن أم أيمن كانت تتكلم الحبشية أو تعرفها ؟ وأنت نفسك تقول : « إن المصادر تجهل كُلّ شىء عن أم أيمن قبل أن تكون جارية لعبد الله بن عبد المطلب » (والد رسول الله) ، أفتريد أنت أيضًا أن تقف تتنبأ ، كما وقف لويس عوض يتنبأ بأن شيخ المعرّة قصد أنطاكية : « وتعلّم بها وهو صبى » ؟

ورسول الله قد ورث أم أيمن عن أبيه عبد الله ، فما الذى يمنع أن يكون عبد الله قد وهب له جدُّه عبد المطلب أمَّ « أمِّ أيمن » و « أمَّ أيمن » نفسها فى حياته ، وأن يكون عبد المطلب ، قد ورث « أمَّ أمِّ أيمن » ، عن أبيه هاشم ، وهلم جرًّا ؟ فتكون إذن من « القِنّ » ، وهو الرقيق الذى آباؤه مماليك .

* * *

ولكن هل أنا فى حاجة إلى الاستمرار فى مثل هذه الفروض ؟ لا ، فإنّى إنمّا لجأت إلى الفرض على توهُّم أنّى من قُراءِ أكاذيب « **كبرانجست** » ، لا من قُراء كتب العرب وأهل الإسلام . فهذا الأستاذ المتكذِّب المدَّعِى يزعُم « أن المصادر تجهلُ كُلَّ شيء عن أمّ أيمن قبل أن تكون جارية لعبد الله بن عبد المطلب ، والد رسول الله ﷺ » !! وكَذَب الأستاذُ الفاضل ، لأن رجلاً مثلاً كمحمد بن سَلاّم الجُمَحِىّ ، صاحب « طبقات فحول الشعراء » ، حين ذكر الزبير بن عبد المُطّلب الشاعر ، ذكر أن مما صحَّ من شعره قصيدته التى يقول فيها :

وَلَوْلاَ الحُبْشُ لَمْ تَلْبَسْ رِجَالٌ ثِيَابَ أَعِزَّةٍ حَتَّى يَمُوتُوا

ثم قال : « وقال قومٌ : لولا الحُمْسُ » ، وليس هذا بشىء ، إنما هى « الْحُبْش » ، يعنى أنهم أخذوا ثيابَهُمْ ومتاعهم ، وذلك حين جاؤوا يريدون هَدْمَ البَيْتِ ، فردهُمُ الله . وكانت « أُمّ أيْمَنَ » منهم ، غَنِمتها قُرَيْشٌ ، وهى أم أسامة بن زيد » .

فهذا وحدَهُ نصٌّ يجعل الأستاذ كاذبًا متنفّخًا تنفُّخ لويس عوض ، بادعائه أنّه نظر فى مصادرنا العربية وفلاَّها تفليةً ، فعلم عندئذ أنَّ المصادر تجهلُ كُلّ شىء عن « أمّ أيمن » قبل أن تكون جارية لوالد رسول الله ﷺ !! وندعُ كذبَ هذا الضرب من « الأساتذة » جانبًا ، لأنّه شىءٌ مقزّزٌ ، شبيه بادعاء لويس عوض فى شأن أبى العلاء المعرّى أن « الحق أنه لا يعرف شىء عن تعليمه الرسمىّ حتى سنّ العشرين ، وهى سنّ التكوين » ، وقد فرغت من هذا الكذب أيضًا فما سلف [ص : ٥٨] .

وأخذُ « أم أيمن » غنيمة فى عام الفيل = وهو العام الذى كانت فيه غزوة الحبشة بيت الله الحرام ، وهو العام الذى وُلِد فيه نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ = لا يعنى أنها كانت كبيرة السنّ يومئذ ، لأن الجيوش قديمًا كانت تخرجُ ومعها الإمَاءُ والحرائر والقَيْنَاتُ ، لخدمة الجيش وللعناية بالجَرْحى ، وللترفيه عن المحاربين بالغناء ، وللتهويل بضرب الدفوفِ . وهذا أمرٌ معروف لمن يقرأ مصادرنا الإسلامية ، وعسى أن يكون قارئُ « كبرانجست » خليقًا بجهله . وأيضًا ، فالإماء والحرائر ، رُبَّما خرجنَ بأطفالهنّ مع الجيوش . ولأسبابٍ سيأتى ذكرها بعد قليل ، أرجّح أن « أمّ أيمن » كانت حين غنمتها قريش فى عام الفيل ، ممّن خلَّفها الجيش الهاربُ وراءَه ،

وأنها كانت طفلة صغيرة جاءت مع أمِّها ، وعَسَى أن تكون أمُّها ماتت فيمن ماتَ من جيش « الحَبَش » الذى أرسل الله عليهم طَيْرًا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سِجِّيل ، فجعلهم كَعَصْفٍ مأكول ، وبقيت هذه الصغيرة اليتيمة وحيدةً ، فأخذها عبد المطَّلب بن هاشم ، ووهبها لولده عبد الله والد رسول الله ﷺ .

وأيضًا ، ليس لزامًا أن تكون « أمُّ أيمنَ » حبشية الجنس واللسان = لأنها ربَّما كانت من إماء أحبَاش اليمن وجواريهم ، وأنَّها كانت من السُّودَان ، وأنّ أمّها كانت قديمة فى الرقّ عند الحبش فى جزيرة العرب ، وأنها لم تَرَ أرضَ الحبشةِ قطُّ ، فهى لا تعرف من لسان « الحبش » إلاّ بعض اللفظ ، ولا تعرف من أخبار ملوك الحبشة شيئًا يذكرُ أو يُعْتَدُّ به . ولو مضيتُ أفترض وأعلِّم أمثال هؤلاء « الأساتذة » !! كيف يفكّرون ، لأطلتُ ولخرجتُ عن جادّة الطريق ، وليس هذا تكبُّرًا عليك أيها الأستاذ وتنفُّخًا باردًا كتنفُّخك ، ولكنه طلبٌ للإيجاز والاختصار .

ولكنّى سأعلمك ما لم تكن تعلم ، لتعلم أن المؤرخين لم يقولوا شيئًا مما قلتَ إلاّ لأنه باطِلٌ من كل نواحيه . فأم أيمن رضى الله عنها ماتت فى أول خلافة عثمان رضى الله عنه ، أى فى نحو سنة ٢٤ من الهجرة ، وذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ بنحو أربع عشرة سنة تقريبًا . فإذا كانَ رسول الله قد عاش ثلاثًا وستين سنة ، فهذه سبع وسبعون سنة . فهَبْ أنها كما تقول ، فى نحو الخامسة عشرة من عمرها يوم ولد رسول الله ، فكأنها عاشت اثنتين وتسعين سنة ، أليس كذلك ؟

فأعود فأنظر ، فإذا وَلَدُها « أسامةُ بن زيد » حِبّ رسول الله ، كان يوم تُوُفى رسول الله فى الثامنة عشره إلى العشرين من عمره ، فيكون أقصى مولده سنة تسع قبل الهجرة ، أى بعد بعثته ﷺ بأربع سنوات ، أليس كذلك ؟ فإذا كانت « أمّ أيمن » حضنته ، بأبى هو وأمى ، وهى فى الخامسة عشرة ، وبقيت إلى أن كرّمه الله بالنبوة فى الأربعين ، ووُلِدَ أسامة بعد ذلك بأربع سنواتٍ ، فكأنها ولدته وهى فى التاسعة والخمسين من عمرها ؟ أتظنُّ أنَّ « أم أيمن » ولدته فى هذا السنِّ ؟ فإذا كان هذا أمرًا مرغوبًا عنه لغرابته وبعده عن المعهود من الوِلادات ، أليس من الأوفق أن يقال إن « أمَّ أيمن » كانت فى نحو الخامسة من عمرها يوم ولد ﷺ ، وأن يكون

قوله : « أمُّ أيمن أميٌّ بعد أميٌّ » ، و « بقية أهلِ بيتى » ، إنما يريدُ به كانت تحوطه وترعاه حياطة الأم ، دون نظر إلى السنّ ؟ [انظر ما سيأتى ص : ٢٥١] .

أعلمت الآن لماذا لم يُعْنَ المؤرخون بهذا الأمر عنايتك أنت به ، ولا سيَّما المؤرخون المسلمون ؟ لأنهم يكرهون الدعوى العريضة ، والتعالم الذى لا يقوم على أصل ، ولم يكن عند أحدٍ منهم نيّةُ أن يقول : « إن هذه السيدة الإثيوبية (أى الحبشية مرة أخرى !!) ، لا يستبعد أن تكون قد وعت كثيرًا من أخبار وطنها ، لتلقِّنه هذا الصبىَّ ، إذا ما سكن إليها ليلاً ، أو جلس إليها نهارًا ، لتقصَّ عليه ما يألفه الصبيان من قَصَص تؤثر فيهم ، وتطبعهم بطابعها » ، كما قلت أنت .

وأنا أسألك : ما دخل « القصص » فى خبر عن ملك عادل من ملوك الحبشة ؟ وماذا يعنى الصبىَّ من مثل هذا الخبر ؟ وأىُّ أثَرٍ يتركه مثل هذا الخبر ؟ وأى طابع يطبع به صبيًّا مثله ؟ وما هذه الإشارة إلى « **تطبعهم بطابعها** » .؟ وكم كان عُمْر هذه الفتاة حين جاءت من الحبشة ، وبقيت عند عبد الله ؟ ومَنْ عاصرتْ من الملوك ؟ وهل هذا الملك الذى عرفت خبره هو أصحمة النجاشىّ ؟ وهل بقى أصحمة أو غيره فى الملك إلى أن جاوز رسول الله الرابعة والأربعين من عمره ؟

كُلّ هذه أسئلة محيِّرةٌ ، لا يجد أحدٌ عنها جوابًا سهلا لطيفًا كالذى وجدته أنت عن سؤالك ، ولا عن طريق التنبؤ ؟ واعلم أن مؤرخى المسلمين كانت لهم عقولٌ غير عقول الذين كتبوا « كبرانجست » الذى أردت أن تكذِّب به حديثَ نبيِّنا ﷺ .

* * *

إنّ هذا المسلك المعيب الملفَّف الملتوِى ، فى تكذيب الحديث الصحيح ، وفى بثّ الألفاظ الموحية هنا وهناك ، وفى إلقاء الأقوال الكاذبة المخترعة القبيحة ، كأنها أخبار صادقة مسلّمة لا يرتابُ فى صحتها أحدٌ ، وفى ترك المجاهرة بأسلوب صريح دالٍّ على شرف العقل والنفس = كلُّ ذلك لا يليق برجُل يكتب كتابًا ينشره على الناسِ ، وهو منتسب إلى جامعة ، ويتولّى التدريس فى أخطر معهد شأنًا ، وهو « معهد الدراسات الإفريقية » ، والموضوع الذى يكتبه فى صميم الدراسات

الإفريقية ، وهو موضوع محفوفٌ بالأمور الشائكة ، لأن كل كتاب أوربى يُنْشَر أو نُشِر فعلاً ، لا يكفّ عن الإشارة إلى أن المعركة فى إفريقية آتية لا محالة بين الإسلام والمسيحية الأوربية ، أى بين الإسلام والتبشير ، فمن اللعب بالنار أنْ يُدخل الأستاذ الجامعى ثيابه كلَّها فى هذه النار . وهذا أمر أدعه لمن ينبغى أن ينظر فى هذا الأمر . ولكنى أحذّر أن تستمرئ هذه الفئة التى ضلَّلت عقولَها وسائلُ المبشرين هذا الأسلوبَ ، فلا تبالى أن تَعْرِض بأسلوبهم لتاريخ المسلمين والعرب فى الحبشة ، ثم لا تتورّع أن تتطاول بالتعريض والتلميح على رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب المستشنع ، لأن سلوك هذا الطريق مفضٍ إلى نار حامية فى الدنيا ، ونار حامية فى الآخرة .

وعَسَى أن تكون هذه الكلمة قاطعةً لكلّ مُناجٍ فى السرّ ، لأنّى لم أمسّ من هذا الكتاب إلا صفحاتٍ قلائل ، أما سائِرُه ، فعسى أنْ يعيدَ فيه صاحبه النظر ، ويتبرَّأ من جرائره التى انساحت فيه بلا حذرٍ ، كما انساحت فى كتب له أخرى ، لم أحاول أن أذكر منها شيئًا ، لأن القصد لم يكن إليه ، بل إلى الكشف عن هذه المشابِهِ المُرِيبة بين كتابه هذا ، وما يكتبه الغُلامُ الآخر الذى حملنا على هذا المركب الوَعْرِ .

* * *

حاشية : أمرٌ عجِيبٌ ! فلهذا الأستاذ الجامعى قصَّةٌ ، وذلك أنه كان قد تقدَّم طالبًا للترقى إلى درجة أستاذ مساعد ، فألفت لجنة للنظر فى كتبه التى ينشرها ، كمثل هذا الكتاب الذى ذكرنا من خبر سُوءِ أدبه فيه ما علمت ، فرفضت اللجنة طلبه ، لأن كتبه لا تعدّ فى شيء دراسات جامعية تنال احترام أحدٍ . ولكن ما كادت تنشر هذه المقالة ، حتى أعيد تأليف لجنة أخرى ، لتمنحه درجة مساعد أستاذٍ ، ردًّا على ما كتبناه ، وتحدّيًا . كيف حدثَ هذا ؟ لا أدرى وكيف وقع خِداع اللجنة الجديدة عن عقولها ؟ وكان المظنون أن تسأله الجامعة عن سوء أدبه ، لا أن تكافئه على سوء الأدب ! ولكنْ طواغيت « التبشير » لهم مكرٌ خفيٌّ نافذ .

● فى صحيح مسلم ، « باب كتب النبى ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل » :

حدثنى يوسف بن حماد المعنىُّ ، حدثنا عبد الأعلى ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس : أن النبى ﷺ كتب إلى كِسْرى وإلى قيْصر ، **وإلى النجاشى** ، وإلى كُلّ جبَّارٍ ، يدعوهم إلى الله تعالى = وليس **بالنجاشىِّ** الذى صلّى عليه النبىّ ﷺ .

● فى المغنى لابن قدامة ١ : ٣٦٣ :

« روى الزُّبير بن بكّار فى كتاب النسب عن بعضهم أنه قال :

« لا تَلدُ لخمسين إلا العربيَّة ، ولا تلد لسِتّينَ إلاّ القرشيَّة ، وقال : إن هندًا بنت أبى عبيدة بن عبد الله بن زَمَعة ، ولدت موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، ولها ستون سنة » .



أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا

الرسالة

الخميس ٢٤ شوال سنة ١٣٨٤

١٤

هذه أوّل مرَّةٍ أستبيح لنفسى أن أجعل ما تسمَعهُ أذناىَ مادةً لبعض حديثى إلى الناس بالكتابة ، فذلك ليس من شيمتي ولا خلقى ، لأنى أعدُّ اللجوءَ إلى هذا النمط ، ولا سيما حين أتناول أمرًا من أمور الأدب أو العلم أو السياسة أو غيرها ، خروجًا على ما أدّبنى به طول اعتزاليَ الناسَ ، من ترك المبالاة بما تتلاغَطُ به جماهير من الخلقِ تُعَدُّ خطأً فى « المثقفين » ، وليسوا بهم ، ولكنَّهم ، إذَا حصّلت ما فى صدورهم وقلوبهم وعقولهم ، أصحابُ ثرثرة وتَرْتَرةٍ وبرْبرة (وهى ثلاثة ألفاظ متقاربة فى معانى اللَّغَطِ والإكثار والهذَر ، بيدَ أن الفروق بين ثلاثتها ، تدل على أن هذه اللغة الشريفة غايةٌ فى براعة التصوير بألفاظها الجامعة) . وهم ، أيضًا ، فى حقيقة أمرهم ، مزاميرُ مزعجةٌ مختلطة الأصوات فى المجالس ، أو شجر مُرُّ الثمر مزروع على قوارع الطرق ، أو أحلاسٌ مرذولةٌ لكهوف المقاهى المظلمة أو المضيئة ، ولكنها ، على ذلك كله ، أحلاسٌ ذاتُ فحيحٍ أو ذاتُ جعجعة ، ثم لا شىء وراءَ ذلكَ ، إلاّ ما قدّر المقدِّر من تكاثرها وانتشارها وشيوعها فى حياتنا ، بأسباب يعجب المرء كيف جاءتْ ، ولم اتفقت ؟ فإذا هى فى زىّ أستاذٍ ، أو مفكر ، أو فيلسوفٍ ، أو أديب ، أو شاعرٍ ، أو كاتب ، أو فنّان ، أو ما شئت مما تعلم وترى وتسمع ! وقد أجاءنى طولُ اختبارى له وتجربتى (أجاءنى ، أى اضطرنى إلى أضيق الطرق) ، أن أعتزل عشرتها ومصاحبتها منذ زمانٍ ، وأن أنفُض ثوبى من ثيابها ، وأن أقنع بعشرة أهلِ الفضلِ من قليل الناس ، حتى خِلْتُنى قد دخلتُ مع شيخ المعرّة ، رحمه الله ، فيما دخل فيه ، حيث وعظ نفسه وقال :

لَمْ يَبْقَ فِي العَالَمِينَ مِنْ ذَهَبٍ ،   وَإِنَّما جُلُّ مَنْ تَرَى شَبَهُ [1]
دَعْهُم ، فَكَمْ قُطِّعَتْ رِقَابُهُمُ   جَدْعًا ، وَلَمْ يَشْعُرُوا وَلاَ أَبَهُوا

---

(١) « الشبه » ، ضرب من النحاس ، يلقى عليه دواء فيصفر وإذا فعل به ذلك أشبه الذهب .

قَدْ مُزِجُوا بالنِّفاقِ فَامتَزَجُوا ، وَالْتَبَسُوا فِى العِيَانِ وَاشْتَبَهُوا
وَمَا لأقْوالِهِمْ إذَا كُشِفَتْ حَقَائِقٌ ، بَلْ جَمِيعُهَا شُبَهُ

وقد حملنى على استباحة ما أنا مُسْتبيحُه ، هذا الغُلامُ الباغى ، السليطُ اللسانِ ، الوالغُ فى آداب العرب وتاريخها ، العابثُ فى جهله بلغتها ، وبقرآنها ، وبحديث نبيها ﷺ ، وبشعر شعرائها ، ممكَّنًا من كلّ ذلك بفضل مؤسسة الأهرام التى اتخذته لها مستشارًا ثقافيًا ، وتركتْ له الحبلَ على الغارب يَسْرَحُ ويَمْرَح ، ويَرْتَع ويلعبُ ، وكأنها هى لا تدرى من هو ، ولا من يكونُ ؟ فصار هو لا يُبالى مَن القراء ، ولا مَنْ يكونون ؟ وبعقله ظنَّ أنّهُم جميعًا بُلْهٌ لا يعقلون !!

وسأحسمُ هذه المادة الخبيثةَ ببيان واضحٍ ، لأنى منذ كنتُ على هذه الأَرض ، لا أطيقُ أن أسلُك إلاّ السُّبُلِ الواضحة البارزة ، ولا ألوذُ بالظلالِ المظلمة متخفِّيًا إلى غايةٍ أريدها ، فذلك شئٌ أَعافُه وأنزِّه نفسى عَنْه فى خاصّ أمورى وعامّها . هكذا عشتُ ، وأسألُ الله أن يسدّدنى على ذلك ما بقى فىَّ نفس يتردّد . ومنذ شهورٍ جاءَ ما لا صَبْر عليه ، وخرجتُ من مُعْتَزَلى ، حيث أحببت أن أقضِىَ نَحْبِى غير مذكور ولا معروفٍ ، وحملتُ القَلَم الذى كرّم الله به عباده حيث قال لنبيِّه فى تنزيله : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وذلك بعد أن نحّيتُه عن أناملى دهرًا ، مخافَةَ أن أعْجِز فلا أطيقُ أن أقوم بأمانته ، وهى أشرف أمانةٍ استودعها الله حملة الأقلام من عباده . خرجتُ يومئذ وحملتُه ، لا لشىءٍ إلاّ لأداء هذه الأمانة ، لأنى أحسستُ أنّ النكوص عن أدائها خيانةٌ لأمانة الله سبحانه ، وخيانةٌ للعلم الذى علَّمنيه ربّى ، وخيانةٌ للماضين من آبائى ، وللحاضرين من أهلى وعشيرتى ، وللآتين من ذرِّيَّة وارثةٍ نحنُ الأمناء على تبليغها وأداء الأماناتِ كُلّها إليها . وهذا أمرٌ جدٌّ كُلّه ، لا يخالطه عندى هزلٌ ، لأنّه دين أنا مسئولٌ عَنْه بين يدى ربّ العالمين ، وليس مغالبةً ولا حَمِيَّةً جاهلية .

وعسيرٌ جدًّا على خلقٍ كثير ، أن يدركَ اليومَ معْنى هذا اللفظ « دين » عندنا نحن المسلمين ، لأن المسلمين منذ غُلِبوا على أمرهم بغلبة هذه الحضارة الأوربية على الأرض مسلمها وكافرها ، تلجلجت ألسنتهم بالفَرَق والذُّعْر لهَوْل المفاجأةِ ، فصارَ

لسانُ أحدهم أحيانًا كأنّه مُضْغة لحمٍ مطروحةٍ فى جَوْبة الحَنَك ، ليس من عملها البيان !! فمن يومئذ خفى على الناس معنى « الدين » ، إذ لا مُبين عن مَعْناه ، وذاعَ فى الأرض معنى « الدين » كما يراه سائر أصحاب « الديانات » سوى الإسلام .
و « الدين » عندنا ، اسمٌ جامع لكلّ تصرُّفٍ يتصرَّفه المرء المسلم فى حياته ، منذ يستيقظ من نومه ، إلى أن يؤوب إلى فراشه وفى كُلّ عملٍ يعمله ، مهما اختلفت هذه الأعمال ، من أحقرها وأدناها ، إلى أشرفها وأعلاها ، كُلُّ ذلك دِينٌ هو مسئول عنه يوم القيامة ، كما يُسْأَل عن صلاته ، وصيامه ، وزكاته ، وحجّه ، وإن كانَ فى بعض ذلك على بعضٍ فضلٌ . فالدين عندنا هو الحياةُ كلها . فحقُّ الله على العباد ، وحقُّ العباد على العباد ، وحق بَدَن العبد على العبد نفسه ، كُلُّ ذلك دينٌ هو مسئول عنه ، فى الصغير والكبير ، وفى أمر الدنيا وأمر الآخرة . وهذا فرْقُ ما بيننا وبين سائر أصحاب المِلَل فى معنى « الدين » ، بلا مَثْنَوِيَّة (أى بلا استثناء) .

فمن ظنّ أنى حين أَحملُ القَلَم ، أحملُه وأنا مستخفٌّ بهذه الأمانة أو مداهنٌ فى طريق أدائها ، فقد أخطأ . ومن ظنَّ أنى أفكِّر حين أفكّر لأكتب ، وأنا مُسْقِطٌ عن نفسى وعن كاهلى عِبْءَ هذه الأمانة ، فقد أَخطأ . ومن ظنَّ أنى حين أكتب فى أدب أو نقد ، أو سياسة ، أو ما كانَ من أبواب القول ، لا أرى شيئًا من هذا أمانةً ينبغى أن أؤدِّيَها على وجهها وبحقّها ، فقد أخطأ . وكيف ؟ وأنا أخافُ أن ألقى الله ربّى يوم القيامة فيناقشنى الحسابَ ، و « إنه مَنْ نُوقِشَ الحسابَ عُذّبَ » ، وصدق رسول الله ﷺ . ولن يحولَ بينى وبين أداء هذه الأَمانة ، إن شاء الله ، إلاّ عُذْرٌ قاهر يَغْلِبُنى ، أو حَتْفٌ دائرٌ يقبضنى .

وهذا أمرٌ لا أظنُّ لويس عوض وأشباه لويس عوض قادرين على إدراكه حقَّ الإدراك ، ولا أبالى أن لا يدركوه ، لا لأنّى أكرهُ لهم الخير ، بل لأنّى أرى نفوسًا قد مَرَدتْ على الهَوَى والمكر والتناجى بالإثم ، فهى لا تكاد تنقادُ إلاّ لما مَرَدتْ عليه .
فهذا المرء لا يزال يدورُ على الآذان يزمزمُ فيها (والزمزمة : تراطن علوج الفرس بصوت تديره فى حلوقها وخياشيمها ، فيفهم بعضها عن بعضٍ) ، ليُشيع عنّى أنى عمدتُ فيما أكتب إلى « التجريح الشخصى » ، وإلى « التعصُّب » على أهل دين من

الأديان ، وإلى « بعث فتنة قومية ودينية » إلى سائر ما يوسوس به ، مما أعِفُّ عن التصريح به من إفكٍ يتمرَّغُ فيه اللسانُ . ولقد كنتُ أشرتُ إلى بعض ذلك فى المقالة الثامنة ، ثم زدتُه بيانًا فى المقالة التاسعة ، بعد أن فوجئت بما أذهلنى ، حيث ردّدَ هذا الكلام نفسَهُ مكتوبًا ، زميلى القديم الدكتور محمد مندور . وقد مضى على ما كتبت شهرٌ أو أكثر ، ولكنّ هذا الغلامَ لا يريدُ أن ينتهى ، ويأتينى الخبرُ بعد الخبر ، فأجده لم يزلْ على العهدِ مقيمًا هو وشيعته ، فيدورُ هو ، ويديرهم هو أيضًا ، على الناس ، ليصبُّوا فى الآذان التى شقّها الله للسمع ، ما لا يجرؤ هو ولا أحدٌ منهُمْ أن يكتبه معلنًا بِهِ . ويفعلون ذلك ويُلحُّون عليه ، إذْ هُمْ صُمُوتٌ لا يردُّون علىّ شيئًا مما أقولُ ، لتلبسَ وسوستُهم ثيابَ الشكوى ، فتكون فى استغفال عقول السامعين أسرعَ ، وفى إشاعة قالة السوء عنّى أمضى ، وفى إقناع الغافل بأنّ ذلك كائن وبأنه صحيحٌ أفعلَ ، على طول الترداد لهذه الألفاظ المبهمة المعانى ، الممجوجة المبانى ، السخيفة جَيْئةً وذُهوبًا حيث سارت فى الطروس والآذان . وأنا لا يسوءنى ذلك من فعلهم ، فهى شِنْشِنَةٌ قديمةٌ توارثَ داءَها طوائف من أبناء آدم منذ كانوا على الأرض ، بيد أن العاقل من تأدَّب بأدب أخى سَلُولٍ حين لقى من هذا الداء القديم ما لَقِى ، فذكر قصّته فقال :

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِى فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ : لاَ يَعْنِينِى
غَضْبانَ مُمْتَلِئًا عَلَيَّ إِهَابُهُ إِنِّى ، وَحَقِّكَ ، سُخْطُه يُرْضِينى

إنّه فِعلٌ لا يسوءنى قُلاَمَة ظفرٍ ، ولكنى إذا سمعتُ خبره من سائل أو مستفهمٍ ، ساءنى أن أردَّ ، لأنه ممّا يؤذينى أن أكون كمثلهم مستخفيًا بحديث أُسِرّه ، فمن أجل ذلك عزمتُ على أن أكْوِىَ هذا القَرْح المُمِدَّ بكلمات لا تتلَفَّع بالظلماء ، ولا تَدِبُّ إلى أحدٍ بالمكر الخفىّ .

وما يُذِيُع به هذا الإنسانُ وشيعتُه المبثوثون بين الناس ، من أنّى عمدتُ فى مقالاتى إلى « التجريح الشخصى » ، فهو شىء من الباطِلِ يلجأ إليه العاجز ، يتخذه دِرْعًا لعجزه ، فيستخدم شناعة هذا اللفظ المبهم ، وسيلةً إلى إقناع السامع بأنّه لم يتوقّف عن الرد عجزًا ، بل تنزُّهًا وترفُّعًا عن التورط فى ارتكاب مثله ، ممّا تكرهه

النفوسُ وتعافُه . ونعم ، فأنا لم أحبس قلمى عن تسطير كلمة بعد كلمةٍ فيها وصفٌ له يسوءُه هو أن يسمعه ، لأنَّه شئٌ يُخيفه أو يضمرُه أو يعرفه هو عن نفسه ويتظاهر للناس بغيره = ويؤذيه أن يسمعه الناسُ أو يعرفوه ، لأنه كان يتمنّى أن يظلَّ مكنونًا مضمرًا . ولكنّى لم آتِ فى كلامى بصفة واحدةٍ من صفاته ، إلاّ ولها دليل ظاهرٌ من نفس كلامه ، لا فيما ذكرتُه من كلماته المقتبسة من مقالاته وكتبه وحسب ، بل فيما لم أذكرهُ بعدُ ، وسأذكره بدليل قاطع إن شاءَ الله .

فليس « تجريحًا شخصيًا » ، أن أدرُس ما كتب عن شيخ المعرة ، فأجِدُهُ قد تنفَّخَ متطاولًا ، طولًا وعرضًا ، وإذا هو بعد الفَحْص عن حقيقةِ تنفُّخه وتطاوُله لا يحسنُ أن يقرأ كتابًا ، ولا يحسنُ أن يفهم شعرًا ، فإذا قلت إنه « شرلتان » ، وهى كلمة معروفة المعانى عند أصحابها ، وفى استطاعته أن يقرأ شرحها فى أىّ معجمٍ ، فيَجد هذا الشرحَ مطابقًا لما كان من فعله فى دراسة رسالة الغفران وفى تاريخ شيخ المعرة ، فهل يكون هذا « تجريحًا شخصيًّا » ؟ وإذا رأيتُه قد أقَرَّ على نَفْسه أنه مبغضٌ للغة العرب « فكسر رقبة بلاغتها » ، وإن إحساسه بها ضعيفٌ بالفطرة ، وأنّه اعترف لنفسه بأنه « لم يقرأ حرفًا واحدًا بالعربية بين سن العشرين وسن الثانية والثلاثين » (وهى سن التكوين كما يقول فى معرض ذكره لأبى العلاء) ، ثم رأيته يتهجَّم على أعظم أثرٍ أدبىّ وأوعَرِه مسلكًا فى لغة العرب ، فيحاوِلُ أن يفسّره ويكشف غوامضه ، فهل يعدُّ « تجريحًا شخصيًّا » أن أقول له : إنّك مجترئ دعىٌّ ؟ فإذا لم يقتصر على هذا ، حتى عَمَد إلى شعر الشيخ يشرحُه بجهالته فى العربية ، ثم سوَّلت له نفسُه أن يفسّر أيضًا آيةً من القرآن العظيم بلا تحرُّج ، ومدَّعيًا أنّه قد قرأ تفاسير القرآن ، ومُوهِمًا قُرّاءه أنّ هذا التفسير الفاسد مأخوذٌ مِنْها ، فهل يكون « تجريحًا شخصيًّا » إذا قلتُ له : إنك جاهلٌ جدًّا ، وجرىء لا تستحى ؟ هل أقصُّ القصة كُلَّها ، من هذا الموضع إلى أن كان ما كان منّى ، إذْ سَلكتُهُ بالدليل من قوله وفعله ، مع صبيان المبشّرين الذين عرفتُهم وخبرتُهم واكتويتُ بنارهم منذ أكثر من أربعين سنة !

ما الذى يريدُ هذا الإنسانُ منّى أن أقوله ؟ أيريدنى على أن أدعه يتكلّم ويفعلُ ، ثم أكتبُ لأحاورَه وأُداوره وأمسّه بأطرافِ البَنان ، لأنه عند نفسه إنسانٌ « مثقفٌ »

ينبغى أن يخاطب مخاطبة الإنسان « المثقف » ؟ وماذا أفعلُ يا سيدى ، إذا كنتُ أجدك إنسانًا غير مثقَّفٍ ، لأنّى لستُ ممن يغرُّهم هذا الضرب من « الثقافة » ؟ هلْ تظنُّ أنى قادر على أن أنخدع لكَ عن عقلى ، فأنسَى كُلَّ ما قرأتُ بالعربية وغير العربية ، لا لشىء إلا لأعترف لك بهذا الضرب من « الثقافة » ، وإن خالفَ ما أعرفه من معنى « الثقافة » عند العرب والأعاجم ، على اختلاف أجناسهم ومللهم ونِحَلهم ؟ دَعْ ذا ، فإنّه لا يغنى عنك فتيلًا ، ولا تحملنى على أوعَرَ ممّا حملتنى عليه بتهجُّمك على ما لا تعرف وما لا تحسن . وإذا كنتُ قد كرهتُ شيئًا ، فأشدُّ ما كرهتُ أن غمستُ قلمى فى صفاتِك ، ولولاَ أَداءُ الأمانة على وجهها وبحقّها ، لأعفَيتُه مما أكره ويكرهُ .

أما « التعصب » على أهل دين من الأديان ، و « إرادة بعث فتنة قومية ودينية » ، فلا أدرى ماذا أقول ؟ أأقول ما يقال فى المثل : « رَمَتْنى بِدَائِها وانْسَلَّتْ » ؟ أم أقول ما عندى خبرُه ، فأرْوِى للناس أقوالًا وأعمالًا تدلُّ على المخبوء تحت أردية « الثقافة » ، وتحت طَيْلسان « الأستاذية » ؟ كلاَّ ، فإنه مَعيبٌ ، ولكن حسبى ما كشفت عنه فى سالف مقالاتى ، وفيما سيأتى منها ، ليكون اللفظُ المكتوبُ هو البرهانَ الفاصلَ ، لا الدعوى والشكوى والتباكى ، واستغلالَ الدين الذى تنتسبُ إليه استغلالًا مَشينًا ، حين تلوِّح به فى وجوه الناس ، كأنك أنت الدّين نفسه ، وكأنّك أنت وحدك الأمة التى تدينُ به ، فكُلُّ ما يقالُ لكَ مما يكشفُ عن سوء طويّتك فهو مرادٌ به هذا الدين وأهلُه . إنه لقبيح بك أن تفعل ذلك ، ولكن ما لى أعظُك ، إذا كنتَ امرءًا لا يبالى ؟

وهذا المسكين قد استمرأ هذه الألفاظ المنكرة لعلةٍ ، فإنه لما خرجَ على الناس يتبجّح بدراسته رسالة الغفران ، ووضع فى رأس مقالته الرابعة بيتًا من شعر أبى العلاء ، زعم هو أنه قاله فى حلب ، وهو فى وصف ناقة !! وقرأ فيه « الصِّلِّيان » ، وهو نبت ترعاه الإبل ، « الصُّلْبان » ، وهو جمع « صليب » = انبرى له الأخ الأستاذ عبده بدوى فى عدد الرسالة (١٠٨٧ ، ٨ رجب سنة ١٣٨٤) فكشف عن جهله وغروره ، وتسرُّعه وسُوء مقاصده . وتسامع الناسُ بما فى هذه المقالة قبل أن تنشر ،

ووقع إلى المسكين خبرها ، فبادر فى وسط المقالة الخامسة (الأهرام ٩ رجب سنة ١٣٨٤) فأقحم فيها « مربَّعًا » فيه تصويب ، وقال فى آخره : « وقد نبّه إلى هذا الأستاذ الشيخ شاكر ، المحقق المعروف » . وهذا هذرٌ وادّعاء ، لأنى بلا شكٍّ غير معروف عنده على الأقلّ ، لأنى يوم كنت أكتب ، كان هو لا يقرأ شيئًا بالعربيّة ، أو كما قال . ثم لو أنه عرفنى ، لعرف أنى لست « الشيخ شاكر » لأن ذلك معروفٌ به أبى وأخى الأكبر رحمهما الله . أما أنا ، فكلّ من يعرفنى ، يعرفنى على حقيقتى . وحسبك بهذا ادعاءً وتنفُّخًا .

ولما استقرَّ فى نفس هذا الذكىّ المدقق ، المثقف أيضًا ، أنى « الشيخ شاكر » ، فنشرت مقالتى الأولى بعد ذلك بأسبوعين ، فى عدد الرسالة (١٠٨٩ ، ٢٢ رجب سنة ١٣٨٤) ، ذهبَ يدور على الناس زاعمًا أنّ تعرضى للكتابة فى شأنه وشأن شيخ المعرة ، معناهُ أنى أريد أن أجعلها « معركة دينية » !! وكُلّ امرئ يعلم أنى لم أذكر فى مقالاتى الأوَل كلها ، لا المقالة الأولى وحدها ، شيئًا عن الدين ، ولا عن التبشير . فمن أين جاءه علمُ هذا ؟ من أنَّ اسمى كان عنده « الشيخ شاكر » ، ! وبلا ريبٍ هذا ذكاءٌ خارقٌ ، لأنّه ذكاء « مثقف من كبار مثقفينا » ، كما قال الدكتور محمد مندور . والحقيقة أنّ الأمر لم يأت على هذه الصورة وحدها ، بل أَتى أيضًا من أنّه يعرفُ نَفْسَهُ على حقيقتها ، ويعلم ما وراء « الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج » ، ويعلَمُ أَنّه كتب ما كتبَ عن شيخ المعرة ، وعن غير شيخ المعرّة ، بوحْيٍ من « الخلوة المشهودة » ، وأنه قد وهبَ نفسه لهذه الخلوة منذ قديمٍ .

فلما جئتُه أنا فى أوهامه وسماديره فى صورة « شيخ » ، انشقّ فؤادُه عن مكنونه ، وذُعر ، وطافت به سماديرُه ، وجرَى اللفظُ على لسانه من فرط الرُّعْب ولا يدرى . فلمّا رآنى قد شققتُ عنه ما كان يتخفَّى فيه طَيْلسان الأستاذ الجامعى كان ، سُقِط فى يده ، وأخذتْه « الجَذْبة » وظلَّ يَهْذِر : « التعصُّب » ، « الفتنة القومية » ، « الفتنة الدينية » !! واستحلى هذه الكلمات . ولكن هذه الحيلة لا تجوزُ على مثلى ، وإن كانت قد جازت على زميلى القديم الدكتور مندور . هذا هو السبب ، وإذا عُرِف

السبب ، بطل العجب ! أليس ذلك مما يقال فى المثل ! وأسوأ شىء أن يضطر المرء إلى تحليل السُّخف الذى ينحلّ صديده من العقول ، ليردّهُ إلى أصوله ومنابعه ، ولكن هكذا قدّر الله علىَّ أن ألقى ، وابتلى القراءَ بى وبما أكتب .

ولو كان هذا المسكين كاتبَ مقالة كتبها ثم انتهى ، أو قائلَ كلمة نفَّسَ بها عن نفسه ثم سكت ، لتركته حيث هو فى سكراته وغمراته ، ولكن البلْوى أنّه صبىُّ مبشرٍ ، ثم اندسَّ حتى صار بغتةً مستشارًا ثقافيًّا لمؤسسة الأهرام ، بعد جَهالة أمرِه وخُمول ذكره ، فأحدث لهذه الصحيفة العظيمة القدر فى بلاد العرب وبلاد المسلمين ، ببلواه بَلْوى لا يدرى المرءُ كيف يصفها ؟ ونظام « التبشير » معروفٌ ، وقياداته فى بلاد الغرب معروفة ، وهى ظاهرةٌ علانِيَةٌ فى مؤسساته ، وباطنة خفيَّة فى الجامعات وفى وزارات الاستعمار . ومن ظنَّ أن « التبشير » ، كما أوضحت مرارًا ، يعمل ظاهرًا مكشوف السِّتر عن أصحابه ورؤوسه وأعوانه وصبيانه ، فقد ظنَّ خيرًا !! ومن ظن أن « التبشير » ، يلجأ إلى الصراحة فى الدعوة إلى ديانته ونقد الديانات الأخرى التى يُباغيها ، فقد ظن به شيئًا شريفًا !! بل هو حليف السَّراديب المظلمة حيث نشأ ، فأساليبه مظلمة ملتوية غامضة مداهنةٌ منافقة ! فمن أجل هذا الذى أعلمه ، والذى خبرتُه بنفسى ، لا بالسماعِ والقراءة ، لم أتردّدْ لحظةً فى مباغتة هذا العابث بالكشف عن حقيقة أمره ، وباستخراج الدليل المبين عن مقاصده ومراميه ، ثم حاولت فى خلال ذلك أن أبيِّن لمؤسسة الأهرام أىَّ بلاءٍ أنزله هذا اللاهى بمنزلتها عند الناس ! ومع ذلك ، فقد أردت أن أكون فى محاولتى رفيقًا ، ولكن كلمات هذا المسكين التى يُبَرْطِم بها فى الخلوات ، ويوسوس بها فى الآذان ، تحملنى آسفًا على أن أزيد هذا الأمر وضوحًا وانكشافًا .

* * *

فأنا أقرأ صحيفة الأهرام منذ وعيتُ وقرأتُ ، على ما كان من فساد أمرها أيام كانت فى أيدٍ غير أمينة ولا مخلصة ، مع ذلك فإنى لم أرها قطُّ كانت فى مثل هذه الحالة التى صارت إليها ، منذ أصبح ، أو أمسَى ، هذا الإنسان مستشارًا ثقافيًّا لمؤسساتها . فإن « التعصُّب » (أى الانحياز إلى عِصابة من الناس لها هدفٌ ظاهرٌ أو خفىٌّ) ، لم يكن قديمًا ممّا تراه العين فيها يومًا بعد يومٍ لا تكاد تخطئه . ولكن

منذ انحطّ عليها هذا الإنسانُ ، انحطّت معه ظواهر كثيرةٌ ، حتى صارت صحيفة الأهرام ، هى الصحيفة التى كادت تكون متفردةً بهذه الألوان الفاقعة ، الدالة على اتجاه بعينه ، سواءٌ فى مادّتها ، أو فى كُتَّاب هذه المادة . وأحسست يومئذ أن الجهاز كُلَّه بدأ يتحرّك . وقد كان ، فبعد قليلٍ أصبح الأمرُ لا خفاءَ به . وعلى مرّ الأيام صار للمستشار الثقافىّ سلطانٌ ظاهرٌ ، وفائضٌ من هذا السلطانِ يستطيع أن يُخضع له بعضَ أدوات الإعلام الأخرى . وظهرت الأعراضُ فى بعض المجلاّت ، واستشرت فيها استشراءً مبينًا ، وتتابع المدَدُ ، وإذا كُلّ شىءٍ يدورُ فى فلكه .

وتظنُّ أنى أغالى ، وأرفع شأن مَنْ أصفه بما وصفتُه به ، وكأنه تناقُضٌ أقع فيه ! ولكننى أقول مرَّةً أخرى ، إن جهاز « التبشير » فى العالم كُلّه كأنّه جهازٌ واحدٌ : والتكافل بين مؤسَّساته شديد العُرَى ، وحسبُك ما أسلفت من ذكر مؤتمراتهم فى المقالة السادسة وما بعدها . فالعامل فى هذا الجهاز لا يقتصر أمرُ قوّته على نَفسِه أو منزلته ، بل على التدبير المحكم ، والسياسة البصيرة ، والأعوان المدرّبين . وعَسَى أن يكونَ أظهرُ عُمَّاله اسمًا ، وأبينُهم سلطانًا ، هو أقلَّهم شأنًا ، وأبعدَهُم عن مواطن الرِّيَب . فليس فى الأمر إذن غلوٌّ ولا تناقض . ومؤسسات « التبشير » فى مصر معروفة الأسماء والأعلام ، ونَشْؤُهاَ الذى كَفَلْته ورعته ونَشّأته لا ارتياب فيه ، هذا فضْلًا عن جمهرة من المخدوعين تعمل فى ميدانه ، وهى لا تدرى أنها تعمل لهدم أمتها وبلادها ، لأنهم قد أُخِذُوا من المأخذِ السَّهْل الذى كشفتْ عنه كلماتٌ نقلتُها آنفًا فى مقالاتى ، وهو « التعليم » الذى تتولاَّه معاهد هى فى ظاهرها للعلم ، وباطنها للتبشير المجرّد .

وبعد سنة ١٩٥٦ ، وهى سنة العدوان الثلاثى الذى تجمعت له دُول الاستعمار والتبشير الكبرى ، بدأت جرثومةٌ ذات نشاط مفرطٍ ، كان من عقابيلها المستشار الثقافى لمؤسسات الأهرام ، وأخذ الاتجاه يستبين شيئًا فشيئًا ، حتى أصبحت الأَسماء التى تدلُّ على أصحابِها ، والأساليب التى تنمُّ عن مكنونِ ضمائرهم ، والغايات التى تترامى إليها مقاصدهُم ، هى الغالبةَ على جميع أبواب صحيفة الأهرامِ ، وإن اتخذت أحيانًا سمتَ البحث المجرّد فى مصالح الأمة ، ووجوه الإصلاح ، مع

النغمة العالية فى الاهتمام بالأهدافِ التى صحبت انتفاضة القومية العربية ، وهى القومية الجامعة لمئة وعشرين مليونًا من العرب ، ثلاثة وتسعون فى المئة منهم مسلمون على الأقل ، لا يظنُّ أحدٌ أنه سهلٌ إذا أفاقوا ، أن يحذِفوا تاريخ أربعة عشر قرنًا من حياتهم ، بجرَّة قلَمٍ من مؤسسات « التبشير » .

وهذا الضَّجيج العالى ، وهذه الأسماء التى انبثَّت فجأةً فأصبحتْ تُخَايِل عيون الناسِ يومًا بعد يوم ، فى هذه الصحيفة ، وفى غيرها من المجلات التى كان لجهاز المستشار تأثير ظاهر عليها ، عادةٌ قديمةٌ جدًّا ، ارتكبها « التبشير » ، أو « الاستعمار » مرات فى مواضع كثيرَةٍ من الأرضِ العربية . وأقربها مثالًا صحيفة الأهرام نفسها ، وصحيفة المقطم ، والهلالُ ، والمقتطف ، وعشراتٌ من المجلات والصُّحف فى بلادنَا وغير بلادنا . هذا ، إلى الأبْواق التى انطلقَتْ معها ، لتُعْلى من ذكر جماعات من الكتاب ، والشعراء ، والعلماء ، والأدباء ، حتى جاءَ يومٌ وقال فلانٌ وفلانٌ من المستشرقين المحدثين ، وتابعتْهُم فئاتٌ من « المثقفين » ، معلنين أن النهضة الأدبيّة فى بلاد العرب ، إنما هى عالةٌ كُلُّها على « نصارى لبنان » ، هكذا قالوها بصريح العبارة ، وهى كلمة لا تزالُ تقالُ إلى اليوم ، يقولُهَا ذو الآفة متعمدًا ، والبرىء مقلِّدًا ، وهى مقاله باطلةٌ من جميع نواحيها ، ليس هذا مكان الإبانة عن بطلانها ، لأنى إنما أردتُ أن أدلَّ على أن هذه الطريقة قديمة مألوفة ، لجأوا إليها قديمًا لأغراض أرجو أن أكشف عنها فى مقالة مما سيأتى إن شاء الله .

وهذا الأسلوب الذى استحدثه المستشار الثقافىّ لصحيفة الأهرام ، وهذا الجهازُ الذى أدارَه فى داخلها وخارجها ، أدّى إلى التساؤل فى بلادٍ كثيرة من بلاد العرب والمسلمين . وهو شىء أقولُه بعلمى ، لأنى أتلقى السؤال عنه من كُلّ مقيم ووافدٍ ، ما بين الهند إلى المغرب ، وهو سؤالٌ يُخْرِج المرءَ أن يجيبَ ، ولكن ماذا يملكُ الناس إلا أن يسألوا ، وهم إنما يعدّون هذه الصحيفة صحيفتهم الأولى ؟ سواء صدّقت مشاعِرَهم مؤسسةُ الأهرام أم كذّبت بها .

وبالطبع ، لا يستطيع أحدٌ مِنْهم أن يحصُل على هذا الكتاب النفيس المطروح على الأرصفة ، فيعلم أنّ مِصْر قد انقلب الأمر فيها فجأةً = فصارتْ نسبة عدد

السكان اليوم : ٦٦ فى المئة مسلمين ، و٣٣ فى المئة غير مسلمين ، بعد أن كانت النسبة منذ سنة ١٩١٧ ، إلى سنة ١٩٤٧ فى أربع إحصاءات ، على عهد الاحتلال الإنجليزى المسيحىّ هى : ٩٢ فى المئة مسلمين ، و٧ فى المئة غير مسلمين = وذلك لأن أستاذًا فاضلًا كان « مهندس آثار ، خريج جامعة بنسلفانيا بأمريكا » ، وهو مؤلف ، يقول بلا تحرُّج ما نصه : « وتعداد الأقباط يربو على الثمانية ملايين ، ويدينون بالمسيحية ، ويؤدّون شعائرهم الدينية باللغة القبطية ، رغم أن الغالبية العظمى لا تتكلّم بها ، ويحافظون على كثير من عاداتهم وتقاليدهم ، رغم مُشاركتهم المسلمين فى التكلُّم بالعربية ، **ورغم وقوعها تحت الحكم الإسلامىّ مدة ١٣ قرنًا** » .

وأنا أتركُ للقارئ التأمُّل فى الدافع الذى يدفع إلى مثل هذا الكلام ، والنظر فى الشعور الذى تحمله هذه الكلمات الأخيرة . وبالطبع ، ليس هذا تعصُّبًا أو بعث فتنة قومية ودينية ، ولكن نقلى إيّاه هنا ، هو « التعصب » ، وهو « الفتنة » ، أليس كذلك ؟ .

* * *

وأحبُّ أن أكون بيّنًا عند هذا الموضع ، فإن القبط الذين يسكنون مصر ، منتشرون فى أرجائها من حدود البحر المتوسط إلى أقصى الصعيد ، وآلافٌ مؤلفة منهم تعمَلُ فى أعمالها دائبة لا تبالى ما يقولُ هؤلاء « المثقفون » خريجو جامعات كامبردج ، وبنسلفانيا وغيرهما ، ولا تفقَهُ شيئًا ممّا يزمزمون به هم وأشياعهم ، وقد عاشوا ثلاثة عشر قرنًا أو تزيد ، لا يحملونَ هذا الذى يحمله أصحاب الألسنة الفصيحة التى تفلسف ، وتتأدَّب ، وتؤرخ ، وتعبث ما شاء لها العبث ، وتعطى مَقادتها لمستعمر لا يريد بها ولا بسائر العرب والمسلمين خيرًا . والظنُّ بهم ، وهم سواد القبط ، أن لا يمكِّنوا هذه الفئةَ الجاهلة من أسماعهم ، فإنها إذا تمكنت منها أضلَّتهم ، فإذا ضلُّوا بضلالها أساءوا إساءةً لاَ يَمْحُوها عذرٌ .

إنّ هذا الجهاز ، جهاز التبشير ، الذى يعمل بلا ملل ولا كلالٍ ، والذى يجدّد أساليبه مع كُلِّ زمانٍ ، وعند المخافة من انكشافها ، ينبغى أن يتوقّفَ . وكُهُوفُ

السِّرار والدسّ والتخابُثِ ، التى عندها مفاتح حركته ، ينبغى أن تَكُفَّ . فالعالم العربى الذى بدأ يتحرَّك بملايينه ، فيدخلون هم خُفْيَةً فى حركته ليوقعوا فيها الاضطرابَ والحيرةَ والبلبلة ، يوشك أن ينتبه فجأةً ، فمن يعصمهم يومئذٍ إذا أخذهُم أَخذةً رابية ؟ إنّ هذا الأمر الواضح العواقب ، لا يستغلقُ إلاّ على مثل عقول المبشرين المغلقة ، وعلى مثل قلوبهم الغُلْف ، وعلى مثل ذكائهم الذى لا يحسنُ إلا المكر والخديعةَ . وإذا ظنَّ هؤلاء البُلْه أنّ ما مرَّ بنا من مكرهم فى استعمارهم الماضى ، وفى تخابثهم بعدَ زواله عن أرضنا ، سوف ينتهى إلى أن يتحوّل الإسلامُ إلى صورة جديدة فى العقيدة ، وصورة جديدة فى الحياة ، وعندئذ تكون نهايته وتبتلعه النصرانية ، كما زعم لهم القسيس « ينج » فى بعض تقاريره ، فإنهم ليظنُّونَ ، ولكنْ هلاَّ ظنُّوا أيضًا أن الظُّنونَ وحدها ترمِى فى المتالف ؟

هذه كلمة كنتُ أحبُّ أن لا أكتبها ، ولكنى لن أعرضَ لشىء أثارنى إليها مرةً أخرى ، ولو ظلَّ هذا الإنسانُ واقفًا على أفواه الطُّرُق ، يتلقَّى السابلة بالصياح والشكوى والتباكى ، ويلجُّ بأمثالِ هذه الكلمات التى لا تُغنى عنه شيئًا ، ولا تنال منّى كبيرَ نَيْلٍ . وليس على الأرض أجهلُ من قوم يستعرضون الناسَ بالأذى ، فينالون من آدابهم ، ولغتهم ، وتاريخهم ، ودينهم ، وأنبيائهم ، فإذا زجرهم زاجرٌ وانتهرهُم ، راحوا يُعْوِلون ويضرعون ، ليسترقُّوا القلوب بالإعوال والضراعة ، كأنَّهم مظلومون قد اعْتَدَى عليهم زاجرُهم عن هذا الأذى الممقوت . ولا أجدُ فيما أعلم سيرةً هى أولى بالمقت من هذه السيرة .

... وَأَقُولُ نَعَمْ !

الرسالة

الخميس ١٦ من ذى القعدة سنة ١٣٨٤

١٥

لعلّ القارئ كان يتوقّع أن يَرَى عنوان هذه الكلمة كما قرأه فيما أعلنته الرسالة فى العدد السالف : « أباطيل وأسمارٌ » . ولكن المرء لا يستطيع أن يخرج من وَعْكة الحمَّى بإرادته ، كما لا يستطيع الناسُ فى بلاد العرب والمسلمين أن يخرجوا بإرادتهم من هَبْوةِ الوباء المنتشر فى صحيفة الأهرام . وقد وعدت الرسالة قراءها فى الأسبوع الماضى أنى سوف أتابع سلسلة مقالاتى بها ابتداءً من هذا العدد ، فأحببتُ أن أصدِّق بعض كلمتها بالكتابة فى حاشية من حواشى السلسلة ، ما دمت غير قادرٍ على أن أصدِّق كلمتها كُلَّها فى هذا الأسبوع ، شاكرًا لها ولقرائها ما لقيت من مشاركة ومواساةٍ .

يقول أحمد عرابى فى حديثه عما لقى فى سجنه بعد هزيمته : « وبعد ساعة جاء ليزورنى بشارة تقلا ، محرر جريدة الأهرام ، وظننتُ أنه قدم ليعزّينى ، ويُبْدى عواطفه نحوى ، وقد كان ممن يدينون بمبدئنا قبل الحرب ، وقد أقسم بدينه وشرفه أنه واحدٌ منا ، وأنه يعمل لحرية وطننا ، وقد عددناه فى الحقّ من الوطنيين ، ولكنه لما دخل علىّ توقَّح أشدَّ التوقُّح ، ثم قال : أىْ عرابى ، ماذا صنعت ؟ وماذا حلّ بك ؟ ورأيتُ أن الرجل خائن ولا شرف له » . هكذا روى عرابى بأدبه الجمّ ، ولكن يقول بعض الناس من الثّقاتِ أن بشارة تقلا بصق فى وجهه ، شامتاً ، وطالبًا لشفاء ما فى صدره ! .

والظاهر أنّ « بشارة تقلا » هذا قد عادَ حيًّا مرة أخرى ، واستوى فى صحيفة الأهرام يحررها ويديرها بمكره وكيده وغشه ، كما كان يفعل فى زمن عرابى وبعد زمن عرابى ، فإلاَّ يكن قد عاد ، فقد قامَ مقامه المستشار الثقافى لصحيفة الأهرام ، حيث عاد بعد غيبة وقامت قيامته ! عاد المستشار فى يوم الجمعة حاملًا معه الساعة المشهورة عند العامة ، ونافثًا جراثيمه المعهودة .

وإذا كان الشاعر « بدر شاكر السياب » الذى بدأ بالكتابة عنه ، قد ابتُلِىَ ، كما يقول : « دون أكثر الشعراء بداءين عجيبين غامضين وبيلين مبرِّحين فى وقت واحدٍ ، هما داء العظام الذى رُمى به فى جسده ، وداء الشعر الذى يرمى به أرواح عامة الشعراء » !! (وهذا شيء غث مكتوب بفنٍّ !) = فقد ابتلى المستشار الثقافى بداءين أخبثَ من هذين الداءين فى وقت واحدٍ ، وهما الحقد الدفين الذى لا تهدأ مِدَّته ، والمكر السُّوقىُّ المبتذل الذى يجلبُ الغثيان . وإذا كان « بشارة تقلا » كان يتظاهر بأنه يعمل لحرية وطننا ويقسم على ذلك بدينه وشرفه ، فالمستشار الثقافى أيضًا يتظاهر بتمام الحبِّ للأدب والوطن ، وبالحرص على رفعتهما ، ولكنه فى الحقيقة ، لا يفعل إلا ما فعل « بشارة تقلا » ، بعد قسمه بدينه وشرفه ، من التوقح على مجاهد عربىّ صادق ، باللفظ القبيح والفعل المستشنع .

ونحن لا نسأل صحيفة الأهرام : لِمَ عاد ؟ لأنا نعلم أنه لم يغبْ عن العمل ، فإن آثارَهُ ظلَّتْ باقية طول هذه المدّة ، فلا تكاد الصحيفة تخلو من دِلالةٍ على وجوده ، وعلى رقابته التامة على المادة الثقافية التى ترفع قدرَ صحيفة الأهرام بما تتضَمَّن من العلم والدقة والأمانة ! وإذا كان هذا المستشار قد غابَ ، فكيف كان يمكن أن تنشر صحيفة الأهرام خمسة أعمدة في الثناء على كتابٍ عظيم القدر جدًّا ، يعد فتحًا من الفتوح ، وإن كانت صفحاته لا تزيد على الستين !! ومحصَّل ما كتبه كاتبه من إنشائه فى هذا الكتاب لا يزيد على عمود أو عمودين فى الأهرام !! كيف يتم هذا ، إلاّ إذا كان هذا المستشار حاضرًا بمستشاريته ؟ ثم تسأل بعد ذلك ، لم هذا ؟ ومن الذى كتب هذا ؟ ومن الذى أبت عليه أمانته أن يُضيع على صحيفة الأهرام السبقَ إلى التنويه بهذا الكتاب الخالد ؟ فيقال لك : إنه المستشار وأعوانه بلا ريب .

وإذا كان المستشار قد غاب ، فكيف كان يمكن مثلًا أن ينشر تحقيقٌ صحفىٌّ يملأ صحيفة ، وفيه من المعلومات الوثيقة عن المخطوطات العربية (لا الإنجليزية أو البيزنطية) ، هذا القدر الهائل من التحقيق عن الكتب وأسمائها وأسماء مؤلفيها ؟ وحسبك من التحقيق مثلًا أن صحيفة الأهرام الخاضعة للمستشار الثقافى الجليل القدر ، قد عرفتنا أنّه كان يوجد رجل عربى يقال له « ابن السكيت » ، ألف كتابًا

مهمًّا فى علم « المنطق » ؟ [١] وإذا غاب المستشار الثقافى ، فليت شعرى من كان يستطيع أن يُمِدَّنا بمثل هذه المادة من المعارف ، وإن يرفَع قدر صحيفة الأهرام ، بهذه الفرائد البهيّة (!!) التى تحسدها على مثلها سائر الصحف ! ولكن ما لنا ولهذا ، فإن الله الذى أنبت فى الأرض العشبَ ، خلق له من خَلْقه ما شاء !

ونعودُ إلى المستشار الذى بدأ مقالاته عن « بدر شاكر السياب » متنفِّخًا كعادته ، ثم موزِّعًا الصدقات على فقراء أهل العلم الواقفين ببابه ، كما يتوهّم هو بالطبع ، فيكرم رجاء النقاش ، وأحمد عبد المعطى حجازى بذكرهما فى صدر مقالته ، ليصف الأوّل بأنه « الناقد الشاب » ، وليقف من الثانى موقف المعلم العظيم الذى يكفكِفُ من غُلَوائه وينهاهُ عن الإسراف . ولا يفعل كُلّ ذلك إلاّ بأنه يعدُّ نفسه مرجعًا يُصارُ إليه ، ومجرِّبًا عظيمًا قد صارَ إلى ما قال الفرزدق : « أحلامُنَا تَزِنُ الجبالَ رَزانةً » !! ثم يبدأ هذا المسكين المستشار فى بثّ أحقاده التى استودعها « بلوتولند » ، ولكن يتعالَى ويتشامخُ ، ويضربُ بهامته رأس جبل الأولمب ، ويسخر من شعر بدر شاكر السياب الذى التزم فيه نهج الشعر المألوف ، قبل أن يبدأ فى التحوّل ! ويأخذُ يملأُ فمه بالقدماء ، (مقلِّدًا الدكتور طه بطبيعة الحال ! ، لأنه إنسان لا أصالة فيه إطلاقًا) ، فيقول : « بلاغة القدماء » « موسيقى القدماء » ، وتدورُ حَلْقة الذكْر ، من أوّل المقال إلى آخره على النَّفْثِ المتواصل فى تحقير لغة العرب ، وشعر كُلّ شاعر التزمَ بعض الالتزام بالعبارة الصحيحة الخالية من ركاكة بعض الكتب المشهورة ، ولكنه لا يفصح عن نفسه كل الإفصاح ، ولا ينفِّس عنها كل التنفيس إلا فى أول المقالة الثانية ، حيث يبدأ فى استعمال الألفاظ التى لا تنبع إلاّ من عند مثله ، كقوله : « بعد عشرين عامًا قضتها مدرسة المهجر ، ومدرسة أبولو ، **فى مكافحة** شوقى وحافظ ، والكلاسيكية العربية » . وبالطبع هذا غَثٌّ ، ولا يعنى بالكلاسيكية العربية ، سوى الآثار الخالدِة على وجه الدَّهر برغم أنفه وأنف العالم المسيحى الأوربى كله ، وأوّلها كتاب الله الذى أنزله الله إعجازًا للجنّ والإنس جميعًا .

---

(١) « كتاب إصلاح المنطق » لابن السكيت ، كتاب فى اللغة !! .

ولا يكاد يمضى قليلًا حتى يكشف عن دفين حقده الذى كان قد استودعه « بلوتولند » ، فيذكر الفترة التى عاش فيها جيل السياب فى صدر شبابهم ، فيقول : « فلم يكن بدّ من أن يتأثر تكوينهم الفنى بهذا القلق الأعظم ، فتمرّدوا على الفن الموروث صورةً ومادةً . ولم يكن أمامهم إلاّ معمار شوقى والكلاسيكيين من ناحية ، وأحلام على محمود طه والرومانسيين من ناحية أخرى . لم يكن أمامهم إلاّ : « رَمَى القَضَاءُ بِعَيْنَىْ جُؤْذَرٍ أَسَدًا » ثم يقول أيضًا : فإذا ما التفتوا إلى الكلاسيكية العربية الأصيلة ، وجدوا من يقول لهم : « السيفُ أَصْدَقُ أَنْباءً من الكُتُبِ » ، دون أن يقول لهم كيف ؟ ولماذا ؟ وهل هذا حقٌّ فى شريعة الأخلاق ، أم هو قدر أسيفٌ ، كتب على بنى الإنسان منذ عهد قابيل ؟ وما الرأى فى كُلّ هذا البارود الذى لطخ وجه الأرض بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ . فإذا ما التفتوا إلى الرومانسية العربية الأصيلة ، وجدوا من يقول لهم : « لَمْ يَكُنْ وَصْلُك إلا حُلَمًا فى الكَرَى أو خَلْسَةَ المُخْتَلِسِ » ، وهو شىء لا يقرأون له نظيرًا فى البلاغات الحربية التى كانوا يطالعونها كُلّ يوم (!!) ولا ... » ويعطف على ذلك هَلْوَسات كثيرة .

وفى هذا الذى نقلتُ كفايةٌ وفوق الكفاية ، لمن يعرفُ كيف يميّز طبائع الكتّاب ، ولكن المهم أن « رَمَى القَضَاءُ بعَيْنَىْ جُؤْذَرٍ أسدًا » ، الذى ذكره هنا ، وذكره فى بلوتولند أيضًا فى التجربة السادسة ، وهى تجربة « كسر رقبة البلاغة » ، والتى اعترف فيها بأنه بقى ما بين العشرين إلى الثلاثين لم يقرأ حرفًا بالعربية !! وبأنه ضعيفٌ فيها بالفطرة ، وأن إحساسهُ باللغة العربية أجنبى جدًّا على كُلّ حال = هذا الشطر من شعر شوقى ، وهو من قصيدة التزم فيها ما لم يلتزمه فى غيرها من شعره لغرض واحدٍ ، هو « المعارضة » ، لأنّه من قصيدته المعروفة « نهج البردة » ، التى عارض بها القصيدة الرائعة « البردة » للبوصيرى . وهذا شىءٌ لا يعيب شوقى أن يفعله ، ولكن هذا المسكين ، لم يجد عند شوقى ما يُسْتَنْكَرُ سوى هذا البيت ، وكأنّه هو عَمُود شعر شوقى وأجودُهُ وأتقنُهُ وأدلُّه على أسلوبه ونَهْجه : وهذا باطِلٌ بالطبع ، فاهتمامه بذكر هذا الشطر وجعله دلالة على شعر شوقى كُلِّه ، ضربٌ من السُّخف والجهل والمغالطة ، ولكن الدافع إليه هو أن « نهج البردة » ، هو فى مديح رسول الله ﷺ ، فأراد هذا المأفون ، بما فى قلبه من العداوة والبغضاء لله ورسوله وللمؤمنين ،

أن يجعل هذا الشطر وحده ، هو المتضمّنَ لمذهب شوقى فى شعره . وهذا عبث ، وهى طريقة فى التعريض بما تكنّه النفوس ، فاشيةٌ عند المستشرقين والمبشرين وفاشية عند المستشار الثقافى وعند ساحِبِه من عنقه سلامة موسى ، وعند ذيله وحامل حقيبته غالى شكرى .

وأما شطر « السيف أصدق أنباء من الكتب » ، فهو أيضًا مطروح على لسانه وعلى لسان قائده من عنقه سلامة موسى ، كلاهما ذكره ، وكلاهما شرح معناه هذا الشرح المدهش ، لأنهما لم يفهما شيئًا ، ولا قرآ شيئًا ، ولا أظنُّ أحدهما كان قادرًا على أن يفهم إلا بمُفْهِمٍ ، ولا أن يقرأ إلاّ بمُقْرِئٍ ، لأنهما جميعًا من معدن واحدٍ ، لا علاقة له بالأدب والفنّ ، لا فى العربية ولا فى غير العربية .

وقصة البيت ، أو قصة القصيدة كُلّها ، مشهورةٌ . فإذا جهلها هذان الخَلْقان ، فإنّما جهلاها بطبيعة النفور من العرب ، والبغضاء لهم ، لأنهما يعلمان أنّ هذه القصيدة إحدى روائع الشعر العربىّ ، صوّر فيها أبو تمام ملحمة من ملاحم الثغور العُظْمى ، فى فتح عَمُّوريَّةَ ، ووَطْءِ المعتصم جِباهَ البطارقة وجيوشهم من الرُّوم وَطْأَةَ المتثاقل . فمن أجل هذا زال عَقْلُ سلامة موسى ، وهاجت سمادير لويس عوض ، على هذا البيت ، فظنَّا أن أبا تمام أراد تفضيل السيف على الكتاب ، « دون أن يقول لماذا ؟ وهل هذا حقٌّ فى شريعة الأخلاق » ؟ أو كما قال المسكين ، وأيَّةُ أخلاقٍ يعرفُها ، حتى يهدى الناسَ إليها ؟ ولكن لما كانت القصة تُزْرِى بالروم والبيزنطيين ، فإنهما هاجَا ووَسْوَسَا .

وأصل القصة أن المعتصِم الخليفة ، كان فى مجلسه ، وفى يده قدحٌ يهمُّ أن يشرب ما فيه ، فجاءه رسولٌ يبلّغُه أن الروم فتحت « زِبَطْرَةَ » ، وأخذوا النساءَ سَبايَا ، وأن امرأةً منهن صرخت : « وامعتصماه ! » ، فوضع المعتصم القَدَح من يده ، وأمر بأن يحفظ حتى يؤوب من فتح « عَمُّوريَّة » فيشربَهُ ، وخرج بجيشه من فوره يقصدها ، فراسلتهُ الروم بأنهم يجدون فى كتب رهبانهم ومنجِّميهم : « أنه لا تفتح مدينة عَمُّوريَّة إلاّ فى وقت إدراك التين والعنب ، وبيننا وبين ذلك الوقت شهورٌ ، يمنعك من المقام بها البرد والثلج » . فهزئ المعتصم بجهل الروم ، وأوقد عليهم نارَ

الحربِ ، فأكلت من صناديدهم تسعين ألفًا ذكرهم أبو تمام فى رائعته ؟ فقال :

تِسْعُون ألفًا كآسادِ الشَّرَى ، نَضِجَتْ جُلُودُهم قَبْلَ نُضْجِ التِّينِ والعِنَبِ

وأكبَّ المعتصم على عَمُّوريّة حتى فتحها ، فأبطل بنصر الله إياه ما قالت كتب البطارقة والمنجمين . فهذا كما ترى ، فأين منه سخف ما قاله المستشار وساحبه من عنقه سلامة موسى ؟ ولكنّه الحقد يُعْمى ويُصِمُّ .

* * *

وليت الأمر يقتصر فى جهل هذا المسكين بالشعر القديم وحده ، بل هو أجهلُ شىء فى فهم الشعر الحديث الذى يكتب عنه ، فبدر شاكر السياب يقول فى قصيدة له سماها « المبغى » ، يقول فيها :

« بغداد ؟ مبغى كبير . لواحظ المغنية ، كساعة تتك فى الجدار ، فى غرفة الجلوس فى محطة القطار . يا جثة على الثرى مستلقية ، الدود فيها موجة من اللهيب والحرير . بغداد كابوس : ردىء فاسد ، يجرعه الراقد ، ساعاته الأيام ، أيامه الأعوام ، والعام نِيرٌ ! العام جرح ناغرٌ فى الضمير » .

فجاء هذا المسكين ليفسر طريقة « الأسموز » !! (يا للشَّرْلَتة الظاهرة ! مصدر « شرلتان ») ، أى الانتشار الغشائى (كما قال هو) ، فقال : « فهذه المغنية ، أو القينة المستلقية فى المبغى ، ليست جثة هامدة ، أو جثة عفنة ، ولكن لواحظها تتك كساعة الحائط ، تحصى الثوانى والدقائق فى انتظار شىء رهيب يوشك أن يقع ، يسميه السياب : وصول القطار ، أو انطلاقه ، ولكن الصورة التى رسمها حقًّا ، هى صورة قنبلة زمنية هائلة راقدة تتك فى الصمت الرهيب ، تحت هذا المبغى الكبير ، وتوشك أن تنفجر وتنسف كُلّ شىء » ، إلى آخر هذه الفكاهات !

و « لواحظ » المذكورة فى شعر السياب ، اسم مغنية بغدادية ولا شك أما « اللواحظ » بمعنى « الألحاظ » فأظنّ السياب كان يَشُمُّ من العربيّة قدرًا ، لا يملك منه لويس عوض شيئًا بالطبع ، يمنعه أن يعنى باللواحظ ، الألحاظ . ولا أظنُّ السياب أيضًا تبلغُ به ملكة الانحدار إلى أسفَلَ ، أن يجعل العيون « تتك كساعة فى الجدار » ،

ولا يملك هذه القدرة إلاّ هذا المسكين المعذَّب بوساوسه ، فهو جعل « لواحظ المغنية » ، بمعنى عيون المغنية ، ليستقيم له التشبيه ، بالقنبلة الزمنية ، ولينسف بغداد ، ثم تتولّى صحيفة الأهرام بعد ذلك نسف نفوس الناس وعقولهم بخواطر السوء وسمادير المخمورين ، بعد أن تنهار الحواجز التى كانت تحجز هذا الوباء وتمنعه أن ينتشر . والعقل الذى أخرج هذا ، هو العقل الذى تصور أن : « وردة كالدهان » هى « روزا مستيكا » ، وأنها وردت فى القرآن بهذا المعنى ، وكذلك فى شعر أبى العلاء ، وأنها بمعنى « الوردة » ، الزهرة المعروفة ! وهو نفس العقل الذى يجعل النَّبْتَ المسمى « بالصِّلِّيان » « صُلْبانًا » تغصُّ بها حلب !! عقْلُ أديب مثقَّف كبير جدًّا ، ينشر له فى كُلّ شهر شىء يؤجر عليه فى صورة مقالات ، ويأْكُلُ ثمنه مجموعًا فى كتاب ، وتتولّى إطعامه فى الحالين مؤسسات الاتحاد الاشتراكى كصحيفة الأهرام ، ومطبعة دار المعارف (وهما ممّا يدخل فى نطاق مستشاريته !) ، ودار الهلال ، بحكم « التعصُّب » الذى شرحته فيما سلف من مقالاتى .

إنّى لم أكتب هذا لأنقُدَ هذا الغلامَ الغِرَّ ، بل لأنبِّه إلى هذه الآفة التى أخذتْ تستشرى استشراء دودة القطن ، لتهلك تراثًا ماضيًا ، وتعبث بعقول جيل آتٍ . وإذا كان من يتولّى هذه المؤسسات يظنُّ أنّه يدفع الأموال من جيبه لمثل هذه الأوبئةِ المهلكة ، فليعلم أنه يظنُّ خطأ ، لأن هذه المؤسسات يملكها الاتحاد الاشتراكى نيابة عن الأمّة ، وهذه الأمة لا ترضى أن تلعب بأموالها عصابةٌ من الناس ، بلا رعاية لحرمة ، ولا إدراك لتبعة ، ولا حياطةٍ لثقافة ، ولا حملٍ لأمانة الدفاع عن كيان العقل ، أن تنخر فيه جراثيم الفتك المسلطة على عقول الناشئة . إن الأمة لم تُمَلِّكْ الاتحادَ الاشتراكى هذه المؤسسات ، لتكون ألعوبة فى يد المستشار الثقافىّ وذيوله ، باسم « الثقافة » ، والتى هى فى حقيقها ضروب من مخاريق الشرلتانات التى شرحتُ أمرَها فيما سلف .

* * *

ومقالات هذا المسكين عن بدر شاكر السياب ، فيها هُراءٌ فظيع رهيب (وهى اللفظة التى كررها فى إحدى مقالتيه أكثر من عشر مرات) ، وفيها من المغالطات

والأكاذيب والأباطيل والعبث ، ومحاولة إقناع الناشئة بأنّهم ليسوا شيئًا إذا لم يعيشوا بقلوبهم ونفوسهم وأهوائهم وعواطفهم ، مع العالم الأوربى المسيحى ، ثم لا يجدون فى بلادهم شيئًا يحركهم ، لا عروبة بلادهم ، ولا وحدتها ، ولا فلسطينها ، ولا لغتها ، ولا دينها ، إلاّ هذا الذى يحرك ، من صراع العالم المسيحى وصراع أممه . وأما الماضى ، فهو أيضًا ينبغى أن يُمْحق ، وإذا أرادوا لأنفسهم ماضيًا ، فإنما هو الماضى المنحدر من وثنية اليونان إلى صليبية القرون الوسطى ، إلى « إليوتية » العصر الحديث ، التى تعدُّ الثقافة ، هى الدين ، أى الدين المسيحى الكاثوليكى !! كما يريد أن يفهم ذلك لويس عوض وشيعته ، لا كما أراده صاحبه إليوت ، وهم أجهل الناس بحقيقة رأيه .

ولا أدرى بعد ذلك : ما الذى تريده مؤسسة الأهرام من نشر هذه البلايا على الناس ، بلا توقُّفٍ ، وبلا مراجعة ! ومع ذلك ، فإن كُلَّ هذا شىءٌ معادٌ مكرّر ، منذ سلامة موسى ، إلى لويس عوض ، إلى غالى شكرى ، إلى سائر التوابع . وربَّما كان من الخير ، أن تنفى الأهرام عنا هذا التكرارَ المملَّ ، بأن تأخذ مستشارها هذا وتوابعه ، وترسلهم فى بعثة إلى كمبردج ، حيث الخلوات المشهودة تحت أشجار الدردار ، أو إلى برنستون ، (وما أدراك ما برنستون !) ، فعسى أن يُعَاد تدريبهم ، فيأتى وقتٌ نقرأ لهم فيه شيئًا جديدًا على الأقلّ ، مكان هذا المكرر المملول .

إن الحياة لا تحتمل هذا الهراء كُلَّه ، ولكن مَنْ لمؤسسة الأهرام ولتوابعها وللسالكين على دربها ، أن يعرفُوا أن الأمرَ ليس لهوًا ، بل هو جدٌّ ، وأن عاقبة العَبَث بثقافة أمة ، وبعقولها ، وبنفوسها ، وبتاريخها ، وبماضيها ، وبحاضرها ، عاقبةٌ مَخوفةٌ ، وقد خَلت من قبلهم المَثُلات ! وإذا كانت هذه المؤسسات قد خَلَتْ من القدرة على فهم هذه البسائط ، فليت شعرى ، ماذا بقى لها ممّا يوجب لها البقاء والاستمرار ! إن تَقُلْ : أكلّ هذا من أجل هذا المستشار الثقافى ! أَقُلْ : نعم ، لا لأنّه هو فى ذاته شىءٌ ، بل لأن السلطان الذى يملكه هو الشىء الذى ينبغى علينا أن نحوطه بالرعاية ، وأن نطلب له البراءة من الآفات ، ونلتمس له تمامَ الصحة والعافية . ومَنْ جَهِل خطر هذا السلطان فى الصحافة ، فقد جهل شيئًا كثيرًا ، بل لقد جهل كُلَّ شىءٍ .

كَادَ النَّعَامُ يطيرُ !

الرسالة

الخميس ٢٣ من ذى القعدة سنة ١٣٨٤

١٦

لا بأسَ إذا أَنَا استمرأتُ الرَّاحة ، وجعلت هذه الكلمةَ أيضًا جَمَامًا من تعبٍ ، فإنَّ الحمَّى قد أَضْرَعَتْنى للملَل ، فوقَ الملل الذى كُنْت أجدُه من مدارسة تاريخ العصر القريب ، منذ عهد نابليون ومحمد على إلى أيامنا هذه ، لكى أعدَّ المقالةَ التى وعدت القراء بها ، وجعلت عنوانها « أباطيلٌ وأسمارٌ » وأنا مفطورٌ على المَلَل من السُّخْفِ المتشابه ، وأشدُّ ملَلًا من الغفلة عن إدراك هذا التشابه المتتابع . فاجتمع علىّ من المَلَل ، ما آثرتُ مَعه أن أتخفَّفَ من الضيق والجدّ وضَراعة الحمَّى ببعض الباطلِ .

أليس من حقّى أن أستلقِى على ظهرى ، وأَضَعَ ساقًا على ساقٍ ، وأجمع كَفَّىَّ مُشَبَّكَةً أصابعُهما من وراء رأسِى ، وأخلع نظّارتى ، وأغمض عينىَّ ، وأتحدَّث على السجيّة غير متكلّف ولا محتشم ؟ إنّه من حقّى أن أفعله ، بين أهلى وزُوّارى وأصحابى ، بلا ريب . فإذا كانَ ذلك كذلك ، فينسحبُ عليه أنّه من حقى أيضًا أن أفْعَله على الوَرَق ! بين قُرَّائى وأهل مَوَدّتى ممّن يقرأ الرسالة ! أليس كذلك ! وهكذا الدنيا ! وإلا فمعذِرَةً ، فهكذا أنا ، رضى القراءُ ذلك منّى أو كرهوه !

وخطر لى أن أقول للناس : « كادَ النَّعَامُ يَطِير » ، بل قد طَارَ ، ثم أقصُّ قصةً وقعت ورأيتها بعينىّ ، علىّ أن أرويها ، وعليهم أن يصدّقوها . ولم لا ؟ أليس النعامُ طائرًا ذا جناحين ؟ فما يمنَعُه أن يطيرُ ؟ ومن الذى يملك أن يكذّبنى فيما أقولُ ، ومعى هذا الصدقُ ، وهذا المنطق ؟ وقد وجب ذلك ، لأنّه زمانٌ عجيبٌ ، ولأنى لو حدثتك أنّ إنسانًا نظر فى المرآة فلم تعجبْه سَحْنتُه ، فانطلق عامدًا إلى أقرب دارٍ للتجميل ، فدخل وخرجَ بعد ساعةٍ وسيمًا وضيئًا راضيًا عن نفسه ، قد عاد مسنونَ الوجه بعد استدارةٍ منفِّرة ، أحور العينين بعد جحوظٍ وحَولٍ ، أشمَّ العِرْنِينِ بعد الفطَسِ ، أَظْمَى الشفتين (أى رقيقهما) بعد الهَدَلِ ، (أى بعد غلظهما واسترخائهما كشفاه الزنج) = لو حدثتُك بهذا ، وأنى رأيتُه كذلك ، ورأى نفسَه كذلك ، لما

كان شيئًا عجيبًا ، ولوجبَ عليك أن تصدّقنى ، لأن الزمن الذى كانَ يقالُ فيه : إن « الخبر » هو الكلام الذى يحتمل الصدْقَ والكذبَ ، زمانٌ قديمٌ كان يحتمل « اللتّ والعجن » ، ونحنُ فى زمان إلى التبسيطِ ما هُوَ ، وإلى السُّرعة ما هُوَ ، فمن التعقيد وإتلافِ الوقتِ أن تجلسَ مجلس التنابلة ، لا عملَ لك إلا ابتغاءَ تكذيبى ، وإلا استهلاكَ نفسِك وعقلك وزمانك فى تقليب الكلام وتشقيقه وتفصيصه ، تزعُمُ أنَّك تريد أن تَمِيزَ الصدقَ من الكذب ، والخبيثَ من الطيِّب ! أليس كذلك ؟ نعم ! هو ذاك وربِّ الكعبة ! لا ، ولا تنس أيضًا أن الذى يحدثُك بهذا رجُلٌ مذكورٌ غير مغمورٍ ، وهو عند الناسِ رفيع القدر ، مشهودٌ له بالعلمِ وصدقِ الكلمة ، وهو أيضًا متقادِمُ الميلادِ ، قد حلبَ الدَّهَر أشطُرَه ، عرفَ وجرَّبَ ، فمن سفه الرأى أن تلجأ إلى المماحكة طلبًا لتفنيد ما يقول ، فصدِّق ، وتوكّل على الله !

أوه ! ضاقَ صدرى بهذا الكلام ! وندعُ هذا لنتحدَّثَ فى ضرب آخر . ولا أجد شيئًا يمدُّنى بما أريدُ (فى مثل هذا الموقف !!) سوى صحيفة الأهرام ، ولا سيَّما إذا كان يوم جمعة ، فإن بركة المستشار الثقافى شاملة غامرةٌ . قد عمّت وطمّت !! وقرأتُ فيها كلمةً عليها توقيع الأستاذ الكبير « توفيق الحكيم » بخطّ يده محفورًا على الزنك ، وجعلها مقدمة للوَرْطة . وإن كنت لا أدرى : ألورطةُ ، هى المسرحية ذات الفصول الخمسة ، أم هذه المقدمة ؟ وصدقنى إذا قلت لك : لا أدرى ، فإن الأمرَ قد اختلط علىّ اختلاطًا شديدًا ، لا أملك معه سوى التوقّف ، والتماس المعونة من مُعِين . وبالطبع أنا لا أملك شيئًا سوى عَقْلى ، وعليه اعتمادى فى الملمات . قرأت كلمة الأستاذ الكبير بعناية فائقةٍ ، ولا داعىَ للقَسَم ، وحاولت أن أعتمد على « عقلى » مراتٍ ، مرةً بعد مرةٍ بعد مرةٍ ، حتى تعبتُ ، وكدْتُ أَستعفى من إصرارى على استخدام « العقل » وراودتنى نفسى أن أقوم فأذهب إلى لويس عوض ، وأسألُه أنْ يُرْفدنى ويعيننى ببعض هذا « السائل » الذى أُغْلِقت عليه جمجمتُه ، فإنى رأيتُه نافعًا للفهم ، ميسّرًا للطبيعة ، صالحًا معينًا على إدراك الخوافى والغوامض ، (مجرّب) ، كما يقول الطبيب ابن البيطار فى مفردات الأدوية ، إذا وصف للمرضى دواءً ناجحًا شافيًا ! ومرةً أخرى : أوه ، ضاق صدرى بهذا الكلام !

* * *

على رأس « ستين مسرحية » ، كتبها « توفيق الحكيم » ، لم يزلْ يحاول ويبحث عن حلّ « لمشكلة اللغة المناسبة للتمثيلية العصرية فى بلادنا » ! مع الرجاء « من كُلّ صاحب رأى فى المشكلة ، إيجاد حلّ عمليّ ، لا أن يكتفى بالاعتراضِ الكلاميّ ، فالآراء السلبية لن تقدمنا خطوة . نحن الآن أحوج ما نكون إلى الحلول الإيجابية التى تقترن بمشروع بَنّاءٍ ، ومحاولة فعلية للمعاونة على إيجاد مخرجٍ لما يواجهنا من مشاكل » . وهذا نصُّ كلامه .

ولا أدرى علامَ كُلُّ هذا ؟ أليس الأستاذُ قد وضَعَ الحلّ ، قبل أن يختم كلمته بهذا الرجاء ؟ والمسألة سهلة جدًّا ، لا أدرى كيف غابتْ عن الناس منذ تكلم بها المبشرون الأوائل ، من « سبيتا » ، إلى « ويلككس » ، إلى « لطفى السيد » ، إلى « سلامة موسى » ، إلى « لويس عوض » ، وذيولٍ بعد ذلك ، وفى خلال ذلك ، كثيرة !

مسألة بسيطةٌ ؟ فإن أهل اللغات الحية ، كما يقول الأستاذ (وهم بالطبع أذكياء جدًّا ، وذوو بصر ومعرفة !) طالما عيّرونا بأن لغتنا العربية صائرة إلى زوال ، لأن الناس فى تخاطبهم لا يتكلمونها ! = وهذا إنذارٌ أشرنا إليه آنفًا ، أنذرنا به المبشرون مثل « سبيتا » ولا سيما « ويلككس » المبشر ، محافظةً على حياتنا وحياة اللغة العربية !

ويقول الأستاذ الحكيم أيضًا : إن أهل المصلحة منهم (يعنى ذوى الأغراض السيئة) يمعنون فى إيهامنا بعمق الهُوَّة بين الفصحى والعامية = وهذا أيضًا مما قالوه جميعًا وأشرنا إليه آنفًا ! ولكن الأستاذ الجليل فكّر كثيرًا ، وانتهى إلى أن الواقع الذى لاحظه اليوم ، ولاحظه كثيرون ، هو عكس هذا الزعم . فالعامية هى المقضىّ عليها بالزوال ، والفارق بينها وبين الفُصحى يضيق يومًا بعد يوم ! وكفى الله المؤمنين القتال ! ثم أخذ يدلل على ذلك بأدلته الكثيرة ، بمهارة وحذقٍ وإتقانٍ ، ليزيل الوهم ، كما قال ، « بوجود لغتين منفصلتين تقوم بينهما هوّة سحيقة ، فإن هذا الاعتقاد هو الذى جعل كثيرًا من كتابنا يمعنون فى تعميق الهوّة بدون مبرّر أحيانًا ، لا لشىء إلا لتأكيد انفصال العامية وإظهارها بمظهر اللغة المستقلة » : وخلص إلى شىء سهلٍ

جدا هو : « أنه يرفُض الاعتراف بوجود لغة منفصلة مستقلّة اسمها العاميّة ، نترجم إليها العربية ، كما لو كانت لغة أجْنبية ، فى حين أن الموجود هو مجرّدُ لهجة تخاطبٍ عربية ، استخدم فيها بعضُ الرُّخص ، والاختزالات ، والاستبدالات ، كاستعمال الحاء بدل السين فى الفعل المستقبل ، فينطق : حاكتب ، بدل سأكتب ، وإلحاق الباء بالفعل المضارع تأكيدًا للحاضر ، مثل : بيكتب ... وهى على كُلّ حالٍ ليست من الضخامة التى تبيح الزعم والاعتقاد بوجود لغة مستقلة منفصلة عن العربية ... وإنى كلما شغلتُ نفسى بملاحظة بعض المتكلمين عندنا ، وجدتهم على غير وعى منهم (هكذا والله العظيم) ، قد نطقوا لغة عربية سليمة ، تكاد تقترب من لغة الكتابة ، فيما عدا ترك الإعراب ، ونطق القاف فى قال ، ويقول ، بالهمزة ، أو الجيم ، حسب المنشأ والمنطقة ... فالهوّة إذن ليست سحيقة إلى هذا الحدّ الذى يبيح العمل على تعميقها ، وشطر اللغة الواحدة شطرين ، وجعلها لغتين ، وقسم الشعب شعبين .. » انتهى كلام الأستاذ الحكيم !!

ولا أدرى ، مرةً أخرى ، ماذا أقول ! فمنذ أكثر من خمسين سنة ، كتب المبشرون مثل هذا الكلام ، وأعاد ترديدَه فى سنة ١٩١٣ أحمد لطفى السيد وسماه « عقد الصلح بين العامية والفصحى » ، ولم يزد عليه الأستاذ الحكيمُ الكبيرُ قُلامة ظُفرٍ ، فإذا كنا بعد خمسين سنة لا نزالُ نردّد أقوالًا ، ونضع مشروعاتٍ ، قد أكل الدهر عليها وشرب ، وتكلَّم فيها الناسُ كلامًا كثيرًا ، فماذا يعنى هذا ؟ يعنى أننا نتوارث ألفاظًا نديرُها فى حلوقنا ، ثم نرجعُها على الآذان أو فى الورقِ ، بلا أدنى محاولة للنَّظَرِ والتفكير والإحاطة والاستيعاب . ولم يزد عملُ الأستاذِ الحكيم ، على أن جلسَ ساعة وفكّر ، ثم أرسلَ اللغة العامية إلى دار التَّجميل ، فلما عادت قال لنفسه : هذه هى الفُصْحى ! وقال لنا : هذه هى الفُصْحى ، ولا تجادلوا ، لأن الأمر لا يحتمل الجدال ، وقد جئتكُمْ بالأدلّة ، « ونحن اليوم بسبيل بناء أمّة موحّدة فى التفكير والعمل ، ونتحدثُ عن إذابة الفوارق بين الطبقات (الله ، الله !!) ، فكيف يتمُّ ذلك بغير إذابة الفوارق فى لغة التخاطب » !! وللتدليل أيضًا أنشأ « الورطة ، مسرحية فى ٥ فصول » ، فإذا هى أشبه شىء بالفُصْحى ، (وإن كانت بصريح العاميّة !) ، وينبغى أن نصدّق ذلك ، أوّلًا : لأن العامية لغة عربية ، والفصحى لغة

عربية ، كما أن النعامة طائر ، والعُقَاب طائر ! هذا له جناحان ، ولها هى أيضًا جناحان ، وإذن فهما شىء واحدٌ أيضًا . فَما هذه المشاكل التى ينشئها الراغبون فى إقامة الحواجز ، وفى القضاء على كُلّ تشابه بينهما ، وفى تشويه معالم اللغة العربية ! كما ينشئها أيضًا هؤلاء « المتقعّرون » ممن يحلو لهم تجنُّب الشائع الصحيح ، لمجرّد أن العامة عرفته ! مسألة بسيطةٌ !

* * *

وليس من همّى الآن أَن أناقش فى بيان فضيلة هذا المشروع الجليل ، وليس هذا أوانه ، وسيأتى أوانه فى بعض المقالات إن شاء الله ، وإن كانَ الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، قد أكثر وأجادَ فيما كتب عن هذه الفروق التى يزعمها الناس بين العامية والفصحى ، ولا يزال يَفْعَل . ولكن الأستاذ الحكيم غيرُ مكَلَّفٍ بالاطلاع على شىء من ذلك ، لأنه كاتبٌ عظيم القدر ، رفيع الذكر ، قد مارس هذا الأمر دهرًا طويلًا استغرق ستين مسرحية ! هذا فضلًا عن كونه عضوًا فى المجمع اللغوىّ ، فليس عليه أن يطّلع على ما يكتبه عامة الناس ، وليس من حقّ أحدٍ أن يستدركَ عليه ما يتكلّم به فى اللغة !

ولكن بسُوء خلقى ، وبما فُطِرت عليه من العِنَاد والمماحكة ، وبما آتانى الله من الغرورِ والجرأةِ ، وبطبيعة مولدِى من أبوين صعيديَّين ، وبالجذورِ الممتدّة إلى « عِرْق الثَّرَى » ، وهو أبى إسمعيلُ بن إبراهيم خَليل الرحمن عليهما السلام ، أحبُّ أنْ أناقش الأستاذ الكبير ، لا فى مشروعه العظيم ، ولا فى الفروق بين العامية والفصحى ، بل فى أدلّته التى جاء بها ، وإن كنت ، بلا شكٍّ أيضًا ، ممن يعترفُ على نفسه (والأمر لله) بأنّه يحبُّ أن يتكلم فيما لا يعلَم ، قُوّة واقتدارًا ! وسأَتخيَّر بعضَ هذه الأدلّة ، لا على وجه الاستقصاء ، ولا على الترتيب المنطقى البديع المتقن ، الذى هُو أحسن بِدْعًا وأشدُّ إتقانًا ، من « حوار الحكيم » الذى اشتهر به عند الناس .

فمثلا ، يقول الأستاذ الكبير فى بعض أدلته على جواز إلغاء الإعرابِ فى الحوار التمثيلى العصرى المنطوق والمكتوب : « وتسكين الأواخر ، أى الوقف بالسكون وعدم الإعراب (وهذا أسلوب فصيح جدًّا) ، هو أيضًا من صفات لغة التخاطب

السريعة فى كُلِّ أمة عربية (شىءٌ عظيم أيضًا) ، ولعلّ الأمرَ كان كذلك أيام العرب القُدَامى (خُذْ بالك) ، فى أوج حضارتهم . فقد كان يقال : « سكِّن تَسْلَمْ » ، وما نحسبُ الكلام والتخاطب فى الأسواق فى أيّامهم كان بإعراب أواخر الكلمات . فالتسامح ، إذن ، (وهى نتيجة منطقية ، ولا يؤاخذنى القارئ فى إقحام نفسى ، فهذه شيمتى كما وصفتها) ، فى الوقف فى الحوار التمثيلى العصرى المنطوق والمكتوب ، يجب أن لا يَقْدَحَ فى عربيّة اللغة وسلامتها (بالطبع ، وكيف لا يكون ذلك كذلك ؟) ، وقد قال ابن الأثير فى كتابه « أسد الغابة » : إن اللحن لا يقدحُ فى بلاغة أو فصاحة » .

وليس أحدٌ بالطبع ، أيضًا ، أعلَم بأخبار قدامى العرب من أستاذنا الجليل ، إلاّ يكنْ لطول تحصيله ، فلكونه عضوًا فى المجمع اللغوى !! فهو بلا شك يعلم ما يقول ، وإن كان أمثالنا لم يعرفوا لم قيل : « سَكِّنْ تَسْلَم » فأتانا بالأمر من فصّه ، ودلّنا على أن هذه الكلمة ، قيلت لتكون منهاجًا يسيرُ عليه المتكلمون ، والكاتبون أيضًا . وكنا نظنُّ ظنًّا ، والظنُّ فى هذا الأمر ، لا يغنى من الحق شيئًا : أنها قيلت فى رجُلٍ قرأ كتابًا فظلّ يلحنُ ، فيراجَع ، فيلحنُ على وجه آخر ، فلما ضاق سامعه به قال له : « سكّنْ تسلم » ، يعنى باللغة العامية : (ريّحنا ، يا أخى !) ، ولكن هذا ظنٌّ ، والعلمُ عينُ العِلم ، هو الذى جاءنا به الأستاذ ، فحقٌّ علينا أن نترك الظنّ المتوهَّم ، إلى اليقين الثابت ، وقد فعلنا إن شاء الله ، ورضى الله عن الأستاذ .

أما الدليل الآخر ، فهو كلامُ ابن الأثير ، وهو حجة قاطعةٌ فى هذا الأمر ، وبخاصة أن كتاب « أسد الغابة » ، الذى ذكره الأستاذ ، كتابٌ عظيم جدًّا ، درس فيه صاحبُه مسائلَ اللغة والفصاحة والبيانِ . وقد كنا نسمع من شيوخنا رحمهم الله وغفر لهم ما أساءوا من تربيتنا على الجهل ، أن هذا الكتاب الجليل « أسد الغابة » ، هو كتاب للحافظ عز الدين أبى الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ، المعروف بابن الأثير الجزَرىّ ، ألّفه فى ذكر الصحابة وتراجمهم وأخبارهم (ولد سنة ٥٥٥ هـ ، وتوفى سنة ٦٣٠ هـ) . كان هذا ما علمناه سماعًا ، فالآن ينبغى أن نصير إلى قول الثقات ، لنعلم أن شيوخنا قد ضلّلونا عن الحق ، استهَانةً

منهم بالعِلْم . ولولا أن الأستاذ ، أبقاهُ الله ، أراد لنا أن نصحح أخطاء شيوخنا ، لما ذكر اسم الكتاب نصًّا ، ولاقتصر فقال : « وقد قال ابن الأثير : إن اللحن .. » دون أن ينصَّ . هل يعقل أن يكتبَ أحد أعضاء المجمع اللغوىّ شيئًا إلا لهدفٍ ، من إصلاح خطأ شائع ، أو إزالة وَهَم سابق ، أو إذابة فوارق يمليها الجهلُ والتقعُّرُ .

ومن جهل شيوخنا ، غفر الله لهم ، أنهم حين علمونا ، زعموا أنه كان لعز الدين أبى الحسن على بن محمد هذا ، أخٌ آخرُ يقالُ له : « ضياء الدين أبو الفتح نصر الله ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى » ، ويعرف أيضًا بابن الأثير الجزرىّ ، وزعموا أنه ولد سنة ٥٥٨ هـ ، وتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، وأنه ألف كتابًا يقال له : « المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر » . وهذا خلطٌ قبيح ! فليس هذا الكتاب فى أدب الكاتب والشاعر ، كما عرفنا اليوم ، بل هو فى موضوع آخر ، لعله علم التاريخ ، ولعل صوابه : « المثل السائر ، فى أخبار الأوائل والأواخر » . هذا أكبر ظَنّي ، لأنّه ينبغى أن نتعلّم كيف نحسنُ الظنَّ ، وكيف لا ، والظنُّ أعلى مراتب اليقين ، إذا أحسن الإنسان كيف يظنُّ ، ويقول : « لعل الأمر كان كذا وكذا » ، وحسبك ما قاله أوس بن حَجَر فى رثاء صديق له من الأذكياء :

الألْمَعِىّ الَّذِى يَظُنُّ بكَ الظنَّ ، كَأَنْ قَدْ رَأَى وقَدْ سَمِعَا

ومن سوء تربية هؤلاء الشيوخ ، ولا ندرى أنستغفر لهم أم نُسِيء القالة فيهم ، أنهم زعموا أن ابن الأثير هذا ، قال إن النحو يقع فيه الخطأ كثيرًا ، لا فى الذى يخفى منه ، بل فى الظاهر المشهور ، وضرب على ذلك مثلًا ببيت المتنبى فى صفة ناقة :

وتكرَّمَتْ رُكُباتُهَا عن مَبْرَكٍ   تَقَعَانِ فِيهِ وَلَيْسَ مِسْكًا أذفَرَا

فجمع فى حال التثنية ، لأن الناقة ليس لها إلا ركبتان ، فقال : « رُكُبَات » وهذا من أظهر ظواهر النحو ، وقد خفى على مثل المتنبى . وقد كنا نجادلهم فى هذا الذى قاله ابن الأثير ، ونقول لهم : إن الله تعالى يقول فى سورة التحريم ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، فجاء الجمع ، فى حال التثنية = وندّعى أن هذا الذى قاله المتنبى هو الصواب المحض ، لأن المثنّى أكثر من واحد ، فَهُو بمنزلة الجمع ، وما دامت الناقة ليس لها إلاّ ركبتان ، ولا يُتَوهَّمُ أن يكون لها أكثر من ركبتين ، فاستعمال الجمع مرادٌ به التثنية بلا ريب ولا اشتباه ، كما فى الآية .

ثم إن ابن الأثير هذا ، فيما زعموا ، عقّب على ذلك فقال : « ومع هذا ينبغى أن تعلم أن الجهلَ بالنحو ، (بهذا النصّ ، والعمدة عليهم) ، يقدحُ فى الجاهل به نفسه ، لأنه رسوم قوم تواضعُوا عليها ، وهم الناطقون باللغة ، فوجب اتباعهم » .

ولا ندرى كيف علّمنا هؤلاء الشيوخ مثل هذا الكلام الفارغ ؟ ولا كيف نسبُوا مثل هذا الهراء إلى ابن الأثير ؟ وأوهمونا أن الخطأ فى النحو « جهل » ، وأن هذا المخطئ فى النحو « جاهل » ، يقدحُ فيه خطؤه ! إنهم قوم متقعّرون ، لأن الأستاذ الحكيم قد روى لنا حقيقة ما قال ابن الأثير على وجهه ، فقال ما نصه : « إن اللحن لا يقدحُ فى بلاغة أو فصاحة » ، ومعنى ذلك أن الكلام الذى ترفَعُ فيه المفعولَ وتنصب الفاعلَ ، وتنطق فيه الإعرابَ سكونًا ، وتقلب الذال فيه دالًا ، وتجعل « الذى » ، « اللى » ، وتقول فيه « ليه » ، مكان « لماذا » (أو « لِمَ » على الأصحّ) ، وتجعل الثاء مرة ، تاءً ، ومرة ، سينًا فتقول : « تالت » فى « ثالث » و « سابت » فى « ثابت » إلى آخر هذا ، كله فصيح قاعدٌ على يافوخ اللغة ، أو ناشىء فى حِضْنها ، ولا ينبغى التخلّى عنه لجهل هؤلاء الشيوخ الجهلة ! ولولا أنّ هؤلاء جميعًا جهلة ، ضربةَ لازبٍ ، لصححوا أولًا الكلمَة على ما رواها لنا الأستاذ توفيق الحكيم ، لأنها هى المنطق الصريح المعقول ، ولاستدلُّوا بها على أنّ هذا الذى يدّعيه المدّعون من الأخطاء النحوية فى كلام بعض الشعراء والكتاب ، ليسَ خطأ ، بل هو إذابة للفوارق بين لغة التخاطب ، ولغة الكتابه والشعر ، سبقوا به الاشتراكية بدهور طوال فى « إذابة الفوارق بين الطبقات » !!

وأما ما حدّثونا به عن الشىء الذى كتبه ابن الأثير ، عن التفريق بين مفهوم معنى لفظ « الفصاحة » ولفظ « البلاغة » ، وجعله « الفصاحة » ، أمرًا متعلّقًا بالألفاظ من حيث الحُسْن والقبح ، و « البلاغة » متعلقة بتركيب هذه الألفاظ الحسنة ، لبلوغ أقصى غاية المعنى المطلوب ، وأنه من أجل هذه المسألة فى التفريق قال : إنّ الخطأ فى بعض النحو ، لا مدخل له فى « الفصاحة » أو فى « البلاغة » ، من هذا الوجه ، لأنّه مُقْحَم على المسألة ، إلى كلام كثير قالُوه = أقول : هذا كله عبثٌ مِنْهُمْ ، غرّروا بنا وأضلُّونا ، وأدخلونا مداخلَ تضيع الوقت وتستهلك العقول ، بلا محصَّل يرجو الإنسانُ من الإلحاح عليه خيرًا ، لا قليلًا ولا كثيرًا .

وكذلك تكون النتيجة المنطقية أن هذا « اللت والعجن » فى مسألة العاميّة والفُصْحى ، إنما هو مضغٌ للألفاظ بلا فائدة ، وأنّ العامية التى يزعمون ، ليست إلا الفُصْحى نفسها : سليمةً صحيحة لا عيب فيها ، وكُلُّ ما فى الأمر أننا أخذنا ببعض « الرُّخَص ، والاختزالات ، والاستبدالات ، وعدم الإعراب !! » ، وفتحنا ما ينطق مضمومًا فى الفصحى ، وكسرنا ما هو مفتوحٌ ، وضممنا ما هو مفتوح أو مكسورٌ ، وإن استغرق ذلك كُلّ كلمة فى العبارة التى تلقى فى المسرح ، أو فى المدرسة ، وبذلك زالت الفجوات ، وذابت الفوارق ، وعاد ما يسمونه عاميًّا سُوقيًّا مبتذلًا ، فصيحًا مُعْرِقًا فى الفصاحة ! وانتهى الأمرُ !! ولا يضرُّ أبدًا أن يختلف الناسُ فى ذلك أيضًا ما شاء لهم الاختلاف ، وأن يتكلم المصرىُّ غير ما يتكلمه الشامىّ ، غير ما يتكلمه أهل الجزيرة ، غير ما يتكلمه المغربى ، غير ما يتكلّمه السودانىّ ، غير ما يتكلمه العراقى ، ما داموا جميعًا عربًا قد اتَّحدُوا ، أو هم فى طريقهم إلى الوحدة ، فَكُلُّ ما يتكلّم به المتكلمون من هؤلاء وغيرهم جائزٌ ، وهو فصيحٌ لا شك فى فصاحته ! وكيف لا ، وهم جميعاً عربٌ ؟ فإذا قلنا : لا ، ليس الأمر كذلك ، كان ذلك حُجّةً على خيانتنا للمبادئ ، وإنكارنا للوحدة العربية ، لأن معنى ذلك أننا ما دمنا نقول إن اللغة التى يتكلّم بها الشعب ، ليست من العربية الفصحى ، فالشعب المصرى إذن ليس بعربىّ ، والسودانىّ ليس بعربى ، والعراقىُّ ليس بعربىّ ، والمغربى ليس بعربىّ ! فهذا من أظهر الأدلّة على أن الذين ينفون عن عامية هذه الأمم جميعًا أنها عربية ، إنما يخونون قضية الوحدة العربية ، وينسفونها من جذورها !!

كيف لا ؟ وهؤلاء الذين يدعون أنهم يدافعون عن الفُصْحى ، قد خانوا الأمانة ، وكتموا العلم ، وتجاهلوا أنّ الأمر منذ قديم كان كذلك ، وكان على هذا الوجه نفسه ! وإنما همُّ أحدهم أن يجلس على الكرسىّ ، ويضع ساقًا على ساق ، ويتكئ على عصاهُ ؛ ويسرح فى ملكوت الله ، ثم يأتى يعترض الناس بمثل هذا التظاهر بالدفاع عن الفُصْحى ، وهو لا يريدُ إلاّ توسيع هُوّة الخلافِ ، مع تمام علمه بالدليل القاطع ، الدالّ على فساد رأيه ، ولكنه يكتُم هذا الدليل ، مع وضوحه ، وقَرْعِه أسماعنا بالليل والنهار ، فى التلفزيون ، وفى الراديو ، وفى الموالد ، والمآتِم ، والأفراح ، حيث يقرأ القرآن بالقراءات السبع !! وفى ذلك أوضح الدليل على أن

« لغتنا العربية من قديم ، كان المنطوقُ فيها المخالف للمكتوب ، أمرًا شائعًا » ! وهذا أمرٌ يعرفُه الذى دارس « الأحرف السبعة » التى نزل بها القرآن ، [١] ولكن المستخفِّين المستهينين العابثين ، الذين لا يَرْعَوْن لشىء حرمةً ، يتغاضون عن هذا الدراسةِ ، ويتكلمون بما يفضى إلى إيجاد مشكلة لا أصل لَهَا ، فيها تفريق قبيح يجعل الشعب الواحد شعبين ، بل شعوبًا لا عدَّ لها ، بقدر ما فى الشعوب العربية من الاختلافِ فى نطق الألفاظ وتركيبها !

وماذا يريد هؤلاء المفسدون ؟ أيريدون أن تبقى العربية ، دون لغات الناس جميعًا ، (وهذا شىء لا شك فيه ، وإن خالفه الواقع فى كلّ أمة عند هؤلاء المفسدين) ، لغة مكتوبة ومنطوقة أحيانًا على هيئة عند « المثقفين » ، ومنطوقة على هيئة أخرى عند غير « المثقفين » ؟ وما معنى أن تبقى « الثاء » ، « والظاء » و « الذال » التى تخرج فيها اللسان ، وقد بادت من لغات الدنيا جميعا ، فالإنجليزى الآن لا يقول « ذى » ولكن « زى » ، ولا يخرج للناس لسانه ، وما معنى الفرق بين الجيم المعطشة وغير المعطشة ؟ إلى آخر هذا الهراء كُلّه . وقد مضى المثل ، فإن « المؤلفين المسرحيين فى أوربا فى العصور الماضية ، كان لهم فضل الارتفاع بلغة التخاطب فوق المسارح ، مما جعل الناس يحاكونها فى حياتهم اليومية » ! وكانت وسيلتهم إلى ذلك أنهم استعملوا « الرخص ، والاختزالات ، والاستبدالات ، وطرح تكاليف قواعد لغتهم » !! وجعلوا لغة العوام غير المتعلمين ، هى اللغة التى يمثل بها ، ويكتب بها ، ويدرّس بها فى المدارس !! وهذا شىء يعرفُه كُلُّ من سافَر إلى أوربة ، ودرسَ لغة كُلِّ قوم من أقوامها ، واطَّلَع على الطريقة التى تدرس بها جميع العلوم !! فالقوم هناك متساهلون ، لا يلزمون أحدًا ، لا بنحو ، ولا بصرف ، ولا بمخارج ألفاظٍ ولا بكُلّ هذا الهراء الذى يتبجَّح به المتصدِّرون للفتوى ، المدَّعون أنهم إنما يدافعون عن الفُصْحى ، وعن كيان الأمة العربية ، وهم فى كُلّ ذلك كذبةٌ مبطلون !

---

(١) هذه الحجج والبراهين ، اهتدى إليها الأستاذ الحكيم بلا استعانة بأحد من الناس ، لا عربهم ولا عجمهم !

وإذن ، فعلينا هنا أن نفعل كفعلهم ، حتى تكون لغتنا كلغتهم لغة حيةً ، فنقذف بكُلّ هذا الذى ادعوه من النحو ، منذ سيبويه ، إلى الأشمونى ، وبكُلّ هذا الالتزام الكاذب بالذى يسمونه « مخارج الألفاظ » ، ونلزم الناس بأن يقرأوا المكتوبَ ، بلا جيم معطشة ، وبلا إخراج لسانٍ فى الثاء والظاء والذال ، وبلا مبالاة بمرفوع أو منصوب ، وبلا نظر إلى ما يقولون فى كتب اللغَة ، كذا على وزن كذا ، فإنّ هذا التقييد ضارٌّ أشدّ الضرر ، متلف للوقت مضيعٌ للجهد ، بل هو أحيانًا سوء أدبٍ ، فكيف تخرج لسانك للناس مثلًا ! أهذا أدبٌ ! ولماذا نتقعّر فى نطق القاف مثلًا فنقول : « قرأ» ، والأسهل والأحسن « أرأ » ونقول « الحقائق » ، والجيد فى لغة التخاطب « والحآئ » ، إلى أشياء لا تزال باقية ، ينبغى أن تتناصر جميع وسائل الإعلام على إزالتها لإذابة الفوارق بين طبقات الناس من ناحية ، وطبقات كلمات اللغة من ناحية أخرى !! وإلا بقيت لغة طبقية ، فيها ما ينطق مرة بالقاف ، ومرة بالهمزة ، ومرة بالتاء ، ومرة بالسين ! هذا هو المنهجُ ، ومن ظنَّ أنه يريد الاعتراض ، فهو « اعتراض كلامىّ » و « رأى سلبى » ، مع وجود هذا « الحل الإيجابىّ » !

* * *

يؤسفنى أن أذهب هذا المذهب ولكن ماذا أفعل ، إذا كنت لا أزال رجُلًا ممن يعدُّ نفسه مدافعًا عن اللغة ، ولا أجد مناصًا من إلزام نفسى باتباع طريقة الأستاذ الحكيم ، مع بعض التصرُّفِ ، لأنّى أعدُّ عضوية المجمع اللغوىّ ، صفة ملزمة لى باتباع سبيله ، وهو قد كتب دفاعًا عن اللغة ، فلا أقلَّ من أن أكون له ناصرًا فى هذا الذى « حارت البرية فيه » ! وأنا امرؤ أكرهُ التساهل لنفسى ، وأكرهُ الاستخفاف ، فلذلك تناولت حلَّه لهذه المشكلة بلا استخفاف وبلا استهانة ، بل بجدٍّ واقتناع ومدارسة ومذاكرةٍ ، لكى تنقشع عنّى هذه الغمامة التى طمستْ عقلى ، بسوء تربية هؤلاء الشيوخ القدماء ، الذين أتلفوا الكتب ، وأفسدوا العقول ، وزادوا فيها ونقصوا ، وحرَّفوا وبدَّلُوا ، ولم يبالوا بالأمانة ، ولم يعلموا أنّ المعلِّم مُؤْتمنٌ ، وأنه يَنْبغى أن يُؤَدِّىَ الأمانَة على وَجْهها إلى الجيل الذى يليه ، بلا تلعُّبٍ بالنصوص ، ولا نَقْلٍ لها عن مواضعها التى قيلت فيها . لأن هذا المسلك قبيحٌ جدًّا ، وكان لا يليقُ بهم ، إن

كانوا حقًّا من أهل العِلم ، ومن محبّى الحق ، ومن الداعين إلى الإصلاح !! ورحم الله شيخ المعرَّة إذ يقول :

مَنْ يَبْغِ عِنْدِى نَحْوًا أَوْ يُرِدْ لُغَةً فَمَا يُسَاعَفُ مِنْ هَذَا وَلاَ هٰذِى
يَكْفِيكَ شَرًّا مِنَ الدُّنْيَا وَمَنْقَصَةً أَنْ لاَ يبِينَ لَكَ الهَادِى مِنَ الهَاذِى

وأىُّ هَذَيَانٍ كنّا فيه منذ اليوم !! والأستاذ توفيق الحكيم ذو حظّ عظيم من الفضل ، وهو الهادى إلى كُلّ زيادةٍ فى الخير .

أمَّا بَعدُ ،

الرسالة

الخميس ١٩ من المحرم سنة ١٣٨٥



١٧

أمَّا بعدُ ، فقد أعفَيتُ نَفْسِى بضعة أسابيع من همّ القلم وقلق النَّفْس إلى الكتابة ، لكى أفرُغَ لهمٍّ يزيدنى شعورًا بلذَّة الحياة وبهجتها ، [١] وقلقٍ يزيد النفس توهُّجًا تحت أثقالِ العُمُر . ولست أعنى بالهمّ ما يغشَى القلب من ثِقْلٍ جاثمٍ يسدُّ منافذ الدَّمِ حتى يكاد القلب يختنق ، ولا بالقلق ما يخامِرُ النفس حتى تتبعثرَ وتضطرب ، بل أريد بهما ما يُساور القلبَ والنفسَ مِنْ إحساسٍ بأنّ الحياةَ جِدٌّ لا يصلح معه الهزلُ والاستخفافُ ، وتركُ الأمور تجرى فى أعِنَّتها بلا وازعٍ ولا رقيبٍ ولا ضابطٍ . ولعلّى لا أكونُ مبالغًا إذا أنا قلت : إنِّى كأنى قد وقفتُ ، فى هذه الأسابيع القلائل ، على قمةٍ من القمم الشوامخ ، والأرض كُلها من تحتى ، فأرمى ببصرى إلى أفقٍ بعيدٍ مُغْرق فى البُعد منذ عهد أبينا آدمَ عليه السلام ، ثم أَرْجِعْه على عوالم من ذُرِّيته لا يعلم زمانها وآجالَها ومصائرها إلا بارئها وحدَه سبحانه . ووجدتُنى تَميدُ بى ، فى خلال ذلك ، نشوةٌ خفّاقةٌ تهبُّ من عن يمين وشمال ، فتهزنى ، « كما اهْتزَّ تحت البارِحِ الفَنَنُ الرَّطبُ » ، ولا كنشوةِ جَذِيمة الأبرش الوضاح ، ملك العرب قديمًا فى الجاهلية ، حيث وصفَ نشوةً يخالطها طائفٌ من الحزن ، بهذه الأبيات الروائع :

[سيأتى شرحها بعد تمام المقالة ص : ٣٠٥ - ٣٠٧] .

رُبَّمَا أَوْفَيْتُ فى عَلَمٍ ، تَرْفَعَنْ ثَوْبِى شَمَالاَتُ
فِى فُتُوٍّ أَنَا كَالِئُهُمْ ، فِى بَلاَيَا غَزْوَةٍ بَاتُوا
ثم أُبْنَا غَانِمِينَ مَعًا ، وأُنَاسٌ بَعْدَنَا مَاتُوا
نَحْنُ كُنَّا فِى مَمَرِّهِمُ ، إذْ مَمَرُّ القَوْمِ خَوَّاتُ
لَيْتَ شِعْرِى مَا أَمَاتَهُمُ ، نَحْنُ أَدْلَجْنَا وهُمْ بَاتُوا

(١) كتبت هذه المقالة بعد أيام من مولد ولدى الأول « فهر » صباح الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١٣٨٤ (٢٨ إبريل ١٩٦٥) .

فأىُّ نغمٍ جليل فخْم ، متهدِّجِ النبراتِ ، اهتدى إليه هذا الجاهلىُّ القديمُ بما فى قلبه من الهمّ والقلق ، ثم استودعه هذه الأحرفَ القلائِلَ ، وأنفذها إلى أعماق الحياة الإنسانية ، ثم سلَّها كأنها أسنَّةٌ مصقولةٌ حِدَادٌ لها بصيصٌ يلمَعُ فى ظلمات الحيرة ؟ وأىُّ نشوةٍ يَدِبُّ فى خَفَقَاتها دبيب الحُزْنِ الكامن والحسرة المترقرقة ، أطاقَ هذا العربىُّ المُبينُ أن يملأ بها وجدانَ حياتنا ، بلا رموزٍ يونانية متمرّغة فى أوحالِ الأساطير ، ولا رموزٍ وثنيّة المنابت والأصول ، تجعل الحياة البشرية جحيمًا مستعرًا من الخطايَا والذنوب والآثام ، وتُحيل الهمَّ الشريفَ ظُلْمةً مُطْبِقةً عَلَى القلبِ والنفس ، والقلقَ السامِى تدميرًا لبنيان الله الذى أعطى كُلَّ شىء خَلْقه ثم هَدَى ، سبحانه وتعالى .

وما دامَ القَلَم قد حملنى هذا المحمل ، ودَخَل بى إلى حديثٍ لم أرِدْهُ حين بدأتُ ، فسأدعُه يحدِّثك عن عربىٍّ آخر ، عظيم الهمّ ، كريم القلقِ ، وهو أيضًا جاهلىٌّ عتيقٌ ، وهو جَدُّ راوية الكوفة ، المفضَّل بن محمد الضَّبّى ، واسمه سُلْمِىّ بن ربيعة بن زَبّان الضبىّ ، فقال يصف نشوة أعمقَ من نشوة الملك جَذِيمة الوضَّاح : [سيأتى شرح الأبيات بعد تمام المقالة ص : ٣٠٨ - ٣١٠] .

إنَّ شِـوَاءً ونَـشْـوَةً ... وَخَـبَـبَ الـبَـازِلِ الأَمُـونِ
يُـجْشِـمُـهَـا الـمَرْءُ فى الـهَـوَى ... مَـسَـافَـةَ الـغـائِـطِ الـبَـطِـينِ
والـبِـيـضَ يَـرْفُـلْـنَ كَـالـدُّمَـى ... فى الرَّيْطِ وَالمُذْهَبِ المصونِ
والـكُـثْـرَ ، والـخَـفْـضَ آمـنًـا ... وشِـرَعَ الـمِـزْهَـرِ الـحَـنُـونِ
... مِنْ لَذَّة العَيشِ ، وَالفتَى ... لِـلـدَّهْـر ، وَالـدَّهْـرُ ذو فُـنـونِ
والـيُـسْـرُ لـلـعُـسْـرِ ، والـغِـنَـى ... لِـلـفَـقْـرِ ، والـحَـىُّ لـلـمَـنُـونِ
أَهْـلـكْـنَ طَـسْـمًـا وَبَـعْـدَهُ ... غَـذِىَّ بَـهْـمٍ وَذَا جُـدُونِ
وأَهْـلَ جَـاشٍ وَمَـأْرِبٍ ... وحَـىَّ لُـقْـمـانَ والـتُّـقـونِ

فأىُّ نغمٍ ؟ وأىُّ نَشوةٍ ؟ وأىُّ حُزْنٍ رقيقٍ ؟ وأىُّ استقبال لخير الحياةِ وشرِّها بلا خوفٍ ولا تردّد ؟ وأىُّ قدْرة على جعل هذه الألفاظِ العربية الشريفة ، أوْتارًا مشدودَةً على قياسٍ وحسابٍ ، حتى تنبعث من تلاوتها أنغامٌ معبِّرةٌ عن الحياةِ والموتِ بأضواءِ

من البيان لا تكسِفُها الرُّموز الميِّتة التى ينفخُ فيها النقَّادُ لتحيَى ، وقد بَلِيَتْ وتعفَّنَتْ فى معابد الجهل بالحياة ، وهياكِلِ الضلالِ عن الحقِّ . ولكن العجبُ لمن عندهُ لغةٌ تملك هذه القدرةَ الخارقةَ ، ثم يضلُّ عَنها إلى « إليوت » وأشباه « إليوت » ، وذيول « إليوت » ، غيرَ مُبالٍ أن يخوضَ بلسانه ولغته فى تُرْبَةٍ عَفِنةٍ مِنَ التعاظلِ النفسىِّ المريض ، ومِنْ رَجِيع الحضارة الأوربية وصديدها المتقيِّح ، الذى يمثّله بكُلّ غَثاثته وعَفَنِه فلانٌ وفلانٌ ، ممنّ أعرفُ وتعرفُ .

* * *

ولكنّى قد ذهبت بالقارئ مذهبًا لم أردْهُ فلا بأسَ عليه إنْ قطعتُ الحديثَ منصرفًا إلى ما كنتُ قد عزمتُ على البدءِ به . فقد كنتُ وعدتُ قارئَ الرسالة فى أول المقالة التاسعة ، أنّى قد جعلتُ له علىّ حقًّا ، وهو أن لا أُخْلِيَه من متابعة ما يقالُ عمّا أكتب فى الرسالة ، إذا كان كاتبه قد استودعه مكانًا غير مجلة الرسالة . فوفاءً بهذا الوَعْد ، أؤجّل ما طال الأمدُ على الوعد به ، وهى الكلمة التى جعلت عنوانها « أباطيلٌ وأسمار » ، وأولِّى وجْهِى شطر شىء نشر فى مجلة يقال لها « العلوم » فى العدد الرابع بتاريخ إبريل سنة ١٩٦٥ ، وهى مجلة تصدرُ فى بيروت ، أرسلها إلى صديق كريمٌ . وعنوان هذه المقالة : « من همومنا الفكرية » ، وكاتبها معروف أحيانًا ، واسمه الأستاذ محيى الدين محمّد ، ويبدؤه هكذا :

« فى مجلة الرسالة ، التى تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومىّ ، حملاتٌ أسبوعية ضد بعض الكتاب ، يصلُ بعضها إلى حدّ الهجوم الموتور ، المشحون بالحقد والبغضاء . ويصل البعضُ الآخر إلى حدّ استعداء السلطات على هؤلاء الكتاب ، مع دعوة الدولة إلى طردهم من أماكن رزقهم ، أو إلى طردهم من الجمهورية العربية المتحدة ، التى تؤويهم وتقدم لهم العيش الرغد » .

« وقد تسبّبت بعض هذه الحملات الاستعدائية إلى طرد الأستاذ غالى شكرى من سكرتارية مجلة الشعر التى كان يعمل بها . وتسبَّبت أيضًا فى الاستغناء عن الدكتور عبد القادر القط من رئاسة تحرير نفس المجلة ، وإسنادها إلى الشاعر محمود حسن إسماعيل . وقد تتسبّبُ أيضًا فى إيذاء الدكتور لويس عوض ، وهو أمرٌ

نخشاه ، ونرجو الله أن لا يحدث . وتتفاوت أساليب هذه الحملات ، بين ما يظنُّه المهاجمون موقفًا عدائيًّا من التراث القوميّ ، وإيمانًا بالمسيحية واليهودية وبين ما يظنونه موقفًا معاديًا من الشعر الكلاسيكى ، وتمسُّكًا بالشعر العامى ، كما يسمُّونه ، وبين ما يحسبونه فهمًا مغلوطًا لقضايا الفكر القومى ولأمور التراث » .

ولست أعلّق على ما فى هذه الكلمات من حسن التحرّى وتمام الصدقِ ، ولكنى أدع الكاتب يبين عن نفسه فيما هو أهَمُّ ، بعد أن دافع عن حرية الاعتقاد والكلمة . قال : « وإذن لماذا نكتُب هذه الكلمة ، ما دمنا متفقين على مبدأ التصدّى لكلّ رأى ينالُ من التراث القوميّ ، أو يشكك فى أفكارنا وقضايانا ؟ » . ثم أجابَ فقال : « لابدَّ قبل أن نبرز لذلك ، من دراسة متفحّصةٍ للآراء والأفكار التى سببت مثل هذه الهجمات المتكررة ، التى توشك أن تصبح ظاهرةً لإحدى المجلات التى تنطق بسياسة الجمهورية العربية المتحدة فى مجال الفكر والثقافة (ويعنى الرسالة بلا شك) ، وتوشك أن تصبح ، بل أصبحت بالفعل ، أرضًا يجوس فيها التخريب والشتائم الشخصية والسبابُ ، وكما قلنا من قبل ، استعداء السلطات على الكتاب ، والمطالبة بطردهم ... إلخ ، مع ما فى ذلك من تجنٍّ وصَغارٍ ، لا يجيدها سوى فئة من الكتَّاب التافهين الذين يتسلقون على أكتاف الأسماء اللامعة ، أو التى لقيت بعض الشهرة فى هذا المجال » .

ثم أفاض الكاتب فى بيان تاريخ مسألة التراث القوميّ ، والأطوار التى مرّتْ عليها ، وظهور طائفة من الكتاب فى الطور السابق لما نحنُ فيه اليوم ، عدّ منهم سلامة موسى ، وإسماعيل مظهر ، وشبلى شميل (بهذا الترتيب !!) ، ثم قال : « ثم مات الروّاد ، وجاء دور التلاميذ للسير على الدرب نفسه ، والدفاع عن منطق الأساتذة ، والإفادة من وجهة نظرهم فى الحكم على القضايا العصرية ، وعلى المشكلات العميقة التى يطرحها التطور والتقدم ، وكان من هؤلاء ، الدكتور لويس عوض ، الذى أثر تأثيرًا عميقًا فى حياتنا الأدبية ، بدراساته الواسعة عن تأثير الحياة الاقتصادية والاجتماعية على الفنون والشخصيات الأوربية ، فى وقت كان النقد الأدبى قائمًا فيه على الذوق الشخصى وحسبُ » .

ثم أفاض بعد ذلك فى الكشف عن موقف هؤلاء الروّاد وتلامذتهم ، من التراث القوميّ ، وبين عذرهم فى هذا الموقف ، بما يخيَّل إليه أنه عذر مقبولٌ ، وقال إن أكثر الشبان الذين تبعوهم فى هذه المرحلة ، « قد عادوا إلى دراسة هذا التراث بمعزلٍ عن الأفكار التى قيلت عنه ، وبمعزل عن السذاجة التى حكموا فيها على الأمور » . ثم قال : « ثم قامت هذه الزوبعة حول بعض الأقلام التى كتبت فى الماضى كلامًا عن التراث ، وتكتب فى الحاضر أبحاثًا تحتمل التأويل ، وتحتمل المناقشة ، وفسرت هذه المقالات تفسيرات خاطئة ومشوهة ، بعضها يتكلم بشكل شخصيّ ، ويحاولُ أن يهدم بطريق السباب ، وبعضها يشكك فى قومية هؤلاء الكتاب ، ويدمغهم بالتعاون مع الغرب ، ومحاولة تشويه تاريخ الأمة العربية ، إلى آخر قائمة الاتهامات » ، ثم قال أيضًا :

« فالأبحاث المطوّلة التى يكتبها الدكتور لويس عوض ، والتى يتكلم عنها بعض هؤلاء (الكتبة) ، بصورة تستوقف النظر ، لما فيها من استفزاز واستعداء صريح ، أبحاثٌ أدبية يحقق فيها صلة الكوميديا الإلهية برسالة الغفران ، وعما إذا كانَ مصدر الكوميديا هو إحدى ترجمات رسالة الغفران ، أم أصلهما واحد . وقد تطرَّق الدكتور إلى تفسير وشرح بعض أبياتٍ من سقط الزند ، ووقع فى بعض الأخطاءِ اللغوية التى قد يقع فيها الناقد ببساطة ، وخاصة أمام نصّ قديم : إما لجهله باللغة العربية القديمة ، التى أصبح كثير من مصطلحاتها قَيْد القواميس ، ولا تمارس فى حياتنا الثقافية الراهنة ، وإما لتسرُّعه فى الكشف عن بعض هذه المصطلحات التى كانت تستوجبُ تنقيبًا ومهارةً وعلمًا أكثر » .

« وقامت قيامة بعض صغار الكتبة الذين اهتدوا إلى التفسير الصحيح للنص المختلف عليه ، وأخذوا يكتبون فى الرسالة هذه السلسلة من السباب ، يهاجمون فيها الدكتور ، وينبشونَ تاريخه القديم ، عندما كان صوتًا للمصرية وللثقافة المرتبطة بأوربا ، وينقبون عن آراء له صدرتْ منذ عشرين عامًا فيعيدون صياغتها بما شاءت لهم نفوسهم الملتوية ، ثم يقدمونها إلى القراء ، وإلى الدولة مطالبينها (هكذا !) بأن تقطع عيش هذا الكاتب الذى (يشوّه) تقاليدنا ، والذى دعا قبل ذلك إلى الكتابة

بالمصرية المحلية . وقد تؤثر هذه الحملة البشعة فى رزق الدكتور ، فيضطر تحت الضغط إلى الاستقالة من هذا المنبر الذى يشغله فى جريدة الأهرام ، وهو أمرٌ لا يكاد الإنسانُ يجد له مبررًا معقولًا واحدًا » .

ثم قال بعد : « ولقد أصبحت الأقلام الرجعية فى مجلة الرسالة (وهى ليست ممثلة لمصالح اقتصادية معينة) ، ممثلة لنوع من أنواع الرقابة الداخلية ، أو الضمير الكاذب ، على ما يكتبه المتحررون واليساريون والاشتراكيون ، وإنها لمصيبة يجب بترها قبل أن تستفحل وتصبح داء عُضَالًا . ولو كان النقد الذى يكتبه هؤلاء (الكتبة) الصغارُ موضوعيًّا ، ولم يكن قائمًا على الهَوَى ، لطبّلنا لذلك وقلنا : الخير فى الموضوعية والنقاش ، ومقارعة الحجة بالحجة ، غير أن هؤلاء لا يكتبون حرفًا واحدًا بدون الإساءة الشخصية والسبّ العلنى باسم الفكر ، وهو أمرٌ لا يصلُح فيه الكلام ، إنما تصلح إحالته إلى القضاء » .

ثم قال إنه ليس بحاجة إلى التأكيد بأن الشتائم لن تقنع فردًا واحدًا فى الجيل كُلّه ، ثم اقتطف من مقالاتى فى الرسالة أربعة أمثلة عدّها سبًّا علنيًّا وشتيمة ، ثم قال بعد ذكر الميثاق وما فيه من إعلاء شأن الفكر وحريته : « والإقناع الهادئ وجهٌ من وجوه الحرية ، يعايشها ويحيى معها ، ولا يمكنه أبدًا أن يعايش طغيان الكتبة الصغار أو الكبار » .

ثم ختم هذا كُلّه بقوله : « وهكذا وقعنا فى يد النصَّابين الذين يتكلمون باسم الفكر والثقافة » ثم ابتهل إلى الله ، وتقدم إلى السيد الدكتور وزير الثقافة والإرشاد ، أن يتدخل « فيحمى فكرنا ، ويحمى ثقافتنا وعروبتنا واشتراكيتنا ، باستبعاد هؤلاء المزيفين من دوائر الإعلام » .

* * *

وقد نقلتُ كُلّ هذا بحروفه ، ولم أُسْقِط من المقالة إلاّ ما لا يضرُّ إغفالُه هُنَا ، ولولا الإطالة ، لنشرت المقال كُلَّه كما جاء فى مجلة العلوم . وكنت أستطيع أن أغفل المقال كُلّه ، لأنّه لم يأت بجديد بعد الذى قاله زميلى الدكتور محمد مندور ،

منذ أشهر ، ورددتُ عليه مقاله فى الرسالة . ولكن الذى أعجبنى من الأستاذ محيى الدين محمد ، هو حبُّه لأستاذِه ومعلمه لويس عوض ، وإكبارُه لَهُ ، حتى أنه حين اقتطف ما اقتطف من مقالاتى مما عدّة شتائم قال : « الشتائم التى نقتطف هنا ، آسفين ، بعضًا منها موجهةٌ لأستاذٍ جليل طالما علَّمنا وعرَّفنا » . بيد أنى رأيته أخطأ فنشر كلامَه فى مجلة لا أظنُّها تليقُ به ، فضْلًا عن أنها تصدرُ فى بيروت ، فرأيته لزامًا علىّ أن أنشر له خلاصتها هنا فى مصر أيضًا ، وفى حيث لا تبلُغُ مجلة العلوم من البلاد التى تذهب إليها الرسالة . وقد تساهلت ، إكرامًا له ، فتركت لفظ « الدكتور » ملصقًا باسم لويس عرض ، وإن كنت قد عاهدتُ نفسى من قبلُ أن أصونَ هذا اللفظَ فيما أكتب ، وأنزّهه عن مواضع الامتهانِ والابتذال ، لأنّه لفظٌ يحمل عند الناس تُراثًا من المهابة والتبجيل ، ونبضًا حيًّا من الأمانة والدقة والصدقة ، والبعد عن الهوى ، كما قلت فى بعض مقالاتى السالفة [ص : ٧٨] .

ولكن الشيء المعيب فى مقالة هذا الأستاذ ، هو أنّه فعل ما فعله الدكتور مندور من قبلُ ، فكتب دون أن يقرأ شيئًا من هذه المقالات فيما أظن . وإلاّ فليحدثنى أين وجدَ فى كلامى استعداءً للجمهورية العربية على لويس عوض؟ وأين وجَد فى كلامى أنى أريد أن أقطع عيش هذا الآدمىّ (نسبة إلى أبينا آدم !) ، أو أن أؤثر فى رزقه ؟ لا أظنه يجد فى كلامى شيئًا يشيرُ إلى قطع العيش والتأثير فى الرزقِ ، إلا ما ظنَّهُ هو من أن لويس عوض ، قد يضطر تحت الضغط إلى الاستقالة من هذا المنبر الذى يشغله فى جريدة الأهرام . وهذا ظنٌّ فاسِدٌ ، يدلُّ على أن طول تعلُّمه على يد لويس عوض وتتلمذه له ، قد غشَّى ذكاءَهُ ، فجهل عن الرجل ما كان يَنبَغى أن يعرفَه بأقل التأمُّل . والذى يستقيل من عمل كهذا العَمَل ، إذا جاءَه من يكشف له عن جهله وغبائه وادعائه ، إنما هو الرجل الذى ابتلاه الله بذَرْوٍ مِن الحياءِ (أى قليل جدًّا منه) ، ولويس عوض قد عُوفِى مما ابتُلى به غيرُهُ ! فبأىّ عقلٍ يستطيع إنسانٌ أن يعقل أنّ لويس عوض ، يمكن أن يفكّر فى الاستقالة ، من وظيفة لم يكن يحلم مثله قط أن ينالها ، ولو بَقى الدَّهر الطويلَ يمُدّ إليها عَيْنَيْه !

ومسألة التدليل على أنّ لويس عوض قد عوفى ممّا ابتُلِى به غيره من الحياءِ ،

مسألة (أساسيّة) ، فى حديثى هذا ، لا من أجل الكشف عن حقيقة هذا الدعىّ ، بل من أجل الكشف عن أثر ما يكتبه وما يزعمُ أنه يعلمه للناس ، كأمثال الأستاذ محيى الدين محمد . وقد نبّهت الأهرام مرارًا فى مقالاتى ، إلى خَطَر ما ينشره هذا « الشرلتان » المخمور فى الصحيفة الأدبية ، فى أىِّ موضوع شئت مما كتب فيها ، ونبّهتُ جريدة الأهرام مرارًا إلى أن مثل هذا الخلط الذى يكتبُه بأسلوبِ المبشِّرين ، وهو أسلوب تعاقُل المحرومين نعمةَ العَقْلِ ، له أبلُغ الأثر فى تفكير الشباب وأشباه الشباب كالأستاذ محيى الدين محمد .

فلويس عوض لم يستح قطُّ حينَ كشفتُ عن جَهْله بتاريخ شيخ المعرَّة ، مع أنَّ بناءَ مقالاته قائِمٌ على توضيح طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه المعرّى ، ليعطينا ، فيما زعم ، بعض المفاتيح التى تساعد على معرفة موقف هذا الرجل العظيم من أفكار عصره ، ومن أحداثه ، ومن رجالاته ، ومن أحواله بوجه عام ، أو كما قال . فبالذى أنشأك فسوَّاكَ فَعدَلك ، يا سيد محيى الدين ، هل يدخُل فى نطاق تصوُّرك أن إنسانًا لا يستطيع أن يقرأ خبرًا واحدًا ، هو خبر راهب دير الفاروس ، قراءةً صحيحةً ، ولا يستطيع أن يعرف الوجه الذى به يُعدُّ الخبر صادقًا أو كاذبًا ، ولا يستطيعُ أن يراجع هذا الخبر وهو موجودٌ فى نحو من ثلاثين كتابًا بألفاظ مختلفة ، ولا يستطيع أن يفهم دلالة ألفاظ هذا الخبر ، كما بينت ذلك فى مقالاتى التى لم تقرأها فيما أظنُّ ، ولا يستطيع أنْ يهتدىَ إلى دلالةٍ واحدةٍ من دلالات شعر أبى العلاء فى صدر حياته ، ولا يستطيع بعد ذلك أن يتبين أبسط قواعد المنهج فى الدراسات الأدبية ، ممَّا يعلمه المبتدئونَ فى الدراسة الأدبية ، فضْلًا عن إنسان يزعم أنه أستاذ جامعىٌّ كان = هل يدخُلُ فى تصوُّرك أن إنسانًا كهذا قادرٌ على أن يعطى الناس شيئًا يُفْهَم ، فضلًا عن مفتاح واحدٍ مُزيّفٍ يعين على فهم مغاليق أبى العلاء ؟ ألا تظنُّ أن قائلَ ذلك مدَّع عظيم الدعوى ، وأنّه يأتى بأشياء لا يملك الدليلَ عليها ، ولا وسائلَ الاهتداء إلى هذا الدليل ، إلاّ بكلامٍ ملفَّق يلقيه متتابعًا ، بتعاقُلٍ شديد ، وبهَوَجٍ متثاقلٍ ، وبوَقارٍ يترنَّح ؟ ألا تقول معى ، فيما عددتَه شتائم واقتطفته من مقالى : « أفى الدنيا إنسانٌ يعقل ، هو أصلبُ من هذا الجرىء الجاهل وجْهًا » ؟ لا أظنُّك تستطيع أن تقول غضبًا لأستاذك : لا أقولها البتّة ! لأنى ، استنباطًا مما قرأتُ لك ، أعدُّكَ أذكى من هذا الدعىّ ، إلاّ أن يكون قد أتلف عليك ذكاءَك !

ولويس عوض ، لم يستح قطُّ ، حين عرض لآية من كتاب الله ففسَّرها بسوء أدبه ، وبالمعروف من جهله ، وبالتعاقل التبشيريّ الصفيقِ ، فزعم أنّ « وردةً كالدهان » هى « روزا مستيكا » ، ثم لم ينهه شيءٌ حتى زعم أن أبا العلاء قد نسج على صورة الوردة حين وصف الأرض وقد غشَّتْها الدماء فى الحرب ، فقال : هى وردة كالدِّهان ؟ ونسب هذا الخَبل إلى تفاسير القرآن . أتظنُّ أن هذه من الأخطاء اللغوية التى قد يقع فيها الناقد ببساطة ، خاصة أمام نصٍّ قديم ، « إما لجهله باللغة العربية القديمة ، التى أصبح كثير من مصطلحاتها قيْدَ القواميس وإما لتسرُّعه فى الكشف عن بعض هذه المصطلحات التى كانت تستوجب تنقيبًا ومهارة وعلمًا أكثر » ، كما تقول ؟ أم هذا إنسانٌ مُدَّعٍ كذّابٌ ، لا يَرْعَى لشيءٍ حُرْمة ، ولا يؤتمن على شيءٍ قطُّ ، وهو فوق ذلك فاقِدٌ لمقوّمات الإدراك الأدبى ، من شعر ونثر ، لا فى العربية وحدها ، بل فى كل لغة يدعى أنّه يعرفها . ألا تقول معى لصحيفة الأهرام أنه : « ليس من حقّها أن تشوِّه معارف الناس وعلومهم وتاريخهم وآدابهم ، بفعل إنسانٍ مشوَّهِ القلم والعقل » ؟ قُلها معى وتوكّل على الله ؟

بل إن لويس عوض لم يستح قطُّ ، حين فسَّرَ ما لا يحتاجُ إلى مراجعة من مصطلحات أصبحت قيد القواميس كما تقولُ ، أو أصبحت أيضًا لا تمارسُ فى حياتنا الثقافية الراهنة ، كما تقول أيضًا ، وذلك حين عرضَ لشعر بدر شاكر السّيَّاب فأوغَلَ فى الادّعاء والغطرسة وسوء الخلق ، حتى عمد إلى أبيات له يشرحها ، وقال فيها : « لواحظ المغنية ، كساعة تتك فى الجدار ، فى غرفة الجلوس فى محطة القطار » « ففسَّر » لواحظ المغنية « بمعنى : ألحاظ المغنية ، أى عيونها ، وزعم أن معناه أن « عيون المغنية ، كانت تتك كساعة الحائط ، تحصى الثوانى والدقائق فى انتظار شيء رهيب يوشك أن يقع !! » ، وأن هذه الصورة ، أعنى صورة عيون المغنية : « هى صورة قنبلة زمنية هائلة تتك فى الصمت الرهيب ، وتوشك أن تنفجر !! » إلى آخر هذه (الهلوسة) . ألا تقول معى : إنّ هذا كلامُ ربيطٍ فى البيمارستان كان ، فإذا هو فجأةً طليقٌ من القيود ، مُفْلتٌ من الأسوار ؟

وقد يشقُّ عليك أن تسمَع هذه الألفاظ مُلْقاةً بهذه الصراحة . ونعم ، إنها لألفاظٌ

قاسية شديدة ، ولكن إطلاقُ مثل لويس عوض على الناس ، أقسى من ألفاظى وأفتك . وأنا لا أقولها تلذُّذًا بإعادتها وتكرارها ، فلويس عوض ، كما هو الآن بيِّنٌ لك ، وإن كنتَ جعلتَ ذلك من مقتطفات شتائمى : « ليس له قيمة عندى من حيث هو كاتب » ، لأنى لا أعدُّ أمثال « لا منس » ، أو « لويس شيخو » ، أو « زويمر » ، أو « ماسنيون » ، أو من شئت من هؤلاء المبشرين الثقلاء المدّعين الكذَبة ، لا أعُدّ أحدًا منهم كاتبًا . ولويس عوض ، من حيث قرأتَه ، من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى ، ومن يمين إلى شمال ، ومن شمال إلى يمين ، لا يخرجُ منه شىءٌ يسمَّى « كاتبًا » ، إلاّ إذا كان معنى « الكاتب » هو الذى يخطُّ بالقلم ، بلا زيادة ، فعندئذ يستوى لويس عوض ، و« أبسط بنت تبيع الكرافتات فى شيكوريل » ، كما قال لويس عوض نفسه فى « بلوتولند وقصائد أخرى » من تأليفه !!

وشىءٌ آخر معيبٌ ، لا أحبُّ أن أقول لك إنه وَسْمٌ عَلِقت بك نارُه ، من جِوار هذا الحدّادِ ،أعنى صبىّ المبشر لويس عوض ، حين رضيتَ لنفسك أن تكون تلميذًا له . وهذا الشىء هو تَرْكُ الإنصافِ . فأنت قد حلّلتَ ما كتبت أنا فى مجلة الرسالة ، وعلمتَ أنى مشحون « بالحقد والبغضاء » ، ووصفتنى بما شاء لك حُسْن تَهَدِّيك إلى معرفة سرائر النفوس ، من شرٍّ والتواءٍ ، إلى آخر ما قلت ، ألم يكن من الإنصاف أن تدَعَنى وما هدانى إليه تحليلى لشخص لويس عوض ، ووصفى إياه بما وصفتُه به من البَذاء والجرأة والحقد المستكنّ على مَدّ ثلاثة عشر قرنًا ، وأنه إنسانٌ مغموزٌ فى فكره وأهوائه وطبيعته ، وأنه مخرِّبٌ شديد التخريب ، وأنه صَبِىُّ مبشِّرٍ يعمل لأهدافٍ معروفةٍ تقوم وزارات الاستعمار على تغذيتها وإمدادها منذ قديم ؟ ومع ذلك فقد كنتُ أقربَ منك إلى التزام بعض العَدل ، لأنى جئت بالأدلة على ذلك من نفس كلامه ، ومن تشابُه ما قال وما يقول ، وما قاله المبشرون وما لم يزالوا يقولونه ، مع التدليل على أن التبشير عمل سياسىٌّ ، لا باستنتاجى أنا ، بل بشهادة أهل الشأنِ (!!) ممن يُعَدُّ قول مثله حجة ، عند من يسلِّم عَقْلَه وضميره لكُلّ من لم يكن عربيًّا مسلمًا ، وإن كان قوله إغراقًا فى الضلال والسخف !

وخَصْلةٌ أخرى من ترك الإنصاف ، فأنت (بعظمة لسانك) ، تستعدى وزير

الثقافة والإرشاد ، باسم هذه المرحلة العظيمة التى نحياها ، وبكذا وكذا ، « أن يحمى ثقافتنا وعروبتنا واشتراكيتنا ، باستبعاد هؤلاء المزيفين من دوائر الإعلام » ، وجعلتنا « مصيبة يجب بترها قبل أن تستفحل وتصبح داءً عضالًا » ، فبالذى جعل لك عينين ولسانًا وشفتين ، أرأيت كلامى عن لويس عوض أقربَ إلى الاستعداء من صريح لفظك الذى نقلته لك آنفًا ؟ لا أظنُّك تقول : نعم ، لأنك عندئذ تخرجُ من حدّ ترك الإنصاف ، إلى شىء آخر لا أحبُّ أن أسمِّيه !

ولتعلم ، آخر ما تعلم ، أنى رَفَقْتُ بك كل الرِّفْقِ ، لأنّى لا أياسُ من صلاحِ الناسِ ، مهما قِيل عنك ، ومهما قرأتُ لك مما يسوءنى أن أجد أحدًا من الناس متورِّطًا فيه ، جهلًا أو غفلةً أو سوء طويّةٍ ، كُلّ ذلك سواءٌ عندى . وأظنُّك تعلمُ ، أنْ لو كانَ غيرِى ، لترك مقالَك هذا حيثُ هُوَ ، لا أقول لك إنه كانَ خليقًا أن لا يردّ عليه ، بل أقول إنّه كان مما يخطُر بالبال أن لا يقرأه . ولكنّى ، مع كُلّ ما أعلم عنك ، ومع كل ما قرأتُ لك ، وهو عندى كريهٌ ، لم أزلْ أجدُ لك فضْلًا ظاهرًا على لويس عوض . وما دام الزمانُ الذى عشتُه ، قد اضطرّنى إلى حمل القَلَم وغمْسِه فى كلامٍ يتضمَّن اسم هذا الآدمىّ ، فامتناعى عن الرَّدّ عليك ، وعن حمل كلامك محملَ الجدِّ ، مما أعدُّه مجانبةً غير محمودة للإنْصاف والعَدْل .

أما أستاذُك الذى علَّمك ، والذى لا يستحى ، والذى يتعاقَلُ بعقل المبشرين ، فقد جاء من طريق هو أخفى من طريقك ، ولبس لباسَ « المعلِّم يعقوب » التالف القديم ، قبل أن يصير جنرالًا بتسمية نابليون ، وحمل دَواةً وقلمًا وطُومارًا قديمًا ، وترك « التقعر » الإليوتى جانبًا ، فنشر جداول الحساب بالزنكوغراف أيضًا فى الصحيفة الأدبية منذ أسبوعين فى جريدة الأهرام ، وسماها : « كلمة هادئة عن التأليف والترجمة والنشر » مرة ، و « كلمة هادئة عن مجلات وزارة الثقافة » مرة أُخرَى ، (والتسمية وحدها دالّةٌ على أنه يريدُ بعد طولِ احتجابه ، أن يظهر للناس وَقُورًا عاقِلًا متماسكًا متمالكًا لقُواه) ، أستاذك هذا كانت أهدافه ظاهرةً معروفة ، لمن يُحْسِن أن يكشف عن طبائع الضَّرْب المدرَّب من أدوات التبشير ، ودُماهُ المتحركة فى عالمنا هذا منذ قرن ونصفٍ . وهو لم يقُل مثلك بصراحتك

المحمودة : أن أقصُوا هؤلاء المزيِّفين ، بل أراد بالأرقامِ ، كما يزعم ، أن يُبْطِل جَدْوَى هذه المجلات التى قلتَ عنها إنها تَشُنّ حملاتٍ أسبوعية ضد بعض الكتاب ، وتستعدى السلطات عليهم = وأراد أيضًا أشياء فوق ذلك ، ليس من شأنى فى هذه الكلمة أن أكشف عنها ، ولكنه هو يعرف ما أعنى .

وآخر نصيحةٍ أنصحُك بها ، أن تقرأ ما كتبتُ عن هذا « الشرلتان » المتبجِّح فى كُلِّ ميدان ، بما لا يحسن منه شيئًا ، إلا إيماءً وتلفيقًا وتعاقُلًا ، دَرَّبه عليه مدرِّبُه « تحت أشجار الدردار بكامبردج » ، لتعلم غدًا ، بعد أن نَصِل إلى الغاية فى بيانِ ما نحن بسبيل بيانه ، أنك قد وقعت حقًّا وصدقًا « فى يَد النصابين الذين يتكلمون باسم الثقافة والفكر » . فإذا كان قد بقى لك شيءٌ لم يُتْلفه عليك أستاذُك ، فأنت بلا ريب نازع عما أنت فيه ، وعائد إلى الحقّ ، مع البراءة ممَّن ضلَّل خُطَاك ، و بَعْثَر نفسك ، وتركك فى ظَلماءَ ليلُها كنهارِها ، والسّلام .

[شرح أبيات جذيمة الوضاح]

● « جَذِيمةَ الأبرشُ الوضَّاح » هو جَذِيمة بن مالك بن فَهْم بن غَنْم بن دَوسٍ ، من بنى الحارث بن كعبٍ ، من الأزْد . كان أبوه مالك بن فهم أوَّلَ من ملك على قُضاعة فى زمان ملوك الطوائف ، ملك عشرين سنة ، فملك بعدهُ أخوه عمرو بن فهم ثم هلك ، فملك بعدهُ جذيمة الأبرش ستين سنة ، واستجمع له الملك بأرض العراق ، وكانت منازل ملكه فيما بين الحيرة ، والأنبار ، وبَقّةَ ، وهِيت وناحيتها ، وعين التمر ، وأطراف البرّ إلى الغُمَير والقُطْقُطَانة ، وخَفيَّةَ وما والاها . فكانت تجبى إليه الأموال ، وتَفِدُ إليه الوفود . وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأيًا ، وأبعدِهم مُغَارًا ، وأشدِّهِمْ نِكَايةً ، وأظهرِهم حزمًا ، ضمّ إليه العربَ ، وغزا بالجيوش . غزا ديار تَدْمُر ، وملكُها عمرو بن الظَّرِب بن حسان بن أُذَيْنَةَ بن السَّمَيْدع العامليّ ، عاملة العماليق ، فقتله وفضَّ جموعه . فلما وليت بعده ابنتُه الزَّباء بنت عمرو ، وكانت من أجمل نساء الدنيا ، أرادت أن تثأر بأبيها ، فبيَّتت مكرَها ، وأرغبتْهُ فى نفسها أن يتزوَّجها ، فغَرَّهُ ذلك منها لجمالها . فسار إليها ، فلما دخل عليها رأى الغَدْرَ منها . وكَانت الملوك لا تُقْتَل بضرب الأعناق إلاّ فى قِتالٍ ، تَكْرِمةً للمُلْكِ ، فأمرت بقطع روَاهشه (وهى عروق باطن الذراع) ، فنزف دمُه فى طستٍ أعدَّته له ، إلى أن مات . ويقال إن جذيمة كان أوّل من حَذَا النعالَ ، واتّخَذَ المنْجَنِيقَ على الحصون ، وأوَّلُ من أدْلجَ من الملوك ، وأوّلُ من رُفِع له الشَّمْعُ . وكَان بجذيمة برصٌ ، فهاب الناس أن يقولوا « الأبرص » ، فقالوا : الأبرشُ ، والوضَّاح . وجذيمة الملك ، من أقدم من بلغنا شعْرةُ من شعرائنا ، عاش فى أواسط القرن الخامس قبل الهجرة وأواخر الرابع (٤٥٠ - ٣٨٠ قبل الهجرة) على التقريب .

● وكَان من خبر شعره الذى ذكرناهُ : أنّ جذيمة غزا طَسْمًا وجَدِيسًا فى منازلهم من جَوٍّ وما حولها (جَوٌّ ، هى اليَمامة) ، وكانت طَسْم وجَدِيسٌ يتكلّمون العربية ، فأصاب جَذيمةُ حسّانَ بنَ تُبَّع أسعد أبى كَرِب قد أغار على طسمٍ وجَديس ،

باليمامة، فانكفأ جذيمةُ راجعًا بمن معه ، وأتت خيولُ تُبَّع على سَرِيَّةٍ لجذيمة فاجتاحتها ، وبلغ جَذِيمة خبرُهُمْ فقال هذا الشعر .

١ - ● « أوفى الجَبَل ، وأوْفَى عليه » إذا علاه مشرفًا على ما بين يديه من منظر . و « العَلَم » ، الجبل الطويل الذاهبُ فى السماء . وقال جذيمة : « أوفيتُ فى علمٍ » ، أى صعّدتُ فى الجبل حتى علوت قمته ، وأشرفْتُ على ما بين يدىّ من الأرض ، لا ينتابنى قلقٌ ولا فزعٌ من شموخِ الجبل ، ولا من شدة هبوب الرياح المتناوحة العاصفة ، وبقيت هنالك مستقرًّا أرْبأ لأَصحابى . فعدّى الفعل « أوفَى » بحرف الجرّ « فى » ، ليدلّ على حالة استقراره وطمأنينته = وقال : « ترفعنْ ثوبى » ، ولم يقل « ترفعُ أثوابى » ، وارتكب تأكيد الفعل بالنون فى غير موضع تأكيده ، لأنه جعله فى حيّز كلام مؤكَّد حذفَه ، ليدلَّ على معنى ما حذف ، كأنه قال : « ترفع ثوبى شَمالاتٌ ، ولترفعنَّه هذه الرياحُ الهوج ، مهما جهدت أَضُمّ علىّ ثوبى وأجمعه » . فلما حذف « ولترفعنّه » ارتكب تأكيد الفعل ، الأوَّل فى غير موضع تأكيد . و« شَمالات » ، جمع « شَمال » وهى الريح التى تهبُّ مِنْ قِبَلِ الشأم ، وهى أبردُ الرياح . وجمع « الشَّمال » ، وهى اسم لريح واحدة ، ليصفَ ما كانَ يجدُهُ من أثر هُبُوبها عليه مرَّةً بعد مرةٍ بجمع ثوبه ، ويعانى لَذْعَها على بدنه متجدّدًا لا ينقطع ، فكأنها رياحٌ متعددة متجددة العصف ، لا ريح واحدة . و « ترفع ثوبه » ، تطيرُ به .

٢ - ● « الفتوُّ » ، و « الفِتْيان » ، و « الفِتْيَةُ » جمع « فتَى » وهو الكامل الجَزْلُ من الرجال ، كأنه أبدًا فى عُنْفُوان شبابه = و « الكالئ » ، الحافظ الساهر الذى يحرُسُ أصحابه من الغوائل . وكانوا إذا خرجوا ، بعثوا أجلدَهُم فتًى ، ليعلو جبَلًا أو شرفًا من الأرض ، ليراقب مسالك الطُّرق ، مخافة أن يبيّتَهُم عدوّ ، فإذا رأى من ذلك شيئًا أنذرهم ، ويقال لهذا الرجل « الربيئة » = وقوله : فى « فتوٍّ » ، يذكر أنه خَرَج بهم لغزوته ، وهو فيهم بمنزلة القلب يحوطُونه بإكبارهم وثقتهم واعتمادهم عليه ، فلما ربأ لَهُمْ على أعلى الجبل ، كان كأنه فيهم لم يفارقهم ، يأنَسُ بهم ويأنسون بحياطته ، وهو يراهم حيث هو وهم يرونه . فدلّ باستعمال الحرف « فى » فى هذا الموضع ، على هذا المعنى = وقوله : « فى بلايَا غَزْوة بَاتُوا » ، يعنى أنهم

باتوا مكانهم والمخاوف محيطة بهم . ويروى : « فى بلايا عَوْرَةٍ » ، وهى عندى أجود ، لأن « العورة » هى الثغر الذى يأتى منْه العدو ، فيه خَلَلٌ يُتَخوَّفُ منه ، لأنه ليس بحريزٍ = وقد استعمل « فى » فى الأبيات الثلاثة أجود استعمالٍ وأبرعه ، قسَّم به الجُملَ والمعانى تقسيمًا رائعًا جليل النغم .

٣ - ● « خوَّات » يتخطَّفُ من يمرُّ فيه ، ويقال : « ما زال الذئب يَخْتاتُ الشاةَ بعد الشاةِ ، ويتخَوَّتها » أى ينقضُّ عليها ، فيختلسها فيختطفها ، فيذهبُ بها = يقول : مررنا حيث مرَّ هؤلاء الذين هَلَكوا ، على ما كان فى طريقنا من الغوائل فنجونَا منه على غوائله فكيفَ أصابهم ما أصابهم ؟ ولم يُبَلْ بما كانَ من أمر تُبَّع ، فلم يذكُره ، لأنهم جميعًا غزاة قد أَلِفْوا الغزوَ والموت فى المعارك .

٤ - ● « أدلجنا » أى سرنا الليْلَ كله = أغفَل ما كان من أمر تبَّع وقَتْلَهُ هذه السريَّةَ من أصحابه ، ونَظر إلى مَهْلِكهم ، فعجبَ كيف هلكوا ؟ وما الذى أوردهُمْ حِياض المنايا ؟ وهم من هُمْ . ثم استدرك على نفسه كالهازئ ، مع شدَّة حزنه على فراقهم ، فقال : سرنا جميعًا فى ظُلْمة المخاوف والأهوال ، فآثرنا نحن المسير حتى انشق الصباح عن فَلَقِ الأمنِ ، وآثروا هم أن يبيتُوا حيث أدركنا الليل المظلمُ ، فأَغْفوا وناموا وادعين !! كأنه قال : لم يموتُوا ، بل ناموا كما ننام نحنُ إذا شئْنَا .

[شرح أبيات سلمى بن ربيعة الضبى]

● و « سُلْمِيُّ بن ربيعة بن زَبَّان بن عامر بن ثعلبة » من بنى ضَبَّة ، شاعر جاهلىٌّ قديمٌ ، ترجمته عزيزةٌ . ووجدت له من الولد « أُبَيٌّ بن سُلْمِيّ بن ربيعة » ، و « غُوَيَّة ابن سُلْمِيّ » ، وكان شاعرًا ، رثى أخاه أُبَيًّا . فمن وَلَدِ « أُبَيٍّ » فى الإسلام « يعلى بن عامر بن سالم بن أبىّ بن سُلْمِيّ بن ربيعة » ، كان على خراج الرىّ وهمدان والماهين ، على عهد المنصور أو المهدىّ فيما أرجح . ومن ولده : « المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبىّ » ، الراوية . ومن ولد « غوية بن سلمى » ، « سلمى ابن غوية بن سلمى بن ربيعة » ، جاهلىٌّ ، كان شاعرًا ، وله أبياتٌ جيادٌ جدًّا ، وأخوه « قُراد ، ويقال قُران ، بن غُوَيَّةَ بن سُلْمِيّ بن ربيعة » ، جاهلىٌّ أيضًا ، وكان شاعرًا .

● قالوا : إن هذه الأبيات خارجة من العروض التى وضعها الخليل بن أحمد ومما وضعه أبو الحسن الأخفش سعيد بن مسعدة ، وأقرب ما يقال فيها إنها تجىء على السادس من البسيط ، وهو : « مستفعلن فاعلن فعولن » مرتين .

١ ● « النشوة » ، أول ما يجد الشاربُ من نفحة السكر ، وأقامها ، هنا مقام ذكر « الخمر » = وإذا استوت الناقة (أو البعير) وتناهت قوّتها وتجربتُها ، وفَطَر نَابُها (أى انشق عنه اللحم) ، وطعنت فى التاسعة من عمرها ، فهى « بازلٌ » = و « الأمون » ، هى الأَمينة الموَثَّقَة الخَلْقِ ، التى يُؤْمَنُ عِثارُها وكلالُها = و « الخبَبُ » ضربٌ من العدوِ السريع .

٢ ● « يُجْشِمُها » أى يكلِّفها ركوب المشقّة فى قطع المسافة البعيدة = « فى الهوى » ، أى فى سبيل لذّاته وهواه ، من صيدٍ وطِرادٍ = و « الغائط » الأرض المنخفضة المطمئنة ، ينزل بها المطر فتكثر فيها الرياضُ ، ترعاها الغزلان والبَقر وحُمُر الوحش ، فيطيبُ فيها الصيد = و « البطين » ، الواسع البعيدُ الممتدّ من نواحيه .

٣ ● « والبيضَ » ، يعنى عقائل النساء ، نقيّاتُ العِرْض من الدنسِ والعيوب ، لكرمهنّ وحسبهنّ ، ولا يعنون بياض اللون ، فإذا أرادُوا اللون ونقاءهُ قالوا : « بيض الوجوه » ، بالإضافة = « يرفلن » ، يتبخترن ويَمِشْنَ ويجررن أذيالهنَّ حِسَان المِشَى ، من التِّيه = و « الدُّمى » ، جمع « دُمْية » ، وهى الصورة المنقوشة فى العاج ونحوه ، يُبَالَغُ فى تحسِينها وجمالها وملاستها = و « الرَّيْط » ، جمع « رَيْطة » ، وهى مُلاءة من قطعة واحدة ، تكون من نسج لين دقيق ، وربما كانت فيها التصاوير = و « المذهب المصون » ، الثيابُ الفاخرة المطرّزة بالذهب ، التى يُضَنُّ بها وتصانُ من الابتذال .

٤ ● « الكُثْر » ، الغنى وكثرة المال ، وضده « القُلّ » ، وهو الفقر وقلة المال = و « الخفض » لين العيش وسعتُه فى دَعَةٍ وخِصْبٍ = « آمنًا » يعنى ، آمنًا من الغوائل ، مطمئن القلب خاليه = و « المِزْهَرُ » ، العُودُ = و « الشِرَعَ » جمع « شِرْعَةٍ » ، وهى الوَتَر المشدودُ على العود = و « الحَنُون » الذى إذا ضُرِبَ جاءَ صوتُه رقيقًا حزينًا يملأ القلبَ شوقًا ويحرِّك أشجانه .

٥ ● يقول : الندماءُ ، والخروج للصيد ، وعقائل النساء الرافلات فى الرَّيْط ، والغنى ، والسعة ، والدعة ، ومجالس اللهو ، كُلّ ذلك : « من لذّة العيش » ، ونصيب المرء المختلَسِ من نعَم الحياة = وصواب قراءة هذا الشعر أن تقرأهُ متتابعًا ، ثم تقف على منتهى « من لذَّة العيش » وقفةً طويلةً . ثم يَستأنف خبرًا جديدًا عن عاقبة هذه الحياة التى تُنال طيباتها اختلاسًا ، فيقول : « والفَتى للدهر » ، أى غَرَضٌ له ، يرميه بنوائبه ، و « الدهر ذو فنون » ، أى ذو أحوال مختلفات ، لا يدوم على أمرٍ واحدٍ .

٦ ● و « اليُسْرُ للعُسْر » ، يعنى أنّ ذلك لا يدوم ، بل مصيره إلى نقيضه = و « المنون » ، حتوف الموت ، وهى المَنَايا والمهالك . ويروى هذا البيت : « واليُسْر كالعُسْر ، والغِنَى كالعُدْم ، والحياةُ كالمنونِ » .

٧ ● « طَسْم » و « جديسٌ » ، قبيلتان من عاد ، من العرب الأُوَل ، كانَ لهم مُلْك وغلبة ، فبادوا وانقرضوا = و « غَذِىُّ بَهْمٍ » ، أحد أملاك حِمْير ، كان يُغْذَى

بلحومِ البَهْمِ ، وهى أولاد الضأن الصغار ، وذلك من الترفه ولين العيش = و « ذو جُدُون » ، أراد « ذا جَدَن » ، فجمع . و « ذو جدن » ، هو « عَلَسُ بن يشرح بن الحارث بن صيفىّ بن سبأ » جدّ بلقيس . وهو أول من غنَّى باليمن ، و « الجَدَن » حُسْنُ الصوت ، فلذلك لُقِّب « ذا جدن » .

٨ ● « جاش » موضع باليمن تلقاء مَأرِب ، فى ديار مذحجٍ = و « لقمان » هو صاحب النسور ، و تَنْسُبُه الشعراء إلى عادٍ ، يقولون : « لقمان بن عادٍ » وهو غير لقمان الذى ذكره الله فى كتابه = و « التُّقُون » جمع « تِقْنٍ » ، يعنى أبناء « تِقْن بن عادٍ » ، بادوا فى الزمان الأوَّل .

أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا

الرسالة

الخميس : ٢٦ من المحرم سنة ١٣٨٥

١٨

أربعون سنة !! لِقاءٌ مفاجئٌ على غير ميعادٍ . غُرباءُ جَمَعتْهم الغُرْبة على طريقٍ . نَظَر بعضُهم فى وجوه بعضٍ من بعيد وقريبٍ ، ومرَّ جَسَدٌ قريبًا من جَسَدٍ ، وتحيةٌ يُلْقيها أحدهم على بعضهم بلا بَشَاشةٍ ثم يمضى كأنّه لا يُبَالى ، ثم يلتفتُ من بعيد ليجُسَّ هذا الجثمانَ المنتصبَ بنظرةٍ فاحصةٍ . ثم يعودون مرَّةً أخرى ، فتلتقى الوجوهُ وتتقابل ، وتتصافَحُ النظراتُ بالطَّرْفِ الخفىّ ، ثم يُعرض هذا ويُعرض هذا ، ويمضى كُلُّ امرئٍ لِطيّته في أرض الصَّمْتِ . ثم يعودون مرّة ثالثة ، فتقبلُ الأشباحُ على الأشباحِ ، فتمتَدُّ الأيدى ، ولكنَّها باقيةٌ فى مكانها مُسْدَلةً لم تتحرَّك من موضعها ! وتُقْبِل الخُطَى ولكنها تتردّد ، فيذهبُ هذا يمينًا ويذهب هذا شمالاً . وتنطوى الأيام يومًا بعد يوم ، وسَرْعانَ ما تجلَّت عَنْهم هذه الغُربة الرَّاغبةُ المُعْرِضة ، وسَرْعان ما تَكَشَّف الإعراض والإقبالُ عنْ صَداقةٍ بلا مطمع ، وعن مودّةٍ صافية بلا كدَرٍ . وإذا شبابٌ تستفزُّه جَهالةُ الصِّبى وغَرَارةُ الطِّباع ، وألسنةٌ ثرثارةٌ لحداثة عهدها بالإبانة عمّا فى سِرّ قلوبها وعقولها ، وغَمَراتٌ من الفرح تخوضُها بجرأةٍ وبلا تردّد ، واختلافٌ واتفاقٌ ، ورضًى وغضبٌ ، وصوتٌ يعلو وصوتٌ يهمسُ ، وليلٌ ينساب فى نهارٍ ، ونهارٌ يشقُّ سُدُول ليلٍ ، وآتٍ منقضٌّ يَنْفِى المَلالةَ عن ماضٍ منهزمٍ ، ورأىٌ متجهِّمٌ ينشقُّ عن مَرَحٍ ضاحك ، واندفاعٌ إلى غايةٍ كالسيل الجارف ، وارتدادٌ عنها كمثلِ لمحة البرقِ ، ووقارٌ بادٍ تهزهُ من تحته خِفَّةٌ كامنةٌ ، وطيشٌ طليقٌ يكفُّ من غُلَوَائه أدبٌ وحياءٌ .

يومئذ لقيت « محمد مندور » وسائر إخوانى وزملائى أوَّلَ ما لقيتهم مُنْذ أربعين سنة ، فى حدائق قصر الزعفران ، مقرِّ الجامعة ، وكلنا غِرٌّ بادى الغَرارة ، وكلنا دون العشرين . ومضت الأيام ، وتصرَّمت الشهور ، ومَحتْ سنةٌ أختَها ، وبدأت مَعالم الطريق تبدو لخُطانا من حيث لا ندرى ولا نحسُّ . ولكنى كنت أوَّلهم إحساسًا

بطريقى ، وأسرعهم إدراكًا له ، وأمضاهم عزيمةً على قطعه . وكما التقينا جميعًا فجأةً ، فارقتُ إخوانى فجأةً غير متلفت إلى وراء ، وغِبْتُ عنهم جميعًا غَيْبَةً طويلة ، غير أخٍ واحد ، قُدِّر لى وله أن يؤنسنى فى بعض طريقى الجديد برسائله الطِّوال المتتابعة ، هو « محمود محمد الخضيرى » ، بقيتْ لنا فى كتاب القدر سنوات من الصُّحبة ، لم يكن قد حان بعد حين انقضائها ، ولكنها انقضت هى أيضًا بعد قليل بغتةً . ثم سِرْتُ فى الطريق الطويل الغامض غريبًا ، وحيدًا ، منفردًا عن رَكْبِ الغُرَباء الأوَل ! كيف كان هذا ؟ ولم كان ؟ لا أدرى .

ورحل مندور ، وأنا لا أدرى متى رحل ، إلى بلاد أعدائه وأعدائى ليتزوَّد من علمهم ، وعدت أنا من رحلةٍ فى أرض أجدادى لكى أقيم ذاهلًا عن رَكْبِ الغرباء الأُوَل ، (١) منقطعًا عنهم إلى غربتى ، أحمل مِعْوَلًا بعد مِعْوَل ، أحْطِم به عن عقلى الأغلال التى طوّقنى بها علم أعدائى الملوَّث . وأنسانى طلبُ الحرية ، والكَدْحُ الدائب للخروج من أَسْر الأوهام ، ذِكْرَ الصبا الأوَّل ، وذِكْرَ إخوان الشباب ، فلم أعرف عن أخى « محمد مندور » خبرًا يذكر إلا فى سنة ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) بعد أن عاد إلى بلاده وبلادى ، فالتقينا على صفحات مجلة الرسالة فى ٢١ من ذى القعدة سنة ١٣٦١ (٣٠ نوفمبر ١٩٤٢) حيث كتبت كلمة بعنوان « الطريق إِلى الحق » ، أَردتُ أن أفصِل فيها بين معنى « عثرت به » و « عثرت عليه » ، وقلت يومئذ :

« وأحب أن أقدِّم بين يدى كلامى بعضَ ما أعرفه عن مندور : فقد كنا زميلين فى الجامعة ، كان أحدَ الشبان الأذكياء المتدفِّقين . وإن فيه من ثورة النفس ما أرجو أن يبقى على الشباب والهَرَم . عرفتُه بعدُ مُطلعًا حريصًا على العلم ، قليلَ العناد فيما لا خطَر له ، ثم هو لا يزالُ يدأبُ إلى الحقّ فى غير هوادةٍ . فكلّ هذه الصفاتِ تجعله عندى غير متعنتٍ ولا مكابر . ولكنّى رأيت الأب أنستاس الكرملى قد سلك إلى مندور طريقًا ، فاندفع كلاهما يطاعن أخاهُ بعنفٍ لا يهدأ . وأنا لا أحبُّ أن أدخل بين

---

(١) كنت قد هاجرت إلى جزيرة العرب فى أول سنة ١٣٤٧ من الهجرة (منتصف سنة ١٩٢٨م) ؛ ثم عدت بعد سنتين .

الرجلين فيما هما بسبيله ، ولكنّى أحرص على أن أدلّ مندورًا على الحق الذى كُنا ، ولم نزلْ ، نميل إليه بكُلّ وجهٍ ، ونسعى إليه فى كُلّ سبيلٍ » .

ثم ختمتُ كلمتى : « وأحسبنى قد سلكتُ إلى أخى مندورٍ طريق العلم إلى غاية الحقّ ، وهى غايته التى أعلمه لا يعملُ إلاّ لها ، وسواءٌ عليه بعد ذلك أكان الحقُّ له أم عليه » .

لم ألقَه يومئذ ، ثم انقطع ما بينى وبينه إلا ذكرَى وقراءة ، ثم التقينا فى الفَتَراتِ بعد ذلك ، فإذا بنا كأنَّا لم نفترق إلاّ ساعة أو بعض ساعةٍ . وتمادَتْ بنا الأيّام ، وكلانا سالكٌ دَرْبًا غير دربِ أخيه ، حتى التقينا على صفحات الرسالة مرةً أخرى كما بدأنَا ، فى رمضان سنة ١٣٨٤ (٢١ يناير سنة ١٩٦٥) ، فى المقالة التاسعة من مقالاتى هذه ، وأرسلَ إلىّ بكرم خلقه رسولا يذكّرنى قديمَ مودَّتنا التى لم تغيِّرها الأيام ، ولا طُولُ الانقطاعِ . وكان حقًّا علىّ أن ألقاهُ ، ولكن غلبتنى عُزْلتى فأرجأتُ هذا الحقّ ، حتى جاءِ الحقُّ الذى لا يُرْجِئُ ، وفارقنى صديقى بغتَةً كما فارقته أوّل مرةٍ بغتَةً ، وتركنى على رأسِ دَرْبى وحيدًا ، غريبًا ، منفردًا عن ركب الغُرَباء الأوَلِ ، لا أجدُ ما أقوله إلا لَوْعةً أرسلَها غريبٌ مِثْلى منذ نحو من ألفِ سنةٍ ، ظَلَّ صَداهَا يتردّدُ بين جبال الشِّعر وقممها الشوامخ [1] :

مـا أسْـرعَ الأيّـامَ فـى طَـيِّـنَـا ... تَمْضِى عَلَينا ، ثُمَّ تَمْضِى بِنَا

فـى كُـلِّ يَـوْمٍ أَمَـلٌ قَـدْ نَـأَى ... مَرَامُـه ، عـن أَجَـلٍ قـد دَنَـا

أنْـذَرَنَـا الـدَّهـرُ ومَـا نَرْعَـوِى ، ... كـأنَّـمـا الـدَّهـرُ سِـوَانَـا عَـنَـى

تَعَاشِيًا ، والموتُ فى جدِّهِ ! ... ما أوْضَحَ الأمرَ وما أبْيَنَا !

والنـاسُ كـالأجْمَالِ قَـدْ قُرِّبتْ ... تـنـتـظِـرُ الـحـىَّ لأَنْ يَـظْـعَـنَـا

تَدْنُو إلى الشِّعْبِ ، ومِنْ خَلْفِها ... مُـغَـامِـرٌ يَـطْـعُـنُـهـا بـالـقَـنَـا

إنَّ الألَـى شـادُوا مـبـانـيـهِـمُ ، ... تـهـدّمُـوا قـبـلَ انْـهِـدَامِ الـبِـنَـا

لا مُـعْـدِمٌ يـحـمـيـهِ إعدامُـهُ ، ... ولا بَـقـى نَـفْـسَ الغَـنىّ الغِـنَـى

---

(١) من شعر الشريف الرضى .

كَيفَ دِفاعُ المرءِ أحداثَها ... فَردًا ، وأقرانُ اللّيالِى ثُنَى
حَطَّ رِجالٌ وَرَكِبْنَا الذرى ، ... وعُقْبةُ السَّيرِ لِمَنْ بَعْدَنَا
كَمْ مِنْ حَبيبٍ هَانَ من فَقْدِهِ ... مَا لَمْ أكُنْ أحسَبُه هَيِّنَا
أنفقْتُ دَمْعَ العَيْنِ من بَعْدِهِ ، ... وقَلَّ دَمْعُ العَيْنِ أنْ يُحْزِنَا
كُنْتُ أوقِّيهِ ، فأسْكَنْتُهُ ... بعد اللَّيانِ المَنْزِلَ الأخْشَنا
دَفَنْتُهُ ، والحُزنُ من بَعْدِه ... يَأبَى عَلَى الأيَّام أنْ يُدفَنَا
يا أَرْضُ ، نَاشَدْتُكِ أنْ تَحفَظِى ... تِلكَ الوُجوهَ الغُرَّ والأَعْيُنَا
يَا ذُلَّ مَا عِنْدكِ مِنْ أَوْجُهٍ ، ... كُنَّ كِرامًا أبَدًا عِنْدَنَا
والحَازِمُ الرَّأْيِ الَّذِى يَغْتَدِى ... مُسْتَقْلِعًا يُنْذِرُ مُسْتَوْطِنَا
لاَ يَأمَنُ الدَّهْرَ على غِرَّةٍ ، ... وعَزَّ لَيثُ الغَابِ أن يُؤْمَنا
كأنَّما يَجْفُلُ مِنْ غَارَةٍ ... مُلْتَفِتًا يَحْذَرُ أن يُطْعَنَا

وينقطع نشيدِى ، ويبقى صداهُ فى أُذُنِىَّ ، وأنا على رأس الدَّرْب واقفٌ أتلفّت متى أُطْعَن ، وحيدًا ، غريبًا ، منفردًا عن رَكْبِ الغرباءِ الأوَل . أربعون سنة ، طُوِيَتْ أيّامها ولياليها ، كأسرع ما تفتح كِتابًا ، ثم تقرأ منه أسطرًا ، ثم تغلقه على دَفتيه، وتبقى أحْرُفه تلوحُ فى بيداء مُقفرةٍ لا يَعْمُرُها غير أشباحٍ تجولُ من الذكريات !

ولكن ... ولكن ما أشدّ عُنْف الحياة بنا ! تُفْنِى بعضَ المرءِ ، وتطالبُه من فَوْرِه أن يزدادَ تعلُّقًا بالبقاء ، وإقبالًا على الاستكثار من أسبابه !! ما أقساهَا سَائقًا لا يضَعُ عَصَاهُ عن نَعَمِه ! هكذا عوّدتْنا ، فأين منها المهربُ ؟ وإلى أين منها المفرُّ ! فتغمَّد يا صديقى ، قَسْوة قلبى بَعْدك :

ولا تُلْزِمَنِّى ذُنُوبَ الزّمانِ ، ... فإيَّاىَ سَاءَ ، وإيَّاىَ ضارَا [(١)]

* * *

لا أدرى كيف أبدأُ ، وقد قطعتُ هذا الطريقَ الطويلَ بين أَطلالِ الفَناءِ ولكن لابُدَّ من ذلك فى هذا العالم المحيِّر ، وفى هذه الفترة من الاضطراب المبهمة . أسبابه وغاياته . ففى يومين متتابعين ، وفى صحيفتين مختلفتين ، قرأتُ عَجبًا من العجب ،

---

(١) البيت لشاعر العربية ، أبى الطيب المتنبى .

وإذا كان هلاكُ بعضى قد أفزعنى إلى التأمُّل ، فإن هذا العجب قد أَفزعنى إلى النَّظَرِ ومراجعة أمرِ مَصيرنا ومَصير أبنائنا من بعدنا . فنحنُ نعيش فى عالم يتربَّصُ بنا الدوائر ، وإن زعَمَ بعضُنَا لبعضٍ أحيانًا أننا بعضُ هذا العالم ، وأنَّنا على مَدْرَجةٍ إنسانيةٍ شاملةٍ من التطوّر . كلاَّ ، بل هو عالمٌ يريدُ أن يبتلعَ عالمًا آخر : أن يفترسه ، ثم يُقَضْقِضَهُ ، ثم ينْهَشه ، ثم يبتلعه ، بَضْعة بعد بَضْعة . والشاةُ بعد الذّبْح لا تألم السَّلْخ ، فكيف تألم لمضغ لحْمها بين أنيابٍ حدادٍ !

وأبدأُ القصة ، ففى يوم الأحد ٢٥ من إبريل سنة ١٩٦٥ ، نشر الأستاذ أحمد الصاوى محمد ، فى صحيفة الأخبار رسالة من الأستاذ الحمزة دعبس ، وكيل نيابة المخدّرات ، ضمنها المطالبة بإعادة حكم الله سبحانه فى محكم كتابه ، بقطع يد السارق . وبعد أيَّام ، نشر الأستاذ الصاوى فى يوم الأحد ١٥ من المحرم سنة ١٣٨٥ (١٦ مايو ١٩٦٥) رسالة من الأستاذ « ماهر سامى يوسف » وكيل نيابة الجيزة الإدارية ، جاء فيها ما يلى بنصوصه ، بعد ذكر السبب الذى دعاهُ إلى الكتابة :

« كما أنّى أبادر فأذكر أننى أوثر أن أتعرَّضَ للموضوع من وجهة النظر القانونية ، دون الوجهة الدينية ، معترفًا أننى لا أملك أن أزعُمَ أنّ لى بها إلمامًا كبيرًا . [(١)] وأسوق ردّى فيما يلى :

« أولا : ذكر الأستاذ الزميل أن جريمة السرقة قد ذاعتْ وانتشرت وتفاقم أمرها . ثم إن العقوبات السالبة للحرية ، لم تعد تجدى نفعًا فى الحدِّ من انتشار هذه الجريمة أو رَدْع مرتكبيها . ومن ثم أصبح متعيّنًا إنفاذ حكم الشريعة الإسلامية الذى يقضى بقطع يد السارق ، إذ أن هذه العقوبة ، فى تقدير الزميل ، جديرة بأن تردّ كُلّ نفسٍ عن مقارفة السرقة ، فضلًا عن أنها كفيلة بردع السارق . وأحسِب أن الأخ الزَّميل يتفق معى أن العقوبة لم تصبح فى وقتنا هذا أداة انتقامٍ من الفاعل ، بل صارت وسيلة لتقويمه ووقاية المجتمع منه . وتأييدًا لمعنى العقوبة هذا ، نجد التشريعات الجنائية

---

(١) ليس لهذا الأستاذ بالوجهة الدينية إلمام البتة ، لا كبير ولا صغير تافه ، لأنه من أهل دين لا يعترف بدين الإسلام دينًا . ولكنه أراد تغطية هذه الحقيقة بهذا التواضع الغث ، وبهذا الإبهام أيضًا ، لسبب ستعلمه بعد قليل .

الحديثة ، تُفْرِد علمًا مستقلًا ، هو علم العقاب ، يُعْنَى ببحث أهداف العقوبة وأوصافها وأنواعها ، متكاملًا مع علم الإجرام الذى يتفرع على دراسة نشأة المجرم ، وظروف حياته ، ومقوماته الشخصية .

« ومن ذلك نخلص أن هذه التشريعات (كذا) لم تعد تنظر إلى الفاعل نظرة عداءٍ ، تحاول أن تنقضَّ عليه بمنطق السلطة والقوة الغاشمة ، تسومه صنوف العذاب والانتقام ثمنًا لنشاطه الإجرامىّ ، بل أصبحتْ تعامله كمريضٍ ، وتجعله محلّ دراسة واعية ، واختبار دقيق ، متوسلة بهذا إلى إصلاحه ووقاية المجتمع منه . ومن ثم لا يكون مقبولًا اليومَ ، أن تجرى محاولة نرتدُّ بها بتشريعنا وما وصل إليها من تطوّر ، إلى الوراء ، متجاهلين كُلَّ الدراسات الجادة المخلصة التى نبّهت إلى غاية العقوبة ، والقصد من توقيعها ، والطريقة التى تنفّذ بها » .

هذه هى « الأوّلة » بنصِّها على سقم عبارتها وفسادها . وهذا الأستاذُ قد أوهمنا فى أوَّل الأمر أنه سوف يتعرَّضُ للموضوع من وجهة النّظر القانونية ، فكان حسبُه إذن أن يذكر فى مقابل حكم الشريعة بقطع يد السارق ، حكم القانون فى شأن السارق ، فيذكر الناس بأن حكم القانون فيه كذا وكذا من العقوبات ، ثم يكفَّ لسانه . فإن زاد فآثر أن يذكر الدوافع التى تجعل القانون يحكم هذا الحكم ، عدّدها بلا فلسفة فارغةٍ ، ولا تهجُّم قبيح جدًّا ، بألفاظٍ يقذفُها بلا مبالاةٍ ، فى أمرٍ هو معترفٌ بأنه لا يملك أن يزعمَ أن له به إلمامًا كبيرًا ! [1] فليس له أن يقول عند هذه المقارنة : إن تشريعات القانون « لم تعد تنظر إلى الفاعل نظرةَ عداء ، تحاول أن تنقضّ عليه بمنطق السلطة والقوة الغاشمة ، تسومه صنوف العذاب والانتقام ثمنًا لنشاطه الإجرامى » ، فإن محصل هذا الكلام السليط ، هو أن الشريعة التى أنزلها الله فى محكم كتابه ، « تنظر إلى الفاعل نظرة عداء ، وتنقضّ عليه بمنطق القوة الغاشمة ، تسومه صنوف العذاب والانتقام » ، تعالى عما يقولُ هذا اللسان ! فالله أرحمُ به من كُلّ سخيف العقل يظنُّ أنّه يتولى « دراسات جادة مخلصة ، تنبّه إلى غاية العقوبة ، والقصد من توقيعها والطريقة التى تنفذ بها » .

---

(١) انظر ص ٣١٧ ، تعليق : ١ .

ولو قال هذا وسكت ، لقلنا له ، على سوء ما قال : اذهبْ حيث شئتَ ! ولكنه جاء بفقرة ثانية ، لينفى أنّ أحكام القانون التى ألزمنا باتباعها فى بلادنا ، لم تكن من عَمَل المستعمرين ، ولا ممّا فرضوه علينا فرضًا بأخبث الوسائل وأنكرها ، منذ أطبقوا على العالم الإسلامىّ من نواحيه ، ثم تسلَّلوا إليه ، ثم توغَّلوا ، ثم فتكوا بنا وبتاريخنا وماضينا ومجتمعنا فتْكًا لا مثيل له فى تاريخ البشرية ، كانت وسائلهم إليه من أخفى المكر وأَخبثِهِ ، حتى استولَوْا على كُلّ ما نملك ، وزادوا فاستولوا على عقولنا ، واستعبدوا خطرات نفوسنا ، وتركونا رِمَمًا تفكّر بعقولٍ قد طالَ عليها الموتُ حتى أنتنت . والقانون الذى يتكلّم الأستاذ نيابةً عَنْهُ ، جاء مقترنًا بسيادة الأجنبىّ ، وإذا كانَ هناك شىءٌ يسمَّى « تطوُّرًا » عشناهُ ، فهو تطوُّر فى داخِل النظام الاستعمارىّ ، الذى أنشأ لنا مدارسنا كما يشتهى ، وفرضَ علينا من التعليم ما يشتَهِى ، وساق مجتمعنا كالأغنامِ فى خلال مئة سنةٍ كما يشتهى . وهذا القانون الذى يتكلّم الأستاذ نيابةً عنه ، هو وكُلّ ملحقات دراساته ، قد نَبتَ ونَمَا وترعرع فى تُربةٍ أوربيّةٍ مسيحيّة ، لا فضل له ولا لأحدٍ من أساتذته منذ علّمهم المستعمر القانون ، فى نمائه أو تَرَعْرُعه . وغاية أمرهم أنَّهم نقلةٌ مقلدون ، أتباعٌ لسيّد ذى سطوةٍ وبأسٍ ، يأخذون عَنْه كلَّ جديدٍ ، وهو لا يقبلُ منهم شيئًا ولا يوقّره ولا يرضى أن يمسَّه . وإذن فلستُ أجِدُ لما قال فى فقرته الثانية معنًى يُفهم ، حيث يقول :

« ثانيًا : وردَ فى رسالة الأستاذ الزميل أنه لا مفرَّ من تطبيق الحدّ على السارق بقطع يده ، دون مبالاةٍ بالنعرات الاستعمارية ، وأظنها تنصرف إلى التطوّر الذى أدركه التشريع الجنائى الذى أصبح يميل إلى استبعاد عنصر القسوة من تنفيذ العقوبات . وفى تقديرى أننا حينما نساير هذا التطوّر ، فإن الأمر لا يكون مبالاةً بالنعرات الاستعمارية ، وإنما فقط (كذا) استجابة للاتجاهات الإنسانية التى ظهرت بعد المعاناة والبحث » ... لأنّ هذا التطوّر لا حقيقة له عندنا بل عند مستعمرينا ، ولأن ما يزعمه من « الاتجاهات الإنسانية التى ظهرت بعد المعاناة والبحث » ، لا تزال حُجَّةً مبنيَّةً على ما يسميه أصحاب المنطق « المغالطة اللفظية » . لأنَّنا إذا اتخذنا مثل هذه الألفاظ حجةً ، كان فى مقدورنا أن نسقط كُلّ عقوبة فى القانون نفسه ، مما يمسُّ البدنَ ، أو المالَ أو النفسَ ، إذ لا شىء من هذه العقوبات مهما

خفَّ ، إلا وكُلّ ذى لسانٍ وعَقْلٍ قادرٌ على أن يدخله فى حيِّز ما يناقض « الاتجاهات الإنسانية » ، حتى الغرامةُ التافهة ، ممكنٌ أن تكون حكمًا غير إنسانيٍّ . وليس صحيحًا إذن أن تكون التشريعات الجنائية المعاصرة ، « تحاول جميعها ، قدر ما تسمح به الظروف ، ويكتب لها التوفيق فى محاولاتها ، أن تجرّد العقوبة من كُلّ مظاهر القسوة » ، فما من عقوبة إلاّ وهى مقترنةٌ بضربٍ من القسوة ، إذا نظرنا إليها من قبل ما سمَّاه « الاتجاهات الإنسانية » ، هذا اللفظ المغالط المبهم ! والأشياء التى ذكرها الأستاذ ، ممّا أرادت « الاتجاهات الإنسانية » أن ترفَع وطأتها عن أحكام القانون ، كالأشغال الشاقة المؤبدة ، والحبس والسجن ، كما ينفّذ اليوم ، وتكبيل المرتكب المحكوم عليه بالقيود والأغلالِ ، كُلُّ ذلك مقترنة نشأته بالقانون الأوربىّ ، ولا أصل له البتة فى شريعتنا ، بل ينبغى إزالته ، وإزالة الآثار القبيحة المهلكة المترتبة عليه ، والتى هى أولى بتهيُّج الأستاذ وكيل النيابة ، وبمبادرته إلى رفضها ، والدعوة إلى إخراجِها من القانون بجرَّةِ قلم ، كما يقولون .

ولكن يظهر أن الأستاذ لم يكن له همٌّ إلا تكرارُ ألفاظٍ غير حسنة ولا مقبولة ، يَصِم بها شريعة الله وحكمه فى قطع يد السارق ، فيقول للأستاذ الحمزة دعبس :

« ومع تقديرى لخبرته ، وما لاحظَهُ ولمسَهُ بحكم عمله ، فإنى أحسبُ أن هذا الطابع ، لا يبرر الرأى الذى استخلصه (يعنى الرجوع إلى الشريعة فى الحكم بقطع يد السارق) ، فأغلب الظنّ أن وكيل النيابة ، بمنطق العدل الذى لا يميل ، (وهو وحده) ، متجردًا عن كُلّ مشاعر الرغبة فى الانتقام ، الذى يستطيع بما يقف عليه من أسرار وظروف المحكوم عليهم ، أن يقدر مدى تأثير هذه الظروف » .

فمن الذى علم الأستاذ ، على ما فى عبارته من الالتواء ، أنّ القاضى أو وكيل النيابة ، يصدرُ فى أىِّ حُكْم من أحكامه عن « الرغبة فى الانتقام » ؟ أيظنُّ أن القاضى إذا قضى ، وهو من رجال القانون ، لا من رجال الشرع ، بالقصاص من القاتل مثلًا ، يصدر فى حكمه هذا عن رغبة فى انتقام ؟ ولم يقف هذا الأستاذ عند هذه الألفاظ ، بل أراد أن يسم حكم الشريعة بقطع يد السارق ، بما هو أشدُّ من كُل ما قال : فتذاكى علينا ذكاءً مُدْهشًا ، فساق فى الفقرة الرابعَة تاريخ قطع يد السارق ، واستباح أن يصفه بما يشاء فقال :

« إن الحكم الذى يقضى بقطع يد السارق ، أو التنفيذ البدَنىّ عمومًا ، عرفه الرومان منذ قرون بعيدة فى قوانين متعدّدة كانت تطبّق عليهم ، مثل قانون الألواح الاثنى عشر وقانون صولون ، كما عرفه أهل آشور وبابل أيام قانون حمورابى . ولقد اتّسمت هذه القوانين دائمًا بالوَحْشيّة ، وتغلّب عليها عنصر الانتقام ، وإن تمثلت صورها بشكل أوسع فى المسائل المالية كالديون وسائر الالتزامات » .

فبأىّ حقٍّ يستطيع هذا الأستاذ أن يصف حكمًا أنزله الله فى كتابه ، بأنه حكم « وحشىّ » ، وإن تستّر تحت ما ذكرَ من أحكام الرومان والأشوريين والبابليين ؟ وإذا كان هو يستطيع أن يرفض « بشدة ، الرأى الذى يطالب بإعادة توقيع عقوبة قطع اليد بالنسبة للسارق » ، كما قال ، فمن الذى أنبأهُ أن المسلمين يرفضونه بهذه الشدة ، حتى يصبروا على نعت حكم الله فى حكم كتابه ، بأنه « أداة انتقام » ، و « نظرة عداء إلى السارق ، تحاول أن تنقض عليه بمنطق السلطة والقوة الغاشمة ، وتسومه صنوف العذاب والانتقام » ، وأنه « اتجاه غير إنسانى » ، وأنه « قانون وحشى » ! ما هذا الهجاء المقذع من رجُل يشهدُ على نفسه أنّه ليس له إلمام كبير بأمر الدين ، والحقيقة أنه جاهلٌ بأمر الدين كُلِّه ، لا يستطيع أن يميّز بينَ النصّ الذى لا يقبل الاجتهاد والنَّصِّ القابل للاجتهاد ؟ (١) وحكم الله حقٌّ واجبٌ علينا اتباعُه وبيانُه ، بيد أنّى لم أَقصد هنا قصد الإبانة عن معنى حكم الله ، على وضوحه وبيانه ، ولكنّى قصدت قصدَ هذه الموجة الطاغية من التهجُّم على كتاب الله بألفاظٍ منكرةٍ ، بلا حياء ، وباتخاذِ لفظ « التطوُّر » ، و « الاتجاهات الإنسانية » ، وسيلة للطعن فى شريعة لا يأتيها الباطِلُ من بين يديها ولا من خلفها ، أنزلها الله لعباده رحمةً بهم ، وأنزلها بعِلْمه سبحانه ، ثم يجىء مفتونٌ فيقارن بين أحكام أنزلها الله ، وأحكامٍ وضعها طواغيت البشر ممن لا دين لهم على الحقيقة ، ويجعلهم أعلمَ من ربِّهم الذى خلقهم ، بما يتوهمونه من « دراسات مخلصَةٍ » فى « علم العقاب » و « علم الإجرام » ، وسائر ما يتغطرسُ بذكره المارقون من عباده ، ممن لم يُسْلِموا وجوههم

---

(١) بل إن هذا الأستاذ المهذب كتهذيب سلامة موسى ولويس عوض ، رجل من أهل دين غير دين الإسلام ، كما سلف ص : ٣١٧ ، تعليق : ١ .

لفاطر السموات والأرض ، واتبعوا كلَّ شيطان مَرِيدٍ من شياطين الإنس والجنّ . هذا هو العجبُ الأوّل .

* * *

أما العجب الثانى : فيفضى بنا إلى ما يقع عليه سلطان المبشر الثقافى ، أعنى المستشار الثقافى ، لصحيفة الأهرام ، وهو لويس عوض ، حيث نشر فى اليوم التالى لهذه المقالة ، فيما سمّاه « دائرة المعارف » وذلك فى يوم الاثنين ١٦ من المحرم سنة ١٣٨٥ (١٧ مايو سنة ١٩٦٥) ، تحت عنوان : « الضريبية فى العصور الوسطى : النظم الضريبية فى العصور الوسطى كانت تختلف كلية بين أوربة والبلاد الإسلامية . لم يكن فى الإسلام تنظيم كنسىّ ، يحجب الموارد (عن) السلطة السياسية » . ووقفت حائرًا فى معنى هذا العنوان ، ما معناهُ ، وبحثتُ عن اسم الكاتب ، لأستشفّ مقصدَهُ ، فلم أجد تحت الكلمة توقيعًا . وإذن فهى كلمةٌ مبهمة لا صاحبَ لها إلاّ الذى يَقَع سلطانُه على هذه الصحيفة ، وهو المبشر الثقافىّ . أعنى المستشار الثقافى ، لصحيفة الأهرام « لوَيس عوض » .

فلنتأمل هذا العنوان قليلًا قبل أن ننفذ إلى المقال نفسه . « النظم الضريبية ، كانت تختلف كلية بين أوربًا والبلاد الإسلامية » ، أسلوب ركيكٌ جدًّا ، كأنه أسلوب « بلوتولند وقصائد أُخرى » لمؤلفه لويس عوض ! لا يقال : « الأمران يختلفان كلية » !! هذا ليس بعربى ، بل يقال : « الأمران يختلفان كل الاختلاف» ، أو « اختلافًا تامًّا » أو ما شئت غير « كلية » هذه ! ولا يقال : « الأمرُ يختلف بين محمد وعلى » ، وهذا ليس بعربىّ ، إلا أن تريد أنه يذهبُ إلى هذا مرةً ، وإلى الآخر مرة . وهكذا دواليك . فإذا قلت : « الأمر يختلف كل الاختلاف بين محمد وعلى » ، صارَ معناه على سقم تعبيره ، المبالغةُ فى الاختلاف إلى هذا مرةً ، وإلى هذا مرة . هل يعنى المبشر الثقافى هذا ، لا أظنُّ بل المراد والله أعلم : أن النظم الضريبية فى أوربا كانت مخالفة كل المخالفة للنظم الضريبية فى البلاد الإسلامية . فإذا كان ذلك كذلك ، صنعنا ما صنع لويس عوض بمجلة « آراب أو بزرفر » ، حيث نشر صورة للصفحة الأولى منها ، وصححها تصحيح مدرس ، ومنحها درجـة (١٥/٢٠) ووقع بالأحرف الأولى من اسمه ، فمنحناه « صفر » على عشرة ، لا على عشرين بلا توقيع !

ثم يتكلم هذا العنوان الأعجم ، ويفصح قليلًا قليلًا ، فيقول : « لم يكن فى الإسلام تنظيم كنسىٌّ ، يحجبُ الموارد المالية (عن) السلطة السياسية » ، وكأنّ فيه خطأ ، وضع « فى » مكان « عن » وهو سبق قَلَم ، فنعفو له عنه ! ولكن ما معنى هذا العنوان : أَيريدُ أن النظم الضريبية فى أوربة كانت فاسدةً فى القرون الوسطى ، لأن التنظيم الكنسىّ كان يحجبُ الموارد المالية عن السلطة السياسية ، أم يريد أنّ النظم الضريبية فى بلاد الإسلام كانت فاسدة ، لخلو الإسلام من نظامٍ كنسىّ يحجب الموارد المالية عن السلطة السياسية ؟ وإذنْ ، فهو عنوانٌ محَيّر غير دالٍّ ، ولا يستحقّ أكثر من « صِفْر » ، لأنه لا يؤدّى إلى معنًى واضح مفهومٍ عند النظرة الأولى ، كما يتطلّب ذلك فن « العنوان » ! ولكن يفهم منه شىء واحدٌ : أن كاتبه ماكرٌ تافه المكر ، ككلِّ مبشّرٍ .

ثم تبدأ الكلمة هكذا : « يطلق المؤرخون اسم العصور الوسطى عن فترةٍ زمنيّة تغطى عشرة قرون ، اصطلح على تحديد بدايتها بعام ٤٧٦ ، (والتاريخ هنا هو التاريخ الميلادى بالطبع) ، الذى شهد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية بيد قبائل الجرمان ، وتحديد نهايتها بعام ١٤٥٣ ، الذى شهد سقوط الإمبراطورية الشرقية بيد الأتراك العثمانيين . وأهم ما يميز هذه الفترة ، من وجهة نظر تاريخ الحضارة البشرية ، هو انقسام البلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط إلى نظامين حضاريين مختلفين ومتعارضين ، تقوم بينهما العداوة والحروب : أوربة المسيحية من جانب ، والبلاد الإسلامية من جانب آخر » . وظاهرٌ أنّه يريد أن يدخِلَ تاريخ الإسلام منذ ظهوره إلى أن فتح الأتراك أرض الإمبراطورية الشرقية فى « العصور الوسطى » الأوربية . وهذا خطأ شنيعٌ ، وتحكم غليظٌ ، وكأن « الحضارة البشرية » : مرتبطة بالجنس الأوربىّ وحده ، فما كان عنده « عصور وسطى » منحطّة ، فهو منسحبٌ على تاريخ أهل الإسلام ، موصوف بما توصف به « العصور الوسطى » من الانهيار والانحطاطِ والجَهْل ؟ وهذه إحدى الدسائس التى دسَّها « التبشير » و « الاستعمار » بوسائله فى مدارسنا وكتبنا ، حتى كدنا نعدُّها بديهيةً من البديهياتِ . والواقع فيها ، واقعٌ فى خَلْطٍ فظيع ، ويُلْغى من تاريخ البشرية أشرَفَ عصورها وأكرمَها وأنبلَها وأصدقَها علمًا وعملًا ، فى أمر الدنيا والآخرةِ .

ولكن ، لا بأس ! ثم يبدأ هذا الكاتب المجهول بعد قليل فيقول : « والذى يعنينا من هذه الملاحظة التاريخية ، هو أن نظام الضرائب قد اختلف اختلافًا كبيرًا فى بلاد الإسلام عنه فى أوربة . ولعلّ أَهم (وألق بالك إلى قوله : أهمّ) ، ولعل أهم ما يميِّز البلادَ الإسلامية فى هذا الصدد ، هو أن الإسلامَ قد أضفَى على الأسس العامة للنظام الضريبىّ طابعًا دينيًا ، يجعل من اليسير على الحكام أن يتلاعبوا بها ، (بهذا الأدب الجمّ ، أدب لامنس وزويمر وملحقاتهما !!) ، [(١)] وفى نفس الوقت لم يكن للإسلام تنظيم كنسىّ يحجبُ الموارد المالية التى تجبى باسم الشرع ، عن السلطة السياسية ، ممّا أغنى الحكام عن أن يفرضُوا ضرائب مباشرة ، لم يرد لها أصل فى الفقه الإسلامى » . ثم أخذ يضرب يمينًا وشمالًا ، ويترنّح ويتطوّحُ ، ويستقيم لسانه تارة ويلتوى أخرى ، يذكر « الخراج ، والجزية ، والزكاة » ، فى بضعة أسطر ، حتى انتهى فجأةً إلى قوله : « أما فى أوربا الغربية ، فقد أدّى انهيار السلطة الإمبراطورية ، إلى انهيار النظام الضريبى الذى أقامته تدريجيًّا خلالَ عدة قرون » ، ثم دخَل فى ذكر ملوك البربر الذين قسَّموا الإمبراطورية الغربية ، وانحدر إلى النظام الإقطاعى ، حتى قال : « وكان طبيعيًّا فى هذا الوضع ، (يعنى وضع النظام الإقطاعىّ) ، أن يختفى مفهوم الضريبة الذى تكوّن خلال عدة قرون فى ظِل الإمبراطورية الرومانية » . ولم نفهم شيئًا ممّا قال ، لأنه لم يحدِّثنا بشيء عن الضريبة ، ما هى ، ولا كيف كانتْ بل ساق لتًّا وعجنًا بلا محصول ، ليقول هذا :

« وفى هذا المجتمع الإقطاعى بقيت سلطة مركزية واحدة ، هى الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت تقوم بعددٍ من الخدمات العامة : كالتعليم ، والصحة ، والقضاء. وكانت الكنيسة تموّل نشاطها من مصدرين : الأوقاف التى سَرْعان ما تحولت إلى إقطاعيات دينية ، للأسقف فيها سلطة السيد الإقطاعى ، والعشور ، وهى ضريبة تقدر بالعُشْر من الدخل ، أخذت الكنيسة فى جبايتها اعتمادًا على بعض نصوص الكتاب المقدس » .

---

(١) وهو الوجه الآخر لأدب الأستاذ « ماهر سامى يوسف » السالف ذكره والتعليق عليه من : ٣١٧، ٣١٨ ، ٣٢١ تعليق : ١ .

وأنا لا أحبُّ أن أتحكَّم فى الناس برأيى ، ولكنْ أسألُ كلّ قارئ أن يلتمس هذا العدد من الأهرام ، ويقرأ هذه المقالة ، ويحدثنى بعد ذلك عن الذى جاء به هذا الكاتب المتخفّى ، فى موضوع « النظم الضريبية » ، وكيف كانت فى بلاد الإسلام ، وكيف كانت فى أوربّة ما بين سنة ٤٧٦ إلى سنة ١٤٥٣ من الميلاد ، فإذا لم يجد فيها شيئًا يفهم سوى ألفاظٍ مخمورة مترنحةٍ بلا معنى ولا ترابط ، فليحدثنى فيم كتبها هذا الكاتب ؟ أكتبها ليقول : « إن الإسلام قد أضفَى على الأسس العامة للتنظيم الضريبى طابعًا دينيًّا ، يجعل من اليسير على الحكام أن يتلاعبوا به » ؟ أهذا صحيح ؟ أهذا شىءٌ يسلّم لحضرة الكاتب المتخفّى ، لأنه قالَه وقضى ما قَضَى ؟ أهكذا يقضى هذا المسكين على ما بيَّنه الله ورسوله من حقوق الأموال ومصارفها ، بأنه نظامٌ يتيح للحكّام أن يتلاعبوا به ؟ ثم يعقب على ذلك بأن العيب أتى من قِبَل أن الإسلام لم يكن له « تنظيمٌ كنسىٌ ، يحجبُ الموارد المالية التى تجبى باسم الشرع عن السلطة السياسية ، مما أغنى الحكام عن أن يفرضوا ضرائب مباشرة لم يردْ بها أصل فى الفقه الإسلامى » ؟ أهذا كلامُ صاحٍ مفيق ؟ أم كلام مختلط العقل يريدُ أن يدخل لفظ « تنظيم كنسىّ » فى كلامه ، ليدلّ على عُوار الإسلام وفساد نظمه ، إذ لم يكن فيه « تنظيم كنسىّ » شريف ؟ وأىُّ شىءٍ هذا « **التنظيم الكنسى** » الذى حجب الموارد المالية عن السلطة السياسية ؟ وكيف كان ذلك ؟ ومتى كان ؟ أغاية ما هنالك أنّ « الكنيسة الكاثوليكية ، بقيت سلطة مركزية ، تقوم بعددٍ من الخدمات ، وتتموّل من أوقافٍ صارت إقطاعًا ، وعشورٍ تجبيها من الناس » ؟

* * *

ما هذا الهوسُ الذى يكتبه هذا الكاتب المتخفّى ؟ أنا لا أشكُّ فى أنّه مبشِّرٌ سخيف العقل جدًّا ، فإن لم يكن هو لويس عوض بلحمه ودمه وعقله ، فهو أشبه شىءٍ به . وإذا كانت صحيفة الأهرام ، قد أنشأت هذا الباب من « دائرة المعارف » ليصبح مَرْتعًا للمبشّرين وذيولهم وأذنابهم ومخالبهم ، ولا أظنها أرادت ذلك البلاء ، فخيرٌ لها أن تغلقه ، وتكفَّ عن الناس الشرّ الذى يهب عليهم من قبله ، أو أن تقذفَ

بهذا المبشّر الثقافىّ إلى خارج أبوابِها ، لأنه لا يتورّعُ عن سوء أدبٍ يرتكبه موقّعًا باسمه ، أو تطاوُلٍ يقدم عليه مجهولُ الاسمِ ، بإشرافه على باب يرادُ منه تثقيف الناسِ بكلام مفهوم ، دالٍّ على معنى مفهوم ، لا إتلافُ عقولهم بخطرفاتٍ وتُرَّهاتٍ ، وحديث جُهَّال ، وهذيان هاذين ، وعربدة معربدين .

وقد أسلفتُ فى المقالة الثانية عشرة بيان معنى « دائرة المعارف » والتى آثرت تسميتها « الجَمْهَرَة » ، وبينت معنى هذا الباب ، وما يرادُ منه ، فإن لم يكن قرأها مسئول عن هذه الصحيفة ، فليقرأها إذن ، ليعلم أوّل ما يعلم : ما معنى هذا الباب الذى نشأ فى صحيفته ، وكيف يَنبغى أن يكون ، فهذه أوّل مهمة يتقلدُها . ثم ليعلم أن هذا البابَ ، إذا تتبعه متتبِّعٌ ، لم يخطئ أن يجده قد صار سِتارًا لعرض أفكار كثيرة للمبشرين وعقولهم السخيفة ، على قراء لا يزالون يظنون بأبواب صحيفته خيرًا كثيرًا ، ويعدُّونها مصدرًا لثقافة صحيحةٍ حقيقةٍ بالاهتمام . فإذا كان ذلك كذلك ، فبأىِّ قلبٍ يرضى أن يُصاب من قراء الأهرام من يُصاب ، بعدوَى داء عُضَالٍ من لَوْثَةٍ ينشرها مُبَشِّرٌ حاملُ جراثيم ، لا يؤتمن على صحة العقول ، كما لا يؤتمن متطبب دجال على صحة أبدان الناس . وعقول النشء أولَى بالحياطة من أبدانهم ، فإن البدن إذا تلف منه عضوٌ ، احتازت سائر الأعضاء نصيبَه من العَمَل . ولو أفضى الأمرُ إلى تلف البدن كُلّه بتطبّب هذا الدجال ، فالتلف قاصِرٌ على صاحبه لا يتعدّاهُ . أما تَلَف العقول بالآفات المُبِيرة ، فالعقلُ لا يُسْتعاض عنه ، ولا يقوم شيء من الأعضاء مقامه ، ويبقى صاحبُه مُعَافَى البدن ، ولكنه يمشى به فى الناس لينفُثَ فيمن يعاشرُ جرثومةً يستشرى داؤها ، ولا يُرْجَى شفاؤها ، إلا بعد وقت طويل ، وعلاجٍ مُضْنٍ ، إذا تيَّسر الطَّبيبُ المتفرغ لمباشرة علاجه يومًا بعد يوم .

* * *

هذا ، كما ترى ، خَبَرُ ما قرأتُ من العجب فى يومين متتابعين ، ولم أجده مما يَسَعُنى فى دينى ، ولا فى عقلى ، ولا فى أمانتى ، أن أسكت عَنْهُما ، وأدعَ عرضهما على الناسِ ، لأن هذه ظاهرة بينة الدلالات . ففى موضعين مختلفين ، وفى صحيفتين

مختلفتين ، ينشر كلامٌ لا أصل له ولا هدفَ إلا الطعن الصريح فى الإسلام ، والتسفيه الواضح لأحكام دين الله .

فبِاسمٍ مبهم ، لا يُدْرَى من هو ، ولا من يكون ، [١] يكتب كاتبٌ متهيّج رسالةً لا شيء فيها من الجدّ ، سِوَى حُبُّ الترديد لوصف حكم من أحكام الله ، بأنه قاسٍ ، وبأنّه صادرٌ عن الرغبة فى الانتقام من البشر ، وبأنه حكم وحشيٌّ ، ويكتبه بأسلوب لا أدب فيه ، ولا يتضمّن علمًا أو ذكاءً ، وإنما هى ألفاظ مبنية على المغالطة ، ومشمولة بالإبهام كاسم صاحبها ، ولم يخرجْ كلّ ما فيها من الحجج البينات عن الذى سمعته بأذنى منذ أكثر من أربعين سنة ، من فم القسيس المبشّر الخبيث « زويمر » ومن غيره من أشباهه ممن كان يتردّد على جمعية الشبان المسيحية ، وعلى الجامعة الأمريكية .

ولا أدرى ما الذى يرادُ اليوم بنشره بين قراء صحيفة الأخبار ، فى هذه الفترة المضطربة التى اجتمعت فيها قُوَى الشرّ علينا من كلّ أَوْبٍ كزنابير النحل ؟ وكثيرٌ من شباب القراءِ اليومَ لا يملك القدرة على ردٍّ هذه الشُّبَه المتلفّعة بألفاظ « التطور » ، و« البحث العلمى » ، و « الدراسات المخلصة » ، و « الاتجاهات الإنسانية » ، وسائر هذه الضلالات التى نُهِينا عن إسلام عقولنا لأمثالها ، والتى أفضتْ منذ قريبٍ إلى قيام بعض الكنائس بإحلال أخبث انحرافٍ جنسيٍّ يصابُ به إنسانٌ شريفٍ ، وجعله عملًا من الأعمال المباحة التى لا يلام صاحبها دينًا ، ويؤمر جماهير الناس أنْ لا يستنكروا ذلك من فعله ، أو يمتهنوه أو يزدروه ، [٢] وهذه هى ذروة « البحث العلمى المخلص » ، وقمة « الاتجاهات الإنسانية » ، التى يراد لنَا أَنْ نقتفى آثارها ، ونتخذ أسلوبها فى النظر أُسلوبًا نعيش به ، ونقيم أحكامنا عليه ، مسفّهين أحكام الله فى كتابه وفى سنة رسول الله ﷺ ، بجرأةٍ فظّةٍ ، وبلا مبالاةٍ بالمخوف من عواقبِ هذا الضلالِ الذى عاش فيه العالم الأوروبىّ المسيحىّ ، ولم يزل يعيش فيه .

وبلا اسم ، وبلا توقيع ، يجترئ مبشرٌ مخبولٌ على أن يجعل أكمل نظام للأموال

---

(١) هكذا قلت ، ولكنه كان معروفًا عندى ، كما هو معروف عند لويس عوض نفسه !!

(٢) أعنى إحلال الكنيسة الإنجليزية إتيان العمل المنكر بين الرجل والرجل !!

عرفته الحياة البشرية إلى اليوم ، نظامًا « يجعل من اليسير على الحكام أن يتلاعبوا به » ، ويزدادُ عُتُوًّا وجُرْأة ، وسُوء أدبٍ ، فيُوحى إلى قارئه أن خُلُوَّ الإسلام من « التنظيم الكنسى » الشريف !! هو السبب فى فساد هذا النظام ، بدعوى تدلُّ على تمام الجهل بتاريخ الكنيسة فى أوربّة ، ليقول صراحة : « إن الإسلام لم يكن له تنظيم كنسيٌّ ، يحجب الموارد المالية التى تجبى باسم الشرع (يعنى الزكاة والخراج ، والجزية !!) ، عن السلطة السياسية ، مما أغنى الحكام عن أن يفرضوا ضرائب مباشرة ، لم يرد لها أصلٌ فى الفقه الإسلامى » ، وهو فوق ذلك كله ، تعبيرُ جاهلٍ بمعانى الألفاظ ، ملفوتٍ عن حقائق هذا الدين ، مملوء القلب والعقل بأساليب التبشير وأساليبِ الاستشراق ، وهما شيء واحد فى الحقيقة ، ويسوقُ هذا المكرَ الخبيثَ فى موجٍ متلاطمٍ من الألفاظ التى لا يُحصَّل من مجموعها معنى صحيحٌ مفهوم .

وصدق المبشر الذى قال ، وقد أنْسِيت مكانَه واسمه الآن ، حيث قال : « أن المكان الوحيد فى العالم الإسلامى الذى لا يكاد « التبشير » ينفقُ فيه شيئًا يذكر ، هو مصر » . فإنهم بعد طول استيلائهم على الحياة بأساليبهم التى شرحتها آنفًا ، كان لكُلّ مبشّرٍ رزقٌ ينالُه من قوت هذا الشعب المسلم ، ويُؤجَر على عمله منْ ماله ، فى الصحافة ، وفى المدارس ، وفى المستشفياتِ ، وفى كُلّ باب دخَلَهُ « التبشير » وبثّ فيه أعوانه ، مقنّعين بضروب مختلفة من الثياب ، ولكُلّ طائفة منهم أسلوبٌ قد درسوه وأحكموه ودُرِّبُوا عليه ، كما كشفتُ ذلك حين نزعتُ طَيْلَسان الجامعة عن لويس عوض ، وأظهرته مبشرًا مُدَرّبًا تَمَّ تدريبه « تحت أشجار الدردار بكامبردج » .

وبعد ، فهذا أمرٌ مكشوفٌ سِتارُهُ لمن يريدُ أن يُبْصِر ، وهو لم ينحدرْ قَطُّ علينا بهذا القدر من العُنْفِ ، والمراوغة ، والتحايل ، ولم ينبثق سَيْله من كلّ وجهةٍ وفى كل مكانٍ ، كما انحدر وانبثق فى هذه الأيّام . وأنا أحذّر قومى ، فإنَّ دلائل هذا التبشير واضحة فى الذى ذكرتُ ، وفى الذى لم أذكرهُ ، من كلامٍ كثير يستفيضُ فى صحفٍ كثيرة ومجلات . و « التبشير » ، أداة من أدوات « الاستعمار » ، وهما أخوان لأبٍ وأمٍّ ، فإلحاحُ « التبشير » علينا بأدواته ودُمَاه ، صريحةً ومتخفية ، واعيةً

وغير واعية ، يحمل معنًى واضحًا من إرادة التدمير والهدم ، ونشر البلبلة ، وإفقاد الأمة أسباب بقائها ، ويرمِي إلى هدفٍ واضحٍ ، قد عمد إليه مرات من قبل فى مصر وفى غير مصر ، فى خلال الانتفاضات الكُبرى التى يُخْشَى معها أن يستردّ العالم العربىّ والإسلامىّ قوّته وبأسه ، وينفرد بنفسه منشئًا بانيًا ممهِّدًا لحضارةٍ تَرِثُ هذه الحضارة الأوربية المسيحية فى أوانِ انهيارِها هذا الذى تعيشه . وقد ضربت الأمثال من قبلُ فى بعض مقالاتى ، فأنا أتخوّفُ أن ننتهى إلى شَرٍّ غاية ، إذا تركنا هؤلاء المفسدين العابثين يَمرحون ويَسْرَحون ، بلا رقيب على سوء أعمالهم ، وبلا وازع يَرْدَعُهم عمّا يبغون لنا من الغوائل . ولا يؤتى المرء إلاّ من غفلته ، وشرُّ الأعمال التهاوُن ، ورُبَّ شَرارة صارت نارًا متضرِّمةً .



بَابُ الفَحْصِ عَنْ أُمُورٍ مُنَة

الرسالة

الخميس : ٣ من صفر سنة ١٣٨٥

١٩

كان كليلةُ ودِمْنة ، من بنات آوَى ، وكانا أخوين ، وكان بينهما من الاختلاف ما بين الخيرِ المحض ، والشرّ المحض . لم يزل أحدهُما مُخْلصًا ، صادقًا ، صريح القولِ ، شريفَ النفس ، والآخر خبيثٌ ، محتالٌ ، كذوبٌ ، فاسِدُ النفس ، خسيسُ الطباع . فكان من شأن دمنة أنَّه بَقِيَ دَهرَهُ يمشى بين أصحابِ الملك (الأسد) بالشر ، ويبغيهم الغوائل ، ويمكرُ مكرًا بعد مكر ، وهو على مثل اليقين أنّ أمَرهُ لَنْ ينكشفَ ، لما كانَ قد أحكَمه من التخفّى والمراوغة ، وإبدائه ظاهرًا بريئًا ، يستُرُ به ما كان يأكل قلبَه من السخائم والضّغائِن والحقود . فلما طالَ عليه الأمدُ ، وأنكرَ أخوه كليلةُ ما استشرى من خبائثه ، خلا به وقال له : « لقد ارتكبت مركبًا صعبًا ، ودخلتَ مدخلًا ضيّقًا ، وجنيتَ على نفسك جنايَةً مُوبقةً ، وعاقبتُها وخيمة . وسوف يكون مصرعُك شديدًا ، إذا انكشف للأسد أمرُك واطّلع عليه ، وعرف غَدْرَكَ ومِحَالك (المِحال ، بكسر الميم ، الكيد والمكر المفضى إلى إهلاك الناس) ، وبقيتَ لا ناصِرَ لك ، فيجتمع عليك الهوان والقتلُ مخافَة شَرِّك ، وحَذَرًا من غوائلك » .

وهذان الأخوان مثلٌ دائرٌ فى الناسِ ، ولم آتِ هذا المكانَ لأقُصَّ القصّة ، وأستنبط العبرة ، ولكنى جئتُ لكى أتولّى كشف الغطاء عن السِّردابِ الْمُظْلِم الذى وصفتُه مرارًا ، والذى تسعى فى جَنَبَاتِهِ حيَّاتٌ وأَصْلالٌ وأفاعٍ ، لَهَا لدْغٌ فى الظُّلُمات ، وخشيتُ أن لا يكون للدغاتها طبيبٌ . « والسردابُ المُظْلم » هو هيئةُ « التبشير العالمى » التى نشأت منذ عَهْدٍ طويل ، وقصصتُ خبرها فيما سلفَ ، و « الحيَّات ، والأفاعِى ، والأصلالُ » ، هى أعوانها المنبثُّون فى كلِّ مكان ، على صُوَرٍ متعدِّدة ، وفى ثيابٍ مختلفات الأشكالِ والألوانِ . وهذه السوامُّ القاتلة ، هى « دمنة » هذا الزمانِ ، ولكن ليس له « كليلةٌ » يردعُه وينهاهُ ويعظه .

* * *

ولكن ... ما هذه الجَهَامة ! وهل تجدُهُ حسنًا أن تقبل على الناسِ بهذه الأسارير المتقبِّضة ، وبهذا الجدِّ الصُّلْب ، وبهذه الشّراسةِ الصَّارمة ؟ هكذا قالت لى نَفْسى . فأجبتها : وماذا أملِكُ ، إذا كان لَعِبُ الأطفال ، قد يُفْضِى إلى إضرام نارٍ تأكل الرَّطْب واليابس ، وإذا كنت قد رأيت بعينى أوّل لسانٍ منها قد همّ بأن يندلع ؟ أليس لزامًا علىَّ أن أقطعه قبل أَنْ يتشبَّث بشىء فيشتعل ، فيحتدم ، فيستطير فيه اللَّهَبُ يمينًا وشمالاً ، ثم لا يبقى شىءٌ إلا قضَمَتْ فيه قَضمَةً فتسعَّرتْ ؟ فأجابتنى نفسى :

حِلاً ، يا أبا فِهْرٍ ! (أى تحلَّل من قولك ، ولا تشدِّد) ، فإنّ الأمرَ لأهون على الله مما تصفُ ! فإنّك لا تخاطب نُوَّمًا ولا غافلين ، وعسى أن يكونَ فى الناس من يجدُ ما تجدُ ، ويعرفُ أكثر مما تعرفُ ! قلت : نعم ، صدقتِ ، ومن ظنَّ فى نفسه الظُّنُونَ ، أوردَه الظنُّ المهالك ، وقبيحٌ بالمرءِ أن يرى نَفْسه العاقلَ ، ويرى الناسَ تبعًا له وعالةً عليه . قالت : وإذنْ ! قلت : وإذنْ .

وإذَنْ ، فلنتخفّف ببعض الباطِل ، ليكون ذلك معوانًا لنَا على طلب الحق ، وببعض الهزل ، ليكون أسرَع بنا فى طريق الجدّ . كان عجيبًا عندى أن تتخذ صحيفة الأهرام لنفسها « مبشّرًا ثقافيًا » ، (وهو صبىٌّ مبشر على الحقيقة ، ولا أدرى كيفَ أخرجتْه الصحيفة من زُمْرة الصبيان ، إلى زُمْرة المعلّمين !!) ، ووجْهُ العجب ، أن هذه الصحيفة التى أوجدتها « هيئة التبشير العالمى » ، (ولا تخطئ ، فالتبشير والاستعمار أخوان لأب وأمٍّ كما قلنا مرارًا) ، كان منشئها هو « بشارة تقلا » ، الذى أقسم لعرابى بشرفه ودينه (!!) أنه واحدٌ من الوطنيين المخلصين ، وأنه يعمل لحرية بلادنا ، فلما قبض على عرابى ، دخل عليه وتوقَّح عليه أشد التوقّح ثم بصق فى وجهه شامتًا . فقال عرابى ، الرجل المهذَّب ذو الدين والعقل ، فى مذكراته : « فرأيت أن الرجل خائنٌ ، ولا شرف له » ولم يزد . ومع ذلك ، فقد استمرَّت صحيفة الأهرام منذ بشارة تقلا تعملُ ، ولكنها لم تجرؤ أن تتخذ « مبشرًا ثقافيًا » مستعلنًا بجميع حماقاته .

ولكن ما كاد الشعبُ يضَعُ يده على أخطَر أدواتِ « الإعلام » ، وهى الصحافة ، حتى رأينَا صحيفة الأهرام قد اتَّخذت هذا الصبىَّ المفلت من الأسوار « مبشرًا

ثقافيًا » ، يعلنُ جميعَ حماقاته ، على الناس ، بلا حَياء . كيف كانَ هذا ؟ قلت : مرارًا إننى لا أدرى كيف كان ذلك ، وعِلْمُ ذلك عند من استخدمه ، وحَماهُ ، وصبَر عليه ، مع شَناعة ما بدا من جهله وسُخْفه وسوء أدبه . ولكن هل خُلِقنا إلاّ لنَعجَب ؟ ومن فقد القدرة على العجب هَلَك . وقد قالت الحكماء : « أعجبُ من العجب ، تركُ التعجُّب من العَجَب » . وقيل لشيخ هِمٍّ (بكسر الهاء ، وهو الشيخ الكبير البالى) : أىَّ شىء تشتهى ؟ فقال : أَسمعُ بالأعاجيب ! وصدق ، فما خير الحياة إذا بقى الإنسان فيها ، لا يجد شيئًا يحرِّكهُ ، ويستخرج منه البكاء أو الضحك . ورحم الله الشاعر الفارس علىّ بن الغَدِير الغَنَوِىّ ، حين أبان عن هذا المعنى أحسن إبانة فى قوله :

وَهُلْكُ الفتَى أنْ لاَ يَرَاحَ إلى النَّدَى ... وَأنْ لاَ يَرَى شَيْئًا عَجِيبًا فَيَعْجَبَا

وقد كشفتُ فى مقالاتى عن عجب لا ينقضى يأتينا به هذا الطليقُ من القيود ، فيظهر ، والله أعلم ، أن مؤسسة الأهرام أرادتْ أن يبقى لنا فى حياتناَ شىءٌ نتشبَّثُ به لنبقى ، فحرصتْ على أن لا يفارقها هذا الصبىُّ العاقل (هكذا جاءتْ صفته هنا ، وجرى بها القلَمُ ، والقَلَمُ سيّدٌ مُطاعٌ !) ، فكأنها نظرت إلينا بعين الرَّحمة والإشفاقِ ، وحُبًّا فى إطالة آجالنا على الأرض ! فإن كان ذلك كذلك ، فَليس لها عندنا إلاّ الشكر ، وأن نسأَلَ الله لها مضاعفة الأجر .

* * *

وإذا كانت مؤسسة الأهرام قد نظرت إلينا بعين الرحمة والإشفاق ، فاقتداءً بها ننظر نحن إلى قرائنا أيضًا بعين الرحمة والإشفاقِ ، ونأتيهم بالعجبِ الذى يحركُهم ، حتّى تطولَ آجالُهم . أليس هذا من العدل ، ومن حُسْن الخلق ، ومن عرفان الجميل ؟ وقد أسلفتُ البيانَ عن شىءٍ يتهمنى به بعض الناس ، ويصوغونه فى قضية لا أحبُّها ، لأنها باطلةٌ ، ولأنى لا أعمد إلى هذا الضرب الذى يلقونَ علىّ تُهَمَتَه . فبعضُهم يزعُمُ أنى قد تجنّبْتُ « الموضوعية » فيما أكتب ، وخرجتُ إلى سبِّ هذا الشىء المسمى « لويس عوض » ، ووقعت فى شتيمته ! وهذه قضيّة باطِلَة ، لأنى شرحتُ كُلَّ أمر منذ كتبتُ عن رسالة الغفران ، وعن العامية ، وعن التبشير ، شرحًا « موضوعيًّا » ،

واحتجت إلى أن أستخرجَ طبيعة هذا الشيء المسمَّى « لويس عوض » من نصّ كلامه ، من ظاهره وباطنه ، فكانَ لابُدَّ من وصفه بألفاظٍ ، فإذا كانت هذه الألفاظ نابيةً إذا وضعت فى غير مكانها ، فهى إذا وضعت فى مكانها عينُ الحقّ . لا يستطيع الطبيبُ ، والكاتب المحلل كالطبيب ، أنْ يشخّص مرض إنسان تتخالج أعضاؤه ، ويلتوى لسانُه ، ويلوحُ الزَّبَدُ أبيضَ عند منتهى شفتيه إذا هاجت مِرَّتُه ، وتتساقط الكلمات من فَمِه بلا رِباطٍ مفهومٍ ، فيقول مثلًا : « هذه أحداثٌ عارضةٌ للبدن » ، لأنه إذا قال ذلك ، لم يفهم سامعه شيئًا ذا بالٍ ، بل لعلّه قد غرَّر به . ولكن إذا قال : « هذا مجنونٌ ينبغى أن يقيَّد حتى يُشْفَى » ، فقد أفهم ، ودلَّ أهلَه على الواجب عليهم فى أمره ، ووقاهُم شرّ الغموضِ فى شأنه .

فأنا مثلًا قد قلت إنّ هذا الإنسانَ « شرلتان » ، وهذه إحدى صفاته الكثيرة ، وأوجدت الدليل على « شَرْلَتته » فى مواضع كثيرةٍ جدًّا ممَّا سلف . واستحسنتُ هذا اللفظ ، لا لأنى أحبُّ أن أدخِلَه فى العربية ، بل لأنّى وجدت حروفه ، ووجدت حركات حروفه ، لَهَا دلالةٌ على طبيعة كتابة هذا الإنسان ، ووافقت هذه الدلالة الظاهرة ، باطنَ معنى هذا اللفظ الأعجميّ ، فاستحسنته لذلك ، واستخرجتُ له فعلًا ومصدرًا ، ليكون خاصًّا به وحدَهُ دون سواهُ ، إلاّ أن يدخُلَ معه شبيهٌ به ، ممَّن دخلوا مدخله ، وعاهدوا « الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مدسمر ، فى خلوةٍ مشهودةٍ بين أشجار الدردار ، عند الشلال بكامبردج » ، كما جاء فى « بلوتولند ، وقصائد أخرى » !! وسواء أكانت الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج حقيقة ، أم كانت رمزًا لمكان شبيه به ! فإذا كانت الدلائل التى أسلفتُها لم تكن مقنعة بعدُ ، فسآتى بدليلٍ آخر على « الشرلتة » ، من آخر ما كتب ، فعسى أن لا يتَّهمنى بعد ذلك أحد بأنّى أرضى لنفسى أنْ أسبَّ هذا الإنسان ، مع أنى قد كرهتُ حملَ القلَم منذ أجريت مدادَه بخطّ اسمه على الورق ، ولا أقول هذا سخرية به ، بل تنزُّهًا من مقارفة الخُبُثِ والخَبائث .

فلننظر الآن كيف كان هذا المخلوق « شرلتانًا » . وقد سألنى كثير من الناس عن معنى « الشرلتان » عند الأعاجم ، ولم يقنعوا بمرادفاته التى ذكرتها مقابلة له فى

العربية ، كالدعيّ ، والدّجّال ، والمشعوذ ، إلى آخر هذه الصفات التى يمسكُ بعضها بثياب بعضٍ ، أو برقاب بعض إذا شئت . فأصل « الشرلتان » عند الأعاجم ، هو المشعوذ الذى يقف على لَقَم الطريق ، (واللَّقَم ، بفتح اللام والقاف ، وسط الطريق أو رأسه) ، يحسّنُ بضاعته لتنفُقَ عند الناس ، ويزيّن عُوَارها وفسادها بألفاظٍ مفخّمَةٍ محبَّرة ، تميل إليها أَسماعُ العامَّة ، وتأخذهم من غَفَلاتهم ، فيكونون أسرع استجابةً للفظه ، وتكون أيديهم أعجلَ إلى جُيُوبِهم ، فهو سارقُ أموالٍ باللفظِ المحبّر ! ثم استعمل « الشرلتان » ، لأخيه وشبيهه ، وهو الرجل الذى لا يزالُ يلوك ألفاظًا يتلقّطها من هُنَا ومن ثَمّ ، بلا عقل ، وبلا تمييز ، ثم يتَّخذ الدَّعوى العريضة وسيلةً للإِقناعِ ، ثم يلبسُ من التظاهُر لباسًا كالطَّبْل ، ظاهرُه ضخم وباطُنه أَجوف ، ثم يصنَعُ من هذه الأخلاطِ الثلاثة جُرْعة مسكرةً للعامة وأشباه العامّة ، ليقالَ إنه عالمٌ واسع العلم متبحّر ، وحاذقٌ لطيف الحذْقِ مترفِّق ، وبارعٌ تامُّ البراعة متفوّق ! فهو سارق عقولٍ باللّفظ المحبّر ! ولكنهما جميعًا لا يسرقان إلاّ السخيف العقل ، الذى لا ينظر ولا يتماسك .

* * *

فمن آخر « شرلتة » هذا الدعيّ المسكين ، أنه كتب فى صحيفة الأهرام ، ومسكينة أيضًا صحيفة الأهرام !! وذلك فى يوم الجمعة ٢ من المحرم سنة ١٣٨٥ (٢٨ مايو ١٩٦٥) ، كلمة عن زميلى غفر الله له ورحمه ، الدكتور محمد مندور ، وحشا ما كتب بمثل الذى وصفتُ فى بيان معنى « الشرلتان » ، إلاَّ أن « الشرلتان » ينبغى أن يكون فى الحقيقة خفيف الدم ، ليكون كلامُه إلى النفوس أسرعَ . وهذا « الشرلتان » ليس بخفيف الدم ، بل دمُه ثقيل جدًّا ، وإنما اكتسبَ دمُه هذا الثقل ، من ثقل دم « التبشير » ، الذى أفرغَ فيه ما أفرغَ من الخصال المُوبِقة ، عند « الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مدسمر ، فى الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار ، عند الشلال بكامبردج » . و « التبشير » ، قد صحَّ البيان آنفًا عن أنَّه أثقلُ شىء دمًا ، وأسخفُه عقْلًا ، وأغباهُ غباوةً . فمن هنا ابتُلِى المسكين بهذا البلاء .

فمن الألفاظ التى يتلقّطها ، ويتقمّمها ، ولا يعرف معانيها ، مع طُول تبجُّحه بأنّه

غارقٌ فى حضارة الغرب ، وبانقطاع وسائله من وسائل العرب ولغة العرب ، وأنه لولا الميلادُ لكانَ « ولدًا شرعيًّا » لليونان ، والرومان ، والقرون الوسطى ، والحضارة الحديثة !! من هذه الألفاظ لفظ « دكتوراه الدولة » . فجاء هذا المسكين ، بعد الدَّعوى والكذب وادِّعاء ما لم يكن بينه وبين مندور ، فقال : « وحين عرفتُ مندورًا فى باريس ، كان عضوًا فيما كنا نسميه يومئذ من باب الدعابة (ما أخف دمه !) : البعثة المنسيَّة ، وهى بعثة كان أوفدها أستاذنا طه حسين عام ١٩٣٠ من خريجى كلية الآداب ، ولم تعد إلى مصر إلا بعد تسع سنوات عام ١٩٣٩ ، بسبب ظروف الحرب ، وقبل أن تُتِم المهمةَ التى أوفدتْ من أجْلها . وكانت مدّة البعثات يومئذ أربع سنوات قابلة للمدِّ عند الضرورة (ما ألطف « عند الضرورة » وأرقّها من كلمة !) . ولم يشأ مندور أن يخطف العلم خَطْفًا ، (كبعضهم ! وكُلّ لبيب بالإشارة يفهم !) ، ويعود بعد أربع سنوات حاملًا دكتوراه الجامعة ، أو حتى دكتوراه الدَّولة ، فى الأدب العربىّ ، كما كان مقرَّرًا له أن يفعل » ، إلى آخر التلافيق ، (جمع « تلفيق » ، وهو جمع ابتدعته لهذه المناسبة الظريفة !) .

فهذا « الشرلتان » المسكين ، يظنُّ أن « دكتوراه الجامعة » فى فرنسا ، أعلَى وأعنف وأقسى من « دكتوراه الدولة » ! ما أشدَّ جرأةَ هذا « الشرلتان » الكذوب المحتال بالألفاظ على عقول العامة وأشباههم ممن احتفظ بطفولة عقله ، وإن كانَ بَدَنُه وعمرُه قد أَوْغَلا به فى حدود الرجولة المكتملة ، أو التى كانت خليقة أنْ تكون مكتملة ! إن هذا « الشرلتان » المتبجّح بذكر المناهج ، وبذكر الحضارة الأوربية ، والمدّعى ما ليس عنده منه شىءٌ ، من معرفة « أسرار الحضارة الأوربية » والتغلغُل فيها ، يتوهم أن « دكتوراه الدولة » فى فرنْسا أهونُ شىءٍ ، وأنّه ممكنٌ لكُلّ سخيف العَقْل أن ينالها نيلًا يسيرًا ، كما نالَ هو من مُسْتَقَرِّ التبشير فى « برنستون » تلك الورقة المخزية الفاضحة التى مكنته أن يسمّى فى مصر « دكتورًا » ! [1] ما أعجب هذا « الشرلتان » السخيف العقل ! إن « دكتوراه الدولة » فى فرنْسا ، قلَّ أن يقتدر على نيلها إلاّ كُلّ من استحكمت أدواتُه ، وبلغ مبلغًا يؤهّله أن يكون فى صَفْوة

---

(١) انظر ما سلف ص ٧٨ ، تعليق : ١ .

الصَّفْوة من الممتازين . وهذه « الدكتوراه » هى التى تؤهِّل حاملَها أن يَدْرُج فى مَدْرجة أساتذة الجامعات . أما « دكتوراه الجامعة » ، فلا تؤهل لشيء من هذا . وإذا ظنّ هذا المسكين ، وهو خليقٌ أن يظنَّ ذلك ، ويجعله حجّةً لمن يحيطُ به ممن لا يزالُ يحسنُ به الظنّ غفلةً وجهْلًا = إذا ظنّ هذا المسكين أنه ممكنٌ أن ينال امرؤ « دكتوراه الدولة » ، فى الأدب العربى ، من فرنْسا ، بأيسرَ ممَّا ينال « دكتوراه الجامعة » فى أى شيء آخر ، فقد ظنّ ما لا تحمد عقباهُ ، لأنه يخرجُه من عِدَاد ذوى العقول السليمة ، وإن كان قد خرجَ من حدودهم مئات المرَّات ، كما أسلفتُ بيانه فى مقالاتى بالبراهين القاطعة .

أفرأيت ، إذن ، أنى صادقٌ كل الصدق ، حين أستخرجُ من كلام هذا المخلوق صفةً تناسبُه ، فأقذفُها فى وجهه بلا مبالاةٍ ! وليس بى إرادةُ إهانته ، فإنه أشبه شيء بما قال الطِّرِمّاح فى هجاء بنى أسَد :

لو كانَ يخْفَى عَلَى الرَّحْمنِ خَافِيةٌ من خَلْقِه ، خَفِيَتْ عنه بنو أَسَدِ

وبالذى يقول فيه القائل الظريف :

قلتُ لَمَّا رَأيتُه فى قُصُورٍ مُشْرِفاتٍ وَنِعْمَةٍ لا تُعَابُ
رَبِّ ، ما أَبيْنَ التبايُنَ فيه ! مَنْزِلٌ عامرٌ وَعَقْلٌ خَرَابُ !

وأما الذى أريدُ ، فهو الفحْصُ عن حقيقة هذا « الشرلتان » الذى بقى خاملَ الذّكْر ، لا قيمة له عند أحدٍ من الناس ، حتى جاءت صحيفة الأهرام فانتشلته من حمأة الخمول والنَّكَارة ، وألزمت الناس قراءة اسمه ، وممارسة هَذَيانه ، أسبوعًا بعد أسبوعٍ ، مع ما فيه من القوادح المنكرة ، سوى هذه « الشرلتة » المفضوحة .

* * *

و « شرلتةٌ » أخرى ، فى نفس المقالة ! فإنَّ هذا « الشرلتان » المسكين ، ظنَّ نفسه كاتبًا ، فقدَّم فى صدر مقاله كلمة محفوفةً بالرموز ، فذكر « طروادة » ، و« أخيل » ، و « أجاكس » و « ميداس » و ادّعَى على مندور دَعْوَى ، هو ، على طول كذبه ودعواه ، الشاهدُ الفردُ عليها !! فهذا المسكين الذى يدَّعى العلم باليونان

والرومان والقرون الوسطى والقرون المتدلِّية فى العصر الحديث !! هذا المسكين شبّه مندورًا بأخيل ، مُحاصِرِ طروادة ، وشبَّه نَفْسه بأجاكس ، ، وزعم وما أكذبه !! أنهما « خرجَا معًا فى صباح الحياة إلى قصر الرّبة أثينا » ، و(وأنا أستغفر الله من ذكر هذه اللفظة الأخيرة ، وخطها بالقلم ! فإنّ الله قد عافانَا من عبادة الأوثانِ ، وخلعنا من أعناقنا ربقة العبودية لغير الله الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُوًا أحدٌ) .

وعلى سخف ما كتب هذا « الشرلتان » من الرموز ، ومع قلّة احتمالى لهذا السُّخْف اليونانىّ المُسْتَحْدَث الذى يلجأ إليه بعض المغرورين فى بلادنا ، ومع أنّى أكره لقلمى أن ينحطَّ من شرف عربيّته إلى خسائس اليونان وخَطْرفات أتباعهم وأبنَائهم الشرعيين وغير الشرعيين = فإنى قد استحسنت أنْ شَبَّه نفسه بأجاكس ، لأنّه طابق بهذا الرمز كثيرًا مما ذكرتُه من صفاته فيما سلف من مقالاتى ، ولكنه جاء بها رمزًا ، وجئت بها صريحةً وعلانيةً ، لأسباب ستعرفها . ولولا أنّ هذا « الشرلتان » بيِّنُ « الشرلتة » ، ولولا أنه مشعوذٌ باسم اليونان وأدب اليونان ممقوتُ الشعوذة ، ولولا أنّه قارئٌ فى آداب الفرنجة بنفس سُخْف العقل الذى يقرأ به آداب العرب ، من أبى العلاء ، إلى بدر شاكر السياب = لولا ذلك لتردَّد قبل أن يرمز إلى شخصه المهتزّ أشدَّ الاهتزاز بأجاكس .

كان « أجاكس » ، كما صوّرهُ هوميروس فى شعره ، مخلوقًا شديد البطش ، خارق القوّة ، متهوِّر الجرأة ، كأنه ثَوْرٌ هائج متَّخَذٌ للنزال فى حَلْبة من حَلَبات مصارعة الثيران . ومن كان له بعضُ البَصَر بشعر هوميروس ، علم علمًا يقينًا أنه شجاعٌ جرىء شديد البطش ، ولكن بلا عَقْل وبلا حكمةٍ . فإذا شئنا أن نفسِّر ما ألقى على لسان هذا الشرلتان فى تشبيه نفسه بأجاكس ، علمنا علمًا يقينًا أيضًا أنّه قد أصابَ التشبيه . وعلمتُ أنا علمًا يقينًا أيضًا أنى قد أصبتُ حين قلتُ فى صدر المقالة الثالثة ، أنّ هذا الشرلتان « يخرج على الناس كأنه بطلٌ باذخٌ عليه أُبَّهة الظافر الميمون الطائر ، ليراه الناسُ فى كلامه راكبًا حصانًا أشهب ، وعليه لأْمَةُ المحارب (أى سلاحه) ، على رأسه الخوذة ، وعلى بدنه من فوق رأسه إلى نصف ساقيه ، سابغة

زَغْفٌ (أى درع ضافية لينة) تتلألأ ، وفى يمناه قُنطارية (وهى الرمح الثقيل باليونانية) ، وفى قدميه زَرْبُولٌ (وهو الحذاء باليونانية أيضًا) ، وبيسراه الدِّرَفْس الأعظم (وهو الدرابو !! أى العلم) ، ثم يتبختر جيئة وذهابًا بالعُجُب والصَّلَف ، ولا يقنع حتى يرى نفسَهُ قد تولىّ إمارة اليونان ، والروم ، وما تولّد عنهما منذ القرون الوسطى إلى اليوم » . [ص : ٥٤] أليس هذا هو أجاكس نفسه ، فى صورة بطل صليبىّ !!

نَسِى هذا « الشرلتان » فى سماديره التى تنتابُه وهو فى أسر النَّشْوَةِ المذهلة ، أنّ أَجاكس اليونانى ، ليس إلاّ ثورًا باطشًا بلا عقل ، ولكن شجاعة أجاكس انقلبت عندَه تهوُّرًا مجرَّدًا ، وشدَّة بطشه ، صارت فيه حقدًا يتمدّدُ فى جوفه بأوزار ثلاثة عشر قرنًا . وقوّة « أجاكس » ، ليسَت له مِنْها إلا هذه « الشرلتَةَ » التى يستبى بها عقولَ الأطفال المركَّبة فى أبدان كبار السنّ ، حيث يُدْمِنُ حفظ المُفْردات والأسماء وبعض الصور ، فيستدخلُها فى أثناء كلامه للتهويش المجرّد ، وليلقيها على أسماعهم ليبهرَهُمْ ! وقد عوقب أجاكس بعد قرون طويلة جدًّا عقابًا شديدًا جدًّا ، على ما كَان من فجوره فى التوحُّش وسَفك الدماء ، فَمُسِخَت صورتُه فى سمادير هذا « الشرلتان » أجاكس القرن العشرين ! وإذا كان أجاكس قد حاصر طروادة القديمة ، فإنَّ مِسْخ أجاكس » (بكسر الميم وسكون السين) ، قد توهَّم أنه لا يزال يعيشُ فى عصر « ما قبل العقل » ، وتوهَّم أنه جاء فى جيوشٍ من أمثاله ليحاصر « طروادة » أخرى فى هذا القرن .

ومن السُّخْف أن نكشف عن حقيقة « طروادة » التى يعنيها ، ونقول إنه يعنى « ديار الإسلام » ، و « تاريخ الإسلام » و « أدب أهل الإسلام » . وإذا كانت « طروادة » الحديثة ، تفزَعُ من مثل هذه المُسُوخِ فيما يتوهم « أجاكس عوض » ، ونخشى أن يصيبها تحقيقُ ما قال ، حيث قال : « لابُدَّ أن تُدَمَّر ، ولابُدَّ أن تحرقَ كما احترقت طروادة فى القديم » ، فإنها لا تكون عندئذٍ إلا كما رَمز إليها ، فلا تكون عندئذ سوى قريةٍ خسيسةٍ فى بلاد اليونان لا أمَّةً صحيحة الكيانِ ، بريئةً من الدَّنس . وإذا كان مَن درّبه فى « الخلوة المشهودة تحت أشجار الدردار عند الشلاّل

بكامبردج » ، قد أَوحى إليه أنّ الذى كانَ بعد هزيمة « عرابى » وتآمُرِ العالم المسيحىِّ الأوربىّ عليه يومئذ ، كائنٌ مرةً أخرى فى عهدنا هذا ، وأن هذا « الأجاكسَ » ، المِسْخَ ، سوف يقف فى مؤتمر مبشّرين تحت سَقْف بيت أحدٍ من رجالنا ، كما وقف القسيس زويمر تحت سَقْف بيت « عرابى » ، ليقول هو يومئذ ما قال القسيس المبشِّر المختلّ العقل : « ربّما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عملٍ لنَا ، لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحىّ ، لتنصير الممالك الإسلامية » = إذا كان قد أوحى إليه مثل هذا فصدَّقَه ، ويقينى أنَّه مصدِّقٌ بما أوحى إليه ، فإنَّه يكون قد فَقَد كلَّ ذرَّةٍ من العقْلِ ، يكون بها معدودًا فى أبناء آدم عليه السلام .

* * *

أيُريد هذا المسكين أن أردّد على الناس بعض ما يقوله للشباب ، وقد أخذ صورةَ الواعظ البروتستانتىّ فى وقفته ، مُباعدًا بين رجليه ، عاقدًا يديه وراء ظهره ، وهو يظنُّ أنّه يخاطبُ الأجيال الصاعدة : إن اليمين قد تحرَّك ، ولابُدَّ لليَسار من وقفةٍ يدفع بها حركة اليمين ، ولو أدّى الأمر إلى حَمْل « السلاح » فى الطرقات !! [1] « والسلاح » بالطبع ، هو « الشُّوم » ، و « العِصِىّ » و « أغصانُ الأشجار » ، و « سيف أبى حَيَّة النميرىّ » الذى كان من خشب ، و « المعلّم يعقوب » ، أجاكس الغزوة الفرنسية فى عهد نابليون !! ما أسخف هذا الإنسان الذى رُفع عنه القلم ، أى الذى لا يحاسَبُ على ما يقول !

أيحبُّ هذا الخلقُ الشرلتانىُّ الذى يختفى وراءَ الرموز ، أن أفسّر للناس مَنْ الملك « ميداس » ، الذى أرسل من خزائنه ما يتراءى له من سمادير المخمورين ، فيرى « جيوشًا من الهوام ، وخَسيس الحشرات ، منها الخنافس ، والعقاربُ ، والحيات الصغيرة بحجم الكف ، والجعارين الذهبية » ؟ ومَنِ الملك « ميداس » الذى زعم أن مندورًا ناداه وهو فى فراش الموت وقال له : يا أخى ، البس دروعك ، وتأهّب لنخرج معًا فى غزوة جديدة عظيمة ، ولنطلب فى هذه المرة الملك ميداس نفسه ، ذا

(١) هذه الألفاظ تكاد تكون هى نفس ألفاظ لويس عوض ، قالها لبعض الشباب فى جلسة جمعتهم به فى إحدى المكتبات المعروفة .

الجعارين الذهبية الكثيرة » ؟ وهو بلا شكٍّ لا يعنينى ، كما فسر ذلك بعضُ من لا يعرف الأساطير اليونانية ، لأنى عنده من الأسراب التى أرسلتها طروادة الجديدة : « بعد أن نضَبَ منها الرجال » !! أمّا « ميداس » ، وسأبقى الرمزَ رمزًا كتبه ، [١] فهو الذى يُغْضى الطرفَ عن أمثاله ، ويدعُهم مرزوقين من قُوتِ الأمَّةِ ، ويصبرُ عليهم صبرًا جميلًا طويلًا ، وإن كنت أنا أرى أنّه قد أساءَ فى هذا الصَّبر ، لأن ضررهم يتعدّاهم إلى جماهير الناس . وكان خيرًا مذكورًا أن يحشد جموعهم ويودَعهم فى مثل ملاجئ الزَّمْنَى وذوى العاهات !! ولتبق أرزاقُهم كما هى موفورةً مكفولةً ، فإن الرزقَ حقٌّ للعبادِ ، أمَّا إتلافُ العقول والنفوسِ ، فمن تبعة المسئول عن الرعيّة أنْ يجنّبها شرورَ ذلك وغوائله .

ومع ذلك ، فإن « أجاكس عوض » ، قد فسّر ، ما يعنى بطروادة : « مدينة الموت ، ذات الأبراج السوداء ، والأسوار العالية » فقال : « هذه المدينة السوداء ذات الأبراج الكئيبة ، والأسوار العالية ، هى الرجعية ، يا صحابى » ، (ما أثقله كاتبًا وناطقًا !) . ثم أعاد بيان ما هى « الرجعية » فقال : « هى رجعيّة الفكر ، ورجعية السّياسة ، ورجعية المال ، ورجعية النظم الاجتماعية » !! هكذا قال ! أو يظنُّ هذا الخفيفُ الظِلّ أن لو كان الأمر كذلك ، وأنه كان صادقًا فى تفسيره المبهم للرجعية ، كان عندئذ محتاجًا لكُلّ هذه الرموز السخيفة التى جلبَ بها لنا الغثيانَ فى صدر كلامه ؟ إن « الرمز » لا يؤتَى به لمثل هذه الكلمات القلائل ، السخيفة المعانى ، وإنّما يؤتى به ليحيط بصورٍ متعدّدة متداخلةٍ ، يكون « الرمز » كالمفجّرِ لَها ، ليدَع النفوسَ تستوعب أكبر قدرٍ ممكنٍ من الانفعالِ ، يحدث لها أكبرَ قدر ممكن من المعانى . وإذا كان هذا « المثقف » بثقافة « الخلوة المشهودة تحت أشجار الدردار عند الشلاّل بكامبردج » ، لا يعلم هذا ، فَليت شعرى ماذا يعلم عن « الرمز » ؟

لا حلَّ لهذا المشكلة « الأجاكسية » الجديدة ، إلاّ بالرجوع إلى معنى « الشرلتان » كما بيّنتُه ، مخلوطًا هذا المعنى بعصارة « التبشير » ، و « الاستعمار » كما أسلفت البيان عنهما . وحسبُك أن تعلم أنَّ هذا الدعىّ المتكذّبَ على الموتى ،

---

(١) لا ، بل عنى بالملك ميداس رئيس الجمهورية العربية المتحدة يومئذ فى سنة ١٩٦٥ .

المحتال ، لم يكن فكّر قطُّ حين لقى مندورًا ، كما زعم ، بفرنسا (سنة ١٩٣٨ ، ١٩٣٩) ، إلاّ فى التعبُّد باليونان وغير اليونان كما ذكر ذلك فى مقالة ، ولم يخطر بباله قطُّ أن بلادنا يومئذٍ كانت تمرُّ بأقسى المحنِ التى تمرُّ ببلادٍ ! ولكن من يستطيع أن يزعُم أن هذا الإنسان قادرٌ على أن يشعر بشىء ، إذا كان هو باعترافه فى « بلوتولند وقصائد أخرى » ، ظلّ ما بين العشرين ، إلى الثانية والثلاثين « لم يقرأ حرفًا واحدًا بالعربية ، إلاّ عناوين الأخبار فى الصحف السيارة ، وبعض المقالات الشاردة ، ألزمته الضرورة السياسية بقراءتها » ، ومعنى ذلك أنه لم يكن يعرف شيئًا عن بلاده وما يجرى فيها من سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٤٧ ، حين وضع الحبلَ فى عنقه شيخُه البائس المسكين التالف « سلامة موسى » ، وجرّه إلى المجلة اليهودية التى كانت تصدرُ فى مصر باسم « الكاتب المصرى » ، كما بينتُ ذلك فى المقالة السادسة : [**فائدة** : ولد هذا المسمَّى لويس عوض ، أجاكس ، فى قرية شارونة ، بمديرية المنيا ، فى ٥ يناير سنة ١٩١٥ . وقضى سنوات طفولته فى الخرطوم ، حيث كان أبوه موظَّفًا بحكومة السودان . فاحرص على هذه النكتة اللطيفة ، فإنها مفيدة إذا أنتَ أحسنتَ استعمالها !!] .

فإذا كان ذلك ، كما حدّث هو عن نفسه ، صحيحًا ، وهو صحيحٌ بلا ريب ، فحدِّثنى ما الذى كانَ مِنْه بعد عودته من تحت أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج فى سنة ١٩٤٠ ، إلى سنة ١٩٤٧ ؟ وأى شىء كان يُرْجَى من مثقّفٍ (!! هكذا والله) ، ظَلَّ لا يقرأ حرفًا واحدًا بلغة بلاده سبعَ سنواتٍ هى أيضًا من أقسى السنوات فى تاريخنا . وإذا كان فتًى فى العشرين من عمره (سنة ١٩٣٥) ، قد انقطع عن متابعة الأحداث الكبرى فى بلاده إلى سنة ١٩٤٧ ، فبأىِّ شىء يستحلُّ هذا الفتى فى سنة ١٩٦٥ ، أن يجىء يتكذّب ، (بعد ما وقف يتنبأ على تلال أورشليم ، وهو يكتب عن أبى العلاء ودراسته على الرهبان !!) ، [1] فيزعم أنه خرج هو ومندور : « فى صباح الحياة إلى قصر الربة أثينا ، صانعة الدروع ، لتصنع لنا دروع الفكر ، وتملأ جِعابنا بسهام الحرية . وفى صباح الحياة عدنا معًا لنحاصر طروادة ، مدينة

---

(١) انظر ما سلف ص : ٢٥ .

الموت ، ذات الأبراج السوداء ، والأبراج العالية » ويزعم أنه خاض ألف معركة ومعركة ، وأنه نازل الأبطال ، وصارع الأهوال ، فلم يلن له عزمٌ ، ولم تنكسر له إرادةٌ ، وحتى فى الأيام الخاسرة ، خرج بشريف الندوب !! أو كما كذب ، (أعنى : أو كما قال !!) .

أية معارك خاضها « أجاكس عوض » هو ومندور ، منذ سنة ١٩٤٠ حين عاد ، إلى سنة ١٩٤٧ ؟ وأى شىء قرأ لمندور منذ سنة ١٩٤٠ ، إلى سنة ١٩٤٧ ، إذا كان هو قد شهد على نفسه أنّه لم يقرأ فى تلك السنوات « حرفًا واحدًا بالعربية » ؟ أم ترى كان مندور يكتب باليونانية ونحن لا ندرى ! فإذا صحّ أن مندورًا كان يكتب فى تلك السنوات باليونانية أو الرومية أو اللاتينية فقد صدق !! وعسى ولعل ! ولكن هذا شىء لم نُحِطْ به علمًا ، فهو عندنا كاذبٌ حتى يأتى بالدليل الذى يصدِّقه ! والكذبُ ، كما يقول العامة : ليسَتْ له أرجُل ! فهذا الكذب الكسيحُ الذى يزحف فى أعمدة صحيفة الأهرام ، ويؤجر « أجاكس عوض » على كتابته ، ويتولّى حياطته من وُكِل إليه أمر الإشراف على هذه الصحيفة ، شىءٌ غَثٌّ جدًّا ، وباردٌ جدًّا ، لو تلاهُ تالٍ على مريضٍ قد أُعِدّ لإجراء جراحة ، لأغناهُ عن « البنج » ولقامَ هذا « التثليجُ » مقامَ « البنج » خير قيامٍ ! وإذنْ ، فتكاذيبُ هذا « الشرلتان » المتقمّص فى تجاليد « أجاكس » نافعةٌ نفعًا مَا ، وعَسَى أن يتدارسَها بعضُ الأطباء ، فإن صحَّ العمل بها ، كان فتحًا مبينًا فى عالم الطب ، وكان مِصْداقًا لزَعْمِ من زعم أن بعض الألفاظ لها خواصُّ المادة ، ولكنى أحتفظ لنفسى بفضل السبق إلى افتراض هذا الفرض ، فإذا صحَّ أن كلامه مخدِّر شديد المفعول ، جيد التأثير ، نافع للجراحات ، فأرجو أن يجعل لى « مِيداس » نصيبًا من الذهب الذى يدرّه هذا الاكتشاف الجديد فى عالم الطب !! وأنا مستعدٌّ كل الاستعداد ، لأن أقدّم بعض بدنى لطبيبٍ جرَّاحٍ ، لينفذ فيه مبضعَه ، وأنا أسمَع هذا البَرْدَ المتساقِط على نَفْسِى من كلمات « أجاكس عوض » ، وأرجو أن لا أقول : « حَسْ » ، ولا « بَسْ » ، حتى تتم الجراحةُ بالنجاحِ المرموق إن شاء الله !!

* * *

ما الذى يحمل المرءَ على الكذب والتنفُّخ والإدِّعاءِ ؟ أهو فطرةٌ يُفْطَر عليها الكذَّاب ؟ أم هى نقيصةٌ يجدها المرء فيريدُ أن يَسْترها بالألفاظ التى تحتالُ على القارئ أو السامع ؟ أم هى حِكةٌ فى اللسان كالجرَب ، لا يَشْفِى منها إلاّ « هَرْش » اللسان بكلمات يُدَهْوِرها عليه ؟ أم هى لا هذا ، ولا ذاك ، ولا تلك ، بل هى سَوْرَةٌ كسورة الخمر ، تأخذُ شاربَها حتى ينتشى ، فإذا انتشى عاودَ ، فإذا عاود ضَرِىَ عليها ، فإذا ضَرِىَ عليها صار مُدْمِنًا لا يُفيقُ من نشوة الكذب ، والتنفخ ، والإدعاء ، حتى تتبيّن العربدةُ فى الكلماتِ فى حالتى الصحو والسُّكر ، بلا فرقٍ بين الخُمَار والإفاقة ؟ وأىّ ذلك كان ، فالكذب خليقة مرذولة ، وخَصْلةٌ مستهجنةٌ ، وخبيثة من الخبائث تحتاجُ إلى « أجاكسٍ » غير ممسوخٍ ، حتَّى يدمّرَها ويحرقها كما احترقت طروادة فى القديم !!

وأرانى أخذتنى العدوى ، فلجأتُ إلى الرُّموز ، مع أنّى أرى اللجوءَ إلى « الرمز » ، ضربًا من الجُبْنِ اللغوىّ !! فاللغة إذا اتّسمت بِسِمَةِ الجُبْنِ ، كثر فيها « الرمز » وقلَّ فيها الإقدامُ على التعبير الصحيح الواضح المفُصْح . ولا تَقُل إن « الكناية » شبيهة بالرمز ، فهذا باطِلٌ من قِبَل الدراسة الصحيحة لطبيعة « الرمز » وطبيعة « الكناية » و « المجاز » . وأنا أستنكفُ من « الرمز » فى العربية ، لأنّ للعربية شَجاعة صادقةً فى تعبيرها ، وفى اشتقاقها ، وفى تكوين أحرُفها ، ليست للغة أخرى . وإذا كانت اللغة هى خِزانة الفكر الإنسانىّ ، فإن خزائن العربية قد ادَّخرتْ من نفيسِ البيانِ الصحيح عن الفكر الإنسانى وعن النفوس الإنسانية ، ما يُعْجِز سائر اللغاتِ ، لأنها صُفِّيت منذ الجاهلية الأولى المُعْرِقة فى القدم ، من نفوسٍ مختارةٍ بريئة من الخسائس المزرية ، ومن العِلَل الغالبة ، حتى إذا جاء إسماعيل نبى الله ، بن إبراهيم خليل الرحمن ، أخذها وزادَها نَصاعة وبَراعة وكرمًا ، وأسلمها إلى أبنائه من العربِ ، وهو على الحنيفيّة السَّمْحة دين أبيهم إبراهيم ، فظلَّتْ تتحدَّرُ على ألسنتهم مختارة مصفَّاةً مبرَّأَة ، حتى أظَلَّ زمانُ نبىٍّ لا ينطقُ عن الهوى ، ﷺ ، فأنزل الله بها كتابه بلسان عربىّ مبينٍ ، بلا رَمزٍ مبنىّ على الخرافات والأوهام ، ولا ادّعاء لما لم يكن ، ولا نِسْبة كذبٍ إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

فمن أجل ذلك كرهتُ الرموز ، ورأيتُها قدحًا فى العربية ، وتشويهًا يلحقها ،

كما أبنتُ عن ذلك بعض البيان فى المقالة التاسعة ، بحَمْد الله وشكره ! ليس « الرمزُ » فى الحقيقة إلا ضربًا من الجُبنِ كما قلتُ ، ومن شاء أن يرى ذلك واضحًا مكشوفًا رآه فى « رموز » « أجاكس عوض » التى افتتح بها مقاله ، فإنّه لو كان كما زعم « أجاكسًا » حقيقًا باسمه ، لصرَّح ولم يَدُرْ فى « رموزه » الغثّة ، مع جهله بحقيقة هذه « الرموز » ، كالذى أوضحتُه من سقم تصوّره لصورة « أجاكس » ، كما جاءت فى أساطير يونانه القدماء !

فالحمد لله الذى برَّأنا من « الرموز » ، كما برَّأنا من الشرك به ، وباعد بيننا وبين « أساطير اليونان » ، كما باعد بيننا وبين اتخاذ الأنداد ، ونزَّهنا عن الكذب ، كما نَزَّهنا عن الخضوعِ لغيره سبحانه ، وجنّبنا الجُبنَ ، كما جنَّبنا التعبُّد لطاغوتٍ من طواغيت الإنس والجنّ ، فالحمد لله حمدًا لا يبلغُ الكَلِمُ مَداه ، ولا يُدْرِك اللفظُ غاياتِه .

وأمَّا بعدُ ، فقد كنت أُوشِكُ ، حين حملتُ القلم ، أن أقرِنَ « أجاكس عوض » مع أشباهٍ لَهُ من ذوى الضغائن الشديدة ، ممن اتخذ الليل ستارًا لينفثَ سُمُومه فى الناس عن طريق الصحافة ، لا فى صحيفة الأهرام وحدها ، بل فى كثير من الصحف ، ثم أدلّ على أن هذا كُله تابعٌ لحركة « التبشير » التى اشتَدَّ نشاطها واستفحل فى هذه الأيّام ، وأن هذا « النشاط » ، مقرونٌ بأمورٍ سياسية شديدة الخطر ، تتهدّد العالم العربىّ والإسلامى [١] ، ولكنها تأتى متسترة تحت ضروب من الزّيف ، تسمى أحيانًا مقاومة « الرجعية » ، وتسمى تارة أخرى « تقدمًا » ، ويأخُذُ الكذبُ مَدْرجَهُ إلى غاياته . وسأكون إن شاء الله صريحًا ، لا أرمزُ ، وأطرحُ « الرموز » لمن يتقمّمها من « آكلى الرموز » ، مثل البطل الصنديد « أجاكس عوض » ، فهم أهلُها ، وهم أولَى بها منّا ، بلا مَنٍّ عليهم فى الذى نطرحُه لَهُم من « رموز » نَعافُها .

---

(١) لم يمض على هذا التحذير كثير ، حتى كانت نكبة ٥ يونية ١٩٦٧ ، ومع ذلك فأنا أعيد القول ، بأننا نعيش فى غفلة مطبقة على غفلة !! ، وانظر ما سيأتى ص : ٣٥١ ، ثم ص : ٣٨٢ ، تعليق رقم : ١ .



تَتِمَّةُ الفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دُمَنَةَ

الرسالة

الخميس : ١٠ من صفر سنة ١٣٨٥



٢٠

مِنْ أشدّ الغفْلة أن نعيش هذه الأيامَ المظلمةَ بأعيُنٍ مفتوحةٍ وقلوبٍ مغلقةٍ . فالقلبُ إذا أُغلقت الأبوابُ على بَصيرته ، فلم يَعُدْ له نورٌ ينبثُّ وينفذُ إلى أعماقِ الحوادث العظام التى تُحِيط به من كُلّ جانبٍ ، كانت العينُ بعد ذلك أداةً مجرَّدةً من الإحساسِ ، مكفوفة عن النَّفاذِ واللَّمْح ، لا تكادُ تدركُ مما تري وتبصِرُ سوى الظَّواهر الخدَّاعة . وعندئذٍ يصبحُ الزمانُ حُطامًا من الساعاتِ والأيّامِ ، وركامًا من الشهور والأعوام ، وتصبح الأشياءُ كُلها صفًّا واحدًا ، ونَمَطًا متشابهًا ، قد خَلا من الروابط ، وعُرًى من الأسبابِ . وإذا بلغَ الأمرُ بنا هذا المبلغ ، فقد يكون من أكبر الجهل أن يُسمَّى هذا « غفلةً » ، إنما هو ضربٌ من الموتِ يصيبُ الحيَّ ، وينقُلُه إلى لَحْدٍ مُظْلِم لا تراهُ العيونُ ، وهو بعدُ مُقيم على ظَهْرِ الأرضِ يَسْعَى أو يتحرَّك أو يتكلَّم .

مَنْ هذا الذى طَمَس الله على بَصِيرته ، فعاشَ هذه الأَيّام ، وهو لا يَرَى الدُّنْيَا من حوله بحرًا رجَّافًا يموجُ بأحداثٍ متلاطمةٍ ، تضربُ شواطئ بلاد العرب وبلاد المسلمين بأمثالِ الجبالِ من لُجَجِه ؟ ومَنْ هذا الأَعمَى المكفوفُ عن رُؤْية النار المتضرّمة ، وهى تحتدمُ ، ومن حولِها شِرار الكهنة ينفخُون فى كِيرٍ لا يَهْدأ ، (والكِيرُ ، منْفاخ الحدَّاد) ، ليُؤَرِّثوا شَعَاليلها حتى تتوهَّج ؟ ومَن هذا الثّرثارُ الذى أحاطَ به الحريق والغَرَقُ ، وهو لا يجد ما يقولُه إلا مَا يتَقَاذفه لسانُه من ألفاظٍ مَسْلُوبةِ العقل ، تائهةٍ فى بيداءِ الخَبَلِ ، وهو يظنُّ أنَّه مبينٌ عن نفسِه أحسن الإبانة ؟ مَنْ هؤلاءِ؟ وبأىّ عيونٍ وقلوبٍ يعقلون أو يبصرون ! [١] .

إذا كان هؤلاء قد صاروا ، فما قدَّر الله من قَدَره ، هُمُ الذين يتولَّونَ اليومَ قيادة

---

(١) كتبت هذا كله ، كما أشرت إليه ص : ٣٤٧ ، تعليق : ١ ، فى يونيه ١٩٦٥ ، وكان الإعداد للنكبة يجرى على قدم وساق حتى وقع ما وقع فى ٥ يونية ١٩٦٧ .

جَماهير الناس بسُلطانِ الكلمة المكتوبة أو الكلمة المسموعة ، فقد صارَ واجبًا على مَن لم يطمس الله على بصيرته ، وعلى من لم يقذِف الله فى عينيه بالعَمَى ، وعلى من لم يسلب الله لسانَه العقلَ ليبتليه بالثرثرة ، أنْ يفضَّ عن نَفْسه أغلالَ الصمت ، لكى يتكلَّم ويكتبَ ويُبينَ ، مَا وجَد إلى ذلك سبيلًا . وقد رأيتُ ذلك واجبًا علىَّ ، لأنى عشتُ أكثر من أربعين سنة ، وأنا أجاهِدُ هذه الحياة التى أحاطتْ بى منذ ولدتُ ، وأَبَيْتُ أن أقبلها على عِلاّتِها ، لأنى منذ بدأت أعقِلُ ما أنا فيه ، رَأيتُنِى أنشأُ فى قَطيع يُساقُ إلى المجزرة وهو فرحٌ بها نشوانُ ! رأيتُ مجتمعًا يتمزّقُ وهو ينشقُّ عن كُلِّ تاريخه الماضِى ، بخَطاطيف قد عَلِقت بلحمه ، تجذبُه من هنا وهنا وهناك ، لا تكادُ تدركها الأبصارُ ، ولكنها على ذلك خطاطيفُ ، كنت أَجِدُ مَغْرِزهَا فى لحمى ، وأحسُّ جَذْبَهَا فى وجدانى ، ويومئذٍ فزعتُ ! فزعتُ فَزَعًا لا يطيقُ القَلَم أن يصوِّرَهُ فى أسطُرٍ .

رأيتُ يومئذٍ « دَنْلُوب » ، المبشّر الخبيث الذى تولّى قبل مولدى « وزارة المعارف » ، فوضع لأمتى تخطيطًا كاملًا يهدمُ كيانَها ، ويُذِيب وجُودها ، ويتركُها رِمَّة تتحرك فى ثياب زَاهيةٍ من الغرور والسُّخْفِ . رأيت يومئذ هذا الشيطان الماكر ممثَّلًا فى كُلِّ علم تعلمته ، وفى الأسلوب الذى فُرِضَ علىّ أن أتعلّم به هذا العِلْم ، وفى الهَدَفِ الذى يرمى إليه بإنشَاء جيلٍ من « المثقفين » لا يملكون شيئًا سوَى الغرور بأنهم « مثقّفون » ، فى أمَّةٍ من « الغوغاء » ، يخيَّل إليهم أنهم هُم أصحابُ الحقّ فى التعبير عنها ، وهُمْ أصحاب الحقِّ فى تعليمها وهم أصحابُ الحقّ فى قيادتها والتحكّم فى مصيرِها . فما رآهُ جيل « دنلوب » صوابًا فهو الصوابُ لا غير ، وما رآهُ حقًّا فهو الحقُّ لا غيرَ ، وما رآهُ خطأ فهو الخطأ الذى ينبغى أنْ يصحَّح ، وما رآهُ باطلًا فهو الباطلُ الذى ينبغى أن يزولَ !

ويوم بدأتُ أعقِلُ ، كانَ « جيل دنلوب » ، قد انتشر واستوَى على سوقِه ، وتولّى هذا الجيل تعليمَنَا ، وصارَ له رأىٌ ظاهِرٌ فى سياسة بلادنا ، وانفجر الأمرُ انفجارًا بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، ووقع النزاعُ بين الفطرة السليمة التى تستكنُّ فى قلوب الشعوب ، وبين « الثقافة » المُجْتَلَبَةِ التى تضرب على الأعين غِشَاوة ، وعلى القلوب سَدًّا صَفِيقًا

من الجَهْل والغطرسة . بيد أن هذا الصّراعَ كان مفهومًا على غير وَجْهه يومئذٍ ، لأن مَهارة المستعمرِ ، ودسائسه الخفية ، ومكرَهُ البعيد الغَوْر ، جَعَل ظاهِرَ الأمرِ صراعًا سياسيًّا محضًا ، أى صراعًا بين أحزابٍ تريدُ أن تتولّى الحُكْم ، تحت سلطان هذا المستعمِر ، مَعَ أن هذا الصراع فى الحقيقة كان صِرَاعًا بين حضارتين ، طال بينهما الصراعُ دهورًا طوالًا : كان صراعًا بين أرض العرب والإسلام ، وبين أوربة المسيحية التى صارت لها الغلبةُ فى الأرضِ . كان صراعًا بين العرب ودينهم وآدابهم وثقافتهم وبين أعاجم أوربة ودينهم وثقافتهم .

وكان عملُ « دنلوب » ومدارسه ، وما يمثّله من قوى التبشير والاستعمار ، هو أن يحوز إلى صفّه ، عن طريق « الثقافة » ، أعوانًا من أهلى وعشيرتى وأبناء أبِى وأمِّى ، ليتكلّموا بلسانه ، ويحاربُوا بالكلمة أهلَهُمْ وعشيرتَهم وأبناءَ أمهاتهم وآبائهم . كان عمل « دنلوب » ومدارسهُ ، أن يشقّ الأمَّة بشقّين : شِقٍّ يدورُ فى فَلَك ثقافته ، كما يريدُ لنا أن نَفهم ثقافته ، ويُعْطَى هذا الشقّ كل أسبابِ بقائه من احترام وتقديرٍ وغِنًى وسلطانٍ وبهرَج يفتن العيون = وشِقٍّ متحيّر فى « ثقافته » ، يتشكك فيها يومًا بعد يوم ، وتُلْقَى على هذا الشّقِّ تبعة كلِّ « تخلُّف » و « جهل » ، و « ضياع » و « بؤسٍ » ، مؤيّدًا ذلك بسدّ كلّ الأبواب الداعية إلى بقائه فَيُسْلَبُ كُلّ احترام وتقدير وغنًى وسلطان ، حتّى يتمكّن الشقُّ الأوَّل من قَذْفه كُلّ يوم بما يُتاحُ لَهُ من سِهامٍ تَزيدُهُ جروحًا تنزفُ ، حتَّى يتهالكَ صريعًا مُثْخنًا ، قد أثقلته الجراح فلا يطيقُ أن يتحرَّك ، ثم لا يملِكُ بعد ذلك إلاَّ أنْ يستسلم ، ويتركَ الزِّمام للشق الأوّل .

* * *

من هذه العجالة الخاطفة التى أكتُبها بغير تفصيل ، والتى بينت فى مقالاتى السالفة بعضَ ملامحها الظاهرة فى تاريخنا الحديث ، كالدعوة إلى العامية ، وتحقير تُراثِ العرب ، ومحاولة بثّ الرموز اليونانية والمسيحية فى آدابنا ، والإيغال الماكر فى الطعن على ماضينا كُله : رجالِهِ وتاريخهِ ومعتقداته وشرائعه = من هذه العُجالة الخاطفة ، أستطيع أنْ أقول للقارئ إنى حين بدأتُ أكتبُ ، لم يكنْ من هَمّى أن أناقش « أجاكس عوض » فى القُمَامة التى جمعها من « كتاب جروسيه الشهير فى

تاريخ الحروب الصليبية ، وكتاب ستيفن رنسمان الشهير فى تاريخ الحروب الصليبية، وكتاب الأستاذ داونى فى تاريخ أنطاكية ، وكتاب بيزنطة للأستاذ ليفتشينكو » !! ومما كذبَ فيه من ذكر « المصادر العربية المعتمدة ، التى أرّخت للمعرِّىّ وعصره » ، كما قال فى صدر المقالة الرابعة ممّا سماه « على هامش الغفران » . إنّ « أجاكس عوض » ليس شيئًا يناقش ! هكذا قلتُ لإخوانى الذين طافوا بى يومئذٍ ، يحثُّوننى على الخروج من مُعْتَزَلِى ، وعلى حمل القلَم بعد طول هجرانه . قلتُ لهم : « إنى لا أرى عاقِلًا يؤخذ من قوله ويردُّ عليه ، إنه شرلتانٌ يضحكنى ، لا مفكر يحرِّكنى » . [ص : ١١] . قلت ذلك بخبرتى له منذ وقعت عينى على « كوميدياهُ » المضْحكة ، التى سماها « بلوتولند ، وقصائد أخرى » ، من تأليفه ، والتى كنت أراهاَ مثلًا طريفًا جدًّا « للخبَل فى حالة تأليف » !! أى أنه خَبَلٌ يؤلّف ، ويترجم لنفسه ، ويكتب نثرًا ، وينتقد الشعر ، ويقول شعرًا أيضًا !! وقُمتُ من مكانى أبحث لَهُمْ عن هذه العجيبة التى هى « بلوتولند ، وقصائد أخرى » ليعاينوها ، فليس الخبر كالعِيان ، كما قيل فى المثل .

فلما لم أجدهُ ، قرأتُ مقالته الرابعة كُلَّها . وكنت اقتصرتُ على قراءة الجهل المكتوب بالخطّ النسخ فى رأسها ، والذى فيه ما مللنا ترديده من العبث ، حين أبدَل « الصِّلِّيَان » ، وهو النبت المعروف ، بالصُّلْبان ، وهى جمع « صليب » فى شعر أبى العلاء . فإذا بى أَرى ، لا إنسانًا أخذ الخبَل أعضاءَه كُلَّها ، بل إنسانًا أعضاؤه نفسُها قد صِيغت من الخبل ، وإذا بى أَرى سماديرَهُ ، (وهو ما يتراءى للمخمور) ، قد أوهَمتْهُ أنه فارسٌ صليبىٌّ قد جاء بعدَ قرونٍ طوال ، ليقول للذين رَدُّوا الصليبيين على أعقابهم : ها أنذا ! لا تظنُّوا أنّكُمْ هزمتم الصليبيين يومًا ما ، أَيها الحمقى ، فإنكُمْ فى عنفوان مجدكم كنتم تحت أقدامِى ، فإن « الباسيل فوكاس » : أصدر بيانًا ملتهبًا وجّهه إلى خليفة بغداد ، شرح فيه برنامجه العسكرى الصليبىّ كاملًا ، وهدّد فيه بأخذ دمشق ، وهى مسكن أسلافى ، والاستيلاء على نصيبين ، والموصل ، وحرّان ، والجزيرة ، وبلاد الديلم ، وعلى مصر ، التى سآخذ خيراتها أسلابًا لى ، والويل لكم يا سكان الصحراء ، عودوا إلى وطنكم صنعاء ، وهو بلدكم الأول ، عودوا إلى الحجاز ، واتركوا لنا بلاد الإغريق . ثم ترتفع نبرته ارتفاعًا فاحشًا فيقول : « سأسير

إلى مكة ، ومن بعدها أتجه إلى القدس ، سأفتح الشرق والغرب ، وسأنشر فى كُلّ مكان دين الصليب » !!

ومعلوم بالطبع ، أنّ الأمر لم يكن « بيانًا ملتهبًا وجّهه الباسيل فوكاس إلى خليفة بغداد » !! بل كانت قصيدة سَخِيفة قالها مأفون صليبى يقال له « الباسيل فوكاس » ، مكتوبة باللغة العربية !! ولكن الفارس الصليبىّ « أجاكس عوض » كان يتحدَّثُ عن نَفْسه بلسان « الباسيل فوكاس » ، وزيَّن له غُروره بعد ذلك كُلّه أن يسمى هذا الهراء : « ما نفيستو » صريح الأغراض والخطة ، وأنه ، كما كذب (أعنى : كما قال) « يعدّ فى ذمة أكثر المؤرخين البداية الرسمية للحروب الصليبية » !! وهذا هُراء آخر . ثم يقول بعد ذلك الذى سمّاه « بيانًا » أو « مانفستو » : « قد كان ينتظر أن يكون له ردُّ فعلٍ قوىّ » ، ولكن التاريخ لا يذكر « ردا قويًّا على بيان فوكاس ، إلا رسالة وضعها فقيهٌ فى طَشْقَنْدَ ، اسمه القَفَّال ، يرد بها على دعاوى الباسيلوس فوكاس ، وهى رسالة دينية تقارن بين العقائد » . ومعلوم بالطبع أيضًا ، أن هذا كلُّه جهل وسوء أدب ، فالقفَّال أحدُ الأئمة الذين لا مكان للمقارنة بينهم وبين شىء من عظماء مفكرى اليونان ، فضلًا عن هؤلاء السُّخفاء البيزنطيين ، كالباسيل فوكاس ، وسأكشف خبره حين يأتى ميعاده . والذى كتبه القفّال ، إنما هو قصيدة ردّ بها على هُرَاء فوكاس ، تسْلِيةً وضربًا من التفكُّه ، لا « رسالة دينية تقارن بين العقائد » !!

فلمَّا قرأتُ هذا الجهلَ كُلَّه مصبوبًا فى رُبْع عمود من « صحيفة الأهرام » وعلمتُ ما وراءهُ ، وتبينت أشدَّ مِنْه فى سائر المقالةِ ، راجعتُ نَفْسِى ، وتساءلتُ عن حقيقة هذا الإنسان « أجاكس عوض » ، فعلمتُ أن لَهُ سلطانًا على بعض المغرورين به ، المخدوعين بالورقة التى منحها إياهُ إحدى هيئات التبشير فى « برنستون » !! وما أدراك ما برنستون !! (١) فعندئذ عزمتُ على تركِ كُلِّ ما كان يحول بينى وبين الكتابة ، وعزمتُ على أن أكشف عن حقيقة ما يجرى فى بلادى منذ عقلت ، إلى أن كان « أجاكس عوض » ، ثم أضع هذا « الأجاكس » الجديد فى موضعه من الحربِ الصَّليبية الدائرة اليوم ، لا فى ميدان القتال ، بل فى ميدان الثقافة والفكر والاجتماع .

(١) انظر ما سلف : ٧٨ ، ٣٣٨ .

فمن ظنَّ بعد ذلك أنى جئتُ أناقش « أجاكس عوض » ، فقد أخطأ التصوُّر ، إنما جئتُ لأكشفَ عن ثياب الفارس المحترف ، التى كان يخفيها تحت لفظ « الدكتور » .

ومع ذلك ، فقد أرادَ الله أنْ يحقّق هذه الصفة التى استنبطتُها من مجرَّد قراءة ما يكتبه « أجاكس عوض » ، والتى كان بعضُ الناس يتشككُ فيها ، ويظنُّ أنى قد جمعتُ مهارتِى لكى أُبِين عنها ، لا بشىء أكتبه أنا ، بل بشىء يقالُ فيه ما يجرى فى المثل العامى : « مسكوا فرعون بخطّه » !! فقد أراد « أجاكس عوض » ، أنْ يشيّع زميلى محمد مندور برثاء « مثقف » ، فكتب فى صحيفة الأهرام (الجمعة ٢٧ من المحرم سنة ١٣٨٥) ، كلامًا يمضُغُ فيه رموزًا يونانية ويجترُّها ، فزعم أن مندورًا كان هو « أخيل » هازم « طروادة » ، وشبَّه نفسه بأجاكس . وقد زعمتُ أنّ « آكل الرموز » هذا ، حين شبه نفسه بأجاكس ، دلَّ على جهله من ناحية ، وكشف عن حقيقة نفسه من ناحية أخرى ، ولكنه مع ذلك طابق بهذا التشبيه كُلّ ما وصلت إليه من نتائج فى تحليل « أجاكس عوض » .

فإن هوميروس ، كما قلتُ ، قد جعل « أجاكس بن تلامون » وهو « أجاكس الكبير » ، بطلًا من أبطال الإغريق ، ذا بأسٍ شديد ، وقوة خارقة ، وعداوة ملتهبة ، ولكنه مسلوب العقل والحكمة ، إذا رأى الدمَ ثار فلم يقف له شىء ، وشبَّهه بالثَّور فى النشيد الثالث عشر ، وبالخنزير المنقضِّ فى النشيد السابع عشر . ومن كان يحسنُ قراءةَ ما يقولُه الشعراء ، عرفَ أنّ هوميروس حين صوّر أجاكس فى ميادين القتال إنَّما صور وحشًا والغًا فى الدماء مصبوبًا فى مِسْلاخ إنسان . كان ثَوْرًا إغريقيًّا بلا عقلٍ ، ولذلك كانت نهايته أبشع نهاية ، وذلك أنه ما هَلَك أخيل ، واجتمع القوم يتقاسمون أسلحته النفيسة ، أُعْطِيت هذه الأسلحة لأوليس . فهاجت مِرَّة أجاكس بن تلامون بالحسد والعداوة والحقد ، وظَلَّ جوفُه يحترقُ ، فلما جنّ الليل ، هاج به جُنُونه ، وخرج من عقلِه جُمْلَةً ، فانطلقَ بلا عَقْل ، فرأى قطعانَ الضأنِ المجلوبة طعامًا لجيش الإغريقِ ، فَظَنّها أعداءً ، فراحَ يضربُ فيها يمينًا وشمالًا ، طعنًا وضربًا ، حتّى وقعت على جنوبها مُصَرّعة . فلما ذرّ قرنُ الشمس ، ذرَّ فى جمجمة هذا الثور ،

الإغريقى شعاع من العقل ، فأخذ السيف وبقَر به بطنه (أى شقّة) ، فهلك غير مأسوفٍ عليه !!

ولكن عَسَى أن يقول « أجاكس عوض » ، لا ، لم أَعْنِ هذا الثور الإغريقى ، وإنما عنيت الإغريقى الآخر : « أجاكس الصغير » ، فأنا لا أستحسن هذه العاقبة وأبرأ من هذا التشبيه ! فيقال له : نَعْمَ ونَعْمة عين ، (أى نقرّ عينك بذلك) ، ولكن هل يزيدُك هذا إلاَّ جهلًا بمصير « أجاكس الصغير » ؟ فإنه هو الذى غَلَى به جنونه حتى هجم على معبد إلهته « أتينا » ، مُنقضًّا على « كسندره » المتنبّئة ، حين لجأت إلى مذبحها . فجنَّ جنون « أتينا » وصَبَّت عليه غضبها ، فلاذ منها بالبحر فلما كادَ يغرق أنقذه « بوزيدون » ووضعه على رأس صخرةٍ ناتئة . ولكنَّ « أتينا » أمرت « بوزيدون » أن يفلق الصخرة من تحت قدميه ، لأنه دنّس حرم الإلاهَةَ بعدوانه ، ففعل ، وأرسلت هى عليه صاعقةً محرقةً ، فهلك غريقًا محترقًا ، كما قالُوا فى أساطيرهم . ويقال بعد ذلك لأجاكس عوض اختر بينهما ما شئت ، فكلاهما ثورٌ إغريقىّ شديد البطش ، ولكنه زائغ العقل ، معروف المصير !!

* * *

هذا تفسير « الرمز » الذى أراده لنفسه « أجاكس عوض » ، ولكن لماذا اختار لنفسه هذا « الرمز » ؟ لا أستطيع أن أقول إنّه فكّر قبل أن يختاره ، لأنى أعلمُ أنه لا يستطيعُ ذلك ، وإنَّما أُلْقِىَ « الرمزُ » على لسانه ، ليكشف عن حقيقة هذا « الآدمى » التى يعيشُ بها بيننا ، والتى بها يكتب ، والتى بها زعم أنه « نازل الأبطال ، وصارع الأهوال ، فلم يَلِنْ له عزمٌ ، ولم تنكسر له إرادة ، وحتى فى الأيام الخاسرة ، خرج بشريف الندوب !! » ، إنه « رمز » جاء كالإلهام ، ليكشف لنا عن حقيقة هذا المحترق الصليبى ، ويحدّد لنا مصيره .

إنّ « أجاكس عوض » منذ كان طالبًا فى كلية الآداب ، فى قسم اللغة الإنجليزية من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٣٧ ، لم يزل هو ، بل زادَهُ أساتذتُه أمثال فرنس ، وسكيف ، ودافيس الأعرج ، وبيفن ، وسواهُمْ = وهم رجالٌ معروفون بأحقادهم الصليبية ، وبأعمالهم فى المخابرات البريطانية = زاده هؤلاء غرورًا وملأوه بأوهامٍ

يعيشُ بها ، حتى أرسلوه بعد ذلك إلى « كلية الملك » بكامبردج من سنة ١٩٣٧ ، إلى سنة ١٩٤٠ ، وهناك كان ما كان ، حيث « عاهد الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مدسمر ، فى خلوة مشهودة بين أشجار الدردار ، عند الشلاّل بكامبردج » !! هذا مختصر تاريخ « أجاكس عوض » ، بلا حواشٍ ، وبلا زينة ، وبلا دكتوراه ! وهذه هى حقيقة صُورته التى تلتفُّ عليها تجاليده ، والتى من أجلها اختارهُ من اختاره ، ليكون ، فيما يتوَهَّمون ، خليفة للتالف القديم ، والمبشّر المحترق ، والذى لا يزيدُ عقله كثيرًا ولا قليلًا عن عقل « أجاكس عوض » ، المعروف عند الناس باسم « سلامة موسى » . و « سلامة موسى » هذا ، هو الذى وضع الحبل فى عنقه حين اختاروه ، وجرَّه من حَوْمة الخمُول والتفاهة ، إلى الظهور فى المجلة اليهودية المعروفة باسم « الكاتب المصرى » ، وذلك فى سنة ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ ، [١] تمهيدًا لإعداده للمهمة التى يباشرها اليوم ، وهى مهمة « المبشر الثقافى » فى صحيفة الأهرام !

فهذا المسكين لا يزالُ يتراءى له أنه هو « أجاكس » ، الثور اليونانى القديم ، وأنّه يحاربُ فى حصار « طروادة » ، وأنّه سوف يدمّر « طروادة » ويحرقها بيديه ، فكان أثَرُ هذه السمادير التى تفوح رائحتُها حقدًا معتّقًا فى دِنانِ الجهل والغرور ، ، لم يزل بيّنًا فى كُلّ شيء يكتبُه منذ « بلوتولند وقصائد أخرى » ، أنّه يتكلّم بألفاظٍ شنيعةٍ ظامئة للدم ، ولكنها تستتِرُ فى ثوبٍ من الجُبْنِ والتذلُّل أحيانًا ، حتى ينخدعَ بها من لا يحسنُ أن يحلَّ « الرموز » الخبيثة المنتشرة فى كلامه .

وقد كشفنا من قبلُ عما يسترهُ فى « بلوتولند » ، ولكنَّه بعد دَهْرٍ من كتابتى جاءَ يُبْرِقُ ويُرْعِدُ ، ويضربُ الأمثالَ اليونانية ، مستترًا باسم « محمد مندور » ليقول : « خرجنا معًا فى صباح الحياةِ إلى قصر الربة أتينا ، صانعة الدروع ، لتصنع لنا دروع الفكر ، وتملأ جعابنا بسهام الحرية . وفى صباح الحياة عدنا معًا لنحاصر طروادة ، مدينة الموت ذات الأبراج السوداء والأسوار العالية . هذه المدينة السوداء ذات الأبراج الكئيبة ، والأسوار العالية ، لابُدَّ أن تدمّر ، ولابُد أن تحرق ، كما احترقت طروادةُ فى القديم » . هكذا قال ! ثم قال بعد قليل : « ولكن طروادة الجديدة ، بعد

---

(١) انظر ماسلف ص : ١١٥ و٣٤٤ .

أن نضب منها الرجال ، غدت ترسل علينا من أبراجها السوداء ، أسرابًا من الخفافيش ، ومن طاقاتها وكواها جيوشًا من الهوام وخسيس الحشرات ، منها الخنافس والعقاربُ والحيات الصغيرة بحجم الكف ، والجعارين الذهبيَّة التى خرجت أفواجًا أفواجًا من خزائن الملك ميداس ، وهو عدوّ لا قبل لأحدٍ به فى معارك الرجال مع الرجال ، وليس فى سلاح الربة أتينا ما يصلح لقتال هذه الهوام » .

ما طروادةُ الأولى ، وما طروادة الجديدة ؟ « طروادة الأولى » ، التى زعم كاذبًا أنه خرجَ هو ومندور لتدميرها وحرقها ، هى مصر العربية الإسلامية ، فيما قبل سنة ١٩٥٢ ، و « طروادة الجديدة » ، هى مصر العربية الإسلامية أيضًا فيما بعد سنة ١٩٥٢ . فبأىّ كذبٍ يستطيع هذا الكذاب « أجاكس عوض » أن يدَّعى أنَّ له شأنًا يذكر أو ينكَر فى إزالة الفساد الذى كان فى مصر العربية الإسلامية فيما قبل سنة ١٩٥٢ ؟ أين كانَ هذا المدّعى الفاجر اللسان ؟ وبأىّ شىء قاتل ؟ وأىّ عمل كانَ لَهُ فيما قبل سنة ١٩٥٢ ، يستطيع معه أن يقول : إنى قد جاهدتُ فى سبيل تحرير بلادى من الطغيان والظلم والفساد ؟ إن الثور اليونانى القديم « أجاكس بن تلامون » ، كان محاربًا سفاحًا لا تروعهُ المعارك ، ولكنه لم يكن كذَّابًا . أما « أجاكس عوض » ، مِسْخ « أجاكس بن تلامون » الذى يعذّبه بالدخول فى مِسْلاخه اللفظىّ ، فَكُلُّ قوّته وبأسه فى الكذب ، والشرلتة ، وسوء الخلق وزَعارته ، (أى شراسته) ، بلا حرب ولا معارك ، إنّما يحاربُ بالمكر ، ويدخُلُ معارك بالخداعِ والتنفّخ والتَّعالى الأجوف ، على ما درَّبه مدرِّبوه تحت أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج ، لكى يكون مبشِّرًا جامعًا لصفات المبشر وأخلاقه .

وأما « طروادة الجديدة » ، وهى مصر العربية الإسلامية ، التى هبَّت فيما بعد سنة ١٩٥٢ ، فليحدِّثنى هذا الكذابُ كيفَ أرسلت عليه من أبراجها السود أسرابًا من الخفافيش ، ومن طاقاتها جيوشًا من الهوام والحشرات ؟ ومَن يكونُ هو حتّى تُعَنِّى طروادة الجديدة « نَفْسَها ، لترسل عليه ما شاءَت له سماديره أن يقول ؟ أهو « أجاكس عوض » ! إنى لقيت فى شوارع القاهرة ، وفى جمعية الشبان المسيحية ، وفى الجامعة الأمريكية ، وفى مواضع لا أحصيها ، رجالًا ونساءً من أصفق خَلْق الله

وجوهًا من المبشرين فى ثياب قسس ، وفى ثياب علماء ، وفى ثياب مفكرين ، وفى ثياب مستشرقين ، ولكنى لم أقَعْ فى أحدٍ منهم على هذا القدر من صفاقة الوجه ! ولا « سلامة موسى » بلحمه ودمه ! وإذا قالَ أحدهم شيئًا من هذا ، فإنّما يقوله مخافتًا به بين شيعته ومن يقع فى حبائله من الشباب . أمّا أن يقوله علانيةً ، وفى صحيفة كالأهرام ! فهذا شىءٌ فوق طاقةِ ما يملك « التبشير » من صفاقة وزعارةٍ !

أيظنُّ هذا المتكذّبُ على الموتى ، أن مندورًا كان ممكنًا أن يكون فى مثل خفة عقله حتى يقول له فى وصيته وهو يحتضر : « مدينة الموت ، ذات الأبراج السوداء والأسوارِ العالية ، (يعنى طروادة الجديدة ، أى مصر العربية الإسلامية فيما بعد سنة ١٩٥٢) ، لابُدَّ أن تدمَّر ، ولابدَّ أن تحرق كما أحرقت طروادة فى القديم . إيّاكم أن تقنطوا مهما كثرت من حولكم الهوام والأشباح » . ثم يقول هذا المضطربُ سائلُ عقله : « ليت لى ميتة مثله وسط الطعان » ! (يعنى مثل ميتة مندور) ! أيظنُّ هذا المسكين المحترق أن مندورًا كان يلبس تحت ثيابه سلاح صليبىٍّ محترقٍ ، حتى تكون هذه وصيّته وهو يحتضر ؟

* * *

وفيم يقول هذا الكلام ، بهذه الجرأة وبهذه الزعارة ! أيقوله لأنه يعلَم أنّ تآمُر الأمم الغربية المسيحية وذيولها من أبناء صهيون ، قد آن أن يحقّق ما يصبو إليه ؟ أيظنُّ هذا المأفون أن إقدام العالم الأوربى المسيحىّ على إعداد غزوٍ شامِلٍ للعالم العربىّ والإسلامىّ ، (كما يتبين ذلك من الوثائق التى تنشرها الصحيفة التى يعمل هو فيها مبشِّرًا ثقافيًا) ، [1] يمكن أن يؤدّى إلى تحطيم « طروادة الجديدة » ، وهى الجمهورية العربية المتحدة ، فيريدُ أن يسبقَ هو إلى فضْلٍ مذكورٍ ، بأن يجعل نفْسه هدفًا حصينًا منيعًا ، أو محاصرًا شديد البأس والسطوة لا تملك « طروادة الجديدة » ، بعد أن نضب منها الرجال ، إلا أن ترسل عليه أسرابًا من الخفافيش ، وجيوشًا من الهوام وخَسِيس الحشرات ! أهذا تصوُّر عاقِلٍ مدرك ، أم تصوُّر مفلتٍ من أسوار البيمارستان !

(١) كان من طلائع ما أشير ، ما أصابنا فى يونيه ١٩٦٧ .

وأمّا « الملك ميداس » ، [١] فإنى كنت قد تركتُ حلّ رمزه إلا إشارةً عابرة ، ولكنى قد حللتُ رموز آكل الرموز « أجاكس عوض » ، فمن غير المستحسن أن أدع حلّ رمزه ، ولكنى أرى أن أحسن وجه لحل هذا الرمز ، هو أن أقص القصة ، وأدع للناس تفسيرها . وذلك أن « ميداس » كان ملك فريجيا ، فخرج يومًا فلقى إلاهًا (!!) يقالُ له « سيلين » ، وجدهُ نائمًا ، فلما استيقظ سأله أَنْ يعلّمه الحكمة . فذكر له « سيلين » أمر مدينتين ، إحداهما يقال لها « أوسيبس » ، وهى مدينةٌ مسالمةٌ تقيَّة ، والأخرى يقال لها « ماخيموس » ، وهى مدينةٌ محاربة جبارة . كانَ أهلُ المدينة الأولى سعداء ، فإذا جاءهم الموت جاءهم بيْنَ ألحان الغناء ورنّات الضحك . أما الأخرى ، فكان الوليد منهم يولدُ مدجَّجًا بالسلاح ، وتسيلُ أرواحُهم على ظُبات السيوف . وكان شعب « أوسيبس » وشعب « ماخيموس » يمدّان سلطانهما على ممالك واسعة متراحبة الأطراف ، وكان لهما غنًى لا مَثيل له ، وأرضهما تفيضُ ذهبًا وفضّة ، حتى صارَ هذان المعدِنان من وَفْرتهما بمنزلة الحديد عند سائر الأمم . وخرجَ أهل المدينتين يومًا ليَرَوْا طائفة من البشر يُعَدُّون أسعد مَنْ على الأرض من الفانين . فلما جاءوهم رأوا بؤسًا مهلكًا يعدُّهُ أهلُه سعادة ، فانقلبوا راجعين إلى أرضهم ، وعلموا أنهم بما هم فيه من الذهب والفضة أسعد أهل هذه الدنيا . فلما سمع « ميداسُ » ذلك ، أحبَّ أن يكونَ لَهُ من سعادة « أوسيبس » و « ماخيموس » نصيبٌ ، فسأل « سيلين » أنْ يسدىَ إليه يدًا ، ويتخذ عنده صنيعة ، فلا يمدُّ يده إلى شىء إلا انقلب عَسْجَدًا (أى ذهبًا) . فلما كان ذلك له ، لقى العَنَتَ ، فإنّه لم يمسَّ طعامًا ولا شرابًا إلا صارَ عسجدًا ، حتى بلغَ منه الجوع والعطشُ وكادَ يهلك ، ولم ينقذه إلاّ أن استردَّ « سيلين » ما وهبه .

وتتمة خبر « ميداس » أنه خرج بعد ذلك فضَلَّ فى الغاباتِ حتى وجدَ نفسه على جبل ، وإله هذا الجبل يقضى بين « بان » و « أبولون » فى نزاع كان بينهما ، فقضى إله الجبل لأبولون دون « بان » ، فثار « ميداسُ » لأنه رأى هذا القضاء غَبْنًا فاحشًا وجَوْرًا ، وأعلن أن هذا حكم جائر . فجن جنون « أبولون » ومسخ أذنَىْ « ميداس »

---

(١) قد فسرت آنفا من أراد بالملك « ميداس » ، انظر ص : ٣٤٣ ، تعليق رقم : ١ .

فصارتاَ أذنى حمارٍ ! وارتاع « ميدَاس » ولبسَ خمَارًا يتدلّى على جانبى رأسه ، ليستر ما ابتلاه به « أبولون » . وجهد أن لا يعلم ذلك عنه أحدٌ ، إلاّ حلاّقه ، فإنه ائتمنه على سرّه . وأنذرَه إذا باح به أن يُريقَ على الثرى دَمَهُ . وغَلَى السرّ فى قلب الحلاَّق البائس ، وأعياهُ طولُ كتمانه ، فبرز إلى العَراء ، فاحتفر حفيرةً فى أرض بعيدةٍ على حافتها يَرَاعٌ نابت ، (واليراع : القصب الذى تُتَّخذ منه المزامير) ، ثم انكبَّ على الحفيرة وأدنى منها فَمَه ، وأسرّ إليها بسرِّ الملك ، وإنّ له أُذُنَى حمار . وما هو إلا قليلٌ حتى جعل اليراعُ إذا مَا فَيَّأته الرياح مرةً هنا ومرةً هنا ، (فيَّأته الريح : أى حرَّكته يمينا وشمالاً) ، تغنّى بسرّ الملك ، واستودعه الريحَ وهى بَذَورٌ ، تذيع الأسرار لا تكتم سرًّا ، فذاع فى الناس خبر « أذنى ميداس » ، وانكشف لهم المستور من سرّه !

و « أجاكس عوض » ، أجهلُ من « حلاق ميداس » ، لأنه لجأ إلى « الرمز » و « الرمز » أحيانًا أشدُّ إذاعةً للأسرار من اليراع والريح ! فهو بهذا الرمز قد كشف عن مكنون سرّه الذى فى قلبه ، من شدة بغضائه للملك « ميداس » ، [1] وأنه يعدُّ نفسه قريعًا لَهُ ، يريدُ أن يقف على أطلال « طروادة الجديدة » ، ملكًا متوَّجًا ، بنفس الجنون المطبق الذى تملك « المعلّم يعقوب » حين انحاز إلى جيش نابليون ، وأنشأ فرقةً ضالعةً مَعَه ، تريد أن تزيل مُلْكًا يتوهمه قد بقى مُطْبِقًا على أرض مِصْر اثنى عَشَر قرنًا ، فجاءَ هو ليرث المُلْكَ ، ويتوَّج على مصر ملكًا ، لَهُ فى أرضها الأمرُ والنَّهْىُ !

* * *

والسلُّ الذى يأكُلُ قلب « أجاكس عوض » ، ومن على شاكلته من دُمَى التبشير ولعبه المنتشرة فى كلِّ مكانٍ ، هو أن « الملك ميداس » قد استطاع أن يستنقذ كلمةً واحدةً من أفواه عُواةٍ كثيرين ، كلهم « أجاكسٌ » ، كانوا قد اتخذوها منذ سنة ١٨٦٥ وما قبلها رُقْيَة يدورون بها فى العالم العربىّ ، ليشقُّوه شقًّا عن العالم العربى الإسلامى . حتى جاء زماننا ، فكان فى أرض العرب « أجاكس» و « أجاكس »

(١) انظر معنى « الملك ميداس » فيما سلف ص : ٣٤٣ ، تعليق رقم : ١ .

و « أجاكس » ، يريدونَ أن يفجّرُوا فى قلبه أعظم قنبلةٍ مدمرة ، أشدّ فتْكًا من « لواحظ المغنية » ، التى تمنَّى « أجاكس عوض » أن تنسف « المبغى الكبير » وهو « بغداد » ، كما جاء فى تفسيره لشعر بدر شاكر السيَّاب ، الذى زعم أنه « لا يقلد تكنيك إليوت ، بل يتمثله ويحتويه ويغتذى به ، بطريقة الأسموز ، أو الانتشار الغشائى » ، أو كما قال هذا الشرلتان الأسموزىّ !!

أىُّ حقدٍ ينشقُّ عنه هذا الإهاب المحيط بجثمان « أجاكس عوض » ؟ فهو منذ كتب « بلوتولند » ، وهو ينضَحُ ضغينةً مترسّبَةً راسخةً فى أقصى غيب انضمَّ عليه بنيانه . منذ السطر الأول فى « بلوتولند » ترى حقدًا ينبح نُباح المسعور : « لقد مات الشعر « العربى » (وهكذا وضع الصفة بين قوسين للتنبيه ! ما أعجب حقده !) ، مات عام ١٩٣٣ ، مات بموت أحمد شوقى . مات ميته الأبد مات » . انظر إلى ألفاظه ، انظر إلى صرخات الجنون المتشفّى فى ترداد لفظ « مات » و « موت » و « ميتة » ، ثم كلمة « الأبد » . هل يمكنُ أن يصف هذا الشىء أحدٌ بغير ما وصفتُه ؟ وهو لم يعاد « الشعر » لأنه شعر ، بل عاداه ، وحَقَد عليه ، وألقى عليه بغضاءه ، لأنه « عربىٌّ » ، وأبان بعد قليل أنه « قُرشىّ » !! هذا المسكين البائس المحترق ! لم يزل ينحطُّ فى أحقاده وأضغانه ، حتى قال : « والمحدثون ينسونَ أن القُدامَى (يعنى شعراء العرب) كانوا صعاليك يتسكعُونَ بين الخيام ، أو فى أزقّة بغداد » ، فهل تظنُّ أن « آكل رموز اليونان » « أجاكس عوض » ، قد قال مثل هذا لأنّه محبٌّ للعرب !! دارس لآدابهم ! أم تراهُ قاله وهو يتفزّعُ من بَغْضائهم ، ولا يراهُمْ إلا صعاليك يتسكعون بين الخيام أو فى أزقّة بغداد ! لا بالعين التى يَرَى بها هوميروس !! ولعلَّه كان يعيشُ فى القصور ذوات الأبراج المشرفة ، والأسوار المذهبة !! إن هذا الحقد الأعمى لا يَلِد إلاّ الألفاظ المطموسة البَصَر !

فمن أجل هذا الحقد المُتَلَجِّن فى غَيْب ضميره ، (كل شىء يتلزَّجُ من الوسخ فقد تَلَجَّن) ، والذى يصبّه على الورق صريحًا أحيانًا ، ومغلّفًا أحيانًا ، ومدسوسًا فى ثنايا السياق أحيانًا أخرى ، لم أتردّدْ قطُّ فى الإبانة عن صريح تحليلى لما ينطوى عليه « أجاكس عوض » ، من عيوبٍ قادحة فى أخسّ الناس شأنًا ، فَماَ ظنُّك بآدمىٍّ من

هذا النوع !! فرضت علينا مؤسسة الأهرام قراءتَه ، وأتاحتْ له ما لم يُتَح لأحدٍ من قبله : أن يتخالَعَ فى سطورها تخالُع من قد تخبَّطَهُ الشيطان من المَسّ = وأنْ يَتِيه على تاريخ العرب وآدابهم ورجالهم تِيهَ أفَّاق صليبيٍّ « كان يُبْرَى بظُفْرِه القلمُ » ، كما يقول المتنبى ، فنزل أرض العربِ فظنَّ فى نفسه الظنون = وأن يركب مرّةً أُرْجُوحةَ الفنّ ، فيتحدث فى الشعر وفى غير الشعر بلسانٍ تترنَّحُ ألفاظه عليه ، ويتغنّى بذمِّ العربِ وشعر العرب بلا حياء = وأن يقدم إقدامَ المستهين الذى لا يبالى فيفسّر القرآن بسوء أدبه وقلّة حيائه ونذالة تصوُّره للمعانى = وأنْ يعمد بالمكر الخبيث البشع المستقذر ، ليجعل إسراءَ رسول الله ﷺ ومعراجه ، أسطورة مقتبسةً من أساطير البَذَاء اليونانىّ الذى يتعبّد لَهُ = وأن يأتى مستهزئًا استهزاء الجبناء ، متستِّرًا أخبثَ التستُّر ، ليقول إن الإسلام قد أضفى على نظمه المالية طابعًا دينيًا ، يجعل من اليسير على الحكام أن يتلاعبوا بها !! واحدةٌ . وأخرى أنَّ عيبَ الإسلام أنّه خلا من « نظامٍ كنسىّ » يحجبُ الموارد المالية التى تجبى باسم الدين عن السلطة السياسية !! وأن يختم جَوْلته فى أرض « طروادة » مُدَمِّرًا متلفًا ، قليل الحياء ، سيئ الأدب ، فيأتى فى مِسْلاخ « أجاكس » ، لابسًا لأْمَة المحارب ، حاملًا رُمْح أجاكس ، الذى كان طوله اثنين وعشرين ذراعًا بذراع اليونان !! نافخًا شِدْقيه ، محمرةً عيناه ، قالبًا حماليقه ، يهدّدُنا بأنْ سوف يدمّر علينا طروادة الجديدة ويحرقها تحريقًا ، كما حرقت طروادة فى القديم ، طالبًا « ميداس » ذا الجعارين الذهبية الكثيرة !! ما أسفهه رامزًا !!

مَنْ هذا الطليق من القيود ، المفلتُ من الأسوار ؟ مَنْ « أجاكس عوض » الذى يتخابث علينا ، ويريد أن يُخْفِىَ وراء ألفاظه وأسمائه التى يحاول أن يردّدها فى بعض كلماته ، مكانَ ضِغْنه الدفين ، وحقيقةَ حِقْده الغبىّ ، ويظنُّ أنه بذكر بعض الأسماء ، قادرٌ على أَنْ يحجب عن عيوننا ما يضطرم فى قلبه من نارٍ ، إن « أجاكس عوض » ، ليس واحدًا ، كما يدلُّ عليه ما أكتبه ، ولكنَّه جماعةٌ كُثْر ، قد انبثُوا فى كلّ مكانٍ ، وهم يُطِيفون به إطافةَ الوثنىّ بالصَّنَم ، لا لأنّه شيءٌ فى نَفْسه ، بل لأنّ المدير الذى يديرُ هذه الدُّمَى ، قد جَعَلهُ منهم بمنزلةٍ ، ليضمنَ سهولة تحرُّكهم فى نواحى نشاطِهم تحت ثيابٍ يتخفّون فيها ، وهم جميعًا يستعدُّون لوقْتٍ قد وُقّتوا له ، ليتكلموا عندئذٍ ، بما لا يَبْلُغُ فيه كلام « أجاكس عوض » ، مبلغًا يذكر ، وليعملوا

يومئذ عملًا أقلُّ ما يقال فيه : إنه تحقيق كامِلٌ للسمادير التى تجول فى جمجمة « أجاكس عوض » : من دكِّ أسوار « طروادة الجديدة » وأبراجها السُودِ ، ودُخولهم يومئذٍ معاقل « طروادة الجديدة » ، بأقدامٍ ثابتة ، يخوضون فى الدماء الحُمْر ، والنيران الحُمْر ، والأعلام الحُمْر ، كما ذكر ذلك « أجاكس عوض » فى ختام مقدمته لبلوتولند وقصائد أخرى ، من تأليفه .

وقد قصرتُ هذه الكلمة على الفحص عن أمر « دمنة » ، وهو « أجاكس عوض » ، ولكنّى سأنقل خبر كل « دمنةٍ » ، وأكشف عنه ما استطعت ولكن فى إطارٍ من بيان الأهداف التى يسعى إليها الذين يضمرون لنا الشرّ ، ويتوهَّمُون أن أوان الغلبةِ علينا قد حان ، وأن التاريخ قد أعدّ لهم صفحاتٍ بِيضًا ليسطِّروا فيها لطروادة الجديدة ، بعد تدميرها وحَرْقها ، تاريخًا لا يذكر فيه اسم العرب ، ولا اسم الإسلام ، إلاّ بالنقيصة والقدح والثَّلْب . و« تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ » .

عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَاقِشُ

الرسالة

الخميس : ١٧ من صفر سنة ١٣٨٥



٢١

وتسألنى : ما برَاقِشُ ، وكأنك لم تسمع بكلبةٍ كانت لحىٍّ من أحياء العرب ، كان بينهم وبين آخرين تِرَةٌ ، (أى ثأر) ، فأغاروا عليهم فى بعض الأيام ، ونَذِروا بهم ، فهربُوا وفاتوا المغيرين ، ولكن تبعتهم بَرَاقِشُ ، فتسمّعت وقع حوافر الخيل ، فجعلت تنبَحُ ويعلو نُبَاحُها حتى سمعه المغيرون ، فاستدلُّوا على موضع نُبَاحها . فرجعوا يطلبون القوم حتى أحاطوا بهم ، فاستباحوهم . فضربتها العربُ مثلًا لمن يعملُ عملًا يرجع عليه وعلى أهله بالضَّرَر .

ومعذورةٌ براقش ، فإنها كلبةٌ لا تعقِلُ ، فإذا فَعَل فعلَها من يَظُنّ أن له عقلًا به يدركُ الأمور ، فالشأن مختلفٌ . فإن الدواعى إلى ارتكاب هذا المركب ، لا تدلُّ على الجهل وخفَّة العقل لزامًا مؤبَّدًا ، بل ربَّما دلَّت على ما هو أبعدُ من ذلك وأعمق ، وعلى الذى هو أشنع من الجهل وخفة العقل . ربَّما دلَّتْ على سرائر تكتمها النفوس فى أقصى ضمائرها ، ثم تأتى ساعة فتضيق بها النفسُ ، فتطغَى ، فتنفجر ، فلا يملكُ العقلُ عندئذٍ أن يردَّ من طُغْيانِها ، وإن كان صاحبُها فى ظاهر أمره ركينًا مُتَّزِنًا ، ضابطًا لنفسه ، قادرًا على ستر ما يضمره حينًا بعد حين . وأخشى أن أدخُلَ فى باب « الرموز » الأجاكسية وسخفها ، وإنها لشىءٌ مَقيتٌ ، وأحَبُّ شىءٍ إلىَّ أن أقولَ ما أريد جهرةً ، بلا مداهنة ولا استخفاء ولا مداورة . بيد أَن سياق الحديث يقتضينى أن أؤَجّل الكشف عما أريدُ ، حتى يقع فى مكانه من كلامى ، فعندئذ يتبيَّنُ مَنْ تكونُ براقشُ الأخرى ، براقش التى تدل على أهلها ، وتجنى عليهم وعلى نفسها .

أما الآن ، فمن الخير أن نبدأ ببراقش الأولى التى دلّت على نفسها ، وجنت على أهلها ، منذ كتبت « بلوتولند وقصائد أخرى » ، إلى أن دَخَلَتْ بُحْبوحَة السَّمادير اللذيذة فيما كتبته عن « رسالة الغفران » ، ثم جاءَ بعد ذلك ما جاء من كريه مساويها ، وخبيث أقوالها وأفعالها . ومرةً أخرى ، سأستبيح ما لم أكنْ له قطُّ بمستبيح : أن

أتحدّث عن شيء لم أقف عليه مكتوبًا على الورق ، مطبوعًا فى كتابٍ أو صحيفةٍ ، موقَّعًا عليه بتوقيع صاحبه ، أو بشيء من الدلالات يقوم مقام التوقيع . ولا أرتكب هذا المركب لأنّى أحبّ أن أثبت رأيى وأؤيِّدَه بشيءٍ خارج عمَّا فى الصحف والكتب والمجلات ، بل لأن سفاهة هؤلاء السفهاء ، قد جاوزت كُلَّ حدٍّ ، وفاقت كل تقدير . وهى سفاهةٌ مدبّرةٌ ، لا سفاهةٌ مرتجلةٌ ، قد اتخذوها مطيَّةً ذَلُولًا إلى غايةٍ يظنُّون أنهم بالغوها ، لما يرونَ مِنْ تهاوُنٍ من يملك رَدْعهم وتأديبهم ، أو من إمهاله لهم ومدِّه لهم فى الطِوَل ، (وهو الحبل الطويل التى تربط به الدابة ، لترْعَى ما ترعى ، ولكن فى نطاقٍ محدودٍ) . وقد بيّنتُ مرارًا أن من وراء هؤلاء السُفهاء شياطينَ قد ترهَّبُوا ولبسوا المسوحَ فى أديرة « التبشير » ، و « الاستعمار » ، وتراهُم كأنهم عُبّاد خاشعون من الذلّ والعبادة ، ضارعون من المسكنة والرحمة ، يلوذُون بالجدران ، قد تدرَّعُوا الفقر ، يراؤون الناس حتى يقال : هم قومٌ لا أَرَبَ لهم فى غرور الحياة الدنيا ، ولا حظ لهم من حطامها . والحقيقة أن هذه الشياطين هى الكهوف التى إليها يلجأ السفهاء . وإنما هذه منهم خَتْلٌ ومخادعة ، وإنما يمشون الخفاءَ ، ويَدِبُّونَ الضَّراءَ (أى يتوارون بالضَّرَاءِ ، وهو الشجر الذى يواريهم) ، نفيًا للتهمة عن أنفُسِهم ، وليكونوا فى مأمَنٍ مِن الريبة والشكّ ، فالريبة ربَّما أفضتْ إلى انكشاف سرّهم للناس ، وهو أخوفُ ما يخافونه .

وعند هذه الكهوف تُبَيَّتُ أمورٌ بلَيْلٍ . لم أكن مَعَهم ، ولكنى أجد نَبْضَ هذه الحركة ظاهرًا فى كل ما أقرأ وما أسمَعُ . أجده فى الصحف والمجلات ، والكتب ، والأحاديث ، لأنّ كهوف « التبشير » قد اتخذت ضروبًا وألوانًا من السفهاء تعمَلُ لأهدافها وأهداف ابن أمها « الاستعمار » من كل صنف ولون : منهم من يُدْركُ لأنه مستودعُ سِرّ ، ومنهم من لا يدركُ لأنَّه لا يستقيم أمرُه إلا أن يُقاد ، ومنهم من يُوَسوَسُ لَهُ حَيْث يستميله الهَوَى ، ومنهم من ينخدعُ بظاهرٍ من القول لغفلةٍ يعيشُها ويعيش بها فى الناس ، ولكنهم جميعًا يعملون كأنّهم يعملون على غير اتفاق ، أدركه من أدركه ، وجهله من جهله . ولو فعلت كهوف « التبشير » غير هذا ، وسلكت غير هذا المسلك ، فإنَّها تكون عندئذٍ غير صالحة لشيء ، وقد اكتسبت بطول الدُّرْبَة قدرةً على إخفاء معالم ما ترتكبُ ، فهى تعفِّى على الآثار التى تهدى إليها ، فإذا أراد

أحدٌ أن يقتفى آثار الغادين إليها والرائحين ، لم يجد إلا الثرى الجَعْدَ الذى لا أثر فيه لدِلالةٍ أو هدايةٍ . وإذا أنا كنت قد استطعتُ ، وأنا فى مكانى هذا من عُزْلتى ، أن أعرفَ مواقع الأقدام الذاهبة والآيبة ، وأتوسَّمُ أَصحابَهَا ، فقد أتاحَهُ لى طولُ الإنصاتِ لما أسْمَع ، واختلاف الأخبار إلىّ مرةً بعد مرّةٍ عن غير قَصْد من راويها ، وما دَربتُ عليه من ربط الحوادث بعضها ببعْضٍ بعد طول تأمُّلٍ . ومن أجل هذا يفزعُ مَنْ يفزعُ مِن مترهّبة المبشرين ، حين يرانى قد أكثرتُ من إدماج بعض من أذكرهم فى مكايد « التبشير » قاطعًا بأنّ لهُمْ صلةً به لا تخفى علىَّ . ويبلغنى فزعُهم واستنكارُهم ، فبفزعهم واستنكارهم أعلم أيضًا أنى قد أصبتُ بالظن ما لم أُدْرِكْهُ باليَقين عينِ اليقين . وأنا أدع هؤلاء لفزعهم ، فإنه وحدَهُ كفيلٌ بإنزالهم المنزلة التى يستحقُّونها من الهوان .

أمّا « أجاكس عوض » صبىُّ هؤلاء المبشرين الظاهرُ لأعيننا وأسماعنا كاتبًا ومتكلمًا ، وأشباهُه الذين نتناول كشفَ مستورهم ، ونتعاطَى صناعة « الفِرَاسة » و « القِيَافة » فى نسبتهم إلى ما ننسبهُم إليه من أُصولٍ يَمُتُّون إليها بنسبٍ قريب أو بعيد .

وإلاَّ فحدثنى ، كيف يتَّفق أن نجد العالمَ العربىَّ والعالمَ الإسلامىَّ فى هذا الموج المتلاطِم من الأحداثِ ، تحيطُ به قُوَى العالم الصليبىّ كُلّه ، وتأخذُهُ من هُنَا ، وتهزُّه من هناك ، وترسِل الفتن فى بلدانه كُلِّها ، وتتألَّبُ على المكان الذى تشخَصُ إليه أبصارُ العرب والمسلمين من كلّ ناحية ، وتَرْميه عن جَمَاعة بيد واحدةٍ بسهامها مسمومةً وغير مسمومةٍ ، ثم يأتى فى هذا الوقت نفسه أفاقٌ يتثقّف (أى يدّعى أنه مثقف ، وهو لفظٌ جديدٌ اخترعته لهذه المناسبة) فيهتبل فرصةَ موتِ زميلى القديم الدكتور « محمد مندور » ، فيقف يتكذَّب (أى يرسلُ الأكاذيب) ؟ يزعم أن مندورًا كان هو « أخيل » ، وأنه هو « أجاكس بن تلامون » ، وأنهما خرجَا فى صباحِ الحياة (يعنى فى سنة ١٩٣٧ ، كما ذكر فى مقاله) ، إلى قصر ربّته « أتينا » وبيّنٌ أن هذا القصرَ هو قلعة « الاستعمار » و « الوثنية » ، « والتبشير » ، هو أوربة المسيحية الصليبيّة ، حيث التقيا بباريس سنة ١٩٣٧ . ثم يزعم أن ربَّته هذه قد صنعت لهما

دروعًا من الفكر يتحصَّنان بهما ، وسهامًا من سهام الحرية يقاتلان بها ، ثم يزعُمُ بعد أنهما عادَا من أوربة ليحاصرا « طروادة » مدينة الموت ذات الأبراج السوداء العالية ، وأنهما جاءا يومئذ ليدمّرا « طروادة » ويحرقاها كما أحرقت طروادة فى القديم على مُلْكِ الإغريق الأوّل . ويبيّنٌ أن « طروادة » هذه كانت هى مصر العربية الإسلامية بتراثها كُلِّه ، خيره وشرّه ، فيما قبل سنة ١٩٥٢ .

ولكنَّه لا يقتصر على هذا التاريخ الماضى ، وإن كان كاذبًا فى ادعائه ما لم يكنْ منه قَطُّ ، بل يعمد إلى التاريخ الذى نعيشُه اليوم ، فيرسُمَ لنفسه صورة من الرموز ، ويرسم لنا ولبلادنا صورة أخرى من الرموز ، فيدَّعى أن « طروادة الجديدة » ، وهى مصر العربية الإسلامية فيما بعد سنة ١٩٥٢ ، قد أرسلتْ عليه وعلى مندور خنافسها وهوامَّها وخسيسَ حشراتها من خزائن « الملك ميداس » ، ويزعُم كاذبًا ، إن شاء الله ، أنّ مندورًا ، وهو أخيل !! ، قد استدعاهُ وهو يحتضر وقال له : « يا أخى أجاكس ، البس دروعك وتأهَّبْ لنخرجَ سويًا (يعنى : معًا ، ولكنه فصيحٌ !!) فى غزوةٍ جديدة عظيمة (وتأمل هذا الوصف : عظيمة !) ، لنطلبَ هذه المرة الملك ميداس نفسه ذا الجعارين الذهبية » .

ويبيّنٌ لمن كان له أدنى عَقْلٍ ، أن أمرَ « الملك ميداس » أهمُّ عندهما من أمرِ « طروادة » ، [1] لأن « طروادة الجديدة » رهنٌ بقاؤها ببقاءِ « الملك ميداس » . فإذا ما عادَا من طلبه ظافرين ميمونين ، وأسالا نفسَهُ على نِصالِ السهام وظُباتِ السيوفِ ، فقد سقطت « طروادة الجديدة » تحت أقدامهما راكعة ذليلةً ، ولم يبق إلا أن يتحقّق ما زعم من وصية مندور وهو يحتضر إذْ قال له ، فيما زعم هذا الكذاب : « مدينة الموت ذات الأبراج السوداء والأسوار العالية لابُدّ أن تدمر ، ولابُدّ أن تحرق كما أحرقت طروادة فى القديم » ، ثم يزعم كاذبًا ، إن شاء الله ، أنه أوصاهُ أن يجمع كتائبه وجيوشه وفرسانه ليقول لهم : « إياكُمْ أن تقنطُوا ، مهما كثرت من حولكم الهوامُّ والأشباح » ، ويعنى بذلك ما أرسله عليهما « الملك ميداس » من الخنافس والهوام وخسيس الحشرات !!

---

(١) انظر ما يعنى بالملك « ميداس » فيما سلف ص ٣٤٣ ، تعليق رقم : ١ .

فحدثنى كيف يتَّفقُ أن يتألَّب العالم الصليبى الأوربىّ كُلُّه اليومَ على « الملك ميداس » وعلى « طروادة الجديدة » ، وأن يأتى هذا المأفون فى مِسْلاخ ثورٍ إغريقىّ ، فيتوهَّم نفسه « أجاكس بن تلامون » يَرَى فيما تُريه سماديره أنَّه خرجَ يطلب « الملك ميداس » نفسه ، ثم يحرق « طروادة الجديدة » ويدمرها تدميرًا ؟ مَنْ « أجاكس عوض » هذا بِمُجَرَّدِه ؟ وما قيمتُه فى الناس ؟ وهو لو دخل قريةً من قرى مصر ، وتكلم بمثل الذى يتكلَّم به ، لغَرِق فى بحرٍ مما ترسلُه عليه أفواهُ الناسِ من شىء غير الكلامِ ! وإذا كان هذا السفيهُ العقلِ يشكُّ فيما نقول ، فليجرّب .

ولكن السفيهَ العقل سفيهٌ أبدًا ، إذا أفصح وإذا رَمَز . فهذا المسلوس العقل ، (وهو الذى يسيلُ عقله ويتقاطر) ، المهلوسُ النفس ، (وهو الذى أصاب نفسه الهُلاس ، وهو داءٍ كالسل) ، خيَّل له ما يَرى ، أو ما يُوحَى إليه ، من تألُّب ديار الصليبيين الأوربيين على بلادنا وبلاد العرب والمسلمين ، أن الأمر قريب سهلٌ ، وأنه إذا لجأ إلى الرَّمز ، فهو قادِرٌ على أن يخرجَ من تبعة ما يقول بمهارته ، لظنّه أيضًا أنه « مثقف » وليقينه أن « الملك ميداس » ، وشعبه من أهل « طروادة الجديدة » ، لم يخرجوا عن أن يكونوا جماعة من البُلْه الجهلة السخفاء ، الذين لا يحسنون شيئًا من الثقافة ، ولا يستطيعون حلّ « رموز اليونان وأساطيرهم » . وكذلك يتاحُ له أن يذهب إلى الكهوف المظلمة وراء أسوار أديرة « التبشير » ، وإلى المقاهى التى ينحطُّ على كرسيها شِيعتُه وأصحابُه ، فيقول لهم : « انظروا إلى شجاعتى ! ألا تسمعون ؟ ألا تدركون ؟ « طروادة الجديدة » هى هذه التى تعرفون ، و « الملك ميداس » ، هو هذا الذى يَرهبون ! ما أشجعنى ، ما أذكانى ، ما أرْمَزَنى !! أنا أجاكس عوض ! هل رأيتُمْ شجاعًا كمثلى ! هل علمتم ذكيًّا كأنا ! هل أبصرتُم رامزًا كحضرتى ! وسترون كيف أتحدّى هذه الخنافس والهوام وخسيس الحشرات التى يرسلها عَلَيَّ « الملك ميداس » : لقد قلتُ قديمًا أشياء شنيعةً وكتبتها ، وكتبت الخنافس والهوام عنى ما كتبت ، فهل استطاع أحدٌ أن ينالنى بسوء ؟ »

* * *

ثم كتب « أجاكس عوض » بجرأته كلمة أخرى ، كما وعدَ أصحابَهُ ، ودفعها

إلى مطبعة الأهرام ، لتخرج فى صحيفتها الأدبية فى يوم الجمعة ، ولكن جاء ما لم يكن فى الحسبان ! اطّلع عليها رئيس التحرير ، فمنع نشرها ، وخرجت الصحيفة بريئةً من « أجاكس عوض » . ماذا يقول لشيعته ؟ ماذا يقول لمن حرَّكه من رهبان « التبشير » ؟

ولو كان هذا إنسانا عاقلًا لسكت ، ولقبَّل ظهر يده وباطنها ، حمدًا لله وشكرًا على أن وجَد من يُمسك بحُجْزته حتى لا يرمِى نَفْسَه فى النار . ولكن ماذا تراهُ فعل ؟ أخذ تجربة المقالة من المطبعة ، واستودعهَا حقيبةَ ذَيْلِهِ وحاملِ حقيبته المسمَّى « غالى شكرى » ، وأرسله يطوفُ على مجالس الشيعة الفارغين ليقرأوها ، وليقال إن « أجاكس عوض » لا يقلُّ جرأةً ولا شجاعةً عن ذلك الثور الإغريقى « أجاكس بن تلامون » ، إلاّ أن « طروادة الجديدة » أبت إلا أن تضطهده ، ولا سيّما بعد أن آثر « أخيل » أن يقول : وداعًا !! وتركه وحدَه فى هذه المحنة الشقية ، ويتمنَّى هو أيضًا أن يقول : الوداع ! كما جاء فى مرثيته المثقّفَة بأساطير اليونان ! لم فعل المسكين ذلك ؟ أيريدُ أن يجعل ذلك برهانًا ساطعًا على ما يلقاهُ فى « طروادة الجديدة » من اضطهادٍ ، ومن مصادرةٍ لحريته فى كتابة رأيه ؟ ممكنٌ أن يقال : نعم !

بيد أنّ هذه المقالة كانتْ تتضمَّنُ حادثة قديمة ، حين أراد أحد كبار المسيحيين أن يُسْلم ، حتى يتمكنَ من طلاق امرأته . وكان لهذا الخبر يومئذ ضجَّةٌ مشهورة ، وتورّط مندور فكتب شيئًا بالغَ الغرابة ، واقترح أن يحالَ بينه وبين الإسلام لأسباب ذكرها ، ثم طالب بوضع تشريع شامل للأحوال الشخصية ، لا مكان فيه للدين ، (والدِّين هنا ، هو الإسلام بلا شكٍّ) ، يسرى على المسلم وغير المسلم على سواء . فظنّ المسكين ، أنه إذا روى هذا الخبر من تاريخ مندور ، ثم أتبعه بالتعليق عليه ، وأيّده تأييدًا ما ، فقد بلغ غاية التحدِّى لخنافس « الملك ميداس » = وأنّ « أخيل » إذا كان قد ودَّعه ومضى ، فإن هذا الفعل ضربٌ من الشجاعة ينفرد به ، وكأنّه أشعل النار فى حواشى « طروادة الجديدة » ، حتى تأتى الساعةُ فتلتهمها النار وتدمِّرها تدميرًا ! هكذا ظنّ ! جُمْجُمة إنسانٍ فيما ترى نواظر الرائين ، إلاّ أنّها فارغةٌ ، مظلمةٌ ، كأنها « صالة سينما » أعدّت لعرض أفْلام السمادير !

إنّ هذا كُلّه سخفٌ ، ولكن ما معناه ؟ فهذا فعل « أجاكس عوض » يومًا بعد يوم . ومنذ أشهر كتبتُ عن « مثقفٍ » آخر ، يقال له « الدكتور زاهر رياض » ، [١] ألف كتابًا عن الحبشة وسماه « الإسلام فى إثيوبيا فى العصور الوسطى ، مع الاهتمام بوجه خاصٍّ بعلاقة المسلمين بالمسيحيين » ، ولم أتعرض لكثير مما جاءَ فيه من البلايا والرزايا ، وإنما اقتصرت على ما يُغْنى فى الدلالة على أنه هو أيضًا « صبى مبشِّرٍ » ، شديد الشبه بأجاكس عوض ، وإن كان يفارقه فى هدوء الطَّبْع ، وخفاء الخطو ، وقلة التهوُّر . وأوضحت أن صبىّ المبشر هذا لم يستح ، ولم يبال أنْ يضمّن سياق كلامه طعنًا متوارَثًا منذ عبد المسيح بن إسحق الكندى ، حيث يزعمون أنّ رسولُ الله ﷺ إنَّما تعلَّم على راهبٍ يقال له سرجيوس ، فجاءَ هذا الأستاذ المبشر يدسُّ فى كلامِه أن النبىّ ﷺ : « كان يعاشر أهل الكتاب ويتعلَّم منهم » ، أو كما قال (انظر المقالة الثالثة عشرة) ، وأتَى مع ذلك بهراء كثير وسوءِ أدبٍ ، وهجم على تكذيب أحاديث رسول الله ﷺ ، معتمدًا على شىء لا قيمة له يقال له « كبرانجست » ، وأحدث لنا فتاوى فى ديننا بجهله ، وسخر من مؤرخى المسلمين ، وهو لم يفهم شيئًا مما قالوه ، بل كذبَ أيضًا فيما نقل عنهم ، ورواه على غير وجهه ليضحكَنا منهم بخفة دمِه . ومع كلّ ذلك ، فلم تكد تمضى أيّام حتى منح هذا المبشّر درجة « مساعد أستاذ » [٢] ، بعد أن كونت الجامعة لجنة أخرى ، غير اللجنة التى رفضَت أن تعدَّ ما يؤلفه كتبًا تدخل فى نطاق تأليف الأساتذة الجامعيين ! وكان الحقُّ فى شأنه أن يُفْصَل من الجامعة ، ويُحَالَ بينه وبين إفساد عقول الطلبة فى معهد الدراسات الإفريقية ، لأنه لا يزيدُ على أن يكون مبشرًا ضالعًا مع أدوات الاستعمار ووسائله وآرائه ومعتقداته ، كما يتبيَّن ذلك مَنْ قرأ شيئًا من كتبه الأخرى ، غير هذا الكتاب الذى كشفنا قليلًا جدًّا مما جاء فيه . والصلة بين هذا الأستاذ وبين دُمْيَة المبشرين « أجاكس عوض » ، صلةٌ معروفةٌ .

* * *

---

(١) انظر ما سلف : ٢٣١ - ٢٥٠ .

(٢) انظر ما سلف ص ٢٥٠ .

ثم يجىء صبىٌّ آخر ، تخرَّجَ من كليه الحقوق منذ سنين ، وهو « ماهر سامى يوسف » ، ذكرنا أمره فى المقالة الثامنةَ عشرة ، [١] فجاء يشهد على نفسه أن ليس له إلمام كبيرٌ بالأمور الدينية ، (وليس عنده بالطبع أى إلمام بها ، لأنه غير مسلم) ، فيهيجهُ أن رأى وكيل نيابة نَشَرَ كلمةً فى جريدة الأخبار ، يطلب إعادة حكم الله سبحانه فى محكم كتابه ، بقطع يد السارق ، فيرسل إلى الأستاذ الصاوى رسالة يصف فيها هذا الحكم الإلهىَّ بلسان سليط ، بأنه انقضاضٌ بمنطق السلطة والقوة الغاشمة على الفاعل ، فيسومه صنوف العذاب والانتقام ثمنًا لنشاطه الإجرامىّ ويعدُّه تشريعًا لا إنسانية فيه ، ويصفه ، بعد مكر طويل ، بأنه تشريع وحشىٌّ . ثم يهيجُ أيضًا ، فى آخر كلمته ، على من زعم أنّ القوانين المدنية أثر من آثار الاستعمار ، ثم يُجَنّ جنونه فيختم كلمته بقوله : « هذه وجهة نظرى ، أسوقها كما أراها ، أرفضُ فيها بشدَّةٍ الرأىَ الذى يطالبُ بإعادة توقيع عقوبة قطع اليد ، بالنسبة للسارق » ، كأنه يظنُّ فعلًا وحقًّا وصدقًا أنه هو له وجهة نظر ، وأنه من أصحاب الرأى . وهذا الغلام السليط ، يُرى أكثر ما يُرَى أيضًا فى أذيالِ « أجاكس عوض » .

* * *

ثم يأتى إنسان آخر يقال له « سامى داود » (وهو مشهورٌ ، ولكن سياق العبارة يقتضى ما أثبت) ، فيهتبلُ هو أيضًا موت مندورٍ ، كما فعل صاحبه وصديقُه من قبله « أجاكس عوض » ، فيقف هو أيضًا على تلالِ أورشليم ليتكذّب [٢] ، وذلك فى صحيفة الجمهورية (٢٤ من المحرم سنة ١٣٨٥) ، فيقول ما نصه :

« وكانت حياتنا الجامعية (يعنى فى سنة ١٩٣٩ ، وكان هو طالبًا فى قسم اللغة العربية) . قد بدأ ينتابُها الركود والملل ... أشباح الرجعيّة كانت قد بدأت تتسلَّل إلى أجواءِ جامعاتنا العزيزة ، ممسكة بأيديها غلالات قائمة تنشرها على كُلّ شىءٍ » .

وبالطبع لا يستطيع أن يزعُمَ هذا الرجل أنه يعنى بالرجعية ، ما زعمه « أجاكس

(١) انظر ما سلف ص : ٣١٧ ، وما بعدها .

(٢) انظر ما سلف من الوقوف على تلال أورشليم ص : ٣٤٤ التعليق : ١ .

عوض » ، من أنه عنى بالمدينة السوداءِ ذات الأبراج الكئيبة ، والأسوار العالية : الرجعية ، وأنها هى رجعية السياسة ، ورجعية الفكر ، ورجعية المال ، ورجعية النظم الاجتماعية . لا يستطيع ذلك ، لأن مصر كلها على هذا الرأى ، كانت تعيش فى رجعية : فى الجامعة وفى غير الجامعة ، إنما يعنى شيئًا بعينه ، وصل إليه بعد أن تعب وادَّعى ما لم يكن له فيه ناقة ولا جمل ، كما يقولون ، فقال :

« وخلت الجامعة من الحماس (وهذا المصدر اكتسبه من دراسته فى قسم اللغة العَربيَّة !! والصواب « الحماسة ») . لم نعد نعرفُ من المعارك ، إلاّ معركة تدورُ حول كتاب لبرنادشو يقرؤه طَلَبة قسم اللغة الإنجليزية ، فتأتى جحافل الرجعيّة (خذ بالك جدًّا !) تعتدى على كلية الآداب ، وتقتحم مكتب عميدها ، وتحطم ما تستطيع تحطيمه من أثاثها » .

وقبيحٌ بالمرء أن يكون كذَّابًا ، وقديمًا كان يقالُ : « إذا كنتَ كذوبًا فكُنْ ذكورًا » . فالمعركة التى يذكرها سامى داود = وهو إنسانٌ مترفّق جدًّا ، ناعم الملمس جدًّا = لم تكن حول كتابٍ نكرةٍ لبرناردشو . ولم ينفرد بها هذا الكتابُ وحده . فيحسن إذن أن نقصَّ القصّة ، ليقف القارئَ على الروابط التى تربطُ هؤلاء الناسَ بعضهم بعض ، على رغم ما يُفزِع المترهّبة من سكان أديرة « التبشير » .

كانا كتابين يدرّسان معًا ، فى سنة واحدة ، أحدهما هو « جان دَرْك » لبرناردشو . وفى سياق أحاديث هذه القصة ، مقالةٌ لرجل يقال له « كوشون » ، ذكر أن جان درك كانت تبعث بكتبها إلى ملك الإنجليز ، لكى يخضع لأمر الله الذى أوحى إليها ، فيعود إلى جزيرته ، وإلا باء بغضبٍ من الله ، وأنها هى ستنزل عليهم غضبه ثم يقول ما نصه : « ألا فاعلموا أنّ إرسال هذه الكتب عادةٌ جرى عليها قديمًا محمد عدوُّ المسيح » . ثم مضى يصف أمر هذه الفرنسية المتنبئة فقال : « وبمثل هذا قام عربى جَمّال ، فطارد المسيح وكنيسة المسيح ، حتى طردهما جميعًا من أورشليم ، ثم مضَى يضربُ فى الأرضِ ، فيبثُ فيها الفزع والخراب . حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب (وهى جبال البرانس) دونه ، وقامت رحمة الله ، وحِيلَ بين فرنسا وبينه ، فنجت من لعنة الله . فما صنع هذا الجمال العربىُّ فى بداية أمره أكثر

مما صنعت هذه الفتاة ؟ جاءه الوحى من جبريل ، وجاءها من القديسة كترينة ، والقديسة مرغريت ، والمبارك ميخائيل = وأذّن فى الناس بأنه رسول الله ، وكتب الكتب إلى الملوك باسم الله » . ثم يقول بعد قليل : « إنا والحمدُ لله الآن بخيرٍ ، فليس فى الدنيا إلا محمّد ومخدوعوه ، وإلا الفتاة جان ومخدوعوها . ولكن كيف يكون الحالُ ، إذا خالتْ كُلُّ فتاةٍ أنها جان ، وخال كُلّ رجُلٍ أنه محمّد ؟ » .

ثم تأتى بعد ذلك أسطر قالها رجُل من رجال القصة يقال له « ورك » ، فزعم أنه حجّ إلى بيت المقدس ، ورأى بعض أتباع محمد ﷺ ، قال : « فلم أجدْهُم من سوء الأدب بالمكانة التى أفهمونيها قبلُ ، بل وجدت لهم أدبًا لا يقلّ من بعض الوجوه عن أدبنا » .

* * *

وبالطبع هذا شىء لا يثير سامى داود أو أجاكس عوض إذا سمعه أو قرأه ولكنه أثار « الرجعية » أى المسلمين ، ولكن هل كان هذا وحده الذى أثارهم ؟ كلاّ ، بلا ريبٍ !

كان فيما هو مقررّ على قسم اللغة الإنجليزية كتاب آخر ، لكاتب إنجليزى آخر يقال له : « والتر سافيج لاندور « واسمه » محاورات من الخيال » . وفى الطبعة المقررة على هذا القسم فصل كامل بعنوان : « محمد وسرجيوس » ، يستغرق من صفحة ١٨٧ إلى صفحة ٢٠١ ، وهى محادثة توهمها لاندور ، بين رسول الله ﷺ ، وبين هذا الراهب سرجيوس . ولا يعنينى هنا أن أنقل من نصوصها شيئًا ، على قُبح ما جاء فيها ، ولكن هذه الصورة التى صوّر بها هذا الكاتب نبيّنا ﷺ ، صورةٌ سخيفةٌ جدًّا ، لا معنى لها . وأمر « سرجيوس » أمرٌ معروفٌ عندنا منذ كتبه عبد المسيح بن إسحق الكندى ، وقد نقلته بنصه من رسالته التى طبعها المبشرون مرات عديدة ، وكانوا يوزعونها فى مصر مجانًا أيضًا ، (انظر آخر المقالة الخامسة) ،[1] وخلاصتها أنّ هذا الراهب أحدث حَدَثًا أنكره عليه أصحابه من النصارى ، وأخرجوه من كنيسته ، فأفضى إلى مكة ولقى رسول الله ﷺ فلم يزل

(١) انظر ما سلف ص : ١٠٢ .

يستميلُه ، وتَسمَّى عنده نسطوريوس ، ولم يزل يخلو به حتى أزاله عن عبادة الأصنام ، ثم صيَّره داعيًا وتلميذًا له ، يدعو إلى دين نسطوريوس . « تخاريف لاندور » ، لا تخرجُ عن هذه القصة ، بل هى شرحٌ مفصَّل لما يزعمون أنه كان كيف كان .

ثم فى هذا الكتاب أيضًا محاورة أخرى بعنوان : « الكونت جلايشيم ، والكونتيسة ، وولداهما ، وزائدة » ، ولكن هذه المحاورة فى طبعة أخرى وقعت لبعض الطلبة ، ودلَّهم عليها بعض الأساتذة ممن سيأتى ذكرهم ، جرى فيها الحديث على لسان « فلهلم » ابن الكونت جلايشيم (طبعة إفريمانس ص : ٢٧٦) :

« قال فلهلم : لست طفلًا حتى أتوهَّم أن يفرَّ فارسٌ مسيحىٌّ من وجه متمرّد تركى (أى مسلم) فى المعركة . ولكنّ النصارى قد يؤخذون أحيانًا بحيلهم وأحابيلهم وبكلبهم محمد » .

« فتقول له أخته أنابلا : « وأنا ، وإن لم يكن بينى وبينك سوى سنة واحدة ، فليس يَبلُغ بى الحمقُ أن أصدق بوجود كلب يقال له محمد . وإذا صحّ أنّه موجود ، فعندنا كلابٌ خير منه ، وأكثر أمانة ، وأشد قوّة » .

« فيقول فلهلم مخاطبًا أباه : لا أكاد أملك نفسى فلا أضحك ، إذا ما ذكرتُ ما يطوف فى رؤوس الفتيات من خيالات محمد ! فنحن نعلم أن محمدًا ما هو إلا كلبٌ له ثلاثة ذيول كذيول الخيل » .

وأستغفر الله مما خط القلم ، وصلى الله على محمد صلاة طيبة نامية مباركة ، ولعن الله من يقول فى رسوله أو فى أحد من رُسله مثل هذه المقالة . ثم نسأل هذا الآدمى المهذّب المسمى « سامى داود » أَترضَى هذا ؟ وإذا قلتَ : إنّى لم أكن أعرف ! فيقال لك : فما الذى أدخلك فيما لا تعلم ، حتى صَيَّرت نفسك مؤرِّخًا لفترة من الفترات التى عشتها فى الجامعة ؟ وإذا كان الذهول قد بلَغ بك هذا المبلغ ، وأنت تعمل فى الصحافة أفتظنُّ أحدًا يأمنُك بعد ذلك على خبر تقصّه أو تَرْوِيه . ومع ذلك فأنا أسألُك : إذا كنت قد جعلت نفسك فى كلمتك مؤرخًا ، وجعلت نفسك

ممن كان يقود شباب الجامعة ، لتجمع الزعماء « بالدماء ليقودوا معارك الحرية » ، أفلم تكن حقيقًا بأن تعرف حقيقة ما أثار كلية الآداب وكلية الحقوق وغيرهما ، حتى جاءوا يطالبون بإلغاء تدريس هذين الكتابين = وأنت أيها الزعيم الشاب قد سميتهم « غُزَاة » ، جاءوا ليشتبكوا مع طلاب كلية الآداب « فى معركة سخيفة تافهة » !!

ولكنى مُحدِّثك ، إذا لم تكن تذكر ، بمن فرضَ هذين الكتابين على طلبة قسم اللغة الإنجليزية ، أتعرف أم تنكر أنك تعرف أيضًا ، رجلًا كان يقال له « كرستوفر سكيف » ، [1] كان جاسوسًا بريطانيًا محترفًا ، وكان شرلتانًا ، كصاحبك ، وقحًا سيءَ الأدب ، وكان قد ألف جماعة يقال لها « جماعة إخوان الحرية » ، أمرها مشهور فى محاكمات الثورة ، [2] وكان يختار من الطلبة وغير الطلبة لهذه الجماعة شيعةً وأعوانًا ، ويجعل للجماعة ظاهرًا وباطنًا : فالظَّاهر أن أكثرهُ ممن يحملُ أسماءً مسلمة ، والباطنُ لا داعى لذكره ، فأنت أعلم به . ولا بأس ، إذا كنت قد نسيتَ ، أن أذكِّرك بأن صاحبك « أجاكس عوض » أهدى إليه كتابه « بلوتولند وقصائد أخرى » فى سنة ١٩٤٧ . وهذا الرجل كان مبشّرًا ، وكان جاسوسًا محترفًا ، وكان يقوم فى الجامعة بعملٍ تبشيرى سياسىّ فى آنٍ واحد ، وهو أحدُ الذين فرضوا الكتابين ، فى سنة واحدة ، على طلاب القسم الإنجليزى . هذا واحد .

وآخر ، هو « فِرْنِس » وكان ناظِرًا علينا فى المدرسة الخديوية ، وأنا أعلمُ به منك ، وأعلمُ ما كانَ عليه من الالتواء والشذوذ الذى ينشره بين طلبة المدرسة ، وهو الآخر جاسوس مبشر محترفٌ ، وإن كان يُظْهر الركانة والاتزان والصرامة ، وهو أيضًا من أعوان « جماعة إخوان الحرية » ، ومن مُنشئيها .

وثالث ، وهو « دافيس الأعرج » ، الذى كان يقول يومئذ لبعض طلبة قسم اللغة العربية ، وأنت يومئذ فيه : أتظنُّون أن قسمنا هذا كقسم اللغة العربية ، يمنح « الدكتوراه » لكلِّ من كتب كلمتين عن القرآن ! يقولها علانيةً بلا حياءٍ ولا مواربة . وهو أيضًا من الجماعة .

---

(١) انظر ما سلف ص : ٨ ، ١٢ ، ١٣ .

(٢) كان منها لويس عوض ، وغيره ممن تسمع اليوم أسماءهم .

ورابع ، يقال له « بيفن » ، وهو معروف عند من كان يرتاد نادى الجزيرة ، ويعلمُ عنه الناسُ صلته بالمخابرات البريطانية ، واشتراكه فى كثير من المؤامرات التى كانت تُحَاك يومئذ فى بلادنا ، وهو من الجماعة أيضًا .

أتذكر هذا كُلَّه أم تُرَاك نسيته ! وإذا كنت قد نسيته فلا تَنْصِبْ نفسك مؤرِّخًا تشقى باحتجان الأخبار ثم سَوْقِها على غير وجهها الذى كانت عليه . وينبغى الآن أن تسأل نفسك : فى أىّ أمَّةٍ يقبلُ الناسُ أن يدرس فى مدارسها أو جامعاتها كتابان فيهما من البذاءة والتعريض ، ما فيهما ؟ أَوَ تظنُّ أن روائع برناردشو ، ليس فيها كتابٌ يستحقُّ أن يدرس فى الجامعة سوى هذا الكتاب ؟ وهل تظنُّ أن دراسة الأدب الإنجليزى فى الجامعة المصرية ، إذا هى خلت من كتاب « لاندور » ، أصابها الخَلَل واضطربت ولمْ يُصْبِح لها معنى ؟ وكاتب مقدمة النسخة المطبوعة فى أكسفورد يعترف صراحة بأنه عند عامة القراء مجرّد اسم ، وأنّ المحدثين يغفلونه ولا يقدرونه حقّ قدره ، فما حاجة طالب مصرىّ إلى مثل هذا الكاتب ؟ وما حاجته حتى يكون موضوعًا للدراسة دون سائر كُتَّاب الإنجليز ؟ وما معنى أن يتضمَّن كتابان معًا ، وفى سنة واحدة ، طعنًا فى رسول الله ﷺ .

وإذا وقف الطلبة المسلمون على مثل هذا البَذاءِ المكتوب ، وعلى هذا الاتجاه المقصود الذى لا يمكن أن يأتى اتفاقًا بحالٍ من الأحوال ، فهل تراهم معذورين إذا ثارُوا ، ورأوا أن الأمر قد خرجَ عن حدود الأدب ؟ وإذا كان من كانَ قد امتنع عن الاستجابة لطلبهم إلغاءَ تدريس هذين الكتابين ، فهل يمكنُ أحدًا أن يؤيده فى امتناعه ؟ إن قسم اللغة الإنجليزية ، كان قسمًا مُعَدًّا للتبشير الثقافى الصفيق ، وكان معدًّا لاكتساب مروّجين للتفاهُم بين المصريين وبين مستعمريهم ، ولكن كيف أطالبك أن تعرفَ هذا ، وأنت لا تستطيعُ أن تتذكَّر شيئًا ؟

* * *

وإذا شئت أن تعرف بعضَ ما أقول ، فإنى محدِّثك بأنك نشرت كلمتك هذه فى يوم الثلاثاء (٢٤ من المحرم ١٣٨٥ ، ٢٥ مايو ١٩٦٥) ، وفى اليوم التالى ينشر من لا أراك تجهله ، وهو الأستاذ « أسعد حليم » ، وذلك فى جريدة الأخبار (٢٥

من المحرم ١٣٨٥ ، ٢٦ مايو ١٩٦٥) ، وفى باب « فى كلمتين » مقدّمًا للناس خبرًا مهمًّا جدًّا ، عن موافقة مجلس اللوردات البريطانى على تعديل قوانين الشذوذ الجنسىّ ، [١] وإباحته للبالغين الرشدَ !! فيذكر حفظه الله كتابًا يتحدث بصراحة غريبة عن الشذوذ ، ويعدُّه حالة من حالات الطبيعة !! ويذكر كثيرًا من الشخصيات التى مارست هذا الشذوذ ، فكان ممن ذكرهم « كتشنر » ، فيأتى هذا المحقق المؤرخ الكاتب فيقول : « هل نستطيع أن نصدّق المؤلف فى كلامه عن « كتشنر » ، الرجل الذى كان لَهُ دوره فى السودان ، وفى مصر ، والذى أقيم مستشفى لتخليده فى شبرا » !!

لحساب من يكتبُ هذا الكاتب ؟ وبأى قلبٍ يكتبُ ؟ أصحيح أنّ « كتشنر » كان له دورٌ فى مصر والسودانِ ، يبلغُ من النقاء والصفاء والشرفِ ، والنفع ، والخلق القويمِ ، والعدل ، أن يستنكر هذا الكاتبُ عليه أن يكون مصابًا بالشُّذوذ ؟ أيحسبُ هذا الكاتبُ أنه يخاطب بُلْهًا غافلين بهذا الكلام الصريح ، كما ظنَّ « أجاكس عوض » أنّ « طروادة الجديدة » وهى مصر أيضًا ، لا تستطيع أن تفهم رُموزه الخبيثة التى يُلْقيها على الناس ؟ أصحيح أن مصر قد أقامت مستشفى شبرا تخليدًا لذكرى « كتشنر » ؟ أم هذه كلها دعوة واحدةٌ معروفُة المصدر تُبَثُّ فى الناس تحت ستارٍ من حُرّية الرأى ، وحرية الاعتقاد ؟ أأسكت أم أزيد ، مَثَلا بعد مَثَلٍ ؟

* * *

إنّ هذا العبث الذى يجرى اليوم فى الصحافة ، وفى الكتب ، وغيرهما مما يقال ويكتب ، شىء لا يحتمل . وإنها لأيّام عصيبةٌ تمرُّ بالعالم العربى والعالم الإسلامىّ ، أيَّامٌ تقف فيها جميع القوى الصليبية فى العالم الأوربىّ ، لتُنزل بنا ضرْبة قاصمة ، [٢] وأقوى أسلحتها اليوم هى أسلحة الكلمة ، فى الثقافة والدعاية بجميع ألوانها ، وهى تتَّخذ لها أعوانًا ينبثُّون فى كُلّ ناحية ، ويعملون فى كل ميدان ، وينفثون سمومهم بكُلّ سبيل . فإذا غفلناَ وأطرقْنَا وتركنَا لكلّ خبيثٍ حرّية العبث بتاريخنا ، وبآدابنا ،

---

(١) انظر ما سلف ص : ٣٢٧ .

(٢) نزلت القاصمة فى ٥ يونيه ١٩٦٧ ، بعد كتابة هذا النذير فى يونيه ١٩٦٥ .

وبأخلاقنا ، وبماضينا ، وبحاضرنا ، يفعَلُ ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويتولَّى أخطَر المناصب التى يكون للكلمة فيها تأثيرٌ فى الشباب وغير الشباب ، فقد جعلنا لعدوّنا علينا سلطانًا يَصْعبُ الإفلاتُ من قبضته إذا أطبقت علينا .

وواجبُ كُلّ امرئ أن يتتبَّع هذه الأقوال والكلمات ، وأن يربط بينها ، وأن يدلَّ عليها من يستطيع أن يعبّر عنها ، أو من بيَدِه زمامٌ من الأزمّة هو عليه مؤتمن . فإن الأمر إذا انتشر بهذا التهاون فى مدارسنا ، وفى بيوتنا ، وفى شوارعنَا ، لم نأمَنْ غدًا يأتى نحتاجُ فيه إلى جمع الكلمة ، فلا نجدُ سوى الفُرْقة . وقد كشفتُ ما استطعت عن بعض ما يربط « أجاكس عوض » ببعض شيعته التى تعمَلُ من ورائه ، وبالينبوع الذى تنبع منه آراؤهم ، وبالهدف الذى يسعى إليه « التبشير » و « الاستعمارُ » من بثّ هذه الآراء . والحياة اليوم ليست لهوًا ، بل هى حياةٌ مضطربةٌ شديدة الغوائل ، مخوفُة الدقائق والساعات ، فمن أخذها بجدّها فقد نجا ونجا الناس ، ومن فرَّط فى شىء من صغيرِ أمرها أو كبيره ، فقد هَلَكَ وأهلكَ الناسَ .

لَيْسَ الطَّرِيقُ هُنَالِكَ

الرسالة

الخميس : ١٤ من صفر سنة ١٣٨٥



٢٢

إنى لأَجِدُه حقًّا على أن أفسِّر أشياء ، أنا فى نفسى غنىٌّ عن تفسيرها لأحد . ولكن الكاتب معلَّقٌ بقارئه ، فإذا أغفل أن يجعل قرَّاءه على بيّنة من طريقه ، كان خليقًا أن يصبح فيجد بينه وبينهم سدًّا مضروبًا ، يعوقهم عن إدراك حقيقة ما يقول ، أو يتركهم فى اختلاف يقطعهم عن النفاذ إلى الغاية التى من أجلها يكتب ما يكتب. وكم من كاتب فى هذه الأرض ، على اختلاف ألسنة أهلها ، قَضَى عمره يستصفى للناس عُصارة تجاربه فى كلمات ، ثم خرج من الدنيا وكأنه لم يقُلْ شيئًا ، ولم يكتب شيئًا . ثم يأتى على الناس زمان ، فيجدونه قد أبرأ ذمَّته ، وأدَّى للناس أقصَى حقهم عليه ، ولكنهم ذهلوا عنه ، وأعْفَوْا أنفسهم من الأناة على فَهْم طريقته أو أسلوبه ، لِعِلّةٍ قائمة فى بيانه عن نفسه ، أو لعلةٍ قائمة فى أنفسهم ، حالت بينهم وبين بذل الجهد فى متابعته ، وفى تقصِّى الوجوه التى يحتملها كلامه ، فلم يأخذوا عنه إلا أهون ما يقول ، وأقرب ما يريد . فمن أجل ذلك ، ومن أجل الأمانة التى أجدنى أحملها ، ومن أجل أهلى وعشيرتى ، وجدته حقًّا على أن أفسِّر شيئًا ، أخشى أن يؤدِّىَ تركُ تفسيره إلى الإخلال بحق هذه الأمانة .

* * *

يوم بدأت أكتب هذه المقالات ، وأنا على مثل اليقين من أن بينى وبين الناس فجوةً قد انخسفت واتَّسعت ، من سوء التقدير أن أُغفلها وأُسقطها من حسابى ، لكى أتخفَّف من عِبْءٍ كُتِب علىَّ أن أحمله . فلذلك بدأت حريصًا أشدَّ الحرص على أن أسير خطوات ، خطوة بعد خطوة ، بلا عَجَلة أو تسرع . وأحب أن أجعل كلَّ قارئ على محجة بيضاء ، لا يشتبه عليه فيها شىء ، حتى تضيق هذه الفجوة التى بدأت واسعة ، ثم ضاقت قليلًا ، فوصلت بينى وبين كثير من القرّاءِ ، ولكنها زادت اتساعًا بينى وبين آخرين ، لأسباب سأذكرها فيما بعد . ومن حق هؤلاء على ، أن أَمْحَضَهم

أقصَى ما أجد من الإبانة ، فإن وجدونى على حق ، فذلك من توفيق الله ثم من فضلهم علىَّ ، وإن وجدونى مُبْطِلًا ، فأنا أحقُّ الناس أن أفارق باطلى إلى حقّهم غير مستنكف ، وشرٌّ من مقارفة الباطل ، إقامة المرء استكبارًا وعلوًّا .

كان الأمر عندى منذ أوّل يوم واضحًا . رجل كتب شيئًا ، فرأيت فيما كتب أشياء . كان هذا الرجل عند الناس معروفًا على صورة ، وعرفته أنا على صورةٍ مناقضة لما يرون تمامَ المناقضة . والطريق الذى عرف الناس به هذا الرجل على الصورة التى توهَّموها ، هو ما كتبه بقلمه ، والطريق الذى عرفت به هذا الرجل على صورته عندى ، هو نفس الشىء ، هو ما كتبه بقلمه ، فاجتمع لى وللناس أمران :

الأول : ما كتبه هذا الرجل من شىءٍ ، رأيت أنا فيه أشياء أعيبها .

والثانى : صورة هذا الرجل عند الناس ، وصورته عندى .

وهذان الأمران موضوعان بلا شك ، ولكنهما موضوعان مختلفان كل الاختلاف ، لا فى جوهرهما فحسب ، بل فى الطريقة التى يُعَالج بها كُلٌّ « موضوع » منهما على حِدَتِه ، أليس هذا واضحًا ؟ أليس هذا صحيحًا ؟ أظنُّ أَن : نعم ! فإذا أراد ناقد أن ينقد ما كتبه هذا الكاتب ، فسبيله أن يتناول « مادة » ما كتب مجرَّدةً ، ثم يقول فيها ما يشاء من تحسين أو تقبيح ، أو موافقة أو مخالفة ، أليس هذا واضحًا ؟ أَوَ ليس هذا أيضًا صحيحًا ؟ أظنُّ أَنْ نعم ! = وإذا رأى الناقد أن ما كتبه الكاتب قد خالطه شىء مما له صلة وثيقة بالصورة التى يراه بها الناس ، والصورة التى يراه هو بها ، صار الأمر معقَّدًا بعض التعقيد . لأن هذه « الصورة » نِتاج طبيعىّ استولده الناس من كتابة هذا الكاتب ، واستولده الناقد أيضًا من كتابة هذا الكاتب . أليس هذا واضحًا ؟ أو ليس هذا صحيحًا ؟ أظنُّ أَنْ نعم ! = وكلام الناقد فى « المادة » وكلامه فى « الصورة » ، كلام « موضوعى » بلا ريب . أليس هذا واضحًا ؟ أو ليس هذا صحيحًا ؟ أظنُّ أنْ نعم !

وإذا كان لكل كاتب هدفٌ فيما يكتب ، أليس من حق الناقد أن يستبين هذا الهدف ؟ أليس من واجبه ؟ أظنُّ أنْ نعم ! = فإذا كان الهدفُ الذى يرمى إليه

الكاتب ، متعلِّقًا أشدَّ التعلُّق بنفس « الصورة » التى يعرفها الناقد عنه ، أفليس من حق الناقد ، أَوَ ليس من واجبه ، أن يستخرج من « الصورة » نوازعها ودوافعها ، لكى يستطيع الإبانة عن حقيقة « الهدف » الذى من أجله كتب الكاتب ما كتب ؟ أظنُّ أَن نعم ! = وإذا كانت « الصورة » التى يعرفها الناقد ، لا تنشأ إلا مما كتب الكاتب قديمًا وحديثًا ، أفليس من حق الناقد ، أَوَ ليس من واجبه ، أن يحلّل ألفاظ الكاتب ، وأسلوبه ، وطرائق تفكيره ، وترابُطَ عباراته وجمله ، حتى يتمكن من إعطاء « صورة » كما يراها هو ، لا كما يراها الناس ؟ أليس هذا صحيحًا ؟ أظنُّ أَنْ نعم !

وإذن فتحليل « المادة » ، وإعادة تكوين « الصورة » ، أمر لا مفرَّ منه ، إذا رأى الناقد أن للكاتب « هدفًا » فيما كتب ، ولا سيما إذا كان الكاتب كاتبًا يضمِّن ما يكتب كثيرًا من عواطفه وانفعالاته ، بطريقة واضحة شديدة الوضوح . والناقد عندئذ ناقد « موضوعى » - لا يخرجه عن « الموضوعية » أنه مضطرٌّ أن يناقش « مادة » ، فى نفس الوقت الذى يحلِّل فيه « صورة » ، ويعيد تكوين معارفها ومعالمها . ويأتى التعقيد الذى أشرت إليه من شىء لابد من معرفته .

وذلك أن مناقشة « المادة » أمرٌ مألوف قد طال الأمدُ عليه ، فالناس يأخذونه مأخذًا قريبا لا يُثيرهم ولا يَصْدِمهم فى شىء ، أمَّا تحليل « الصورة » وإعادة تكوين معارفها ومعالمها فهو عسير بعض العسر ، لأنه ربّما أثار وربما صَدَم . فأنت إذا أردت تحليل « صُورَة » شاعرٍ أو كاتب قد خَلاَ وتباعد زمنه عن زمان الناس ، تلقّاه الناس بلا استنكار لما تقول فيه من معروف أو منكر ، إلاّ أن يكون أحدهم له محبًّا ، وبه معجبًا ، وإليه مائلًا ، فربما أثاره ما تقول فيه أو صَدَمه . بيد أن الأمر يختلف اختلافًا كبيرًا إذا كانت « الصورة » صورة شاعرٍ حىٍّ بين الناس أو كاتب ، فالعلاقات بين الأحياء أشدُّ توترًا ، وأقرب إلى سرعة الاهتزاز ، فالمحبُّ له والمبغضُ ، كلاهما سواء فيما يجد من الإثارة . فهذا يثيره إلى الإعجاب بك ما تقوله فيه ، وذاك يثيره إلى الاستنكار عليك ما تأتى به . ولكن هذا أمرٌ لا مفرَّ منه ، فالناقد يرتكبه وهو على ثقةٍ ، أو ينبغى أن يكون على ثقةٍ ، من أنه مُلاقٍ من الإعجاب والاستنكار ، ما هو ضرورة ملازمة للموضوع الذى يتناوله بنقده ، وتحليله ، وإعادة تكوينه . وهذه بداهةُ فيما

أظن ، ولكن ربما جَرَف الهوى فى تيّاره هذه البدائةَ ، فيزداد المنكر عليك إنكارًا ، فربما غَلا فى إنكاره ، وربما خَفَّض بعض إنكاره ، تبعًا لما عنده من القدرة على الإنصاف والعدل ، ومن النظر وحسن التهدى إلى طبائع الأشياء ، ولكنه يبقى على كل حال مغاليًا فى الإنكار ، سواء ساق إنكاره فى صورة عتاب ، أو فى صورة ذمٍّ ووقيعةٍ .

ولما كان تحليل « الصورة » وإعادة تكوين معارفها ومعالمها ، متعلقًا بشخص حيٍّ سَاعٍ فى الأرض . فمن المعقول الذى ينبغى للناقد أن يعرفه ، أن المنكر عليه إذا أراد أن يصوغ إنكاره فى عبارة مؤدِّية عمّا فى نفسه ، فهو خليق أنْ يزعم أن هذا التحليل والتكوين ، ليس « موضوعيًّا » ، بل هو « شخصىٌّ » محضٌ ، وذلك إنكار لا مفرَّ منه أيضًا ، ولا سيما إذا كان الأمر شديدَ الظهور ، وكان ناقضًا لكل ما عند المنكر من اعتقاد فى الكاتب الذى يحلله ويعيد تكوين صورته . ولكن ينبغى أن لا يفزع الناقد من هذا اللفظ ، إلاّ إذا كان دافعُه إلى النقد أمرًا « شخصيًّا » يقوم بينه وبين من ينقده ، لأنه عندئذ خليق أن يرتكب فى نقده ما ينبغى أن يخلو منه ، وهو ترك الإنصاف وتحكيم عاطفة البغض أو الحب فى تفسير كلام الكاتب . ومع ذلك ، فالناقد نفسه ، معرَّضٌ لمثل ما فعله هو بالكاتب وصورته ، وظهورُ تحيُّزه قريبٌ ، لأن الاحتكام إلى كلام الكاتب ، خليق أن يكشف عن مقدار تحامله عليه ، إذا اتَّبع المرء نفس طريق التحليل وإعادة التكوين ، فهذا هو الضابط الذى يفصل بين الناقد الذى يتناول « **صُورةً** » ، ويعالجها معالجة « **موضوعية** » ، والناقد الذى يتناول « **صورة** » ويعالجها معالجة « **شخصية** » .

وأخوفُ ما يُخَاف فى وصف هذا العمل « **الموضوعىّ** » بأنه « **شخصىّ** » ، إنما يأتى من الأمور التى تتعلق بشخص الكاتب ، من حيث هو كاتبٌ تدل كتابته على شخصية كاملة . فالكاتب ربما كان سيئَ الهدف ، وكان مع ذلك عاقلًا شديدَ العقل ، وربما كان مضطربَ العقل مسترخِىَ القُوَى ، مع خلوِّه من سوء الهدف . فليس لسوء هدفه يوصف الكاتب بما لا تدلُّ عليه عباراته من استحكام العقل والنظر ، ولا لحسن هدفه يوصف الكاتب بأنه ركين عاقل . وكذلك أمره فيما أصاب

فيه وما أخطأ ، فالإصابة لا توجب له صفةً ليست له ، والخطأ لا يستدعى إليه صفة هو منها برىء .

بيد أن الناقد لا يستطيع أن يتخلَّى عن استحداث « الصفات » لكاتبٍ ينقده ويحلّله ويعيد تكوين صورته . لأن « الصورة » إنما تعرف وتستبين وتظهر بالألفاظ التى نسميها « صفات » . ولما كان ذلك كذلك ، فالناقد إذا لم يجد بُدًّا من استعمال ألفاظ بعينها ، هى للكاتب « صفات » ، وكانت هذه « الصفات » مما يُنكره الناس أحيانًا ، فهو مهدَّدٌ تهديدًا شديدًا بأن يقال له : إن الذى تكتبه ليس « موضوعيًّا » ، بل هو « شخصى » ، لأنه ينال من « صورة » شخص يتولى الإبانة عن نفسه بالكتابة . فهذا مَأزِق ضيّق ، يقع فيه الناقد ، إذا وقع هو على « شخص » فيه « صفات » منكرة ، لا تظهر إلا من تحت بناء الألفاظ والتراكيب . وظهورها من تحت بناء « الألفاظ والتراكيب » ، ليس من اليسر بالمكان الذى يجعلها قريبةَ المُتَنَاوَل لكل قارئ من القراء ، أو صديق من الأصدقاء .

وإذا كان ذلك كذلك ، فمن اليُسْرِ بمكان ، أن يأتى المحب فيقول للناقد ، صادقًا أو غير صادق : هذا نقد « غير موضوعى » ، بل هو « شخصىّ » . ومن اليُسْر بمكان ، أن يأتى هذا المحبّ ، فيلقى بين الناس مقالة يقولها ، صادقًا أو غير صادق : هذا نقد « غير موضوعىّ » ، بل هو « شخصىّ » . ومن اليُسْرِ بمكان ، أن يصدّق ذلك ناس ، إمَّا لأنهم لم يقرأوا ما كتبه الناقد متتابعًا = أو قرأوه متتابعًا ، ولكن عرض لهم النسيان = أو قرأوه متتابعًا ، ولم يعرض لهم النسيان ولكنهم قرأوه متعجّلين ، = أو قرأوه متتابعًا غير ناسين ولا متعجلين ، ولكنهم لم يعرفوا موضع الفصل بين ما هو « موضوعى » فى علاج « مادةِ » الكاتب ، وبين ما هو « موضوعىٌ » أيضًا ، فى علاج « صورة » الكاتب ، بتحليلها وإعادة بنائها وتكوينها ، وظنوا أن كلَّ علاج للصورة ، إنما هو « شخصىٌ » لا « موضوعىٌ » ، وأنه ربما كان « تجريحًا » !!

فإذا بلغ الأمر أن يكون الكاتب إنما تكونت صورته عن طريق الكتابة وحدَها ، وكان منتميًا إلى عصابة من الناس ذواتِ أهداف متعاونة متآزرة ، وكان لهذه العصابة فى الناس مظهر ورأىٌ ، فاسد أو غير فاسد ، وكان لهم نشاطٌ وسَعْىٌ فى الأرض ،

وروابطُ تخفَى أو تظهر ، وكانت لهم ألسنة تجولُ وتتنقل من مجلس إلى مجلس ، ومن مكان إلى مكان ، وتُزَوِّر أقوالًا مرتبةً ، وتَلْقَى بها أسماعًا غير متأهِّبة لحسن الاستماع ، إمَّا عن عَجلة ، وإمّا عن كثرة شواغل = فإنّ الناقد يقع عندئذ فى خليَّةِ نَحْل من الأصوات التى تقول وتتكلم ، وفى وَرْطة من الأسماع التى لا تعطى الكلمة حَقَّها من حسن الاستماع ، وهو الأناةُ ، والصبرُ ، والمراجعةُ ، ونقدُ الأقوال الملقاة إليها ، وتمييزُ أصحابها من هم ؟ ومن يكونون ؟ ولم قالوا ما قالوا ؟ وهل هم صادقون فيما يقولون ؟ أم كاذبون مُزَوِّرون ؟

وبيِّن ممّا حاولت الإبانة عنه : أنّ علاجَ « صورة » الكاتب ، أمرٌ « موضوعىٌّ » ، لا « شخصىٌّ » ، ولا « ذاتىٌّ » ، وأنه ليس بتجريح للكاتب ، إذا كانت « الصفات » التى يستحقُّها ، مستخرجةً من نفس كلامه ، من نفس منطقه ، من نفس تفكيره ، من نفس ضميره ، من نفس هدفه . وكلُّ لفظ يتضمن « صفة » من صفاته ، لا يمكن أن يعد « تجريحًا » ، إذا كان مَأْتاهُ من تحليل الكلام والأهداف ، مهما بلغت هذه « الصفات » من القسوة ، أو الغرابة ، أو الاستنكار . بل الأمر المستنكر كل الاستنكار على الناقد ، والأمر القادح فيه وفى نقده ، أن يخون الأمانة ، حين يجد كاتبًا مختلَّ التفكير ، بيِّن الضغينة ، بَذِىء النفس ، قبيح الأغراض ، سيىء الأدب ، ويجده يستخدم ذلك كلّه فى كتابته ، ليبلغ إلى هدفٍ سيىء مَعِيبٍ ، فيدعُ ذلك مستورًا ، ويتناول كلامه مجردًا ، وينقده نقدًا « موضوعيًا » . بل أقول أكبر من ذلك : إن الناقد إذا فعل ذلك كان أضرَّ على الناس وعلى عقولهم ، من الكاتب نفسه ، لأنه يظهر هذا التالف الوقح بمظهر من خلا من كل قادح فى تكوين ما يكتبه ، وهو أشدُّ خيانة للأمانة ، وأبعد إيغالًا فى الغش واللؤم وخسَّة الطباع ، وهو فوق ذلك مدلِّسٌ سخيفُ التدليس .

* * *

وأنا حين بدأت هذه المقالات ، نظرت لما فيه مصالح الناس ، ولما فيه أداء حقّ القلم ، ولكل شىء آنَفُ لنفسى أن أقع فيه ، فأخذت « مادة » ما كتبه « أجاكس عوض » ، فأبنت عن تهافتها وسقوطها وانحدارها وخِسّتها ، من حيث هى دراسة

أدبية ، لأن صاحبها ادَّعى « منهجًا » ، فانكشف لى وللناس أنه لا يحسن شيئًا على الإطلاق مما يسمى « منهجًا » ، بل هو جاهل كل الجهل بالدراسات الأدبية على الأصح . فلما فرغت من ذلك فى مقالاتى الأوَل ، أَطَرْت ، عنه هذا « الطَّيْلَسان الجامعى » ، الذى أعلم كيف جاءه ، ومن الذى ألبسه إياه ، ولِمَ أَلْحفَهُ به ؟ وأبَيْتُ إلاّ أن آخذه مجرَّدًا ، لأنّ أخذه وهو فى هذا « الطيلسان الجامعى » ، غشٌّ فاضحٌ ، وخيانةٌ لأكبر أمانة يحملها صاحب رأيٍ أو قلمٍ .

فلما فعلتُ ذلك ، عدت فأخذته من كلامه كله ، قدِيمه وحدِيثه ، فكشفت عن « الحالة المرضية » التى عاش فيها منذ بدأ ، ولم يزل يعيش فيها إلى هذا اليوم ، وألبسته مكان « الطَّيلسان الجامعى » ، صفاته التى استَحقَّها من تحليل « صورته » الناتجة من نفس كلامه ، لا من أهوائى ولا من معلوماتى الخاصة ، فإذا كانت هذه « الصفات » شيئًا مستغربًا لطُول إلْفِ بعض الناس إلحاقَ لفظ « دكتور » باسم هذا الآدمى ، فإلى إزالة هذا الإلْفِ نفسِه عَمَدت لا لشىء غيره ، لأنه بهذا الإلف كان كاتبًا صاحب « صورة » عند الناس . وكان واجبى يقتضينى أن أعمد إلى تحليل هذه « الصورة » منذ نشأتْ ، أستخرج حقيقتها من ألفاظها التى كتبها بانفعال فى « بلوتولند وقصائد أخرى » ، ثم فى سائر ما كتب ، ولم أتجاوز قطُّ الحدَّ الذى بينته آنفًا فى الحديث عن علاج « الصورة » ، هل هو « موضوعى » أم « شخصى » ، فمن استطاع أن يجد أنى خالفت هذا النهج ، وسلكتُ غير ما يجب عَلَىَّ سلوكه ، فليأتنى بذلك فى شىء مما كتبت ، وإلاّ فإنّ الصمتَ أولى به من الكلام سرًّا أو علانيةً . ومن عرف لعلاج « الصورة » ، وتحليلها وإعادة تكوينها ، للدلالة على حقيقة صاحبها ، طريقًا غيرَ الطريق الذى سلكتُ ، فليهدنى إليه ، فإن فعل ، فله على أن أخرج مما كتبتُ بلا مكابرةٍ أو عناد .

وأنا ، بلا ريبٍ ، لم أدخل فى بيانى هذا شيئًا من الوسائل التى يستدلّ بها على « الصورة » الباطنة التى يهتدى إليها من يهتدى من طول تجربته وتنبُّهه إلى ما يغفل عنه غيره . فبعض هذه الوسائل يحتاج إلى خبرة ، كالخبير الذى يقرأ خطَّك ، فيعرف ما يدلّ عليه الخطّ من مكونات الشخصية ، فهذا بحث آخر ، وإن كنت قد

استخدمته فى إتمام « صورة » هذا الآدمى ، على الوجه الذى أعتقد أنى أخلصت له النية ، بلا تحيُّفٍ عليه فى خُلُقٍ ، أو جَوْرٍ فى قضية ، أو ظلم له فى صِفة . ولكن العيب الذى داخل مقالاتى ، إنما جاء من أنى خلطت الأمرين جميعًا خلطًا واحدًا ، فناقشت « المادة » ، وحللت « الصورة » وأعدت تكوينها ، فى سياق واحد ، فربما سبق شىء شيئًا ، فيرى كأنى جئت به بلا دليل عليه . ولكن المتتبع ، خليق أن يجد ذلك كله نسَقًا واحدًا ، إذا هو أتعب نفسه بعض التعب ، فقرأ كل ما كتبته متتابعًا ، بلا عارضِ نسيانٍ ، وبلا سائقِ عجلةٍ ، وبلا تعصُّب لِعصابة لها رأى ، تتناصر عليه بالحقّ وبالباطل .

* * *

وكان هذا حسبى ، إلاَّ أنى قرأت منذ ساعات قلائل كلمة لرجل عرفته ، منذ كان ناشئًا ، ثائرًا شديد الحفاوة بالمعرفة ، مقبلًا عليها ، على حيرة كانت تنتابه وتموج به . وكان معذورًا فى حيرته ، لأن زماننا ذاك ، كان مَيِّته من الأحياء ، من لا يجد فى نفسه شيئًا من الحيرة التى قد تُفْضى إلى نَفْض اليد من كل شىء . ولو بلغ أن يرفض الحياة كلها بفراق الحياة ، لكان معذورًا أيضًا . وأحببته يومئذ ، ولكنه ضلَّ عنى سنوات وأضللته ، ولم أتبينه فى الناس إلا بعد سنوات طوالٍ ، ولم تَنقُصْ غيبتُه عنّى شيئًا مما كنت أجده له فى نفسى ، مع أنه جاءنى وقد تغيَّر أمرُه ، وحمدت من أمره شيئًا وأنكرت أشياء . وهذا الصديق القديم هو الأخ الأستاذ « محمد عودة » فقد كتب متفضّلًا أعظمَ الفضل ، فى صحيفة الجمهورية ، فى يوم الأحد ٢٠ صفر سنة ١٣٨٥ (٢٠ يونيه ١٩٦٥) كلمة لا أستطيع أن أؤدّى حقّها علىَّ ، وذكر فيها « القوس العذراء » القصيدة التى نشرتها منذ قليل . فقد فاجأنى بشىء أُنْكِرُه كل الإنكار ، لأنه وضعنى بمنزلة لا أستحقها فى تاريخ أمّتى العربية ، ولا أرانى أبلغ فيمن ذكر مبلغًا ينظر إليه بعين التمييز . ولا أقول هذا تواضعًا للثناء ، فلست أتواضع ، ولكنى أحاكم نفسى إلى نفوس آبائى وأسلافى ، فأجدنى كالزائدة التى لا نفع فيها ولا خير . وإذا كنت قد جئت فى زمان خلا مما يَزِينه ، فإنما مثلى مثل حارثة بن بدر الغُدَانِّى ، وقد اجتاز بمجلس من مجالس قومه بنى تميم ، ومعه

مولاه كَعْبٌ . فكلما اجتاز بقوم قاموا إليه وقالوا : مرحبًا بسيدنا ! فلما ولَّى ، قال له مولاه كَعْبٌ : ما سمعت كلاما قطُّ أقرّ لعينى ، ولا ألذَّ بسمعى ، من هذا الكلام الذى سمعته اليوم ! فقال له حارثة : لكنى لم أسمع كلامًا قط أكرهَ لنفسى ، وأبغضَ إلىّ مما سمعته . قال : ولم ؟ قال : ويحك يا كَعْب ! إنما سَوَّدنى قومى حين ذَهَب خيارُهم وأماثلهم ، فاحفظ عنى هذا البيت :

خَلَتِ الدِّيارُ فسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدِ   وَمِنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِى بالسُّودَدِ

ثم إنى رأيت الأخ الفاضل ، بعد أن قطع عنقى بثنائه ، كما جاء فى الخبر عن رسول الله ﷺ ، وقد أثنى عنده رجلٌ على رجل فقال له رسول الله ، بأبى وأمّى : قطعت عُنُقَ صاحبك ! قطعتَ عُنُق صاحبك ! قالها مرارًا ثم قال : من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة ، فليقل : « أحسب فلانًا ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحدًا ، أحسبه كذا وكذا » ، وإن كان يعلم ذلك منه = رأيت أخى محمد عودة يقول فى آخر كلمته : « وإذا كانت القوسُ العذراء قد أسعدتنا ، إلا أن بعض ما يكتب صديقنا العزيز الآن ، يترك فى نفوسنا « حَزَّازًا من الوجد حامزًا » ، وذلك مثل هجومه على الثقافة الغربية ، وكأنها فقط كتابات المبشرين المعادين للإسلام والعرب ، ومثل مساجلته مع « لويس عوض » التى توقَّعنا أن تكون إثراء للبحث والأدب ، فانقلبت إلى مهاجمة يستغلّها البعض ، وكنا نُجِلّ الأستاذ الجليل عنها » .

* * *

ولا أدرى من أى أَمْريه أعجبُ ؟ من قطعه ظهرى بالثناء والإطراء ، أم من اتهامه إيَّاى بالجَهْل والسُّخف والعَبث واختلال العقل ، حتى صرتُ عنده ، صورة من « أجاكس عوض » عندى ! فهل يعتقد الأستاذ الصديق أنى أهاجم الثقافة الغربية ، لأنى لا أتمثل هذه الثقافة إلا من كتابات المبشرين المعادين للإسلام والعرب ؟ هل يتصور حقًّا أنى لا أعلم شيئًا عن الثقافة الغربية ، وكل ما أعلمه عنها هو ما يكتبه المبشرون ! هل يتفضل الصديق بإطلاعى على شىء من كلامى يتضمن هذا المعنى السخيف ؟ وإذا شاء الصديقُ أن أصرِّح له بعبارتى أنا ، لا بعبارته هو ، فإنى أقول له بملء فمى : نعم ! أنا عدوٌّ للثقافة الغربية ، ولا أستطيع أن أكفَّ عن مهاجمتها ،

لا لأنها معادية للإسلام والعرب ، بل لشيء آخر غير الذى تتوهَّم . وقد كنت بيَّنْتُ بعض ذلك فى مقالاتى ، ولكنك أغفَلْتَ أن تُلقى إليه بالًا ، إذا كنت قد قرأته ، أو قرأته وأغفلت أن تعرف أسبابه .

وبالطبع ، أنا أعلم أنك أذكى من أن تخلط بين « العلم » الذى هو تُراثٌ إنسانى ، وإن كان ربما زيَّف المزيِّفون فأدخلوا فى مفهوم « العلم » ، شيئًا ليس منه = وبين « الثقافة » التى يزعم رجل مثل « إليوت » فى تحديده لمعناها : أن ثقافة الشعب ، ودين الشعب ، مظهران مختلفان لشيء واحدٍ ، لأن الثقافة فى جوهرها تجسيد لدين الشعب ، ويزعم أن السَّيْرَ إلى الإيمان الدينى عن طريق الاجتذاب الثقافى ، ظاهرةٌ طبيعية مقبولة . وسواء أصابَ « إليوت » كل الإصابة ، أم خلط فى إدراك هذا المعنى بعض الخلط ، فإن جوهر رأيه سليم ظاهر السلامة ، عند من خالفه فى مذهبه ومن وافقه . وقد نقلت فى مقالاتى عن « توينبى » وغيره أقوالًا مشابهة لما يقوله « إليوت » ، لا لأنى أحب أن أستظهر على صواب رأيى بأقوال هذه الأعاجم ، بل لأنّى أرى بعض الناس أسرع استجابةً للأعاجم ، فأحببت أن أضع طرفًا من ذلك بين أيديهم ، إلزامًا لهم بالحجة التى يخرُّون عليها صُمًّا وعُمْيانًا !

فإذا كان الأخ الأستاذ « محمد عودة » يعنى بالثقافة فى هذا الموضع ، ما يكثر البحث فيه ، ويطول اللَّجَاج فى معرفة حدِّه ورَسْمِه ، فى لغات هذه الأعاجم ، وفى لغتنا أيضًا أحيانًا ، فذاك = وإن كان يعنى باستعماله لفظ « الثقافة » ما يستعمله العامّة عندنا من قولهم للشاب الذى دخل مدرسة ، فقضى بضعة أعوام ، فتعلم القراءة والكتابة ، وشدا شيئًا من العلوم والمعارف : هو شابٌ « مثقَّفٌ » ، فذاك شيء آخر = وإن كان يعنى بها ما يعنيه ضرب آخر من العامّة ، من قولهم للرجل الذى يقرأ بضعة كتب بلغة أجنبية ، ويكتب أحيانًا مقالات أو كتبًا ، يترجمها من اللسان الذى تعلمه ترجمة رديئة قبيحة فاسدة ، مثل « أجاكس عوض » ، و « سلامة موسى » وأشباههما ، على اختلاف دلالات الأسماء !! فذاك شيء ثالث ! وهَلُمَّ جَرًّا .

ولكنى أحسن الظن بعقل الأستاذ « محمد عودة » ، لأنى أعرفه معرفة جيدة ، فمن أجل ذلك عجبت كيف غاب عنه هذا كله ؟ وكيف غاب عنه أنى بطبيعة

نشأتى فى هذه العربيّة الشرقية ، وفى سَرَارة هذا الدّين الذى لا يقبل الله من عباده سواه ، يوم يقوم الناس لربّ العالمين ، لا من عامّيٍّ ولا من متعلّم ، ولا من مفكّر ، ولا من عالم ولا من نبيٍّ من الأنبياء = كيف غاب عنه أنى بطبيعة ذلك عدوٌّ للثقافة الغربية ، لأنها نابتة ، فى مدارج نموِّها ، فى بيئة وثنية مسيحيةٍ ، أُنْكِر عقائدَها وأرفُضها ، وأعتقدُ بُطْلانها كل البطلان ، لمخالفتها للذى طالبنا به ربُّنا وخالقنا ، والمنعم علينا بآلائه ونعمه من عقل وبيان . وإذا أنا داهنت فى ذلك أقلَّ مداهنة ، فإنّى على يقين من عذاب الله الذى لا يُغْنى عنّى فى دفعه ثناء صديقى الأستاذ « عودة » ولا إعجابه ، ولا مودّته . فإن الله يقول لنبيه ﷺ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ ، فإذا فعلت فإنى رهينٌ بعذاب بَئِيسٍ .

وخير للأستاذ « عودة » أن يتناول أى كتاب من كتب « الثقافة الغربية » التى تتناول هذا الأمر بالبحث ، ليعلم أن « الثقافة الغربية » ، بهذا المعنى ، هى الحقيقة التى لا يختلف عليها أحدٌ من كتاب الغرب وفلاسفتهم ومفكّريهم . فإذا فعل ذلك ، فهو خليق أن يعلم أنى إذا فعلت غير ذلك ، خُنْت أمانة دينى ، وخُنْت أمانة عقلى ، لأن هذا الدين جاء يعلّم « العَقْل » أوّلًا ، أى حُسْنَ التفكير ، وحُسْن النظر ، قبل أن يطالب الناس بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصَوْم رمضان ، وحجِّ البيتِ من استطاع إليه سبيلًا . ولو أراد الأستاذ الفاضل أن يجعلنى أفهم معنى « الثقافة » على المعنى الذى تقوله العامة ، أو الذى يقول به ذيول « أجاكس عوض » صبىّ المبشرين ، فأنا غير مُطيقٍ له فى الجدّ ، إذا كان الأمر أمر جِدٍّ لا هَزْلَ فيه . وهذا كافٍ إن شاء الله ، ثقة منى بذكاء « عودة » وإخلاصه فى الفهم .

* * *

وأمَّا اتهامه إيّاىَ ، بأنى قد غُصْتُ فى الوَحَل إلى أذنَىَّ ، أعنى اتهامه إياى بأنى « أساجل أجاكس عوض » ، فهذا أعجبُ العجَب ! فأنا لا أساجل شيئًا كهذا ، وهو أيضًا استعمال للفظ فى غير موضعه ، فأصل « المساجلة » ، أن يستقى ساقيان من بئر ، فيخرج كل واحد منهما فى سَجْلِه (أى دَلْوه) مثل ما يخرج الآخر ، فأيُّهما

نَكَلَ فقد غُلِب . فإذا قيل فى مجاز اللغة : « فلان يساجل فلانًا » ، فمعناه أنه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه الآخر ، فأيُّهما نَكَل فقد غُلِب ، ومثل ذلك يقال فى الجدال بالحجج والبراهين . فهل ترى شيئًا من ذلك كان بينى وبين هذا الآدمى ؟ أظنُّ لا . فإذا لم يكن ، ففيم استعملته إذَنْ ، وما كتبتُه دالٌّ على أنى إنما عمدت إلى كشف اللِّثام عن خَبيئة فساد ، متمثلة فى كلام وفى شخصٍ ، أى فى « مادة » وفى « صورة » !؟ أليس كذلك ، أم تُرَاك نسيت ؟

وأما اتهامك أنّ ما زعمته « مساجلة » قد انقلب « مهاجمة » ، فهو أيضًا من وضع الألفاظ فى غير مواضعها . فمثلك لا يمكن أن يجهل أن الطريق الذى سلكتُه ، والذى أبَنْت عنه مرارًا فى ابتداء مقالاتى ، وفى الردّ على زميلى القديم « محمد مندور » ، غفر الله له ، وفى غير ذلك من المواضع ، يقطع بما لا شبهةَ فيه ، أنّى أعالج رسمَ « صورة » صحيحة لآدمى ، أنت أوّلُ من يعلم مقدارَ ما ينطوى عليه من فساد التركيب ، أم تُرانى أخطأت فى تقدير ما أعرفك تعرفه ؟ ويقطع أيضًا بأن « المهاجمة » ليست لى بغَرَضٍ بل الغرض هو الدفاع عن كيان أمّةٍ برُمَّتها ، أنت أحدُ رجالها ، بهَتْكِ هذه الأستار المُسْدَلة التى عمل من ورائها رجال من قبلُ ، ولا يزال رجالٌ يعملون من ورائها ، اختارتهم « الثقافة الغربية » بالمفهوم الذى دللتُ عليه ، أعنى الثقافة الغربية الوثنية المسيحية ، ليحققوا لهذه الثقافة غلبةً على عقولنا ، وعلى مجتمعنا ، وعلى حياتنا ، وعلى ثقافتنا ، وبهذه الغلبة ، يتم انهيارُ الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة ، وصحَّحوا به فسادَ الحياة البشرية فى نواحيها الإنسانية والأدبية والأخلاقية والعلمية والفكرية ، وردُّوها إلى طريق مستقيم عَلم ذلك من علمه ، وجهله من جهله ! ولا يفوتُ مثلَك أن يعلم أن هذه الغلبة ، لا يُراد بها الهُدَى للناس ، كما يُوهم هؤلاء الأغرار مَنْ يتّبعهم من الأغرار ، بل يُرَاد بها تحطيمُ شىءٍ هو فى طريقه إلى الظهور فى الأرض مرّةً لُأخرى . وهذا ، كما تعلم ، هو فى جوهره عمل سياسىٌّ محضٌ . فمن أجل ذلك ، انبريت ، بعد عزلتى ، لهذه الدُّمَى ، لأهتك عنها أستارها ! وهذا حسبُك ، وكيف يجهل مثلك مثلَ هذا فى جَلائه ووضوحه . وقد ساءنى أنّى اضطررت إلى أن أَجْزِىَ فضلك علىَّ ، بردِّ كلامٍ لك لم أره يليقُ

بفضلك . ولكن هذا عذرى ، فإن قبلتَهُ فقد أحسنت إلىَّ ، وإن أبيته فلك العُتْبَى حتى تَرضَى .

* * *

وما دام الأمر قد جرَّنى إلى ذكر الألفاظ ووضعها فى غير مواضعها ، واستفساد معانيها بفساد المقاصد التى تكمُنُ من ورائها ، فقد بدا لى أن أعود إلى لفظ سلف فى مقالتى الماضية ،(١) وهو اللفظ الذى استخدمه « أجاكس عوض » ، واستخدمه المسمَّى « سامى داود » ، وكلاهما يضمر فى هذا اللفظ معنًى بعينه ، إذ جعل العمومَ توريةً عن الخُصوص ، وكلاهما سيّئ المقصد فى هذه التورية ، لأنه يريد أن يشفِىَ غليلَ صدره من شىء وإن ساق كلامه مَسَاق ثَوْرٍ إغريقى محارب ، أو مَسَاق مؤرخ وَدِيع يكتب ذكرى ساءته ، فبقى منها شُفَافةٌ ألقت ظلَّها الكئيبَ على بعض كلامه !!
ونفس الإنسان وعاء للخير والشر ، ولكنه يستطيع بالعقل الورِع ، الذى نسمِّيه نحن المسلمين « الدين » ، أن يصرع شيطان شرِّه بالتقوى . بيد أن هذا الأمر قلَّما يُحْسنه إلاّ من أَلِف تسبيحَ الله وتحميدَه وتنزيهَه ، وإسلامَ وجهه إليه . منيبًا إليه ضارعًا ، مستعينًا به مخلصًا ، وعندئذ يعلم أن أسوأ الخلق ارتكابُ التورية طلبًا لشفاء الغليل ، فإنه عندئذ يكون غشّاشًا مخادعًا لئيم الطِّباع .

وهذا اللفظ الذى أشرت إليه ، هو لفظ « **الرجعية** » فكلاهما استخدمه ، وأحدهما شرحه شرحًا فيه مغالطة ظاهرة ، لا تنفى ولا تثبت ، والآخر تركه غُفْلًا بلا شرح ، ولكنه ظاهر الدلالة ، لمن عرف الحادثة التى رواها هذا المؤرخ المُحْتجِنُ من إخبار التاريخ ما فيه بيان واضح ، لينقله إلى الناس مظلمًا غامضًا غير مفهوم ، وحسبُك بهذا سوءًا ومَنْقَصةً وخيانةً للأمانة . ولكيلا أدع لأحد علىَّ سبيلًا ، ينبغى أن أؤرِّخ لهذا اللفظ كيف أتى ؟ ومن أين ؟ وما معناه ؟ لأن هذه الألفاظ المبهمة التى لا يجد لها الإنسان حدًّا ، شديدةُ الضرر . ولكن يؤسفنى أن أكثر الذين يلجأون إليها ، إنما هم القوم الذين يدَّعون « الثقافة » ، ويدَّعون « الاتجاه العلمى » ، ويدَّعون

---

(١) انظر ص : ٣٤٣ .

« الدقة العلمية » ، ويدَّعون « المنهج » ، ويدَّعون ما شئت من الزيف الذى لا حدود له . فأنت إذا شئت أن تستقصى معنى « **الرجعية** » فى كلام من يتكلمون ويَهْضِبُون ويثرثرون ، وقعت فى مثل « رَدَغة الخَبَال » : من الحيرة فى فهم المراد منها ، (وَرَدَغَةُ الخبال : الطين والوحل الكثيف ، وهو يوم القيامة : عُصارة أهل النار تَنْحَلُّ عنها جلودهم) .

وقد رأيته من الخير أن أتتبع تاريخ هذه اللفظة ، بقدر ما تحتمله ذاكرتى . وقد كنت خليقًا ، أو كانت هذه الأمة خليقةً أن تعمد إلى هذه الألفاظ المستحدثة ، فتعرف تاريخ مَجيئها إلى استعمالِ أَهل اللسان العربىّ ، ومَنْ أوّل من استعملها ؟ ولم استعملها ؟ وفى أى غرض كانت تقال ؟ وأى زيادة لحقت معناها الأوَّل ؟ وذلك لا يتمُّ إلا بتتبع الصحف والكتب ، واستخراج المواضع التى ذكرت فيها مؤرَّخةً . وإذا فعلنا ذلك عرفنا مصادر هذا اللفظ ، وحددنا معانيه فى زمن بعد زمن ، وأدركنا أثر استعماله فى تجلية المعانى ، أو زيادتها غموضًا وفسادًا . ولكن هذا شىء لا أستطيع بيانه فى أسطر قلائل ، فمن الخير أن أنصرف عنه إلى ما أريد .

و « **الرجعية** » لفظ يألفه الناس اليوم ، على غموضه المُتلف للفهم ، المؤدِّى إلى اختلاط الإدراك ، الممهِّد لكلِّ ذى هَوًى أن يبلُغ إلى هواه باستعماله ، لأنه يحمل معنى من معانى الفساد فى مفهومه الغامض . ولكنى شهدت مولده قديمًا ، فمن المفيد أن أسجل بعض تاريخه بلا تحيُّز ، حتى يتحرَّى القارئ لنفسه إذا قرأه ، ويتجنَّبه الكاتب الذى يريد الإفهام دون الإبهام .

كنا يومئذ فى زمانٍ صِراعٍ ، وذلك منذ نحو من خمسين سنة ، نشأت طفلًا فى صراع ثقافىّ وصراع اجتماعىّ ، وصراع فكرىّ ، وصراع دينىّ ، وصراع سياسىّ . وكان لكل صراع طَابَعهُ وألفاظه وكُتّابه وجماهيره ، قلَّتْ أو كَثُرت ، وتمادت بى الأيام حتى عقلت ، وذلك فى مطلع الثورة التى شملت مصر والسودان فى سنة ١٩١٩ . وأظنّ أنه قد بقى فى ذاكرتى شىء من الألفاظ التى كانت تدور فى هذا الصراع الضخم ، ولكنى لا أجد بينهما لفظَ « **الرَّجعية** » ، ولا أعيه كان ظاهرًا يومئذ ، أى فى سنة ١٩١٩ أو ما قبلها ، إلا أن يكون شيئًا نادرًا لا يكاد يستقيم

أو يستبين ، أو لا يكاد يستقيم أو يستبين لى أنا على الأقل . ولكنى أذكر أن أكبر صراع كان قائمًا يومئذ بين أهل هذا الدين ، أعنى الإسلام ، كان يستخدم لفظًا اشتقَّته الكتَّاب ، أو أوتوا به على النسبة إلى « **السَّلَف** » ، فكانت طائفة كبيرة تسمّى نفسها « **السلفيون** » ، وهو لفظ يراد به رجوع أصحابه إلى سيرة « **السلف** » من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم على الحق فى العقيدة ، وفى تجريد الإيمان من شوائب الشرك ، وفى العمل بالسُّنّة ، وفى إحياء منهج « السَّلَف » فى الرجوع إلى الكتاب والسنة دون سواهما . وكان للسلفيين ظهور وغلبة فى فترة من الفترات ، وكان أكثرهم من أهل الحميّة والجدّ والثبات والإخلاص فى القول والعمل ، وإن شابهم من ينتسب إليهم ، ويدَّعِى دعواهم ، ولكنه لا يقوم مقامهم ، ولا يلتزم التزامهم ، بل ربَّما خالفهم ، وأقام على البِدَع وسوَّغَها وجعلها من سُنة السَّلَف .

* * *

وعاصر هذا الصراع صراع آخر بين الحضارة الغازية ، وهى الحضارة الأوربية المسيحية الوثنية ، وبين بقايا الحضارة الإسلامية العربية المتمثلة فى السلفيين ، وأهلِ البدع ، وأهلِ الأهواء من كل لَوْن ونِحْلةٍ . وكان هذا الصراع قائمًا فى الميادين كلها . فى الميادين الاجتماعية ، والفكرية ، والثقافية ، والدينية ، والسياسية جميعًا . وكان محرِّك هذا الصراع ، هو الغازى المحتلّ بمدارسه وفرائضه التى فرضها علينا فى مجتمعنا برُمَّته ، أعنى أنه كان يستخدم وسائله السياسية الظاهرة ، وهى هيئة « **الاستعمار** » ، ووسائله الخفية ، وهى « **التبشير** » بالمعنى الذى شرحته مرات ، ودللت على أنه ليس أمرًا دينيًا ، بل كانت وسائله الثقافية والسياسية هى الغالبة عليه ، لأنهم وجدوا أن « الثقافة » التى ينتسبون إليها ، نابعة من الكنيسة فى جميع أطوارها ، وممثلةً للدين المسيحى ، وللوثنية التى تسرَّبت فى خلاله على طول القرون . فالإلحاح على نشرها نشرًا منظمًا عميقًا ، نشرٌ لخلاصة المسيحية الأوربية الوثنية ، بلا تحدٍّ كتحدِّى الدعوة إلى « الدين » صراحة وبلا مواربة . وهذه الخُطَّة نفسها ، هى من نتاج النظام الكنسىّ الذى عاشته الحضارة الأوربية فى جميع أطوارها السالفة . وإذا كنتَ تَنْسَى ، كما ينسى الأستاذ « عودة » فأذكِّرك بقول « إليوت »

الذى أشرتُ إليه آنفًا فى تفسير لفظ « الثقافة » ، وزعمه أن ثقافة الشعب ، ودين الشعب ، مظهران مختلفان لشىء واحد ، وأنَّهما تجسيد لهذا الدين ، وأن من الممكن أن تجتذبَ قومًا إلى إيمان دينيٍّ بعينه ، بوساطة نشر الثقافة التى تُجَسِّدُ هذا الدين . وهذا هو « **التبشير الثقافى** » ، فلا تخطئه ولا تنسه ولا تغفله .

وكان هذا الصراع من أخطر ألوان الصراع التى عشناها ، ولا نزال نعيشها ، والذى من أجله نكتب ما نكتب إلى يوم الناس هذا . وجاء خطره من أشياء كثيرة لا أستطيع أن أعدِّدها فى مثل هذه الكلمة ، ولكن أخطر هذه الأشياء : أنّ جَمْهرةً كبيرة من « المثقفين » ، أى الذين ارتضعوا شيئا قلَّ أو كَثُر من لَبَانِ « الثقافة الأوربية المسيحية الوثنية » ، كانوا من جِلْدة هذا الشعب مُسْلِمه ونصرانيه . فمن هذه « الجلدة » التى تربطهم بالناس ، كان لهم من الإقدام على التكلم والإبانة والدعوة ، ما ليس يملك مثله من جاء من « جلدة » أخرى ، كالجلدة الأوربية المسيحية الوثنية ، ولهم من التأثير على أهل جلدتهم ولسانهم ، ما ليس يملكه من لم يكن من أهل جلدتنا ولساننا .

فنشأ من بين هذا الصراع بين الحضارة الغازية وبقايا الحضارة الإسلامية العربية التى ذكرتُها ، جيلٌ دخل فى الصراع الدينى ، بين « السلفيين » ، ومن ناوأهم من أهل البدع والأهواء ، ولكنه تكلَّم فى الشئون التى هى عند المسلمين « دين » ، بلسان آخر غير لسان أهل هذا الدين من سلفيين ومبتدعة ، وأدرك الذين كانوا يقودون حركة الصراع بين الحضارتين ، أن أقوى الفريقين المتصارعين من سلفيين ومبتدعة ، هو فريق « السلفيين » ، لا من حيث كثرتهم وغَلَبتهم ، بل من حيث القوة التى تشتمل عليها دعوتهم ، لأنها تؤدى إلى إعادة بناء لغة الأمّة ، إذ لا معنى للانتساب إلى طريقة « السلف » ، إلا بأن يتملك « السلفىُّ » ناصيةَ اللغة وآدابها تملُّكًا يمكّنه من الاستمداد المباشر من « القرآن » و « السنة » ، على نفس النهج الذى كان « السلف » يستمدُّون به من القرآن والسنة فى آدابهم ، وأخلاقهم ، وثقافتهم ، وفقههم ، وعلمهم ، وتفكيرهم ، وفى سائر ما يكون به الإنسان حيًّا رشيدًا قادرًا على بناءِ الحضارة = ولأنها تؤدِّى أيضًا إلى اتخاذ سَمْتٍ نابع من القرآن

والسنة ، تكون به حضارة الكتاب والسنة ممثلة فى رجال يَغْدُون بين الناس ويروحون ، ويغضبون ويرضون ، ويتنازعون ويصطلحون ، ويعيشون عيشة كاملةً ممثلة لخلاصة الرحلة الطويلة العميقة فى استنباط طريق للحياة الإنسانية الصحيحة ، من الفطرة التى جعلها الله كامنةً فى الطبيعة البشرية ، ومطويّةً فى هذا التنزيل المعجز الذى جاء من عند الله ، وهو « القرآن » وفى جوامع الكلم التى أُوتيها نبىُّ الله ﷺ ، مُبينًا عن كتاب الله ومفصِّلًا لجمله وهو « الحديث » . وهذه الفطرة هى التى ذكرها الله سبحانه فى سورة الروم فقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فهذه القوة التى اشتملت عليها دعوة « السلفيين » كانت مصدرًا لمخاوف « الاستعمار » و « التبشير » ، فأرادوا أن يقاوموا هذه الدعوة القليلِ عددُ أصحابها ، والذين هم مع قلتهم يصارعون جمهورًا غالبًا من « المبتدعة » ، يؤيدهم إلف العامّة ، وهم الكثرة ، ما عندهم من « البدع » المنكرة التى ينكرها « السلفيون » أشدَّ الإنكار = فعمدوا إلى بث فكرة قريبة إلى النفوس ، سريعةٍ إليها ، تؤيِّدها جميع الظواهر ، وهى أن « السلفيين » قوم متشددون يريدون أن يرهقوا الناس بما لا طاقةَ لهم به من التكاليف . وهذه المهارة فى إدراك الوسائل التى تقاوم بها الأفكار ، كانت معروفةً مدروسةً فى دوائر « الاستعمار » و « التبشير » ، وإن كان كثيرٌ منّا لا يزال غافلاً عنها ، غيرَ قادرٍ على إدراك المحيط الذى تستعمل فيه هذه الوسائل ، وذلك لما طَبَعَنا عليه المستعمرون والمبشرون من التهاون والغفلة وقلة الصبر على جِلاَد الفكر ومعاناته ، والتغلغلِ به إلى غاياته البعيدة المغرِقة فى البعد .

فمن معسكر الصراع بين الحضارة الغازية ، وبين الحضارة الإسلامية أو بقاياها يومئذ ، ظهرت كلمة « **السلفيين** » مقرونةً بتبغيضها إلى العامة ، وتصويرها فى صور منكرة تكرهها النفوس ، لأنها تشقُّ عليها . ثم بدأت الكلمة تدخل فى محيط الصراع الاجتماعى ، فمن أول ما أذكر من ذلك أن التالف الكَريه المسمَّى « سلامة موسى » ، صنيعة المبشر « ويلككس » ، كان أكثر الناس استعمالاً للفظ

« السلفيين » ، [١] للدلالة على التأخر والتشدد والتخلف ، فى مقابل الدعوة التى أرسله يَغْوِى بها من اصطنعوه . وليس هذا بموضع تفصيل ذلك ، وإنما أردت التاريخ وحدَه . وأظن أنى قرأت له ولغيره من شيعته ، وكان زمانُه كزماننا الذى فيه « أجاكس عوض » وشيعته من صِبْيان المبشرين ، مقالاتٍ كان يستخدم فيها هذا اللفظ بهذا المعنى في نحو سنة ١٩٢٢ أو ١٩٢٣ ، أى بعد دخول ثورة سنة ١٩١٩، فى انهيارها وانفصالها عن حقيقة الشعب الذى أشعلَ نارها ، ثم أُحْرِقَ هو بنارها ونار المستولين عليها غدرًا وغشًّا ، بلا سَابقة شريفةٍ فى الصراع السياسى .

ولكن هذه اللفظة كانت شديدةً على الألسنة ، لا تلين بها كُلَّ اللين ، فبعد قليلٍ = ولا أدرى كيف كان ذلك ، لأن الأمر يعتمد على التتبع التاريخى للعبارات يومًا يومًا ، وشهرًا شهرًا ، كما أسلفت = بعد قليل رأينا لفظ « **الرجعيين** » يحل محل « **السلفيين** » فجأةً ، وهو لفظ سَهْلٌ على لسان العامة وغير العامة ، وإذا بنا نراه مستعملًا على ألسنة ضرب من الكتاب أمثال التالف الغبىّ « سلامة موسى » من صبيان « التبشير » وسفهائه الذين يسافهون عنه ، وعلى ألسنة أصحاب الصحف من نصارى لبنان المقيمين فى مصر ، والمستولين على صحافتها كلها يومئذ . ثم لم نلبث إلا قليلًا حتى رأينا هذا اللفظ ينتقل للدلالة على الحياة الإسلامية كلها ، واشتُقَّ له مصدر هو « الرجْعِيَّة » يستعمله الكتاب إذا أرادوا التورية عن « الإِسلام » تهرُّبًا من أن تنالهم تُهَمَةُ الطعن فى دين الدولة . واستشرى الأمر زمانًا طويلًا ، فصار كل من أنكر شيئًا على هذه الحضارة الأوربية المسيحية الوثنيّة ، المقترنة بالغزو العسكرىّ والغزو السياسى لبلادنا ، من أخلاق ، أو فكر ، أو عادة ، أو طريقة للحياة (كما يقول توينبى) ، صار يُنْبَزُ بأنه « **رجعىٌّ** » . وظل هذا هو معنى « **رجعى** » إلى نحو من سنة ١٩٤٣ ، حين بدأت الحركة الشيوعية فى الظهور ، فاستخدمت اللفظ للدلالة على الأنظمة التى كانت تقاومها ، لما فيها من الفساد والتعفُّن ، وإن كان اللفظ

---

(١) لا يزال تلميذه « لويس عوض » يستعمل هذا اللفظ حتى أيامنا هذه ، بنفس الأسلوب الوقح الذى درج عليه أستاذه .

عندهم أيضًا كان دالاًّ على مثل ما كان يدل عليه عند أعوان الاستعمار والتبشير بالحضارة المسيحية الوثنية الغربية .

* * *

ثم اتَّخَذ اللفظ معانى كثيرة لبسَها ، ولكن بقى المعنى « الأوّلُ » الدالُّ على « الإسلام » عن طريق التورية ، فرارًا من طائلة العقوبة ، هو الذى يستعمله ويدلّس به أمثال المسمَّى « سامى داود » ، والمسمى « أجاكس عوض » ، تمويهًا على الناس ، فى خلال استعمال الناس له بمعنى الفساد الذى شمل حياة الأمة فى الميدان السياسى والاقتصادى . وبهذا التمويه القبيح ، يريد أمثال هؤلاء التالفين ، أن يَشْفُوا غِلّ صدورهم ، ببذاءة مغلَّفة فى لفظ مُبْهَم ، بعد أن خلعوا المسُوح التى ألبسهم إياها الجاسُوس البريطانى المحترف « كريستوفر سكيف » و « جماعة إخوان الحرية » ، [١] والتحفوا بمسوح جديدةً اتخذوها لأنفسهم ، بعد طول التدريب ، من شعارات ظاهرة معروفة يستترون وراءها ، بلا عقيدة ، وبلا مبالاة ، بل ليتمكنوا من العمل على إحراق « طروادة الجديدة » ، وهى مصر العربية الإسلامية بعد سنة ١٩٥٢ ، وتدميرها كما دمرت « طروادة » فى القديم .

فمن ظنَّ أنى آخذُ هؤلاءِ الدعاةَ ، منذ كتبت عن مسألة « العامية » و « الفصحى » فى أوائل مقالاتى ، لكى أجرِّحهم أو أنقدهم نقدًا « شخصيًا » فقد أخطأ ، ومن ظنَّ أن الأمر مقصورٌ على هذه الفئة بأسمائها الظاهرة ، فقد أخطأ = لأنى لا أفرق بين رجال هذه « النحلة الجديدة » وإن اختلفت دلالات هذه الأسماء على أَنسابها وصلاتها وعلائقها بالحياة العربية التى نحن اليوم فى سَرَارَتها وفى حَوْمتِها الكبرى = ومن ظنّ أنى سأقف عند « أجاكس عوض » وأشباهه حين أعرض مرة أخرى لتمام القول فى « العامية » و « الفصحى » ، ولأثر الدُّعاة إليها فى حياتنا السياسية والأدبية منذ نشأت هذه الدعوة ، فقد أخطأ . وإنما شغلنى كما ذكرت فى مقالات مختلفة ، كثرةُ الدُّروب التى تنشقُّ على جانبى الطريق الأعظم ، ومَنْ يكمن فى هذه الدروب

---

(١) انظر من هم « إخوان الحرية » فيما سلف .

من الأفاعى والحيَّات التى نشأت فى سراديب « التبشير » و « الاستعمار » . ولا أظن القارئ ، مهما طالَ بى التعريج على بعض الدروب ، بناسٍ أَنّى قد خرجت به فى رحلة ، فى مَتَاهةٍ ، إلى آفاق بعيدة ، فإن شَقَّت عليه الرحلة فليقف وقد هَلَك ، وإن أطاق فليمضِ وقد نَجا . أمَّا التهاون والغفلة والاستخفاف ، فذلك هو الموتُ الوَحِىُّ ، والبلاءُ الماحقُ ، والحالقة حالقةُ الدين لا حالقةُ الشَّعَرِ .

ثُمَّ... لَيْسَ الطَّرِيقُ هُنَالِكَ

الرسالة

الخميس ٩ ربيع الأول سنة ١٣٨٥

٢٣

اللغة هى أداةُ التفكير ، وأداةُ البيان ، لا يكاد أحد يرتاب فى أن هذا حق ، وأنه واضحٌ شديدُ الوضوح . ومن أجل أنه حقٌّ ، تتلقاه بديهة العقل بالتسليم ، ومن أجل أنه واضح ، تستشعر النفوس أنه معنى سهلٌ يسير قريب . بيد أن المتأمل يقف حائرًا يتلدَّدُ (أى يتلفت يمينًا وشمالاً من حيرته وتبلُّده) ، لأن هذه القضية على سلامتها ووضوحها ، تنتهى إلى نتيجة معقّدةٍ أشدَّ التعقيد . وذلك أن اللغة ألفاظ ، وهذه الألفاظ مركّبة فى جُمَل ، ومن الألفاظ والجمل ، يخرج المعنى . والنظرة الأولى توجب أن يكون « اللفظ » محدودَ المعنى المفرد ، وأن يكون التركيب محدودَ الوجوهِ الدالّةِ التى تفضى إلى استحداث المعنى المركب الذى يُراد إبلاغُه السامعين أو القارئين .

ولكن ، هل هذا صحيح ؟ أصحيح أن « ألفاظ اللغة » محدودة المعانى حدًّا قاطعًا واضحًا فى كل لسان ، وفى كل زمن من أزمنة هذا اللسان ؟ أَوَ صحيحٌ أيضًا أن « تركيب ألفاظ اللغة » ، أى الجمل وأساليبها المختلفة ، محددة هى الأخرى تحديدًا قاطعًا واضحًا فى كل لسان ، وفى كل زمن من أزمنة هذا اللسان ؟ إن أقلَّ التأمُّل يهدى إلى بُطْلان هذه النظرة الأولى بطلانًا يفضى أحيانًا إلى اليأس من قدرة اللغات على الإبانة ، وإلى الشك كل الشك فى القضية التى سلَّمت بها بديهة العقل ، واستشعرت يُسْرَها وسهولتَهَا سرائر النفوس . ومعنى ذلك أن ادِّعاءنا أن اللغة هى أداة التفكير وأداة البيان ، قضيةٌ غامضة ، قضية مُوهِمةٌ ، قضيةٌ إذا امتحنتَها وجدتَهَا غير مطابقة للواقع .

والناس ، منذ كانوا ، لا يزالون يختلفون على معانى الألفاظ ، يختلفون عليها وهم يستعملونها ساعة بعد ساعةٍ ويومًا بعد يوم ، ويختلفون أيضًا على الجمل المركبة من هذه الألفاظ ، وهى تجرى مركبة على ألسنتهم فى حال بعد حال ، وفى

حديث بعد حديث . ولم يمنعهم اختلافهم على معانى الألفاظ ودلالات الجمل من الأمرين جميعًا : من أن يفكِّروا باللغة التى لا تستقرُّ حدود ألفاظها ولا حدودُ جملها ، ولا من الإبانة بهذه اللغة التى لا تستقر حدود ألفاظها ولا حدود جملها . بل لم يمنعهم هذا الاختلاف أيضًا من التفاهم بهذه اللغة التى لا تستقر حدود ألفاظها ولا حدود جملها . وهذا أمر معقّد أشدّ التعقيد ، يحتاج بيانه والفصلُ فيه إلى أبحاث قائمة برأسها ، قد تكلَّم فيها الناس قديمًا وحديثًا ، فأصابوا وأخطأوا ، وبيّنوا غامضًا ، وزَادوا البيِّن منها غموضًا .

ولست بصدد البحث فى هذا الشأن ، ولكنى قدَّمت القولَ فيه ، ليكون جليًّا أن « الألفاظ » ، لها خطر شديد ، لأن البداهة توجب أن يكون « اللفظ » الذى نستعمله محدودًا ، فربّما وقع المرء تحت سلطان هذه البداهة ، فلم يُلْق بالًا إلى هذا الأمر المعقد الذى يفضى إليه الواقع الذى تعيشه اللغات . فيستعمل « اللفظ » ، أو يقرأه ، ثم يفكّر فيه تفكيرًا مُتّسمًا بالقصور عن إدراك هذه الحقيقة المفزعة ، وهى حقيقة « الاختلاف » التى حدثت فى جميع الألسنة ، وفى جميع الأزمنة . ونعم ، إن الناس قد خرجوا من هذا المأزق المحيط بالتفكير والبيان ، بمحاولات جمة قاسية عنيفة ، خاض العقلُ الإنسانى غمراتها ، ليحمى وجوده من اليأس والشك ، أى من العوامل المتفجرة فى كيانه ، المؤدِّية إلى تدمير ما جعله الله سببًا مميِّزًا بين الإنسان النامى وبين سائر الموجودات : من حىٍّ نامٍ ، ومن حىٍّ غير نامٍ ، أى من حيوان أعجم ، وجماد مُصْمَت . وهذا السبب المميِّز بين الإنسان النامى ، وبين سائر الموجودات نامية وغير نامية ، هو « البيان » ، وهذا هو الذى بينه الله تعالى فى مُحْكَم تنزيله ، حيث مَنَّ على عباده بأعظم آلائه ونعمه فقال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ ، فلولا « البيان » ، لكان الإنسان خلقًا غير هذا الخلق ، ولولا قدرته على اجتياز محنة « البيان » ، أى محنة اللغة التى لا تكاد تستقرُّ حدود ألفاظها ، ولا حدود جملها ، لوقع فى دَمار اليأس من اللغة وقدرتها على الإبانة عن نفسه ، ولَهَوَى فى هُوّة الشك فى هذه الأداة ، وفى نفعها لما يريده من الإبانة عن معانيه .

ومن البيِّن ، وأنا فى شك من أنه بيّنٌ لكل أحد ، ولكن هكذا نقول ! من البيِّن أن الأمر لم يكن كذلك فى أَوَّليّة الإنسان منذ القِدَم البعيد . فالنظر يوجب أن يكون أوّل « البيان » ، أى أوّل اللغة التى يبين بها الناس عمّا فى أنفسهم ، مضبوطًا صحيح الحدود ظاهرها ، لا يكاد يكون فيها اختلاف يذكر ، ثم يتوارثُ اللّغةَ جيلٌ بعد جيل ، يستخدمها لمعانٍ متجددة بتجدّد إدراك النفس المبينة لأسرار ما يحيط بها يومًا بعد يوم ، فتحملها إرادة البيان عن جديد ما انفتح لها ، على أن تتخير « لفظًا » تركّبه فى جملة ، لتمنح هذا اللفظ طَرَفًا من المعنى الجديد ، يلحق معناه الأَوَّل ، ويزيدُ فيه ما لم يكن ، ثم يمضى « اللفظ » فى اللغة مركَّبًا ، حتى ينفصل عن التركيب الذى أحدث له معنى لم يكن فيه ، ثم يستقل بعد حاملًا معنى زائدًا ، مركبًا من المعنى الأول ، والمعنى الجديد .

وهذا أشبه شيء بما نسميه فى العربية « المجاز » ، أى اجتياز معنى حادثٍ إلى معنًى قديم فى اللفظ . وتكثر المعانى الحادثة ، وتتلاحق على اللفظ الواحد ، فربما انتهى الأمر إلى « لفظ » تراكمت عليه معان حادثة متجددة ، تجمع بينها روابط قريبة المنال ، وروابط بعيدةُ المطلب ، ولكن « اللفظ » يبقى لفظًا كسائر ألفاظ اللّغة ، يتكلم الناس به ، ويستعملونه فى بيانهم ، ولكن ينشأ الغموض والإبهام ، من عدم القدرة على بلوغ كُنْهِ هذه الروابط القريبة البعيدة ، وينشأ فسادُ النظر فى الفكر من استخدامه هذا « اللفظ » أداةً للتفكير ، تبعًا لقصور القدرة عن بلوغ كُنْهِ هذه الروابط التى تشد معانيه القديمة والحادثة بعضها إلى بعض شدًّا محكمًا ، للدلالة على معنى مركَّب تكون له فى الذهن صُورة جامعة .

وهذه الصورة الجامعة ، هى منشأ كل اختلاف فى اللغة ، وكل اختلاف فى الفهم ، وكل اختلاف فى التفكير . فإذا بدأ المرء يفكر مستخدمًا لفظًا ينطوى على صورة جامعة ، وعرَضَ له فى إدراك هذه الروابط عارض من الوهم ، أو من سوء التقدير ، أو من إساءة فهم الروابط ، أو من تغليب بعض المعانى الحادثة فيه على بعض ، أو مِمّا شئت من وجوه أخرى كثيرة = كان تفكيره مهددًا بسلوك طريق غريبة يجرُّه إليها بعضُ ما بنى عليه تفكيره . وعلى قدر ما يعرض له من الوهم ، أو سوء

التقدير ، أو إساءَة فهم الروابط ، أو تغليب بعض المعانى الحادثة فيه على بعض ، يحدُث له انحياز إلى جانب من الفكر ، لم يكن لينحاز إليه إذا هو بَرِئَ من ذلك براءة تامة ، أو برئ من بعضه براءة مشوبة بالنقص . وعلى مثل ذلك يكون شأن الذى يتلو كلامًا ويحاول أن يفهمه ، أو يحاول أن يفسره ، فهو عرضة للانحياز إلى جانب من الفهم أو التفسير ، يزيد وينقص على قدر مبلغه من كُنْه الألفاظ التى يحاول أن يفسّرها أو يفهمها ، ولا سيما إذا تضمّن الكلام ألفاظًا تنضم على صور جامعة .

وإلى هذا الباب يرجع أكثر ما تجد من افتراق الفرق فى الملل التى دان بها الناس ، وأكثر ما نشأ من المذاهب المتباينة مع انتمائها إلى أصل واحد تصدُرُ عنه ، وأكثر ما يعرض لمفسّرى النصوص من الاختلاف الغريب المتناقض ، حين يحاولون حلّ الإشكال بالتأويل . فالإشكال عندهم ينشأ من القصور عن بلوغ كُنْه الألفاظ ذوات الصور الجامعة ، فيحتاجون إلى تأويل هذه الألفاظ تأويلًا يناسب ما عند كلٍّ منهم من قدر من القصور . فإذا قلّ القدر ، خفَّ التأويل ، وإذا غلا قدرُ القصور ، أفضى إلى غلو فى التأويل .

وقد عرضت فى مقالاتى هذه لبعض الألفاظ ذوات الصور الجامعة ، فأقربُها ما ذكرته فى المقالة السالفة من معنى « الثقافة » ، ومعنى « الرجعية » [ص : ٣٩٩ وص : ٤٠٤] . ومن قبلُ ما عرضت فى المقالة التاسعة إلى أربعة ألفاظ من ألفاظ النصارى ، وهى « الخطيئة » و « الخلاص » ، و « الفداء » ، و « الصلب » ، [ص : ١٦٦] ، وعرضت فى المقالة الثانية عشرة لمعنى « النبوة » ، [ص : ٢٢٢] ، وأن مفهومها عندنا نحن المسلمين ، مباين لمفهومها عند أهل الكتابين من اليهود والنصارى . وفى جميع ذلك حاولت جهد طاقتى أن أجعل تعبيرى مطابقًا لما أعتقده من الحق ، دون أن أغفُل عن هذه الحقائق التى أشرت إليها آنفًا . بل إن مدارستى لخبر « راهب دير الفاروس » الذى ذكره القفطى فى أخبار شيخ المعرة ، إن هو إلا تطبيق كامل لكل ما ينشأ عن ألفاظ اللغة من الاختلاف ، وما ينشق عن اختلافها من أوهامٍ ، وما يستخرجه المستخرج منها من المعانى ، على قدر معرفته باللغة أوّلًا ، وعلى قدر أمانته فى الفهم ، ثانيًا ، وعلى قدر ما يكون عنده من العقل أو الخبل

أو الاضطراب أو الهوى ، ثالثًا ورابعًا وخامسًا ، إلى أعداد كثيرة من البلايا والمصائب . بل إن ما عرضت له فى المقالة السالفة من الحديث عن « النقد الموضوعى » واختلاف وجوهه ، حتى يعرِضُ لك أن تسمى « النقد الموضوعى » ، « نقدًا شخصيًا » ، إن هو إلا ضرب آخر من التطبيق لمفهوم هذه القضية الكبرى فى اللغة . بل إن ما استخرجته من كلمات « أجاكس عوض » من الدلائل التى تدل على صورته العقلية والنفسية ، إنما قام على هذا التطبيق نفسه .

* * *

وقد وجدت أنى قد استعملت فى المقالة السالفة لفظ « **الدين** » ، وما يقال من أن ثقافة الشعب ، إن هى إلا تجسيد لدين الشعب ، ولكنى لم أبيِّن شيئًا مما يمكن أن يكون زيادة فى مفهوم هذه العبارة التى قالها « إليوت » ، لأنى لم أتعرض لبيان معنى « **الدين** » نفسه ، ومعانيه عند أهل الإسلام ، فلذلك آثرت أن أعرض لمعنى « **الدين** » ، لأن أكثر مقالاتى قد دار على ما يمسُّ هذا المعنى مسًّا دانيًا أحيانًا ، ومُدَاخِلًا أحيانًا أخرى . ومع ذلك ، فأنا لم أنس أن أوضح طرفًا من معانيه فيما سلف ، كالذى جاء فى المقالة التاسعة حين عرضت لألفاظ النصارى فى ديانتهم ، [ص : ١٦٦] : وفى المقالة العاشرة حين عرضت لبعض ما قاله توينبى من ذكر « اللغة الدينية » و ظنه أن اللغة العربية « لغة دينية » ، وهو باطل شديد الظهور ، ثم ما قلته فى المقالة الرابعة عشرة عن معنى « الدين » . وفرق ما بيننا وبين سائر أصحاب الديانات فى معناه [ص ٢٥٦] .

ولفظ « **الدين** » من ألفاظ اللغة التى لها فى الذهن صورة جامعة ، أو ينبغى أن تكون لها صورة جامعة . فواجب أن نعرف تمام المعرفة حقيقة معنى « **الدين** » ، وما تراكم عليه من المعانى الحادثة المتجددة ، وأن نحاول محاولة صادقة تؤدِّى بنا إلى بلوغ كُنْه الروابط التى تجمع هذه المعانى ، وتشدُّ قديمَ معانيه وحديثَها بعضَها إلى بعض شدًّا محكمًا ، حتى يدلَّ هذا اللفظ على معناه المركّب ، وهو المعنى الذى له صورة جامعة فى الذهن ، يدركها عند سماعه .

فالدين ، على قدر ما بلغنا من اللغة ، هو فى الأصل الحال التى يخضع لها

الإنسان خضوعا طارئًا أو مستمرًا ، هكذا قدَّرتُه . ومن شوارد ما رواه النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ أنه سأل أعرابيًا عن شيء ، فقال له : « لَوْ لَقِيتَنِى على دِينٍ غَيْرِ هذه لأخبرتُك » ، أى على حالٍ أو عهدٍ غير الذى وجدتنى واقعًا تحت سلطانه .

● ثم قيل : « دان للحكم » ، أى خضع له وذلّ ، لأنه دخل تحت حال قاهرةٍ لا يملك الخروج من سلطانها ، ومنه سميت العادة « دِينًا » ، لأن الخضوع لها أظهرُ شأنها .

● ثم سمى السُّلطان نفسه « دينًا » لأن الناس يخضعون له ويذلُّون .

● وسميت الطاعة « دينًا » لأن المطيع خاضع .

● ثم سمى حساب الناس على أعمالهم ومكافأتهم بها ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر : « دينًا » ، لأنه لا يكون حسابٌ ولا مكافأة ولا جزاء إلا من قاهر على مقهورٍ خاضع .

● ثم صار كل ما يلتزمه المرء من عادة يخضع لها ، أو أسلوب من الفكر أو الحياة لا يفارقه مريدًا أو غير مريد « دينًا » = وهذه معان مشتركة ، كما ترى ، يمكن أن يتناول كل التزام يخضع له البشر أو غيرهم على وجهٍ من وجوه الخضوعِ غيرِ المريد ، فهو خليق أن يسمى « دينًا » كالكرم والشجاعة والوفاء بالعهد ، وسائر ضروب الأخلاق حسنِها وقبيحِها ، كلُّ ذلك داخل هذا فى معنى « الدين » .

والعرب فى جاهليتها ، قد استعملت لفظ « **الدين** » بهذه المعانى المفردة ، وبالمعنى الجامع لبعض هذه المعانى المفردة أو لجميعها . وإنما يتبين المرادُ فى كل موضع من ملابسةِ الألفاظ بعضِها لبعض فى تركيب الجمل ، فلما نزل القرآن العظيم جاء لفظ « الدين » فيه بهذه المعانى ، على الوجه الذى ألفته العرب فى لسانها .

● فجاء تارة بمعنى الحساب والجزاء ، كما فى قوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ، وهو يوم جزاء الناس بأعمالهم التى عملوها فى دنياهم وحسابهم عليها .

● وجاء تارة بمعنى الطَّاعة ، كقوله تعالى فى [سورة لقمان : ٣٢] ﴿ وَإِذَا

غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، أى الطاعة والخضوع لقهره وحكمه وسلطانه سبحانه ، وجاء بهذا المعنى فى غير موضع من الكتاب .

● وجاء تارة أخرى بمعنى الحُكْم ، كما قال سبحانه فى [سورة النور : ٢] ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ، أى حكم الله الذى أمركم أن تطيعوه وتعملوا به خاضعين ، وافق ذلك ما تحبّون أو لم يوافقه .

● وجاء تارة أخرى بمعنى الطريق الذى يعتاده المرء ويخضع له ويألفه ، كالذى فى قوله تعالى : فى « [سورة الكافرون : ٦] ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ ، أى لكم طريقكم الذى ألفتموه أنتم وآباؤكم من قبل ، ولى طريقى الذى هدانى إليه الله سبحانه صراطًا مستقيمًا .

● ثم جاء تارة أخرى بالمعنى الجامع لهذه المعانى فى غير موضع من كتابه ، كقوله تعالى فى [سورة التوبة : ١٢٢] ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ، وهو الإسلام ، دين الحق ، كما سماه الله سبحانه ، وهو « الدين » الذى أنزله الله على محمد رسول الله ﷺ منذ أوّل بعثته ، وجعل تمامه فى يوم الجمعة ، التاسع من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، حيث نزلت عليه وهو واقف بعرفة آية تمام الدين ، وهو قوله تعالى فى [سورة المائدة : ٣] ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ، وهو الإسلام الذى بين الله الحكم فيمن أبى اتّباعه من أصحاب الملل جميعًا ، فقال فى [سورة آل عمران : ٨٥] : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

* * *

وهذا اللفظ الجامع عند المسلمين ، لا ينفك عن معنى الخضوع للهِ سبحانَه وتعالى بالطاعة ، وسلوكِ السبيل التى هدَى إليها صراطًا مستقيمًا ، فيما أنزل إلينا من كتابه على نبّيه ﷺ ، وفيما أمرنا به نبيه ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى ، إنْ هو إلا

وَحْيٌ يُوحَى ، كما وصفه ربه فى [سورة النجم : ١ - ٧] ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، وجعل طاعته شرطًا من شروط الإيمان والإسلام فى آيات كثيرة ، كقوله فى [سورة النساء : ٥٩] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ﴾ ، ثم بيَّن سبحانه أن (الرسول) الذى يرسله لعباده لا يتمُّ لمؤمن إيمان برسالته حتى يطيعه ، فقال بعد آيات : [سورة النساء : ٦٤] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ، ثم أتبعها بالحكم على من أبى أن يسمع لرسوله ويطيع بلا تردد ولا ارتياب ولا جدال ، بالخروج من الإيمان فقال سبحانه : [سورة النساء : ٦٥] ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ ، وقال فى [سورة الأحزاب : ٣٦] ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ .

فصار بينًا بهذه الآيات وغيرها : أن « **الدين** » عندنا ، وهو الإسلام ، إنما هو ما أنزل الله على نبيه من كتاب ، هو « القرآن » ، وما نطق به رسول الله من أمرٍ ونَهْيٍ ، وهو « الحديث والسُّنَّة » ، وهما جميعا « الدين » الذى رضيه الله لنا ، وأمرنا باتباعه ، والخضوع له ، فيما أحببنا وفيما كرهنا ، وأن ليس لأحدٍ أن يخالف حكمًا أنزله الله فى كتابه ، ولا حكمًا قضَى به رسول الله ﷺ فى سُنّته ، سواء كان هذا الحكم قضاءً فى أمور الناس ، وهو « الشريعة » ، أو قضاءً فى أخلاق الناس ، وهو « الآداب » ، أو قضاء فى الخضوع لله بالقلب والجوارح واللسان ، وهو « العبادة » . ولكن كل هذا لا يستقيم وحده ، لأن المطالَبين بأن يسلموا وجوههم لله ، وأن يطيعوا الله والرسول ، لم يُطالَبُوا به عن طريق الإكراه والقهر والغلبة ، بل طُولبوا به عن طريق الحجة والبرهان والدلالة ، أى عن طريق العقل والتفكير والتمييز بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والرشد والغيِّ ، ولذلك قال سبحانه فى [سورة البقرة : ٢٥٦] : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ

وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ . فصار واجبًا إذن ، أن يكون الكتاب والسنة ، متضمنين لأسلوب يهتدى به العقل عند الفصل فى الأمور المشتبهة ، لأنه عن طريق هذا الكتاب ، وعن طريق هذه السنة التى جاءت بيانًا عن مجمل الكتاب ، طولب ذوو العقول أن يعلموا علمًا لا شك فيه أن الكتاب الذى أنزل إليهم ، إنما أنزل بعلم الله ، وأنه هو كلامه سبحانه المفارق لكلام عباده من البشر = وأن يعلَموا أن هذا الرجلَ الذى جاءهم بالكتاب من ربّهم ، إنما هو رسولٌ من الله أرسله إليهم ، لا ينطق عن هوًى ، بل حديثهُ وَحْىٌ يوحى إليه ، لكى يُبين عن معانى الكتاب الذى أُمِر أن يقرأهُ على الناس على مُكْثٍ ، غيرَ مُبَاحٍ له أن يزيد فيه أو ينقص منه ، بل أُمِر بتبليغه إلى الناس بلفظه ونصِّه ، كما تلقَّاه من فِى جبريلَ عليه السلام .

* * *

ولما كان الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والرشد والغىّ ، أمورًا لا تُحَدّ كثرةً وتشعُّبًا ، وكانت وسائل التمييز بين مختلفاتها ينبغى أن تكون شاملة لأصول وثيقة محكمة على اختلافها وتبائنها ، كان بيّنًا ، بعد هذا ، أن « **الدّين** » عندنا لابدَّ أن يشتمل أيضًا على الدلالة على هذه الأصول الصحيحة المحكمة التى يسترشد بها العقل فى طريقه ، أى فى التفكير والنظر والاستدلال . وإذا كان ذلك كذلك ، كانت هذه الأصول الجوامع هى أيضًا قضاءً من الله ورسوله ، لا تختلف فى وجوب اتباعها عن قضاء « الشريعة » ، وقضاء « الآداب » ، وقضاء « العبادات » ، وإذا كان التفكير والنظر والاستدلال لا يتمُّ إلا عن طريق اللغة وألفاظها وتراكيبها ، كان لابدَّ من اشتمال هذه الأصول الجوامع على دليل يهتدى به العقل عند التورُّط فى المشكلة الكبرى التى تنشأ من تباين الأساليب التى يتم بها تركيب هذه الألفاظ ، طلبًا للإبانة عن المعانى . وهذا قريبُ الشبه جدًّا مما نسميه « علم المنطق » . فصار بيِّنًا أيضًا أن « الدين » عندنا ، لابد له من أصول ضابطة للتفكير كأصول المنطق ، لا عن طريق النصِّ ، بل عن طريق الاستنباط من نص القرآن ونص السنة . ومن عند هذا الموضع المشكل الذى لا ينضبط انضباطَ قضاء « الشريعة » ، وقضاء « الآداب » ، وقضاء « العبادات » ، أظنه ، والله أعلم ،

نشأ الخِلافُ الأعظم فى الإسلام بين أصحاب « القياس » ، وأهل « الظاهر » الذين يبطلون القياس ويقيمون على دلالة النّصّ . ولكن هذا شيء ليس مما يمكن بيانه فى مثل هذا الموضع ، أشرت إليه كالتذكرة للبحث .

* * *

وهذه الجمل التى ذكرتها فى معنى « الدين » عندنا ، محتاجة بلا ريب إلى تفصيل ، ولا يستبين معناها تمام الاستبانة حتى نعرف على وجهٍ من وجوهِ التحديد والدقة ، تفاصيلَ هذه الأقضية الأربعة التى ذكرتها ، وهى : « قضاء الشريعة » ، « وقضاءُ الآداب » ، و « قضاء العبادات » ، و « قضاء أصول النظر والاستدلال » . والطريق إلى هذا أن نحاول محاولة صادقة فى تتبُّعٍ جامعِ البيانَ عن هذه الأقضية ، فإذا فعلنا استطعنا أنْ نجلو عن وجه الحق فى معنى هذا اللفظ « الدين » ما هو ؟ فإذا تبين معناه ، كان تبيُّنه عاصمًا للفكر من الزَّلل عند الكلام فى أمر من أمور « الدين » . ثم كان تبيُّنه عاصمًا أيضًا من الضلال فى بحث الألفاظ التى يدخل فى بعض بيانها لفظ « الدين » . ثم كان تبيُّنه عاصمًا أيضًا من الخلط فى المعانى التى يدخلها الناس فى « الدين » من قِبَلِ تأويل الألفاظ ، أو يخرجونها من « الدين » من قِبَلِ نقيض التأويل ، وهو إبطال معانى الألفاظ تحكمًا وعَرَامةً ، (أى جهلًا منشؤه البطر عن طريق الاغترار بالعلم) وتأويلُ الألفاظ حتى تخرج عن حق دلالتها ، وإبطال معانيها عرَامَةً حتى لا تكون لها دلالة البتة ، داءان قديمان ، ولكنهما اليوم أكثر شيء تفشيًا فى كتابة الكاتبين ، ممَّن جعل ديدَنه الكتابة فى « الدين » والحميّة له بلا عقلٍ صحيح ، أو علم عاصم . أما أهل العناد والمخالفة ، فهم أشدُّ إيغالًا فى البعد عن الطريق .

فمن أجل ذلك رأيت أن أكتب هذه الكلمات ، ثم أتبعها ببعض البيان عن معنى « الدين » عندنا . وهو وإن لم يكن مجهولًا منذ جاء رسول الله ﷺ بالحق من ربه ، إلا أنه قد انتهى إلى أن يكون كالمجهول ، بعد أن غلبت على ديار الإسلام حضارة نابعةٌ من تراث أهل الكتابين المذكورين فى كتابنا المنزل ، وذلك لأنهم يستخدمون لفظ « الدين » ، للدلالة على شيء يأبَى دينُنَا نحن أن يُسَلِّم بدلالته إباءً مطلقًا . ثم

شاع اللفظ عند عامة أهلنا بالمعنى الذى جاء فى تُراث أهل الكتابين ، فدخل على معنى « الدين » ما ليس منه ، وحدث اختلاط وفساد ، كلاهما يؤدِّى إلى سُوء التفكير ، وإلى ضلالِ النظر عن الحق الذى أُمِرْنا باتباعه .

من أجل ذلك ، ينبغى أن ندلَّ على معنى « الدين » عند أهل الكتابين ، كما هو ظاهر فى كتابيهما ، لكى يظهر الفرق بين معنى « الدين » عند أهل الإسلام ، ومعناه عندهما . وإذا ظهر هذا الفرق ، استطعنا أن نحدّد مكاننا الذى ينبغى أن نقف فيه ، وأن نُزِيلَ اللَّبْس الذى يؤدِّى إليه اختلاط معانى الألفاظ على المتكلمين والسامعين ، أو على الكاتبين والقارئين . وليس هذا الأمر من اليُسْر بالمكان الذى يتوهمه المرء عند النظرة الأولى ، بل هو أمرٌ شديد التعقيد ، أرجو أن أستطيع حلَّ عُقَده ، حتى لا يتورّط القارئ فيها ، وحتى لا تشتبه عليه السُّبُل ، فى زمان نحن أحوج ما نَكون فيه إلى الدِّقة والتغلغل والنفاذ إلى أعماق المعانى والألفاظ ، بلا حيرة ولا بلبلة ولا عِيٍّ عن بلوغ أقصى ما نُطيق من التمييز .

وفى هذا الصدام بين إِرْثِ وُجودنا ، وإرْثِ حضارتنا ، وإرْثِ ثقافتنا ، وبين هذا الغازى الصليبى المحترق الشديد الدهاء ، الكثير الوسائل ، المتلفِّع بألوانٍ من الإغراء والتدجيل ، المتذرِّع بذرائع الغلبة والسيطرة على النفوس والقلوب والأهواء . فى هذا الصدام المرِّ لم يبق لنا إلا إحدى اثنتين : إما أن نستبسل ، فتكون لنا غلبة أهل الحق على شيعة الباطل = وإما أن نفشَلَ ونتنازع فيما بيننا فتذهب ريحُنا ، كما ذهبت رياحُ أممٍ من قبلنا ، قَضَى عليها الفشَل والتنازُع أن تصبح أثرًا بعد عين . وبالله نعتصم ، وإليه نلجأ ، وعليه نتوكَّل .



تمت .. ليس الطريق هنالك

الرسالة

الخميس ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٨٥



٢٤

أَيحسُن بالكاتب أن يشكوَ نفسه إلى قرائه ؟ وسواء كان ذلك مما يَحسُن به أو مما لا يحسُن به ، فإني لشاكٍ نفسى إلى القراء . فأنا حين أَتهيّأ للكتابة ، يخيل إلى أن الموضوع قد استقرّ فى نفسى واستوى ، وأن الوجه قد استبان واستتبّتْ لى مذاهبه . وعندئذ أكون كالذى يرى جنة مترامية الأطراف من المنظر الأعلى (أى عن بعد ، من مكان عالٍ) ، كأنها زُوِيَتْ لى فى رُقْعَة يحيط بها البصر ، فيرى أفنانَ شجرها ، وتناويرَ أثمارها ، وتخاريجَ ألوانها (أى تداخُلَ ألوانها وتخارُجَهَا من لون إلى لون) ، ولألاء جداولها ، ومساربَ طرقها ، ومَدَبَّ حَصْبائها ، بل أكاد أَشَمُّ شذَاها وعَرْفها وعِطْرها . فإذا أخذت مكانى ، وأمسكت القلم ، وبدأت أكتب ، فكأنى قد انحدرت من سماء مَرْقَبتى ، وأفضيت إلى سَوادها ، وأجدنى وقعت على حَواشِى حرَجَةٍ مظلمة الجوانب ، (والحَرَجَةُ الشجر المجتمع الملتف ، لا يقدر أحدٌ أن ينفذ فيها) ، وإذا تلك المعالم التى كانت منذ قليل بيّنة مقسَّمةً لا يضلّ فيها بصرى قد انطمست ، فأذهب أتحسَّس منفذًا فى سوادها المُحْدِق بها ، أبتغى لنفسى مَدخلًا ، فإذا وجدته ، فمن قِبَله تأتى البلوى . فأنا عندئذ يستخفّنى الفرح بهذا المدخل الذى اهتديت إليه بعد طول الضلال عنه . ويغرُّنى ما كنت فيه من طمأنينة الإحاطة بمشاهدها من ذلك المنظر الأعلى ، وينشب فى وهمى أنى قادر على أن أسلك فيها طرقًا واضحةً بقدمى ، كما كنت أسلكها من مَرْقَبتى بالبصر المشرف = وأنى قادر أيضًا على أن أحيط بنعت هذه الجنة فى لحظات ، كما كان بصرى يحيط بها فى لمحة خاطفة . ولكن ، ما أضيعَ المرء بين النَّعْتِ والبصَر ! وأَلِجُ المدخل على ثقة ، ويؤدِّى بى المدخل إلى منظر غير المنظر ، وأسير فى مسارب أراها كأنها غير المسارب التى كانت تلوح لعينى ، وأجد شَذًا غير الشَّذا الذى كنت أستروِحُ ، ويفتننى الحاضر القريب عن غائب يتباعد كلما أوغلتُ المسير فى حُرِّ ثَرَاها .

وما أكاد أتوغَّل حتى أرى بين المشهدين فروقًا عجيبة ، لم يكن يخطر لى أنها كائنة ، وأنا حيث أنا فى مَرْقَبتى من المنظر الأعلى !

هكذا أنا بين التفكير فى الموضوع الذى أتهيَّأ له ، والإقبال على كتابة الموضوع الذى تهيأت له . أراه مجتمعًا واضحًا قريبًا سهلَ المسالك ممهدًا ، ثم لا أكاد أحمل القلم وأمضى ، حتى ينشقّ سهله أحيانًا عن وُعورة جارحة ، وأذهب أتعاطى ما كنت أراه قريبًا ، فإذا هو أبعد بعدًا مما أتوهم .

كذلك كان شأنى حين بدأت أكتب المقالة السالفة ، كنت أتوهم أنى سأفرغ من الموضوع كله فى مقالة واحدة ، لأن معارف وجهه كانت عندى مستبينةً كل الاستبانة وأنا أتهيأ له = فلما دخلت إليه من حيث دخلت ، انصدَعت معارفُه عن مجاهلَ يضلُّ فيها الدليل الحاذق ، وعن وعورة يَعْيَى عليها السالك البصير . وأقبلت أجمع أطرافَه من هنا ومن ثَمَّ ، وأنا أكتب ، حتى لا ينتشر ويتبعثر . فقد رأَيْتُنى كأنِّى بدأت فى إنشاء كتاب قائم برأسه ، لا فى إنشاء مقالة يتعجلها قارئها ، على عادة أهل زماننا فى العجلة . والعجلة شرُّ خُلُقٍ ، أخاف مَغَبَّته وأنا أكتب ، وأخاف أن أجد القارئ وقد استبدَّت به العجلة الداعية إلى الكَلال ، فأجدنى أداريه وأتلافاه بالصبر وضربٍ من الملاطفة ، وبشىء من المساهلة والمياسرة ، وربما عمدت إلى إدخال بعض الهزل فى مواطن الجد ، لتأخذ النفس من خفَّة الباطل جَمَامًا تستعين به على معاناة الحق . ولكننى أخفقت حين مضيت فى كتابة تلك المقالة ، فلم أستطع إلا أن أقبل بجِدّ لا هزل فيه ، وكأنى طالبتُ القارئ بتعب لا راحة معه ، وبأناةٍ فى القراءة لا يشُوبُها طائف من عجلة . وأظننى سأفعل ذلك اليوم ، حتى يتسنى لى أن أفرغ من هذا « الكتاب » الذى جاء فى صورة مقالة ، والله المستعان على لأواء القلم ، وعلى الذى أعانى من همِّ الكتابة وأداء الأمانة .

* * *

وقبلَ كُلّ شىء ، لنا صاحب بعيد الرضى ، [١] مقبلٌ على الدنيا بوجهٍ واحدٍ ، لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا ، إذا نظر فى شىء رأيته كأنه ينحطُّ إلى أعماقه ، أو هكذا

---

(١) هو صديقنا الأستاذ : الحسانى حسن عبد الله .

يظن ، بفكر صارمٍ صَلْد حديدٍ ، فهو لذلك أكثر شيء جدلًا إذا خاصم . وهو إذا قرأ ما أكتب ، لم يُعْفِنِي من جداله ، وإن لم يكشف لى عمّا فى نفسه ، بَيْدَ أنى لا أكاد أراه ، حتى أرى الجدال قائمًا نافذًا مُطلاً من أسارير وجهه ، وتجاليد جُثْمانه . فإذا ما أردت استثارته ، ثارَ عن حشد حاشدٍ من وجوه الاعتراض ، ومن التصميم الماضى على الاعتراض ، لا يبالى أن يمسك بتلابيبى ليردّ فكرى إلى فكره . وليس عجيبًا أنّى أجد متاعًا لا يملُّ فى أن أحسَّ بقبضته ، وبِلَزّه إذا ما لَزَّنى إلى مضيق رأيه . وذلك لأنى أجد لتعبيره عن نفسه نشوةً تحملنى على مقارعة حِدَّته بحِدَّتى ، ولا أزال أَلُمُّ شَعَث الكلام المبعثر بينى وبينه ، فإمّا تراضينا واصطلحنا على شىء ، وإمّا تركته على غير رضى ، حتى يزداد جداله بينه وبين نفسه غُرامًا وعُنْفًا . فلما قرأ المقالة السالفة زارنى كعادته ، ولكنى رأيتُ وجهه يَنْطِف اعتراضًا وجدالًا ، (أى يقطر) ، وكأنى عنده قد زدت لفظ « الدين » بابًا من الغموض من حيث أردت البيان ! فمن أجل ذلك ، آثرتُ أن أوضح ما أردت فى هذه الكلمة حتى نخرج من المأزق الذى أوقعتنا فيه اللغة ، كعادة كلّ لغة ، كما أسلفت فى صدر مقالتى الماضية .

* * *

لفظ « الدين » ، عند ما يطلق اليوم ، لا يكاد الناس يتوقفون فى فهمه والمراد من معناه . فهو عند أكثرهم : ما يتضمن عبادات فئة من الناس يلتزمونها فى أداء حق الله عليهم ، وما يتبع ذلك من رُسوم يقيمونها فى حياتهم ، ومن عقائد يعتقدونها فى ربِّهم ، ومن أصول يؤمنون بها فى نشأة الإنسان ، وفى حياته ، وفى معاده بعد الموت وانقضاء الحياة إلى أشياء كثيرة تتخلل ذلك من آداب ومعارف . وإذن فمعنى « الدين » هنا معنى مركّب من تفاصيل كثيرة جدًّا ، لكل قوم معنًى فى تفاصيله ، غير المعنى الذى عند آخرين يخالفونهم . فاليهوديّ يرى أن الذى عنده من ذلك « دين » والنصرانى يرى أن الذى عنده من ذلك « دين » ، وكذلك المجوسى والبوذى وسائر أصحاب الملل ، يرون ما هم عليه « دينًا » .

ولكن إذا عدنا فنظرنا ، وجدنا أن معنى « الدين » عند أهل كلّ مِلَّة ، معنى مركَّب معقّد أشدَّ التعقيد = ووجدنا أن كل ملة تخالف صاحبتها فى أكثر الأصول والتفاصيل فى العقائد والعبادات . وإذن فمفهوم اللفظ عند كل منهم لا بد أن يكون

مخالفًا كلَّ المخالفة لمفهومه عند من يخالفه فى الملة . وعسيرٌ جدًّا أن تجد بين أصحاب الملل ، إذا حققت ، تشابهًا فى معنى « الدين » بمعناه الجامع عند كل منهم . ومن ادعى أن معنى « الدِّين » واحد عند جميعهم ، فقد أبطل ، فإنه إذا كان معناه ومفهومه واحدًا ، لما كان هناك معنى لاختلافهم ، وادعاء كل منهم أن الذى عند صاحبه باطل ، ولأوجب ذلك أن يكون جميعهم شُرَكاء على السويّة فى الأصول والتفاصيل فى العقائد والعبادات جميعًا . وإذا كان ذلك باطلًا بيقين ، فلفظ « الدين » إذا أطلق لا يعنى البتة شيئًا ، إذا أريد التعبير عن معنى جامع مركب ، وإنما تدخل الشبهة على السامعين والمتكلمين ، من الوقوف دون هذا « المعنى الجامع المركّب » الذى وصفناه ، أى من الوقوف عند معنى « الدين » من حيث هو طريقُ عبادة ، سواء كان هذا الطريق صحيحًا عند قوم ، باطلًا عند آخرين ، أو كان عبادة لله الواحد القهار ، أو كان عبادة لغير الله من الأنداد والشركاء والأصنام والأوثان وسائر الضلالات التى انغمس فها البشر .

وإذا كان غير المسلمين ، ممن يتكلمون العربية ويعبرون بها ، يسمون ما عندهم « دينًا » على هذا الوجه ، فهل يصحُّ عندنا نحن المسلمين أن نسمى ما هم عليه « دينًا » ، وأن نفهم لفظ « الدِّين » بمعنى غير المعنى الجامع المركب الذى يدل عليه لفظ « الدين » عندنا ؟ هذا سؤال ينبغى أن يجاب عنه بجواب واضح لا لبْس فيه ولا غموض . ولكن ليس من ديننا أن نجيب على مثل هذا السؤال بلا احتجاج له بدليلٍ يجب التسليم له ، والدليل عندنا هو كتاب الله وسنة رسوله ، ليس لنا أن نخالف عنهما ، ولا أن نبتدع من عند أنفسنا معنًى لم يُبَيَّن لنا فى كتابنا الذى أنزله على نبينا ﷺ .

ولكن ينبغى قبل أن نصل إلى البيان عن ذلك ، أن نعيد ذكر المراحل التى مر بها لفظ « **الدين** » فى اللغة ، قبل أن ينتهى إلى معنى « العبادة » ، ثم إلى المعنى الجامع المركب المعقد ، الذى يطلقه أصحاب الملل على مللهم التى يتبعونها . وليس هذا الذى نقوله فى ذلك استيعابًا واستقصاء ، وإرجاعًا إلى الأصل الأوّل الذى بنى عليه المعنى ، فعسى أن يشقَّ ذلك ، لأنه مطلب عسير جدًّا أن تخلِّص لفظ « الدين » مما تراكم عليه فى مراحله مرحلةً بعد مرحلةٍ ، حتى تنتهى راجعًا إلى ذلك الأصل الأول

المجرد من التركيب . ولذلك نعمد إلى أقرب المعانى إلى الأصل الأول ، ونعده بمنزلة الأصل المجرد من التركيب ، ثم نسلسله مرحلة بعد مرحلة .

استظهرتُ أن المعنى الأول للفظ « **الدين** » ، أنه الحال التى يخضع لها الإنسان خضوعًا طارئًا أو مستمرًا ، مريدًا أو غيرَ مريدٍ .

● فإذا أَلِف المرء تلك الحال ودَرِب عليها ، ولزمها مرةً بعد مرةٍ ، خرج إلى معنى « العادة » التى لا يكاد المرء يفارقها ، بل يأتيها كالمقسور عليها .

● ثم جاءت المعانى تتراكم على لفظ « الدين » ، فداخله معنى القسر والقهر من ذى سلطان لا يملك المرء خِلافَه .

● ثم لحق بهذا معنى الخضوع لذى السلطان بإرادة أو بلا إرادة ، خضوعًا ظاهرًا أو باطنًا .

● ثم أدرك ذلك معنى الغلبة من ذى السلطان على من يخضعُ له ، حيث يكون الخضوع له عادةً دائمةً لا يكاد المرء يفكر فى الخروج عليها .

● فإذا ذلك قد جمع إلى معناها معنى الطاعة ممن خضع للسلطان .

● ثم دخل على معنى الغلبة من الغالب ، والطاعة من المطيع ، معنى جديد مؤسس على هذه المعانى المتراكبة . فإن صاحبَ السلطان يحاسب المطيعَ على طاعته ، والعاصِىَ على عصيانه ، و يكافئ المطيع ، ويعاقب العاصى ، فصار معنى « الدين » إلى الحساب والمجازاة على الأعمال التى يعملها كل منهم ، مما يرضى عليه ذو السلطان أو يسخطه .

● ولكل معنى من هذه المعانى المتدرِّجة فى التركيب ، ظلالٌ ربَّما غلبت اللفظَ على بعض معناه ، كاستعماله مثلًا فى معنى « الذلّ » و « الاستعباد » ، كقول الأعشى فى ذِكْر ما كان من أمر المُنْذِر بن الأسود فى إخضاعه « الرِّبَابَ » فقال :

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ إذ كَرِهُوا الدِّ   ينَ ، دِرَاكًا بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ
ثُمَّ دَانَتْ بَعْدُ الرِّبَابُ ، وَكانَتْ   كَعَذَابٍ عُقُوبَةُ الأَقْوَالِ

أى أذلّ الرِّبابَ واستعبدهم ، فذلوا له .

• أو كاستعمال « الدين » بمعنى السياسة ، تقول : : « دَانهم » ، إذا وَلِى سِياستَهم ، لأنه لا يسُوسهم إلا بالطاعة له والخضوع .

وإنما يوجب غلبة المعنى الحادثِ على المعنى التَّليد ، مكانُ استعماله فى العبارة المركّبة ، ثم يستقلُّ بعدُ إذا غلب استعماله مرة بعد مرة ، حتى ينفرد فيكون معنى مركَّبًا يدلّ عليه اللفظ بمجرد ذكره فى الجملة . ويصير اللفظ بعد ذلك مشترك المعانى ، لابُدَّ لصاحب اللغة من أن يميز أىُّ هذه المعانى المشتركة هو المراد فى العبارة ، بلا غفلة عن المعانى الأخرى التى تتداول اللفظ وتَرْكَبُه .

* * *

وقد انتهى معنى « الدين » إلى معنى الخضوع لمعبودٍ معظَّمٍ لا يملك المرءُ خِلافَهُ ولا معصيته ، ولكن لما كان الخضوع لمعبودٍ معظَّمٍ قد احتاج إلى رُسوم من العبادات والتكاليف ، وإلى أصول من العقائد فى المعبود ، وإلى عقائد فى نشأة هؤلاء العابدين ومكانهم من معبودهم ، وإلى ما ينالهم إذا أطاعوه ، وما يصيبُهم عند معصيته ، وإلى شيءٍ كثير جدًّا من التفاصيل فى هذه العبادة = صار جميع ذلك « دينًا » ، لأنهم يخضعون له بالتسليم ، فى أنفسهم ، وفى عقائدهم ، بل فى جميع أحوالهم . فكل من خضع لهذا المعبود وما توجبه عليه عبادتُه من تكاليفَ : فى العمل ، وفى الإيمان ، وفى سائر العقائد المتعلقة بمعبوده = يفهم معنى « الدين » مركَّبًا من كل ذلك ، وإن كان كانَ لا ينفكُّ يعرف أن أصل معناه راجع إلى طاعة هذا المعبود طاعة خاضعةً تقرّبه إليه ، ينالُ بها رضاه ويتّقى سَخَطَهُ .

ولا يرتاب عاقل فى أن كل عابد يتوجه بعبادته إلى معبودٍ بما هو عنده « دينٌ » لذلك المعبود ، فإنه إذا سمع لفظ « الدين » ، أخذ مَأْخَذَ أهل مِلَّته فى إدراك معناه مركّبًا ، دون الاقتصار على معناه السابق قبل أن يلحقه تراكُم المعانى المختلفة التى يألفها ، إذا ذكر أمر عبادته ومعبوده . فأنت إذا قلت للنصرانى « الدّين » وأنت تُخاطبه ، وأنت تعنى « الإسلام » بأعماله وعقائده ، لم يفهم من مجرَّد اللفظ شيئًا

مما تعنيه أنت من معنى « الدين » الذى هو الإسلام عندك . وهذا بينٌ جدًّا ، فيما أرجح ، وذلك لأن معنى « الدين » عند النصرانىّ مركب من جماع عقائد النصرانية وآدابها وأعمالها وعباداتها وطرق ممارستها على الوجه الذى يألفه . ثم لو أدرك أنك إنما تعنى بقولك « الدين » الإسلامَ ، فإنه يقتصر فى فهمه معنى هذا اللفظ على الأصل المشترك بين النَّصرانية والإسلام وغيرهما ، أى أنه لا يفهم من معنى « الدين » عندئذٍ إلا أنه طريق من طرق التعبُّد والخضوع ، ولا شىء فوق ذلك ، فهو عنده معنًى مبهَمٌ غيرُ واضح تمامَ الوضوح ، إذا قيس بما هو مطلوب منه أن يفهمه عنك . وهكذا شأن المسلم إذا سمع لفظ « الدين » من نَصْرانىٍّ أو يهودىّ ، أو عابدِ وثنٍ ، لا يفهم معنًى سوى معنى التعبد والخضوع لمعبودٍ يعبده ، دون الذى يسميه النصرانىُّ أو اليهودىُّ أو عابدُ الوثن « دينًا » ، لأنّ معناه عند كل منهم ، مركب على صورة مباينة لصورته عند المسلمين .

* * *

وكذلك إذا قال القائل : النصرانية « دين » ، واليهودية « دين » ، والمجوسية « دين » ، وعبادة الأوثان « دين » ، فإن هذا اللفظ له أربعةُ معانٍ جامعة متباينة للفظٍ واحدٍ ، إذا كان المراد بلفظ « الدين » المعنى المركَّب الذى يدركُه كلُّ منتسب ينتسب إلى واحد منها . لأن هذه « الأربعة » لا يكاد يتشابه معناها المركب ، وإنما يأتى الخداع من حيث أنك تجرِّد كل واحد من هذه الأربعة من كل ما تركَّب منه معناه الجامع ، وتظنّ عندئذٍ أنك فهمت شيئًا أو أدركته على وجهه الصحيح ، وهذا باطل ، فإنك إنما قصرت معنى « الدين » هنا على معنى الخضوع والتعبد لمعبود غير مميَّز . وهو لفظ لا يؤدِّى اشتراكُ هؤلاء « الأربعةِ » المِلَلِ فيه ، على شهادةٍ لواحد منها بمشابهة صاحبه ، ولا على شهادة واحد من هذه « الأربعة » على أن الثلاثة الأخر حقٌّ أو باطل .

فينبغى إذن ، أن يكون واضحًا تمام الوضوح ، أن لفظ « الدين » عندئذ ، مفهومٌ عند الثلاثة الآخرين ، فى حيِّزه المفرد ، دون حيِّزه المركَّب . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن فى تسمية المعتقِدِ فى أحد هؤلاء « الأربعة » ما عند الثلاثة الأُخر

« دينًا » ، فذلك من فعله ضربٌ من الخِداع فى التعبير ، يُفْضِى إلى الخلط فى فهم المعنى المراد من تعبيره ، إلا إذا ذكره مقيَّدًا واضحَ التقييد ، حتى يرجع بالمعنى الجامع ، إلى المعنى المفرد ، وهو مجرّدُ التعبد والخضوع من العابدين ، دون ما يكون به النصرانىُّ نصرانيًّا واليهودىُّ يهوديًّا ، والمجوسىُّ مجوسيًّا ، وعابدُ الوثن عابدَ وَثنٍ .

هذا ، وليس مجرَّدُ التعبد والخضوع بكافٍ فى أن يجعل كلَّ واحد من هؤلاء متميزًا عن أخيه ، حتى يقال هذا نصرانىٌّ ، وهذا يهودىٌّ ، وهذا مجوسىٌّ ، وهذا عابد وثن ، فإذا كان ذلك كذلك ، وجب أن يكون المعنى المُوجِب لوصفِ كل منهم بما وُصِف به ، شيئًا خارجًا عن معنى التعبد والخضوع . وهذا واضحٌ جدا . وإذا اختلفت ، مع ذلك ، صفةُ المعبود عند كلّ منهم ، امتنع أن يكون بينهم اشتراك فى معنى « التعبد والخضوع » نفسه ، واتسعت شُقّة التباينُ اتساعًا يوجب أن نلتمس لمعنى « التعبد والخضوع » نفسه ، نعتًا مميزًا لكل واحد من هؤلاء « الأربعة » ، لأن « التعبد والخضوع » نسبة إلى شىء ، يتغيَّر المفهومُ من معناهما بتغيُّر المنسوب إليه .

* * *

وقد دارست مكان هذا اللفظ : « الدين » وموقعَهُ فى كتاب الله سبحانه ، فوجدت مِصداقَ ذلك فيه بلا شبهة تعرض . فحيث وقعت هذه اللفظة من كتاب الله ، وقعت فى منزلها الذى هو منزلها ، دون سائر المنازل التى يقع عند الناس الخلط فيها ، وصريحُ النظر كان يوجب أن يكون ذلك كذلك . فإن الله سبحانه حين أرسل رسوله بالهدى ، وأوحى إليه هذا القرآن العظيم ، أرسله على حين فَتْرةٍ من الرُّسل ، أى على انقطاعٍ فى رسالة الرُّسُل ، وقد انطمست معالم الرسالة التى أُرْسلوا بها ، وتحوَّل الناسُ إلى غير العبادة التى أمرتهم بها رُسُلُ الله ، فكانوا جميعَهم ، عَرَبهم وعَجَمَهم ، فى جاهليَّة ، مِصداقُ ذلك ما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث عياضٍ المجاشعى ، عن رسول الله ﷺ :

« إن الله نَظَر إلى أهل الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ ، عَرَبَهم وعَجَمَهم ، إلا بَقَايا من أهل

الكتاب ، (أى عدد قليل فَرُّوا إلى الصوامع بعد الاختلاف فى كتابهم ، وبذلك خرج عامّةُ أهل الكتابين) . وقال الله لرسوله : إنما بعثتُك لأَبتَلِيَك وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسِلُه الماءُ تَقْرؤُه نائمًا ويَقظانَ » .

فكان أهل الكتاب يومئذ على مِلَّةٍ مبدَّلةٍ من دين موسى وعيسى عليهما السلام ، وكان العرب يومئذ خاصة على إرْثٍ مُبَدَّل من الحَنيفيَّة مِلّةِ إبراهيم عليه السلام ، غَلَب عليهم الشركُ بالله ، وعبادة الأوثان ، اتَّخذوها أندادًا يتقرَّبون بعبادتها إلى الله زُلْفَى ، فيما كانوا يتوهَّمون . وبُعِثَ رسول الله ﷺ والعربُ واليهودُ والنصارى جميعًا فى مِلّةٍ جاهلية ، فجاء بإبطال ما تَدِين به العرب وغيرُ العرب من أصحابِ الملل . فلم أجده سُبْحانه وتعالى سَمَّى شيئًا من هذه الملل الجاهلية « دينًا » فى شىء من كتابه ، مع أنه جاء بمحاجّتهم وإبطال دعواهم فى آياته المكية والمدنيّة جميعًا . وفى المكّى من التنزيل خاصة ، لم يسمِّ ما جاء به من عند الله « دينًا » ، بالمعنى الذى يفهمه الناس اليوم ، ولا بالمعنى الذى سوف يأتى ظاهرًا فى بعض آياته المدنية .

* * *

١ ● وقد وجدتُ أن الله سبحانَهُ قد أنزل فى كتابه لفظَ « **الدين** » معرّفًا مُضَافًا إلى « يَوْم » فى اثنتى عشرة آية من القرآن المنزَّل بمكة ، وهذه هى على ترتيب النزول ما استطعت : فى سورة المدثر : ٤٦ ، ثم سورة الفاتحة ، وسورة ص : ٧٨ ، وسورة الواقعة : ٥٦ ، وسورة الشعراء : ٨٢ ، وسورة الحجر : ٣٥ ، وسورة الصافات : ٢٠، وسورة الذاريات : ١٢ ، وسورة المعارج : ٢٦ ، وسورة الانفطار : ١٥ ، ١٧، ١٨ ، وسورة المطففين : ١١ ، وذلك كقوله تعالى فى سورة المدثر : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، وهو يوم المجازاة والحساب والثواب والعذاب ، بعد البعث من الموت . وأفرده معرَّفًا غيرَ مضافٍ بهذا المعنى نفسه فى سورة الماعون : ١ ، وسورة التين : ٧ ، وسورة الانفطار : ٩ ، كقوله فى سورة الماعون : ١ ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ ، أى بثواب الله وعقابه يوم القيامة . فهذا هو المعنى الأوّل الذى يراد من لفظ « الدين » فى أول تنزيل القرآن . وكان هذا مطابقًا للحال التى كان العرب عليها يومَئذٍ ، وكان عليها غير العرب أيضًا من اليهود والنصارى وسائر الملل :

من إنكار البعث بعد الموت ، وإنكار ما يتبع ذلك من الثواب والعقاب والحساب والمجازاة .

٢ ● ثم رأيت لفظ « الدِّين » معرفًا مقرونًا بِذِكر « الإخلاص » فى سورة الأعراف : ٢٩ ، وسورة يونس : ٢٢ ، وسورة لقمان : ٣٢ ، وسورة الزمر فى أربعة مواضع : ٢ ، ٣ ، ١١ ، ١٤ ، وسورة غافر فى موضعين : ١٤ ، ٦٥ ، وسورة العنكبوت : ٦٥ ، كقوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، وقوله فى سورة الزمر : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ . وهو فى هذا الموضع بمعنى الطاعة والإخبات لله : فمعنى « مخلصين له الدين » ، أى نفرده بالأُلوهة ، ولا نشرك به أحدًا من خلقه ، بل نُطيعه وحده سبحانه ، كما أمر على لسان رسله . وقد رأيتُ أنّ ذلك إنما جاء حيثُ ذكر اللهُ الشركَ ، واتّخاذَ الأولياء من دُون الله ، واعتقادَ الشُّفعاء والأنداد .

٣ ● وجاء أيضًا معرَّفًا غير مقرون بذكر « الإخلاص » ، فى معرض اتخاذ إلهين اثنين ، وهو الضَّلال المُوبِقُ ، ووَصْفه بصفةٍ أخرى ، وذلك قوله تعالى فى سورة النَّحل : ٥٢ : ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ ، أى له الطاعة دائمة ثابتة واجبة لازمة لكل خلقه ، أن يطيعوه ويخضعوا له ، مع تمام الرعاية فى إفراده بالألوهة أمرًا لازمًا من الله . يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ . فهذا هو المعنى الثانى .

٤ ● ثم وجدت سُوَرًا من القرآن جاء فيها ذِكْرُ الشرك بالله ، واتخاذ الشفعاء ، وقول الكافرين ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، وذِكْرُ اختلاف أهل الكتابين من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ، وذِكْرُ اتّباعهم أهواءهم بغير علم ، وذِكْرُ الذين اتخذوا كتاب الله الذى أنزل إليهم قراطيسَ يُبدونها ويخفُون كثيرًا ، فرأيت لفظ « الدِّين » قد جاء معرّفًا وموصوفًا حالُ صاحبِه بأنه « **حَنِيفٌ** » و « **الدّين** » نفسه موصوفًا بأنه « **قيم** » ، وذلك فى سورة يونس : ١٠٥ ، وسورة الروم : ٣٠ ، وسورة يوسف : ٤٠، وسورة الأنعام : ١٦١ ، وذلك كقوله تعالى فى سورة يونس : ﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، وقوله تعالى فى سورة الروم : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ولما كان ذلك قد جاء فى صدد البراءة من الشرك ، واتخاذ الأنداد والشفعاء ، واعتقاد الولد لله سبحانه ، واتباع الهوى بغير علم = دلّ ذلك على أَنه أراد إقامة المطيع وجهَه خاشعًا ، خاضعًا لله وحده ، مستقيما على ذلك غير معوَجٍّ إلى طاعة مُعْوَجَّة فى يهوديةٍ أو نصْرانيةٍ أو عبادةِ وَثَنٍ .

ولمَّا أخلاه من التعريف وأضافه إلى ياء المتكلم فى الآية التى قبل الآية التى ذكرتها آنفًا فى سورة يونس ١٠٤ ، جاء أيضًا بهذا المعنى ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أى إن كنتم فى شك من طاعتى وخضوعى فى العبادة ، فإنى أُفْرِدُ الله وحده بالعبادة ، دون ما تطيعونه فى عبادتكم من الأوثان والأنداد والشركاء ، ودون ما يتوجّه له بالطاعة والعبادة ، القومُ الذين قالوا : اتخذ الله ولدًا من أهل الكتاب . فهذا فرعٌ فيه زيادة على المعنى الثانى .

٥ ● ثم جاء « الدين » معرّفًا غيرَ موصوف فى موضعين من سورة الشورى : ١٣، ٢١ ، وذلك قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ ، ثم ذكر سبحانه بعَقِب هذه الآية تفرُّقَ الناس عن « الدّين » الذى وصّى به إبراهيم وموسى وعيسى ، واتباعهم أهواءهم ، ومحاجّتَهم فى الله بحجة داحضة عند ربهم ، وتَماريهم فى الساعة والبعث ، ثم قال : [سورة الشورى : ٢١] ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ ، فدلَّ هذا السِّياق على أنه أراد به الطاعةَ والخضوعَ لله سبحانه على وجهٍ واحدٍ من الطاعة والخضوع ، أمرَهم أن يقيموا وجوههم عليه غير معوجِّين عنه ، ولا متفرِّقين فيه . فهذا حدٌّ لمعنى « الدين » الذى هو الطاعة والخضوع ، وأنه واحدٌ لم يختلف عليه الأنبياء جميعًا ،

كما جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « أنا أَوْلَى الناس بعيسى ابنِ مريَم فى الأولى والآخرة قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال ؟ : الأنبياءُ إخوةٌ من عَلاّتٍ ، (العَلاّتُ : هم الأخوة لأبٍ من أمّهات شَتَّى) ، وأمهاتُهم شتَّى ، ودينهم واحدٌ ، فليس بيننا نبىٌّ » . ومرادٌ بالدين فى ذلك كله : هذه الطاعة المعروفة فى عبادة الله وحده ، على الوَجْه الذى وصَّى الله به أنبياءه جميعًا . فهذا فرع على المعنى الثانى ، مع تحديد واضح .

٦ ● ثم جاء « الدين » فى سورة الأعراف : ٥١ ، وفى سورة الأنعام فى ثلاثة مواضع : ٧٠ ، ١٣٧ ، ١٥٩ ، وفى سورة الروم : ٣٢ ، مضافًا ، كالذى جاء فى ذكر المشركين فى سورة الأنعام : ٧٠ : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، والذى جاء فى ذِكْرِ اليهود والنصارى فى سورة الأنعام : ١٥٩ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ ، وذِكْرِ المشركين فى سورة الرُّوم : ٣٠ ، بعد قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ، الآية بقوله تعالى : ٣١ ، ٣٢ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ ، فدل ذلك على أنه أراد المعنى السالف قبله ، وهو « الدينُ » ، الواحد فى عبادة الله ، على الوجه الذى أمرَ به أنبياءه ، فتفرّق فيه الناس . فهذا أيضًا فرع على المعنى الثانى .

٧ ● وأمَّا ما جاء مضافًا فى سورة غَافِر [: ٢٦] على لسان فرعون ، وذلك قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ ، فإن سياق الآيات يدلّ على أنه أراد بالدين هنا الخضوعَ والطاعةَ فى العبادة ، ولأنه هو الذى كذّب مُوسى وعصى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ ، كما جاء فى سورة النازعات : ٢٢ - ٢٦ . فهذا أيضًا فرعٌ على المعنى الثانى ، من وجهٍ مخالف .

٨ ● وأما ما جاء فى سورة يوسف : ٧٦ فى قوله تعالى ، عند ذكر خبر يوسف وأخيه : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، فمن البين

الواضح أنه أراد سلطانَ فرعون وقضاءَه فى السارقين ، لا شكّ فيه ، لأن يوسف كان نبيًّا على ما عليه آباؤه من الأنبياء ، لا عَلَى ملة فرعون وقومه . فمحالٌ أن يكون أراد بالدين الطاعة فى العبادة .

٩ ● وأما قوله تعالى فى سورة الكافرين ، وهى السورة الثالثة فيما نزل بمكة من القرآن : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، فإنه ممّا يشكل على بعض من لا يتوقف ويتأنّى . فبيقينٍ لا يسمِّى اللهُ تعالى ما كان عليه المشركون من عبادة الأوثان « دينًا » ، بالمعنى الجامع الذى كانوا عليه فى مِلّتهم ، هذه واحدة . وبيقينٍ أيضًا لم يكن الأمر يومئذ قد اكتمل بيانُهُ لرسول الله ﷺ ، بل كانَ فى أوله ، ليس عنده من الأمر شىءٌ إلا أمرُ التوجّهِ بالعبادة والخضوع والطاعة لله الواحد القهار ، دون الأصنام والأوثان التى جعلُوها لله شركاء ، وتعبَّدوا لها لتقرِّبَهم إلى الله زُلْفَى . والسورة كلها فى معنى « العبادة » لا غير ، أى فى معنى الطَّاعَةِ والخضوع ، دون سائر التفاصيل التى تتصل بالطاعة والخضوع ، من تكاليف وعقائد وأعمال . وهو ﷺ لم يَدْعُهم إلى المتاركة ، فَيَدَعَ لهم مِلَّتهم التى هم عليها ، ويَدَعُوا له مِلّته التى هو عليها . ولو كان الأمر أمر مُتاركة ، لكان ضربًا من الإقرار لما هم عليه ، ولم يكن لدَعوته إياهم إلى اتّباعه معنى يُعْقَل . وإنما أُمِرَ أن يقول للكافرين : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ ، فهو بهذه الآيات يبرأ أن يكون متوجِّها بطاعته وخضوعه إلى ما يتوجَّهون له بالطاعة والخضوع ، فهما ليسا سواءً ، فهو يُقِيم وجهه بالطاعة والخضوع لله وحده سبحانه ، وهم يتوجَّهون إلى ما لا يَعْقِل من أصنامهم وأوثانهم ، وإن زعموا أنهم إنما يتوجهون إليها ، ليتقربوا بها إلى الله . فأمِرَ ﷺ أن يقول لهم : لكم سيرتكم التى سرتُمْ عليها فى التوجُّه للأصنام ، مع زعمكم أنها تقرِّبكم إلى الله زلفى = ولىَ سِيرتى فى التوجُّه إلى الله وحده سبحانه ، فأنتم بريئون بشرككم مما أعبد ، وأنا برىء مما تعبدون .

فالدين فى هذا الموضع قريب المعنى من السِّيرة والطَّريق ، وهو أخصُّ فى المعنى مما مضى كله ، وكأنه معنى رابع .

* * *

وإذن فلفظ « الدين » ، فيما نزل من القرآن بمكة ، لا يحتملُ غيرَ هذه المعانى ،

فلم يسمِّ الله تعالى شيئًا من عبادة المشركين أو أهل الكتاب « دينًا » بالمعنى الجامع الذى أشرنا إليه ، ولم يسمَّ « الإسلامُ » نفسُه فيما نزل بمكة « دينًا » بهذا المعنى الجامع ، لأن جميع شرائع « الإسلام » لم يتمَّ نزولُها وقضاؤُها إلا فى المدينة بعد زمانٍ طويل . فمن ذلك أن تمام الصلاة أربعًا ، على ما نحن عليه اليوم ، لم يتمَّ إلا بعد شهر من مَقْدَم رسول الله ﷺ المدينة مهاجرًا ، وأُقِرّت صلاةُ المسافرِ ركعتين ، كما كانت الصلاة فى مكة . والزكاة أيضًا لم تتمَّ فُرُوضها إلا بعد الهجرة بزمان ، وصيامُ رمضان وزكاة الفطر ، إنما فُرِضا فى شعبان على رأس ستة عشر شهرًا من الهجرة ، ثم تتابعت أحكام الإسلام كلّها بالمدينة ، بلا ريبٍ فى ذلك . وإنما اقتصر الأمرُ بمكة على المحاجّة فى التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده ، سوى الصَّلاة المكتوبة قبل تمامها ، فترَكَ اللهُ تسميةَ ذلك « دينًا » بالمعنى الجامع ! كما رأيت .

أمَّا إذا جَاء ذكرُ ما كان عليه أهل الكتاب وغيرهم من الأمم ، فإن الله سبحانه لم يذكره حين ذكرهم بلفظ « الدين » ، بل بلفظ « **الملّة** » . وذلك كالذى فى [سورة ص : ٥ - ٧] ، وذلك حين ذكر الذين كفروا ، وتعجُّبهم من أن يجيئهم منذر منهم وقالوا هذا ساحر كذاب ، قال الله تعالى بعد ذلك ، يذكر مقالة الكافرين : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ ، فالمِلّة الآخرة ، هى النصرانية ، وهى لا تأبى أن تجعل لله ولدًا ، كما قال الله تعالى فى [سورة المائدة : ٧٢] ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ ، إلى آيات كثيرة فى هذا المعنى ، كقوله للنصارى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ .

وسمَّى الله ما كان عليه قوم شعيب من الشرك « مِلّةً » فى سورة الأعراف : ٨٨، ٨٩ ، وكذلك سمَّى كل ضلالة كان عليها قومٌ « ملةً » فى سورة يوسف : ٣٧، ٣٨ ، وفى سورة الكهف : ٢٠ ، وفى سورة إبراهيم : ١٣ ، مما نزل بمكة ، بل سمَّى الذى كان عليه إبراهيم وولده من الحق الذى لا اختلاف فيه « ملة » ،

كقوله فى سورة يوسف : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، ومثل ذلك فى سورة الأنعام : ١٦١ ، وسورة النحل : ١٢٣ ، من القرآن الذى نزل بمكة ، ولم يسمِّ الله تعالى شيئًا من ذلك « دينًا » بالمعنى الجامع .

ثم لما نزل ما نزل من القرآن بالمدينة ، لم يسمِّ الله تعالى شيئًا من ذلك « دينًا » ، بل سمى ما عليه اليهودُ والنصارى « مِلَّةً » ، كالذى جاء فيما نزل بمكة ، نحو قوله لرسوله والمؤمنين [سورة البقرة : ١٢٠] : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . فسمى ما عليه اليهود والنصارى « مِلَّةً » ، ووصفهم باتّباع الأهواء ، ولم يسمِّ ذلك « دينًا » بالمعنى الجامع . وذكر « ملّة إبراهيم » فى سورة البقرة : ١٣٠ ، ١٣٥ ، وسورة آل عمران : ٩٥ ، وسورة النساء : ١٢٥ ، وسورة الحج : ٧٨ ، هذا مع قوله فى هذه السورة : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ .

وإلى هذا نظر ابن حزم فسمى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » وكذلك الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » .

فهما قد تحدثا عن ملل اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم .

* * *

فإذا انتهينا إلى ما نزل بالمدينة ، وقد مضى نزول سِتٍّ وثمانين سورة من القرآن ، فيها أربعة آلاف آية وستمائة وثمان عشرة آية (٤٦١٨) ، جاء أكثرها فى حِجَاج الكفّار ، من أهل المِلَل جميعًا ، فى شأن التوحيد وتوجيه العبادة لله وحده ، وسائر العقائد التى اختلف الناسُ عليها بعدَ أن تباغَوْا بينهم ، فبدَّلوا دين الأنبياء وحرَّفوه ، واتبعوا أهواءهم = وجدنا أن لفظ « الدين » قد جاء فيما نزل بالمدينة فى مواضع من القرآن ، وكانت عِدَّة السُّور التى نزلت بالمدينة ثمانيًا وعشرين سورة ، فيها ألف آية ، وستمئة وثمان عشرة آية (١٦١٨) ، لم تَخْلُ من حِجَاج أهل الملل من الكفار وأهل

الكتاب ، وتضمَّن مُعْظمها أحكام الله وشرائعه التى فرضَها على عباده ، وارتضاها لهم ، وبيَّن عنها رسول الله ﷺ فى حديثه الذى روى عنه ، ومعظم حديثه فى المدينة بعد الهجرة ، كما هو ظاهر لمن يتأمل الحديث ويتتبعه . وقد كنت أحب أتتبع هذا اللفظ فى آيات القرآن الذى نزل بالمدينة ، وفى الحديث أيضًا ، ولكنى رأيت الأمر يطول ، فآثرت اختصاره .

وقد وجدت أن ذكر « **الدين** » معرَّفًا مضافًا إلى « يوم » أى « يوم الدين » بمعنى الحساب والمجازاة (وهو المعنى الأول) قد خلا منه ما نزل من القرآن بالمدينة . ولم يأت بهذا المعنى الأوّل إلا فى آية واحدة فى سورة النور : ٢٥ وهى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ . فطابق هذا تاريخَ الدّعوة ، لأن الأمر بعد الهجرة قد اختَلفَ ، وصار إلى إتمام العبادة الصحيحة التى يُعَدُّ بها العابد عابدًا لله ، لا فى العقائد وحدها ، بل فى الشريعة كلها : عقائدها ، وعباداتها ، وآدابها ، وأصولها فى النظر والاستدلال ، وذلك بعد أن ضرب الإسلام بِجِرانه ، واستقرّ وقويت شوكته فى دار أنصار الله بالمدينة .

ثم وجدت لفظ « الدين » قد جاء معرَّفًا ، مقرونًا بذكر « الإخلاص » ، (وهو المعنى الثانى الذى ذكرته آنفا فيما نزل بمكة) ، وموصوفًا بأنه « قيِّم » ، (وهو الفرع على هذا المعنى) ، فى سورة البينة : ٥ ، وذلك قوله تعالى فى ذكر أهل الكتابين والمشركين جميعًا : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ ، فهذا بمعنى الطاعة والخضوع ، وإفراد الله بالألوهة ، وخلع الأنداد والشركاء والشفعاء واتخاذ الولد وإقامة المطيع وجهه خاشعًا خاضعًا لله وحده ، مستقيمًا غير معوّج إلى طاعة معوجّة فى يهودية أو نصرانية أو عبادة وثن . ومثل ذلك أيضًا ما جاء فى آية سورة التوبة : ٣٦ فى ذكر عدة الشهور ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ ﴾ .

* * *

أما « الدين » معرَّفًا غير موصوفٍ ، (وهو الفرع الثانى على المعنى الثانى ، كما ذكرت) ، والذى يراد به الطاعة والخضوع لله على وجه واحدٍ لا يختلف ، وذلك هو الوجهُ الذى وَصَّى به أنبياءه جميعًا ولم يختلفوا عليه ، وأُمِروا أن لا يتفرَّقوا فيه ، فقد جاء فى آيات كثيرة ، فى سورة البقرة فى ثلاثة مواضع : ١٣٢ ، ١٩٣ ، ٢٥٦ ، وفى سورة آل عمران : ١٩ ، وفى سورة النساء : ٤٦ ، وفى سورة الأنفال فى موضعين : ٣٩ ، ٧٢ ، وفى سورة التوبة فى موضعين : ١١ ، ١٢٢ ، وفى سورة الحج : ٧٨ ، وفى سورة الأحزاب : ٥ ، وفى سورة الممتحنة : ٨ ، ٩ = وهو يتضمن بيان معنى « الدين » بأنه « الإسلام » ، وأن « الدين لله » ، ولذلك جاء هذا المعنى فى سورة آل عمران : ١٩ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ ﴾ ، وذلك دالٌّ تمام الدلالة على أن ما سوى « الإسلام » = على الوجه الذى وصّى به إبراهيمُ ويعقوبُ ولَدهم من الأنبياء ، كما جاء فى « سورة البقرة » : ١٣٢ ، وعلى الوجه الذى سمَّانا به إبراهيم (مسلمين) ، كما فى سورة الحج : ٧٨ = لا يُسَمَّى « دينًا » بل هو « مِلّةٌ » لا غير . يصدِّق ذلك قوله الله فى سورة آل عمران : ٨٥ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ، ثم زاده الله تعالى بيانًا فى سورة المائدة : ٣ ، وهى من آخر ما نزل من القرآن ، وفى الآية التى هى تمامُ الدين ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ .

ثم جاء « الدين » مضافًا إلى « الله » سبحانه ، وإلى « الحق » ، فى سورة آل عمران : ٨٣ ، وسورة التوبة فى موضعين : ٢٩ ، ٣٣ ، وفى سورة النور : ٢ ، وفى سورة الفتح : ٢٨ ، وسورة الصف : ٩ ، وسورة النصر : ٢ = ويراد به « الإسلام » كله الذى لم يسمِّ الله مِلَّةً من الملل غيره « دينًا » كما أسلفت . وبيَّن ذلك بيانًا واضحًا فى قوله فى سورة التوبة : ٣٣ ، وسورة الفتح : ٣٨ ، وسورة الصف : ٩ ، وهن جميعًا من آخر القرآن نزولًا : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ، فعرَّف « الدين » بالإضافة إلى « الحق » ، وعنى

به الإسلام ، ثم ذكر « الدين » معرَّفًا ، مفردًا ، ثم وصفه بلفظ « كُلِّه » الدالّ على معنى الجماعة ، فكأنه قال « على كُلّ دين » . ولكنه سبحانه لا يسمِّى شيئًا من هذه الضلالات فى عبادته وطاعته « دينًا » ، فجاءنا بالحق فى العبارة عن هذه الملل التى يدّعى أهلها أن الذى هم عليه عبادة له سبحانه ، فجعلها كلّها ملَّة واحدة فى الكفر ، وإن اختلفت أسماؤها ، وتفرَّقت طُرقُها ، فيما يزعمون أنه عبادة لله سبحانه ، وليست هى بعبادة ، إنما العبادة التى ارتضاها الله ، وجعلها ظاهرةً عاليةً على كل عبادة باطلةٍ ، هى عبادة الإسلام « دين الحق » ، على الوجه الذى أمرنا ربُّنا أن نعبده عليه ، فى أعمالنا وفى عقائدنا ، وفى أحكامنا ، وفى أصول تفكيرنا ونظرنا .

فصار بيِّنًا بعد هذا أن الله سبحانه لا يرضى لنا أن نسمى شيئًا من الملل من نصرانية ويهودية وغيرهما : « دينًا » ، سوى ملة أبينا إبراهيم عليه السلام ، وملة أنبيائه جميعًا ، وهى « الإسلام » « دين الله » الذى لا يقبل من عِباده دينًا سواه ، والذى أرسل به رسوله محمدًا ﷺ ليُبْطل الملل كلهَا ، ولا يكون شىء منها يُسَمَّى « دينًا » سوى « الإسلام » . وإذن فقول المسلم مثلًا : « **الأديان السماوية** » ، قول مخالف لعقيدة أهل الإسلام فى حقيقة هذه الملل التى عليها الناس أحمرُهم وأسودُهم ، فإن الله لم يرسل نَبيًّا من أنبيائه بدين غير الإسلام ، وكل ما خالف الإسلام من الملل : فى عقائدها ، وعباداتها ، وآدابها ، وأصول تفكيرها ونظرها ، فالمهيمن عليه وعلى صحته أو بطلانه ، هو القرآن كتَابُ الله ، والحديثُ حديث رسول الله ، والدِّين القيّم ، هو ما جاء به رسول الله ﷺ ، وما كان عليه هو وأصحابه والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين . وكلُّ من فارق دينَه الذى بُعِث به ﷺ من مشرك ، ووثنى ، ويهودى ، ونصرانىّ ، ومتحنِّف ، ومن ابتدع فى الدين ما ضلَّ به عن الصراط المستقيم ، فداخلٌ فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : ١٥٩ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ .

* * *

وقد بقى شىءٌ كثير كنت أحبّ أن أَقوله فى بيان الحقّ ، حتى لا نهوِىَ فى الضلالة ، فى زمان قد فَتَنَ الناسَ فيه ما يرون من غلبة الذين اتخذوا دينهم هُزوًا ولعبًا

وغرّتهم الحياة الدنيا ، والذين فَرِحوا بما عندهم من العلم ، والذين غَضِب الله عليهم وزادهم بضلالتهم ضلالة ، مع ما عندنا من الدُّعاء اللازم في كل صلاةٍ مراتٍ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . وبيّنٌ أن « المغضوب عليهم » ، هم الذين جاءهم الكتاب فكتموا ما فيه وبدَّلوه وهم اليهود ، وأن الضالين هم الذين جاءهم الكتاب من بعده فأضاعوه ، وابتدعوا لهم عبادةً بغير علم موروث عن أَنبياء الله .

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى تخليص أعناقنا من رِبْقة العبودية للأَهواء ، بعد أن أذاقنا الله لباسَ الجُوع والخوف . ولن يَتِمَّ لنا شيءٌ من ذلك حتى نصحح الأصل الذى ننظر به إلى الأشياء من حولنا ، وعلى الوجه الذى أَمَرنا الله أن ننظر ونفكر ونعمل ، فإنّ النظرَ والفكرَ والعملَ ، كلٌّ ذلك عندنا عبادة قد بيّنها الله فى كتابه وسنة نبيه ، بيانًا شافيًا كافيًا ، لا يُمارِى فيه إلاّ من وقع عليه ما قاله سُفْيان بن عُيَيْنة : « مَنْ فَسَد من عُلَمائنا ففيه شبهٌ من اليهود ، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبهٌ من النصارى » .

ونحن اليوم أولى أن نُقيم وجوهنا للدّين حنيفًا ، مخافَة أن نقع فيما أنذرنا به نبيُّنا ، فى الحديث الذى رواه مُعاوية رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ ذكر افتراق الفِرَق فى الدين ثم قال : « إنَّه سيخرج من أمّتى أقوام تَتَجارَى بهم تلك الأهواء كما يَتَجارَى الكَلَبُ بصاحبه ، لا يَبْقى منه عِرْقٌ ولا مَفْصِل إلاَّ دخله . ثم قال : والله يا معشر العرب ، لئن لم تقومُوا بما جاء به نبيُّكم ﷺ ، لغَيْرُكم من الناس أحْرَى أن لا يقوم به » . وأعاذنا الله أن نكون من هؤلاء .

وأرجو أن أُتِمّ هذا فى مكان غير هذا المكان ، وفى وقت غير هذا الوقت .

ضَفَادِعُ في ظَلْمَاءِ لَيْلٍ...



٢٥

ما دمتُ قد عزمتُ على أن أرتكب الكلام فى شىءٍ لم أكُن أحبُّ أنْ أُدَانيَه ، فلأرتكبْ بعضَ ما لا أحبُّ من الحديث عن فترة من عُمْرى ، يُسوّغُ لِيَ الحديث عَنْها ما أجدُ فيها من العبرَةِ ، ولأنَّها كانت مِحْنةً أَوْقد عليَّ نارهَا نظامُ التعليم فى بلادِنَا ، ووقوعُ هذا النظامِ تحت سلطانِ المستعمرين والمبشّرين حِقبةً لا تزالُ ممتدَّةً فى حياتنا إلى هذا اليوم ، ولا تزالُ آثارها تستشرى عامًا بعد عامٍ ، حتى كأن أصابع ذلك الرَّجل اللَّعين ، لم تزل حيّةً ممسكةً بالزمامِ ، وهو رِمّةٌ باليةٌ تحت الثّرَى !

فمنذ بدأتُ أَعقِلُ بعضَ هذه الدُّنْيَا ، وأَرى سوادَها وبياضَها بعين باصِرَةٍ ، شغلتنى « الكلمة » وتعلَّق قلبى بها ، لأنّى أدركتُ أَوّلَ ما أدركتُ أن « الكلمة » هى وحدها التى تنقُلُ إلىّ الأشياء التى أراهَا بعينىّ ، وتنقُلُ إلىّ أيضًا بعضَ علائقها التى تربطُ بينها ، والتى لا أطيق أن أراها بعينىّ . وكانَ هذا إدراكًا مُبهمًا ، لا تستطيع طفولتى يومئذ أن تستبينَهُ كُلّ الاستبانة . ولكننى لا أزال أذكر لمْحًا كالوميض يلوحُ ويخفَى ، من عَهد أوّل طفولتى ، إذا كنتُ أَسْمَعُ من كان فى بيتنا حين يتحدّثون بطلاقةٍ وذَلاقَةٍ ، لا يطيقُ مثلها لسانٌ غضٌّ قريبُ عَهْدٍ بصَمْتِ الطفولة الطويل ، وبعجزِها المتلهّفِ إلى الإبانة ، وبنِزَاعِها الدائب إلى محاكاة الكبار . ثم قذفَ بى أبى ، رحمه الله ، إلى المدرسة ، فلا أزال أذكر أوّل ساعةٍ دخلتُها ، ولا أزال أذكر ذلك الرُّعْب الذى فَضَّ نفسى وهَالَنِى ، حين صَكَّ سَمْعى ذلك الصوتُ المبهم البغيضُ إلىّ منذ ذلك الحين ، صوتُ الجرس ! صوتٌ مصلصِلٌ ، مؤذٍ ، جافٍ ، أبكَمُ أعجمُ لا معنى له ، وإذا هو غُلٌّ يطوّقنى ويُشِلُّ إرادتى . رنينٌ منكر سَرَى بالفزع فى نَفْسِى ، وردّد الوجيبَ الوخّاز فى قلبى . كدتُ أكرَهُ المدرسة من يومئذٍ ، من جرَّاءِ هذا الجرس الأعجميّ الخبيث . وبعد قليل عرفتُ أنَّ أكثر لِدَاتى فى المدرسة قد وجدوا من صوته المُسْتَبْشَع مثلَ الذى وجدتُ . ولو كنتُ أمِلكُ من أمر الناسِ

شيئًا ، لأمرتُ من فورى بإبادة هذه الأداةِ الخبيثة ، وإلغاءِ استعمالها فى المدرسة خاصةً . والعجب لوزارة التربية والتعليم ، كيف تُبْقى على هذا الوحش البشع الممقوت المدمّر لنفوس النشء وقلوبهم ، بلا مسوّغ معقول . ولكن كيف نعجبُ ، وناسُنَا قد ابتُلُوا بالتقليد ، وإن كان التقليد لا يهدِى إلى خَيرٍ ، بل لعلّه من أكبر الأدلّة على سُخْفِ العقل !

هكذا أخذنى أوّلُ البلاء . ثم زادَ وربا حين ساقُونا إلى الفُصُول كالقطيع صفوفًا صفوفًا . ولكن لم يلبث فَزَعِى أن تبدَّدَ بعد أن دَخلنَا الفصل ، واستقرَّ بنا الجلوسُ . ثم بدأ الدرسُ الأوّل ، عَلَى الرِّيق ، وهو درس اللغة الإنجليزية ! ونسيتُ كُلّ ما نالنى حين سمعتُ هذه الحروف الغريبة النطق التى لم آلَفْها ، وفتنتنى وغلبنى الاهتمام بها ، وجعلت أسارعُ فى ترديدها وحفظها . اغتالتْ هذه الحروف الجديدة وكلماتُها كُلّ همَّتى ، اغتالتها بالفرَحِ المَشُوب بطَيْش الطفولة . وكأنّ حُبَّ الجديد الذى لم آلفْهُ ، قد بزّ حُسْنَ الانتباه إلى القديم الذى ألفتُه منذ ولدتُ ، فقلَّ انتباهى إلى لغتى العربيَّةِ ، ومضت الأيَّامُ ففتَر انتباهى إليها ، بل لعلّى استثقلتها يومئذٍ وكدت أنفِرُ منها . وكذلك صرتُ فى العربية ضعيفًا جدًّا ؛ لا أكادُ أجتازُ امتحانَها إلاّ على عُسْر ، وعلى شفًى . وهكذا أنفذَ « دنلوب » اللعين أوّل سِهَامه فى قلبى من حيث لا أشعر ! ودرجتُ على ذلك أربع سنواتٍ فى التعليم الابتدائى ، والبَلاَءُ يطغَى علىَّ عامًا بعد عامٍ ، ولكن كان من رحمة الله بى ، أَنْ أدركتنى ثورة مصر فى سنة ١٩١٩ ، وأنا يومئذ فى السنة الثالثة .

فلما كانت السنة الرابعة سقطتُ فى امتحان « الشهادة الابتدائية » ، ولا ملحقَ لها يومئذٍ . وأعدتُ السنة على مَضَضٍ ، لأنى كنت قويًّا ، (كما كنا نقول) ، فى الرياضة خاصة ، وفى سائر العلوم عامة ، سوى العربية . وصَنَع الله لى حيث سقطتُ ، وأحسنَ بى إذ ملأَ قلبى مَلَلًا من الدروس المعادة ، واتّسع الوقت ، فصرتُ حُرًّا أذهب حيث يذهب إخوتى الكبارُ إلى الأزهر ، حيث أَسمع خطبَ الثُّوَّار ، وأَدخل « رواق السناريّة » وغيره بلا حَرَجٍ . وفى هذا الرّواق سمعت أوَّلَ ما سمعتُ مُطَارحة الشعر ، وأنا لا أدرى ما الشِّعرُ إلاّ قليلًا !! وكتب الله لى الخيرَ على يد أحد

أبناء خالى ، ممن كان يومئذٍ مشتغلًا بالأدب والشعر ، فأراد يومًا أن يتَّخذنى وسيلةً إلى شيء يريدُه من عَمَّته ، التى هى أمّى رحمها الله ، فأبيتُ إلا أن يعطينى هذا الديوان الذى سمعتهم يقرأون شعره ويتناشدونه . وقد كان ، فأعطانى ديوان المتنبى بشرح الشيخ اليازجىّ ، وكان مشكولًا مضبوطًا جيّد الوَرَق . فلم أكد أظْفَرُ به حتَّى جعلتُه وِرْدى ، فى ليلى وفى نهارى ، حتى حفظتُه يومئذٍ . وكأَنّ عينًا دَفِينةً فى أعماقِ نفسى قد تَفجَّرتْ من تحت أَطباقِ الجُمود الجاثم ، وطفِقت أنغامُ الشعر العربىّ تتردَّد فى جوانحِى ، وكأنّى لم أجهلهَا قَطُّ ، وعادت « الكلمةُ » العربية إلى مكانِها من نفسى ، وإن لم أجدها زحزحت شيئًا من الكلمة الإنجليزية التى غرسها « دنلوب » اللعينُ فى غَضَارة أَيّامِى . غرسَها هذا الخبيث بمكره الخفىّ ، بمفاجأة طِفْلٍ غريرٍ بلغة غريبةٍ تنازعُ لُغَته على لسانه قبل أن تستحكم فيه ، وبتقديمها على لغته إذ جَعلَها الدرسَ الأوَّل المكرَّم = وبعلمه أنَّ نَفْس الطِّفل تَوَّاقةٌ إلى الجديد ، سريعةُ الانصراف عن القديم المألوف . وكذلكَ يُفْضِى الأمرُ إلى تخلُّفِ لُغة آبائه وأجداده عندَه ، وتقدُّم لُغَة عدوِّه وغلبتها على لسانه . هكذا كان مكرُهُ ، ويؤسفُنى أن يكونَ هذا المكرُ هو الأسلوبَ الغالبَ إلى هذا اليوم على مدارسِنا ، مع ما فيه من السَّفَه والجهالة . ولكن كيف المخرجُ ، والمسيطرون على الأمرِ هُمُ الثَّمرةُ التى جَنَتْها أمّتى من غَرْسِ « دنلوب » وغير « دنلوب » ، ممَّن يعمَلُ لإفقادِ هذه الأمة العربية معالم طريقها إلى الحياة الصحيحة السليمة من الآفات ؟

ثم انتقلتُ إلى المدارس الثانوية ، فظلَّ هذا التنازعُ المرُّ قائمًا فى نفسى ، يأخذنى هذا ثم يُرْسِلنى ، ويطبقُ علىّ ذاكَ ثم يفلتنى ، وبدأتُ أنتبه بعضَ الانتباه ، ولكن أثر اللعين « دنلوب » كانَ ضاريًا ، كان يختِلُ انتباهى ثم يفترسُه ! نعم أحببتُ العربية حُبًّا شديدًا ، ولكن الإنجليزية كانَ لها التقدُّمُ دائمًا ، والغلبةُ أحيانًا ، ثم كانَ ما أراد الله أن يكونَ ، فانبرَى لَهما ثالثٌ جاءَ ينازعهما جميعًا ويُصَاوِل عن مكانه مصاولةَ خَصْم شديد اللَّدَدِ . وهذا الثالث هو « الرياضيات » ، قذفَ الله فى قلبى حُبَّها ، فكان لها كُلُّ اهتمامِى ، وعُظْمُ إقبالِى ، ولم يكن لىَ همٌّ سوى إتقانها والتوسُّع فيها والتزوّد منها ما استطعتُ ، وفوق ما أستطيعُ ، وإن كان ذلكَ لم يصرفنى عن قراءة تراث العربيّة ، وعن الشعر خاصَّة فى العربية وغير العربية . ومن أجل

« الرياضيات » آثرت ما كنَّا نُسَميه « القسم العلميّ » ، ونفرت من « القسم الأدبى » ، وجعل حبى للرياضيات يغلو ثم يغْلو ، حتى نلتُ « شهادة البكالوريا » يومئذٍ . ولكن الذى أدركتُه وأنا فى حَوْمة هذا النزاع الغامضِ فى أحناءِ نفسِى ، أنّ « اللغة العربية » (كما كانوا يسمونها ، وكأنَّها لغة أجنبية !!) ، كانتْ تنالُ من قلة احتفال الطلبة بها ، واستهزائهم بدرسها ، ما يفزِعُ المتأمِّل ! وكان هذا الإدراكُ ، وطولُ انغماسى فى شؤون السياسة التى كنا ننغمِسُ فيها يومئذ انغماسَ من لاحياةَ له إلاَّ فيها ، قد نفذا فى سرٍّ نَفْسى يرجَّانها رجًّا شديدًا ، وأحاطت بىَ الحيرةُ أين أذهبُ ! وكانت الجامعة قد أنشئت فى تلك السنة ، فاختارَ لى أبِى ، ما اختارَهُ اتّجاهى إلى القِسْم العلميّ . ولكنّى انتبهتُ فجأةً إلى نَفْسِى ، فأَبيتُ ما اختارهُ اتجاهى إلى القسم العلمى ، وما اختاره أَبِى ، وأبيتُ إلاّ أَن ألتحق بكلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، دون زملائى فى الدراسة الثانوية جميعًا . لقد انفتحتْ لى الأبوابُ المغْلقة على إحساسِى القديم بخطر « الكلمة » ، فإذا هى التى تفتَحُ بصيرتى ، فترى وتبصِرُ مالا يُدْركه البَصَر وما لا يقع عليه الحسُّ . وعلّمنى كتابُ « سيبويه » يومئذٍ أنّ « اللغة » هى الوجْهُ الآخَر للرياضيَّاتِ العُلْيَا ، ومن يومئذٍ صارت « الكلمة » عندى هى الحياةُ نَفْسَها ، هى نفسى ، هى عقلى ، هى فكرى ، هى سِرُّ وجودِى ووجود ما حولِى .

كنتُ يومئذ قد كدتُ أنتهى من محنتى بالمستعمرين والمبشّرين ، وانكشف لى يومئذ أن العالم الإسلامى العربىّ كان عالمًا مهدّدًا بالتدمير من عالم أوربىّ مسيحىّ ماكر شديد البطش والصولة والخبث . وانبعث فى قلبى عداوةُ هؤلاء الغزاة اللئام الفجَرة ، وزادتنى عداوتُهم شَراسةً على شَراستى التى فُطِرتُ عليها . وكنتُ أيضًا قد أَدركتُ بعضَ ما وقَعَ فى نفسى من التدمير الذى أحدثته مدارس « دنلوب » التى تعلمت فيها ، وعلمتُ علمًا يقينًا أنّ « نظام دنلوب » ، لم يكن نِظامًا يرادُ به تخريج موظّفين ، كما كان يحلُو للعامة وأشباه العامة أن يقولوا ، ولا يزال يحلو لهم إلى اليوم أن يقولوه وينفثوهُ فى الصحف والمجلات والمجالس والأحاديث . بل عسى أن يكون الأشبه أنّ « دنلوب » وأعوانه هُمْ الذين حرصوا على تصوير هذا النظام بهذه الصورة ، لتخفى حقيقة الهَدَف الذى من أجله وضع الخبيث « دنلوب » نظامه هذا . علمتُ يومئذ أن « دنلوب » أراد بنظامه هذا أن يضلّل أمَّةً عن طريقها الذى ينبغى أن

تسلكه فى تعليم أبنائها ، وأن ينشىء جيلًا مدمَّر الظَّاهر والباطن ، لا يستطيعُ أن يدركَ حقيقة التلف الذى وقع فى بنائه وتكوينه ، ثم يكون هذا الجيل نفسُه هو الذى أُعِدَّ لكى يتولى قيادة الأمة والتفكير لها والعمل على إصلاحها والنهوض بها !! وكذلك كانَ ، فمات القسيس المبشر « دنلوب » وبليت عظامه ، وبقى نِظَامُه إلى اليوم قائمًا لم نَنْقُضْ منه حرفًا واحدًا ، بل استشرى وانتقل إلى كُلِّ بلاد العرب والمسلمين ، بفعلنا ، وبفعل أشباهنا الذين نُفِّذ فيهم ما نُفِّذ فينا . وقد أشرتُ إلى أول هدفٍ كان يسعَى إليه هذا النظامُ ، وهو أن يجعل الإنجليزية هى صاحبة السيادة فى التعليم كُلّه ، ويجعل لغةَ البلاد ، ولغَة القرآن ، لغةً أجنبية تدرسُ فى غُربة شديدة على نفوس الناشئة ، فلا يكاد يطول بها زمنٌ ، حتى تكاد تصبح لغة غَرِيبةً على أبنائها وأهلها ، وهكذا كان ! [انظر ما سلف : ٢٠٤ ، وما قبلها ، ، ثم ص : ١٨٧ - ١٩٤] .

نعم أدركتُ الخطر الذى كان يهدّدنى ويهدّد بلادى ، فكان ذلك سببًا من الأسبابِ التى فضَّت عن « **الكلمة** » العربية مغاليقَها ، فتبلَّجَ لى سِرُّهَا وجمالُها ، ومع ذلك بقيت « الكلمة » الإنجليزية بمنزلة لم ينَلْهَا سوءٌ من جرَّاء هذه العداوةِ التى احتقبتُها لأهلها الذين دمّرونى ، ودمَّروا أهلى وإخوتى . ثم لم أعزم على رَفْضها وإنزالها المنزلة الدنيا فى حياتى ، إلا بعدَ زمان طويلٍ ، وتاريخٍ متداخل متطاوِلٍ ، لا أَجدُ مَساغًا لروايته الآن ، وعَسَى أن أفرده بالحديث عنه يومًا ما ، وإن كان بعض ما كتبتُه فى مقالاتى قديمًا وحديثًا ، قد اشتمل على طرف دالٍّ على شىء من هذا التاريخ المتشابك المتعدِّد الوجوه . ولئن كنتُ قد ألقيتُ عداوتى على لغات أعدائى ، فهجرتُ جميعَ ما تعلَّمتُه منها إلاَّ قليلًا ، فإن ذلكَ لم يمنعنى أن أعرفَ عن طريق « **الكلمة** » العربية أنّ الحضارة كُلَّهَا ، والثقافة كُلَّها ، بعلومها وآدابها وفلسفتها ، عالةٌ على « **الكلمة** » . فولا « **الكلمة** » ، لما كان لشىء من ذلك كُلِّه وجودٌ يُعْقل . ومهما تبلُغْ عداوتى لعدوّ فى ذات نفسه وفى لغته ، فإن ذلك لا يُضِلُّنى عن الحقيقة التى أجِدُ جهلها ، أو فقدانَ تصوُّرها ، مفضيًا إلى أكبر الفَسَاد فى العَقْل . فالمرءُ لا يستطيعُ أن يعرفَ حقيقة عدوِّه ، إلا بعد تمامِ معرفته لحقيقة كلمته ، أى لُغته . وهو أَيضًا إذا ما وقَعَ تَحت سلطان كلمة عدوّه ، فقد وقع فى أسرِه الذى لا فكاكَ منه ، إلاّ أن يحتفظ بجذوة العَداوَة حيَّةً تتوقّد . بيدَ أنّ هذه العداوة لا تقومُ إلاَّ بكلمةٍ

أُخْرى تستطيعُ أن تمثّل لَهُ عدوّه على الوجه الذى ينبغى أن يتمثَّلَهُ عليه ، وتستطيع أيضًا أن تنبرِىَ لسُلطان كلمتِه فتنقضَه ، ويبقى لها هى السلطان الأعلَى . ومعنى ذلك أنْ تكونَ حَضارة « الكلمة » ، وثقافتُها ، وآدابُها وفَلْسفتُها ، قادرةً ، فى مدّ تاريخها الماضى وتاريخها الآتى ، على أن تَقُومَ فى وجه حضارة « كلمة » العدوّ ، وثقافته وآدابه وفلسفته .

* * *

وحسبى ، فإنى أرى القلم قد جرَّنى إلى الإطالة من حيث كنت أريد الاختصار ، وغاية القولِ هو أنّى ، على ذلك كُلِّه ، لا أستطيع أن أحتَمِل العَبَث بشأن « **الكلمة** » سواءٌ كانَ ذلك فى عربيتى ، أو فى لُغَة غير عربيّتى ، ولا يحملنى على التهاون فى ذلك شىءٌ من عَدَاوةٍ أضمرها لهذه اللغة وأَصحابها ، ولا رفضِى للاتّجاه الذى تتَّجه إليه « كلمة » عدوٍّ أُعاديه ، لأن « الكلمة » هى « البيانُ » ، و « البيانُ » هو نعمة الله الكبرَى التى أنعم بها على عباده من كل جنس ولون ، وكذلك علّمنا ربنا سبحانه إذ قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ . فمن استهان بالكلمة ، فقد استهانَ بأفضَلِ آلاء الله على عباده ، وبالنِّعمة الكبرى الَّتى أخرجته من حدِّ البهيمة العجماء ، إلى حدّ الإنسَان الناطق .

وبيِّنٌ أنّى لا أعنى بلفظ « **الكلمة** » ، مجرّد الألفاظ ، ولا مجرّد ما يقالُ أَو يكتبُ . فإن الإنسَان كما تولّى بالإفسادِ أشياءَ كثيرة مما سُخّر له وسُلِّط عليه ، تولى أيضًا إفسادَ « الكلمة » التى أوتى القدرة عليها ، فصرَّفها فى وجوه كثيرة تحمِلُ من الفسادِ قدرًا عظيمًا ، وإنّما أعنى بالكلمة ، كُلَّ ما حرصَ الإنسان على تجويده وإحسانه ، وأَعطاهُ حقَّه من الصِّدق والإشراقِ ، فى أىّ بابٍ كان من أبواب الإبانة . وسواءٌ عندى بعد ذلك أن تكون « الكلمة » بيانًا عن شىء أرضاهُ أو أكرهه ، وأوافق عليه أو أخالفه ، وأعدُّهُ حسنًا يقالُ ، أو قبيحًا يُعَاف .

* * *

ثم أقول للقارئ : معذرةٍ ، فإنّى ضربتُ بك فى تِيهٍ طويل المَدَى ، لا أدرى أترضاه أم تسخطُه ، ولكنّى تعودت أحيانًا أن أحملَ القلم وأكتُبُ ، لأعبّر عن شىء

فى نَفْسِى ، لعلَّه لا يعنى كثيرًا من الناس ، بيدَ أَنّى أستلِذ محاولة الإبانة عنه . وكأنى قد فعلتُ ذلك منذ بدأت ، ولم أبلغْ هذا المبلغَ حتى رأيتُ من حقّ القارئ أن يعرفَ ما الذى دعانى إلى كُلِّ هذه الإطالة .

وخبر ذلك أَنّى منذ وقعتُ على الشيءِ المسمّى « بلوتولند وقصائد أخرى » ، والذى قلت عن مؤلفه فى إحدى المقالات : إنه « خبلٌ فى حالة تأليفِ » ، و « خبلٌ فى حالة شعرٍ » أيضًا ، لم أزلْ على يقينٍ من أن صاحبه « أجاكس عوض » ، الذى كان يسمّى فيما غَبرَ « لويس عوض » ، خلقٌ لا يُفْلِحُ أبدًا ، لأنّه شرلتانٌ بالطَّبْع ، فضْلًا عمّا درّبَه عليه مدرّبوه تحت أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج ، من اتِّخاذِ ثَخَانةِ الوَجْهِ دِرْعًا يتّقِى بها ما عَسَى أن يغزوَهُ من الحياءِ من خارجٍ ! وهى إحدى خصائص المبشِّرين ، كما عرفتُهُمْ .

وأظنُّ أنى آذيتُ المسكين ، فإنى لما بدأتُ أكتب ، أردت أن أتلعَّب به ، فزعمتُ أن له سلطانًا على اليونانية وغيرها من اللغاتِ ، فصدَّق ذلك من تتابع فضائحه ، وأرادَ أن يمارسَ هذا السلطان على الشاعر اليونانى المعذّبِ البائس « أرسطوفان » ، أو « أريستوفانيس » ، كما يكتبه ، فعمد إلى مسرحيته « الضفادع » ، فترجَمَها . وقبل أن أقرأ منها شيئًا ، وذلك حين بلغنى الخبر ، علمت أنّه الآن « خبلٌ فى حالة ترجمة » ، فإنّه إن يكن سَهْلًا على بعض الناس ، كالأستاذ عبد العظيم أنيس مثلًا ، أن يسلك هذا الآدمىّ فى عداد الشعراء ، فليس سهلًا علىّ أن أَسْلُكه فيمن يفهم أبسط الشعر ، فضْلًا عن عويصه ، فضلًا عن تقصيده القصائد !!

ثم مُثّلت المسرحية ، وفوجئت أيضًا ببعض « أفراد العصابة » ، ينعتُ هذه الترجمة بأنها « معجزة اللغة العربية » ، فى المكان الذى نرى لهذا المبشر الثقافىّ المضحك سلطانًا عليه ، وهو صحيفة الأهرام ، وهذا الكاتب هو بعض بقايا العُهود الغابرة ، وهو الأستاذ كمال الملاخ !! ثم تتابع الثناءُ على هذه الترجمة . فقلت لنفسى : يا أبا فهر ، إمّا أنْ تكون أنت امرءًا لم يؤت حظًّا من حسن الإدراك ، وإما أن يكونَ « حضراتُ المقَرظين » هم الذين أخطأَهُمْ حُسْنُ الإدراك . وليس بين الأمرين وسطٌ . وكادَ الأمرُ يقفُ عند هذا الحدّ من مناجاة النَّفْسِ .

ولكن ما فُطِرتُ عليه من الثِّقة بحكْمى على الآداب التى أُطيل مدارستَها ، والتدسُّس وراء ألفاظها ، جعلنى قلقًا إلى تمحيص هذا الأمر . ولكنّى كنتُ قد انتهيتُ ونفضتُ يَدِى منذ قديم عن اليونانِ وغيرِ اليونانِ ، مُحْدَثِهم وقَدِيمهم ، وهذا أمرٌ يتطلّب منّى أن أعاودَ النَّظَرَ فى أَشياءَ طرحتُها عَلَى جانبى طريقى . فتردّدتُ ، ولكنّى كنت أعلمُ أنّ « أرسطوفان » عَلَمٌ من أعلامِ البيانِ فى لُغَته ، على الوجه الذى تدور عليه لغته ، وكنتُ أعلمُ أيضًا ، ثقةً بنفسى ، أن هذا الآدميّ شرلتانٌ متلفٌ ، لا يعنيه إلاّ أن يزيدَ وجهه صلابةً ، كُلَّما زادت الحاجة إلى الحياء ، وأنّه سوف يُحْدثُ فى رِمَّة الشيخ « أرسطوفان » ، ما أحدث فى رِمّة شيخ المعرة وغيرِهِ ، من إهانةٍ وتَلْويثٍ .

فعزَّ علىّ هذا المسكين « أرسطوفان » أن يلقى البلاءَ على يدَى هذه « الجَمَدَانة » المترنّحة بخُيلاَءِ الزَّهو الفارغ . فاستخرتُ الله ، وأقدمتُ على أن أجعل نفسى مدافعًا عن « أرسطوفان » ، لانتسابه إلى « الكلمة » ، أى إلى « البيان » ، وإن كنتُ أنا لا أُبالى بأرسطوفانَ فى ذات نفسه ! ولذلك جهدتُ حتى أخذت نسخةً من ترجمة هذا المسكين ، كما ألقيت على المسرح ، وقرأتُها ، وعاودتُ قراءة « أرسطوفان » فى ضفادعه بعد طولِ هجرٍ ، فى نفس التراجم التى ادَّعَى هذا المدَّعى أنه ترجم عنها . أو راجع عليها ، وهى ما ترجمه عن اليونانية : « جلبرت مرى » ، وهو الأصل الذى اعتمده ، ثم « بنيامين بكلى روجرز » ، ثم ثالث يقال له « دافيد بارت » . وكان من توفيق الله أنى اطلعت أيضًا على ترجمة الأستاذ محمد صقر خفاجة إلى العربية ، وهى التى أُذِيعت من محطة إذاعة القاهرة قبلَ وفاته ، وأخرجها الأستاذ نور الدين مصطفى للبرنامج الثانى . فرأيتُ عند ذلك عجبًا ، رأيتُ « حضرات المقرّظين » بمنزلةٍ لا يحسدُهُمْ عليها أَحدٌ ! وإذا كانت رِمّة المسكين « أرسطوفان » قد عذَّبها هذا الشرلتان ، كما عذَّبَ من قَبلها رِمّة شكسبير ، ورِمَّةَ شلى ، بما كتب عنهما ، فإنّه قد عذَّب « حضرات المقرّظين » بعذابٍ بئيسٍ ، لأنه أوقفهم على باب « السّرك » ينادونَ الغادى والرائح حتى بُحَّتْ أَصواتهم ، ودخل الناسُ ممن خُدِع ، فإذا هو « سِرْك أونطة » ، كما كان يقال فى بعض العامية .

وقد وجدتُ فى « مَسْخ ضفادع أرسطوفان » ، شيئًا كثيرًا جدًّا ، لا يكادُ يرضاهُ لنفسه مفيقٌ عاقِلٌ ، وحيَّرنى الأمرُ ، ولم أَدْر ماذا أَفْعَل ، ولم أؤامر نفسى حتى انتهيت إلى أن خير طريقة تدلُّ على ما فى هذا العبث من إهدار كُلّ قيمة لآداب الأمم ، وإهدارِ كُلِّ أمانةٍ فى هذه الحياة ، وإهدارِ كُلّ فضيلة للعقل ، وإهدارِ كل احترامٍ للناس الذين يلقى عليهم مثلُ هذا الكلام أو يُنْشَر = أن آخُذ الأمر كُلَّه من أوّله ، فأثبت نصَّ « مَسْخ ضفادع أرسطوفان » وأبيِّن ما يحتوى عليه من البلايا ، وأكشف عن هذا الذى يدَّعى لنفسه ، وتدَّعى لَهُ « العصابة » أنه عَلَمٌ من أعلامِ هذا الجيل الذى جاء مع ثورة سنة ١٩٥٢ ، كما نشر ذلك فى البيان الرائع (أى المضحك !!) الذى رضيتْ صحيفة الأهرام أنْ تحلّى به الصحيفة الأدبية فى أهرام الجمعة (٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٨٥ / ٢٣ يولية ١٩٦٥) ، بعنوان « **الثورة والثقافة** » ، والذى بلغ فيه أقصى ما تبلغُه « الحالة » التى أَلّفَتْ « بلوتولند وقصائد أخرى » !!

وبحق ما قال الأستاذ محيى الدين محمد ، فى مقاله الذى نشرهُ فى مجلة « العلوم » ، وذكرتُه فى مقالة سالفة بعنوان « أما بعد » ، قال : « وهكذا وقعنا فى يد النصابين الذين يتكلمون باسم الثقافة والفكر » . ولن أحتال شيئًا ، بل سأكتفى بنقل فاتحة هذا المَسْخ لمسرحية أرسطوفان ، حتى لا يقال إنّى أتخيَّر له مواضع الزَّلل ! وهذا هو « المسخُ » بنصه ، وقد رقّمت الحِوار ، لكى تسهل الإشارة إليه فيما بعدُ .

* * *

المشهد : فى الخلفية بيتان : بيت هرقل وبيت بلوتو . يدخل ديونيزوس متخفيًا فى زى هرقل ، لابسًا زىّ جلد الأسد ، وحاملًا الهراوة ، ولكنه يلبس الحذاء العالى الكوثورونى الخاص بالتراجيديا ، وتونيكا من الحرير الأصفر بلون الزعفران . يتبعه أكسانثياس أو خانثياس راكبًا حمارًا وحاملًا زكيبة ضخمة مليئة بالأمتعة ، معلقة على عكاز حمال .. يتقدمان فترة فى صمت .

(١) أكسانثياس : (يتطلع خلفه إلى حمله وهو يئن) : سيدى هل أحكى لك نكتة من النكت التى تضحك الناس دائمًا فى المسرح .

(٢) ديونيزوس : احك ما تشاء إلا نكتة « ظهرى انقصم » إياك ، أى شئ
إلا هذه النكتة . إنها بكل بساطة تجعلنى أتثاءب .

(٣) أكسانثياس : (فى خيبة أمل) : ألا تريد شيئًا مضحكًا ؟

(٤) ديونيزوس : ولا نكتة « آه يا فقافيقى » .

(٥) أكسانثياس : ماذا تقول لو حكيت النكتة المهولة ؟

(٦) ديونيزوس : ولم لا . بالتأكيد . لا تخف ، فقط أستعطفك .. لا .

(٧) أكسانثياس : لا أفعل ماذا ؟

(٨) ديونيزوس : لا تنقل العكاز من كتف لكتف وتقول : « أريد أن أنف » .

(٩) أكسانثياس : (تشتد خيبة أمله) حتى ولو كنت سأعطس إذا لم يرحمنى
أحد فورًا من هذا الحمل الثقيل على ظهرى ؟

(١٠) ديونيزوس : لا : أرجوك . لا تعطس . انتظر حتى أحتاج للنشوق .

(١١) أكسانثياس : إذن ، ما فائدة حملى كل هذه الكراكيب إذا كنت
لا أستطيع أن أنكت نكتة واحدة مشبعة على المسرح ، كما
يفعل إخواننا الكتاب مثل فرينيكوس وأميبسياس وليسيس .

(١٢) ديونيزوس : لا . لا .. لا تقلدهم ، فأنا كلما جلست هناك (يشير إلى
قاعة المسرح) وسمعت هذه الدرر (يقولها بتهكم) أعود إلى
بيتى أعجز بسنة .

(١٣) أكسانثياس : (مخاطبًا نفسه) آه يا رقبتى . فقفقة فى كل مكان ، ومع
ذلك لا أستطيع أن أقول « فقفقت » ، لأن هذا مضحك .

(١٤) ديونيزوس : تطاول . وقاحة أنا الإله ديونيزوس ، ابن الجمدانة العظيمة ،
لابد أن أشتغل بنفسى ، وأمشى وأتركه يركب حتى لا يتعب
أو يحمل الأشياء ثم أراه يشكو .

(١٥) أكسانثياس : أنا لا أحمل الأشياء ؟

(١٦) ديونيزوس : الأشياء هى التى تحملك .

(١٧) أكسانثياس : (يعرض زكيبته) أنا أحمل هذه الزكيبة .

(١٨) ديونيزوس : وكيف تحملها ؟

(١٩) أكسانثياس : على ظهرى الذى انقصم تقريبًا .

(٢٠) ديونيزوس : الواضح أن الزكيبة يحملها الحمار .

(٢١) أكسانثياس : حامل الزكيبة التى أحملها ليس حمارا .

(٢٢) ديونيزوس : أظن أنك تعرف أن الحمار يحملك .

(٢٣) أكسانثياس : (يمتعض) لا ، لا أعرف . أنا أعرف فقط أن كتفى يؤلمنى .

(٢٤) ديونيزوس : طيب ، إذا كان ركوب الحمار غير مفيد ، فاقلب الأوضاع وخلِّ الحمار يركبك .

(٢٥) أكسانثياس : (جانبًا) أنا حظى سيئ . كل عبد اشترك فى معركة أرجينوزا أعتقوه . يا ليتنى اشتركت فى أرجينوزا . كنت عرفتك شغلك .

(٢٦) ديونيزوس : انزل يا وغد . هذا هو الباب على بعد خطوتين ، ولابد أن أتقدم أنا أولًا . هو الراكب وأنا الراجل . هئ . (يترك !) « كذا فى الأصل والصواب : يطرق !! » بواب . بواب . بواب .

(٢٧) هرقل : (يخرج من البيت) من الطارق ؟ أيًا كان ، هذا ثور مجنون ينطح الباب .

يرى ديونيزوس : يا ألطاف الله . ما هذا كله ؟ (يتفحص ديونيزوس بدقة ثم يختنق بالانفعال المكبوت) .

(٢٨) ديونيزوس : (لأكسانثياس على حدة) يا غلام .

(٢٩) أكسانثياس : نعم يا سيدى ؟

(٣٠) ديونيزوس : هلاّ لاحظت ؟

(٣١) أكسانثياس : لاحظت ماذا ؟

(٣٢) ديونيزوس : الرجل خائف .

(٣٣) أكسانثياس : نعم يا سيدى . (على حدة) خائف أن تكون مجنونًا .

(٣٤) هرقل : (يقاوم الضحك حتى لا ينفجر) سأقاوم الضحك إذا استطعت

أن أضبط نفسى . أنا أعض شفتى ومع ذلك لا أستطيع ..
(ينفجر ضاحكًا) :

(٣٥) ديونيزوس : لا تكن سخيفًا . تعالى هنا . أنا أطلب شيئًا .

(٣٦) هرقل : أحب أن أقترب منك ، ولكننى لا أستطيع مغالبة الضحك .
تصوروا جلد السبع على حرير زعفرانى . تصوروا هراوة هرقل
مع الحذاء العالى ، إيه الحكاية ؟ من أين جئت الآن ؟

(٣٧) ديونيزوس : كنت فى البحر أركب « الزعيم كليستينا » ، أقصد المركب .

(٣٨) هرقل : حاربت فى المعركة ؟

(٣٩) ديونيزوس : نعم ، أغرقنا ١٢ أو ١٣ من سفن الأعداء .

(٤٠) هرقل : أنتما معًا ؟

(٤١) ديونيزوس : نعم أقسم بأبولو .

(٤٢) أكسانثياس : (على حدة بمعنى يالك من فشار) ثم صحوت من نومى .

(٤٣) ديونيزوس : بينما كنت فى السفينة أقرأ رواية لندروميدا أحسست فجأة
بقلبى يشتعل برغبة كبيرة جدًّا جدًّا جدًّا .

(٤٤) هرقل : رغبة كبيرة ؟ من أى حجم ؟

(٤٥) ديونيزوس : يعنى .. كبيرة بدرجة معقولة ، تقريبًا من حجم الشمام .

(٤٦) هرقل : رغبة فى امرأة ؟

(٤٧) ديونيزوس : لا .

* * *

مسكين أرسطوفان ! لو كان يعلمُ أنه سوف يلقى كُلَّ هذا البلاء بعد دهرٍ من هلاكه ، لأضربَ عن قول الشعر وكتابة المسرحيات بمرّةٍ ، ولأعفى نفسه من الكرب المتوقّع ، ولقنع من أيّامه بالأكل والشرب والنشوة الذاهلة ، حتى يلقى حَتْفَه فيستريح . وإلاّ فما الذى كان يحملُه على هذا المركب الصعب من معاناة البيان ، وصياغة الكلمة ، وتجويد البناء ، إذا كان مصيرُ هذا الجهد المضنى أن يأتى عليه آتٍ

غليظٌ ثقيل الجُثّة ، فيطأ في حُرّ بيانه بأظلافٍ مفلطحة عراضٍ جاهلة ، تعجنُ كلماته عجنًا حتى تجعلها خُبْزةً واحدة من الركاكة والسُّخفِ والثِّقَل ! ؟

إني لأرثي لأرسطوفان وما لقي بيانه ، وإن لم يكن منّي ، ولا أنا منه ، ولكن « الكلمة » عندى نسبٌ واشجٌ . فمن أجلها رقَّ له قلبِي . ولكن ماذا نملك له ، إذا كان الناسُ قد ولدتْهُم أمهاتهم أحرارًا ؟ ! فهم أحرارٌ في جميع أفعالهم : أحرارٌ في الصدق ، وأحرارٌ في الكذب ، وأحرارٌ في الدعوى ، وأحرارٌ في خفّة الدم ، وأحرارٌ في « الشرلتة » أيضًا ؟ ماذا نغني عن أرسطوفان ، إذا كان الحياءُ لم يعُد يعنى أحدًا ، فمن شاءَ أن يتعرّى على قارعة الطريق تعرَّى بلا حرج ، فقد غابَ الوازعُ ، وألقى مِنْسَأته (أي عصاه) لتأكلها دابّة الأرض ! ومع علمي بأني لا أغنى عن هذا البائس أرسطوفان شيئًا ، فقد رأيتُ أن أَبُلَّ نسب « الكلمة » ببعض بِلالها ، وأبرئ ذمّتى بأضعف التغيير للمنكر . وهذا « الأضعف » هو النَّقْد ، أعنى نقد هذا الغُثَاءِ ، فعسَى أن يقومَ في الناس وازعٌ في يده مِنْسَأةٌ يطردُ بها عن هؤلاء الموتى المساكين ، الذين لا يملكون عن أنفسهم طردًا ولا دفاعًا !

و« الشرلتان » المعروف ، عمد إلى ترجمة « جلبرت مرى » بالإنجليزية ، فمنها مسخ « الضفادع » ، (أعنى ترجَمها فيما أظنُّ) ، ولم يجد كلمات يمسخ إليها الضفادع » ، سوى « الكلمات العربية » أيضًا مَسْخًا لا نظير له إلاَّ في « بلوتولند وقصائد أخرى » ، ثم سائر ما يكتب هذا الشرلتان .

وقد فاجأنا في المقدمة التي سماها « المشهد » بثقل تعالُمه ، فكتب «أكسانثياس ، أو ، خانثياس » ، كأنه يريد أن يقول للقارئ ، وللممثل : « انظر يا جدع ، أنا عالمٌ ، أنا أعرف أنطق اليونانية ، انظر : خانثياس » . وإلا فحدّثني ماذا يهمُّ الناسَ من ذلك ، إذا كان هو سيكتبها في طول المسرحية وعرضها «أكسانثياس» ، وسينطقها الممثلون في الحوار كذلك !! هذا شيء ثقيل جدًّا ، لا يفعله أحدٌ له حَصَاةٌ صغيرة من العقل .

ثم ذكر بعد ذلك لفظ « تونيكا » ، وهو لفظٌ مُبْهم لا دلالة له في العربيّة ، ولا يعرفُه لا ممثّل ولا غير ممثّل ، وهو أيضًا ليس « اصطلاحًا علميًا » مشهورًا ، حتّى

ينقل كما هُوَ . ولفظ « تونيك » يطلق على لباس خاصٍ اختلفت أشكاله على مرّ العصور . فهو عند اليونان شيء ، وعند الرومان شيء آخر ، وهو فى الكنائس شيء ثالث .

وإنما أراد « جلبرت مورى » ذلك اللباس الذى كان على عهد اليونان : وهو قميصٌ يلبسه الرجال والنساءُ ، فقميص الرجال قصيرٌ إلى الركبتين ولا كُمَّىْ له = وقميص النّساء طويل إلى الكعبين ، وله كمّان مفتوقان . وهذا الأخير هو المرادُ هُنَا ، وهو بالعربية « الرَّيْطة » ، أو « الدِّرْع » من لباس النساءِ ، فكان أولى أن يستخدم ذلك ، فإن أبى إلاَّ الانحطاط بأرسطوفان ، فليقل « الفستان » !! وهذا شيء لابُدَّ منه ، لأنّ هذا اللباسَ هو الذى سيستخرج الضَّحك من فكّى « هرقل » ، حين يدقُّ عليه ديونيزوس بابه .

والسبب فى إلباس أرسطوفان ، ديونيزوس هذا اللباس ، أن « زيوس » ، حين نزا على « سميليه » ، ولدتْ له « ديونيزوس » هذا لغير رِشْدَةٍ ، وخاف عليه غيرة امرأته وحسدها ، فعهدَ به إلى « هرمس » ، فأخذه « هرمس » ، فبعث به إلى « أساماس » وزوجته ليكفلاهُ ، وتقدَّم إليهما أن يجْعَلا لباسه لباسَ النساء ، دفعًا لحسد امرأة زيوس وغيرتها . فمن أجل ذلك أظهره أرسطوفان فى ثياب النساء .

وهذا الشرلتانُ المسّاخ ، مترجمٌ مستهين بما يفْعَل . فقد ذكر « الزكيبة » و « العكاز » ، فى ترجمة هذا النص القديم ، و « الزكيبة » عندنا فى مصر أكبر من « الشوال » ، ولا يقالان إلاّ فى الوعاء الذى يوضع فيه الأرز والقمح والشعير وأشباه ذلك . ولم يردْ « جلبرت مرى » شيئًا من السخرية حين ذكر ذلك ، بل أراد « صرةً » فيها متاعُ هذا الإله المخنث « ديونيزوس » ، أو « كارةً » ، وهى صرَّة الثياب خاصة ، فلا معنى لخفّة الدم الثقيل فى ترجمة مثل هذه النصوص . أما « العكاز » ، فكُلُّ طفلٍ فى الطريق يعلمُ أنه عصًا يتوكأ عليها الهرم وذو العاهة ، ولا تجدُ أحدًا من أسخف الناس عقلًا يسمى « العود » الذى يحمله الحمال « عكازًا » . فإما أن يقول : « عصا » ، أو « عود » ، أو « قضيبٌ » أو ما شئت من الألفاظ التى تصلُح للحمل ، ولا تدلُّ على معنًى محدّدٍ فى العربية وفى العامية جميعًا . وندع هذا الغثاء إلى الحوار ، وقد رقّمته لتسهيل الإشارة إليه .

* * *

فمن رقم (١) إلى رقم (١٣) شيء كتبه أرسطوفان لغرضٍ مفهومٍ ، إلاّ أن هذا الشرلتان الدعىّ = المتكذّب على الإنجليز واليونان والرُّومان وعلى أهل عقيدته من قبط مصر = والمدّعى لنفسه سيادة أدبيَّة تجعله برهانًا على اتجاه ثورة سنة ١٩٥٢ إلى مناصرة التقدُّم ، كما جاء فى الأهرام = والمشبّه نفسه بالثور اليونانى « أجاكس ابن تلامون » بلا عَقْلٍ = والمنذرنا بأنه خرج ليطلب « الملك ميداس » نفسه !! قبل أن يدمّر طروادة الجديدة ويحرقها تحريقًا = هذا الشرلتانُ المثقَّف جدًّا (!!!) لم يفهم شيئًا مما أرادَهُ أَرسطوفان . ولو كان صحيحًا أنه يقرأ الإنجليزية ويفهمها ، لكان من أوّل ما يمكن أن يهتدىَ إليه أن يفهم نصَّ تراجم أرسطوفان ، التى جهدَ أصحابُها فى محاولة التوفيق بين دلالة النصّ اليونانى القديم ، ولغتهم التى ينقلون إليها هذا النص ، بحذرٍ وخوفٍ ودقّةٍ . ولكن هذا الدعىّ مختلقٌ يفترى لنفسه ثقافةً ليس منها فى شىءٍ .

فأرسطوفان ، فى هذا الحوار ، أراد أن يسخر بزملائه وأقرانه من كتاب المَلْهاة ، مثل « فرينيكوس » و « أمبسياس » و « ليسيس » ، الذين يلجأون إلى إضحاك الجمهور بوسائل مبتذلة ، وحركات ممجوجة ، وأفعال معيبةٍ منكرة = وأن ينقُدَ أسلوب « يوريبيدس » خاصَّةً ، فى إنطاقه الخدم فى مسرحياته بلغة محبَّرَة بليغة ، فيها من المجازات والبديعيات ، ما لا يتفق لأمثالهم من السُّوقةِ . وقد بدأ بنقد « يوريبيدس » والسُّخرِية منه . فليس فى الأمر « حكاية نكتة » ، ولكن هذا الشرلتان الجاهل ظنَّ أن أرسطوفان قد ألف مسرحِيّته « الضفادع » للنُّكت ! كما يفعل إسماعيل يس فى فصول مسرحياته !

والحقيقة أن أرسطوفان أراد أَن يُظهر أكسانثياس على المسرح ، وهو خادم ديونيزوس ، ليتخذه وسيلةً لنقد « يوريبيدس » ثم سائر كتاب الملهاة من أقرانه ، فجعل هذا الخادم يستأذن سيده فى كلمة يقولُها ، أَلِفَ المتفرجون من رواد المسرح أن يضحكوا من أمثالها . فكان ردّ سيّده « ديونيزوس » يتضمَّن التعريض بيوريبيدس ، فنهاه أن يتفاصَح ويأخذ فى بابِ المجازاتِ ، فيكون كالخدم الذين ينطقهم « يوريبيدس » فى مسرحياته بالكلام البليغ ، والمجازات الدقيقة ، واللّفْظ الشريف . فكانَ حق ترجمة الأسطر الأولى ، على هذا النحو :

(وليعلم القارئ أنى أكتب على عجلٍ ، ولا أريد الدقّة كُلَّ الدقة فى التعبير بالعربية ، عن فحوى لغة أرسطوفان) .

١ - أكسانثياس : أيأذن لى سيدى أن أقول شيئًا مما ألف روّاد المسرح أن يضحكوا له إذا سمعوه ؟

٢ - ديونيزوس : قل ما تشاء ، ولكن إيّاكَ أن تقول : « لقد أَنقَض الحمل ظَهْرى » ، فتكون كالذى يجرّعنى مرّ الحنظل . (وهذا نقد لاستعمال الخادم المجاز) .

٣ - أكسانثياس : أوْ فكاهةً ألطفَ ؟

٤ - قُلْ ما شئت ، وإياك أن تقول : « لقد تنقّط كَاهِلى » . (وهذا نقدٌ لاستعمال الخادم فصيح الكلام) .

* * *

ثم ينتقل إلى نقد أقرانه من مؤلفى الملهاة ، واستخدامهم قبائح الأفعال لإضحاك الجماهير ، فيجعل الخادمَ على شفَا الإتيان بشىء ممَّا كانوا يستخدمونه فى مسرحياتهم ، وهو فى الأصل اليونانى دالٌّ على فِعْلٍ قبيحٍ يسمَعهُ الناسُ ممّن أثقله الحِمْل ، فأخرج ريحًا له صوتٌ . فجاء هذا المسكين بلا عَقْلٍ ، فترجم عن جلبرت مرى « النفّ » ، و « العطاس » .

وجاء بالطامّة الكبرى فى رقم (١٠) فجل ديونيزوس يقول : « انتظر حتى أحتاج للنّشوق » ، وظنَّ أنّ هذه نكتةً تضحك ! وبين جدًّا ما فيها من الثقل والجهل والغباوة أيضًا . فإن « جلبرت مرى » استعمل لفظ « التمخُّط » فى ترجمته تقزُّزًا من الصراحة ، وعلق عليه بصريح اللفظ فى استدراكاته على ترجمته ، ولكنه عاقل ، فلم يقل : « انتظر حتى أحتاج للنشوق » ، فهذا كلامٌ لا معنى له بل قال : « رويدَك ، لا تفْعَل ، حتى أحتاج إلى مقيِّئ » ، فإن يكن تصرَّف فى بعض الكلام تقززًا ، إلاّ أنّه لم يَستبحْ لنفسه أَن يردفه بشىء لا معنى له ، كالذى فعله هذا الشرلتان الضعيف العقل .

ثم جاء فى ترجمة رقم (١١) من الحوار بأكبر السخف ، لا فى استعمال لفظ « الكراكيب » ، التى أرادَ بها « الأثقال » الفادحة ، بل فى التصريح مرة أخرى بلفظ « النكتة » و « التنكيت » ، مع أنّ الأصل اليونانىّ لم يزد على أن قال ما معناه : ما دمتُ خادمًا يحمل الأثقال ، فكيف تحرّم على أن أفعلَ ما يَفْعله الخدم والحمَّالون فى مسرحيات فلان وفلانٍ ، ممن يلجأون إلى استخراج الضحك من روّاد المسرح بمثل هذا « الفِعْل » . ثم لا تزال الركاكة تسعى فى رقم (١٢) و (١٣) ، فَيَستعمل « الفقفقة » ، كما استعمل « آه يا فقافيقى » فى رقم (٤) ، مع أنه لم يرد إلا ما ذكرتُ من تفاصح الخادم ! لا استعمال ألفاظٍ مضحكة من سُخْفِها كهذا اللفظ (آه يا فقافيقى !!) .

ثم يأتى رقم (١٤) فتراه يقول : « أنا الإله ديونيزوس ، ابن الجَمَدانة العظيمة » ، وبالطبع هذه لغة « باب البَحْر » ، و « خمَّارة عَزُّوز » ، لا لغة مثقف يحترم نفسه ، ويحترم سامعيه ، وبيان الأمر أن « الإله ديونيزوس » هذا ، هو ابن الإله « زيوس » لِزِنْيةٍ وهو عندهم إله الخمر والكرم (وهو باخوس) .

وقد استعمل أرسطوفان مكان « أنا الإله ديونيزوس سَليلُ الإله زيوس » : « أنا الإله ديونيزوس سليل الدنّ » ، سخرية ، واللفظ الذى استعمله للدنّ هو : « STAMNOS » ، وهى آنية من أوانى الإغريق القديمة ، قصيرة العنق ، لها عروتان فى جانبيها ، تستعمل للخمر ، كالإبريق . وظنّى أن أصل لفظ « زيوس » اليونانى ، معناه « الدنّ » أو « الرَّاوُوق » (وهو من آنيَة الخمر) . فاستعمال لفظ « الجمدانة » ثم وصفها بالعظيمة ، تهويش لا معنى له إلا سخف العقل .

ثم يتمّم بلاء هذه الفقرة بقوله : « أنا لابدَّ أن أشتغل بنفسى وأمشى وأتركه يركب حتى لا يتعب أو يحمل الأشياء ، ثم أراه يشكو » ولا أدرى كيف أطاق الممثل أن ينطق هذا الغثاء المتراكب على المسرح ؟ ولكن هذا شىء لا شأن لنا به هُنَا . ولكن المهم أنها ترجمة سقيمة جدًّا ، دالة على تمام جهله باللغة التى يترجم منها ، فإنه زاد « ثم أراه يشكو » بلا بسبب معقول ، ولا وجود لها فى الأصل

اليونانى ، ولا فى ترجماته الإنجليزية ، ولا نفع لها فى إيضاح شىء مبهم أو غامض ، فإن النص يقتضى أنْ تكون ترجمته هكذا : « ألا يرضى هذا اللعين ، بأن أكون أنا الإله ديونيزوس سليل الدِّنان ، ثم أحتمل المشقة والمشى راجلًا ، وأوثره بدالة يركبُها ، حتى لا يتعبَ ، ولا يثقله حمل المتاع » .

وقد ترجم لفظ « things » ، بلفظ « الأشياء » فى هذا الحوار رقم (١٤) و (١٥) و (١٦) ، ويعلم كُلٌّ من له علمٌ قليل بالإنجليزية ، أن هذا اللفظ على صورة الجمع ، لا يرادُ به « الأشياء » ، بل يراد به الثيابُ خاصة ، وأمتعة المسافر أيضًا . وهذا هو المعقول هنا ، كما جاءت مُرادِفَاتُه فى جميع التراجم ، لأن ديونيزوس كان قد خرج بخادمه أكسانثياس فى رحلة طويلة إلى العالم الآخر ، فحمّله أمتعته من ثيابٍ وغيرها ممّا يتطلبه هذا السفر الطويل .

* * *

ومع ذلك الجهل باللغة التى يترجم منها ، فإنه لم يفهم أيضًا مقصودَ أرسطوفان من هذا الحوار ، ما بين رقم (١٤) إلى رقم (٢٥) ، ولذلك أساء فيه غاية الإساءة . فإنّ أرسطوفان أراد أن ينطق ديونيزوس بجدال كجدال السفسطائيين ، ليسخر من « يوريبيدس » الذى كان تلميذًا لهم ، فملأ حوار مسرحياته بأسلوبهم الخطابى ، ووصف « الخطابة » بأنها علم الكذب والخداع الذى يقلب الحقائق ، ويجعل الباطل حقًّا والحقَّ باطلًا . ولذلك فإن أكسانثياس لما سمع سيده يزعم أنه قد خفّف عنه بركوب الدَّابة ، وأنّه أعفاهُ بذلك من حمل متاعه له ، قال من فوره (رقم : ١٥) : « ألستُ لهذا المتاع حاملًا ؟ » .

(١٦) فقال له ديونيزوس : « كَلاّ ، بل هو الذى يحملك » (وهذا وجه المغالطة ، فإنه يعنى أنّ هذه الأمتعة ، هى السبب الذى من أجله تحملك هذه الدابة التى تركبها) . ولذلك قال له أكسانثياس متعجبًا من خطابته ومغالطته ، رافعًا لعينيه عصاهُ التى علّق عليها أمتعته (١٧) « وهذا ، ألست حاملَهُ ؟ » ، فيحاوره ديونيزوس على طريقة السفسطائيين (١٨) « وكيف حملك إياه ؟ » فيقول أكسانثياس (١٩) : « بما ألقاهُ من عنتٍ ومشقةٍ » ، فيغالطه ديونيزوس محاورًا ، (٢٠) : « أليس صحيحًا

أن الحمار يحملُ ما تحملُهُ أنت ؟ » ، فيقول له أكسانثياس منكرًا (٢١) : « كلاَّ ، لا يكون الحمارُ حاملًا لما تحمل عبئَه كتفى ! » ، فيغالطه ديونيزوس مرة أخرى (٢٢) : « وكيف تدّعى أنك تحمِلُ حملًا وأنت نفسك محمولٌ ؟ » ، فيحارُ أكسانثياس فى جَدَل هذا السفسطائى فيقول : (٢٣) « لا أدرى ، كُلّ ما أعلمه هو أنّ الحمل قد أثقل كاهلى ! » ، فيعاودُهُ ديونيزوس مغالطًا (٢٤) : « إذا كان الحمارُ لا يحملك ولا يحمل ما تَحمل ، فانزلْ عَنْه واحملْهُ على كتفك ! » (يَعْنى أن يجعل نفسه مكان الحمار ، فيحمل الحمارُ المتاعَ) ، ويبقى أكسانثياس بالمنزلة كان فيها الحمار : « لا يحملُ الحمار ، ولا يحملُ ما يحمله » .

* * *

وقد تعجَّلْتُ فى ترجمة هذا الحوار ، وهو صعبُ المرتقى ، ولكن انظر ماذا فعل به هذا الجاهل الغِرّ الذى لا يدرى ما الإنجليزية ، ولا ما اليونانية ، ولا ما حوار أرسطوفان فى ضفادعه !

وقد كنت عزمتُ على أن أسير فى نقد هذا السخف المتراكم سطرًا سطرًا ، ولكنى رأيت الأمر قد طال جدًّا ، وأعيانى أن أراجِع كلّ حرفٍ وكُلَّ كلمةٍ ، وأستقصى دلالاتها التى استخدمَ فيها أرسطوفان ذكاءَه ومهارته وقدرته وفنَّه الذى كاد ينفردُ به . ولكن بقيت عجيبةٌ فى آخر هذه الفقرة التى نقلتها من مسخ هذا الشرلتان لمسرحية الضفادع .

ذلك أن أرسطوفان ذكر على لسان ديونيزوس شهوةً من شهواتِهِ العظام وهو يحاور صاحبه هرقل (من رقم ٤٣ إلى ٤٥) ، فسأله هِرَقْلُ فى ترجمة هذا الشرلتان المخمور : « رغبة كبيرة ؟ من أى حجم » ، فقال ديونيزوس : « يعنى ... كبيرة بدرجة معقولة ... تقريبًا من حجم الشمام » !!! وهذا كلام سقيم جدًّا من حيث هو كلام مركَّب ، ولا أدرى كيف نطق به الناطقون على المسرح ، ولا ماذا كان وقعه فى نفوس السامعين ؟

ولكن الشىء الذى لا ينتهى منه العجب أنه قال : « فى حجم الشمام » !! أَوَ تدرى كيف كان ذلك ؟ أتذكر مسألة « الصُّلبان » فى شعر أبى العلاء ، التى

وضعها مكان « الصِّلِّيان » ؟ فهذا هذا . فإن أرسطوفان أرادَ أن يسخر أيضًا من ممثِّل كانَ على عهدهم ضخم الجثة ، فارع البنيان ، يقال له : (Molon) ، فقرأها المسكين وهو فى سماديره الطاغية على عقله (Melon) ، وهو البطيخ والشمام وأشباههما ، فترجم ما تراءى له فى هذه السمادير ، دُون أن يكلف نفسه عنتًا ، وكيف يكلفها العَنَت ، وهو من هوَ ! فذلك شيء أحق بأن يحملُه عنه أرسطوفان المسكين ، والمتفرِّجون فى المسرح ، والقُرّاء من بعدهم ! وتكون « نكتة » قوةً واقتدارًا !! ما أثقله كاتبًا ورمزًا ومترجمًا ، أى ماسخًا للنصوص الأدبية !!

* * *

وقد كنت أحبُّ أن أتتبَّع جميع العجائب التى جاءَ بها هذا المخمور فى أثناء هذه المسرحية ، ولكن أنَّى لى هذا ؟ وما من صفحة إلا وفيها بلايا آخذة بأعنَاق بلايا ! ولكنى سأذكر تحفةً واحدة أختم بها هذا البلاء الذى صبَّه الله على أرسطوفان ، ثم عليَّ . ففى حديث بين خارون وديونيزوس ، يقول خارون : « أنا لا آخذ العبد إلا إذا كنت قد أعتقته (يعنى أكسانثياس) ، هل اشترك فى معركة السَّلامى والمرتدلاّ ؟ » وهى أغرب ترجمة رأيتها لشيء ، فإنه يعنى معركة « أرجينوزا » البحرية ، والتى كان من القضاء فيها أن العبد الذى يقاتل فيها فينجو ، يصير حرًّا قد رُفع عنه الرِّقّ ، فكان يقال للعبد الذى شارك فيها : « يقاتل عن لحمه » ، فظن هذا المسكينُ أنها « المزّة » التى كانت تقدم لابن « الجمدانة العظيمة » !! ما دخل السلامى والمرتدلاّ والبولوبيف وسائر اللحوم المحفوظة فى هذه المعركة البحرية ؟ لا دخلَ لها بالطبع ! ولكن هذا من شأن السمادير !؟

* * *

إن الهزلَ العجيب الذى انطوت عليه هذه المسرحية الممسوخة ، والسبب الذى من أجله مسخها هذا الأفاق الثقافىّ ، توجب عليَّ أن أوجّه كلمة إلى هذه الجماعة من « حضرات المقرظين » ، فأسألهم : كيف استحلوا أن يكتبوا حرفًا واحدًا عن هذا الغثاء الذى يستدعى الغثيان من أقصى الجوف ، بلا رعاية لحرمة (الكلمة) التى

كتبها أرسطوفان ، وبلا مراجعة لحرفٍ واحد من أصوله أو تراجمه ! كيف استجاز أستاذ يرى الناسُ أنه أستاذٌ جامعيّ كالدكتور عبد القادر القط مثلًا ، أن يقوم ويَقْعد في أعمدة الأهرام ، مدلِّلًا على هذه البضاعة الكاسدة التي يعرضها مخمورٌ لا يفيقُ ! وكيف غاب عن (حضرات المقرظين) من شذّاذ العصابات ، أن هذا المسكين الذي جعل نفسه بمنزلة الثور اليوناني (أجاكس بن تلامون) ، إنما خرج من تحت أنقاض الإلياذة ليدمِّر (طروادة الجديدة) (أي مصر الإسلامية العربية بعد ثورة سنة ١٩٥٢) ، وليطلبَ نفس « الملك ميداس » الذي أنقذ كلمة « القومية العربية » ، من التلوُّث بأنفاس كُلّ « أجاكس » كذابٍ كان ينطقُ بها لأسباب أبنت عنها في بعض مقالاتي . إن هذا الطليق المفلت من الأسوار ، أراد أن يضع على لسان أرسطوفان في هذه المسرحية ، معانيَ من أحقاده ، مستغلا ما أودعه فيها أرسطوفان من نقدٍ لبعض ساسة عصره ، إذْ كان يعدُّهم من المهرِّجين الذينَ لا يلتمسون المجد إلاَّ لأنفسهم ، لا لوطنهم . فهل يظنُّ هذا المسكين ، وهل يظنُّ شذاذ العصابة التي تعمَلُ له عمل الأبواقِ في الزفَّة ، أنَّ ذلك يغني شيئًا ، أو يردّ عليهم نفعًا ؟ وهل يظنُّ هو أو أصحابه ، أنّه لا يُوجَد من يستطيع أن يكشف عن هذا العبث بشعر أرسطوفان وتضمينه معاني فاسدة قبيحة بعيدةٍ عن مُراده ؟ إن جبن هؤلاء المتسترين وراء اسْمه ، جُبْنٌ لا مثيل لَهُ ، فَضْلًا عن أنه استهزاءٌ بالتراث الأدبيّ لرجُل من عظماء قومِه ، وتضليلٌ للشباب ممن لا يعرف لغة هذا الرّجُل ، حين يقع في أوهامهم أن أرسطوفان ، ممكنٌ أن يقولَ مثل هذا الغثاء الذي يكربُ النفوس ما يفوح من رائحته .

ولا أدري كيف سمَحَ الدكتور على الراعي ، وهُو فيما أظنُّ ، المشرفُ على أمثال هذه المسرحيات ، بأن تعرض على الناس مسرحية لأرسطوفان ، تتكلَّف شيئًا كثيرًا من مال الأمَّة ، قبل أن يطّلع عليها ويراجعها ، وهو قادرٌ على ذلك بلا شك ، وقَبلَ أن يضمنَ وفاءَ هذه الترجمة بحقِّ أثرٍ من الآثار العظام التي يعدُّها أهلُها من أعظم آثارهم ؟ كيف يترك مثل هذا نهبًا للأفاقين والنصَّابين الذي يتكلَّمون باسم الثقافة والفكر ، كما قال محيي الدين محمد ؟ إنّ لكل شيءٍ حدًّا يقف عندهُ ، فلابدَّ من أن يقف هذا اللعبُ الذي يأتيه هذا الشرلتان في أكبر صحف العرب ، وهي صحيفة الأهرام ، وفي المسارح ، وفي دور النشر التي تتولى نشر خبائثه على الناس

بلا رقيب ولا حسيب . أَمَّا حضرات المقرّظين ، فحسبهم ما قال فى أَمثالهم الأخطل النصرانىُّ :

تَنِقُّ بِلاَ شَيْءٍ شُيُوخُ مُحَارِبٍ　　وما خِلْتُها كَانَتْ تَرِيشُ ولا تَبْرِى
ضَفَادِعُ فِى ظَلْمَاءِ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ　　فَدَلَّ عَلَيْها صَوْتُها حيَّةَ البَحْرِ

ثُمَّ غُلِّقَتِ الأَبْوَابُ

فى الثالث من جُمادَى الآخرة سنة ١٣٨٥ (٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٥) ، وأحاطت بِىَ الأَسوارُ ، وأظْلَمتِ الدنيا ، وسَمِعتُ ، ورأيْتُ ، وفزِعتُ ، وتقزّزتُ ... وكان ما كان .

وَعَلِمتُ ، حتَّى مَا أُسَائِلُ واحِدًا   عَنْ عِلْمِ وَاحِدَةٍ لِكَىْ أَزْدَادَها

وتسَلَّيتُ عن كُلٍّ ما ألقَى بقول شيخ المعَرَّة :

يَسُوسونَ الأُمُورَ بغَيْرِ عَقْلٍ   فَينْفُذُ أمْرُهُمْ ويُقالُ سَاسَهْ

فَأُفٍّ من الحَيَاةِ وأُفٍّ مِنِّى   وَمِنْ زَمَنٍ رِئَاسَتُهُ خَسَاسَهْ

محمود محمد شاكر

الفَهَارِسُ

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس الكتب

فهرس الشعر

* * *

فِهْرِسُ الكِتاب

٣٣ - بَلْ مَعِيًا « ٢ »

نقد خبر الراهب من قبل روايته غير مسند إلى راو ولا إلى كتاب وانفراد القفطى به (٣٦) ياقوت معاصر للقفطى مصاحب له ، ومع ذلك أغفل ذكره فى ترجمة أبى العلاء (٣٧) حرص ياقوت على جمع الأخبار وتتبعها (٣٨) نقد ياقوت لخبر آخر رواه ابن الهبارية (٣٨) دلالة النقد على أن خبر الراهب غريب منكر لا إسناد له (٤٠) نقد ما فى خبر الراهب بعد مقارنة ما فيه بما فى كتب أبى العلاء (٤١) تصانيف أبى العلاء فى المنظوم (٤٢) خلو « سقط الزند » من شعر يدل عل إلحاد أبى العلاء (٤٣) رأى أبى العلاء نفسه فى « سقط الزند » (٤٣) جهل صاحب الخبر بشعر أبى العلاء (٤٤) دليل قاطع على أن صاحب الخبر غير معاصر لأبى العلاء (٤٤) ما ذكره الطاعنون فى ديانته ، ليس من شعر صباه ، بل من شعره فيما بعد الثلاثين (٤٥) الثعالبى ، أول من ترجم لأبى العلاء ، ومات قبله بعشرين سنة (٤٥) تحليل خبر أبى الحسن المصيصى الذى رأى أبا العلاء فى المعرة ، ووصفه ، ولم يتهمه فى ديانته (٤٦) دلالة خبر المصيصى (٤٦) شيخ المعرة لم يكن مغمورًا ولا متهما فى دينه وهو فى الخامسة والعشرين (٤٧) المؤرخون الثلاثة الأول المعاصرون له ، تدل أخبارهم على بطلان خبر الراهب (٤٨) حاشية : أن « ياقوت الحموى » شأمى ، كان طويل الإقامة بالشأم ، وإن كان بغدادى الدار (٤٩) .

٥١ - بَلْ قَبِيحًا « ٣ »

وصف صاحب خبر الراهب (٥٤) مدارسة خبر الراهب على منهج صحيح (٥٦) أسرة أبى العلاء ونسبه ومنزلتهم (٥٦) قول أبى العلاء إنه فارق العشرين من عمره ، فما حدث نفسه باجتداء علم من عراقى أو شآم (٥٧) شيوخ أبى العلاء فى المعرة ، ونقض دعوى أنه لا يعرف شىء عن تعليمه « الرسمى ! » حتى العشرين (٥٧) دراسة أبى العلاء فى أول عمره

(٥٨) مرثية أبى العلاء لأبيه ، وهو فى الثانية والثلاثين ، ودلالتها على سبب رحلته إلى بغداد (٥٩) رثاء أبى العلاء لأمه ، وهو فى السابعة والثلاثين ، ودلالته على شدة حدبها عليه (٦٠) إحدى رسائل أبى العلاء تدل على سبب رحلته إلى بغداد (٦١) خبر رواه ابن العديم ونقده ، ودلالته على كذب صاحب خبر القفطى (٦٢) بطلان رحلة أبى العلاء إلى طرابلس (٦٣) بطلان خبر الراهب بالدليل العقلى (٦٤) من هو واضع خبر الراهب ؟

٦٩ – بلْ شنِيعًا « ٤ »

شناعة التدليس بالألقاب العلمية (٧١) ما لقى أبو العلاء فى حياته وبعد مماته ، وعبث لويس عوض فى مقالاته وتبجحه بذكر « المنهج » (٧٢) خيانته للأمانة فى النقل (٧٤) الأسباب الداعية إلى الحكم عليه بأن سلوكه ليس سلوك أستاذ جامعى (٧٧) عبث لويس عوض فى الأدب العربى والآداب غير العربية ، ودلالته على أنه لا يستحق حمل « الدكتوراه » (٧٨) طرح لفظ « دكتور » ، لأنه لا يستحقه (٧٩) شهادة لويس عوض على نفسه بأنه وهو فى الثانية والثلاثين من عمره : أن إحساسه باللغة ضعيف بالفطرة ! وأجنبى جدا ! (٨٠) عبثه مع ذلك بكلام العرب ، وتخليطه فى تفسير « وردة كالدهان » (٨١) جريدة الأهرام ومنزلتها عند العرب والمسلمين ، وتركها هذا العبث ينشر فى صحائفها (٨٤) .

٨٧ – لا تنْقَضِى « ٥ »

دمية يحركها أصحابها لأغراض مستورة (٨٩) عودة إلى راهب دير الفاروس ، وتحليل معنى « اجتاز بالمكان » (٩١) معنى « نزل بالمكان » (٩٢) دلالة هذين اللفظين فى خبر القفطى وفى غيره من الأخبار (٩٣) دلالة لفظ « الدير » فى العربية ، ومرور ابن بطوطة بدير الفاروس (٩٤) العهد بيننا وبين أصحاب الأديرة من النصارى (٩٥) شأن الأديرة فى أول

الإسلام (٩٦) لم تكن الأديرة مكانًا للدرس ، بل للنزهة ولأصحاب اللهو والخلاعة (٩٧) وصف ابن بطلان الطبيب النصرانى ، معاصر أبى العلاء ، للاذقية ، ومفاسدها وخبر مطرانها مع الخواطئ (٩٧) دلالة ذلك على بطلان خبر راهب دير الفاروس (٩٨) هل كان إضلال أبى العلاء محتاجًا إلى هذا الراهب ؟ (٩٩) هل يعقل أن أبا العلاء تعلم اليونانية القديمة فى أيام اجتيازه بدير الفاروس ؟ (١٠٠) واضع خبر الراهب سلك مسلك واضع خبر أبى الفضل الذى ضلل المتنبى ، زعموا (١٠١) مسألة الراهب لها شبيه قديم فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠٢) .

١٠٥ – هذه هى القضيّة « ٦ »

لغة العرب لغة ثمانمئة مليون ، ثم حصرها الاستعمار ومزقها (١٠٧) مهمة الصحافة فى توحيد الأمم العربية والإسلامية (١٠٨) التقصير فى هذه المهمة وآثاره (١٠٨) « التذوق » هو لب كل حضارة (١٠٩) واجب الصحافة فى أبواب الأدب والفن والطب واحد (١١٠) أثر المقالات الأدبية الفاسدة فى تكوين الأمة (١١٠) الأسباب التى دعتنى إلى إسقاط صفة لويس عوض ودرجاته العلمية (١١١) ليس له قيمة أدبية ، وما يكتبه ضرب من الداء معد (١١٥) ما هى الإجازات التى نالها وما قيمتها (١١٥) « مجلة الكاتب المصرى » ، يهودية ، وأثر سلامة موسى فى توجيهه (١١٦) حقيقة لويس عوض ، كما كتبها ، وهى قيامه للدعوة إلى العامية (١١٧) علاقته بالتبشير (١١٩) أعده المبشرون ليكون خليفة سلامة موسى ، واستنباط ذلك مما كتبه (١١٩) سلامة موسى ودعوته للعامية أيضًا ، وسوء أدبه (١٢٠) ظاهرة فى جريدة الأهرام ، جاءت مع لويس عوض (١٢٠) قضية اللغة العامية (١٢١) .

١٢٣ – وهذا هو تاريخُها « ٧ »

كتاب « تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية وأثرها فى مصر » ، للدكتورة

نفوسة زكريا (١٢٥) لويس داعية للعامية ، وبعض الأدلة على ذلك (١٢٦) ما كتبه لا يخرج عما كتبه من سبقه من المبشرين (١٢٨) تاريخ الدعوة إلى العامية وأسباب ذلك (١٢٨) سياسة الغزو الأوربى موجهة إلى مصر (١٢٩) رفاعة الطهطاوى أول من كتب بالعربية يدعو إلى شيء من العامية ، وكيف جاء ذلك (١٣٠) حركة إحياء العربية ، وسيطرة القناصل على التعليم فى عهد محمد على (١٣١) فزع التبشير والاستعمار من ذلك ، وبدء حركة مضادة للدعوة إلى العامية (١٣١) سبيتا ودعوته (١٣٢) كل من كتب بعد ذلك ، مثل سلامة موسى ولويس عوض ، يرددون ما قاله (١٣٣) دور المقتطف فى ترديد دعوة سبيتا إلى العامية (١٣٣) كارل فولرس ، ثم ويلككس وتوقيت كلامهما مع حركة الإحياء (١٣٤) استيلاء دنلوب على التعليم (١٣٥) حقيقة نظام دنلوب فى التعليم (١٣٦) ولمور وقضية العامية (١٣٧) المقتطف مرة أخرى يظاهر العامية ، ورأيه فى فرضها على الناس ، وتوقيتها مع الحركة الوطنية والبعث الثقافى (١٣٨) مجلة الهلال وسبب معارضتها لهذه القضية ، ثم إفساح صدرها لدعاة العامية وسلامة موسى (١٣٨) ارتباط الدعوة إلى العامية بالأحداث السياسية الكبرى (١٣٨) .

١٤١ – وهذه هى آثارُهَا « ٨ »

الدعوة إلى العامية ، ليس لها شبيه فى أمة من الأمم – اشتداد هذه الدعوة بعد العدوان الثلاثى (١٤٣) حقيقة لويس عوض عندى (١٤٣) كشف الزيف فى الآثار الأدبية عسير (١٤٥) خطر هذه الدعوة ووسائلها الخبيثة (١٤٧) تاريخ هذه الدعوة (١٤٧) العالم العربى والإسلامى فى عصر النهضة الأوربية (١٤٨) تطويق العالم الإسلامى وغزو أطرافه (١٤٩) أدوات الاستعمار : « التجارة » و « الجيوش » و « التبشير » ، و التبشير أفتك أدوات الاستعمار (١٤٩) « التبشير » لا يراد به دعوة إلى الدين ، بل

هو أعمق من ذلك (١٥٠) « التبشير » مقترن بدعوة الإصلاح فى بلاد العرب والإسلام (١٥٠) الاستيلاء على التعليم ، هو أكبر أهداف التبشير (١٥١) كتاب « تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر » ، للأستاذ جرجس سلامة (١٥٢) صلة التبشير بالدعوة إلى العامية (١٥٣) ترجمة كتب العلم الأوربى إلى العربية فى عهد محمد على ، وأثر القناصل فى حبس هذه الكتب عن الناس (١٥٣) النهضة العربية بعد محمد على ، ثم الاحتلال الإنجليزى (١٨٩) بدء تأسيس الجمعيات الكبرى للتبشير فى مصر وسورية بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٨٢ (١٥٥) ظهور كتاب سبيتا سنة ١٨٨٠ (١٥٥) إنشاء « الكلية السورية الإنجيلية » وهى « الجامعة الأمريكية » « ببيروت سنة ١٨٦٥ (١٥٥) العلاقة بين كتاب سبيتا ومقالة المقتطف سنة ١٨٨١ (١٥٥) طبع نسختين مختلفتين من عدد واحد من أعداد المقتطف ، وهو أمر عجيب ! (١٥٦) تتمة فى علاقة التبشير بالدعوة للعامية وبالحركات السياسية (١٥٧) زويمر المبشر يعقد مؤتمرًا للتبشير سنة ١٩٠٦ فى بيت أحمد عرابى (١٥٨) .

١٥٩ - وهذه هى أخْبَارُها « ٩ »

كلمة الدكتور محمد مندور فى مجلة « روز اليوسف » ردًا على ما كتبت (١٦١) الاستهانة بالألفاظ الجارية على اللسان (١٦٢) مندور لم يقرأ ما كتبت (١٦٢) لابد للناقد من الإحاطة بما يكتب فيه (١٦٤) ادعاء مندور أن أبا العلاء متهم اتهامًا أكيدًا بالإلحاد والزندقة ! (١٦٤) دراسة معنى الألفاظ الأربعة : « الخطيئة » و « الخلاص » و « الفداء » و « الصلب » (١٦٦) هل يصح أن تكون جميع الديانات السماوية جزءا من تراثنا الروحى ؟ (١٦٧) معانى هذه الألفاظ الأربعة عند النصارى ، واستحالة أن يعتقدها مسلم (١٦٩) استخدام الشعراء لهذه الألفاظ الأربعة التى هى أس العقيدة المسيحية (١٧٢) المغالطات فى تسمية هذه الأربعة

« رموزًا » (١٧٣) صبيان المبشرين هم الذين روجوا هذه الألفاظ (١٧٥) تعريف « إليوت » للثقافة ، والخلط بين مذهبه وبين الشعر العربى الذى يحمل هذه الألفاظ (١٧٥) .

١٧٧ – وهذه هىَ أخْطَارُها « ١٠ »

شيوع هذه الألفاظ النصرانية الأربعة ، والدعوة إلى العامية ، قضية واحدة (١٧٩) « الاستطراد » ، فى كتب الجاحظ والمبرد (١٨٠) تطويق العالم الإسلامى والعربى ، وكتاب المؤرخ توينبى : « العالم والغرب » (١٨١) آفة العالم الأوربى أنه لا يرى فى الدنيا سوى نفسه (١٨٤) تحليل توينبى لموقف تركيا من الحضارة الغربية (١٨٤) داء الحضارة الغربية : التفرقة بين الأجناس ، لذلك عد توينبى الترك بمعزل عن « القومية العربية » (١٨٦) العرب وغير العرب من المسلمين أمة واحد (١٨٦) لماذا لم تتحول تركيا والهند والفرس إلى العربية ؟ (١٨٧) جريمة مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨) تركيا لم تكسب شيئًا بعمل مصطفى كمال (١٨٨) توينبى يرى أن تقسيم العالم إلى عشرين دولة مستقلة داع إلى الأسف (١٨٩) تنبه توينبى إلى أن « اللغة الفصحى » هى رابطة الأمة العربية والإسلامية (١٨٩) خطأ توينبى وغيره فى عد « اللغة الفصحى » لغة دينية (١٩٠) صورة « لغة القرآن » و « لغة الحديث » عند العرب والمسلمين جميعًا (١٩٠) السبب فى غموض هذه الصورة ، عند أهل الكتاب (١٩١) شبهة « اللغة الدينية » وكيف جاءت ؟ (١٩٢) « القرآن » و « الحديث » هما أول فاتحين فتحا بلاد الإسلام (١٩٣) إعادة فتح بلاد الإسلام ممكن حتى تصبح العربية هى لسان جميع الأمم الإسلامية (١٩٣) هل كان يخطر لإنجليزى واحد فى القرن السابع عشر أن تصبح الإنجليزية لغة عالمية (١٩٣) معركة الدعوة إلى العامية ، لا يمكن أن تعد معركة أدبية مجردة من العوامل السياسية والدينية (١٩٤) .

١٩٥ - وأيضًا « ١١ »

نكبة الخلق الصحفى اليوم (١٩٧) مجلة « روز اليوسف » تهدر الأدب الصحفى (١٩٨) قضية العامية ليست قضية مفردة ، بل هى قضية متشعبة الجذور ، وتشعبها هو الذى خطط لى منهج هذه المقالات (٢٠٠) توهم أن التبشير دعوة دينية ، وهم باطل (٢٠١) أهم وسائل الاستعمار والتبشير ، هو الاستيلاء على الصحافة وعلى التعليم (٢٠١) أقوال المبشرين فى ضرورة الاستيلاء على الصحافة والتعليم (٢٠٢) ماسنيون المبشر المستعمر ورأيه فى تلوين الطلاب الشرقيين بالمدنية المسيحية (٢٠٣) خطة المبشرين فى الاستيلاء على الصحافة ، ولا سيما فى مصر : للتعبير عن الآراء المسيحية (٢٠٣) أثر التبشير فى تحطيم النفس العربية المسلمة (٢٠٤) محاربة اللغة العربية هو أول عمل من أعمال التبشير والاستعمار (٢٠٤) نظام دنلوب فى مدارسنا وهدفه (٢٠٤) مخرج الدعوة إلى العامية يدل على أنها دعوة استعمارية يراد بها مقاومة حركة الإحياء الأدبى والسياسى (٢٠٥) دور المسرح فى قضية العامية ، تولاها أمثال اليهودى « يعقوب صنوع » (٢٠٦) عمل الدعاة الاستعماريين فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، كمدرسة الحقوق (٢٠٦) عود إلى ويلككس وإلى تغليب لغة الغزاة المبشرين على لغة البلاد (٢٠٦) الحياة السياسية بعد الاحتلال سنة ١٨٨٢ ، ونشأة دعوة « مصر للمصريين » معارضة لدعوة مصطفى كامل (٢٠٧) أحمد لطفى السيد من هو ؟ وكيف تولى دعوة « مصر للمصريين » مع علمه أنها دعوة استعمارية (٢٠٨) قيام أحمد لطفى السيد بالدعوة إلى العامية فى سنة ١٩١٣ ، وقد ناقض نفسه مناقضة غريبة ، لأنه كتب فى سنة ١٩٠٩ دفاعًا شديدًا عن العربية الفصحى خدمة للقرآن ! (٢٠٨) من العجب أن تأتى دعوة لطفى السيد مقارنة للقلق العالمى الذى أفضى إلى الحرب العالمية الأولى (٢١١) .

٢١٣ – وما أدْراكَ مَا هِيَهْ ؟ « ١٢ »

« الاستعمار » و « التبشير » و « الاستشراق » ثلاثة أسماء لحقيقة واحدة (٢١٥) ما كتبه صبى المبشرين عن أبى العلاء ، تم على أسس تبشيرية متنكرة فى ثياب دراسة أدبية (٢١٥) أسلوب لويس عوض فى اختيار مسلم يعبر عن رأيه ، كما قال ذلك سنة ١٩٤٧ (٢١٦) نشر مقالات لبث المعلومات التاريخية أو الأدبية ، متضمنة عقائد العالم المسيحى (٢١٧) حيلة المبشرين فى توزيع كتب صغيرة فيها شىء من عقائد المسيحية (٢١٧) « دائرة المعارف » فى الأهرام – واختيارى أن تسمى « دائرة المعارف » : « الجمهرة » (٢١٨) اتخاذ صحيفة الأهرام لنشر هذه العقائد (٢١٩) محمد خلف الله أحمد ، يكتب عن « يعقوب عليه السلام » ، كما يراه أهل الكتاب ، لا كما يراه أهل القرآن (٢٢٠) مشابهة ما كتب لمنشورات فى الأزقة والحارات (٢٢١) تخليط هذا الكاتب ، فى معنى « الكاهن و« النبى » (٢٢٢) فرق ما بيننا وبينهم فى أمر « يعقوب » (٢٢٤) النقل عن أهل الكتاب ، وضوابط هذا النقل فى دين الإسلام (٢٢٧) .

٢٢٩ – نارٌ حَامِيةٌ « ١٣ »

التخليط فى سير الأنبياء كيعقوب (٢٣١) تخليط كتخليط لويس عوض ، لرجل يشبهه ، هو الدكتور زاهر رياض فى كتابه « الإسلام فى إثيوبيا » فى العصور الوسطى ، مع الاهتمام بعلاقة المسلمين والمسيحين (٢٣٢) بطلان دعوى من يقول إن قريشًا أنكرت دعوة رسول الله ﷺ ، مخافة أن يقوض سلطانهم ويحول بينهم وبين لذاتهم (٢٣٢) تحريم الخمر والميسر ، لم ينزل إلا بعد الهجرة إلى المدينة (٢٣٣) تاريخ دعوة رسول الله قومه من قريش (٢٣٣) خروجه لعرض نفسه على القبائل لم يكن إلا بعد سنة عشر من البعثة (٢٣٤) قيمة ما يكتبه المستشرقون فى

٢٥٣ – أَمْ علَى قُلوبٍ أَقْفَالُهَا « ١٤ »

ثرثرة أحلاس المقاهى المظلمة من « المثقفين » ! (٢٥٥) صعوبة فهم غير المسلمين لمعنى كلمة « دين » عند المسلمين (٢٥٦) دوران لويس عوض على الآذان بأنى أردت « التجريح الشخص » و « التعصب » ، وبعث « فتنة دينية » كما قال مندور أيضا (٢٥٧) أهو « تجريح شخصى » أن أبين أخطاءه وجهالته فى العربية (٢٥٩) « التعصب » و « الفتنة الدينية » ، هو عمل لويس عوض (٢٦٠) أصعب شيء تحليل السخف ورده إلى منابعه (٢٦٢) أثره فى صحيفة الأهرام (٢٦٢) مؤسسات التبشير جهاز « واحد » (٢٦٣) عمل « الاستعمار » و « التبشير » بعد عدوان سنة ١٩٥٦ (٢٦٣) من تاريخ التبشير وعمله فى إقناع الناس ، بأن نهضة العرب عالة على « نصارى لبنان » (٢٦٤) كتاب مهندس آثار ، يدعى أن الأقباط حافظوا على تقاليدهم رغم وقوعهم تحت الحكم الإسلامى ثلاثة عشر قرنًا ! (٢٦٥) عامة القبط لا يبالون بما يكتبه هؤلاء المثقفون (٢٦٥) .

٢٦٧ – وأقولُ نَعَمْ ! « ١٥ »

بشارة تقلا ، يبصق فى وجه عرابى وهو مسجون (٢٦٩) لويس عوض يقتدى بتقلا (٢٦٩) طرائف مما ينشره المستشار فى الأهرام (٢٧٠) مقالاته عن بدر شاكر السياب وما فيها من الألفاظ والمعانى المكررة (٢٧١) استهزاؤه بنهج البردة لشوقى ! (٢٧٢) استهزاؤه بشعر أبى تمام الذى قاله فى فتح عمورية فى بلاد الروم ، وتكراره لما قاله التالف سلامة موسى (٢٧٣) أخطاؤه فى فهم شعر السياب (٢٧٤) ما فيها من محاولة تحقير قضايا العالم العربى (٢٧٥) .

٢٧٧ – كَاد النَّعامُ يَطِيرُ ! « ١٦ »

« مسرحية الورطة » لتوفيق الحكيم (٢٨١) مقدمتها فى البحث عن حل « لمشكلة اللغة المناسبة للتمثيلية العصرية » (٢٨١) دعوى أن العربية صائرة إلى الزوال لأن الناس لا يتكلمونها (٢٨١) أدلته على أن العامية ، هى الفصحى نفسها مع بعض الرخص (٢٨٢) رأيه هو نفس ما قاله المبشرون ، وما قاله أحمد لطفى السيد منذ خمسين سنة! (٢٨٢) بعض أدلته على جواز إلغاء الإعراب ، وتحفة من التحف فى استدلاله بكلام لابن الأثير (٢٨٤) استدلاله بالقراءات السبع فى القرآن (٢٨٧) المسرح الأوربى لا يلتزم بالفصحى !! (٢٨٨) .

٢٩١ – أما بَعْدُ « ١٧ »

وصف شعر جذيمة الأبرش الملك (٢٩٣) وشعر سلمى بن ربيعة الضبى (٢٩٤) مقالة محيى الدين محمد فى مجلة العلوم ، مظاهرة للويس عوض (٢٩٥) مقالته هى ما قاله محمد مندور (٢٩٨) وهو ومندور لم يقرآ مقالاتى فى الرسالة (٢٩٩) لويس عوض لم يستح من نشر جهله بشعر أبى العلاء ، ولا من عبثه فى تفسير آية من القرآن ، ولا من تخليطه فى شعر السياب (٣٠٠) وصف عمل لويس عوض (٣٠٢) .

شرح أبيات جذيمة الأبرش (٣٠٥) شرح أبيات سلمى بن ربيعة (٣٠٨) .

٣١١ – أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا « ١٨ »

كلمة فى تأبين محمد مندور ، وأول لقائنا فى الجامعة (٣١٣) مقالة « ماهر سامى يوسف » فى رده على الحمزة دعبس المطالب بإعادة حكم الله فى قطع يد السارق (٣١٧) ادعاء الكاتب أن القوانين ليست من وضع المستعمرين ، وإنما جاءت نتيجة « التطور » (٣١٩) ادعاؤه أن التشريع الجنائى أصبح يميل إلى استبعاد عنصر القسوة فى العقوبات (٣١٩) قوله

إن الحكم بقطع يد السارق كان معروفًا فى قانون الألواح ، وقانون أهل بابل وآشور ، وأنها قوانين وحشية (٣٢١) مقالة فى الأهرام فى باب « دائرة المعارف » عن « الضريبة فى العصور الوسطى » (٣٢٢) مقاصد كاتب هذه المقالة (٣٢٥) « دائرة المعارف » أو « الجمهرة » ، واتخاذها لبث السموم (٣٢٦) اتخاذ الصحافة للطعن الصريح فى الإسلام (٣٢٧) .

٣٣١ – بابُ الفَحْصِ عن أمْرِ دِمْنَة « ١٩ »

قصة كليلة ودمنة ، مثل دائر فى الناس (٣٣٣) المبشر الثقافى فى جريدة الأهرام (٣٣٤) الخلط بين « الموضوعية » و « السب » ، شرح « التبشير » شرح موضوعى ، واستخراج طبائع المبشر موضوعى أيضًا (٣٣٥) « الشرلتان » صفة دالة على لويس عوض (٣٣٦) معنى « الشرلتان » فى لغة الأعاجم (٣٣٧) مقالة لويس عوض عن محمد مندور ، وما فيها من « الشرلتة » (٣٣٧) « دكتوراه الجامعة » فى فرنسا و« دكتوراه الدولة » والفرق بينهما ، وتخليط لويس فى هذا الفرق (٣٣٨) تشبيهه مندورًا بأخيل طروادة ، وتشبيهه نفسه بأجاكس بن تلامون (٣٣٩) صورة « أجاكس » فى شعر هوميروس (٣٤٠) « طروادة الحديثة » التى جاء ليدمرها هو ومندور ، يعنى بها « ديار الإسلام » ! (٣٤١) كلمة زويمر المبشر فى بيت عرابى (٣٤١) تأليب لويس عوض بعض من يلوذ به على حمل السلاح ! (٣٤٢) ماذا أراد بقوله فى مقالته « الملك ميداس » (٣٤٢) « طروادة الحديثة » كما فسرها لويس ، وأنها هى « الرجعية » (٣٤٣) ما هو « الرمز » فى الآداب (٣٤٣) نشأة لويس وتاريخ مولده إلى أن دخل المجلة اليهودية « الكاتب المصرى » (٣٤٤) معارك أجاكس عوض التى خاضها !! وكيف كان ذلك ! (٣٤٥) ما الذى يحمله على الادعاء والتنفخ ؟ (٣٤٦) « الرمز » جبن لغوى (٣٤٦) شجاعة لغة العرب ، وبطلان من ادعى أن « الرمز » مثل « الكناية » و « المجاز » (٣٤٦) .

٣٤٩ - تتِمَّةُ الفَحْص عن أمْر دِمْنَةَ « ٢٠ »

وصف الحوادث العظام التى كانت تحيط بنا فى يونية ١٩٦٥ ، وغفلة قادة الرأى يومئذ عن النذر المتتابعة (٣٥١) أربعين سنة كنت أرانا فيها قطيعًا يساق إلى المجزرة (٣٥٢) « دنلوب » وجيل « المثقفين » الذين نشأوا فى ظل نظام التعليم (٣٥٢) الصراع بين « مثقفى دنلوب » وفطرة الشعب ، صراع بين أرض العرب والإسلام ، وبين أوربة المسيحية وتعليمها (٣٥٢) عمل « دنلوب » أو « التبشير » و « الاستعمار » ، هو أن يحوز المتعلمين إلى صفه عن طريق « الثقافة » ، وأن يشق الأمة بشقين ، وصفة كل فريق منهما (٣٥٣) لم يكن يومئذ همى أن أناقش القمامة التى جمعها لويس عوض من كتب الأوربيين فى « الحروب الصليبية » (٣٥٣) ما فى مقالته الرابعة عن أبى العلاء فى ذكر « الباسيل فوكاس » ، واستهزاؤه بالعالم الإسلامى (٣٥٥) وضع « أجاكس عوض » فى موضعه فى الحرب الصليبية التى تدور فى بلادنا (٣٥٥) تحليل رموزه فى تأبين مندور : « أجاكس بن تلامون » ، كما يدل عليه شعر هوميروس (٣٥٦) مختصر تاريخ « أجاكس عوض » إلى أن كان فى المجلة اليهودية « الكاتب المصرى » (٣٥٧) « طروادة الجديدة » هى مصر العربية الإسلامية فما بعد سنة ١٩٥٢ (٣٥٩) « أجاكس عوض » صورة أخرى للمبشرين فى ثيابهم المختلفة (٣٥٩) ما قاله فى تأبين مندور ، يدل على علمه بتآمر الأمم الغربية المسيحية علينا سنة ١٩٦٥ وما بعدها (٣٦٠) رمز الملك « ميداس » ، وخبره عند اليونان (٣٦١) تحليل « الرمز » يكشف عن خبايا نفس « الرامز » (٣٦٢) الأحقاد الكامنة فى نفسه تظهر فى رمزه وفى كلامه قديما وحديثا (٣٦٣) خلاصة ما يكتبه أجاكس عوض (٣٦٤) .

٣٦٧ - عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَاقِشُ « ٢١ »

قصة « براقش » (٣٦٩) براقش الأولى هى لويس عوض (٣٦٩)

كهوف التبشير التى يلجأ إليها صبيان المبشرين (٣٧٠) صفة السفهاء الذين يعملون لأهداف التبشير والاستعمار (٣٧٠) العالم العربى والإسلامى كان فى سنة ١٩٦٥ هدفًا يرمى ، وفى هذا الوقت كتب لويس عوض وغيره ما كتبوا (٣٧١) تكاذيب لويس عوض وخيالاته ورموزه (٣٧١) مقالة للويس عوض منع من نشرها ، وأخذه تجربتها من الأهرام ليعرضها على الناس (٣٧٣) كانت تتضمن حادثة قديمة : أراد أحد كبار المسيحيين أن يسلم حتى يتمكن من طلاق امرأته ، وتورط مندور ، فكتب يومئذ وطالب بوضع تشريع شامل للأحوال الشخصية ، لا مكان فيه للدين ، أى الإسلام (٣٧٤) كتاب زاهر رياض عن الحبشة ، الذى سلف تحليله فى المقالة الثالثة عشر (٣٧٥) صبى آخر للمبشرين هو « ماهر سامى يوسف » المذكور فى المقالة الثامنة عشر (٣٧٦) صبى آخر يقال له « سامى داود » يهتبل موت محمد مندور ، يذكر حادثة كانت فى الجامعة سنة ١٩٣٩ (٣٧٦) دعواه أنها كانت حركة من حركات « الرجعية » (٣٧٦) خبر هذه الحادثة ، وأنها جاءت من كتابين كانا يدرسان فى الجامعة ، كلاهما فيه سب لرسول الله ﷺ ، أحدهما هو « جان درك » لبرنارد شو (٣٧٧) والآخر « محاورات فى الخبال » « لوالتر سافيج لاندور » فيه فصل عن « محمد وسرجيوس » (٣٧٨) وفصل آخر من الكتاب نفسه فيه سب مقذع (٣٧٩) الذى فرض هذين الكتابين هو « كرستوفر سكيف » الجاسوس المبشر ، ومنشئ « جماعة إخوان الحرية » ، وأستاذ لويس عوض وسامى داود (٣٨٠) سكيف ، وفرنس ، ودافيس الأعرج ، وبيفن فى الجامعة (٣٧٨) تجاهل سامى داود ، كل هذا التاريخ القديم (٣٨١) بعد مقالة سامى داود ، نشر أسعد حليم كلمة أيضًا فى تنزيه « كتشنر » . وفضله على مصر والسودان ! (٣٨١) أيام سياسية عصيبة سنة ١٩٦٥ ينشر فيها هذا العبث المتلاحق (٣٨٢) الرباط الذى يجمع هؤلاء (٣٨٢) .

٣٨٥ - لَيْس الطريقُ هُنالِك « ٢٢ »

الأمانة التى يحملها الكاتب (٣٨٧) نهج هذه المقالات (٣٨٧) « الكتابة » مادة تتضمن شيئين : هدف الكاتب ، وصورة الكاتب عند القارئ والناقد (٣٨٨) كلام الناقد فى « المادة » و « الصورة » ، كلام « موضوعى » (٣٨٨) تحليل الناقد للمادة مفض إلى تكوين « الصورة » (٣٨٨) عسر تحليل « الصورة » وإعادة تكوين معارفها (٣٨٨) ما يلقى الناقد من الاستنكار أو الإعجاب فى تكوين « صورة » لكاتب ميت ولكاتب حى (٣٨٩) تكوين « صورة » لكاتب حى ، ربما أدى إلى أن يرمى بأنه « غير موضوعى » (٣٩٠) الضابط الذى يجعل تحليل « الصورة » وإعادة تكوينها « موضوعيا » أو « شخصيًا » (٣٩٠) وصف الناقد « صورة الكاتب » ، ضرورة ، ولكنه قد يؤدى إلى أن يقال إن نقده « شخصى » ، لا « موضوعى » (٣٩١) الحكم على الناقد بأنه « غير موضوعى » مردود إلى انتماء الكاتب إلى عصابة معينة (٣٩٢) علاج الناقد المنصف « صورة الكاتب » موضوعى - لا شخصى ولا ذاتى ، وليس تجريحًا ، إذا اعتمد على تحليل الكلام والأهداف (٣٩٢) كان اعتمادى فى شأن لويس عوض على تحليل ما كتب ، وتكوين « صورة » جامعة (٣٩٣) وصف الصديق القديم « الأستاذ محمد عودة » وما كتب عن « القوس العذراء » (٣٩٤) الأستاذ عودة ، يقول إنى أهاجم « الثقافة الغربية » ، لأنى أتوهم أنها كتابات المبشرين المعادين للإسلام والعرب ، لا غير - وأنى « ساجلت » لويس عوض ، فانقلب الأمر إلى « مهاجمة » (٣٩٥) أنا عدو للثقافة الغربية ، وبيان حقيقة ذلك (٣٩٥) مفهوم « الثقافة » فيه خلط كثير ، وبيان ذلك (٣٩٦) « الثقافة الغربية » نابتة فى بيئة وثنية مسيحية (٣٩٧) الإسلام جاء يعلم « العقل » أولا (٣٩٧) معنى « المساجلة » فى اللغة - وقول عودة أنها « مساجلة » انقلبت « مهاجمة » وضع للألفاظ فى غير مواضعها (٣٩٨) هدفى هو الدفاع عن كيان أمة برمتها ، وأن الثقافة الغربية الوثنية المسيحية تريد أن تكون لها الغلبة على

محدودة المعانى حدا قاطعًا (٤٠٩) « اللغة » أداة التفكير والبيان ، قضية غامضة غير مطابقة للواقع (٤٠٩) خطر « الألفاظ » وما يقع من « الاختلاف » فى تفسير الألفاظ والجمل المركبة (٤١٠) محنة البيان وقدرة الإنسان على اجتيازها (٤١١) نشأة « المجاز » فى اللغات ، ونشأة كل اختلاف فى اللغة وفى الفهم وفى التفكير (٤١١) افتراق أهل الملل راجع إلى القصور عن بلوغ كنه الألفاظ (٤١٢) الألفاظ التى تعرضت للبيان عنها فى مقالاتى (٤١٢) من هذه الألفاظ لفظ « الدين » ، وما يقوله « إليوت » من أن ثقافة الشعب تجسيد لدين الشعب ، والفرق بين لفظ « دين » عند أهل الإسلام ، وعند غيرهم (٤١٣) لفظ « الدين » له فى الأذهان « صورة » جامعة (٤١٣) البيان عن لفظ « الدين » فى لغة العرب فى الجاهلية واختلاف معانيها (٤١٣) لفظ « الدين » ومعانيه المختلفة فى القرآن العظيم (٤١٤) لفظ « الدين » عند المسلمين لفظ « جامع » يدل على ما هدى الله إليه بالقرآن ، وما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة (٤١٥) انقسام ما نزل به القرآن وبينته السنة إلى أربعة أقضية : « قضاء الشريعة » ، و« قضاء الآداب » ، و« قضاء العبادة » ثم « قضاء أصول والنظر والاستدلال » (٤١٦) « قضاء أصول النظر » قريب الشبه مما نسميه « علم المنطق » (٤١٧) من « قضاء أصول النظر » نشأ اختلاف « أهل القياس » و « أهل الظاهر » (٤١٨) تأويل الألفاظ ، وإبطال معانى بعض الألفاظ داء قديم ، ولكنه أكثر تفشيًا فى زماننا (٤١٨) استخدام لفظ « الدين » للدلالة على بعض ما يأباه الإسلام ، وشيوعه بالمعنى الذى يفهمه به أهل الكتابين ، اليهود والنصارى (٤١٨) وجوب إظهار الفرق بين معنى « الدين » عنه أهل الكتابين ، ومعناه عند أهل الإسلام (٤١٩) .

٤٢١ – ثُمَّتَ ... ليس الطَّرِيقُ هُنالِكِ « ٢٤ »

ما يجده الكاتب عندما يتهيأ للكتابة ، ثم عندما يحمل القلم للكتابة

(٤٢٣) صفة صاحب من أصحابى هو الحسانى عبد الله وأثره فى كتابة هذه المقالة (٤٢٤) معنى « الدين » عند أهل زماننا (٤٢٥) معنى « الدين » عند أهل كل ملة معنى مركب (٤٢٥) من ادعى أن معنى « الدين » واحد فى مفهوم كل ملة ، فقد أبطل (٤٢٦) هل يصح عند المسلمين أن يسموا ما عليه أهل كل ملة « دينًا » ، سؤال يجاب عنه بوضوح (٤٢٦) المراحل التى مر بها لفظ « الدين » فى اللغة ، قبل أن ينتهى إلى معنى العبادة ثم إلى « المعنى المركب » ، الذى يطلقه أصحاب الملل على مللهم (٤٢٦) معانى لفظ « الدين » فى اللغة ، وانتهاؤه إلى معنى الخضوع لمعبود معظم (٤٢٧) الخضوع للمعبود محتاج إلى رسوم من العبادات والتكاليف والعقائد (٤٢٨) المعنى المركب للفظ « الدين » عند أهل كل ملة مخالف لمعناه عند أهل الملل الأخرى (٤٢٨) « الخضوع والتعبد » نسبة إلى شيء ، يتغير مفهومه بتغير المنسوب إليه (٤٣٠) مدارسة لفظ « الدين » فى القرآن ، وبعثة رسول الله على حين فترة من الرسل ، وما كان عليه أصحاب الملل يومئذ (٤٣٠) كانت العرب يومئذ على إرث مبدل من الحنيفية ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام (٤٣١) تسعة معان للفظ « الدين » فى القرآن العظيم ، مع ذكر مواضعها من القرآن (٤٣١) لفظ « الدين » فى القرآن لا يحمل غير هذه المعانى التسعة ، وأنه لم يسم « الإسلام » نفسه دينًا فى القرآن الذى نزل بمكة ، ترك الله تسميته « دينا » بالمعنى الجامع (٤٣٥) لم يسم الله تعالى شيئًا مما عليه أهل الملل « دينا » بل سماه « ملة » ، حتى ما كان عليه إبراهيم عليه السلام (٤٣٦) القرآن الذى نزل بالمدينة ، وما نزل فيه من لفظ « الدين » ، بمعنى الحساب ، وبمعنى الطاعة والخضوع وإفراد الله بالألوهة (٤٣٧) القرآن الذى نزل بالمدينة ، ولفظ « الدين » فيه (٤٣٨) ليس لنا أن نسمى شيئًا من الملل « دينا » سوى ملة إبراهيم ، وهى الإسلام (٤٤٠) وجوب تصحيح الأصول التى ننظر بها إلى ما حولنا (٤٤١) .

٤٤٣ - ضَفَادِعُ فى ظَلْماء لَيْلٍ « ٢٥ »

« الضفادع » لأرسطوفان - فترة من عمرى فى التعليم تحت سلطان المستعمرين (٤٤٥) صوت جرس المدرسة وما فيه من الأذى للنشء (٤٤٦) درس اللغة الإنجليزية أول درس على الريق ، وأثره فى طفولتى (٤٤٦) كيف وقعت على أنغام الشعر العربى فى أغوار نفسى (٤٤٧) مكر دنلوب فى جعل الدرس الأول للغة الإنجليزية ، وأثره فى طفولتنا (٤٤٧) المدارس الثانوية ، ثم الجامعة ، وتمزق النفس بين فطرتى ونظام دنلوب (٤٤٧) كتاب « سيبويه » يدل على أن « اللغة » هى الوجه الآخر للرياضيات العليا (٤٤٨) محنتى بالمستعمرين والمبشرين يومئذ جعلتنى عدوا للغزاة اللئام الفجرة (٤٤٨) نظام دنلوب لم يكن يراد به « تخريج موظفين » ، كما يقول أكثر الناس ، بل هو نظام لتضليل أمة عن طريقها وتدمير نفوسها (٤٤٨) هدف دنلوب أن يجعل الإنجليزية هى صاحبة السيادة على لغة القرآن (٤٤٩) الحضارة ، والثقافة ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة ، كلها عالة على « الكلمة » فى جميع الأمم (٤٤٩) العبث بالكلمة ، عبث بأعظم النعم ، وهى نعمة « البيان » (٤٥٠) « الكلمة » هى كل ما حرص الإنسان على تجويده (٤٥٠) لويس عوض وعبثه بكلام العرب واليونان والإنجليز (٤٥١) ترجمته « الضفادع » لأرسطوفان عبث ، والعصابة التى تنعتها بأنها « معجزة اللغة العربية » !! (٤٥١) سبب كتابتى لهذه المقالة ، أن أرسطوفان يونانى ينتسب إلى « الكلمة » و « البيان » (٤٥٢) تراجم أرسطوفان فى الإنجليزية (٤٥٢) ترجمة لويس مسخ لضفادع أرسطوفان (٤٥٣) فاتحة مسرحية أرسطوفان بترجمة لويس عوض (٤٥٣) نكبة أرسطوفان بهذه الترجمة - رثاء لأرسطوفان (٤٥٦) التعالم فى أول أسطر المشهد الأول ، وأن لويس عوض لم يفهم مراد أرسطوفان بكلماته (٤٥٧) حوار أرسطوفان فى الترجمة ، وحقائق ما أراد أرسطوفان ، لم يفهمها هذا الماسخ لمسرحيته ، بل عبث بها كما خيلت له سماديره (٤٥٨) أخطاء فى الترجمة دالة على فساد التصور والجهل بآداب اليونان